Mngool.com

جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث

د. نبيل عبد الحي رضوان

كتاب جهود العثمانيين

٩٥٣
ر ن ج
رضوان ، د . نبيل عبد الحي

جهود العثمانيـين لإنقاذ الأندلس واسترداده
مكتبة الطالب الجامعي
مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية
الطبعة الأولى
١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

٢٤ سم ـ ص
١ ـ التاريخ الإسلامي .
٢ ـ الدولة العثمانية .
٣ ـ الأندلس .
٤ ـ العنوان .

المقدمة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ، وبعد :

جعلت الدولة العثمانية الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ، الركيزة الكبرى لوجودها ، والمنطلق الأول في بناء إمارتهم ودولتهم ، فأقاموا دولتهم على الدعامات التشريعية الإسلامية وعاشوا ضمن النظم الإجتماعية الإسلامية ، واقتبسوا نظم الحضارة الإسلامية . فهم بذلك قدموا خدمة كبرى للإسلام ، وبذلوا ما في وسعهم لنشر لوائه وأستطاعوا أن يدافعوا عن المسلمين وعقيدتهم مدة تجاوزت أربعة قرون ، ويعتبر ذلك فترة زمنية ليست بالقصيرة مقارنة بالدول الإسلامية السابقة .

ومع تلك الصفحة المجيدة للدولة العثمانية ، وصف كثرة من مؤرخي التاريخ الحديث ، تاريخ الدولة بصفات لا تليق بتلك الأعمال التي قدمها السلاطين على مدى السنوات الطويلة ، كما وصفوها بأنها كانت من وراء التدهور الذي أحاط بالعالم الإسلامي مندفعين في كتاباتهم بدوافع شتى تأصلت جذورها في عصور الاستعمار ، مما جعل كتاباتهم تبتعد كل البعد عن الحقيقة .

لقد آن الأوان لإعادة تقويم وكتابة التاريخ العثماني على الوجه الصحيح ، وعلى المؤرخ أن يدخل ميدان الدراسة العلمية التاريخية العميقة وهو خالي الذهن من أية أفكار مسبقة ، وأن يمعن في دراسته تحقيقاً ودرساً وتنقيباً وتعديلاً ، وذلك للوصول إلى الحقيقة ووضع الأمور في نصابها الصحيح ، وقد قام بتوجيه هذه الدعوة عدد من الباحثين والمهتمين بالدراسات العثمانية[1] .

من هذا المنطلق كان اختياري لموضوع الكتاب « جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واسترداده في القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي » فبالإضافة لكون الموضوع حديثاً في فكرته وجديداً في اضافته ، فقد كان أيضاً تصحيحاً لأفكار عديدة سبق وأن وضعها بعض المؤرخين ، ورددها من أتى بعدهم من دارسين ، وبذلك جاءت الرسالة في حد ذاتها تأريخ وتصحيح .

قسمت الكتاب إلى ستة فصول وخاتمة ، وسبق ذلك التعريف بطبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد ، ثم إتجاه الفتح لأوروبا ومحاولة اختراقها من شرقها إلى أقصى جنوبها الغربي ، ثم جاء الفصل الأول بعنوان « شبه جزيرة أيبريا في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، تناولت فيه كيف نشأت الدولة الحديثة في البرتغال وأسبانيا ، ثم قيام دولة اسبانيا الموحدة ، ثم انتقلت بالحديث إلى ما سمي بحروب الاسترداد المسيحية ، ثم تعرضت لسقوط غرناطة ٨٩٢ هـ / ١٤٩٢ م .

وفي الفصل الثاني أوضحنا كيف كانت الدولة العثمانية في مفترق الطرق ، وفي البداية تحدثت عن أهمية التقدم شمالي الدانوب ، والدوران حول البحر الأسود ، ثم أوضحت عوائق الزحف العثماني في وسط أوروبا ، في وقت توالى فيه استنجاد غرناطة بالدولة العثمانية ، كما تعرضت بالحديث عن وصول البرتغاليين

(١) ليلى صباغ : نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الأولى من الحكم العثماني ، مجلة أوراق ، عدد (٣) ، ١٩٨٠ م ، أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، المقدمة .

إلى المحيط الهندي وتهديد الحدود الجنوبية للعالم الإسلامي لأول مرة في التاريخ ، ثم تحول التجارة العالمية عن طريق رأس الرجاء الصالح .

أما الفصل الثالث فقد خصص للكلام عن شارل الخامس والأمبراطورية الرومانية المقدسة ، والاستعمار الأسباني في أميركا الوسطى الجنوبية وأثر تدفق الفضة على اسبانيا في حروبها ضد المسلمين ، وكيف أدى ذلك إلى ضراوة تلك الحروب ، إلا أن ظهور البروتستانتية في شمال أوروبا أثرت في نشاط شارل الخامس مما أدى إلى نشاط الكاثوليكية كحركة مضادة للبروتستانتية ، وظهور الروح الصليبية ، ثم نالت أهداف شارل الخامس الصليبية في الحوض الغربي للبحر المتوسط والجيوب الصليبية على الساحل الأفريقي العربي الشمالي قسطاً وافراً .

ثم انتقلنا بعد ذلك للجهاد البحري الاسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط وصدى حروب الاسترداد في العالم الإسلامي ، وكيف كانت الروح الجهادية سائدة فيه ، ونتيجة لذلك فقد رأت الدولة العثمانية أن تقيم نظام بيلربك في الجزائر ، لتضمن مواصلة الجهاد في الحوض الغربي للبحر المتوسط لتصل منه للأندلس ، إلا أن الحفصيين في تونس ، وبني زيان في الجزائر والسعديين في مراكش ، كان لهم دور بارز في إعاقة تقدم الدولة لاسترداد الأندلس .

لم يعبأ العثمانيون بتلك العوائق بل كثفوا جهودهم لإستعادة الأندلس وهو ما تحدثنا عنه في الفصل الخامس وسلطنا الأضواء على دور البحرية العثمانية في عصر سليمان القانوني في الجهاد البحري ، ثم خطة استعادة الأندلس في عهد صالح ريس بيلربك افريقية ، ثم أدوار حسن بن خير الدين في دلك ، ليأتي بعد ذلك قلج علي الذي قام بجهود كبيرة ومضنية في سبيل استعادة الأندلس ، بناء على تعليمات السلطان العثماني .

أمام تلك الجهود المكثفة التي قامت بها الدولة لإسترداد الأندلس نمت عوامل مضادة ، وتحولات خطيرة ، أوضحناها في الفصل السادس ، من تلك العوامل

المضادة الصراع بين العثمانيين والصليبيين في البحار العربية بالإضافة الى موقف الصفويين الشيعة في ايران من الدولة العثمانية كل هذا جعل الدولة تحول إهتمامها من أوروبا إلى الميدان الجنوبي ، خصوصاً بعد معركة ليبانتو التي دُمر فيها الأسطول العثماني الرئيسي ، مما أدى إلى أن تغير الدولة في سياستها نحو الشمال الافريقي ، فحولته إلى نيابات ثلاث في الجزائر وتونس وطرابلس ، وركزت الدولة اهتماماتها في الدفاع عن شبه الجزيرة العربية لتأمين مكة والمدينة .

ثم جاءت بعد ذلك الخاتمة والنتائج ، وهنا يتجلى منهجنا الخاص في الاهتمام بالخاتمة ، كأهم جزء في الكتاب لأنها تحتوي على النتائج والاضافات الجديدة ، ولأنها في حقيقة الأمر هي عبارة عن جهد الطالب ، ومقياس مقدرة الباحث في مجال الربط والتحليل والاستنتاج ، لذلك يقل التوثيق فيها بالنسبة لفصول الكتاب الأخرى ، ولعله من الملاحظ أن الكتاب يخلو من العناوين الفرعية ، وأنها جاء وحدة فكرية واحدة من بدايته إلى النهاية عملاً بالمنهج العلمي في الرسائل العلمية .

كان هدفي من وراء ذلك هو إبراز اهتمام الدولة العثمانية بالخطة التي وضعتها لإسترداد الأندلس ، وهو هدف سامي للعثمانيين ، غاب عن كثيرٍ من الباحثين ، كما هو تصحيح لمسار كثير منهم .

والله الموفق والمستعان . . .

تمهيد

الدولة العثمانية وأوروبا

أ - طبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد .

ب - فتح أوروبا واختراقها من شرقها إلى أقصى جنوبها الغربي .

قام بعض المحاربين التركمان ، من أقارب السلاجقة ، وبدافع الجهاد المقدس ، باحتلال المقاطعات الآسيوية للأمبراطورية البيزنطية حتى نواحي بحر إيجه غرباً . وبعد المعركة الحاسمة التي انتصر المسلمون فيها عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م على جموع البيزنطيين المحتشدة قرب بحيرة وان شرقي تركيا ، والتي عُرفت باسم ملاذ كرد ، حيث هزم جيش بيزنطة ، وأُسر أمبراطورهم (رومانوس الرابع) ، واكتسب القائد التركي ألب أرسلان شهرة واسعة عمّت أرجاء العالم الاسلامي ، عند ذلك تمكنت القبائل التركمانية المسلمة تثبيت أقدامها في آسيا الصغرى ، واحتلت شرق ووسط الأناضول .

كان من ضمن القبائل التي سكنت الأناضول أثر تلك المعركة ، قبيلة قابي اسلاف العثمانيين ، وظهر أرطغرل بن سليمان شاه ، الذي عاد بعد وفاة أبيه في بلاد العجم ، ليستلم زمام الأمور، وشاهد أرطغرل في طريقه جيشين مشتبكين في قتال عنيف ، فناصر أحدهما ، ثم علم فيها بعد أن الذي دعمه ، كان جيش علاء الدين سلطان قونية التي تأسست عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . وكافأ علاء الدين أرطغرل أرضاً قرب بروسه . وعندما توفي أرطغرل حكم أكبر أبنائه عثمان والذي برز كأمير في شمال غرب الأناضول ، على رأس قوة تتزعم الجهاد ضد بيزنطة في تلك المنطقة[١] .

(١) علي حسون : العثمانيون والروس ص ١٧ ، ١٨ .

تعددت النظريات بعد ذلك حول كيفية نمو امارة الغازي عثمان ، تلك الامارة الصغيرة ، التي سخرت نفسها لقيادة الجهاد المقدس ضد المسيحية لتكون بعد ذلك دولة قوية وفي مدى زمني قصير ، وهناك نظرية أكدت بأن دخول تلك الامارة الإسلام ،وإتحادها فيها بعد مع المسلمين كان وراء نمو تلك القوة في زمن قصير ، أما العلماء المسلمون الملمون بمصادر التاريخ فإنهم يوافقون على تلك النظرية ، إلا أنهم يطالبون بالبحث عن بداية تكوين الدولة العثمانية ، والتطورات السياسية والثقافية للأناضول خلال القرنين السابع والثامن الهجري ، الثالث عشر والرابع عشر الميلادي .

تطورت الأوضاع في المشرق الإسلامي بعد الغزو المغولي سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م وكانت النتيجة الفورية للغزو المغولي ، الهجرة الجماعية للقبائل التركية المتنقلة ، والمتميزة بالقوة ، وقد قدمت هذه القبائل في البداية من وسط آسيا إلى إيران والأناضول الشرقي(١) حيث المراعي الغنية والبيئة الأكثر ملائمة .

بعد ذلك ظهر عاملان عرضيان ساعدا في الاندماج التركي في العالم الاسلامي جعلا من الأتراك قوماً مميزين عن الشعوب الإسلامية الأخرى ، وساهما بطريقة قاطعة في النجاح العسكري والسياسي التركي في المشرق الإسلامي ، أحد تلك العوامل ، أن الأتراك عندما بزغوا في بادىء الأمر كعنصر هائل في الإسلام ، فإنهم اعتنقوه على المذهب السني . وكان العامل الثاني هو المفهوم الاسلامي للجهاد الذي شنه الغزاة الأتراك أبطال الإيمان ، الذين شكلوا ببسالتهم في المعارك المقدسة عبر حدود الإسلام دوراً نبيلاً ، وكان هذا الدور ملائماً تماماً لتقاليدهم الحربية(٢) .

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire p. 5 .

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe p. p. 13- 14 .

وازداد المسلمين الأتراك في مناطق الحدوود الإسلامية ، وحث زعماء تلك المناطق الرجال على الغزو ضد البيزنطيين ، على أنه جهاد اسلامي ، وتجمع هؤلاء المحاربون حول زعماء غازون ، وصارت غاراتهم على الأقاليم البيزنطية أكثر ضراوة ، وقام هؤلاء الزعماء الذين نظموا الجماعات التركية المولعين بالقتال بتأسيس امارات مستقلة في الأناضول الغربي انتزعوها من البيزنطيين وذلك بعد ٩٥١ هـ / ١٢٦٠ م[١] .

كانت مثالية فكرة الجهاد عاملاً هاماً في تأسيس وتطوير الدولة العثمانية فمجتمع امارات الحدود صاغه اطار فكري خاص أشبه بفكرة الجهاد المستمر والتوسع الدائم غرباً ، فالجهاد كان واجباً دينياً في هذا المجتمع يتطلب الجهد والتضحية ومن ثم تكيفت جميع الفضائل الاجتماعية في مجتمع الحدود مع مثالية فكرة الجهاد .

كان الهدف من وراء الجهاد اخضاع عالم الكفر (دار الحرب) وليس تدميره ، وأقام العثمانيون دولتهم على أساس توحيد الأناضول الإسلامية والبلقان المسيحية تحت حكمهم ، وبالرغم من أن الحرب المقدسة كانت المبدأ الأساس للدولة ، فإن الدولة العثمانية بزغت في ذات الوقت كحامية للكنيسة الأرثوذوكسية وملايين المسيحيين الأرثوذوكس ، فقد ضمن الإسلام حياة وممتلكات المسيحيين واليهود بشرط الطاعة ودفع الجزية ، وسمح الإسلام لهؤلاء بممارسة شعائرهم الدينية الخاصة ، ومع وجود العثمانيين في مجتمع الحدود ، واختلاطهم بحرية مع المسيحيين ، فإنهم طبقوا مبادىء الإسلام تلك بأكبر قدرٍ من الأريحية والتسامح ، وتابع العثمانيون سياسة ضمان الإستسلام الاختياري وكسب ثقة المسيحيين قبل اللجوء إلى الحرب ، وذلك خلال السنوات الأولى من تأسيس الدولة[٢] .

طبق العثمانيون المبادىء الإسلامية ، فكانت حماية الفلاحين قد شكلت

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire p. 6.

(٢) ابراهيم شحاتة حسن اطوار العلاقات المغربية العثمانية ص ٧٩ ، ٨٠ .

مصدر ايراد للدولة ، لذلك فإنها تعتبر أحد العناصر المشجعة لإتخاذ موقف التسامح مع الفلاحين ، كما أن الواردات من الجزية قد شكلت جزءاً كبيراً من إيراد الدولة ، تماماً مثل الخلافة الاسلامية على عهد الراشدين وهكذا تعين على الدولة العثمانية أن تكون دولة حدود حقيقية ودولة متحررة من النزعات الاقليمية ، تُعامل جميع العقائد والأجناس دون تمييز وتوحد البلقان المسيحية الأرثوذكسية والأناضول الإسلامية في دولة واحدة[١] ، فكرتها الأساسية هي أن الإسلام كله في حالة حرب دائمة ومستمرة مع المسيحية جمعاء لا يستثنى من ذلك إلا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتي تدفع الجزية[٢] .

كان الفتح المتواصل قانون حياة المجتمع التركي وبزغ السلاطين داخل التاريخ كزعماء قوم رحل من الغازين ، والدولة كلها عبارة عن معسكر واسع وكان السلاطين فيها قواد ميدان نشيطين ، يغادرون مركزهم ومعهم الجيش في كل ربيع ، ويحاربون طوال الصيف[٣] .

أراد العثمانيون أن تكون دولتهم دولة إسلامية ، فأستندت أحكامهم على الشريعة الإسلامية مع روح العصر ، الذي كان يضع الدين فوق كل اعتبار آخر وعمل مؤسسو الدولة على تغذية العاطفة الدينية الإسلامية المستقلة في نفوس العثمانيين ، رغبة في الإفادة منها في دفع حركات التوسع العسكري الاسلامي في أوروبا بوجه خاص ، وأملاً في القيام بالدور الذي قام به العرب في صدر الإسلام ، وكان الإتجاه الديني ملحوظاً في النظم العثمانية التي وضعوها واستنبطوها من الشريعة الإسلامية .

كان من مظاهر الاتجاه الديني في سياسة العثمانيين تشجيع التصرف حتى

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire p. 7.

(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة عام ، ص ٦٠ .

(٣) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe p. 34.

قيل في هذا الصدد أن حياة المجتمع قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية ، أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة ، وكان من أهم هذه الطرق الصوفية النقشبندية ، والمولوية ، والبكتاشية ، وقد انتشرت في الأناضول ثم انتقلت مع نمو الدولة لانحاء أخرى ، وكان السلاطين في مجموعهم يقربون إليهم علماء الدين والاتقياء[١] .

وفي هذا الصدد تزوج مؤسس الدولة العثمانية الغازي عثمان من ابنة أحد المشايخ الصوفيين[٢] .

كانت تلك هي الأسس والمعاني السامية التي وضعها العثمانيون لتكون منطلق حياتهم وبداية تكوينهم وسار عليها مؤسس الدولة وتبعهم بقية السلاطين .

قام الغازي عثمان بعد أن وضع أسس الدولة بفتح قلعة قرة حصار الواقعة في بلدة أفيون والقريبة من قونية وذلك سنة ٦٨٨ هـ الموافق سنة ١٢٨٩ م فكافأه الملك علاء الدين على ذلك بمنحه لقب بك وأقطعه كافة الأراضي التي فتحها ، وأجاز له ضرب العملة وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة .

أغار التتار سنة ٦٩٩ هـ الموافق ١٣٠٠ م على بلاد آسيا الصغرى ، وتوفي الملك علاء الدين آخر السلجوقيين في قونية ، فأنفتح المجال لعثمان ، فأستأثر بجميع الأراضي المقطعة له ولقب نفسه (بادشاه عثمان)[٣] ، وطد عثمان سلطته على أساس العدالة وما لبث أن وسع رقعة دولته التي وصلت إلى يني شهر وبذلك صار على مقربة من بروسه ونيقية ، أهم المدن اليونانية في غرب الأناضول ، وما لبثت يني شهر أن صارت قاعدة لحكم عثمان وبذلك توفرت له القاعدة للانطلاق صوب الغرب[٤] ، ولما كانت دولة قرمان أقوى الدول التي

(١) فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية والحجاز ، ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .
(٢) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٥ .
(٣) محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١١٨ .
(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧ .

قامت على أنقاض دولة السلاجقة . بحيث كان الاصطدام بها محفوفاً بالمخاطر فقد رأى عثمان التوسع صوب الغرب ، حيث كـان البيزنطيون غنيمة سهلة ، فبدأوا بتحرير الجزء الصغير الآسيـوي من ربقة البيـزنطيـين ، بينما كـانوا يقضـون على الامارات الأخرى في الأناضول[١] .

أرسل عثمان من قاعدته الحصينة في ييني شهر الحملات ضد المدن اليونانية المجـاورة ، وأستولى عـلى عدد من الحصـون ، قبل أن تتحـرك جيـوش الـدولـة البيزنطية ، لمواجهته ، فدمر بثينيا ، وبعد ذلك لم يجرؤ اليونانيون على الخروج من أسوار نيقية ، ثم تقدم صوب السـاحل ، وقلد أمـراء ايدين وصـاروخان الـذين قامت أساطيلهم بغزو الجزر اليونانية ، وبالتدريج أقترب من بروسه ونيقية وشيد بجوارهم قلعتين مكنتاه من ضرب الحصار عليهما ، بالاضافة الى تخريب الحقول ، والاستيلاء على المواشي والعبيد وعرقلة الاتصالات التجارية[٢] .

واصل عثمان فتوحاته وكسب الأراضي بالتـدريج مستغـلاً حالـة الفوضى والاهمال المسيطرين على الأراضي البيزنطية بالأناضول ، وحدث أول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذي كان يهدد نيقية عاصمة البيزنطيين السابقة[٣] .

فـرض الغـازي عثمـان حصـاراً عـلى نيقيـة (ايـزنيـك) سنـة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م فبعث الأمبراطور البيـزنطي جيشـاً من المرتـزقة قـوامه ألف رجل ، فأوقعه عثمان في كمـين وهزمـه في بافيـون (Baphaeon) في صيف تلك السنة ، وكان لهزيمة الجيش البيزنطي صدى واسع في أرجاء المعمورة ، فقد ذاعت شهرة الغازي عثمان في الآفاق ، كما وصفت المصادر العثمانية والبيـزنطيـة كيفية اندفاع المجاهدين من كل أنحاء الأنـاضول ، وأخـذت امارات الحـدود الأخرى اسم عثمان وصاروا معروفين باسم العثمانيين .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ٦٥ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٣٦ .

عقب ذلك الانتصار اقيمت الامارة العثمانية ، وكان نموذج الغزو والجهاد عنصراً هاماً في تأسيس وتطور تلك الامارة ، وأستجاب المجتمع في إمارات الحدود لنموذج ثقافي محدد ، إذ أنه أفهم بالمثل الأعلى للجهاد المستمر ، والتوسع الدائم لدار الاسلام حتى يغطي العالم أجمع[1] .

سار عثمان بعد ذلك على هدي وإيمان عميق بالدين الإسلامي وبنى سياسته على مشورة فقهاء المسلمين وحكم الناس حكماً عادلاً مستمداً من تعاليم الإسلام ووضع عثمان نفسه مجاهداً في سبيل الإسلام[2] .

« بعث الغازي عثمان إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى ، يخيرهم بين ثلاثة أمور ، الإسلام أو الجزية أو الحرب ، فأسلم بعضهم ، وأنضم إليه ، قبل البعض دفع الخراج ، وأستعان الباقون على السلطان عثمان بالتتار واستدعوهم لنجدتهم ، لكن لم يعبأ السلطان عثمان بل هيأ لمحاربتهم جيشاً جراراً تحت امرة ابنه أورخان ، ومعه عدد ليس بقليلٍ من أمراء الروم ومن ضمنهم كوسة ميخائيل صديق عثمان الذي أختار الإسلام ديناً ، وبعد حروب كبيرة تشتت شمل التتار[3] .

عزم الغازي عثمان على فتح بروسه ، فأنشأ بالقرب منها قلعتين ، وعقد لواء ذلك لابنه الغازي أورخان في ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م ، وبعد خروجه من مدينة يني شهر مر بأطرة نوس ، ولما تقابل مع حاكمها أراد القبض عليه ففر من وجهه إلى أن وقع من صخرة فمات وبذلك أمكن الإستيلاء على مدينة بروسه[4] . وما لبث أن توفي عثمان في سن السبعين ودُفن في بروسه ، العاصمة الجديدة للدولة الناشئة ، وكان سقوط بروسه خطوة هامة إلى الامام بالنسبة للعثمانيين ، الذين

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire P. 6, 7.

(٢) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، ص ٨٥ .

(٣) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العليا العثمانية ، ص ١١٩ .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٧ .

تحولت أملاكهم من امارة حدود يسكنها الرعاة إلى دولة إسلامية ، ذات عاصمة وحدود ، وسكان مستقرين ووسائل تطوير جيش نظامي يدافع عنها ويوسع رقعتها وادارة تشرف على شؤون الحكم(١) .

كانتِ الأناضول عشية تولي أورخان بن عثمان مقسمة لعدد من الامارات التي قامت بعد انقراض السلاجقة ، فكان آيدين بك ، وصاروخان بك ، ومنتشا بك ، وكرميان بك ، وحميد بك ، وتكة بك ، وقره سي بك ، وهم جميعاً من أحفاد السلا جقة حكاماً على ممالك صغيرة ، يخشون على أنفسهم من أولاد قرمان وكان أولاد اسقنديار حكاماً مستقلين بجهات قسطموني ، وكانت بقية الممالك الأخرى تحت تسلط بعض عشائر التركمان فكان بمرعش أولاد ذو القادرية وباطنة أولاد رمضان ، وكان من بين هؤلاء حكومة السلطان أورخان ، التي اكتسبت قوة ومكانة خصوصاً بعد استيلائهم على مدينة بروسه ، التي جعلها أورخان مقراً لحكومته(٢) .

لم يلتفت السلطان أورخان لتلك القوى ولم يتحرك لملاقاتهم ، بل رغب في تطوير دولته في شتى المجالات الادارية والمالية والعسكرية ليتمكن من بناء صرح اسلامي قوي(٣) خاصة وإن دولته على الحدود مع الدولة البيزنطية ، بمعنى آخر انها دار حرب .

سنّ أورخان القوانين والأنظمة بمساعدة رجال حكومته منهم قاضي بروسة ، وضرب السكة العثمانية ، وجعل للمأمورين والأمراء وأصناف الجنود وطبقات الأهالي ملابس مخصوصة ، كما رتب العساكر النظامية ووضع لهم قانوناً للتربية ، بعد أن كانت جيوشه المؤلفة من الفرسان التركمان وممن استطاع من الرعية على الحرب لا نظام لهم ، فأنشأ لذلك طائفة الانكشارية ، وصار حسب ما

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٢) اسماعيل سرهنك. حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .
(٣) علي حسون : العثمانيون والروس ، ص ١٩ .

رآه وزيره يأخذ كل سنة العدد الممكن من أولاد النصارى ، ويجمعونهم ثم بعلمونهم آداب الاسلام ومتى بلغوا السن الملائم أدخلوهم ضمن أوجاق الانكشارية ، كما أنشأ أورخان منصب الوزارة ، فعين أخاه علاء الدين باشا فكان أول وزير في الدولة . التفت أورخان بعد ذلك إلى الأراضي المفتتحة فقسمها إلى قسمين وهما خاص وتيمار ، فكانت ايرادات التيمار لرجال الحرب والخاص للخزينة السلطانية ولأمراء العائلة الملوكية ولأعيان الحكومة ، ولم يكن هذان القسمان كالجفالك لأن أراضيها كانت عبارة عن حقول يتصرف أربابها بالحرث والزرع ويعطون ما عليها من العشور الشرعية ، وما يخصها من خراج الانتقال من يدٍ إلى أخرى إلى المتصرفين في قسمي الخاص والتيمار وكان يتعين على أصحاب التيمارات بالنسبة لحاصلات تيماراتهم أن يدرب كل واحد منهم فارساً أو فارسين أو أكثر ويعلمه استعمال السلاح ، ومتى وقعت الحرب اجتمع هؤلاء الفرسان تحت لواء الأمير المعينون معه ، ثم يذهبون تحت قيادته إلى ميدان القتال ، وأطلق على هذا الصنف من الجنود اسم سباهية التيمار وقد خدموا الدولة خدمة جليلة[1] .

وضع أورخان شعاراً لدولته في المسجد الجديد في بروسه ، مؤكداً سياسة الدولة في الغزو المتواصل وكان الشعار هو سلطان بن سلطان ، الغازي بن الغازي ومن خلال ذلك الشعار يتضح أن حكم أورخان كان حاسماً في مرحلة الانتقال من قوم ٍ رحل إلى دولة مستقرة[2] .

بعد أن استقرت أسس الدولة على تلك النظم الحديثة ، وجه أورخان اهتمامه نحو الفتوحات ، ففي سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م أعلن حرباً على بلاد الروم والتي صادف خلالها وفاة حاكم أزميد مركز اقليم قوجه ايلي ، فأنتقلت ادارة المدينة إلى ابنته التي تصل إليها الامدادات العسكرية من القسطنطنية ولما حاصر تلك المدينة الغازي عبد الرحمن ، كاتبته الفتاة المذكورة سراً فآستولى على قلعتها ،

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .
(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe p. 20 .

وأرسل الفتاة مع الغنائم إلى السلطان أورخان ، الذي عقد نكاحها على الغازي عبد الرحمن لكونها أعانت الدولة ، وما زال يتقدم أورخان في فتوحاته حتى حضر بنفسه في سنة ٧٢٨ هـ /١٣٢٧ م ، وحاصر أزميد نفسها ، وأرسل القائدين قرة علي وأيغور ألب مع جنودٍ لفتح قيون حصار وفي أثناء القتال أصيب قلايون حاكم قيون حصار برصاصة فسقط ميتاً من سور القلعة ، وبذلك استولت الجيوش العثمانية على القلعة المذكورة ، وبعدها سلمت بلاقونية حاكمة أزميد (نيقوميديا) المدينة الى السلطان أورخان فأركبها هي وجنودها ومن يريد من أهالي المدينة السفن وأرسل الجميع القسطنطنية وذلك بناء على رغبتها وبذلك صارت حدود الدولة قريبة من خليج القسطنطنية[١] .

تقدم أورخان بعد ذلك نحو بحر مرمرة ، واستطاع أن يهزم حملة بيزنطية ضخمة ، كان يقودها الأمبراطور آندرو نيكوس الثالث في ٧٢٩ هـ /١٣٢٨ م ، عندها تخلت بيزنطة عن بذل جهود خاصة بتنظيم المقاومة العسكرية في الأناضول أو حتى تعزيز الحاميات المتبقية في بعض المدن[٢] .

قام أورخان بعمليات عسكرية هامة ومن أهمها : الاستيلاء على أزنك(Iznik) ، نيقية (Nicia) في ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م[٣] ، وكان فتحها على يد سليمان بن السلطان أورخان ، ولما تم فتحها وأصلح مبانيها حول السلطان بعض كنائسها إلى مدارس ومساجد ، وعيّن للتدريس بإحدى تلك المدارس العالم الشهير داود القيصري ولما كانت هذه المدينة في ذلك الوقت من أعظم المدن بتلك النواحي اتخذها السلطان أورخان عاصمة له[٤] .

استولى أورخان على ما تبقى من الأراضي البيزنطية في شمال غرب

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٥ .
(٣) عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٣٧ .
(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .

الأناضول لسد الفراغ الذي خلفه البيزنطيون ، مما جعل دولته أقوى امارات التركمان في المنطقة خاصة ، وقد تعزز مركزها بآعتبارها زعيمة الجهاد ضد البيزنطيين[١] ، وكان من حسن سياسة العثمانيين في هذه الفترة أنهم اتجهوا بفتوحاتهم غرباً نحو الدولة البيزنطية لبسط نفوذهم بعد ذلك في أوروبا ، وبجنود من البلقان ، تمكن العثمانيون فيما بعد من التوسع فلا صحة مطلقاً للآراء التي كانت سائدة في أوائل القرن العشرين عن أن العثمانيين جنس تركي مسلم قهر شبه جزيرة آسيا الصغرى ثم إتجه إلى أوروبا وأسقط الدولة البيزنطية ، إذ مما لا شك فيه أن العثمانيين كانوا مسيطرين على البلقان كله قبل أن يمتد نفوذهم شرقاً حتى قونية[٢] .

أفتتح سليمان بن أورخان سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م بلاد مدوني وكمليك ، وفي اثناء ذلك أرسل قيصر الروم مجموعة من الهدايا للسلطان أورخان ، وعقد بين الطرفين هدنة لمدة عشرين سنة وبموجبها صات نواحي مانياس ، وايدنجق ، وباليكسري ، وبرغمة ، وقرة سي ، وميخايج ، وكرماستي ، من أملاك الدولة العثمانية ولم يتبقى للروم بالأناضول غير مدينة الأشهر وقلعة بيغا[٣] .

عزز أورخان مركزه بالتوسع على شواطىء بحر مرمرة ، منتهزاً فرصة الهدوء النسبي مع المسيحيين فضم امارتي مرخان وقرة سي ، مما جعل العثمانيين على مرمى البصر من جناق القلعة التي عبر الدردنيل ، كما سيطر على الساحل الجنوبي لبحر مرمرة مما سهل عليه العبور إلى أوروبا حين تسنح الفرصة[٤] .

اشتغل السلطان أورخان بعد أن عزز موقفه في الأناضول ، بترتيب شؤون الدولة ، وفتح المدارس وأنشأ العمران وبنى الجوامع والتكايا ، فمن آثاره أنه

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٧ .
(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٨٩ .
(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٦ .

أسس مدرسة عالية في مدينة بورصة وأخرى في مدينة أزنيك وأجزل العطايا للشعراء والعلماء فأضاف بذلك خيرات السلم إلى فتوحات الحرب[1] .

كان العبور من الأناضول إلى أوروبا مهمة صعبة للعثمانيين ، ذلك لأن بوغاز الدردنيل في ايدي المسيحيين ومن ثم فإن أي قوة ينزلها العثمانيون في الأراضي الأوروبية ، لم يكن في استطاعتها الإستمرار من دون أن ينالها الكثير من ضربات البيزنطيين ، لكن امارة كارسي (Karesi) الواقعة على الجانب الشرقي للدردنيل قد حلت المشكلة للعثمانيين .

إن النزاع حول عرش كارسي في عام ٩٥٢ هـ /١٣٤٥ م أعطى السلطان أورخان فرصة ضم هذه امارة وإن جنود كارسي الذين دخلوا في خدمة العثمانيين بدأوا بدورهم تعهد الفتح عبر الدردنيل وأعدوا عدتهم لهذه المهمة الجريئة .

عقد السلطان أورخان في عام ٩٥٣ هـ /١٥٤٦ م اتفاقية تحالف مع يوحنا الخامس كانتاكوزينوس (Cantacuzenc) أحد المطالبين بالعرش البيزنطي وتزوج من ابنته تيودورا ، هذا التحالف قد مد العثمانيين بفرصة التدخل في الشؤون المحلية والاشتراك في حروبهم[2] . خاصة بعد أن استطاع كانتاكوزينوس الانتصار على خصومه ووصوله للعرش البيزنطي بفضل مساعدة العثمانيين[3] .

تحركت الدولة العثمانية في عام ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م داخل القارة الأوروبية كغزاة مستقلين ومستوطنين ، ففتحوا الساحل الأوروبي من بحر مرمرة ، وشددوا هجماتهم على تراقيا (Thrace) وموريا (Morea)[4] ، أصدر السلطان أورخان أمراً إلى ولده الأمير الغازي سليمان باشا ، بالاستعداد والزحف على بلاد الروملي في الجنوب الشرقي لأوروبا ، فجهز الجيوش وتقدم بها في عام ٧٥٧ هـ /١٣٥٦ م

(١) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٤ .

(٢) ابراهيم شحاتة حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٨١ ـ ٨٢ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٣٧ .

(٤) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe p. 20 .

حتى وصل إلى قلعة جناق بساحل غربي آسيا على مضيق الدردنيل ، وعقد هناك مجلساً مع أشهر قواده ، فأتفقوا على عمل حمالات (أكلاك) للعبور بها ، وبعد انشائها ركبوا عليها ليلاً ، وعبروا بها الدردنيل إلى ساحل الرومللي[١] . وصارت شبه جزيرة غاليبولي (Gallipoli) قاعدة للزحف العثماني الجديد ، إذ أسس العثمانيون أول موطىء لهم في أوروبا ، وظل هذا الاتجاه ثابتاً طوال ما يزيد على قرنين ، كما ظل سلاطين الدولة العثمانية مصممين على السمة الأوروبية لفتوحاتهم على الرغم من الأخطاء ، والصعوبات التي واجهتها الدولة إلا أن ذلك لم يترتب عليه أي تغيير ملحوظ للسمة الأوروبية في الفتوحات العثمانية[٢] .

استولى سليمان بن أورخان في سنة ٧٥٨ هـ /١٣٥٧ م على قلعة جنمك(Tzympe) ، في الوقت الذي كان فيه كونتاكوزينوس مشغولاً بصراعه مع صهره حنا بالبولوجسي ، بحيث لم يتفرغ للتصدي للقوات العثمانية ، بل أن الامبراطور البيزنطي طلب مساعدة السلطان ضد خصمه ومن ثم أتيحت الفرصة لإرسال مزيدٍ من الجنود العثمانيين ، لتعزيز قوات سليمان التي وطدت أقدام العثمانيين في أوروبا[٣] ، ومن أجل تقوية رأس الجسر العثماني في جنمك (Tzympe) في أوروبا نقل سليمان بن أورخان مسلمي الأناضول إلى أوروبا لا سيما البدو منهم ، الذين في إمكانهم التوطن بسهولة في الأراضي الجديدة ، فنشأت قرى تركية جديدة وانتظمت الحدود تحت القيادة العامة لسليمان في اطار قطاعات ادارية ثلاثة (ميسرى ويمنى ووسطى) يقوم على كل منها سيد غازي واستمرت الغارات العثمانية واتسعت مساحة المد العثماني[٤] ، على مدى السنوات التالية ، وهذا ما نلاحظه في ثنايا الفصول التالية .

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .
(٢) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ، ص ٨٤ .
(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٧ .
(٤) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٨٣ .

فلما فتحت القسطنطينية وتمركزت الدولة في البلقان واتخذت القسطنطينية عاصمة للدولة ، كان معنى ذلك أن العثمانيين أصبحوا قوة ثابتة الدعائم في شرق أوروبا ، وكانت خطة العثمانيين بعد ذلك هي اختراق أوروبا من شرقها إلى جنوبها الغربي لاخضاع أوروبا للإسلام ونشر الإسلام فيها بدلاً من التوسع في عالم اسلامي سابق ، وكان الغرض من ذلك أيضاً هو الوصول للأندلس براً باختراق أوروبا وانقاذ دولة الاسلام فيها .

الفصل الأول

« شبه جزيرة ايبريا في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي »

أ ـ الدولة الحديثة في البرتغال واسبانيا

ب ـ قيام دولة اسبانيا الموحدة .

ج ـ حروب الاسترداد .

د ـ سقوط غرناطة في عام ٨٩٢ هـ / ١٤٩٢ م .

كان المجتمع الأوروبي الاقطاعي أبان العصور الوسطى، قد قدم الطبقة الحاكمة من المحاربين الأحرار كما قدم نموذجاً ثقافياً أكثر جاذبية ، وملائمة لأغراضهم عن قيصرية ومركزية العالم البيزنطي[١] ، وكانت طبقة النبلاء العالية والاشراف والأمراء من ذوي الدماء الفرنسية وأشراف أسبانيا ، والأمراء من العائلات الإيطالية القديمة نادراً ما أعتمدوا على طرق اقتصادية بحتة ليزيدوا من قيمة ثراء عائلاتهم بل كانوا أكثر المستفيدين من الرعاية الملكية ، حيث لم يمكن لحكم ملكي أوروبي أن يعمل بدون تدعيم وتعزيز خدمة طبقة النبلاء في المراكز الحربية والادارية العليا ، وهذه الخدمة كان يجب أن تكافأ بسخاء ، وبصورة تليق بكل من المعطي والذين يأخذون[٢] . وحتى ٩٠٦هـ / ١٥٠٠ م ، كان غالبية الأوروبيين يعيشون في الريف في مزارع خاصة أو في مدن ريفية صغيرة كما كانوا عليه في أغلب فترات العصور الوسطى ، وباستثناء بعض الحالات الشاذة ، فإن طبقة الفلاحين لم يكونوا عبيداً كما كانوا عليه في الماضي حين اكتمل النظام الاقطاعي ، بل أخذوا يتحررون بصفة قانونية ، ومن ثم أصبحوا قادرين على التصرف في بيع أملاكهم إذا رغبوا في مغادرة قراهم والكثير من هؤلاء الفلاحين لم يعملوا بأعمال المزرعة للعيش والرزق ، ولكن لانتاج محصول نقدي كالصوف

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe p. 80 .

(٢) H. G. Korugsberger af george L. Mosse: Europe in the sixteen Century p. 42. .

والكتان وآخرين عملوا في غزل الصوف ونسج القماش وتشكيل وطرق المعادن ليس فقط لاحتياجهم واحتياجات زملائهم القرويين ، ولكن أيضاً للبيع في الأسواق المحلية والأجنبية المنظمة ، وفي أغلب أوروبا فإن المجتمعات القروية ظلت بحالة جوهرية على حالتها الأصلية ، فالأشراف والاقطاعيون استمروا في تطبيق نظمهم المعروفة على طبقة الفلاحين ، في الحصول على الايجارات المستحقة لهم من الفلاحين والعقوبات والخدمات الخاصة[1] ، كانت هذه الحالة قبيل مطلع العصور الحديثة .

وعندما عبرت النهضة جبال الألب ، نجدها قد تغيرت إلى حالة عملية بدلاً من فنية ، كما أنها أصبحت انتقادية ، وتحلت بطابع أدبي وفلسفي جديد ، ومن ثم بدأ التمرد ضد العصور الوسطى في عدة مجالات وقدمت كل دولة شيئاً مساهمة منها في العالم الجديد[2] وأخذ الاقطاع بنظاميه السياسي والأجتماعي يتحول إلى ممالك مطلقة في فرنسا وأسبانيا كما تطورت معه الفلسفة المدرسية الماثلة في نظام العصور الوسطى في التفكير لتصبح علماً حديث وتعليماً على يد علماء ومفكرين[3] .

ومن ثم شهدت سنوات النصف الثاني من القرن الخامس عشر تطورات كبيرة في شبه الجزيرة الايبرية أثرت على مستقبل هذا الأقليم وسكانه كذلك على مستقبل العرب الموجودين فيه والمغاربة في كل شمال افريقيا ، وكانت أوروبا تمر في ذلك الوقت بمرحلة تطور واضحة ساعدت على اضمحلال سلطة ونفوذ النظام الاقطاعي ونمو وظهور القوميات الحديثة التي ارتبطت بسلطة الملك من ناحية أخرى وكانت الحروب الصليبية قد ساعدت في القضاء على عددٍ كبير من النبلاء وعلى سلطتهم ونفوذهم ولصالح التاج في بلادهم ، وكانت كذلك قد ساعدت على نشأة نظام الضرائب المباشرة واللازمة للانفاق على الحملات الموجهة ضد

(١) H. G. Korugsberger and george L. Mosse: Europe in the sixteen Century p. p. 21-22.

(٢) J. M. Thompson: Lect on Foregn History P. 48.

(٣) J. M. Thompson: Lect on Foregn History P. 48.

المسلمين ، وزادت هذه الضرائب من تدعيم مركز الملوك[1] ، ومع نشأة الـدولة الوطنية الحديثة في الأمم الموحدة اتجهت هذه الدول نتيجة لشعورها بقوة مركزها وانطواء شعبها تحت راية واحدة إلى محاولة التوسع وبسط سيطرتها على غيرها من الأمم والشعوب التي تأخر تكوينها وكانت أقل تنظيماً سواء في داخل أوروبا أو في خارجها ولهذا اتجهت الدول الموحدة في أوروبا إلى توسيع أملاكها داخل القارة كما حدث في ايطاليا عندما نشب الصراع الفرنسي الاسباني المعروف بالحروب الايطالية[2] ، بينما اتجهت دول شبه الجزيرة الايبيرية الى نحو ما سمي بالاسترداد ، ومن ثم التوسع خارج أوروبا وذلك بحكم موقعها الجغرافي .

وكانت البرتغال التي تتمتع بموقع هام لوجودها على الطرق التجارية بين موانىء البحر المتوسط وشمال غرب أوروبا ، مما جعلها أقرب للسواحل الافريقية حيث أعطاها ذلك أهمية استراتيجية وتجارية تجلى ذلك في العاصمة لشبونة التي كانت مركزاً لتجارة غرب افريقيا المستوردة إلى غرب أوروبا وهذا بدوره وفر الأموال اللازمة التي ساعدت ملوك البرتغال على توحيد أجزاء البلاد الداخلية جعلتهم يعملون باستمرار من أجل الكشف والارتياد[3] . فشغل الملوك من بيت أفيس (Avis) في ذلك[4] خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ولتصبح البرتغال نصيرة المسيحية وراعيتها ضد الإسلام لتكون روح الحروب الصليبية مستمرة بل وتزدهر أيضاً مكتسبة قوة على قوتها في شبه الجزيرة الايبيرية خلال الفترة المذكورة[5]

كان هنري الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠ م) يحلم منذ طفولته بتقويض مركز الاسلام في أي مكان يستطيع ، فأفتتح مغامراته ضد الاقطار العربية والاسلامية

(١) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ٧٠ .
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٠٨ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٩ .
(٤) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٢٥ .
(٥) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٤ .

بالهجوم على سبتة (Ceuta)[1] سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، وكان فتحها عملاً من أعمال الحروب الصليبية التي سوف تشمل العالم كله وتهدد الإسلام من حدوده الجنوبية لأول مرة في التاريخ[2]. واعتبر هنري هذا النجاح عبارة عن مرحلة أولى من أجل الاستيلاء على مراكش[3] .

بعد أن ثبت البرتغاليون أقدامهم في سبتة وبعد تحصينها اتجهت أنظارهم إلى طنجة وأعدت حملة قوامها ثمانية آلاف جندي ووصلت الحملة إلى سبتة في ٢٧ أغسطس ، وانقسمت إلى قسمين برئاسة الأمير هنري الملاح (D. Henrigue) الذي سلك الطريق البري نحو طنجة ، والقسم الآخر رأسه الأمير (D. Fernando) وسلك الطريق البحري ، وذلك حتى يطبقوا على المدينة من الجهتين .

وكانت بلاد المغرب تمر بفترة حرجة ، فكان السلطان المريني (أبو سعيد عثمان) قد قُتل ٨٢٣ هـ / ١٤٣٠ م ، وخلفه ابنه عبد الحق ، وكان طفلاً صغيراً ، فآلت أمور الدولة إلى الوزراء والحجاب فكثر النزاع بينهم ولكن الوزير - أبو زكريا يحيى الوطاسي نجح في القبض على الأمور ونصب نفسه وصياً على الملك الطفل ، وأرسل للأقاليم المغربية يحصنها وأسرع في تقديم المعونة للمدينة المجاهدة طنجة ، وكان على رأس الجيوش المدافعة عنها وانتهت المعركة بهزيمة البرتغاليين[4] ووقع الأمير هنري الملاح أسيراً بيد القوات الاسلامية ، ولم يطلق سراحه إلا بعد تعهده بالإنسحاب من سبتة غير أنه نكث عهده حالما رأى نفسه طليقاً[5] .

رأى ألفونسو الخامس أن يتابع عمليات الغزو للثغور ، وتمهيداً للاستيلاء

(١) سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي ، ص ٤٠ .
(٢) J. H. Elliot: Imperial Spain 1469- 1716 P. 46.
(٣) عبد القادر أحمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٧ .
(٤) شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، ص ٤٥ .
(٥) عبد القادر أحمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٧ .

على طنجة قاد الملك في محرم ٨٦٣ هـ /اكتوبر ١٤٥٨ م حملة ضخمة لمهاجمة ميناء القصر الصغير ونجحت الحملة في تحقيق أهدافها واقتحمت القوات البرتغالية الميناء المغربي ، وبنى البرتغال به حصناً لحمايتهم .

وكانت هذه استجابة لدعوة البابا بعد سقوط القسطنطنية ، إذ رأى الفونسو أن يوجهها نحو المغرب بدلاً من القسطنطنية وذلك بحجة إرساء قاعدة بحرية في الشمال الافريقي تكون في خدمة الأساطيل والجيوش الأوروبية في المستقبل[١] .

وفي عام ٨٧٤ هـ /١٤٦٩ م ، هاجمت قوة برتغالية أنفا (Anfa) ، وأستولت عليها كما نجحت قوة برتغالية في الإستيلاء على أصيلا (Arzila) عام ٨٧٦ هـ /١٤٧١ م ، ثم أستولوا على العرائش ، ثم طنجة في ربيع الأول / أغسطس من نفس العام ، وقد سقط هذا الميناء الذي سبق وأن استعصى عليهم وذلك بسبب الخلافات الداخلية بين ملوك المغرب ، ومن هذا التاريخ أصبح ملك البرتغال يُلقب بلقب ملك البرتغال والأقاليم البرتغالية فيما وراء البحار[٢] .

ويُعتبر اسم الأمير هنري الملاح رمزاً لمدى الغرض الصليبي الذي كان يسيره من خلال الصليب الذي رسمه على ظهره وعن الروح الدينية الصليبية التي كانت تسيطر عليه ويفسر لنا لقب الملاح الذي عُرف به في التاريخ هذه الروح الملاحية التي سيطرت على البرتغال بل على أوروبا بأكملها في ذلك الوقت[٣]، إذ قامت الرحلات تحت رعايته وليست تحت رعاية الدولة وكان يدرس ويتدارس كل الكتب التي تمت بصلة للرحلات واحتياجاتها ، كما استخدم ثروته ومركزه ليبدأ ما اطلق عليه مركز الأبحاث الجغرافي[٤] ، الذي استقدم له عدداً من راسمي الخرائط الجغرافية والفلكية في ميورقة وصقلية لتعليم رجال البحر مهن الملاحة على

(١) شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٢) شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير ، ص ٤٩ .

(٣) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، ص ٤٣ .

(٤) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 45 .

الطرق الحديثة وعلى أساس علمي صحيح ، كما استقدم عدداً من صناع السفن لتحسين مستوى هذه الصناعة في بلاده وتطويرها لتكون صالحة للملاحة في جميع الأجواء والبحار ، هذا إلى جانب قيامه بتحويل كثيرٍ من سفن الصيد الى سفن للحرب والنقل(١) ، فبنيت أنواع جديدة من السفن ذات وزن خفيف ومراكب شراعية ذات ثلاث صواري تحمل كل منها حوالي ٦٠ رجلاً ، كما بنيت الكرافيل بأشرعتها المربعة ، والتي كانت العنصر الأساسي للانتشار الأوروبي عبر البحار(٢) ، وبذلك تكون البرتغال قد يسرت لنفسها أمر ملاحقة المسلمين ومهاجمة سواحل افريقيا الشمالية بعد أن أجلّت الكثير منهم .

كانت البرتغال قبل وفاة الأمير هنري الملاح لها خبرة واسعة في التجارة والاستعمار ، ففي جزء الآزور (Azores) والماديرا (Medeira) انشئت مستعمرات من المستوطنين عُلمت المسيحية الكاثوليكية وطرق الحياة الأوروبية للقبائل التي كانت تقيم في هذا الجزء ، وبهذا أقاموا امتدادات جديدة للكاثوليكية . وبعد وفاة هنري ببضع سنين كانت التجربة قد انتشرت وتوسعت في الشكل والنوعية وقدم البرتغاليون إلى العالم الأوروبي أول تجربة في انشاء المستعمرات في العصور الحديثة ، وبعد وفاة الأمير هنري بخمسة وعشرين عاماً أصبحت البرتغال أقوى بكثير مما كانت عليه في أثناء حياته ، وأصبحت أعمال التوسع والانتشار تقوم بها الدولة ، وتغلب الملوك على النبلاء والأساقفة وأنفردوا بحكم ملكي مهاجم ومستعمر(٣) ، وكان عنوان الدولة ووظائفها ومهماتها المتخصصة تزاول بطريقة متزايدة بواسطة الموظفين في البلاط ، أو الموظفين المسؤولين المزارعين في أنحاء البلاد ، وأحاطت بالهيمنة الملكية البرتغالية حياة

(١) ٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١١ .

(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 45 (٤ .

(٣) George Clark: Early Moder Europe P. 61 (١) .

حديثة وقوانين جديدة معقدة ، حلت المواثيق القديمة(١) .

وخلال حرب قشتالة الوراثية حاولت قشتالة إثبات حقوقها على جزر الكناري وفي سنة ٨٨٣ هـ /١٤٧٨ م أرسلت من اشبيلية حملة عسكرية لتحتل جزيرة الكناري الكبرى ، ولكن مقاومة أهالي الجزيرة والخلافات القائمة داخل الجيش القشتالي حالت دون تنفيذ مزاعم فريدناند وايزابيلا ، وكان العداء بين قشتالة والبرتغال تقليدياً ، وازداد حدة بعد التدخل البرتغالي في قضية وراثة قشتالة ، فكان هذا التدخل حافزاً لقشتالة جعلها تصبو إلى الاستيلاء على ممتلكات لها عبر البحار ، وانهت معاهدة ١٤٧٩ م الحرب بين قشتالة والبرتغال والخلافات على جزر الكناري ، ولكن لصالح قشتالة ، فتنازلت البرتغال عن مطالبها على جزر الكناري مقابل الاعتراف بحقها المطلق على غينيا ومملكة فاس وجزر الماديرا وجزء من الآزور ، وبذلك حصلت قشتالة على أولى ممتلكاتها عبر البحار(٢) . وخلال تلك الرحلات الاستكشافية ، كانت السفن البرتغالية تحمل في المقدمة سارياً عالياً يحمل صليباً وشعار البرتغال وعلامات توضع في الأماكن المكتشفة كعلامة دولية للبلد المكتشف مثل علامة القديس جورج في مدخل الكونغو(٣) . وبعد عام ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م لم تضعف البرتغال أمام الاغراء باختراق الحدود الجبلية التي كانت تفصلها عن جيرانها ، ولكنها كانت دائماً تطغي عليها الأطماع الصليبية ، كما أنها كانت تهدف إلى الإثراء المادي من وراء الكشف والغزو ، وكانت قشتالة تفصل البرتغال عن سائر أوروبا ، وهي حقيقة تستحق الملاحظة على الرغم من أن المملكتين متشابهتان في اللغة والدين ، إلا أن الحدود الشرقية للبرتغال لم تكن تتأثر كثيراً باكتساب ، أو فقدان الأقاليم التي على الحدود مثلما كانت تتأثر أي دولة أوروبية(٤) ، كما أنه يجب أن لا ننسى جبال البرانس كحاجز طبيعي

H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 132. (١)

J. H. Elliott: Imperial Spain P. 46 (٢)

H. V. Livermore: A new History of Portugal P. (٣)

G. Clark: Early Modern Europe P. 60. (٤)

فصلها عن أوروبا ، فكانت هذه الجبال بمثابة حاجز لشبه الجزير الآيبرية عما دار خلف جبال البرانس من حركات دينية وما تبعها من حروب حيث تميزت بالارتفاع الشاهق وهي التي سماها العرب أبان انتقالهم من أسبانيا إلى فرنسا بجبال الحاجز[١] .

وفي عهد الملك جون الثاني ٨٨٦ ـ ٩٠١ هـ / ١٤٨١ ـ ١٤٩٥ م ، اتخذت البرتغال موقفاً نشطاً تجاه الاكتشافات والتجارة ، ففي ذو القعدة ٨٨٦ هـ /ديسمبر ١٤٨١ م أرسل دياغو ازيموجا (Diago de Azamluja) إلى (Mina do qura) رجال ومعدات لبناء مركز برتغالي هناك ، وبالتالي وصل (Diago) إلى مدخل زائير والكونغو ، كما زار ساحل أنجولا الشمالي ، وعند سماعه بوجود زعيم داخلي ، أرسل في البحث عنه وقد أخذ (Diago) معه العديد من الوطنيين عند عودته لبلاده ووعد بإعادتهم إلى وطنهم في العام التالي ، لكي يزوروا أوروبا ، وليكونوا وسطاء مع زعيمهم لإقامة علاقات مع البرتغال[٢] ، ولم تكن هذه الرحلة مثل غيرها من الرحلات السابقة إذ أنها اختبرت فيها اختراعات علمية على الطبيعة فكان الملاحون يعتمدون على النجوم لتحديد موقعهم واستمروا في ذلك عدة قرون حتى اخترع مارتين بيهام (Martin Behaim) الألماني أداة جديدة للإستعمال في البحار الجنوبية من خط الاستواء ورحل مع بعثة الكونغو السالفة الذكر لتجربتها بنفسه على الطبيعة[٣] . وفي عام ٨٩٠ هـ /١٤٨٥ م أرسل جون الثاني بعثة إلى روما لشرح ما وصل إليه ، وقد ذكر سفيره أن البرتغاليين سوف يصلون إلى الخليج العربي[٤] ليحاصروا المسلمين ويضربوا تجارتهم من ناحية ، ويهددوا الأماكن المقدسة من ناحية أخرى .

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١١ .

(٢) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 126.

(٣) G. Clark: Early Modern Europe P. 61

(٤) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 128.

وكـان الملك جـون الثـاني ملك البـرتغـال ٨٨٦ - ٩٠١ هـ / (١٤٨١ - ١٤٩٥) قد أخذ شكلاً جديداً تجاه مسؤولياته الملكية ، فعند تتويجه جمع البلاط في ايفورا (Evora) واضعاً شكلاً جديـداً للحكم ، وأخذ تعهـداً خطيـاً من النبلاء بجانب القسم ، بأن تكون أي قلعة أو مدينة تحت تصرف التاج عنـد الحاجـة ، ولعل ذلك يوضح مدى رغبة جون الثاني في مواصلة الحروب ضد المسلمين سواء في شبه الجزيرة الايبيرية أو في خارجها ، إذ لو كان الأمر مجرد اكتشافات لما وجدنا الملك جون الثاني يعمل ذلك ، كما أنه كان يحاول بقدر الإمكان أن يذلل العقبات التي قد تواجهه في سبيل الوصول لضـرب المسلمين ، كـما ثبت الملك سلطاته في القوانين والغاء مكتب (Asiontado) ، والذي كان يعقد بواسطة النبلاء نيابة عن الملك خلال المعارك ، وأنشـأ بدلاً عنـه الأفيدورز (Oviridores) ، كـذلك قـام بتثبيت حقوق البلاط ليسيطر على المجالس الخاصة[1] ، ولعلنا نلمس هنا تضاؤل نفوذ النبلاء الذي أدى إلى انهيار نظام الاقطاع الذي كان سائداً في شبـه الجزيـرة الايبرية خلال العصور الوسطى ، ليظهر مكانه النظام المركـزي الموحـد لمواجهـة الضغوط الإسلامية المتواجدة في شبه الجزيرة الايبرية والبحر المتوسط ، فأزداد نفوذ التـاج قوة ، وليكـون الملك هو المـوجـه الـوحيـد لقيـادة الحـرب ضـد الإسـلام والمسلمين .

وكـانت هناك عـدة عقبات واضحـة أمـام السلطات الملكيـة ، وهي تلك الصلاحيات الممنـوحة لـ (Bragacas) متمثلة في دوق (Guimarais Braganca) ومركيز (Villa Vicosa) وكونت (Bracelos) و(Neira) و(Ourem Arraidos) ، وكان (Braganca) حاكماً لأكثر من خمسين مدينـة وقلعة ، ويستـطيع اعـداد نحو ثلاثة آلاف فارس وعشرة آلاف جندي من المشاة ، كذلك كان شقيق جون الثاني الذي كان يسعى دائماً إلى الزيادة في ممتلكاته وامتيازاته ، وكان دائماً يطالب بترفيع

(١) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 123.

وضعه ، ورغبة من جون الثاني للقضاء على عليه كمركز قوة فقد اصدر جون الثاني أوامره إلى رجاله بالاستيلاء على مقاطعات الدوق ومحاكمته ، وهكذا تم إحكام السلطات الملكية دون تدخل من اتباع (Bragarcas) ، بينما كانت اسبانيا مشغولة بالحرب ضد غرناطة ، تلك الحروب التي استمرت عقداً من الزمان وذلك من ٨٨٦ هـ /١٤٨١ م ووصلت سطوة الملك إلى الحد الذي أصبح البلاط في (Evora) ابتداءً من ١٤٨١ م يُنادي بأن الرسائل البابوية لا تنشر إلا بعد موافقة الملك ، وأخذ المجلس البابوي يُراقب عن كثب القوانين التي تصدر يومياً في البرتغال ضد السلطات البابوية ، وفي مايو ١٤٨٣ م أدان (Sixtus/V) جون الثاني ، وإنه غير شرعي ، وإنه اغتصب حرية العبادة ، ويحاول إبادة الكنيسة إلا أن جون الثاني أرسل سفراءه في ١٤٨٥ م إلى روما للاحتجاج لإثبات أنه سيِّد في بلده[١] كل ذلك لتدعيم النظام المركزي الموحد ، أو بعبارة أخرى لتدعيم الدولة الحديثة لتستمر في متابعة الكشف والاستعمار والتصدي للإسلام .

في ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م تم زواج ولي عهد جون الثاني ألفونسو من الأبنة الكبرى للمبعوث الكاثوليكي (Monarch's Maria) في (Evora) إلا أنه في رمضان ٨٩٧ هـ / يونيو ١٤٩١ م قتل ألفونسو بعد أن وقع عن حصانه ، يتضح من ذلك أنه قد ترتب على هذا الزواج الكلاسيكي خضوع جون للسياسة العقائدية التي كان نظمها المبعوث الكاثوليكي[٢] .

كانت الجماعات اليهودية تعيش في شبه الجزيرة الأيبرية منفصلة ذات استقلال ذاتي في ظل القانون الإسلامي حتى القرن الرابع عشر وقليلُ ما هو معروف عن تاريخ اليهود في البرتغال غير أنه كان يوجد القليل من التجار اليهود في المدن والموانيء حتى القرن الثالث عشر في لشبونه (Lisbon) وجنوب البرتغال تحت الحكم الإسلامي ، وكان لهم تأثير كبير في القرن الثالث عشر من النواحي

(١) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. P. 142- 125

(٢) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 125

السياسية والاقتصادية وذلك لكونهم جامعي ضرائب وأطباء ومنجمين ووسطاء بين المسلمين والمسيحيين ، وقد امتد تأثيرهم هذا إلى البرتغال حيث عاشوا متمتعين بحماية التاج والنبلاء ، وازداد عددهم نتيجة للأمن والاستقرار وكانوا يسعون غالباً للهجرة إلى البرتغال . وهناك أكثر من ستمائة عائلة غنية ابتاعت حق إقامتها في البرتغال نظير دفع مبالغ معينة[١] .

عندماوصل مانويل الأول للعرش ، اقترح أن يتزوج إيزابيل الأبنة الكبرى لملك اسبانيا ، وأرملة البرنس ألفونسو ، وذلك حتى يتم إتحاد اسبانيا والبرتغال ، إلا أن فرديناند وايزابيلا اشترطا على مانويل أن يطرد اليهود وبناء عليه أمر مانويل أن يطرد اليهود والمسلمين الذين يرفضون التعميد ، واحتفل بالزواج في صفر ٩٠٣ هـ / أكتوبر ١٤٩٧م[٢] . ولم يكن لدى مانويل النية في فصل وتفريق مجتمع كبير له قيمه وعاداته ، وحاول أن يجمع الأطفال المسلمين واليهود ويعلمهم كمسيحيين على نفقة التاج ، كما وجه بقوة التهديد بعض اليهود ضد المسلمين خشية الأخذ بالثأر من المسيحيين في الأقليم الإسلامي ، ثم اعلن مانويل أن اليهود غير المعمدين يجب أن يرحلوا وعليهم التجمع في لشبونة ، وتجمع حوالى عشرين ألف في المدينة وكان ذلك لإقناعهم وإستمالتهم إلا أنهم رفضوا التعميد ورحلوا عن البرتغال[٣] .

كانت رعاية واحترام مانويل للأديرة الكاثوليكية ، لأنه يأمل بأن يكون هو أو وريثه قد يحكمون شبه الجزيرة الأيبرية كلها ، ووضعت الملكة طفلاً وتوفيت أثناء الولادة ، وتربى الطفل في قشتالة عند أجداده ، وفي شعبان ٩٠٥ هـ / مارس ١٤٩٩ م ، اجتمع آل (Cortes) البرتغالي في لشبونة لمناقشة الخلافة والوراثة إلا أنهم أظهروا شكوكهم وذلك لعدم تنشئته في البرتغال وطلبوا ضمانات إذا اتحد

(١) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. O. 126- 127.

(٢) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. P. 133- 134

(٣) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 134.

التـاجـات ، إذ ينبغي أن يتحكمـوا في الخـزانـة ، والعـدل والمـدن والقـلاع في البرتغال ، ولكن في محرم ٩٠٦ هـ /يوليو ١٥٠٠ م مات الأمير الطفـل (Miguel de paz) وبـذلك ضعف مـظهر الاتحـاد بين اسبـانيا والبـرتغال وانتقلت الـوراثة القشتالية إلى الأبنة الثانية للحكم الملكي الكاثـوليكي جواناالتي تزوجت فريدناند وريث الأمبراطـور مكسميليان وانجبـا شارل الـذي سيرث تـاج اسبانيـا وأرشيدقية برغندي (Burgundy) واللقب الأمبراطوري ، والممتلكات الباقية من كلا الوالدين ، بينما تزوج مانويل الأبنة الرابعة لفرديناند وايزابيلا ـ ماريا ـ وأنجب منها عشرة أولاد ، ووريثه في المستقبل جـون الثالث الـذي وُلد عـام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م[١] ، وهكذا لم ينجح الاتحاد بين اسبانيا والبرتغال في هذه الفترة بسبب الظروف السابقة وبذلـك من الطبيعي أن تكـون البرتغـال من أسبق ممالـك شبه الجزيرة الأيبرية مقاومة للعرب بحكم الظروف التاريخية إذ تأخرت أسبانيا بسبب انشغالها في تحقيق الوحدة الوطنية ، وفي حركة الاسترداد ضد العرب[٢] . وترتب على ذلك دخول الدولتين الأيبريتين في صراعٍ ضد الإسلام والمسلمين منفصلتين وفي ميادين تختلف عن بعضها البعض .

ومع بداية حكم دون مانويل دعم وعزز البرتغاليون امبراطوريتهم بـالفتح والاستيلاء على أجـزاء من المغرب واحتـلال جزر الأطلنـطي واكتشاف السـاحل الغـربي لافريقيـا ، فأستلم قـلاع سبتة التي سبق وإن فُتحت في عـام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م ، والقصر الصغـير ٨٦٢ هـ / ١٤٥٨ م ، واصيلا وطنجـة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م ، وعمل محاولة للامتداد ذلك ببنـاء قلعة (Graciosa) عنـد مصب نهر (Lukkus) ولكنه ثبت أنه غير عملي ، وعندما انسحب البرتغاليـون شيد سلطان مدينة العرائش قلعة لحماية المصب ، وتحت حكم مانويل أضاف البـرتغـاليـون إلى الفتوحات في المغرب الشمالي سلسلة من القلاع على سـاحل الأطلنـطي ، ولكن

(١) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. P. 134- 135.

(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٩٠٨ .

هذه القلاع كانت في الأصل مراكز استولوا عليها ، وعززت وقويت بغرض تأكيد الحقوق التجارية البرتغالية .

وبلغت قمة التوسع البرتغالي عام ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م عندما حارب (Nuno de Ataide) في مراكش ، واتجه بعيداً وبنى قلعة في المعمورة وأعد حملة هجوم على فاس هزمت وقتل في العام التالي أثناء غارة قرب مراكش[١] . أما بالنسبة لأسبانيا فكانت هي أهم قوة في أوروبا في هذا الوقت ، وكانت قشتالة هي أهم اقليم في اسبانيا وقد لعبت سلسلة من الأرث والزواج على تجميع الأقاليم واستقطاب الدول لدى ملوك اسبانيا ، وقد عرفوا كيف يديرون دفة سياستهم في هذا العصر[٢] وسنرى كيف ساعد الميراث والمصاهرة في الفترة التالية على تكوين الدولة المركزية الموحدة ، وأثر ذلك على الوجود الإسلامي داخل شبه الجزيرة الأيبرية ، وخارجها في الشمال الافريقي ودل صراع اسبانيا النصرانية على غرناطة ، على مدى إصرار الأسبان وتعصبهم وعنفهم بالنسبة لمسلمي غرناطة ، ولم يكن يخفف من هذا سوى أحداث داخلية شغلت بعض الأوقات .

ساهمت أقاليم عديدة في شبه الجزيرة الايبرية بمهاراتها الخاصة في سبيل تحقيق هدف واحد وهو الاتحاد ومن ثم حروب الاسترداد ، وتمكنت قشتالة بذلك من تحقيق نتائج حاسمة خلال العصور الوسطى ، واكتسب أهل قطالونيا وأراغون الخبرة الواسعة في المغامرات التجارية والاستعمارية في شمال افريقيا والشرق وأنشأ أهل جزيرة مايورقة مدرسة هامة لاعداد الخرائط توصلت إلى وسائل متنوعة لرسم خرائط الأرض المجهولة[٣] .

وهكذا رأينا من خلال ما عرضناه كيف كانت أوروبا ومعها شبه الجزيرة

(١) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. P. 135- 136

(٢) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٦٦ .

(٣) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 45

الايبرية تعيش في العصور الوسطى تحت ظل النظام الاقطاعي ، ثم قيام النظام المركزي الموحد ، لتتحد الأقاليم فيما بينها وتكون الدولة الموحدة في كل من البرتغال واسبانيا يكون هدفها هو حروب الاسترداد ولتستمر عجلة الحروب الصليبية فيما بعد .

في الوقت الذي بدأت فيه البرتغال نشاطها الاستعماري في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي ، كانت اسبانيا تتكون من مملكتي قشتالة وأراغون كما أشرنا من قبل ، وكانت قشتالة بحكم موقعها الجغرافي تتجه نحو المحيط الأطلسي ، وكانت بحكم دورها في الصراع مع المسلمين تهتم بما يجري في المغرب ، أما مملكة أراغون فقد كانت بحكم امتلاكها جزر البليار وصقلية وسردينيا ، ولوجود أحد أفراد أسرة أراغون الحاكمة على رأس حكومة مملكة نابولي ، وأخذت أراغون تتجه نحو البحر المتوسط ، لذلك كانت سياستها تهدف إلى تأمين طريق بحري آمن بين اشبيلية وصقلية الغنية بالحبوب وكان لا بد لها من أجل تحقيق ذلك إيجاد نقاط ارتكاز على سواحل شمال افريقيا[1] لذلك كانت مصالح المملكتين مختلفة لكن كان يجمعهم عامل واحد وهو عداؤهم للإسلام والمسلمين سواء المتواجدين في شبه الجزيرة الأيبرية ، أو في شمال افريقيا لذلك كان من الأجدى للممالك المسيحية داخل اسبانيا النصرانية أن تتحد لمواجهة الوجود الاسلامي في المنطقة .

وكانت قد تولى على عرش أراغون يوحنا « خوان الثاني » الذي سعى في أن يزوج ابنه فريدناند « الخامس » من ابنة عمه ايزابيلا القشتالية[2] ، التي كانت

(١) محمد خير الدين فارسي : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ١٤ .

(٢) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٢٥٩ .

سترث ملك قشتالة ، فأخذ ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها ، إلا أن اختيارها وقع على فريدناند ابن عمها الذي سيرث مملكة أراغون ، ومضت إليه رغماً عن إرادة الكثيرين من أعيان المملكة[1] مثل (Joan Beltraneja) خال ملك البرتغال ألفونسو الخامس ، والذي عارض ترشيح ايزابيلا لتكون ملكة لقشتالة ، بعد أن رشحها ألفونسو لترث ابنه هنري الرابع[2] وتمت مراسم الزواج في وادي الوليد سنة ١٤٦٩ م[3] .

اعتلت ايزابيلا عرش قشتالة سنة ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م ، وبعد ذلك بخمس سنين وفي سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م، وورث فريدناند عرش أراغون ، بعد أن توفي والده خوان الثاني[4] عندها ضم فريدناند الكاثوليكي مملكته أراغون وبلنسيه وقطالونيا وصقلية وميورقة إلى قشتالة ، وهكذا بينما كانت هذه الممالك النصرانية تتحد كانت الممالك الاسلامية تزداد فتقاً على فتق[5]. وكان ذلك من عوامل فشل الابقاء الأندلسي ، كاد يقع بين الزوجين الكاثوليكيين في أول الأمر الشقاق والاختلاف ، لكون فريدناند كان يزعم أنه هو الملك الوحيد ، ولا يوجد رجل سواه من سلالة اتريك دوترا ستامرا ، بينما تزعم ايزابيلا أن انتقال الأمر للنساء معروفٌ في عادات مملكة قشتالة ، وهي أقرب وريثة إلى آخر ملك فلها الحق وحدها في الملك ، وقرر فريدناند العودة إلى أراغون وهنا أخذت ايزابيلا تقدم له البراهين مقرونة بالرجاء بأن ما تدعيه هذا ضرورة لمصلحة ابنتهما ، على فرض أنهما لم يرزقا ذكراً ، ثم وعدت ايزابيلا فريدناند بأن يحكما سوياً بدون أن تخالفه في شيء ، وأن تقدم اسمه على اسمها في الأوامر ولكن لها وحدها الحق في تنصيب

(١) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٦٠ .

(٢) J. M. Gomez: Aconeise History of Spain P. 265

(٣) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٦٠ .

(٤) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ٩٨ .

(٥) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٦٢ .

الحكام والولاة[1] . وهكذا بدأت ايـزابيلا حكمهـا بخطوات وثيقـة وسرعـان ما بدأت المعارك الطاحنة فخاض مساعدو الأمير معـركة (Albvera Toro) وبعـدها وقعوا معاهدة (Trijilla) سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م[2] .

توصلت اسبانيا بهذا الزواج وذلك الاتفاق الى توحيـد الوحـدات الادارية فيهـا وذلك بضمهـا إلى بعض ووصلت إلى وحدتهـا الوطنيـة في عهد فريدناند وايزابيلا ، ولكن هذه الوحدة القومية كانت مرتبطة في شبه الجزيرة الأيبرية بصفة دينية وهي الصفة الكاثوليكية ، وعمل هذا العمل مع طبيعة معركة الاسترداد على الوصول إلى حالة عداوة مستمرة مع المغاربة ، وكانت معركة تاريخية بين الأسبانيين من جهة والمسلمين من جهة أخرى ، استخدم الأسبانيـون كل شـدة ممكنة وكـل تعصب يمكن تصوره[3] ، وكان الأيبريون عامة قد سيطر عليهم الخوف من الحركة الإسـلامية الممثلة في قـوة الدولـة العثمانيـة وحركـة الجهاد ، خـاصة بعـد فتـح العثمانيين للقسطنطنية[4] . وحاولت القيادات الموجودة في شمال افريقيا ارسـال النجدات للمسلمين في الأندلس ، ولكن هذه النجدات لم تؤدِ إلى نتيجة حاسمة لها قيمتها أمام نمو قوى الكاثوليك في النواحي العسكريـة والاقتصاديـة في مقابـل زيادة ضعف الامارات الاسلامية في بلاد المغرب سواء من الناحية الاقتصاديـة أو الحربية .

اتسمت فتـرة الاتحاد بعمليـة اصلاح اسبـانيـة واسعـة ، كـأنها إنعكـاساً لطموحات ايزابيلا في بناء مملكة قوية ، وما كان ذلك يكتمـل لديهـا دون إخراج الأندلسيين من غرناطة والقضاء على وجودهم في أسبانيا ولتضمن ايزابيلا القضاء على اية معارضة حقيقية لها بين النبلاء وعليـة القشتاليـين ، إذ كانت أقـاليم شبه الجـزيرة الأيبـريـة تعـود لقتـال بعضهـا بعضـاً أحيـانـاً فـور انتهـاء المعـارك مـع

(١) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٦١ .

(٢) J. M. Gomez: A concise History of Spain P. 266.

(٣) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ١٠ .

(٤) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 126

المسلمين[١] ، بالإضافة الى الوضع الأمني في الأقاليم الأسبانية إذ كثرت الأعمال اللصوصية وقطع الطرق وما كانت تخلو كورة من عبثهم وفسادهم[٢] ، وكل ذلك اعتبرت ايزابيلا أن تجديد الحرب مع الإسلام سبيلاً إلى ما لا يمكن توحيده في السلم ، ولطالما لجأت الدول إلى شن الحرب على دول أخرى لمجرد تحويل الانظار عن ضعف داخلي معين[٣] .

كان الضعف الموجود في اسبانيا يتمثل في مجموعة من المشاكل الداخلية وهذه صاحبت عمليات حروب الاسترداد بما اشتملت عليه من ضغوط ادارية وأزمات اقتصادية ، نتيجة لسيطرة الدولة على الموارد الاقتصادية ، حتى تتمكن من القيام بتنفيذ عملياتها الحربية ، ولذلك اضطرت القيادة الأسبانية الجديدة والمتحالفة مع الكنيسة الى توجيه انظار سكان شبه الجزيرة نحو الخارج ، وأخذت ترفع من درجة حماسهم حتى ينسوا بؤسهم ، لذلك يصعب على أي مؤرخ أن يصف حركة الاسترداد بأنها حركة تحرر ، إذ أن أوضاع أسبانيا في ذلك الوقت كانت تبعد كل البعد عن معنى الحرية ، حتى في علاقة الحاكم والمحكوم[٤] .

وكان فرديناند وايزابيلا في محاولة مستمرة للسيطرة ، وكان تاريخهما عبارة عن فترة ممتدة من النشاط الاداري الصبور والحازم حتى اضطر المجتمع الأسباني إلى الوحدة لأن الحرب الصليبية في البحر المتوسط ضد المسلمين ، كانت تستنفذ الوقت والنشاط المالي وهي عوامل جوهرية لهذه الأهداف والمشاريع ، وحيث أن الحكومة انشغلت بضغوط وطلبات الحرب لذلك اضطرت أن ترضى بالواقع الممكن في حين تركت مشاكل الدولة المحلية العميقة دون أن تُمس[٥] .

(١) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ٩٨ .
(٢) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٦٨ .
(٣) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ٩٨ .
(٤) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ١٨ .
(٥) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. P. 129- 130.

وكما قدمنا فقد هيأ اقتران فرديناند ملك أراغون وايزابيلا ملكة قشتالة لإتحاد اسبانيا ، ولكن لم يدمج المملكتين معاً ، فقد ظل لقب ملوك اسبانيا موجوداً ، ولم يكن فرديناند ملكاً على قشتالة ، إلا بوصفه زوج ايزابيلا وكانت صور الأثنين تظهر على العملة والأسلحة والرايات ، وقد أفادت قشتالة وحدهم من ضم غرناطة ومن الكشوف الجغرافية ، ولكن لم يكن هناك سياسة اسبانية داخلية فقد كانت هناك سياسة اسبانية خارجية واحدة يواجهها فرديناند الذي نجح في إثارة اهتمام قشتالة بمسائل القارة وشبه الجزيرة الإيطالية[1] ، بينما احتفظت أراغون بتقاليد التوسع الإستعماري في جزر الباليار وسردينيا ومالطة ونابولي وصقلية (Sicily) ، ولم تشترك قشتالة معها كثيراً في هذا المضمار[2] ، بينما نجد فرنسا قد قامت بمحاولات لبسط سيطرتها في شمال ايطاليا ولتكون منافسة لأسبانيا لتنعكس مصالح الأثنين في البحر المتوسط[3] . ومع هذا تمكن فرديناند من تسخير ثروة ونشاط قشتالة للأغراض الأرغوانية ، ومواصلة حرب ناجحة ضد فرنسا للهيمنة على ايطاليا الشمالية ، وقد غرس استراتيجية طويلة المدى للفتح الايطالي ، كمبدأ ارشادي للسياسة الأسبانية الخارجية ، وورث هذه الاستراتيجية شارل الخامس ، وتابعها بنجاح لدرجة أنه في أوائل الثلاثينات من القرن السادس عشر كانت غالبية شبه الجزيرة الايطالية في يد الأسبان ، أو تحت التأثير الأسباني ، وفي نفس الوقت بلغ الهجوم العثماني الجريء والافريقي الشمالي ضد العالم المسيحي نسبة هائلة ، وهددت الأساطيل العثمانية ومجاهدو الجزائر باكتساح البحر المتوسط لاخلائه من التجارة المسيحية[4] وسنتعرض لذلك بالتفصيل في الفصول التالية .

(١) محمد خير فارسي : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ١٤ ـ ١٥ .

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. P 129- 130

(٣) Stanford Show: A History of Ottoman Empire P. 69.

(٤) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 124

لتحقيق الهدف الصليبي استخدمت اسبانيا العنف وسفك الدماء وحمل المسلمين على التنصير وتدمير قرى ومدن المناوئين منهم ، وارتكب الأسبان جرائم بشعة في حق الحضارة والعلم ، باضطهاد الحضارة الاسلامية ، وحرق كتب العلماء ومصاحفهم ، مع أن حضارة المسلمين كانت النور الذي أخرج أوروبا من ظلمات العصور الوسطى الى العصر الحديث[1] ، وشعرت اسبانيا بالقوة نتيجة لهذه الأعمال ضد المسلمين في غرناطة وسنرى ذلك فيما بعد .

أشرنا إلى أهمية الزيجات السياسية والمصاهرة في تاريخ شبه الجزيرة الأيبرية ، وأن ايزابيل ابنة فرديناند وايزابيلا تزوجت من ألفونسو أمير البرتغال ، ولما توفي تزوجت عمانويل الذي ارتقى عرش البرتغال ٩٠٥ هـ /١٤٩٥ م ، وعند وفاتها تزوج عام ٩٠٨ هـ /١٤٩٨ م ، اختها ماري[2] . أما الأميرة جوان ابنة فرديناند وايزابيلا فقد تزوجت الأمير فيليب أمير بورندي وابن الأمبراطور مكسميليان أمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة وأنجبت شارل الخامس . أما الأميرة كاترين فقد تزوجت أمير ويلز ، وكل ذلك أعطى اسبانيا مكانة كلاسيكية وشيئاً من العالمية والوطنية[3] ، واستغلت ذلك في التغلب على كثيرٍ من مشاكلها وتحقيق أهدافها سواء في شبه الجزيرة الأيبرية ، أو في خارجها ، كما لاحظنا من وضع قشتالة يدها على جزر الكناري بعد معاهدة ٨٨٤ هـ /١٤٧٩ م ، والذي تنازلت فيها البرتغال لقشتالة عن تلك الجزر مما أثر في توجيه قشتالة انظارها للمحيط الأطلسي وكان هذا شيئاً بالغ الأهمية في تاريخ فتوحاتها عبر البحار نظراً لما تتمتع به جزر الكناري من موقع جغرافي له قيمة

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٢٣ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٢٤ .

(٣) J. M. Gomez: Aconcise History of Spain P. 269.

كبيرة ، إذ جعلت منها مركزاً مرحلياً ضرورياً للطريق إلى العالم الجديد ، ورست الحملات الأربع بقيادة كولومبس أمام أرخبيل الكناري وهكذا تشكلت الحلقة الكاملة بين الاسترداد في اسبانيا واكتشاف أميركا[١] .

وكان أهل قشتالة قد اكتسبوا خبرة واسعة تجارية وبحرية خاصة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فنشطت حركة المسيتا (Mesta) ورواج تجارة الصوف ببلاد شمال أوروبا ، وتسبب ذلك في تطوير موانىء شمال اسبانيا مثل سان سبيستيان (San Sebastian) ولاريدو (Laredo) وسانت نديرر (Santander) وكورونيا (Corunna) والتي سبق وأن اتحدت في عام ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م في رابطة واحدة تحت اسم هيرمنداد دي لاماريس ماس (Hermandad de las Marismas) بهدف حماية مصالحها التجارية الداخلية والخارجية ، كما نمت مدينة اشبيلية وتجار بلاد البحر المتوسط لمناقشة المشاريع الجديدة وتأسيس شركات جديدة والاعداد لمغامرات كبرى وكانت المدينة بمثابة برج أوروبا لمراقبة شمال افريقيا والأراضي الواسعة عبر المحيط الأطلسي[٢] .

ولكل هذا قرر فرديناند وايزابيلا في اسبانيا أن يعضدوا خطة كولومبوس وكان هذا ليس بسبب أن ناصحي فرديناند وايزابيلا وخبراءهم قد اقتنعوا فجأة بصحة مناقشات وجدل كولومبوس ، ولكن بسبب أن وزير الخزانة الملكي لويس سانتانجل (Luis de Santangel) قرر أن يمده بجزء من الامداد المادي والضروري ، فأنضم سانتانجل وارتبط مع مجموعة من المولين من جنوده الذين يعملون عبر اشبيلية وراقب تمويل مجموعة سانتا هرمانداد (Santa Hermandad) المؤسسة المسؤولية عن النظام المدني في قشتالة[٣] .

لقد اكتشفت اميركا ، ولكن لم يكن اكتشافها عن طريق محاسن الصدف ،

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 64

(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 45.

(٣) Don O'Sullivon: The Age of Discavery P. 27.

بل كانت شبه الجزيرة الايبرية أحسن دول أوروبا في استعدادها لتنتشر عبر البحار في أواخر القرن الخامس عشر ، بالرغم من قيام قشتالة بفتح العالم الجديد وإستعماره ، ويعتبر هذا الانجاز من أهم انجازاتها السائدة إلا أنه تم على أساس ايبري مشترك[1] . وهو الهدف المشترك لضرب المسلمين وتجارتهم للوصول إلى مناطق التوابل في الهند عن طريق (الغرب) .

وفي ١٥ جمادي الأولى ٩١٠ هـ / نوفمبر ١٥٠٤ م توفيت ايزابيلا في (Medina del compa) وكانت وصيتها تدل على حنكة سياسية جديرة بالملاحظة[٢] ، فأوصت زوجها فرديناند بمتابعة الحملة الصليبية ضد الكفار « المسلمين » في المغرب والاستمرار في الابتعاد عن ساحة الصراع في أوروبا ، واستجاب فرديناند لوصية زوجته فكانت بعض الحملات على الشمال ، ولكن معظم جهوده تركزت على منازلة الفرنسيين مستخدماً الساحة الايطالية لذلك الصراع ، وحقق فرديناند انتصاراً كبيراً على الفرنسيين في ايطاليا[٣] .

وكانت ايزابيلا قد تركت عرش مملكة قشتالة لابنتها جوان ، التي كانت مصابة باختلال عقلي ، وأصبح زوجها فيليب نائباً لها حتى يبلغ أكبر ابنائها سن الرشد ، وكان فرديناند يطمح في حكم مملكة قشتالة ولكنه حاول أن يتجنب حرباً أهلية قدر الامكان حتى لا يؤثر ذلك في مواجهة الإسلام والمسلمين . وفي ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م ، كان موت فيليب المفاجيء فرصة لفرديناند لحكم مملكة قشتالة مرة أخرى[٤] ، وكانت آخر سنوات حكمه ، الذي كرس جهوده فيها لوقف توسع الفرنسيين في أوروبا ، ودعم ممتلكات أراغون في البحر المتوسط ، وضم مملكة نافارا الى سلطانه متذرعاً بأن مملكة نافارا تحاول التآمر عليه مع

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 44.

(٢) J. M. Gomez: Aconcise History of Spain P. 273

(٣) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٤) J. M. Gomez: Aconcise History of Spain P. 273.

الفرنسيين فسير إليها جيشاً سنة ١٥١٢[١] . وفي عام ٩٢٢ هـ /١٥١٦ م توفي فرديناند تاركاً أسبانياً لحفيده شارل الأول ابن الأميرة جوانا ، التي تزوجت من الأمير فيليب ، كما ورث شارل الأول المقاطعات الألمانية المملوكة لأسرة الهابسبرج من جده لوالده ماكسيميليان عام ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م حيث تم اختياره في نفس العام امبراطوراً على الأمبراطورية الرومانية المقدسة . . .

وكانت المصاهرات داخل الأسرة الحاكمة قد تسببت في نتائج هامة ، أثرت على تاريخ أوروبا كله حتى قيام الثورة الفرنسية ، وجعلت من أسرة الهابسبرج قوة عالمية[٢] ، وذلك بعد وصول شارل الأول إلى عرش اسبانيا ، الذي ينتمي لأسرة الهابسبرج ، وكثير من المعاصرين تخيلوا في ذلك الوقت أن شارل يهدف لجمع هذه السلسلة من الأملاك التي ورثها في مملكة يحكم بها غرب أوروبا وفي الحقيقة لم يفكر شارل في أي من هذه الأفكار العظيمة ، ولم يستطع خلق نظام واحد لجميع الولايات التي يملكها ، ولو نجح في ذلك لأعتبرت الولايات ذلك تدخلاً ومنعاً لحرياتها حتى لو كانت شخصية ، كما أستطاع أن يعطي لشخصيته حرية التحرك ، ولكن في محاولة للحفاظ على كل ما ورثه من أملاك وجد نفسه في صراع مستمر على كل الحدود[٣] .

وهكذا اتحدت الممالك الأسبانية المسيحية وبعض من أجزاء القارة لتوجه قواتها إلى العالم الاسلامي وليبدأ الصراع بين الاسلام والمسيحية من أجل السيطرة على غرب البحر المتوسط بعد أن كانت الهيمنة الإسلامية في اسبانيا ، تلك الهيمنة التي جعلت من البحر كله بحيرة اسلامية ، لكن قيام الدولة العثمانية وتقدمها في جنوب شرق أوروبا قد حفظ للإسلام هيمنته في الحصن الشرقي للبحر المتوسط ، وأصبح واضحاً أن الصراع العالمي آتٍ لا ريب فيه بين هاتين الهيمنتين ، الإسلامية في شرق المتوسط والصليبية في غرب هذا البحر .

(١) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٢٤ .

(٢) G. Clark: Early Modern Europe P. 42.

(٣) G. Clark: Early Modern Europe P. 43.

بدا لنا أن ظهور قشتالة على الساحة الأوروبية كان من خلال النضال الذي خاضته الممالك الشمالية في شبه الجزيرة الايبرية ضد الأندلسيين على مدى عدة قرون ، حتى تحولت معه إلى آلة قتال ، لا تستطيع أن تضمن استمرار قوتها أو وحدتها ، إذا لم يتوفر لها التوسع على حساب القوى الأخرى[١] .

وكانت لانتشار حركة الاسترداد في أواخر القرن الثالث عشر إلى مدينة طريف (Tarifa) على مضيق جبل طارق ، قد وفر لقشتالة ساحلاً بحرياً ثانياً على المحيط الأطلسي عاصمته اشبيلية ، بعد أن استولى عليها فرديناند الثالث للمرة الثانية عام ٦٤٦ هـ /١٢٤٨ م ، وتأسيس مركز تجاري راسخ في اشبيلية شمل كثيراً من النبلاء المرموقين المتطلعين إلى إمكانيات جديدة للثراء التجاري[٢] . ولعبت الكنيسة القشتالية دوراً حاسماً في حشد طاقات الممالك الشمالية ضد الأندلس على مر القرون ، وليمتد الصراع بين النصرانية والاسلام ، وترتب على ذلك انتقال الحرب الى العدوة المغربية في منتصف القرن الثالث عشر وبعده[٣] ، والتي كانت امتداداً للفكرة الأساسية التي تطورت مع تقدم قوات الممالك الشمالية في شبه جزيرة ايبريا نحو الجنوب الأندلسي وتصورت تلك الممالك أن انتقال

(١) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٢٢ .

(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 45.

(٣) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٧٨ .

الحرب مع المسلمين إلى المغرب يعني متابعة للحملات الصليبية وفي الفترة بين سنتي ٦٥٠ ـ ٦٥٢ هـ /١٢٥٢ ـ ١٢٥٤ م أي بعد احتلال القسم الأعظم من الأندلس وضع ألفونسو العاشر ترتيبات لغزو المغرب بموافقة الكنيسة في روما ، ولكن التخوف من القيام بهجوم اندلسي معاكس أدى إلى تأجيل الحملت حتى ٩٥٩ هـ / ١٢٦٠ م فأرسل ألفونسو ثلاثين سفينة هاجمت مدينة سلا بغرض احتلالها ، ولكن لم يستمر الهجوم طويلاً إذ قرر ألفونسو صرف النظر عن مهاجمة السواحل المغربية ، والاهتمام بإنهاء مملكة لبلة في غرب الأندلس[١] حتى استطاع أن يفتحها بعد سنتين ١٢٦٢ م ويطرد سكانها[٢] . وسقطت مدينة مرسية للمرة الثانية سنة ٦٦٥ هـ /١٢٦٦ م واعتبر ذلك التاريخ نهاية استكمال الممالك الشمالية المسيحية للأندلس ، وما تبقى من ممالك اسلامية في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الأيبرية كان خاضعاً للجزية ، ومع انتهاء هذه المرحلة مرحلة التوغل الكبير في الجنوب الأندلسي ، انصرفت أراغون إلى بناء امبراطوريتها في البحر المتوسط ، وتركت عملية استكمال فتح الأندلس لملوك قشتالة[٣] وهذه كانت قد رسمت خلال العصور السابقة تقليداً عسكرياً لخوض حرب صليبية ، اكتسبت من خلاله أمبراطورية عبر البحار في القرن السادس عشر وأحرزت عن طريقه الخبرة البحرية التي صارت هي الأساس للتحرك للاستيلاء على الأراضي عبر البحار[٤] ومن ثم أخذت زمام المبادرة في الحرب الصليبية في العصور الحديثة .

كانت كلمة فتح بالنسبة لأهل قشتالة تعني أساساً تثبيت الوجود الأسباني وضمان المراكز القوية وشراء الممتلكات من الشعوب المقهورة وكان هذا النوع من الحرب قد اختبر في اسبانيا في عصورٍ سابقة ، وأُعيد اختباره في شمال افريقيا .

(١) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٣١ .

(٢) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ٣٠٥ .

(٣) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ٩٢ .

(٤) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 44.

وعلى الرغم من وجود موانع طبيعية حدت من امكانيات نجاحه منذ البداية وذلك بسبب صعوبة تضاريس البلاد ، وقلة الغنائم ، إذ قدمت أفريقيا بعكس الأندلس للمحارب القليل مما يسترعي انتباهه ، وذلك لأن هدف المحارب في هذا الوقت هو الحصول على مكافآت مادية بمجهوده الشاق بدلاً من المكافآت الروحية ، لذلك انخفض حماس الخدمة العسكرية في افريقيا انخفاضاً سريعاً[1] .

وكانت أسبانيا التي نشأت وترعرعت أثناء قيام دولة المسلمين بالأندلس والتي استمرت تُقاتل المسلمين طيلة قرون عديدة ، قد قامت على أُسس دينية صرفة ، وكأنها تربت بين جدران الكنائس وقد أشعل رجال الدين من قساوسة ورهبان جذوة الحماس الصليبي للشعوب الايبرية المختلفة ، حتى الخاضعين لحكم المسلمين ، فجمعوا الشعب مستعملين كل وسائل الترغيب والترهيب ، حول هذه الدول ، مقابل انهم تسلموا فيها زمام السلطة وأشرفوا على سير الأمور[2] .

وكان اللون الديني الذي أعطاه المسيحيون لحركتهم الخاصة بإعادة غزو الأندلس واسترجاعه من الحكم الإسلامي سبباً أساسياً في أن تتبلور المعركة في شكل صراع ديني بين الصليب والهلال ولم يتورع الأسبانيون عن الإصرار على هذا اللون المسيحي لحركتهم حتى يصلوا إلى ضمان الحماس الشعبي اللازم للتغيرات الهائلة المنتظرة[3] .

وفي غمرة الصراع ما بين العالمين الآسيوي والأوروبي وفي زحمة ابتهاج العالم الاسلامي لسقوط القسطنطنية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح كانت أوروبا ممثلة بدولتي اسبانيا والبرتغال تعيش حلم تأسيس الأمبراطوريات في الشرق وإعادة

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 44.

(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة عام ، ص ٧٩ ـ ٨٠ .

(٣) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ١٧ ـ ١٨ .

سيرة الاسكندر الأكبر بعد ألف وثمانمائة سنة[١] ، لم تجد الجيوش العثمانية عناء في البداية عند فتح القسطنطنية ولا في هزيمة الصرب والبلغار والاخلاف والبغدان ، تلك القوى التي اتحدت مع بعضها عندما تقدمت إلى أدرنة ، ولكن الحرب أصبحت بعد ذلك أكثر صعوبة عندما توجس خيفة سيمسون ملك المجر عندما فقدت الصرب والبلغار استقلالها ، وهنا التجأ إلى البابا ، الذي استجاب لندائه فأعلن اشارة الخطر في أوروبا ودعاها إلى إتحاد مسيحي ضد الغزاة المسلمين ، فكانت هذه الحرب بداية حروب صليبية حديثة متواترة ، ظل البابوات يحرضون عليها مدة قرنين ونيف ويشتركون عسكرياً وبحرياً في معظمها[٢] .

وكانت حركة الاسترداد في قشتالة قد توقفت تقريباً خلال الاضطرابات الأهلية في النصف الأول من القرن الخامس عشر ، إلا أن سقوط القسطنطنية أشغل الدول المسيحية مرة أخرى واستجاب هنري الرابع ملك قشتالة بدافع الواجب لنداء البابا نحو إقامة حركة جديدة باستئناف حركة الاسترداد[٣] .

وكان الأسبان والبرتغاليون يتلقون الدعم من أوروبا ويقاتلون المسلمين في الأندلس بغية إخراجهم منها تحت راية الصليبية ، حتى تمكنوا من ذلك ، وكان على العثمانيين الذين كانت دولتهم في أوج قوتها أن يُقاتلوا من جهة الشرق ليخففوا الضغط على المسلمين في الأندلس ولردع الصليبية لتقليل هجماتها على بلاد المسلمين[٤] ومحاولة منهم للوصول من شرق أوروبا إلى جنوبها الغربي لإنقاذ الأندلس .

إن ميدان الحروب الصليبية لم يكن مقصوراً على المشرق وإنما شمل غرب البحر المتوسط كذلك ، فثارت بين المسلمين في الأندلس والنصارى في الشمال

(١) قدري قلعجي : الخليج العربي ، ص ٣٤٧ .
(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ٧٢ .
(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 34.
(٤) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٣ .

حروب طويلة هي التي عُرفت بحروب الاسترداد (Reconquista) وهذه الحروب اتصفت بشدتها وقسوتها ، ولا تقل شراستها بل تـزيد عما دار في الشرق بين الإسلام والمسيحية ، بل كانت الروح الدينية فيها أوضح وأغلب من تلك التي قامت في المشرق[1] . ويمكن أن نقول أن هذه امتداداً لتلك ، لقد أعطت الحروب ضد العرب والمسلمين البرتغال دفعة دينية قوية حتى أن الملك يوحنا الأول صرح بأن الميدان الحقيقي الذي يكسب فيه افراد البيت المالك الفخر هو ميدان الحرب ضد المسلمين في المغرب ، وأنه سيمنح أكبر وسام في بلاده ، وسام السيد الأعظم ، لمن يحارب في هذا الميدان ، ونال هذا الشرف ابنه الأمير هنري الأبن الثالث للملك الذي تصدى لهذه المهمة ، كما أوضحنا من قبل ، وكان لاغداق الملك عليه بالرتب من دوافع استخفافه بالمخاطر في سبيل تحقيق الهدف الذي أعلن عنه الملك البرتغالي وفي هذا المجال أشار الضابط البرتغالي (فاسكو دي كا أفللو) مؤرخ الاستعمار البرتغالي في هذه الفترة إلى الروح السائدة بين الشباب البرتغالي عامة يومئذٍ قال :

« إن الشباب البرتغالي كان يعتقد أن المسلمين إذا التجأوا من شبه جزيرة الأندلس إلى الشمال الأفريقي ، فإن الواجب يحتم على المسيحيين ألا يتركوهم ينعمون بالمقام هناك بل أن يتعقبوهم حيث وصلوا »[2] .

وكان الأمير هنري قد ترأس جماعة عُرفت باسم « جماعة المسيح » ونواة هذه الجماعة بعض الفرسان الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهم ، فلجأوا إلى البرتغال وكانوا بطبيعة الحال يتوقون للإنتقام من المسلمين ، وهو نفس هدف الامير هنري ، الذي صرح بأنه يعمل عملاً يتقرب به إلى الله عن طريق التبشير بالمسيحية الكاثوليكية في سواحل افريقيا الشمالية وبين الوثنيين الأفارقة . وظلت هذه الجماعة من بعده تسهم إسهاماً خطيراً في اشعال الروح

(١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .
(٢) شوقي عطا الله : المغرب العبير الكبير في العصر الحديث ، ص ٤٢ - ٤٣ .

الصليبية الاستعمارية وكان الأمير هنري قد راودته فكرة رسم خطة كاملة لحملات بحرية تستولي على سواحل افريقيا الشمالية لتصل إلى مصادر الثروة التي كانت تُعتبر الأساس الذي يستند عليها المسلمون لتدعيم جيوشهم ، وكانت هذه الخطة تتجه أولاً إلى الوصول إلى غانة التي ذاعت شهرتها لثروتها وتجارتها مع المسلمين[١] ولقد بحث البرتغاليون عن مناجم الذهب الواقعة في غانة (Guina) والعبيد والعاج بعد احتلالهم سبتة (Ceuta) إذ كانت تقع على الحدود للتجار الذين كانوا يأتون من الجنوب عبر الصحراء[٢] . ومعنى هذا اختلاط الروح الاستعمارية بالحركة الصليبية اختلاطاً تاماً في العصر الحديث . ولما كانت ثغور المغرب تعتبر هي المنافذ الرئيسية لهذه التجارة وتلك الثروة ، فقد رأت الصليبية أن تقطع على المسلمين هذه التجارة ، وبذلك تكون قد استنزفت مصادر قوة البلاد الاسلامية في شمال افريقيا ، كذلك امتدت هذه الأهداف الصليبية إلى نشر المسيحية بين سكان المناطق الواقعة خلف السواحل الأيبرية واستخدامهم بعد ذلك لتحقيق المشروعات الصليبية .

تطورت خطط الصليبية البرتغالية الى مدى أوسع من ذلك ، فكان التفكير في الوصول إلى بلاد الحبشة المسيحية ، وهي مملكة ذاعت شهرتها وملأت الأسماع في أوروبا ولكن ظل موقعها غير محدود بالضبط[٣] حتى زار الأحباش أوروبا في منتصف القرن الخامس عشر ، إذ أشارت الوثائق البرتغالية أنه في سنة ٨٥٦ هـ /١٤٥٢ م وصل جورج رسول يوحنا القس[٤] .

كان الغرض من الوصول إلى الحبشة هو عقد حلف مع هذه المملكة المسيحية ليتعاونا في تطويق بلاد المسلمين واحتلال مكة والمدينة ومحاولة استرداد

(١) شوقي عطا الله : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، ص ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ .
(٢) Roger Lockyer: **Habsburg** and Bourbon Europe P. 31
(٣) شوقي عطا الله : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، ص ٤٣ .
(٤) H. V. Livermore: A new History of Portugal P. 128.

بيت المقدس ، ويمكن بذلك أيضاً الوصول إلى بلاد المشرق التي تدر على المسلمين في الشرق ، المماليك في مصر والشام والحجاز ، أرباحاً طائلة من جراء احتكار السفن العربية نقل هذه البضائع حتى موانىء البحر المتوسط اضافة إلى الضرائب التي تُجبى عليها[١] .

ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي أصبحت البرتغال قلعة المسيحية الكاثوليكية في شبه الجزيرة الأيبرية وإن الإسلام كان بالنسبة للبرتغال كما رأينا كابوساً يرغبون في إزاحته ، وهكذا طبع البرتغاليون على التعصب وعدائهم للإسلام والعرب ، وبنزعتهم الصليبية التي جعلتهم لا يستولون على بلد إسلامي إلا محو آثار المسلمين منه محواً ، وكانت البرتغال قد برزت على المسرح الصليبي بعد سلسلة من الحروب الصليبية شنتها على المسلمين في شبه الجزيرة الأيبرية ، مما جعلها تتخذ من شن الحرب عليهم ومعاداتهم محوراً لسياستها العامة[٢] .

أما بالنسبة لأسبانيا فقد توغلت ست حملات عسكرية ضخمة داخل مملكة غرناطة بين أعوام ٨٦٠ ـ ٨٦٢ هـ / ١٤٥٥ ـ ١٤٥٧ م ، إلا أنها خاضت معارك لا تذكر ، ولم تحقق نتائج هامة ، وأعتبر الملك هنري الرابع ملك قشتالة الحرب الصليبية ذريعة مبدئية لجباية الأموال من الرعية ، وتحت الإشراف البابوي ، ومع كل ذلك لم يكن الحماس الحقيقي للحرب الصليبية متوفراً لدى البلاط الملكي ، ولا بين شعب قشتالة ، الذي كان قد أُجبر في عام ٨٦٩ هـ /١٤٦٤ م ، على مغادرة أراضيه باعداد غفيرة للإشتراك في الحرب الصليبية ضد العثمانيين[٣] أثر سقوط القسطنطنية إذ كانت الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الأيبرية في هذه الفترة في حالة من الخوف والفزع من هذه القوة القادمة من الشرق والتي لا بد من أن يتصدى لها العالم المسيحي ، وهناك أيضاً ممالك اسلامية في شبه الجزيرة الأيبرية

(١) شوقي عطا الله : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث ، ص ٤٣ .
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٢ .
(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 34.

يجب أن تنتهي ، ويستردوا أراضيها .

وعندما اعتلى فرديناند وايزابيلا العرش ، واتحدت المملكتان كما أشرنا ، كانت فكرة الحرب الصليبية عندها قائمة على اختلاف أنواعها الدينية والشعبية والعاطفية ، كلها تساهم في تجديد القوى الحربية ضد غرناطة أكثر من غيره ، في بلد مجتمعه وراء حكامه ، واندمج التاج مع الشعب في انجاز يرفع اسم اسبانيا عالياً في العالم المسيحي(١) .

وبعد أن تحررت أسبانيا من طاعون الحرب الأهلية ، وبعد أن استتب الوضع الداخلي ، بدأوا في فتح مملكة غرناطة حيث استغرقوا في ذلك عشرة سنوات من ٨٨٦ ـ ٨٩٧ هـ /١٤٨١ ـ ١٤٩١ م ، وبدأ الهجوم في عام ٨٨٧ هـ /١٤٨٢ م فسقطت أولاً الحمة (Al Hama) وواصل المسيحيون فتوحاتهم إلا أنهم صدوا في مدينة لوشه (Loja) في نفس السنة .

وكان أبو عبدالله بن الأحمر قد خاض معركة طاحنة في مدينة اللسانة (Lucena) سنة ٨٨٨ هـ /١٤٨٣ م ، وانتصر في تلك المعركة ، ولكنه قام بعد ذلك بمحاربة منافسه وخاله في نفس الوقت الزغل ، عندها انتهز المسيحيون الفرصة فآحتلوا مدينة لوشة (Loja) عام ٨٩٢ هـ /١٤٨٦ م ، ومالقة (Malaga) ٨٩٣ هـ /١٤٨٧ م ، ووادي آش (Guadix) ٨٩٥ هـ /١٤٨٩ م ، ومدينة بسطة (Basa) في نفس السنة(٢) .

وكانت العلامات المميزة لهذه الحرب الأرض الجبلية الغير مناسبة لتحركات سلاح الفرسان وكان جونز ألو دي كوردوبا (Gonzala de Cordoba) قد اكتسب خبرة ثمينة في حروبه في ايطاليا وكانت هذه الحرب حرب حصار برز فيها دور المدفعية وسلاح المشاة(٣) . ويجب أن لا ننسى الدور الأساسي الذي قام به البابا في

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 34.

(٢) J. M. Gomez: Aconcise History of Spain P. 266.

(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 34.

مدينة روما من أجل حمل البلاد المسيحية قاطبة على وضع امكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك اسبانيا من أجل إبعاد المسلمين عن بلاد الأندلس ومن أجل اخضاع بلاد الشمال الأفريقي للحكم والدين المسيحي أخيراً ، فالبابا على رأس المسيحية قد أصدر أمره لكل المسيحيين بأن يستمروا في دفع الضريبة الصليبية (Grusada) لملوك اسبانيا من أجل الحرب ، وقد جمع القساوسة والرهبان أموالاً باهظة في ذلك السبيل ، بل إنهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة حتى يزودوا الجيوش المسيحية بالمال والعتاد(١) .

وكانت حرب السنوات العشرة ٨٨٧ ـ ٨٩٧ هـ /١٤٨٢ ـ ١٤٩٢ م ، والتي شنها الملكان الكاثوليكيان فرديناند وزوجته ايزابيلا هي طاعة للأمر الصادر لهما من البابا في روما والذي سبق وأن فرض على المسيحيين ضريبة الصليبية ، وبعد حروب ووقائع كانت سجالاً وتغلبت العزيمة الأسبانية والقوة المسيحية على عوامل الانهيار والاضمحلال التي سادت المسلمين في غرناطة(٢) .

كما كان سلاح المشاة الأسباني يتكون إلى حدٍ ما من المرتزقة والمتطوعين الوافدين من جميع القارة الأوروبية وجزء منه الحرس الوطني المجند من داخل قشتالة والأندلس الذين امتازوا بقوة واسعة في تحمل الحر والبرد ، جعلتهم جنوداً مهيبين على أرض المعارك في أوروبا والعالم الجديد وفي حرب غرناطة حيث امتاز الهجوم المفاجىء والمناوشات المستمرة محققاً هذه الانجازات بفضل التدريب على القتال الحربي الفردي والذي أوغل في الابداع فيه(٣) .

وأعد المسيحيون خطة حربية هجومية لانهاء الوجود الاسلامي في شبه الجزيرة الايبرية ، وتضمنت المرحلة الأخيرة من الخطة قطع كل علاقة الأندلس

(١) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٨٠ .
(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٤٣ .
(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. P. 34, 36.

بالعدوة الافريقية ، والتي كانت تمد المجاهدين في مملكة غرناطة بكل وسائل الدفاع ، وذلك عن طريق الاستيلاء على الشواطىء الجنوبية ، وبالفعل تم تطويق مملكة غرناطة عندما احتلوا مالقة (Malaga) والمنكب (المنيكار) والمرية كما تضمنت الخطة المسيحية على تشجيع الانقسامات الداخلية عند المسلمين وذلك بممالأة جانب من المتنازعين على جانبٍ حتى انتهى الأمر بانقسام المملكة الاسلامية الصغيرة الى شطرين ، الانحاء الشرقيّة في وادي آش (Guadix) ويحكمها محمد الزغل ، والانحاء الغربية ويحكمها أبو عبدالله محمد بن علي ابن الأحمر في غرناطة ، وبذلك تمكن فرديناند من القضاء على الامارة الشرقية على انفراد قبل أن يتوجه بكل قوته نحو غرناطة[١] .

واندفعت بعد ذلك الجيوش الأسبانية لتصفية آخر الممالك الاسلامية الأندلسية .

وكان السلطان المملوكي الأشرف قايتباي قد بعث بعدة رسائل موجهة إلى البابوية في عهد البابا أنوست الثامن وإلى فرديناند وايزابيلا ، يُطالب فيها بإجلاء المسيحيين عن مملكة غرناطة ، ولا يؤذي المسلمين ، وسارت السياسة الأسبانية في طريقها المرسوم ، واكتفى كل من فرديناند وايزابيلا بإجابة السلطان المملوكي بأنهما لا يستطيعان ترك أرض الأجداد في يد الأجانب ومع ذلك فإنهما لا يفرقان بين رعاياهم في النواحي الدينية[٢] ، وكان الأسبان في ذلك الوقت في مستهل حياة وطنية جديدة ، فلم يكتفوا بتحرير شبه الجزيرة الأيبرية من الفاتحين القادمين من افريقيا والشرق ، ولكنهم ألقوا بأنفسهم في حماس عارم إلى العمليات التجارية والتوسع في احتلال البلدان ، وانتهوا بالضرورة إلى احتلال سواحل افريقيا الشمالية ، تلك السواحل التي يبين التاريخ انها كانت دائماً عرضة للاحتلال من

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٨ .
(٢) عبد القادر أحمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٦ .

كل شعبٍ يتطلع إلى التفوق والسيادة على غربي البحر المتوسط[1].. وهكـذا ، لم يكن باستطاعة المماليك في مصر والشام تقديم أي عون مادي لانقاذ الأندلس أو استرداده ، مما جعل هذا العبء يقع على العثمانيين دون غيرهم .

كان تدخل الأسبان في شمال افريقيا امتداداً للحرب مع المسـلمين ، تلك الحـرب التي يـطلق عليهـا الأسبـان حـرب الاسـترداد (Reconquista) ولم يكن الشمال الأفريقي في نظر الأسبان نقطة الوثـوب لاحتلال أسبـانيا فقط وإنمـا كان أيضاً السند العسكري القوي للمسلمين ـ أخر عملية الاسترداد عدة قرون بالرغم مما كان عليـه مسلمو اسبـانيا من ضعف وتمـزق[2] . وامتدت حـروب الاسترداد وظلت في شمال افريقيا قائمـة حتى بعد وفـاة فردينـاند وايـزابيلا التي تـركت في وصيتها ما يلي :

« . . . إنني أرجو الأميرة ابنتي (جوانا) ، والأمير زوجها (فيليب) وآمرهما باطاعة وصايا أمنا المقدسة طاعة تامة ، وأن يكونا حمـاتها والمـدافعين عنهـا حسبما يقتضي واجبهـا ، وألا يكفا عن متـابعة فتـح افريقيـا ومحاربـة الكفار في سبيـل الإيمان . . . »[3] .

ولكن تلك الحروب في الشمال الأفريقي لم تستمر طويلاً ، وبالتالي لم يكتب لهـا النجاح ، إذ ظهـرت قـوة جـديـدة في المنـطقـة وقفت لحـروب الاسـترداد ، وللمحاولات المسيحية وقفة صلبة ، وذهبت إلى أبعد من ذلك إذ قامت بمحاولات جادة لإسترداد الأندلس ، كانت تلك القوة هي الدولة العثمانية .

* * *

(١) أتوري روس : ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ، ص ١٣٩ .
(٢) محمد خير فارسي : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ١٣ .
عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٠١ .
(٣) محمد خير فارسي : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ١٣ .

كان الفرق بين سقوط مرسيه أول معقل اسلامي واستسلام غرناطة ٢٢٦ سنة والتساؤلات حول سبب وجود هذه الفجوة التاريخية الكبيرة من خمود توقد للاحتلال الشمالي للأندلس ، فبعض المؤرخين يرى أن قشتالة لم تكن القوة الكافية للإستمرار في التوغل في منتصف القرن الثالث عشر ، إذ افتقدت الممالك الشمالية إلى الوحدة التي تمكنها من استكمال احتلال الجنوب ، ويذكر البعض الآخر أن السبب الذي يكمن وراء ذلك في الجزية التي كانت قشتالة تحصل عليها ، والرغبة في المحافظة على تلك المملكة الأندلسية ، لأنها كانت الطريق الوحيد لانتقال ذهب افريقيا إلى شبه الجزيرة الأيبرية ، وهناك من يقول ، أن خمود القتال في الجنوب الأندلسي يعود إلى إنتهاء فترة الحماس الديني الذي وضح خلال الحملات الصليبية الأولى ، أو أن الهجوم على غرناطة كان سيؤدي إلى العودة لدق طبول الحرب في المغرب ، وفتح صفحة جديدة من الحرب المتنقلة دائماً عبر العدوة ، وهناك بالطبع من يذكر بأن غرناطة كانت تملك من القوة ما يمكنها من وقف تقدم قشتالة[1] . ومما لا شك فيه كان للموقع الذي تمتعت به مملكة غرناطة أثرٌ قوي في تأخر سقوطها ، إذ تقع في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأيبرية ، التي قد تبدو منقطعة حيث البحر من الجنوب ، والعدو من الشمال لم يدعها تعيش طوال سنيها وحيدة ، بل كان المسلمون في المغرب لا يتأخرون عن تقديم المساعدة

(١) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ٩٢ ـ ٩٣ .

لأخوانهم في غرناطة ، ولطالما جاهدوا صفاً واحداً لصد الخطر ، ولا يبخلون بتضحية ، استجابة لاخوة الدين ، ورغبة في نصرتهم مجاهدين ، بالاضافة الى ذلك انه عندما قامت حروب الاسترداد في شبه الجزيرة الأيبرية ، هاجر كثير من المسلمين إلى غرناطة ، وكان هؤلاء لديهم خبرات واسعة في صناعة الأسلحة ، علاوة على أنهم كانوا رجال حرب للدفاع عن عقيدتهم فصمموا على الوقوف والاستعداد للتضحية ، مما زاد جيش غرناطة قوة على قوته(١) . كل تلك العوامل ساعدت مملكة غرناطة على الوقوف أمام حروب الاسترداد هذه الفترة الطويلة ثم تجددت الحرب مع غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر ، خاصة بعد سقوط القسطنطنية ، فحثت الكنيسة في روما مملكة قشتالة والممالك المسيحية الأخرى في أوروبا على التضامن لتحقيق انتصار جديد على المسلمين في الأندلس ، فقدمت الكنيسة في روما كل الدعم لقشتالة وأراغون والبرتغال الذين كانوا يرون في وجود مملكة غرناطة في شبه الجزيرة الأيبرية خطراً عليهم ، خاصة إذا استعملها العثمانيون كرأس حربة للتوغل في أوروبا من ناحية الغرب بعد أن حققوا نجاحاً كبيراً في الشرق أو على الأقل الخشية من اتفاق أهل غرناطة مع العثمانيين لنقل الحرب بين المشرق وأوروبا ، وضرب الجبهة الغربية للنفاذ إلى الممالك الأوروبية في الشمال(٢) . ولنا هنا أن نتساءل ، ماذا كان يحدث لو صمدت غرناطة حتى انضمام الجزائر للدولة العثمانية ؟

ازدادت ضراوة الهجوم الأسباني استفحالاً على الأندلسيين الذين فقدوا المساعدات من شمال افريقيا(٣) وكتب العلماء المسلمون والوزراء لاستنهاض الهمم والعزم في كل الأقاليم الإسلامية فكتب الكاتب الرئيسي أبو عبدالله بن زموك

(١) عبد الرحمن علي الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٥١٩ ـ ٥٢١ .
(٢) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ٩٣ ـ ٩٨ .
عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٥٥٠ .
(٣) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرن ، ص ١٨٥ .

« اعلموا انا نذكر لكم ما لا يغيب عن أديانكم وأحسابكم ، إن هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده إليها ، وحضهم عليها ، فالآيات في المصاحف مسطورة ، والأحاديث مشهورة ، لبيع النفوس فيها من الرحمن ، فبذل المهج رغبة في حصول ثواب الملك الديان ، ينزل الله فيها الملائكة المسومين . وتفرح الحور العين وتسبح الرحمة من رب العالمين ، ويباهي الله ملائكته بالمجاهدين ، وقد تضافرت على ذلك النصوص وكفى شرفاً الفوز بمحبة الله في قوله ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ ، فينبغي فيه الاستغفار من سالف الذنوب ، وتطهير السرائر والقلوب ، واجتماع الأيدي والكلمة في مرضات علام الغيوب » .

كما كتب ذو الوزارتين أبو عبدالله بن الخطيب في الحث على الجهاد والترغيب فيه : « أيها الناس ، رحمكم الله ، إخوانكم المسلمون قد دهم العدو ـ قصه الله ـ ساحتهم ، ورام الكفر ـ قبحه الله ـ استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت عليهم ومد الصليب ذراعيه إليهم ، وأيد بكم بعزة الله أقوى وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فأنصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهاد . . الجهاد فقد تعين ، الجار . . الجار ، فقد قرر الشرع حقه مبين ، الله . . الله في الإسلام ، الله . . الله في أُمة محمد عليه السلام ، الله . . الله في المساجد المعمورة بذكر الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الاعانة ، أعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير ، يصل الله لكم ، جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، وآسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تناديكم ، وسنة رسول الله ﷺ قائمة إليكم ، والله يقول فيه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم** ﴾ ومما صح عنه قوله : ﴿ **من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار** ﴾ ﴿ **لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم** ﴾ ، ﴿ **ومن جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا** ﴾ . . ادركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل

الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله يوم يسألكم عن عباده ، جاهدوا في الله بالألسن والأموال حق جهاده » :

ماذا يكون جوابكم لنبيكم ... وطريق هذا العذر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في أمتي ... وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف ... لكفى الحياء من وجه ذاك السيد

الذي [illegible] علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحمية في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم الضعفة والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك بأحبابك وأوليائك [illegible] ، اللهم فرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً (١) .

[illegible] الإسبانية في [illegible] الأوروبية [illegible] بالإضافة إلى [illegible] ناحية الشرق [illegible] خلال حرب غرناطة التي استمرت أكثر من عقد كامل من الزمن استعانت المملكة الكاثوليكية بقوات أوروبية كثيرة لحرب المسلمين في شبه الجزيرة الأيبرية ، فساهم الإيطاليون ، وكذلك قناصة السير أدوارد وودفيل (Edward Woodville) في حرب غرناطة بالإضافة إلى دعم كنيسة روما الذي لم ينقطع[2] . كما ساهمت الدبلوماسية الأسبانية في تحقيق الانتصار على غرناطة ، بالإضافة إلى القوة العسكرية السابقة إذ كانت مملكة نصر غارقة في منازعات داخلية ، فاستغلها فرديناند لصالحه ، فأخذ يؤلب بين الأسر الحاكمة ، حتى أشعل الحرب بينهم[3] .

(١) شهاب الدين أحمد المقري ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، ج ١ ، ص ٦٣ – ٦٥ .
(٢) عادل بشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، ص ٢٠٣ – ٢١٤ .
(٣) [illegible] : تاريخ العرب في [illegible] ، ص [illegible] .

بعد ذلك واصل فرديناند زحفه حتى وصل إلى أسوار غرناطة . وهناك « أخذ في إفساد الزرع ودوخ الأرض ، وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والخفير ، وأحكم بناءه ، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرف الهمة إلى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة » (١) .

ومن المعسكر الأسباني (Sannta) تقدمت الاعدادات الاسبانية بشكل ملحوظ ، وأخذت الدفعية تقذف نيرانها على الأسوار ، فهبطت العزيمة في المعسكر العربي تصاحبها الرغبة في الاستسلام المشرف بدلاً من القتال المميت بدأت المفاوضات في [illegible] ٤٩٦ [illegible] ١٤٩١ م [illegible] واستسلمت غرناطة في ربيع الأول ٨٩٧ هـ [illegible] ١٤٩٢ م (٢) وكانت هذه [illegible] كلفت الحكومة الاسبانية الكثير من الأموال [illegible] المدافع [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] للسكان [illegible] عقولهم ، ومقاتلين يعرفون أن غرناطة ملاذهم الأخير بالإضافة إلى أن أهل غرناطة لم يفقدوا الأمل بأن [illegible] من خلف العدوة سيتوفر إذا ساءت الأمور ووصلت مرحلة خطيرة ، مما زاد في صلابتهم التي عززتها تحصينات عسكرية كبيرة وبراعة فائقة في القتال ، ولكن توفر هذا العناصر المهمة لدى السكان في غرناطة قابلها توفر امكانيات هائلة لايزابيلا وزوجها فرديناند سواء من ناحية الجيوش أو الخبرات العسكرية أو المبالغ التي وظفت للقضاء على غرناطة(٤) التي خاف رجالها فضيحة النساء وإنتهاك حرمة

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 34.

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

(٤) [illegible]

البنـات ، وتشتيت الشمل ، فقـرروا الاستسلام بعـد مقاومـة عنيفة لـلأسبان ، ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الأسبانية مقابل اعترافها بحرية دينهم واحترام عقائدهم ، وعوائدهم ، والمحافظة على أموالهم وممتلكاتهم[١] . إذ نصت معاهدة الإستسلام على : « . . . أن من شاء البقاء عنده أقام في ظل الأمان مكرماً ، ومن أراد الخروج إلى بر العدوة أنزل بأي بلاد شاء منها ، من غير أن يعطى كـراء ولا مغرماً ، وأظهر للمسلمين العناية والاحترام . . . »[٢] . كما نصت المعاهدة عـلى تسليم القلاع والحصون والمدافع للسلطات الأسبانية ولكن الأسلحة الفردية تبقى في حوزة الأندلسيين وأن تظل لغتهم قائمة ، ويلبسون ملابسهم المعتادة[٣] .

دخل فرديناند وزوجته ايزابيلا غرناطة ، بعد توقيع وثيقة الاستسلام وسط موكب كبير بعد ثمانية قرون من الوجود الاسلامي ، وقدم آخر ملوك بنو الأحمر أبو عبدالله مفاتيح الحمراء (Al Hamra) إلى الملكين الكاثـوليكيين وأرتفـع الصليب والعلم الملكي على أعلى أبراج القصر ، وبعد ذلك بثلاثـة شهور وفي حـوالي ١٨ جمـاد ثان ٨٩٧ هـ / ١٧ إبـريل ١٤٩٢ م ، وبعـد الانتهاء من حـركـة حـروب الاسترداد وقع الاتفاق في مدينة سانتا (Santa) مدينة المعسكر المسيحي والتي تبعد عن غرناطة بستة أميـال على شـروط مشروع الـرحلة الاستكشافيـة التي قام بهـا كريستوفر كولومبوس والتي كانت بمثابـة قربـان شكر وتجـديد نـذر لقشتالـة وهي الحرب ضد الكفار . وكان سقوط غرناطة واكتشاف أميركا نهاية وبـداية في وقت واحد ، فقد انهى سقوط غرناطة حروب الاسترداد بينـما شكل اكتشـاف أميركـا بداية مرحلة جديدة وهي مرحلة الاستعمار الكبير عبر البحار[٤] . إذ ظنت أسبانيا أن نهب العالم الجديد سيضمن لها موارد كافية بعد أن أدت الحـرب المنظمـة ضد

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٤٤ .

(٢) أحمد بن محمد المغربي : أزهار الرياض ، ج ١ ، ص ٦٧ .

(٣) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٠٦ .

(٤) J. H. Elliott: Imperial Spain P. P. 33- 37- 49.

المسلمين إلى تعرضها لأزمة حادة في إدارتها وإلى إضطراب في أمورها المالية حتى أشرفت على الإفلاس ، غير أن النشاط الاسلامي في البحر من جهة والمنافسة مع الدول الغربية من جهة ثانية أثرا على استفادة اسبانيا من هذه الموارد(١) .

بدأت موجة الاضطهادات العنيفة ضد السكان بعد دخول فرديناند وايزابيلا مدينة غرناطة مباشرة ، فقد أصدرت السلطات الأسبانية أولى قراراتها في هذا الشأن في جماد ثان ٨٩٨ هـ / مارس ١٤٩٢ م ، والذي يقضي بأن يغادر اليهود الذين لم يتنصروا أراضي قشتالة خلال أربعة شهور ، ويُعاقب المتخلفون بالموت ولم ينج من ذلك حتى اليهود الذين أعلنوا تنصيرهم(٢) . وقامت السلطات الأسبانية بسلب اليهود وقد قدر عدد المغادرين منهم حوالي ٨٠٠ ألف ، واستقر جماعة كبيرة منهم بأزمير ، وجماعة في استانبول ، والقسم الأكبر منهم هلكوا وعذبوا من قبل السلطات الأسبانية ومحاكم التفتيش(٣) .

لم يجن التاج الملكي في الواقع من سقوط غرناطة والاجراءات السابقة إلا بالقليل من الغنائم ، التي نصت بعض شروط الاستسلام عليها ، إذ تولت الهيئات الدينية الإسلامية عائدات بعض الممتلكات الموقوفة على الأغراض الدينية وأعمال الخير ، بينما تم التنازل عن الضرائب المستحقة والمخصصة لمصاريف القصر الملكي إلى الملك أبو عبدالله الذي حصل على ضيعة في منطقة البيوراس (Al Piyorras) ، كما نهبت الجيوش المسيحية الزاحفة بعض الأراضي مما تسبب كل ذلك في ضعف العائدات للبيت الملكي(٤) .

ألف الملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا حكومة من الأشخاص ذوي الخبرة والمقدرة ،وجعلوا سياستهم هي تكوين وحدة وطنية متحدة تحت سيطرة

(١) بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية ، ص ٥٧ .
(٢) عبد القادر أحمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٥ .
(٣) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ٣٠٢ .
(٤) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 38

حكومة واحدة[١] . إذ كانت تلك الحكومة مكونة من هرناندو دي زفرا (Hernando de Zafara) سكرتير وكاتب الملكان فرديناند وإيزابيلا والكونت تنديلا (Tendilla) وهو أحد أعضاء أسرة مندوزا (Mendoza) الذين كانوا على غرناطة منذ بداية القرن الخامس عشر ، والمعروف بحروبه ضد المسلمين ، وهرناندو دي تالافيرا (Hernando de Talavera) كبير الأساقفة في غرناطة والذي اشتهر بروحه واهتمامه بالدراسات العربية ووضع خطط لإقامة المستشفيات والمنابر في الشوارع والميادين والكنائس[٢] . كما حرص تالافيرا على دوام احترام شروط وثيقة الإستسلام التي ضمنت حرية المسلمين بالتمسك بعقيدتهم ، كما تأثر بالانجازات العربية والثقافية واهتمامهم بالأعمال الخيرية ، ولم يلجأ إلى استعمال القوة في اعتناق المسيحية ، وكان قد أتبع سياسة الاندماج التدريجي وكان يقول في ذلك : سوف نتبنى أعمالهم الخيرية[٣] . حققت تلك السياسة التي أتبعها تالافيرا نجاحاً يسترعي الانتباه إلا أنها تسببت في قيام معارضة شديدة من زملائه ، الذين احتجوا عليه ببطء نسبة المعتنقين ، وطالبوا في اتباع المزيد من القوة لهذه السياسة[٤] .

طلب الملك أبو عبدالله بن الأحمر أن ينسحب مع ذويه إلى بلاد المغرب ، فتحرج فرديناند وإيزابيلا من ذلك حرجاً كبيراً ، خشية أن يطلب مدداً من الشمال الأفريقي يأتي به لنجدة المسلمين واسترداد الأندلس ، إلا أن الراهب خيمنيس أقنع الملكين الكاثوليكيين بأنه لا خطر البتة من وراء هذا الانسحاب إلى المغرب لأن حالة الخلاف والشقاق السائدة والمستحكمة الحلقات بالبلاد الافريقية الشمالية لن تسمح لأهلها البتة بالإقدام على مثل هذا العمل[٥] . ثم سمح فرديناند

(١) محمد قشتيليو : محنة الموريسكوس في اسبانيا ، ص ١٧ .

(٢) محمد قشتيليو : محنة الموريسكوس في اسبانيا ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 39.

(٤) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 40

(٥) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٦٧ .

وايزابيلا للملك عبدالله بمغادرة البلاد ومعه ستة آلاف من المسلمين متجهين إلى افريقيا[1] . فذهب غالبهم إلى بلاد المغرب الأقصى وإلى تونس وطرابلس ، أما ملكها أبو عبدالله بن الأحمر فاستوطن فاس[2] . الذي كتب إلى ملكها برسالة بليغة ، من انشاء الفقيه الأديب أبي عبدالله محمد بن عبدالله العربي العقيلي وسماه بالروض العاطر الانفاس في التوسل إلى المولى الامام سلطان فاس .

مـولى الملوك ملوك العـرب والعجم	رعيـاً لـما مثله يـرعى مـن الـذمم
بـك استجـرنـا ونعم الجار أنت لمن	جـار الـزمـان عليـه جـور منتقم
حتى غـدا ملكـه بـالـرغم مستلبـاً	وأفظع الخطب مـا يـأتي عـلى الـرغم
حـكـم مـن الله حتى لا تـرد لـه	وهـل رد حكـم منـه منحتـم
وهي الليـالي وقـال الله صـولتهـا	تصـول حتى الى الآسـاد في أجـم
كنـا ملوكـاً لـنـا في أرضنـا دول	تمـت بهـا تحت أفنـان من النعم
فـأيقـظتنـا سهـام للردى صيب	يرمي بأفجـع حتف من بهن رمي[3]

أما نص الرسالة التي بعث بها أبو عبدالله بن الأحمر فهي : « أما بعد حمداً لله الـذي لا يحمد على السراء والضراء سواه ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، الذي طلع طلوع الفجر بل البدر فلاح ، يدعوا إلى سبيل كل فلاح ، أولى قلوب غافلة ، ونفوس سواه . والرضا على آله وأصحابه ، وعترته الأكرمين وأحزابه الـذين تلقوا بالقبول مـا أورده عليهم من أوامر ونـواه وعزروه ونصروه في حالي قربه ونواه .

فيا مولانا الذي أولانا من النعم ما أولانا ، لا حط الله لكم من العزة رواقاً ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصاناً ولا أوراقاً ، ولا زلت مخضرة العود مبتسمة عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود ، محطورة بسحائب البركات المتداركات

(۱) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 39

(۲) اسماعيل سرهتك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ۱ ، ص ۳۱۵ .

(۳) شهاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني : ازهار الرياض في أخبار عياض ، ج ۱ ، ص ۷۲-۳

دون بروق ولا رعود .

هذا مقام العائد بمقامكم ، المتعلق بأسباب ذمامكم ، المترجي لعواطف قلوبكم وعوارف أنعامكم ، المقبل الأرض تحت أقدامكم ، المتلجج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم ، وماذا الذي يقول من وجهه خجلٌ ، فؤاده وجل ، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل ، بيد أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر ، واحترامي اليه أكبر :

اللهم لا بريء فأعتذر ، ولا قوي فانتصر ، لكني مستقبل مستنيل مستعتب مستغفر » ، وما أبري نفسي أن النفس لامارة بالسوء « هذا على طريق التنزل والاتصاف ، بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الانصاف وأما على جهة التحقيق فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق : (والله إني لأعلم أني أقررت بما يقوله الناس والله يعلم اني منه بريئة ، لأقولن ما لم يكن ، ولئن انكرت ما تقولون لا تصدقونني ، فأقول ما قاله أبو يوسف : صبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون » . . . إلخ »[1] . .

في خريف ٨٩٩ هـ /١٤٩٣ م ، توفي أبو عبدالله بن الأحمر ، وبقيت بعض الأسر المالكة في غرناطة الذين عيّنوا في الادارة الملكية للحصول على رضائهم ، وبذل الملكان الكاثوليكيان قصارى جهدهما في بناء أبراج مراقبة على السواحل الإسبانية بالإضافة إلى تخصيص دوريات خفر السواحل ، لإيقاف محاولات استرداد الأندلس ، واتصال عرب الشمال الافريقي بإخوانهم الموجودين في اسبانيا والذين رفضوا الإنضمام إلى الحكام الأسبان[2] .

انهت ايزابيلا وزوجها فرديناند عملية احتلال غرناطة ، وأعادا توزيع سكانها ، وسافرا إلى قطالونيا للتفاهم مع فرنسا في بعض المسائل السياسية وكلفا

(١) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض ج ١ ص ٨٣ـ ٨٤ .
(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 39.

الحكومة الثلاثية الجديدة ، والمؤلفة من الأشخاص الذين سبق ذكرهم هرناندو دي زافرا (Hernando de Zafara) ، والكونت تنديلا (Tendilla) وكبير الأساقفة هرناندو دي تالافيرا (Hernando de Talavera) ، كلفاهم بمعاملة المسلمين معاملة تؤدي إلى إدخالهم المسيحية شيئاً فشيئاً وعمل كل مجهودات في هذا السبيل الرئيسي الديني[1] . فنظمت الكنيسة فرقاً تبشيرية من رهبان وراهبات للقيام بنشر المسيحية ، إذ كانت الفكرة السائدة عندهم أن المسلمين سيدخلون في الديانة المسيحية أفواجاً وبدون صعوبات[2] ، كما اقتضت مهمة الحكومة الثلاثية ضمان الأمن العام ، ودعم سيطرة التاج الأسباني على المملكة المقهورة ، إلا أن هذه المهمة كانت صعبة في منطقة البوجاراس (Al Pigarras) التي كان يسكنها قطاع الطرق ، لذلك تم تعيين أحد القواد على تلك المنطقة ليحقق فيها الأمن والاستقرار[3] ، وهكذا مضت أسبانيا في سياستها تجاه مسلمي الأندلس ، للقضاء تدريجياً وبصورة جذرية على كل مظاهر الاسلام ذلك أن نشوة النصر التي اجتاحت اسبانيا قد ألهبت العواطف وطغت على منطق العقل وهو المنطق الذي أحاطه رجال الكنيسة بقدسية تحكمت في كل القرارات التي أصدرها رجال الدولة السياسيين ، وأصبحت أسبانيا تؤمن بأن عليها واجب تطهير أرضها من المسلمين والاسلام التي تخشى منه ومن شبحه ، خصوصاً بعد نجاح العثمانيين السريع في أوروبا وافريقيا وآسيا[4] ، وشيوع خطتهم لاسترداد الأندلس .

مضت سبع سنوات ثقيلة وأهل غرناطة يحاولون التأقلم مع هذا الواقع الجديد الذي فرضته سلطات الاحتلال الأسبانية ، منذ أن رُفع العلم الأسباني والصليب المسيحي فوق برج قصبة الحمراء في ٨٩٨ هـ /١٤٩٢ م .

(١) محمد قشتيليو : محنة الموريسكوس في اسبانيا ، ص ١٩ .

(٢) محمد عبده حتاملة : التنصير القسري لمسلمين الأندلس ، ص ٧١ .

(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 39.

(٤) عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد (٢) ص ٣٧ .

فـأستولى نبـلاء قشتالـة على قسم كبـير من أراضي غرنـاطة ، كـما تحولت المساجد إلى كنائس ، ومُنع الآذان والـوضوء علنـاً ، وبذلت الحكـومة الأسبـانية والكنيسة كل الجهود لإقناع المسلمين بإعتناق النصرانيـة وقطع صـلاتهم بتاريخهم وحضـارتهم[1] . هذه الأعمـال كلهـا مخـالفـة لإتفـاقيـة الاستسـلام ، وضعفت معنويات المسلمين ، وفقدوا الأمل في الحصول على مساعـدات شمال افـريقيا . وأخذ القشتاليون يزاحمون المسلمين على الأرض ، ثم على لقمة العيش ، وتردت الأمور من سيء إلى أسوأ ، ثم اندلع الغضب دفعة واحدة ، وكان سبب اندلاعه الكـاردينال خيمنيس رئيس أسـاقفة طليـطلة الجديـد ، الذي وافق عليـه البـابا الأسكندر السادس ، بعد ترشيحه من فرديناند وايـزابيلا ، وكـان منصب رئيس أسـاقفة طليـطلة يشمل أيضـاً منصبين آخـرين لا يقلان أهميـة . الأول مستشار قشتالة ، والثاني كبير أساقفة المملكة . لذا فقـد كان منصب خيمنيس الثـالث في الأهمية بعد فرديناند وايزابيلا[2] .

جنحت الكنيسة وبتأثـير من خيمينس إلى سياسـة العنف والمطارد وأذعنت السياسة الأسبانية لوحي الكنيسة ، ولم تذكر ما قطعت من عهود مؤكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم ، وحاولت السياسة الأسبانية من جانبها أن تسبغ عـلى هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت في تحـوير العهـود والنصوص التي تضمنتها معاهدة التسليم ، وتعديلهـا وتفسيرهـا بطريق التعسف والتحكم ، ثم خرقها نصاً نصاً ، وسلب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعاً[3] .

كانت مشكلة قد واجهت الملكان الكاثوليكيان وبالأخص ايزابيـلا بالنسبـة للأندلسيين في غرناطة ، فهي لا تـريد أن تقـدم على عمـلٍ ضد أهـل غرنـاطة فتخرق بذلك المعاهدة فيعيرها ملوك أوروبا ، بأنها الملكة التي لا تستطيع الإلتزام

(١) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٠٩ .

(٢) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٠٩ .

(٣) عبدالله عنان : نهاية الأندلس ، ص ٣١٤ .

تقسم آذته وقت قبولها تسليم آخر المدن الإسلامية ، كما أنها انتظرت وقتاً طويلاً ريثما يتمكن الأسقف هرناندو دي تالافيرا (Hernando de Talavera) من تنصير المسلمين ، ولكن دون جدوى ، فهي تملك غرناطة ولكنها لا تملك ثقة أهلها ولا ولاءهم . ولم يكن من السهل على متعصبة مثل إيزابيلا أن تقبل وجود شعب لا يدينون بالكاثوليكية في الممالك التي تحكمها . ولا سيما وإن لقبها ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م ، أصبح الملكة الكاثوليكية . وهي أيضاً حققت هدفها عندما اضطهدت اليهود أولاً ثم أجبرتهم على مغادرة البلاد في وقتٍ لاحق . وإذا عملت ذلك مع اليهود ، فليس هناك ما يمنع تطبيق نفس الاجراء مع المسلمين ، حتى لو جاء ذلك على حساب تقويض دعائم الاقتصاد الغرناطي وتشريد أهل تلك المملكة . وهي إن خرقت المعاهدة لأسباب سياسية أو اقتصادية استحقت لوم ملوك أوروبا ولكن لو استطاعت إجبار أهل غرناطة على القيام بعملٍ ما ضد الدولة ، فإن من الممكن وقتها إلغاء المعاهدة على أساس أن أهل غرناطة كانوا البادئين بذلك ، ولو استطاعت خرق المعاهدة على أساس ديني فليس هناك من يستطيع انتقادها في أرجاء المسيحية ، لأنها ستحقق بخرق المعاهدة بموافقة كنيسة روما نصراً للمسيحية وهجوماً أخيراً على المسلمين الذين يهددون أمن الدولة وسلطة الكنيسة والدين المسيحي الكاثوليكي [١] .

كان الملكان الكاثوليكيان يخشيان في البداية عواقب التسرع في تنفيذ سياسة القوة والعنف مع المسلمين ، لأن الأمن لم يكن قد توطد بعد في المناطق المفتوحة ، ولأن المسلمين لم ينزع سلاحهم تماماً ، وقد يؤدي الضغط إلى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت ، ويتقدم المسلمون بالعون لإخوانهم الأندلسيين وا نتهى الأمر إلى الخضوع لرأي الكنيسة ، واستدعي الكاردينال خيمنيس إلى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين فوفد عليها في سنة ٩٠٥ هـ / شهر يوليه ١٤٩٩ م ، ودعا أسقفها دي تالافيرا (De Talavera) إلى إتخاذ وسائل فعالة

(١) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١١٠ .

لتنصير المسلمين ، وأمر بجمع فقهاء المدينة ، ودعاهم إلى اعتناق المسيحية ، وأغدق عليهم الهدايا فأقبل بعضهم على التنصير وتبعهم جماعة كبيرة من العامة واستعمال الوعد والوعيد والبذل والإرغام في تنصير بعض أعيان المسلمين[1] . وقد وصف صاحب نفح الطيب ذلك بقوله : « ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة ٩٠٤ هـ /١٤٩٨ م بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك »[2] .

لم يكتف الكاردينال خيمنيس بهذه الحركة الارهابية ، التي انتهت بتوقيع التنصير المغصوب على عشرات الألوف من المسلمين ، ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربري شائن ، إذ أمر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية من أهالي غرناطة وإرباضها ونظمت أكداساً هائلة في ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثيرٌ من المصاحف البديعة الزخرف ، وآلاف من كتب الأدب والعلوم المزخرفة بالذهب والفضة مثل مؤلفات (Al Jafair) ، وأُضرمت النيران فيها جميعاً ، وهكذا ذهبت ضحية هذا الاجراء الهمجي عشرات الألوف من الكتب العربية ، وهي خلاصة ما بقي من تراث التفكير الاسلامي في الأندلس[3] .

كان التعصب الديني قد أفقد خيمنيس القدرة على تصور أي مسلك آخر مع أهل غرناطة سوى الطريق المملوء بالتعذيب ، وإجبار المسلمين على التعميد ومحاولة سلخهم عن ماضيهم وحضارتهم ، كان أيضاً لا يريد الاعتراف بأن سياسته في غرناطة أخفقت في تنصير المسلمين ، أو أنه لم ينجح إلا في اقناع

(١) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ، ص ٣١٥ .

(٢) أحمد بن محمد المقري التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ٤ ، ص ٥٢٧ .

(٣) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ، ص ٣١٦ .

الأنـدلسيين بـأن الاستمرار في تحمـل أحوال مثـل تلك التي فرضهـا لا يمكن أن يدوم ، وعبثاً حـاول تالافيـرا (Talavera) والكونت تنـديلا (Tendilla) اقنـاعه بالعدول عن سياسة الارهاب وتحذيره من مخاطرها في تأليب مشاعر أهل غرناطة ، ووصل الأمر ذروته حين حرق خيمنيس كل ما تقع أيدي عماله من نسخ القرآن الكريم ، وبينما كان خيمنيس يرسل بعض جواسيسه إلى البيازين لإلتقـاط أخبار أهلها وذات يوم بعث بثلاثة منهم إلى الحي لسببٍ غير معروف ، فوقع صدام بينهم وبين بعض أهل غرناطة قتل على أثرها اثنان من العمال وفر الثالث وكانت تلك نقطة التحول[١] ، إلا أن المطران هرناندو تالافيرا (Talavera) المعروف بالوداعة دخل ربض البيازين بـالسكينة والأنس بـرفقة عـدد من حاشيتـه بدون سـلاح ، واستفسر القوم عن شكواهم وتقبلها منهم وهدأ روعهم وأعاد طائر الأمن إلى وكره وحجب الدماء يومئذٍ[٢] . ووعـدهم برفـع شكوتهم لفـرديناـند وايزابيـلا ، وفي اشبيلية سرد الكونت تنديلا (Tendilla) للملكين الكاثوليكيين ما حدث في غرناطة في ربض البيـازين ، أما خيمنيس فقـد ذكّـر الملكـة ايـزابيـلا بـأنها حـاملة لقب الكـاثوليكيـة ، ولا يمكن أن تقبل بـوجود رعـايـا يـدينـون بـدين غـير المسيحيـة الكاثوليكية وإلا انتقدتها الكنيسة وملوك أوروبا ، وأبلغها كذلك أن الأندلسيين لا يمكن أن يستمروا في البقاء في قشتالة مسلمين في وسط مسيحيين وأن الأندلسيين ما كانوا ليثوروا عليه لـولا نجاحـه في تنصير الكثيـرين منهم ، فخشيت ايزابيـلا أن يستفحل خطر الأندلسيين فيهددون أمن الدولة واستقرارها واتباع اللين مـع أهل غرناطة ، بعد انتفاضتهم في ربض البيازين .

أخذت ايزابيلا وزوجها فرديناند برأي خيمنيس ، فإما أن يقبل الأندلسيون بالتنصير أو يجري ترحيلهم إلى العدوة[٣] .

(١) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١١٣ .

(٢) لوثروب ستودارو : حاضر العالم الاسلامي ، ج ٢ ، ص ١٤ .

(٣) عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١١٦ .

قرر الملكان الكاثوليكيان تغيير نهج سياستهما في شتى المجالات وأنشأ لتابعة ذلك محاكم التفتيش ، كما أصدرا أمراً يقضي بمنع المسلمين من الذهاب إلى غرناطة حتى لا يختلطوا بالمسلمين الموجودين فيها فترتفع روحهم المعنوية(1) . فخرج المسلمون رجالاً ونساءً وأطفالاً هائمين على وجه الأرض ، لا يحملون معهم إلا الشيء القليل ، والتجأوا إلى جبال البشرات (Al Pujarras) التي [illegible] [illegible] Moriscos [illegible] (2) .

[illegible] والتجأوا إلى [illegible] من [illegible] الغرناطيون مدينة سرقسطة ، فأعادوا بناء [illegible] من ثورتها وجددوا [illegible] ، وزرعوا الأراضي بجدهم ، ثم صنعوا كثيراً من السفن الملاحية ، [illegible] بصناعة الحرير ، بعد حصولهم هنالك [illegible] كثيرة من أشجار التوت

(1) محمد عبده حتاملة : التنصير القسري لمسلمي الأندلس ، ص ٧٨ .
(2) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص [illegible] .
(3) محمد قشتيلو : محنة المورسكيين في إسبانيا ، ص ٢٤ .
(4) [illegible] Elliot: Imperial [illegible]
(5) [illegible]
(6) [illegible]

الأبيض والأسود ، فعاش الغرناطيون في رخاء دائم حتى أصبح عدد المنازل المقامة مائتين وألف بيت[١] . كما سكنوا مدينة تنس ومستغانم ومدينة الجزائر ودلس وبجاية وعنابة ، وقد وجد هؤلاء المسلمون المهاجرون في الجزائر أرضاً تشبه أرضهم في شبه الجزيرة الأيبرية ، وأهلاً كأهلهم ،فاستوطنوا وأسهموا في الحياة الاجتماعية بإدخال عنصرين رئيسيين ، الأول الكفاح ضد الأسبان في البحر والثغور دفاعاً عن النفس ، لإسترداد ممكتهم في شبه الجزيرة الأيبرية ، والثاني نشر أنماط حضارتهم بين الجزائريين[٢] .

وفي عملية إخماد ثورتي البيازين والبشرات السابقة ، كلفت خزينة الدولة في عهد الملكين الكاثوليكيين مبالغ طائلة ، إذ شارك في إخماد هاتين الثورتين نحو ١٣ ألف فارس وخمسين ألف من المشاة والتي قطعة من المدفعية وبلغت الديون الأسبانية مبلغاً كبيراً ، ومن أجل هذه الثورات المتواصلة استقدم الملكان الكاثوليكيان الخبراء والعمال من جميع أنحاء أوروبا وخاصة فرنسا وايطاليا وألمانيا لإدخال تحسينات على المدفعية ، وتحضير التجهيزات لصناعة المدافع والصفائح المعدنية والبارود وشتى أنواع الأسلحة في ذلك الوقت ، وجلبت الحكومة الأسبانية المواد الخام من صقلية وبلاد الفلاندر وألمانيا ، وتولى هذه العمليات والاشراف عليها الفون فرنسيسكو حيمنيس دي مدرانو القائد الأعلى لسلاح المدفعية الذي قدم خدمات جليلة في ثورات البشرات[٣] . التي استمرت حتى ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م .

إن ما حدث في غرناطة من محاولة تنصير للمسلمين حدث في باقي البلاد والنواحي الأخرى الأسبانية ، بعد إخماد الثورتين السابقتين في البيازين والبشرات ، وكذلك المرية (Al Meria) وبسطة (Boza) ، ووادي آش (Guadix)

(١) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

(٢) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

(٣) محمد عبده حتاملة : التنصير القسري لمسلمي الأندلس ، ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

ففي ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م عمت محاولات التنصير سائر انحاء مملكة غرناطة ، على أن هذه الحركة التي نظمت لتنصير بقية الأمة الأندلسية ، والتي لم تدخر فيها أساليب الوعود والوعيد والاغراء والإكراه[١] . كان الغرض منها أن يقطع المسلمون صلتهم بالقوى الاسلامية ولا سيما القوة العثمانية الفتية ، والتي أخذ خطرها يزداد على نواحي أوروبا من أجل استرداد الأندلس .

كان الاغراء بالتنصير يتخذ أحياناً شكل هبات ومنح جماعة لبلدة أو منطقة بأسرها ، كما حدث بالنسبة لأهل وادي الكرين (الأقليم) ولانخرون والبشرات ، فقد أصدر الملكان الكاثوليكيان مرسوماً بإبراء سائر أهالي النواحي المذكورة الذين تنصروا أو سيتنصرون من جميع الحقوق والتعهدات المفروضة على الموريسكيين لصالح العرش ورفعها عن منازلهم وأراضيهم وسائر أملاكهم المنقولة والثابتة وهبتها لهم والغاء ضريبة الرأس المفروضة عليهم لمدة ستة سنوات ، وإلغائهم للغرامة التي فرضت عليهم من جراء ثورتهم وقدرها خمسون ألف دوقية ، بالاضافة إلى منح وبراءات أخرى تضمنها المرسوم المشار إليه ، كما صدر مرسوم مماثل إلى المسلمين القاطنين بحيهم المسمى الموراركة (Moreria) بمدينة بسطة (Boza) باعفاء الذين تنصروا منهم أو يتنصرون ، من جميع الفروض والمغارم التي فرضت على الموريسكيين ، وتحريرهم منها بالنسبة لأنفسهم أو منازلهم وأموالهم الثابتة والمنقولة من أيام التنصير وألا يدخل أحد منازلهم دون رغبتهم ومن فعل عوقب بغرامة فادحة ، وأن يعفوا عن سائر الذنوب التي ارتكبت ضد خدمة العرش ، وأن تحترم جميع العقود والمحررات التي كتبت بالعربية ، وصادق عليها فقهاؤهم وقضاتهم ، وأن يُعامل المتنصرون منهم كسائر النصارى الآخرين في بسطة (Boza) ، ولهم أن ينتقلوا وأن يعيشوا في أي مكان آخر من أراضي مملكة قشتالة دون قيد أو عائق ، إلى غير ذلك من المنح والامتيازات ، وصدر أخيراً مرسوماً بالعفو عن سكان حي المسلمين (Moreria) بغرناطة والقرى الملحقة بها

(١) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ، ص ٣١٩ .

بالنسبة لجميع الذنوب والأخطاء التي ارتكبت حتى يوم تنصيرهم ، وألا يتخذوا في شأنها أي إجراء سواء ضد أشخاصهم أو أملاكهم[1] .

وامتنع قومٍ من التنصر واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك ، وأمتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلغيق وآندرشي وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً . . . ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً . . . » ، ويصف الحالة تلك المقري في كتاب أزهار الرياض ، « . . فلو رأيتم ما صنع الكفر بالاسلام بالأندلس وأهليه ، لكان كل مسلم يندبه يبكيه فقد عبث البلاء برسومه ، وعض على أقماره ونجومه ولو حضرتم من جبر بالقتل على الاسلام ، وتوعد بالنكال والمهالك العظام ومن كان يعذب في الله بأنواع العذاب ، ويدخل به من الشدة في باب ويخرج من باب ، لأنساكم مصرعه ، وساءكم حفظه ، وسيوف النصارى إذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة وأفواه الذاهلين محلولة وهم يقولون : ليس لأحدٍ بالتنصر أن يمطل ولا يلبث حيناً ولا يهمل ، وهم يكابدون تلك الأهوال ، ويطلبون لطف الله في كل حال[2] .

تردد صدى هذه المحنة التي نزلت بمسلمي الأندلس في جميع أنحاء العالم الاسلامي فذكر ابن اياس في حوادث صفر سنة ٩٠٦ هـ / أغسطس ١٥٠٠ م) عقب محنة التنصير « . . . وفيه جاءت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف للمسلمين ، وقالوا من دخل في ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه ، فدخل في

(١) محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ .

(٢) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري : ازهار الرياض ، ج١ ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل ثم ثار المسلمون ثانياً ، وانتصفوا عليهم بعض الشيء ، واستمر الحرب ثائراً بينهم . . . والأمر لله تعالى في ذلك »[1] .

كان استخدام الشدة من قبل المسيحيين ضد المسلمين معناه اضطرار عدد من المسلمين تحت الضغط الى التظاهر بقبول التعميد والدخول في المسيحية ، خاصة أمام هياج الرأي العام لغزاة الأندلس الجدد المتعصبين[2] . وكان قبول ذلك ظاهرياً إذ كان الموريسكيون أقوى الناس إيماناً ، متمسكين بعقيدتهم الإسلامية وعوائد أجدادهم القديمة سواء ما كان منهم ديني أو اجتماعي ، كما يعتبرهم المسيحيون أعداء لدينهم حتى لو تنصروا وأصبحوا يشاركوهم في عقيدتهم فكان تنصيرهم صورياً ولم يتخلقوا قط بأخلاق النصارى سواء من هم يعيشون بين أظهرهم في مدن مأهولة بالسكان وغالبيتهم نصارى قدماء ، ومن يعيشون داخل أحياء خاصة بهم في مدن النصارى فكان موقفهم من النصارى موقف تهكم واستهزاء بمعتقداتهم فما الكتب العربية والألخيمادية ، التي ما زالت تتداول سراً بين أيديهم إلا دليلاً على تمسكهم بالاسلام وعوائده[3] .

طلب المورسكيون في هذا الوقت العون والمساعدة من حكام المغرب ، ولكن هؤلاء كانوا منغمسين في مشاكلهم الداخلية والخارجية مع نفس الأسبان والبرتغال الذين استولوا على بعض قواعد بحرية في الشاطىء المغربي لتكون نقاط ارتكاز لهم في البحر الأبيض المتوسط ، لمواجهة الدولة العثمانية التي تتطلع لإسترداد الأندلس ، فلجأ المورسكيون إلى مداهنة النصارى واخفاء الإسلام وصاروا يمهدون السبيل لقرصنة المغاربة والعثمانيين في الدخول والخروج إلى اسبانيا ، وكانوا يقومون بعبادتهم الاسلامية سراً ، وكانت لهم الثقة في العرافين

(١) محمد بن احمد بن أياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الكتاب ص ٦٦٦ .
(٢) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ١٩ .
(٣) محمد قشيليو : محنة المورسيكوس في اسبانيا ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

يبعثون فيهم الأمل ويبشرونهم بعودة مجدهم الغابر[١] ، بمساعدة القوة الناشئة العثمانيين ، والتي كانت استراتيجيتهم نشر الاسلام في انحاء أوروبا .

كان يضم المجتمع الأسباني أقلية كبيرة من الأجانب الدخيلة ، مسيحيين بالاسم غير مندمجين ، اعتبرتهم الحكومة الأسبانية مهددين بصفة دائمة لأمنها وحلفاء للقوى الاسلامية الجديدة في البحر المتوسط ، وحيث أن أعداداً كبيرة من المورسكيين يسكنون المناطق الساحلية الواسعة والبعيدة عن مركز الحكومة مع عدم وجود وسائل دفاعية لتلك السواحل الأسبانية الشرقية والجنوبية ، ومعروف عن هؤلاء المورسكيين بأنهم متعاطفين مع المسلمين في افريقيا الشمالية كل ذلك زاد من مخاوف أسبانيا[٢] .

لجأ المورسكيون إلى قمم الجبال ، واتخذوها معاقل لهم ، وقواعد استراتيجية عسكرية ، يشنون منها على الأسبان غارات متعددة ، معتبرين هذه الغارات جهاداً في سبيل الله ضد من اغتصب أوطانهم وشردهم منها وظلوا يمارسون جهادهم بصبرٍ وجلد وعزيمة قوية حتى أصبحوا قوة ذات وزن كبير غير أنهم كانوا يتعرضون أحياناً لمطاردات السلطات الأسبانية حتى إذا ما تم القبض على بعض أفرادهم قدموا للمثول أمام ديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي ، أو محاكم التفتيش التي كانت توقع بهم أشد العقاب .

وأمام تلك الممارسات الاسلامية كان موقف النصارى الأسبان العدائي يزداد حدة ضد هؤلاء الموريسكيين ، لدرجة أن الملكين الكاثوليكيين أصدرا أمراً في غرناطة في ٩٠٧ هـ /١٥٠١ م يحرم على الموريسكيين ممارسة كل ما يمت إلى عقيدتهم ولغتهم بصلة وهذا اضطرهم إلى ترك العيش بالقرب من الأسبان والالتحاق بآخوانهم في رؤوس الجبال ، ثم أجبروا نتيجة لثورتهم على ارتداء ما

(١) محمد قشيليو : محنة المورسيكوس في اسبانيا ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .
(٢) John Lynch: Spain under the Habsburgs, Val. 1 P. 94.

يرتديه الأسبان والتطبع بطابعهم ، وعلى إرسال ابنائهم إلى قشتالة رهائن يقتلون إذا ثار آباؤهم[1] . وهكذا استمرت اسبانيا في محاولتها لتصفية المسلمين الذين ازداد خطرهم في البشرات ، فأصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً ملكياً خلاصته : « إنه لما كان الله قد اختارهم لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، فإذا كان بها بعضهم فإنه عليهم أن يتصلوا بغيرهم خوفاً من أن يتأخر تنصيرهم أو بأولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا إيمانهم ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال »[2] .

ومع بداية سنة ٩٠٨ هـ /١٥٠٢ م كان جميع من في قشتالة وليون يعتبرون منصرين بموجب المرسوم الذي أصدرته الملكة ايزابيلا ، وخيرت فيه المسلمين بين الانضمام إلى الكنيسة أو الإرتحال إلى الشمال الافريقي ، وأضافت الكنيسة بذلك إلى رعيتها حوالي نصف مليون منصر بالاسم وحولت مساجدهم إلى كنائس أو أزيلت ، ومنع الآذان والصلاة[3] . أما من أراد البقاء على الاسلام فقد خرج بطريق البحر ، شريطة ترك أبنائه وبناته الذين لم يبلغوا سن الرشد ، وذلك حتى لا ينجبوا أولاداً في بلاد الاسلام يكونون خطراً على الأسبان ، كما أجبرت السلطات الأسبانية المسلمين الساكنين في ليون وقشتالة مغادرة البلاد ، وحددوا لهم الطريق الذي يسلكونه للأرض الاسلامية ، ولكن لم ينفذ هذا الأمر لأنهم قبلوا المسيحية خاصة أهالي اقيلا وسمورة ومدريد ووادي الحجارة وطليطلة ولكن هؤلاء أيضاً كان دخولهم للمسيحية ظاهرياً من أجل البقاء في الوطن[4] .

اعترف ملوك اسبانيا بحتمية الأستمرار في تطبيق هذا القانون فلاحقتهم الكنيسة عن طريق ديوان التحقيق ومحاكم التفتيش ، فصودرت أملاك المسلمين وحرم عليهم التكلم باللغة العربية ، وأجبروهم على ارتداء الألبسة الوطنية

(١) محمد عبده حتاملة : التنصير القسري لمسلمي الأندلس ، ص ٧٩ .

(٢) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، ص ٣٢٤ .

(٣) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٣١ .

(٤) محمد قشيليو : محنة المورسيكوس في اسبانيا ، ص ٢١ .

ومنعوهم من التردد على الحمامات ، وأمروهم بفتح منازلهم أيام الحفلات وأيام الجمعة والسبت ، وعدم التسمية بأسماء عربية[1] .

بذلك يظهر للعيان مدى قوة التعصب الكنسي ضد المسلمين ، فلو دققنا النظر في محاكم التفتيش التي ظهرت في شبه الجزيرة الأيبرية ، والتي كانت فاتحة لسياسة القمع الهائلة التي وضعت لاستئصال الاسلام من الأندلس تلك المحاكم التي ذهب ضحيتها الآلاف من المسلمين ، علاوة على المخالفين للمذهب الكاثوليكي .

وانتهى بذلك أمر المسلمين بالأندلس سياسياً ، وأصبح أمر البلاد بين الأسبان الذين أقفلوا الثغور بعد ذلك على من بقي من المسلمين ، وأخذوا يتفننون في أنواع التعذيب واشتد الأمر على المسلمين في ذلك شدة لا توصف ولم يقتصر العدو على ذلك ، بل تتبع بدافع الحقد الديني والسياسي معاً أثر الاسلام والمسلمين حيثما كان ، وأخذ يجوب البحار مهاجماً لسواحل المغرب محدثاً فيها النهب والدمار ، ومتحفظاً لكل ما يظفر به من الأموال والأنفس وأمست بعض الأماكن من سواحل المغرب لعصابات من قراصنة الدول الأوروبية وبذلك تكون الحروب الصليبية قد انتقلت من المشرق إلى المغرب[2] .

من خلال ذلك تبين أن المسيحية وبتعليمات من الكنيسة في روما قد حرصت على اسقاط غرناطة وشددت في ذلك ، إذ أن الوجود الاسلامي فيها يشكل خطراً كبيراً على المسيحية ، خاصة وأن الدولة العثمانية في المشرق قد حققت نجاحاً في شرق وجنوب شرق القارة الأوروبية ، فهي تريد أن تطبق على أوروبا ، من الشرق والغرب ، فأرادت المسيحية أن تفوت ذلك على المسلمين ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بإخراج المسلمين نهائياً من شبه الجزيرة الأيبرية .

(١) عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان المجلة التاريخة المغربية ، عدد (٣) ، ص ٣٧ .

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٣٦ .



الفصل الثاني

الفصل الثاني

الدولة العثمانية في مفترق الطرق

أ ـ أهمية التقدم شمالي الدانوب والدوران حول البحر الأسود .

ب ـ عوائق الزحف العثماني في وسط أوروبا .

ج ـ استنجاد غرناطة بالدولة العثمانية .

د ـ وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي ـ تهديد الحدود الجنوبية للعالم الإسلامي لأول مرة في التاريخ .

هـ ـ تحول التجارة .

قامت الدولة العثمانية على أساس اسلامي قوي ومتين ، وأخذت على نفسها عاتق نشر الاسلام وحماية المسلمين في جميع أنحاء المعمورة ، وقد اتبعت في سبيل ذلك شتى أنواع الطرق والأساليب ، ومنها الجهاد .

والمتتبع لطبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد ، يجد الدولة في امتدادها أنها كانت تمتد تجاه أوروبا وذلك رغبة منها في ضم القارة الأوروبية للدولة حتى يصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية ، وعندما قامت حروب الاسترداد في شبه الجزيرة الأيبرية وذلك في فترة لاحقة ، نجد أن الدولة العثمانية تشدد في هجومها على الدول الأوروبية لأن خطتها كانت تقوم على أساس اختراق أوروبا من أقصى شرقها إلى أقصى غربها لإنقاذ الأندلس واسترداده وظلت الدولة العثمانية تتابع تنفيذ تلك الخطة على مدى قرون عديد .

ففي عهد السلطان مراد الأول ، تركزت الفتوحات الاسلامية في إقليم تراقيا ، وبلغت أوجها بفتح مدينة أدرنة في ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) ونظراً لأهمية موقعها الجغرافي ووجودها على ملتقى ثلاثة أنهر وإشرافها على طرق وممرات القوافل العسكرية ومركز انطلاق نحو توسع أوروبي أفضل ، فقد جعلها السلطان مراد مقراً للقيادة العسكرية[١] . وكانت أدرنة تعتبر الحصن الرئيسي بين

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٢٩ .

القسطنطنية والدانوب .

تحـرك السلطان مراد الأول عبـر وادي نهر ماريتـزا واحتل فيلبـه ، وأجبـر الأمبراطور البيزنطي عـلى قبول السيـادة العثمانيـة[1] . وتوالت الفتـوحات حتى أصبحت القسطنطنية محاطة من ناحية أوروبا بأملاك العثمانيين وأنعزلت عن باقي الامارات المسيحية ، فأضطرب لهـذا الوضـع الملوك المسيحيين وطلبـوا من البابـا أوربانوس الخامس أن يتوسط لدى ملوك أوروبا الغـربيين ليسـاعدهم في محـاربة المسلمـين ، خوفـاً من امتداد فتـوحاتهم إلى مـا وراء جبال البلقـان فلبى البـابا استغاثتهم وكتب لجميع الملوك بالتأهب لمحاربة المسلمين وتحريضهم على محاربتهم محاربة دينية حفظاً للدين المسيحي من الفتوحات الاسلامية[2] .

وعقـد لازار ملك الصرب اتفـاقية سنـة ٧٩١ هـ (١٣٨٨ م) مـع ملوك الأفلاق وامراء دلماشيا ، وملك المجر وملك البلغار وتحزبوا جميعاً لمحاربة السلطان إذ لم يرغبوا في انتظار وصول المدد إليهم من أوروبا ، وتقابلت الجيوش[3] المسيحية والمسلمين في سهول قوصرة (Cossova) وحصلت بـين الطرفـين معركـة كبيرة ، انهزمت فيها جيوش المسيحيـين ، وبهذه الهـزيمة فقـد الصربيـون[4] استقلالهم ، وكذلك البلغار[5] وبلاد الروملي وآسيا الصغرى قبل ذلك[6] . وأصبح بذلك نهر

(١) علي حسون : العثمانيون والروس ، ص ٢١ .

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٠ .

(٣) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٦ .

(٤) الصـرب مملكة في أوروبـا يحدهـا شمالاً النمسـا والمجر ومقـاطعـة اسكـلافـرينـا وبـلاد رومـانيـا ويفصلها عن بعضهما نهر الطونة « الدانوب » وشرقاً ولاية البلقار وجنـوباً ولايـة سلانيـك وغربـاً ولاية البوسنة العثمانية .

(٥) بلغاريا يحدها شمالاً نهر الدانوب الذي يفصلهـا عن رومانيـا وشرقـاً البحر الأسـود وجنوبـاً جبال البلقان التي تفصلها عن بلاد الروملي ، ومن الجنـوب الشرقي بـردزرين ، ومن الشمال الغـربي بلاد الصرب .

(٦) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

الدانوب الحد الشمالي للدولة العثمانية .

وفي أثنـاء انشغال السلطان بـايزيـد الأول في الأنـاضـول في الفتـرة ٧٩٢ / ٧٩٥ هـ (١٣٨٩ / ١٣٩٣ م) هدد النفوذ العثماني في البلقان أمام مقاومة المجر ، الافلاق (Wallachia) في بلغـاريا الـدانوبيـة ودوبروجـا مما وضـع مملكة بلغاريا المضطربة في موقفٍ لا يحسد عليه[١] .

وأمام هذا المـوقف البلقاني الصعب ، أمـر السلطان بايـزيد الأول بمتـابعة الحروب في أوروبا ودعا بزحفٍ عام على طول حدوده الشمالية والشمالية الغربية ووصلت غـارات قـواتـه السـريعـة إلى حـدود الأراضي الألمـانيـة وفي ١٣٩٣ م (٧٩٦ هـ) استكمل احتلال بلغاريا وزود قـلاع الدانـوب بحاميـات قويـة بعد تقوية تحصيناتها[٢] .

كما دعا بايزيد جميع الأمراء التابعين البلقانيين بما فيهم باليـرلـوجس إلى فيريا سنة ١٣٩٤ م (٧٩٧ هـ) لتجديد روابط الولاء ، وبعدها بدأت سلسلة عملياته العسكرية بحصار القسطنطنية[٣] . عندها أدرك امبراطور القسـطنطنيـة الخطر ، وخاف من تقدم السلطان بـايزيـد مع شعـوره بعدم مقـدرة ملوك أوروبا الـذين استجار بهم أن يتصدوا له ، أرسل جملة هدايا يستجلب بها رضا السلطان متعهداً بدفع جزية سنوية معينة ، وعجل بـدفع جـزية سنـة مقدمـاً ، ووافق بأن يسكن المسلمون القسطنطنية ، وأن يكون لهم بها مسجد وقاضٍ يحكم في أمورهم[٤] .

ثم قام بايزيد بحملته الكبرى عام ١٣٩٥ م (٧٩٨ هـ) التي وصل بها حتى سلانكمان على نهر الدانوب ، ودخل الافلاق (Wallachia) وهزم ملكها مـرسيا في أرغيش (Argesh) ، ثم زحف السلطان بايزيد على نيقوبوليـس وأعدم الملك

(١) ابراهيم شحاتة حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٩١ .
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٥٣ .
(٣) ابراهيم شحاتة حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٩١ .
(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص ٤٩٥ - ٤٩٦ .

البلغاري شيشمان بتهمة الخيانة وانحيازه للعدو .

وفي خلال هذه المعارك زالت عدة أسرات حاكمة ، ومن ثم اتجه بايزيد الى تكوين الدولة المركزية بدلاً من دولة الإمارات التابعة ، وبدا ذلك جلياً بعد التخلص من بلغاريا كمملكة حاجزة حيث تعهدت الدولة العثمانية المسؤولية المباشرة في الدفاع عن منطقة الدانوب ضد المجر[1] .

كان ذلك بمثابة تهديد جديد للمسيحية ، وقوبل ذلك بأعداد حملة دولية صليبية تعتبر من أكبر التكتلات الصليبية التي واجهها العثمانيون في القرن الرابع عشر[2] . كما رمزت تلك الحملة إلى ذروة الصراع بين العثمانيين والمجريين للإستيلاء على الدانوب السفلي ، كما ظهر اهتمام البندقية بهذا الصراع حتى أنها استخدمت أسطولها لقطع الاتصال بين الأناضول والبلقان عبر المضايق ، كما ظهر من هذه الحملة الصليبية الفاشلة ، أنها كانت بالنسبة لفرسان غرب أوروبا مجرد مغامرة صليبية[3] . لقيت نهايتها عند مدينة نيكوبوليس (Nicopolis) على نهر الدانوب في سبتمبر عام ١٣٩٦ م (ذو الحجة ٧٩٩ هـ) ومن أهم نتائجها توطيد أقدام العثمانيين في البلقان[4] ، كما رفعت أيضاً وبشكل كبير من مكانة العثمانيين في العالم الإسلامي ، وكان النصر العثماني في أوروبا هو في الواقع بمثابة نصرٌ للمسلمين أينما كانوا .

بعد ذلك أبطأ الزحف العثماني في القارة الأوروبية قرابة نصف قرن ، وذلك بسبب انشغال الدولة العثمانية مع تيمورلنك عام ١٤٠٢ م (٨٠٥ هـ) ، ولكن لم يستمر ذلك طويلاً فقد تمكن العثمانيون من إعادة بناء الدولة ولم يأت عام ١٤١٥ م (٨١٨ هـ) حتى عادت الدولة إلى وضعها السابق في روميللي والأناضول .

(١) ابراهيم شحاتة حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٩١ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٣٨ .

(٣) ابراهيم شحاتة حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ،ص ٩٢ .

(٤) عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ص ٣٨ .

غير أن هذا لم يتم دون عقبات ، فقد أثبتت الحروب الداخلية في الأناضول والبلقان أن الأمر يدعو إلى أسلوب المصالحة أكثر من أسلوب القوة العسكرية مع القائمين على قبائل الأناضول ، أو على الأقل يدعو إلى إيجاد التوازن بينهما ، وقد نجح السلاطين العثمانيين في ذلك .

وقام السلطان مراد الثاني بمصالحة أمير القرمان ، وعقد هدنة مدتها خمس سنوات مع ملك المجر ، وأعاد الولايات التي كان قد أخذها تيمور ، ثم استرد بلاد القرمان بعد وفاة أميرها[1] . بعد ذلك اتجه نحو أوروبا وفتح مدينة كولمباز (Kucero) الواقعة على شاطىء الدانوب الأيمن ، وأجبر ملك المجر على توقيع معاهدة يتخلى فيها عما يكون له من البلاط على شاطىء نهر الدانوب الأيمن ، بحيث يكون هذا النهر فاصلاً بين العثمانيين والمجر ، وفي ١٤٣٠ م (٨٣٤ هـ) أعاد السلطان فتح مدينة سلانيك ، ثم وجه إهتمامه إلى ألبانيا وأدخلها تحت حكمه وفي ١٤٣٣ م (٨٣٧ م) أعترف أمير الافلاق (فلاد) بسيادة الباب العالي تخلصاً من الحرب[2] .

تغيرت الأوضاع في أوروبا بعد وفاة ملك المجر سجسمند ٨٤١ هـ /١٤٣٧ م ، إذ ازدادت هجمات المجريين بقيادة حنا هنيادي على القوات العثمانية ، فتصدى في البداية للمحاولات العثمانية للتوغل في ترانسلفانيا ، ثم قاد هنيادي جيوش الحلف المسيحي الكبير الذي تكون في ذلك الوقت لمواجهة العثمانيين لإخراجهم نهائياً من أوروبا والقضاء على فكرة الوصول للأندلس وكان الحلف المسيحي يتكون من بلاد المجر وبولندة والصرب وبلاد الافلاق (Wallachia) ودوقية برجانديا وجنوة والبندقية والبابوية والامبراطورية البيزنطية ، وبينما أبحر أسطول من السفن الايطالية والفلمنكية نحو مضيق

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩ .
(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

الدردنيل وزحف هنيادي جنوباً على رأس الجيوش المسيحية ، فعبر نهر الدانوب ، وطرد العثمانيين من الصرب وهزمهم في شمال نهر هايموس وجنوبه فأضطرت الدولة العثمانية إلى طلب الصلح فعقد سلح سيزجردن (يونيه ١٤٤٤ م) (ربيع الأول ٨٤٨ هـ[١]) تنازل بموجبه السلطان عن بلاد الافلاق ، وأن يرد إلى أمير الصرب مدائن سمندرية وأن يُهادن المجر مدة عشر سنوات ، إلا أن المجريين لم يراعوا شروط الهدنة فأغاروا على بلاد البلغار ، فقاد السلطان جيشه لمحاربة المجر فوجدهم محاصرين لمدينة وارنة (Varna) الواقعة على البحر الأسود ، وأشتبك الجيشان فقتل ملك المجر لادسلاس ، وهاجم العثمانيون معسكر المجر واحتلوه بعد قتال شديد كان ذلك في نوفمبر ١٤٤٤ م (شعبان ٨٤٨ هـ)[٢] . وحقق بذلك العثمانيين أهدافهم التي رغبوا في تحقيقها في المرة الأولى .

قاد هنيادي عدة جيوش أوروبية فهاجم جنوده الروملي وبلاد الصرب وذلك ليعيد لنفسه ما فقده من الشرف في وقعة وارنة ، فجمع السلطان مراد الثاني قواته والتقى مع هنيادي في وادي قوصرة (Cassova) (في أكتوبر ١٤٤٨ م) (في رمضان ٨٥٢ هـ) وكانت هذه الواقعة الثانية ، ثم انهزم هنيادي وفر من ميدان القتال بعدما لحقته خسائر كبيرة[٣] ، ونتج عن ذلك أن خرجت بلاد المجر لمدة عشر سنوات على الأقل من قائمة الدول التي تستطيع القيام بعمل حربي هجومي ضد العثمانيين[٤] .

وارتقى محمد الثاني سلطنة الدولة العثمانية عام ١٤٥١ م (٨٥٥ هـ) فرسم لنفسه خطة ، ليضم بها بقية المناطق في الأناضول والبلقان ، فبعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م (٨٥٧ هـ) وجه محمد الفاتح همته إلى تعزيز سلطته في

(١) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ، ص ٨٨ .
(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العليا العثمانية ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .
(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص ٥٠٥ .
(٤) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ، ص ٨٩ .

شمال شرقي شبه جزيرة البلقان والتي كان المجريون لا يزالون يتهددونها ، لهذا قرر القضاء على استقلال الصرب حتى يوفر لنفسه قاعدة ثابتة يستطيع منها محاربة المجريين[1] .

وكانت الخطة الأساسية للتقدم العسكري طوال عهد محمد الثاني هي محاربة المسيحيين وذلك من أجل منع توحيد المقاومة القادمة من العالم الغربي وكذلك من أجل الحصول على أراضٍ جديدة واستمرار التقدم نحو الغرب .

وكان محمد الثاني قد استطاع أن يثير الشقاق بين الجمهوريات الايطالية وذلك بمنحها امتيازات تجارية جديدة في دولته ، ففي عام ١٤٥٤ م (٨٥٨ هـ) منحت البندقية حقاً خاصاً بمقتضاه تدفع ٢ ٪ رسوم جمركية على السلع التي تدخل أو تُباع في دولته وأن يكون لها ممثلين تجاريين مقيمين في استانبول مقابل دفع جزية سنوية مقدارها ٢٠٠,٠٠٠ مائتي ألف دوكة ذهبية كما منحت جنوة منافستها الأولى حقوقاً مماثلة في شبه جزيرة القرم (Crimea) وجزر بحر ايجه مقابل جزية .

وعرف السلطان محمد الفاتح وهو يفكر في المناطق التي يمكن أن يتوسع فيها مستقبلاً ، عرف المغانم الهائلة المتاحة في الشمال والغرب والمناطق المطلة على شمال البحر الأسود والتي أصبحت تشكل فراغاً سياسياً بعد انحلال القبائل الذهبية (Golden Horde Emire) والتي سيطرت مدة قرنين من الزمان على الأراضي الممتدة من أوكرانيا حتى وديان نهر الدون والفولجا[2] .

وكان فتح القسطنطينية دلالته السياسية لا العسكرية ، فمع أن محمد الثاني أمكنه بناء اسطول قوي حاصر به المدينة ، وأصبح بعد ذلك نواة القوة البحرية العثمانية ، إلا أنه كان واضحاً أنه يقابل دولة فت في عضدها السنون ومزقتها الخلافات المذهبية العقيمة ، أما الدلالة السياسية للفتح ، فهي أنه أثبت أن روحاً

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧١ .

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 62

جديدة بدأت تجتاح العالم الأوروبي قد انقضى عصر العصبية الدينية أو على الأقل خفت حدته ولم يعد لرجال الدين سطوة في توحيد دفة السياسة الأوروبية ، وحل محل ذلك عصر جديد قائم على أساس آخر (١) .

وأبحر الأسطول العثماني في سنة ١٥٥٤ م (٨٥٩ هـ) في البحر الأسود ، وأجبر جميع الحكومات على سواحله وهي مستعمرات جنوة ومملكة ترابزون والبغدان (Moldavia) على الاعتراف بالسلطة العثمانية (٢) . وكان الهدف من ذلك تقوية علاقات الدولة مع التتار ، ومهما يكن من أمر فإن اهتمامات السلطان محمد الفاتح الأساسية تنصب على غرب البلقان ، حيث كانت من الناحية الحربية ضعيفة على الرغم من تمتعها بالحكم الذاتي ، إذ كانت تشكل قناة يمكن للهنغاريين أو لأي حملة صليبية محتملة عبورها ، وبالمثل كان من الممكن نقل الحكام المستبدين من بيزنطة إلى البندقية لتكون لهم قاعدة يقومون منها بمحاولة جديدة لطرد العثمانيين من أوروبا ، ولدرء هذه الأخطار قام محمد الثاني بعدد من العمليات في الفترة من ١٤٥٤ - ١٤٦٣ م (٨٦٠ - ٨٦٨ هـ) لبسط حكمه المباشر على الدانوب وبحر ايجه وبذلك يقيم خطاً عسكرياً دفاعياً قوياً (٣) .

أدت حملتان في ١٤٥٤ - ١٤٥٥ م (٨٥٩ - ٨٦ هـ) إلى تحطيم بلاد الصرب وقام العثمانيون باحتلال الجزء الجنوبي من البلاد وبذلك ضمنوا وللمرة الأولى الاتصال بمقدونيا ، كما غنموا السيطرة على منا جم الذهب والفضة في (Morobova) الأمر الذي وفر فيها بعد الكثير من المال اللازم للتوسع الإقتصادي للدولة العثمانية (٤) ، كما أصيب هنيادي أثناء المعارك ثم توفي بعدها ، أرسل السلطان محمد الفاتح حملة سنة ١٤٥٨ م واستغرق العمل في ذلك مدة سنتين (٥) .

(١) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) Halil Inalcik: The ottoman Empire P. 27.

(٣) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 63

(٤) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 63.

(٥) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٨ .

ووحد العثمانيون بعدها الأنظمة المالية والتشريعية وأدخلوا تغييراً بسيطاً في الادارة[1] . وفي سنة ١٤٥٦ م (٨٦١ هـ) وبعد أن قبل أئرن الثالث (Aaron III)منذ سنتين الطاعة للدولة العثمانية منح السلطان تجار البغدان (Moldovai)امتياز لتجارتهم ، إذ صرح لهم استعمال سفن التجار ((Akkreman)والمتاجرة الحرة في أدرنة وبورصة اسطنبول .

وكانت تجارة أكريمان (Akkreman)وكيليا (Kilia)قد جلبت الازدهار لامارة البغدان (Moldovia)في القرن الخامس عشر وكان الطريق التجاري القديم من كافا (Caffa)وكيليا (Kilia)الى بولندا يمر عبر البغدان ، وباءت محاولات بولندا للسيطرة على البغدان (Moldovia)، وكيليا بالفشل ، أما بالنسبة للعثمانيين فإن السيطرة على المينائين وكافا ضرورة اقتصادية أكثر منها ضرورة سياسية[2] .

بعد ذلك حكم البغدان (Moldavia)ستيفان الأكبر (Stephen the Great)(١٤٥٧ - ١٥٠٤ م) (٨٦٢ - ٩١٠ هـ) فأستولى على ميناء الدانوب كيليا (Kilia)وأخذ يتدخل في الشؤون السياسية للأفلاق (Wallachia)كخطوة أولى لاخضاع البحر الأسود والقرم ، وكان صراعه مع العثمانيين في ذلك الوقت قاصراً على المنافسة من أجل السيطرة على الأمراء الضعاف في الأفلاق . وفي النهاية اعترف (Vladiv)بالعثمانيين مثل المجريين وأعترف به أميراً على الأفلاق (Wallachia)ووعده السلطان محمد سنة ١٤٦٠ (٨٦٥ هـ) بأن يبعد المغيرين العثمانيين ، طالما ستيفان لا يحاول توسيع أملاكه ، وبتجمد الأفلاق (Wallachia)استطاع محمد الثاني أن يلتفت للأناضول ، وبذلك أصبح ساحل البحر الأسود عدا طرابزون البيزنطية خاضعاً تماماً للسيطرة العثمانية[3] .

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 63.

(٢) Halil Inalcik: The ottoman Empire P. 129.

(٣) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 64.

تحالف (Vlad)في سنة ١٤٦١ م (٨٦٦ هـ) مع المجريين وهاجم العثمانيين في الـدانوب ، ورد الفـاتح في السنـة التاليـة بغزو الأفـلاق (Wallachia) وعزل (Vlad Drakul) وعـينّ بـدلاً منـه (Radul)وهكـذا قلل السلطان العثمــاني من التهديد المجري[1] .

وفي هذا الوقت قام السلطان محمد الفـاتح بفتـح أجزاء من بـلاد اليونـان وإقليم المورة[2] . ولم يكن محمد الثاني مستعداً في ذلك الوقت لإخضاع البوسنـة إخضاعاً تاماً ولكنه كان يشجع المغيرين على شن هجمات خـاطفة في شمـال نهر الدانوب داخـل هنغاريـا وجنوب النمسـا وكذلـك على طـول سواحـل دالماشيـاو (Istria) .

وبحلول عام ١٤٦١ م (٨٦٦ هـ) كانت الرغبة الأساسية لدى محمد الثاني هي تسوية مشاكله في أوروبا لكي يستطيع التركيز لـوضع الأسس للسيـطرة على الأناضول إذ أنه بعد أن تم له اخضاع الصرب واليونان كانت ألبانيا في الغرب فقط هي التي تسبب له متاعب حقيقية[3] .

كانت كرمان قد بسطت نفوذها مرة أخرى في وسط الأناضول كما أخذت في إثارة القلاقل وتدبير الثورات ضد العثمانيـين وكان نجـاح العثمانيـين في البلقان أيضاً يثير رعب البندقية ومثلها جنوة ، مما جعلهما مشجعتان لتلك الطموحات في الشرق حتى تقلل من التهديد العثماني لهما ، لذلك شعر محمد الثاني بالحاجة الملحة لإستكمال إحكام سيطرته على طول سـاحل البحـر الأسود لكي يحبط أي تقـدم يمكن أن يحرزه أعدائه بفعل التحريض الأوروبي .

وكبـداية في إبـريل ١٤٦١ م (رجب ٨٦٦ هـ) استخـدم السلطان محمـد

(١) Halil Inalcik: The ottoman Empire P. 27.

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٨ .

(٣) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 63.

الفاتح أسطوله والذي تم بناؤه حديثاً ليربط ما بين الهجوم البري والهجوم البحري ، والتي اكتسحت بالترتيب على اقليم اماسرا (Amasra)، ثم قندار (Candar) ثم أراضي التركمان نفسها وأخيراً طرابزون البيزنطية [١] .

كان نشاط البندقية مصدراً آخر للمتاعب الموجهة ضد العثمانيين ، حيث أنه خوفاً من التوسع العثماني على طول سواحل الأدرياتيك استطاعت البندقية أن ترغم سكاندريج (Scanderbeg)على إنهاء تحالفه مع السلطان ويستأنف الهجمات على الحاميات العثمانية في الشمال (فبراير ١٤٦٢) (جمادي الثاني ٨٦٧ هـ) وتعاون ملك البوسنة الجديد ستيفان توماسفك (Stephen Tomasevic)(١٤٦١ - ١٤٦٣ م) (٨٦٦ - ٨٦٨ هـ) مع سكاندريج على التخلص من الخضوع لسيادة العثمانيين وقبول الحماية الهنغارية واحتلالها في ١٤٦٢ /٨٦٧ هـ .

ورد محمد الثاني على ذلك بغزو البانيا وإرغام سكاندريج على توقيع معاهدة سلام جديدة ، وأن يوقف هجماته في ٢٧ إبريل ١٤٦٣ ، وترك ذلك للسلطان حرية التعامل مع البوسنة التي قهرها خلال الفترة الباقية من الصيف بمساعدة كبيرة من الأهالي الذين كانوا قد خضعوا للإضطهاد أثناء الوجود الهنغاري [٢] .

استغل البابا بيوس الثاني (Pisu II)الموقف وضم البندقية وهنغاريا ضد العثمانيين في ١٢ سبتمبر ١٤٦٣ / ٩ محرم ٨٦٨ هـ ، فإذا قدر لهذه الحملة الصليبية الجديدة النجاح فإن البندقية سوف تحصل على المورة والأراضي اليونانية على طول الأدرياتيك ويمتد سكاندريج حدود دولة البانيا بالتوسع داخل مقدونيا وتتولى هنغاريا حكم بلغاريا والصرب والبوسنة والأفلاق (Wallachia) وتعود القسطنطنية وما حولها إلى الافراد الباقين على قيد الحياة من البيت الأمبراطوري البيزنطي .

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 64.

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 64.

وبدأت الأعمال العدائية فعلاً في سبتمبر ١٤٦٣ م (محرم ٨٦٨ هـ) عندما استولت البندقية على عددٍ من جزر بحر ايجه وأجزاء كبيرة من المورة[١]، كما أخذ البنادقة يبحثون عن حلفاء لهم في الشرق ، وفي خريف ١٤٦٣ م / ٨٦٨هـ - فتحوا باب المفاوضات مع أوزون حسن ، غريم العثمانيين في الأناضول الشرقية [٢] .

بعد ذلك أخذ البابا بيوس الثاني (Pius II)يسعى في تحريض الأمم المسيحية على محاربةالمسلمين حرباً دينية[٣].وأبحر أسطول البندقية متجهاً إلى مدخل الدردنيل واستولى على ليمونس (Lemons)وتنيدوس (Tenedos)١٤٦٤ م (٨٦٩ هـ) ، وبذلك حرم العثمانيون من ارسال المؤن للمورة ، وهدد بالهجوم على استانبول ، ورداً على ذلك بدأت الترسانات الضخمة في استانبول ببناء أسطول كامل جديد بينما كان العمل يجري في انشاء قلعتين قويتين تواجه كل منهما الأخرى على الدردنيل لصد العدو (١٤٦٣ - ١٤٦٤ م) (٨٦٨ - ٨٦٩ هـ) ثم قاد الصدر الأعظم حملة هائلة استعادة المورة وحطمت جيش البندقية (ربيع ١٤٦٤ م) (٨٦٩ هـ) ، وعندما علم السلطان بأمر الانتصارات على البندقية قاد جيشاً آخر للبوسنة وطرد الهنغاريين وبدأ في شن الغارات على هنغاريا [٤] .

وفي صيف ١٤٦٥ م (٨٧٠ هـ) قام السلطان بالحملة الثالثة ضد الصرب وكان الغرض منها هذه المرة الاستيلاء على بلغراد من الهنغاريين ، إلا أن هذا المجهود لم يكتتب له النجاح أيضاً [٥] .

تحرك أسطول البندقية نحو شرق بحر ايجة سنة ١٤٦٩ م (٨٧٤ هـ)

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 65.

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 65.

(٣) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٧١ .

(٤) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 65.

(٥) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 63.

واستولوا على جزر ليمونس (Lemons)وامبروز(Imbros)وهاجموا بعنف السواحل الجنوبية للأناضول بالاضافة الى انزال المؤن لكارمان ، ورداً على ذلك قام محمد الثاني في الصيف التالي بقوة بحرية استولت على جزيرة نيقروبونت Egriboz) (Negropontوهي القاعدة الرئيسية لأسطول البندقية في بحر إيجه ، وبينما كان البابا والبندقية يحاولان اعداد حملة صليبية جديدة ، أخذ محمد الثاني يوطد الحكم العثماني في جنوب ووسط الأناضول بتوجيه عدد من الحملات اليها [١] .

كان إصرار هنغاريا على البقاء في بلغراد ، وبناء العثمانيين لقلاع جديدة على طول نهر الدانوب أثناء دعمهم للغارات التي يشنها الأكنش (Akinci)على الأراضي الهنغارية نذيراً باقتراب صراع متجدد في أوروبا ، فقد استطاع ماثياس كورفينوس (Mathias Corvinus)في هنغاريا أن يحمل ستيفان الأكبر في البغدان (Maldavia)على أن يتخلص من السيادة العثمانية ، وأن يبني قوات عسكرية قوية تنافس الحكم العثماني في الأفلاق (Wallachia) وأدت الطموحات الهنغارية في مولدافيا (البغدان) للحرب مع ستيفان الذي انتصر بسهولة واستولى على قلاع كيليا (Kilia)وابرايل (Ibrail)وظهر كقائد رئيسي في المنطقة قادر على أن يركز جهوده ضد العثمانيين دون أن يقلق على مؤخرة جيشه ، ثم قام ستيفان بغزو الأفلاق (Wallachia) سنة ١٤٧١ م (٨٧٦ هـ) [٢].

وجاء تهديد آخر للحكم العثماني من الأراضي المسكوفية ، التي كان أميرها ايفان الثالث (Ivan III)قد تزوج صوفيا باليولوجاس (Paleologus)ونتيجة لهذا الزواج فقد أعتبر ايفان نفسه وكذلك الورثة الشرعيين للأمبراطورية الرومانية الشرقية وحاول أن يجعل موسكو المركز الجديد للكنيسة الأرثوذكسية [٣] .

أما التهديد الثالث للسلطة العثمانية فقد جاء من لوثانيا

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 65.

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 67.

(٣) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 67.

(Lithuania)وبـولـنـدا Poland) التي كـان يحـكمـهـا (Casimir/V) ٨٥١ - ٨٩٨ هـ /١٤٤٧ - ١٤٩٢ م) ، وكـانـت أمـلاكـه تمـتـد حتى أوكـرانـيـا (Ukrania)وتحـد البغـدان (Moladavia)إلى الـشمـال عـبـر نهر الـدنسـتـر (Dniester)إلى البحر الأسود شرقاً ، لقد تحالفوا مع القبائل الـذهبية التي كـانت تحكم المناطق الشمالية ، وبينما كان منجيلي جيـراي (Mengili Giray) ملك تتار القرم سعيداً بقبول المساعدة على سادته العثمانيين ضد هذه التهديدات فإنه لم يكن سعيداً بالأعمال التي كان يقوم بها محمد الثاني لنشر النفوذ العثماني على الشواطىء الشمالية للبحر الأسود ، ومن ثم فقد بدأ يتعاون مع موسكو[١] ، على الرغم من تشابك المصالح فإن ستيفان المولداني ، وكذلك البولنديين واللوثانيين والمسكوفيين والقبائل الذهبية وحتى تتار القرم اتفقـوا على القيـام بعمل مشتـرك لمنع السيـطرة العثمانية على البحر الأسود ، ورداً على ذلك ذهب هاويم سليمان باشا من ألبانيا عن طريق الصرب الأفلاق (Wallachia) وفي شتاء ١٤٧٥ م (٨٨٠ هـ) لينضم إلى السلطان في الهجوم على البغدان[٢] إلا أنه بسبب جهل العثمانيين بطبيعة تلك البلاد لم يتمكنوا من النصر على البغدانيين ، بل عادوا دون تحقيق أهدافهم ، ونال ستيفان بذلك شهرة ولقبه البابـا بحامي حمى النصـرانية ، وكـان السلطان محمد الفاتح قد أفتتح قبل ذلك من البغدانيين كافا (Cafa)وميناء أقاكرمان [٣] . وحاول العثمانيون فيها بعد منع الإيطاليين من دخول البحر الأسود .

صادف محمد الثاني نجاحاً أكبر في القرم إذ استغل في بداية الأمر المنازعات الداخلية بين أسرة الهانتا (Hanate)لعزل (Mengili Giray)وتولية ابنه (Erminak Giray)مكانه[٤] ، فأكرمه السلطان وعامله بما يليق بمكانتـه ، ثم نصبه السلطان

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 68.

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 68.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص ٥١٦ .

(٤) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 68.

خاناً على بلاد القرم بالنيابة عنه وأنعم عليه بالخلع السنية وبالتشريفات المخصوصة ثم تعاون (Erminak)مع حملة بحرية عثمانية في الاستيلاء على ما تبقى من مستعمرات جنوة على طول السواحل الشمالية للبحر الأسود وأصبحت بعد ذلك القرم[١] ولاية ممتازة تابعة للدولة العثمانية سنة ١٤٧٥ م (٨٨٠ هـ) وانتقلت جميع المنافع التجارية التي كانت في تلك الجهات إلى يد العثمانيين[٢] .

أعاد محمد الثاني منجيلي (Mengili)نتيجة لدخول كثير من كبار رجال القرم في خدمة العثمانيين ، وكان من رأيهم أن منجيلي أقدر على قيادة التتار ضد أعدائهم في الشمال ، وقد تقبل منجيلي بدوره السيادة العثمانية ووافق على أن يوفر المساعدات المالية والعسكرية اللازمة ، وهكذا تأكدت السيطرة العثمانية على تتار القرم واستمرت هذه السيطرة ثلاث قرون وهي توفر للسلاطين ليس فقط قاعدة أخرى للسيطرة على البحر الأسود ولكن أيضاً الامداد المنتظم للمحاربين الأكفاء[٣] .

أعطت العمليات الناجحة في شمال البحر الأسود للسلطان قدراً أكبر من المزايا الاستراتيجية والمتمثلة في القدرة على مهاجمة ستيفان المولدافي في شمال وجنوب البحر الأسود ، بينما كان تتار القرم يعملون على جذب اهتمام القبائل الذهبية ، واستطاع هجوم مشترك احتلال شواطىء(Bessarabia)والاستيلاء على أكريمان (Akkerman) محققاً بذلك السيطرة على المدخل الجنوبي لنهر الدانوب ، وحاول استيفان تجنب معركة مفتوحة مع العثمانيين باتباع سياسة حرق الأرض ولكنه نظراً لمساعدة الأفلاق (Wallachia) قد جعلت منهذه السياسة لا قيمة لها ، فأضطر لمواجهة السلطان أخيراً في (Valea Alba)في ١٧ يوليو ١٤٧٦ م (٢٣ ربيع

(١) القرم هي شبه جزيرة في جنوب المملكة الروسية بأوروبا ، يغمرها شرقاً خليج بوتريد ومن الجهات الأخرى البحر الأسود .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص ٥١٦ .

(٣) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 68.

الأول ٨٨١ هـ) ، وسيطر محمد الثاني واقتحم البغدان (Moldavia)ولكن ستيفان استطاع الهرب ومواصلة الحكم بعد رجوع العثمانيين إلى وطنه على أنه فقد مكانته السابقة وكذلك قدرته على تهديد العثمانيين(١) .

انتهت الحرب في ولايات الدولة ، وفي شمال البحر الأسود في وقت مناسب تماماً ، ليتمكن فيه محمد الثاني من مواجهة التهديدات القادمة من الغرب إذ قام (Matheas Corvinus)بالهجوم على القلعة العثمانية في سمندريا (Semendria) عام ١٤٧٦ م (٨٨١ هـ) مهدداً بذلك كل الخط الدفاعي في نهر الدانوب ، ولكن محمد الثاني وصل من البغدان وأطاح بالهنغاريين بهجوم مباشر(٢) ، ثم أجتاز اقليمي دالماشيا وكرداسيا(٣) . ثم ركز على البندقية على أمل أن يجبرها لقبول صلح باستكمال غزو البانيا وبذلك يكسب موضع قوي لقدمه في الأدرياتيك ، وفي ١٤٧٧م حاصرت القوات العثمانية الأدرياتيك ميناء (Lepanto)عاصمة (Scander Beg)وكريا (Carya)القديمة وكلاهما كانت تحت سيطرة قواد من ألبانيا بمساعدة من البندقية .

ورد أسطول البندقية بغارات على شواطىء الأناضول الغربية ولكن ذلك توقف عندما أرسل محمد الثاني المغيرين من أهل البوسنة عدة مرات إلى شمال ايطاليا محدثين دماراً هائلاً في الوديان المواجهة للبندقية ١٤٧٧ ـ ١٤٧٨ م (٨٨٢ ـ ٨٨٣ هـ) وفي نهاية ١٤٧٨ م (٨٨٣ هـ) كانت ألبانيا كلها تحت الحكم العثماني المباشر(٤) ، وتم تنظيمها كولاية عثمانية دائمة ، وأصبحت أفلونيا (Avlonia)ميناء دولياً تتركز فيه معظم التجارة من غرب أوروبا والدولة العثمانية .

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 68.

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 68.

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص ٥١٦ .

(٤) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. P. 68- 69.

انتقـل العثمانيـون أيضاً إلى الجبـل الأسود (Montengro)التي كـانت قـد شيدت في بداية القرن الخامس عشر أثر تمرد على الحكم الصربي في أعالي جبال نهر زيتا (Zeta)التي تحميها مناطق ساحلية في ساحل نهر دالماشيا الخاضعة للبندقية ، واستولى محمد الثاني على الجزء الجنوبي من البلاد .

من الواضح أن البندقية كانت في حالة تمزق بسبب فتوحات محمد الثاني وقد تم التوصل الى تسوية تعيد المزايا التجارية للبندقية في الدولة العثمانية تاركة لها قوة كافية في الأدرياتيك للمحافظة على مواصلاتها البحرية وانتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة صلح في استانبول في ٢٥ يونيو ١٤٧٩ م (٣ ربيع الثاني ٨٨٤ هـ)[١] ، تعهدت البندقية بدفع قدرٍ من الذهب وتنازلوا عن مدينة كرويا عاصمـة اسكندر بك للسلطان[٢] .

وكانت هذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل في شؤون أوروبا إذ كانت جمهورية البنادقة حين ذاك أهم دول أوروبا لا سيما في التجارة البحرية ، وما كان يعادلها في ذلك إلا جمهورية جنوا[٣] .

هكذا كان اهتمام السلطان محمد الفاتح للسيـطرة على البحـر الأسود حتى يؤمن ظهره ليستطيع أن يتقدم إلى وسط أوروبا ثم يجتاز كل ذلك ليحقق هـدف دولته فتح أوروبا والوصول إلى الأندلس ، وتتوالى المحاولات في عهد خلفائـه . ففي عهد السلطان بايزيد نجد هناك اصلاحات داخلية كبيرة ، لكن هذا لا يمنع السلطان مواصلة الاستراتيجية العثمانية الوصـول للأنـدلس التي كانت تـأن من المعاملة المسيحية في هذا الوقت ، كما أوضحنا من قبل ، فقام السلطان بـالضغط عـلى الجبهة الشـرقية في أوروبـا حتى يخفف عن المسلمين في الأنـدلس ، وكانت الخطوة الأولى في السياسة الحربية الجديـدة لبايـزيد إرسـال المغيرين من الصـرب

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 69.
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص ٥١٧ .
(٣) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٧٥ .

والبوسنة على طول سواحل دالماشيا حتى راجوسا (Ragusa)ثم عبر الدانوب داخل تمسفار (Temesvar) والأراضي الهنغارية الأخرى ، وقد حققت تلك الغارات الكثير من أهدافها وأدت بالتحديد إلى فتح هوزيجوفينا (Herzegovina)عام ١٤٨٣ م (٨٨٨ هـ) ، ولكن ظلت المناطق الساحلية في (Craina)في يد البندقية[١] .

ثم اختار بايزيد الأفلاق (Wallachia) لتكون أول ميدان لعملياته الحربية حيث كان ستيفان المولدافي أخذ يناوىء الدولة ومنها انشاء طرق مواصلات مباشرة حول البحر الأسود تربط بين أراضي الفتوحات العثمانية الجديدة في القرم ، وكان بايزيد يشعر أيضاً أن فتح البغدان (Moldavia)من جديد يعطيه ميزة استراتيجية عندما تتجدد الحرب مع هنغاريا وتمكنه من السيطرة على مداخل الدانوب ليوقف القراصنة المسيحيين الذين كانوا يدخلون البحر الأسود ، ثم يشنون الغارات على الملاحة والسواحل العثمانية .

كان ستيفان هو الذي أوجد الدافع لنشوب الحرب ، إذ أنه بمجرد علمه بتمرد جيم قام بغزو الأفلاق (Wallachia) ثم عبر الدانوب ، وقاد عدداً من الغارات داخل بلغاريا ، مهدداً لمكانة السلطان ونفوذه على أراضيه في أوروبا ، ورد بايزيد على ذلك بإرسال المغيرين إلى البغدان (Moldavia)وقام بهجوم بري وبحري في وقت واحد[٢] .

لم يخش السلطان بايزيد أي تدخل من جانب الهنغاريين حيث كان (Mathas Corvinus) لا يزال مشغولاً في وسط أوروبا ، ودخل بايزيد البغدان بقوات من الأراضي المفتوحة في الأفلاق (Wallachia) واستولى على (Killia) على الدانوب في ١٤ يوليو ١٤٨٤ م (١٠ رجب ٨٨٩ هـ) بينما استولت قوات تتار القرم على أكريمان (Akkerman)في (Bessarabia) على نهر (Dniester)محققاً

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 72.

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 72.

بـذلك السيـطرة عـلى شـواطىء غـرب البحـر الأسـود ومـداخـل نهر الـدانـوب والـدنيستر ، بينـما استغل قـائد تتـار القرم (Mengili Giray)حملة مشتـركـة مـع العثمانيين في مولدافيا الاستيلاء على الساحل الشمالي الغـربي للبحر الأسـود من البولنديين واللوثنيين وفقدت مولدافيا وهنغاريا مركزها التجاري مع وسط وشمال أوروبا عن طريق البحر الأسود وبالتالي وقعت هذه التجارة وكذلك رخاء الأراضي الممتدة عليها تحت السيطرة العثمانية ، وأسرع ستيفان بالاعتراف بسيادة بايزيد ، وعـاد السلطان بدون مـزيد من الفتـوحات ، وسـرعان مـا نقض ستيفـان هـذه الإتفـاقـات وحـاول استعـادة القـلاع في ١٤٨٤ م (٨٨٩ هـ) ومـرة أخـرى في ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ) ولكن دون جدوى ، وتم اعتراف هنغاريا وبـولندا أخيـراً بحكم بايزيد على المنطقة بمقتضى معاهدات جديدة ، وجعل النجاح في مولدافيـا العثمـانيين عـلى اتصال مبـاشر مع بـولندا ولكن اقتحـام تتـار القـرم لـلأراضي البولندية ، أجبر البولنديين على التركيز على التتار والامتناع عن أي صراع مباشر مع العثمانيين[١] .

نظراً للظروف الداخلية في الدولة العثمانية ، رأى السلطان بايزيد أن يوقع معاهدة مع البندقية في ٦ يناير ١٤٨٢ م (٢٤ ذو القعدة ٨٨٧ هـ) توقف بمقتضى ذلك دفع الجـزية للسلطان وزادت امتيازات البندقية داخل نطاق الدولة العثمانية ورغم ذلك فإن المنافسات في الإدرياتيك وبحر ايجه والمـورة استمرت في زعـزعة العلاقات .

فالبندقية كانت بتشجيع من البابا تتوسع في بسط سلطانها في شمال ايطاليا مقابل التزامها بتقديم مساعدات ضد الدولة العثمانية ، وعـلى الجانب العثمـاني كان التوقف النسبي ضد المسيحيين عدة سنوات قد خلق بعض التوتر ، ولذلـك حـاول بايـزيد استفـزاز البندقيـة للحرب ففي ١٤٩١ م (٨٩٧ هـ) قـام بـطرد الوكلاء التجاريين التـابعين للبنـدقية ، وفي ١٤٩٦ م (٩٠٢ هـ) أغلق المـوانىء

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 73.

العثمانية أمام تجار الحبوب البنادقة ، لا لعجز في انتاج الحبوب ولكن في الواقع من أجل زيادة الضغوط العثمانية ، وفي نفس العام احتلت القوات العثمانية القادمة من ألبانيا مدينة مونتجرو وهي محمية تابعة للبندقية ، كما استولى الأسطول العثماني سنة ١٤٩٧ م (٩٠٣ هـ) على سفينة تابعة للبندقية وكانت تنقل الحجاج المسيحيين إلى القدس(١) .

وردت البندقية على ذلك بابقاء أسطولها في بحر ايجة ، وشجع ذلك السلطان بايزيد فشيد اسطول جديد باشراف وقيادة كمال ريس ، الذي تزعم القراصنة في غرب المتوسط ، وقام بشن غارات على سواحل فرنسا واسبانيا وعند إتمام السفن وضعت السفن الحربية الجديدة في الخدمة وانضوى الآلاف من البحارة العثمانيين واليونانيين على طول السواحل تحت قيادته .

استطاع اسطول عثماني كبير الاستيلاء على ليبانتو (Lepanto)سنة ١٤٩٩ م (٩٠٥ هـ) ووجه ضربة قاصمة للقوة البحرية البندقية في الأدرياتيك وبحر ايجة ، ثم استولى أسطول بايزيد على الموانىء الكبرى التابعة للبندقية في شبه جزيرة المورة ، كما دمرت الغارات الشديدة الموجهة من البوسنة كرواتيا (Croatia)ودالماشيا (Domita)وسقطت دورازو (Durazzo) في أغسطس ١٥٠١ م . صفر ٩٠٧ هـ .

كانت البندقية مستعدة للصلح بسبب تكاليف الحرب الرهيبة ، اضافة الى خسارتها لأسواقها في شرق المتوسط ، ولطرقها التجارية المؤدية إلى البحر الأسود ، وفي نفس الوقت أدت المشاكل الجديدة في الشرق ، وعدم التأكد من كيفية إلحاق الهزيمة النهائية بالبندقية إلى موافقة بايزيد على الصلح الذي تم توقيعه في استانبول ١٤ ديسمبر ١٥٠٢ م (١٣ جمادي الثاني ٩٠٨ هـ) بتوسط بولندا(٢) .

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 75.

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 75- 76.

كانت الحرب انتصاراً عثمانياً كبيراً رغم احتفاظ البندقية بعدد من الموانىء في المورة والبانيا ، واستعادة امتيازاتها التجارية كقوة بحرية كبرى في البحر الأبيض المتوسط ، فالقواعد التي غنمتها من البندقية هيأت لها مواقع استراتيجية يمكن استخدامها في إحراز المزيد من التقدم ليس فقط في شرق البحر المتوسط ولكن أيضاً في غربه[1] حتى تنقذ الأندلس ، وكانت غرناطة في هذا الوقت على وشك السقوط ، كما أخذ المسلمون في الأندلس يعانون شتى ألوان التعذيب والإهانة ، وأراد السلطان إنقاذ الموقف هناك عن طريق البحر ، فآتخذ لذلك كل الوسائل والطرق ، ولكن نظراً لظروف الدولة والتي سنتحدث عنها في الفقرات التالية ، أعاقت السلطان من تقديم المساعدة الفعلية ولكن لفترة مؤقتة إذ نجد أن الدولة العثمانية تحاول وباستمرار الاقتراب من الأندلس ، فالملاحظ على تقدم الدولة في الميدان الأوروبي ، يجد أن جهاد العثمانيين في القارة الأوروبية كان متشعباً وفي كل مكان منها ، فهو شبه اكتساح عام للقارة ، وكان جهاد الدولة في كل ناحية في آسيا وفي أوروبا شرقها ووسطها وجنوبها ، كل ذلك من أجل تحقيق استراتيجية واحدة ، وهو جعل البحر المتوسط بحيرة اسلامية بما فيها ما يسمى تنفيذ خطة انقاذ الأندلس في فترة حروب الاسترداد .

Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 67. (١)

إن حدود الدولة العثمانية في مطلع القـرن السادس عشر كـان يحدهـا من الشمـال حصن بلغراد العـظيم وهو مفتـاح التقدم إلى وسط أوروبـا ، وفي اتجاه الشرق واصل العثمانيون فتوحاتهم التي شملت الافلاق والبغدان ، ووصلت إلى أقصى مداها عندما فتحت شبـه جزيـرة القرم في شمـال البحر الأسـود وفي اتجاه الشمـال الغربي شملت الفتـوحات العثمـانية صـربيا والبـوسنـة حتى وصلت إلى الساحل الدالماشي وفي اتجاه الجنوب شارفت الممتلكات العثمـانية جـزيرة رودس الحصينة في البحر الأبيض المتوسط وهو مفتاح التقدم إلى الغـرب ، أما حـدودها الشرقية فقد أجتوت في نطاقها ولايتي قره مان وطرابزنده ، كانت تلك الحدود التي وصـلت إليها الدولة ، وأرادت أن تكتسح بعد ذلك وسط القارة الأوروبية ، إلا أنه قامت عدة عوائق أمام العثمانيـين أعاقت من تقـدمهم وبالتـالي الوصـول إلى الأندلس عن طريق البر ، فأضطرت الدولة بعد ذلك أن تنقل عملياتها الحربية إلى الميدان البحري .

ومن هذه العوائق القلاقل في شرق ووسط الأناضول بين المسلمين ، إذ أنه بعد انهيار امبراطورية تيمور (Timurid)أقامت قبائل الخراف السوداء(Black Sheep)دولة كبيرة غرب ايران وشمال العراق ، بينما أقـامت قبائـل الخراف البيضـاء (White Sheep) بقيادة أوزون حسن (Uzun Hasan) وبمساعـدة بعض المماليـك ملكهم الخاص في غرب أيران وشرق الأناضول وكانت كارامان مرة أخرى تبسط نفوذها

في وسط الأناضول وهي تثير القلاقل وتدبر الثورات ضد العثمانيين ، كما أن النجاح الذي حققه العثمانيون في البلقان أثار رعب البندقية وجنوة فشجعا بذلك الطموحات في الشرق حتى يقللوا من التهديد العثماني[١] .

وقاد محمد الثاني حملة كبرى متوجهاً إلى الشرق ، وأعلن في البداية أن هدفها الأساسي هو قبائل الخراف البيضاء أو المماليك الذين كانوا يحتلون أراضي التركمان وجادير (Dulgadir) الواقعة عند منابع الفرات ولكن عندما رفض بير أحمد (Pir Ahmed) دعوة السلطان للإنضمام إلى الحملة ، قام محمد الثاني بغزو الجزء الغربي من كارامان المتمركز في كونيا (Konya) وبدأ في أول الأمر ، وكان كارامان قد دمرت نهائياً ولكن بير أحمد فر إلى جبال طوروس ، وقام بتنظيم القبائل المحلية لمقاومة السلطان ، واستعاد معظم الأقاليم بمجرد أن عاد السلطان بمعالجة مشاكله في أوروبا[٢] .

بعد ذلك تبنى أوزون حسن سياسة أكثر عدوانية ، وأصبحت مشكلة كارامان تهديداً خطيراً للسلطة العثمانية ، وأصبح أوزون حسن حاكم ايران والأناضول الشرقية ، عدواً ألد مثل تيمور فتحالف مع أهل البندقية ، وحيث أنه كان قد أقام علاقات مع فرسان رودس وملك قبرص ، وبك الأنيا ، كما أقام علاقات مباشرة مع البندقية ، وذلك بأن وعدهم بالزحف على ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر جبال طوروس التي كانت تحت سيطرة القبائل التركية ، كما انزلت سفن البندقية قوة على هذا الساحل مزودة بأسلحة نارية التي كان يرغبها أوزون حسن ، إلا أنهم أخفقوا في العثور على رجال أوزون حسن[٣] .

ثم قدم أوزون حسن مساعدة عسكرية للصفويين الذين ابتكروا عمامة

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 64.

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 65.

(٣) Halil Inalcik: The Ottoman Empire P. 28.

حمراء للرأس تطوى ١٢ مرة تذكاراً للأئمة الشيعة الأثنا عشر يتخذها أتباعهم كعلامة مميزة وقد عرفوا فيا بعد باسم « الرؤوس الحمراء » وقد حاول خلفاء أوزون حسن كبح جماح الصفويين مما أدى إلى إنهيار دولتهم أيضاً ، ولكن أسماعيل أحد أبناء آخر الصفويين استطاع الهرب إلى إيران ومعه سبعة من قبائل الرؤوس الحمراء مكنته من القضاء على صغار الأيرانيين الذين كانوا قد خلفوا قبائل الخراف البيضاء وآل تيمور ، وأصبحت لهم السيطرة على البلاد كلها لمدة عقد من الزمان .

ولما كان اسماعيل مصراً على استعادة نفوذ الصفويين في الأراضي العثمانية في شرق الأناضول ، فقد أرسل المئات من الدعاة الذين نجحوا في نشر رسالة بين البدو الرحل وقد فسر العثمانيون تلك الرسالة الدينية المخالفة للتعاليم الاسلامية بمعناها الحقيقي ، وهو أنها تهديد سياسي كما كان تصرفهم متفقاً وهذا التفسير ، إذ انتفضوا لمواجهة الصفويين ليس فقط بسبب الخطر العسكري ولكن أيضاً لأن رسالتهم الدينية كانت تشكل تهديداً موجهاً بصفة أساسية للتعاليم الإسلامية .

واستمر دعاة الصفويين يمارسون نشاطاتهم بين تركمان الأناضول ، وخاصة في الجنوب الغربي حيث كان اتباعهم يتميزون بالعنف ، وأستطاع الشاه كولو (Kulu)وهو من الصفويين أن يستغل الغضب السائد بين التركمان ليتزعم تمرداً هائلاً في الأناضول (Antalia)في ربيع ١٥١١ م (٩١٧ هـ) كما حصل على تأييد الآلاف من الجنود العثمانيين الذين أُرسلوا لإخماد التمرد وأرسل كولو دعاته المقربين ، وذلك بعد أن اعتبر نفسه خليفة لأسماعيل في جميع أنحاء الأناضول ، وكان المتطرفون منهم يصفون زعيمهم بأنه « المهدي » الذي أرسله الله لإنقاذ البشرية .

وبعد سقوط معظم جنوب شرق الأناضول في ايدي المتمردين أرسل بايزيد جيشاً بقيادة كبير الوزراء هاديم علي باشا ، واستطاع العثمانيون أن يوقفوا المتمردين نهائياً بالقرب من قيصرية وذلك في أغسطس ١٥١١ في جمادي الثاني

٩١٧ هـ ، وقتل الشاه كولو[١] .

وكان ظهور الدولة الصفوية كقوة خطيرة مناوئة للعثمانيين ، فالدولة الوحيدة التي برزت في الشرق في مطلع القرن السادس عشر كقوة يعمل حسابها كانت دولة الصفويين في ايران بعد أن أخضعت كافة الأقاليم التي كانت تكون من قبل الأمبراطورية التيمورية ، وظهرت على المسرح كقوة مضادة للدولة العثمانية ، إلا أن فرق المشاة للجيش الصفوي لم تكن قد تطورت ولم تكن قد تدربت على استخدام أي نوعٍ من أنواع الأسلحة الحديثة شأنها في ذلك شأن القوات المملوكية[٢] . ومهما يكن من أمر فإن ظهور الصفويين في المشرق كان عائقاً لتقدم العثمانيين في الغرب ، لأن مجهود الدولة كان موزعاً في الشرق والغرب وبالتالي يقلل من قوة الهجوم تجاه التقدم في وسط اوروبا .

وكان فشل الصليبيين في المشرق ، واحتلال العثمانيين للقسطنطنية وتهديدهم لأوروبا الغربية والوسطى بخطر الاستيلاء والاكتساح ، وظهور سيادة العثمانين البحرية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، بالاضافة الى النجاح الذي أحرزته القوات المسيحية على المسلمين في الأندلس دافعاً بالأسبان والبرتغاليين على متابعة الغزو واكتساح الإسلام والمسلمين في القارة الأفريقية باذلين جهداً كبيراً لإرضاء البابوية[٣] ، فاحتلت اسبانيا مراكزاً عديدة في الشمال الأفريقي لتكون منطلق لها تهاجم بها العثمانيون ، أما البرتغاليون فأخذوا على عاتقهم احتلال نقاط ارتكاز لهم في سواحل غرب افريقيا ليصلوا منها إلى الأماكن المقدسة الاسلامية والوصول إلى القدس تنفيذاً لخطة شاملة ضد المسلمين بافريقيا لا تتوقف إلا بالقضاء على الإسلام بها ، ونشر المسيحية[٤] . وكانت السيطرة عاملاً تقليدياً له

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Emirre P. 87.

(٢) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ، ص ١١٣ .

(٣) محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغب ، ص ٣٦١ .

(٤) محمد بو شاب : مقالة بعنوان وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة الملجة ، مجلة كلية الآداب بفارس عدد (٢ ، ٣) ، ص ٣٨٠ .

دور حيوي في مجالات الصراع السابقة بين الاسلام والمسيحية مع اختلاف واضح في هذه الفترة ، وهو أن تلك السيطرة كثيراً ما حاولت الجبهة المسيحية تنفيذها عن طريق الشمال ابتداءً من آسيا الصغرى ونهاية بسواحل المغرب العربي في طنجة ، بحيث مثلت سواحل البحر المتوسط الذي يطل عليه العالم الاسلامي ثلاث جبهات ، ففي آسيا الصغرى كان العثمانيون يرمون بأنظارهم نحو الزحف على أوروبا ، أما المغرب العربي فقد توزعت جهوده ما بين الحفاظ على الأندلس وبين رد هجمات الأسبان والبرتغاليين عليه ، وأخيراً جبهة المماليك في مصر والشام ، أما في هذه الفترة فقد حاق الخطر بجنوب العالم الاسلامي ، لهذا كان من الطبيعي أن يكون هناك نوع من التبديل والتغيير في حالة وقوع السيطرة وما جد في هذه الفترة عقب السيطرة هو ظهور خطة اقتصادية جديدة تبعاً للهدف الذي من أجله خرج البرتغاليون[1] .

ولم يكن تهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الإسلامية محدوداً بوصولهم إلى البحر الأحمر ، بل إن هذا التهديد كان ضمن مشروعات برتغالية ضد العالم الاسلامي منذ مطلع العصر الحديث ذلك أن الأفكار في تلك الفترة كانت متجهة نحو البحث عن امبراطورية القديس يوحنا الخرافية ، والتعاون معه لجعل مصرع قاعدة لشن الحملات على مكة ، وبصرف النظر عما في هذا المشروع من خرافة ، إلا أنه يعرفنا على نقطتين هامتين وهما : مدى الحقد الصليبي الذي كان يبيته البرتغاليون للمسلمين ، إضافة إلى نقطة هامة أخرى وهي أن الخروج نحو بحار العرب الجنوبية قد اتسم بصفة صليبية أكثر منه صفة تجارية في بدء انطلاق البرتغاليين[2] .

واقتنع الأمير هنري بهذه الفكرة في الاتصال بملك الحبشة المسيحي الذي تكاثرت الأخبار عن تحمسه للمسيحية[3] . وأخذ في وضع الخطة الاستراتيجية

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(٣) محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٦١ .

الكبرى التي تطوق جناح الإسلام[١]، فإذا ساير السواحل الأفريقية، واتصل بهذا الملك المسيحي ، فإنه يسهل التعاقد والتحالف معه ضد المسلمين ، وبذلك يمكن استرجاع بيت المقدس عن طريق الشرق والجنوب بعد أن فشلت المحاولات عن طريق الغرب والشمال ، وبعد أن فقد الصليبيون الآمال التي كانوا يعقدونها على المغول الذين صهرهم الإسلام في بوتقته وأصبحوا مسلمين[٢] .

ونزل البرتغاليون الأراضي المغربية المطلة على سواحل الأطلسي ، وكان ذلك من العوامل التي مهدت الطريق في سبيل استكشاف المجهول من سواحل غرب افريقيا حيث تم تقسيم رحلاتهم الكشفية إلى مرحلتين ارتبطت كل مرحلة في نهايتها بأهدافٍ معينة تمكن البرتغاليون من تحقيقها[٣] . ومن سواحل غرب افريقيا اتجه البرتغاليون نحو الداخل ، يستفسرون عن مملكة الحبشة ، ولم يجدوا الإجابة على ذلك فاضطروا إلى الإلتفاف حول افريقيا عن طريق البحر .

وفي عام ١٤٥٤ م (٨٥٨ هـ) تلقى هنري الملاح من البابا نيقولاس الخامس تفويضاً بأن له الحق في جميع الكشوف التي يكتشفها حتى بلاد الهند وفيما يلي شذرات من ذلك المرسوم ذو الأهمية الكبرى ، وهو أول مرسوم يحدد الإحتكار البرتغالي ببلاد المشرق :

(إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال ، إذ يتوسم خطى والده العظيم الملك يوحنا ، وإذ تلهمه الغيرة التي تملأ الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح ، قد دفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية ، القادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة . . . وسيستطيع في الوقت نفسه أن يدخل في الطاعة والخضوع بإذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الآن يد الاسلام

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٣٥ .
(٢) محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٦٢ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٣٢٥ .

ويدخل أسم المسيح في نطاق علمهم »[١] .

وفي حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي أصدر البابا كاليكستوس الثالث مرسوماً بابوياً ثانياً يؤكد المرسوم السابق وبذلك تمكن هنري من الحصول على شيء كان يعد في القرن الخامس عشر حقاً قانونياً مطلقاً لا سبيل إلى منازعته فيه ، فضلاً عن إعلانه لغايته السياسية والدينية ، والشيء الوحيد الواضح في المرسوم البابوي والذي كان له أثر قوي في السياسة هو المزج بين الدافع الروحي إلى فتح أراضي الوثنيين من أجل المسيح ، وبين الحمية المتعصبة بالدعوة إلى توجيه الضربات إلى جذور الإسلام بمهاجمته من الخلف[٢] .

وكان البرتغاليون أثناء كشوفهم للقارة الافريقية ، يبحثون عن التوابل والذهب ولكنهم أيضاً كانوا ملهمين بالرغبة في البحث حتى اليوم عن المجتمعات المسيحية المجهولة[٣] . فالغرض والهدف الأول من رحلات الاستكشاف هو نشر الدين وتحويل الوثنيين إلى المسيحية ، ولما كان الدين في أوروبا مرادفٌ للحياة الإجتماعية ، فكان من المفروض أن يشمل التحويل الحياة الاجتماعية أيضاً ، حتى تشبه الحياة الأوروبية ، في الأولى كان التدين بالمسيحية ومعرفة اللغة البرتغالية مؤهل الرجل الافريقي[٤] . أما بالنسبة للثغور المغربية فكانوا ينظرون إليها بمنظار مخالف وهو القضاء على التجارة المغربية ، والقضاء على القرصنة ، ومنع غزو جديد للبرتغال ، والبحث عن أراضٍ جديدة[٥] .

وأراد ملك البرتغال يوحنا الثاني البحث عن القديس يوحنا فأرسل اثنين من

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٧ . سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي ، ص ٤٠ .

(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٣) Reger Locrve: Habsburg and Bourbon Europ P. 30

(٤) Sir Georges Clark: Early modern Europe P. 63.

(٥) محمد بو شارب : مقالة بعنوان وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة المليحة ، مجلة كلية الآداب بفاس ، عدد (٢ ، ٣) ، ص ٣٨٠ .

أتباعه هما (Manterio), Frey Antonia) الـرجـل الأول ؛ وعندما وصلا إلى القـدس التي رغبـا في أن تكـون نقـطة انـطلاق ، إلا انهما لم يتمكنـا من اكمـال الرحلة ، وعادا إلى لشبونة مخبرين الملك أنه من الصعب تنفيـذ هذه المهمـة دون معرفة اللغة العربية[1] .

وخـرج بارثليمـو دياز لإكتشـاف المرحلة مـا قبل الأخيـرة من عبـور رأس العواصف الذي أطلق عليه ملك البرتغال يوحنا الثاني رأس الرجاء الصالح تيمناً بـالكشف الجديـد[2] . ولعل التسميـة أيضاً تيمنـاً باستعـادة الأمـاكن المقـدسـة المسيحية ، وعلى الـرغم من كل المحـاولات لم يتمكن البرتغـاليون من الإتصـال الفعـلي مـع مملكـة القـديس يـوحنـا المسيحيـة إلا بعـد اكتشـاف رأس الـرجـاء الصالح[3] .

ولما كانت الدولة العثمانية هي الدولة الإسلامية القائمة بـالفتح في أوروبـا باسم الإسلام ، فقد رأى سلاطينهـا الالتفات إلى الشـرق والجنوب ، والاسـراع بحماية الأماكن المقدسـة الاسلاميـة بما فيهـا القدس ، ومن ثم رأى العثمـانيون وجـوب فتح مصر ، التي كـانت في اعتبارهم الخـطوة الأساسيـة لتكوين الجبهـة الإسلامية[4] .

وفي هذا الوقت اندفع الروس إلى البحر الأسود وبحر قزوين وهضبة البامير وكان هدفهم الإستيلاء على القسطنطنية والمضائق ، وإعادتها مـركزاً لـلأرثوذكس عن طريق إثارة شعوبهم واستغلال العاطفة الدينية لديهم ، وبذلـك بدأ الـروس يمثلون ضغطاً شديداً وثقيلاً على الدولة العثمانية ، وبالتالي يؤثرون في مجهـودات

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٨٥ .
(٢) فاروق ثمان أباظة : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٣٥ .
(٣) فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٣٥ .
(٤) نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج ، ص ١٧٢ .
(٥) نبيل رضوان : الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية ، ص ١٢ .

العثمانيين على الميادين الأخرى ، وكانت هناك فرصة أخرى للبابوية لإثارة البلبلة في صفوف الدولة العثمانية حينما فر الأمير جم من أخيه السلطان بايزيد الثاني إلى فرسان رودس الذين سلموه بدورهم للبابا اسكندر السادس (بورجيا) فوجدها البابا فرصة لإرسال قوات صليبية بقيادة جم إلى آسيا الصغرى ، للحصول على حقه في العرش العثماني فتشتعل بذلك نار الحروب الأهلية ، غير أن وفاة جم الغير طبيعية أزالت الخطر على العثمانيين(١) .

وكانت هناك جبهة أخرى واجهها العثمانيين ، وهي من عوائق تقدم الدولة في وسط أوروبا ، وهي ظهور قوات آل هابسبرج ، الذين كانوا يأملون في تحقيق السيطرة والسيادة على وسط وشرق أوروبا منذ سنة ١٢٧٣ م عندما أصبح رادلف الأول (Rudolph I) امبراطوراً ، ولكنهم لم يستطيعوا انجاز ذلك الهدف مدة قرنين من الزمان ، بسبب تركيزهم على وسط أوروبا ، وتقسيم السلطة داخل الأمبراطورية(٢) .

بعد ذلك اهتم الهابسبرج بالسياسة الألمانية ، عندما أصبح عرش الأمبراطورية الرومانية المقدسة عبارة عن قناع شخصي أسري متوارث عن الأجداد ، وأخذ بعد ذلك الهابسبرج في عقد حلفٍ مع البلاط الهنغاري ، ولكن عندما انتقل الأمر إلى أسرة بوهيميا بعد وفاة ماثباس كورفينوس (Mathias Corvinus) ملك هنغاريا ، قللت أوروبا الشرقية من تفاعلها تجاه سياسة الأحلاف(٣) .

أخذت قوات هنغاريا في الانهيار بعد وفاة ماثياس كورفينوس ، بينما كانت قوات امبراطورية آل هابسبرج تنمو تحت قيادة الأمبراطور مكسيمليان الأول الأمبراطور الروماني المقدس وكان آل هابسبرج حكام النمسا وهنغاريا وتيرول

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 73.

(٣) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 118.

(Tyrol) وبوهيميا وكارنثيا ومناطق أخرى من الغرب ، وكانت كل منطقة من تلك المناطق تخضع لفرد مختلف من أفراد الأسرة ، وعمل مكسيمليان على إقامة المزيد من السيطرة المركزية ، على أمل أن ينجح في قيادة الحرب المسيحية ضد السلطان العثماني ، وربما يكسب السيطرة على أراضي جنوب شرق أوروبا بما فيها استانبول(١) .

تطورت الأوضاع بعد ذلك ، إذ ارتبطت أقاليم النمسا وبرجندي بأقاليم قشتالة وأراغون ، وذلك بزواج الأمير فيليب أمير برجندي من الأميرة جوانا ابنة فريدناندوايزابيلا سنة ١٤٩٦ م (٩٨٠ هـ) ، وانجبا شارل الأول الذي ورث الأراضي المنخفضة سنة ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) وأسبانيا (١٥١٦ م /٩٢٢ هـ) ثم الأمبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١٥١٩ م(٩٢٤ هـ) وبما أن شارل الخامس كان منشغلاً بالصعوبات السياسية في اسبانيا ، وبداية اللوثرية في المانيا ، لذلك تنازل عن الأراضي النمساوية وكارنثيا والتيرول في ١٥٢١ م (٩٢٨ هـ) لأخيه الأصغر فريدناند، الذي أصبح أميراً على هنغاريا بعد وفاة ملكها الملك لويس زوج شقيقته ، إذ أنهارت الأوضاع الداخلية فيها ، وهذا جعل الأمير فريدناند في مواجهة العثمانيين(٢) .

واجه فريدناند صعوبات كبيرة في هنغاريا ذلك لأن ثلثي المملكة كانت في يد العثمانيين ، ولا يأمل في استعادتها منهم ، ومطالبته بالجزء الباقي من المملكة كان موضع اعتراض من مرشح منافس ، ولكن بما أن فريدناند رئيس فوج الرايخ (Reichs- Regiment) وهو الجهاز الاداري للأمبراطورية الرومانية المقدسة وبصفته ملك الرومان والأمبراطور المرتقب ، جلب فريدناند معدات تدعم سيطرة الهابسبرج على تلك الأقاليم الهنغاريا الشمالية الغربية التي ظلت خارج نطاق الحكم العثماني ، كما استورد معدات دفاعية لمواجهة الهجمات العثمانية ، وأمد

(١) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 73- 74.

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P.119.

شارل الخامس سلاح المشاة بامدادات مهنية مختلفة من اسبانيا وايطاليا .

وكان انضباط قوات الهابسبرج بالاضافة إلى التقنيات المتقدمة مما أجبر القوات العثمانية على بطء الحركة وتأخيرها ، وهكذا أمكن إعاقة الجيش العثماني في التقدم إلى وسط أوروبا[١] . بالاضافة الى ذلك وجدت فجوات تمثل فيها الفساد الذي فتك في الجيوش والولايات ، وقامت الثورة في القرم وبين رجال الانكشارية في الأفلاق والبغدان وترانسفلانيا فكان ذلك عاملاً في توقف التقدم العثماني[٢] .

وهناك عوامل جغرافية وأخرى مناخية كانت سبباً رئيسياً في وقف التقدم العثماني ولعلها أصعب تلك العوامل إذ من الممكن التغلب على العوامل السابقة لكن هذه العوامل المناخية والجغرافية لا يمكن التغلب عليها . وكان من المعروف أن موسم الحملات العسكرية العثمانية على أوروبا هو في أشهر الصيف ، إلا أن التقدم كان بطيئاً وصعباً بسبب رداءة الطقس حتى في أشهر الصيف ، وعلى سبيل المثال شن السلطان العثماني سليمان القانوني في ابريل سنة ١٥٢٦ م رجب ٩٣٣ هـ ، هجوماً واستمر تقدمه خلال منطقة المجر وسط المستنقعات والتيارات الضخمة ، وتحت الأمطار الغزيرة المستمرة والضباب الكثيف ، فرحل السلطان إلى موهاكس ، التي كان إلى الشرق منها يفيض نهر الدانوب ، وفي الجنوب كانت هناك غابات ضخمة عملت حاجزاً لتقدم الطوابير العثمانية[٣] . فكانت مشاكل النقل فيها ضخمة وصعبة الحل بصفة خاصة ، فالانهار يجب أن يمتد فوقها الكباري المؤقتة المقامة على زوارق وهو عمل يحتاج إلى قدرة عالية من المهارة ، وأيضاً المحفوظات الغذائية الضخمة كانت جوهرية بالنسبة للجيش العثماني ، بسبب صعوبة حملها وكانت الجيوش العثمانية تحمل غذاءها معها ، لأنه من الجائز

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 120.

(٢) علي حسون : العثمانيون والروس ، ص ٦١ .

(٣) M. A. Cook: A History of the Ottoman Empire P. 81.

أن الأقاليم الزراعية تكون خاوية من المـواد الغذائيـة ، بسبب أعمال التخـريب والدمار بواسطة المسيحيين[1] . لكل هذه اضطر السلطان أمـام هذه الصعـوبات العودة إلى عاصمته استانبول .

كرر السلطان سليمان حملتـه في ١٠ مايـو عام ١٥٢٩ م رمضـان ٩٣٦ هـ حملته إلى المجر وتأخر وصـوله إليهـا مدة شهـر بسبب الأمطار وفيضـانات الأنهار ووصل إلى فينا في ٢٧ سبتمبر[2] ، والواقع أن اقتران موسم المطر وصعوبة نقـل المدفعية العثمـانية الثقيلة عبـر الدانـوب ، كل ذلـك كان سببـاً في رفع الحصـار والعودة[3] .

وكان حجم الجيوش العثمانية الضخم قد زاد من نقل المشـاكل التمـوينية وعنصر سلاح فرسـانها الكبير منـع حملات الشتـاء العسكريـة بسبب عدم كفـاية الامدادات الصيفية ، وعدم ملاءمـة ظروف الأرض الشتـوية نسبـة إلى عمليات الخيالة لذلك اقتصرت انشطة العثمانيين على الحملات العسكرية الصيفية عادةً من منتصف ابريل حتى أواخر اكتوبـر ، وكانت هنغـاريا تمثـل نقطة استنفـاذ القدرة العسكرية العثمانية[4] .

(١) M. A. Cook: A History of the Ottoman Empire P. 83.

(٢) M. A. Cook: A History of the Ottoman Empire P 83.

(٣) محمد عبد اللطيف الجراوي : فتح العثمانيون عدن ، ص ٩١ .

(٤) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P.103.

تخلفت مملكة أراغون عن قشتالة بعض الشيء في مناهضة المسلمين وذلك بسبب انشغال ملكها بيدرو الثاني في تنظيم شؤون مملكته ، وما أن استقر في عرش مملكته حتى سيّر حملة إلى جزر البليار ، ثم وجه عنايته بعد ذلك إلى بلنسية وحاصرها فأرسل أميرها أبو جميل زيان وزيره ابن الابار القضاعي إلى ملك تونس الحفصي أبي زكريا يحيى الحفصي يستغيث به والقى بين يديه قصيدته التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا[1]

وانهالت بعد ذلك قصائد الأندلسيين على الملوك الحفصيين ، يستفزون هممهم لاسترجاع الأندلس ومن بين القصائد ، قصيدة لأبي زكريا يحيى الحفصي :

نادتك أندلس قلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعواتك العلية فأجبها من عاطفتك ما يقي حسبأها
وأشدو بحباك جرد فيلك أزرها تردد على أعقابها أرزأها

إلا أن الحفصيين كانوا غير قادرين على خوض معركة الدفاع عن الأندلس وانقاذها عسكرياً ، وكان الشمال الأفريقي يعاني من الانقسام بين حكامه وشعوبه[2] . لذلك كانت هذه الصيحات من الأندلسيين في هذا الوقت تذهب

(١) محمدد عبدالله عنان : نهاية الأندس ، ص ٩١ ـ ٩٢ .

(٢) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون ، ص ٧٨ ـ ٧٩ .

سدى ، ولا تحقق أهدافها ولم يصل للأندلسيين أي إعانة مادية من قبل حكام الشمال الأفريقي المسلمين تساعدهم لإنقاذ الموقف المتدهور هناك[١] .

أخذت بعد ذلك المدن الاسلامية تتحول تباعاً إلى مدن نصرانية ، وأخذت الكثرة المسلمة تتحول بسرعة إلى أقلية تعيش في ظل الحكم الأسباني في ذلة وخضوع[٢].

تطورت الأحداث في شبة الجزيرة الأيبرية في مطلع العصور الحديثة ، فأصبح اهتمام الأسبان ينحصر في توحيد أراضيهم ، وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصاً بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة وفريدناندملك أراغون[٣] ، فأندفعت الممالك الأسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة في تصفية الوجود الاسلامي في كل اسبانيا ، حتى يفرغوا أنفسهم ويركزوا إهتمامهم على المملكة الاسلامية الوحيدة غرناطة ، التي كانت رمزاً للمملكة الاسلامية الذاهبة[٤].

وفرضت اسبانيا أقسى الاجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الأيبرية .

نتيجة لذلك لجأ المسلمون ـ المورسكيون ـ إلى القيام بثورات وانتفاضات في أغلب المدن الأسبانية والتي يوجد بها أقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسية وأخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الأسبانية التي اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمسلمين ، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يرنوا المورسكيون بأنظارهم إلى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لإنجادهم ، وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على انقاذهم مما يعانوه من

(١) محمد الهادي العامري : تاريخ المغالعثماني لمصر ، ص ٧٩ .

(٢) محمدد عبدالله عنان : نهاية الأندس ، ص ٩٣ .

(٣) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ١٠ .

(٤) محمدد عبدالله عنان : نهاية الأندس ، ص ٢٢٩ .

ظلم ، وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التي عاثت في الأرض فساداً واحلت لنفسها كل أنواع العقوبات وتسليطها عليهم[1] . ولما كانت الدولة العثمانية تتقدم في أوروبا الشرقية في هذا الوقت ، وأحدثت تأثيرات على مصير الأمراء الغربيين كل ذلك أعطى للعثمانيين اشعاعاً وهيبة ، ومنحها وزناً سياسياً وعسكرياً كبيرين على سائر أوروبا من أجل هذا وجه أهالي غرناطة سفارة الى استانبول في منتصف سنة ١٤٧٧ م ٨٨٢ هـ من أجل لفت نظر السلطان العثماني محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لإنقاذهم[2] . ولكن ، كان في حكم الاستحالة أن يستجيب السلطان محمد الفاتح لهذه الاستغاثة[3] نظراً لإنشغاله بالفتح في الجبهة الأوروبية .

وكانت أخبار الأندلس قد وصلت إلى المشرق فأرتج لها العالم الاسلامي[4] . وبعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية ، في حين أن أبناء دينه في المدن الأسبانية يعانون أشد أنواع الظلم ، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعايا المسيحيين ، إذا لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما أخذ من أراضيهم[5] . ولم يستجيب البابا والملكان الكاثوليكيان لهذا التهديد من قبل الملك الأشرف ومارسوا خطتهم في تصفية الوجود الإسلامي في الأندلس ، وجددت رسائل الاستنجاد

(١) عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة للسلطان سليمان ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد (٣) ، ص ٣٨ .

(٢) عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة للسلطان سليمان ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد (٣) ، ص ٣٨ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٠٢ .

(٤) الأمير شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ٢١٣ .

(٥) عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة للسلطان سليمان ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد (٣) ، ص ٣٨ .

لدى السلطان العثماني بايزيد الثاني الذي شهدت الدولة في عهده استقرار داخلي ، وتمر في حالة بناء وتعزيز للفتوحات ، فوصلته هذه إذ جاء في افتتاحيتها : « الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ، ومهد أقطارها ، وأعز انصارها ، وأذل عداتها ، حضرة مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله الكافرين ، كهف الاسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ، محيي العدل ، ومنصف المظلوم ممن ظلم ، ملك العرب ، والعجم ، والترك والديلم ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البرين وسلطان البحرين ، حامي الذمار ، وقامع الكفار ، مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغيثنا ، مولانا أبو يزيد ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالي والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل ، في الدار الآخرة ، والثناء الجميل ، والنصر في هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، ومجرد على أعداء الدين من بأسها ، ما يروي صدور السحر والصفاح ، وألسنة السلاح باذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد[1] . بعد ذلك سرد أبيات القصيدة يمدح فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد ، وعلى كرم الله الدولة ، وأعز بها المسلمين ، ويدعو للدولة بدوام البقاء قائلاً :

سلام كريم دائم متجدد	أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا	ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه	وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه	قسطنطنية أكرم بها من مدينة

(١) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني : ازهار الرياض في أخبار عياض ج١ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

سلام على من زين الله ملكه ... بجند وأتراك من أهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم ... وزادكم ملكاً على كل ملة
سلام على القاضي ومن كان مثله ... من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقى ... ومن كان ذا رأي من أهل المشورة

بعد ذلك وصفت القصيدة الحالة التي يعاني منها المسلمون ، وما تعرض له الشيوخ والنساء ، من هتكٍ للأعراض وما يتعرض له المسلمين في دينهم إذ استطرد قائلاً :

سلامٌ عليكم من عبيدٍ تخلفوا ... بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحرٌ من الردم زاخر ... وبحرٌ عميق ذو ظلام ولجة
سلامٌ عليكم من عبيد أصابهم ... مصابٌ عظيم يا لها من مصيبة
سلامٌ عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلامٌ عليكم من وجوه تكشفت ... على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلامٌ عليكم من بنات عواتق ... يسوقهم اللباط قهراً لخلوة
سلامٌ عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزيرٍ ولحم جيفة

بعد ذلك الوصف ، أخذت القصيدة تُعالج شكلاً آخر ، إذ أخذت توضح شعور المسلمين نحو الدولة العثمانية وتقدم الشكوى للسلطان قائلة :

نقبل نحن الكل أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير في كل ساعة
أدام الإله ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سوءٍ ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا ... واسكنكم دار الرضا والكرامة
شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزية

ثم تعود القصيدة في شرح المأساة ، وتغيير الدين ما إلى ذلك ، فأستطردت بقولها :

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا ... ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دينا النبي محمد ... نُقاتل عمال الصليب بنية

وتلقي أموراً في الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة

فجاءت علينا الروم من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة

فكنا بطول الدهر نلقي جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة

وفرسانها تزداد في كل ساعة ... وفرساننا في حال نقص وقلة

فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة

وجاؤوا بأنفاط عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة

وشدوا عليها الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجد وعزمة

غدرنا ونصرنا وبدل ديننا ... ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة

وكنا على دينا النبي محمد ... نقاتل عمال الصليب بنية

وتلقى أموراً في الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة

فجاءت علينا الروم من كل جانب ... بسيلٍ عظيم جملة بعد جملة

ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة

فكنا بطول الدهر نلقي جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة

وفرسانها تزداد في كل ساعة ... وفرساننا في حال نقص وقلة

فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة

وجاؤوا بأنفاط عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة

وشدوا عليها الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجد وعزمة

فلما تفانت خيلنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة

وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا ... أحطناهم بالكره خوف الفضيحة

وخوفاً على أبنائنا وبناتنا ... من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة

على أن نكون مثل من كان قبلنا ... من الدجن من أهل البلاد القديمة

ثم تحدثت القصيدة عن الخيار في مثل هذه الحالة ، فإما القبول بالوضع السابق أو الإرتحال ، إذ استطردت قائلة :

ونبقى على آذاننا وصلاتنا ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة
ومن شاء منا الجرجاز مؤمناً بما شاء من مالٍ إلى أرض عدوة
إلى غير ذلك من شروطٍ كثيرة تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
فكونوا على أموالكم ودياركم كما كنتم من قبل دون أذية

إلا أن الملكين الكاثوليكيين لم يفيا بتلك المواثيق إذ بدأ غدرهما على المسلمين فقال :

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم بدا غدرهم فينا بنقص العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بها ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان في أمر ديننا ففي النار ألقوه بهزءة وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلمٍ ولا مصحفاً يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى يعلم حاله ففي النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجيء منا لموضع كفرهم يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا بأكلٍ وشربٍ مرة بعد مرة

وهكذا مضت المسيحية في هتك الإسلام ، وذل المسلمين ، فمن تدخل في عبادة المسلم إلى شتم الإسلام فقالت القصيدة في ذلك :

وقد أمرونا أن نسب نبينا ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم بضربٍ وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذي يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك في زبل طريحاً مجدلاً كمثل حمار ميت أو بهيمة
إلى غير هذا من أمورٍ كثيرةٍ قباح وأفعال غزار ردية

بعد ذلك أخذ الملوك الكاثوليك في إذابة المجتمع المسلم وذلك بتغيير الهوية الاسلامية إذ قالت القصيدة :

وقد بدلت أسماءنا وتحولت — بغير رضا منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمدٍ — بدين كلاب الروم شر البرية
وآها على أسمائنا حين بُدلت — بأسماء أعلاج من أهل القيادة
وآها على أبنائنا وبناتنا — يروحون للباط في كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية — ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآها على تلك المساجد سورت — مزابل للكفار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع علقت — نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها — لقد أظلمت بالكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلاً — وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدي — ولا مسلمين منطقهم بالشهادة

ثم تتوجه القصيدة باستجداء السلطان لإنجادهم ، وانقاذهم من تلك المحنة فتقول :

فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا — إليه لجادت بالدموع الغزيرة
فيا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا — من الضر البلوى وثوب المذلة
سألناك يا مولاي بالله ربنا — وبالمصطفى المختار خير البرية
وبالسادة الأخيار آل محمد — وأصحابه أكرم بهم من صحابة
وبالسيد العباس عم نبينا — وشيبته البيضاء أفضل شيبة
وبالصالحين العارفين بربهم — وكل ولي فاضل ذي كرامة
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا — لعل إله العرش يأتي برحمة
فقولك مسموح وأمرك نافذ — وما قلت من شيء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم — ومن ثم يأتيهم إلى كل كورة
فبالله يا مولاي منوا بفضلكم — علينا برأي أو كلام بحجة

فأنتم أولوا الأفضال والمجد والعلا | وغوث عباد الله في كل آفة

كما طلب المسلمون أن يتوسط السلطان بايزيد الثاني لدى البابا في روما وذلك لما للسلطان من ثقلٍ سياسي في أوروبا فقال :

فسل بابهم أعني المقيم بردمة | بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة
وما لهم مالوا علينا بغدرهم | بغير آذىً منا وغير جريمة
وجنسهم المقلوب في حفظ ديننا | وأحسن ملوك ذي وفاء أجلة
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم | ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده | فذاك حرام الفعل في كل ملة
ولا سيما عند الملوك فإنه | قبيح شنيع لا يجوز بوجهة
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم | فلم يعلموا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا إعتداء وجرأة | علينا وإقداماً بكل مساءة

ويشير المسلمون أن توسط ملوك مصر لدى المسيحيين لم تجد شيئاً ، بل زادوا تعنتاً فقالوا :

وقد بلغت ارسال مصر إليهم | وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا | رضينا بدين الكفر من غير قهرة
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم | ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا في قولهم وكلامهم | علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق رونا | نقول كما قالوه من غير نية
ودين رسول ما زال عندنا | وتوحيدنا لله في كل لحظة

بعد ذلك أوضح المسلمون للسلطان بايزيد أنه مع كل ذلك فإنهم متمسكون بالدين الاسلامي ويؤكدون ذلك بقولهم :

ووالله ما نرضى بتبديل ديننا | ولا بالذي قالوا من أمر الثلاثة
وإن رغموا أنا رضينا بدينهم | بغير أذى منهم لنا ومساءة

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا | أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بلفيقاً عن قضية أمرها | لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
وضيافة بالسيف مزق أهلها | كذا فعلوا أيضاً بأهل البشرة
وأندرش بالنار أحرق أهلها | بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة

ويكرر المسلمون ويجددوا الاستغاثة بالدولة العثمانية بعد تقديم هذه الشكوى :

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم | فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا | كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً عن أرضهم | بأموالنا للغرب دار الأحبة
فأجلاؤنا خيرٌ لنا من مقامنا | على الكفر في عز على غير ملة
فهذا الذي نرجوه من عز جاهكم | ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا | وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا | وعزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم | بملك وعز في سرور ونعمة
وتهدين أوطان ونصر على العدا | وكثرة أجناد ومال وثروة
وثم سلام الله قتلوه رحمة | عليكم مدى الأيام في كل ساعة(١)

كانت هذه هي رسالة الاستنجاد التي بعث بها المسلمون في الأندلس ، لإنقاذ الموقف هناك ، وكان السلطان بايزيد يعاني من المشاكل التي تمنعه من إرسال المساعدات(٢) . بالاضافة الى مشكلة النزاع على العرش مع الأمير جم ، وما أثار

(١) عنوان القصيدة « رسالة أهل الجزيرة بعد استيلاء أهل الكفر على جميعها للسلطان بايزيد » المكتبة الوطنية بالجزائر برقم ١٦٢٠ .
شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني : ازهار الرياض في أخبار عياض ، ج ١ ، ص ١٠٩ ـ ١١٥ .

(٢) Stanford Show: A History of Ottoman Empire P. 76.

ذلك من مشاكل مع البابوية في روما وبعض الدول الأوروبية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب في ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبي الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا جويلس الثاني (Jules II) وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا ، وما أسفر عنه هذا التحالف[١] من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق ، ومع ذلك حاول السلطان بايزيد تقديم المساعدة إذ تهادن مع السلطان المملوكي الأشرف لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة ووقعا اتفاقاً بموجبه يرسل السلطان بايزيد اسطولاً على سواحل صقلية بإعتبارها تابعة لمملكة اسبانيا ، وأن يجهز السلطان المملوكي حملات أخرى من ناحية افريقيا[٢] . وبالفعل أرسل السلطان بايزيد اسطولاً عثمانياً تحول إلى الشواطىء الأسبانية ، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذي جسم الرعب في الأساطيل المسيحية في أواخر القرن الخامس عشر[٣] ، كما شجع السلطان بايزيد القراصنة العثمانيين بإبداء اهتمامه وعطفه عليهم ، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدأوا في التحرك لنجدة اخوانهم المسلمين[٤] ، وفي نفس الوقت كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من المسيحيين ، كذلك وصل عددٌ كبير من هؤلاء المجاهدين المسلمين أثناء تشييد الأسطول العثماني ، ودخلوا في خدمته بعد ذلك أخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة في غرب البحر المتوسط وبتشجيع من هؤلاء القراصنة[٥] .

كما بعث المورسكيون استغاثتهم الثالثة الى سلطان المماليك ، باعتبار وجود القدس تحت سيطرته والتي كان يعيش فيها مجموعة كبيرة من المسيحيين ،وأوضحوا

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٠٣ .

(٢) عبد القادر أحمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٦ .

(٣) الأمير شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ٢١٣ .

(٤) عبد الجليل التميمي : الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد (٢٣ ، ٢٤) ، ص ١٩١ .

(٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٤ .

(٦) Stanford Show: A History of Ottoman Empire P. 76.

مـا وصلت عليه حـالتهم بعد سقـوط غرنـاطة ، ودعـوه ليتـوسط لـدى الملكـين الكاثوليكيين حتى يحترما معاهدة الاستسلام ، فـأرسل سلطان المماليك قـانصوه الغوري وفداً لاسبانيا ، وهدد بأنه سيجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الإسـلام قسراً ، إذا لم تـراعى المعاهـدة ، فأوفـدت اسبـانيـا سنـة ١٥٠١ م (٩٠٧ هـ) السفير بيدرو مارتير دي انقليريا رئيس كاتدرائية غرناطة الـذي اقنع السلطان الغـوري بأنهم يعـاملون المـورسكيـون معـاملة حسنـة ، وإن لهم نفس الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الأسبان[١] . كما بعثوا أول نداء بالاستغاثة إلى المغاربة ، ذلك أن المغرب أقرب البلدان الاسلامية إليهم ، إلا أنهم لم يحظوا بأي جواب منهم ، فقد كان أهل المغرب في وضع سيء ضعيف مفكك فلم يستطيعوا اجابة هذا النداء ونجدة الأندلس[٢] ، ونتيجة لهذا الوضع الذي كان يسود المغرب العربي ، فقد تشجع ملك اسبانيا فريدناندعلى تحقيق أطماعه بغزوهـا ، فأحتـل عدداً كبيراً من المراكز على السواحل المغربية وقد تـرجم هذا الاحتـلال عن هذه السيـاسـة الأسبـانيـة والتي استقـطبت اهتمـام القصر ورجـال الـدين والـوزراء والجيش ، تلك السيـاسة الـرامية الى تـوسيع نـطاق محاربـة الإسـلام حتى أرض افريقيا ، وهي إحدى الظواهر الأسبانيـة في القرن السـادس عشر وفي وسط هذه الظروف ظهر الأخوان عروج وخير الدين البحاران العثمانيان ، اللذين لعبا دوراً رئيسياً في تعجيل الأحداث السياسية بالمغرب العربي خلال العقد الثاني من القرن السادس عشر وكانت حملاتهم في البحر المتوسط وعلى السواحل الأسبانية لغـرض مساعدة المورسكيين ، وكذلك الجزائريين الذين طلبوا منهما النجدة وهي ولا شك تعكس مدى نشاطهما[٣] .

واستقبل عروج في الجـزائر كمنقـد عندمـا طلب إليه المواطنونّ أن يعمـل

(١) محمد عبده حتاملة : التنصير القسري لمسلمي الأندلس ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) محمد عبده حتاملة : التنصير القسري لمسلمي الأندلس ، ص ٩١ .

(٣) عبد الجليل التميمي : أول رسالة من أهالي مدينـة الجزائـر الى السلطان سليم ، المجلة التاريخيـة المغربية ، عدد (٦) ص ١١٦ .

للقضاء على قلعة الأسبان بالجزائر ، ثم استولى على مليانة ومدية وتنس وتلمسان ، ونودي به سلطان على البلاد ، وخلفه في ذلك أخوه خير الدين ، الذي أدرك ضعف موقفه ، وكانت تعوزه الذخيرة الحربية والاطار العسكري وليست له صداقات لدى المواطنين ، وكان أهل تنس وشرشال والجزائر والقبائل في كوكو يسعون جميعهم للإفلات من قبضة خير الدين[1] فأدرك خير الدين ببعد نظره أنه لن يستطيع أن يجابه الموقف بقواه الخاصة ، ولن يتمكن من مجابهة الخطر الأسباني ، فيجب أن يعتمد على قوة الدولة العثمانية التي كانت في أوج قوتها وشرعت في بسط سيطرتها على المشرق الاسلامي وذلك للسيطرة على الجزائر والتغلب على الأسبان[2] . كما قرر الجزائريون في نفس الوقت ، أن تكن بلدهم جزء من الدولة العثمانية المترامية الأطراف ، ورأى خير الدين أن يحكم الجزائر مؤقتاً ، إلى أن يتخذ السلطان سليم الذي كان في القاهرة قراره لتنظيمها ، ولم يتأخر السلطان في جوابه ، فقد أعلم خير الدين وأهل الجزائر بقبول طلباتهم وأنه قرر أن يشمل الجزائريين والمورسكيين برعايته ، وتكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية[3] .

وأرسل بعد ذلك محمد بن منصور بن علي الحلبي باسم أهالي الجزائر رسالة إلى السلطان سليم الأول يحيطه فيها بوضع المغرب العربي المحزن ، ويستنهضه لمساعدته :

« إننا ندعو بالسعادة وا لنصر لمقام السلطنة العلية ، دعاء يبلغها اقصى الأماني ، فإن عبيدها بالجزائر يكتبون إلى مقامها العالي معبرين ومعترفين لمقامكم العالي بالاجلال والتعظيم أبداً ، وإن رسالتنا هذه لا تستطيع أن تستعرض كل الأسرار ، وإن سعادة أيامكم هي فرحتنا ، ونحن لزمام أموركم وطاعتكم

(١) شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .
(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .
(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة عام ، ص ١٩٧ .

مستبشرون وعليكم لا محالة اعتمادنا ، مظاهرنا كباطننا مخلص لكم أولاً وآخراً فقد أطعنا أمركم وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم يرفعون إليه غاية الاجلال والتقدير وليس لهم من قصدٍ غير شريف مقامكم العالي .

لقد جرت حوادث جليلة ولها أخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة أعداء الله ، ومفادها أن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس ، انتقلوا منها إلى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد ، غير أنه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة في وسط الدائرة ، وبقينا لذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب ولكن تمكسنا بحبل الله المتين واتكلنا عليه . غير أن طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة إدخالنا تحت ذمته (سلطته) ، وقد نظرنا في الأمر ورأينا أن المحن والشدائد تشتد وإن الضرورة تقضي بحقن دماء أنفسنا وخوفاً على حريمنا وأموالنا وأولادنا من السبي والتفريق تصالحنا مع أهل التثليث وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار الى وهران وبجاية وطرابلس ، وكان قصدهم أن يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة . آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله أوروج باي مع شلة من الغزاة ، فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه ، لأننا كنا في خوفٍ من (من عدونا) فخلصنا بفضل الله ، وأوروج باي المشار اليه جاءنا من تونس لإنقاذ بجاية من يد الكفار وتأهيلها بالمسلمين . فلما وصل إلى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن قاضي زلزلوا أركانها وهدموا بنيانها ، وشاهد الكفار عندما دخل القلعة المسلمون وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها ، واختلال بنيانهم وقرب حتفهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة وقتل الباقون منهم .

لقد حارب المسلمون الكفار أناء الليل وأطراف النهار من طلوع الشمس إلى غروبها ، وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة أوروج القتال ، بقي المشار اليه

يقاتل الكفار مع جماعة قليلة ، وكان قد عزم على لقـائنا غـير أنه وقـع شهيداً في حرب تلمسان رحمه الله . وقد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو التقي خير الدين وكان له خير خلف فقد دافع عنا ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف ، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم والاجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لـرضاء رب العبـاد وإعلاء كلمـة الله ومناط آمـاله سلطنتكم العالية مظهراً إجلالها وتعظيمها . على أن محبتنا له خالصـة ونحن معه ثـابتون ، وكيف لا نحبه وهو المشمر عن ساعد الجد والإقدام ، ويقود الجهاد معنا في سبيل الله بنية خالصة وقلب صادق متفق وهاج ودليل واضح المنهاج ، ومفـاد ما يـريد عبيدكم اعلامـه لمقامكم العـالي هو أن خـير الدين كـان قد عـزم قصد جنـابكم العالي ، إلا أن عرفاء البلدة المذكورة رفعت ايديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفاً من الكفار إذ هدفهم هو الفقيه العالم المدرس أبو العباس أحمـد بن علي بن أحمـد ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية وأهالي اقليم بجاية والغرب والشـرق خدمـة مقامكم العالي ، وإن المذكور حامل المكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام . أوائل ذي القعدة ٩٢٥ هـ[١] . الموافق ما بين ٢٦ اكتوبر و٣ نوفمبر ١٥١٩ م » .

وكانت استانبول مركز الثقل للعالم الإسلام خاصة في هذه الفترة ، بفضل حـركتها التجـارية والاقتصـادية والثقـافية وخصـوصاً السيـاسية ، وكـان نجـاح العثمانيين العسكري في الشام ومصر واشرافهم على البحر المتوسط قد نبه اسبانيا إلى مدى ثقل وزنها السياسي والعسكري والديني المتصاعد وخطورة هـذه الدولـة الاسلامية النـاشئة ، حتى أن الكنيسـة في روما كـانت تخشى أن تتعرض سـلامة أوروبا للخطر فشرعت تعد حرباً صليبية جديدة أكثر ضراوة من سابقتها .

وجدت اسبانيا التي كسبت المعركة العسكرية والسياسية في الأندلس نفسها

(١) عبـد الجليل التميمي : أول رسـالة من أهـالي مدينـة الجـزائـر الى السلطان سليم الأول ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد (٦) ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

مجبرة على شن حملات عسكرية على شمال افريقيا لاحتواء السواحل المغربية مدفوعة في ذلك بطابع استمرارية الحملة الصليبية على الاسلام ، ولتبعد خطره عن أراضيها ، فشددت الضغط على المورسكيين في أسبانيا ، والذين كانوا على علم بالاحداث الجارية في البحر المتوسط ، واعتبروا هزيمة الأسبان في الجزائر نصراً من عند الله لهم ، وهذا ما جعلهم يحررون رسالة للسلطان سليمان القانوني واستنجادهم به وتذكيره ما قام به خير الدين الذي أنجدهم في السابق ، كما اعتبر المورسكيون أن المدد المرسل إلى الجزائر هو تعزيز للمسلمين ، لذا طالبوا السلطان باعادة تعيين خير الدين على الجزائر ليعمل من جديد على صد العدوان الأسباني وانقاذ مسلمي الأندلس فكتبوا قائلين له :

« بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه يقبل مواطىء الأقدام الشريفة التي ثراها ، إذا مر بالعيون الرمدة أبراها ، ورحاب الأكف الكريمة التي (كذا) أعطاها (كذا) إذا مر بالأراضي المحلة أثراها ، اقدام شأنها السعي في الخيرات والقربات ، وأكف شأنها فعل الخيرات والمكرمات أدام الله أيامها ونصر أعلامها ، وأوطاء (كذا) ركابها أعناق الملحدين والمتمردين ، وأنعشه في كل وقتٍ بنصر وفتح مبين نسأل (كذا) الله تعالى أن يجعله أركابا لم يزل ممتطياً مطايا السعد ، محفوفاً بالسعود ، قطباً للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود ، وأن يجعله دائماً باقياً راقياً في درجات العز والملك إلى آخر الدهر ، مصوناً في حرز كنف الله الحريز ، وأن يخرق له العادة بطول بقاية ، وما ذلك على الله بعزيز ، ركاب حضرة الجود ، ورواق العز المحدود ، ومعدن الرأفة والحنان ، وما من الخايف اللهفان وعظ من أن الله يأمر بالعدل وا لاحسان ، حضرة فخر ملوك البسيطة ، ودرة تلك السلوك الوسيطة ، كبير سلاطين الزمان ، منيل أفانين الأماني والأمان ، الملاذ الأعظم والثمال الأعصم ، ذي العروة التي (كذا) لا تفصم ، والحجة التي (كذا) لا تخصم ، والذي يعترف له القاصي والداني بالفضل على الاطلاق ، يبوأه رتبة الاصالة والجلالة بالاستحقاق ، ولم لا وهو نسيم الخلافة العلية في منصب الوراثة ، وحايز الفضيلة

السنية من خدمة المساجد الثلاثة ، وله ملك مصر وأنهارها والشام وديارها والحجاز شرف الله مقدارها ، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الآفاق وإليه تحجج الأجسام بالرحلة والأفئدة بالأشواق ، وعلى جمع تلك الحضرة العليا لمحاسن الدين والدنيا ، انعقد الاجماع والأصفاق (كذا) مولانا السلطان الملك الأشرف الأضخم الأرفع الأعلم الأحلام الأرحم الأرق (كذا) ، الأجود الأكرم الأسمح الأعطف ، قامع الملحدين وقاطع دابر الطغاة (كذا) والبغات (كذا) والمردة والمفسدين ، ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة ، الفايز بشرف الدين والدنيا من الجهاد في سبيل الله والسقاية في المسجد الحرام والعمارة ، مطهر البسيطة من درن فسادها ، ومظهر آيات الرأفة والرحمة في بلادها ، سلطان الاسلام والمسلمين ، عز الدنيا والدين وظل الله على الخليفة أجمعين السلطان بن السلطان بن السلطان ، السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان ، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله وضاعف لديه مواهب إكرامه وأفضاله وأدام نجم سعده المنير باهر الاشراق ، وجعل سهم ضده الحقير لازم الاخفاق ، وحفظ بشهب أولياء مجده من مردة النفاق جميع الأقطار والآفاق ، فهو الامام الهمام ، والأسد الباسل الضرغام ، الذي مهد الله تعالى بدولته البلاد ، وأمن ببركة أيالها في مسالكها وممالكها العباد ، ومزق به ثوب الفساد ، وقطع بسيفه وسنانه وبادرتي قلمه الأعلى ولسانه دابر أهل العناد ، فسعد الاسلام بدولته ، وأعتز دين الله العزيز في مدته ، وخمدت نيران البغي بسعادته ، وامتدت الأماني وشمل الأمان بحسن سياسته نسأل (كذا) الله تعالى أن يصل لسيدنا ومولانا عادت (كذا) نصره وتمكينه ، ويريه قرة العين في دنياه ودينه وبعد : فإن عبيدك الفقراء (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسايم بغرناطة وغيرها خمسون والباقون من عامة المسلمين رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين وما هم فيه من مكايدة الكفار ، ومقاسات (كذا) التضييق والاضرار ، وجود أهل الشرك أناء الليل وأطراف النهار ، وتحريقهم إيانا

بالنار ، قد تكالب العدو علينا ومدد السوء والضرر إلينا ، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب ، ورمونا عن قوس واحد بسهم صليب ، وطالت بنا الأيام ، وعاشت فينا يد النكاية والإيلام ، وخذلنا جيراننا واخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان ، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم ، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين ، علم بأحوالنا ، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر ، واجتمعت أهل الاسلام على اطاعة مولانا ومحبته بالخواطر والظماير (كذا) وانتظم العدل والشرع والأمان في البادي والحاضر ، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سبباً في خلاص كثيرٍ من المسلمين ، من أيدي الكفرة المتمردين ، ونقلهم إلى أرض الإسلام ، وتحت أيالة طاعة مولانا السلطان والعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان ، فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران ، علم أنا اخترنا المصيبة في الأموال والأبدان ، وأثرنا ديننا على سائر الأديان ، فلما صدقت الضماير ، وبلغت القلوب الحناجر ، خاف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا ، تحاير في أمره ، وجمع إليه أهل تدبيره وحزبه ، فدبروا ومكروا ، وهل يحيق المكر السيء إلا بأهله ، واتفق رأيهم المعكوس ، وتدبيرهم المنكوس ، على قتال الجزائر ، لئلا يبقى ببلاد المغرب لأهل الاسلام ناصر ، فعاقبهم الله بعقاب أصحاب الفيل ، وجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا) تجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل ، ولا نجا من الغرق قليل ، والآن اشتد غضبهم على أهل الاسلام ، وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام ، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذو (كذا) الجلال والاكرام ، وهم عازمين (كذا) على الجزائر والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نِعم الناصر يا مولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله ، المدد المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الاسلام ، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان ، وهي موسومة باسمكم الشريف ، وتحت ايالة مقامكم المنيف ، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة والرعية المختلفة بها مؤتلفة أليفة ، وطراز رونقها المجاهد في

سبيل الله عبدكم الوزير الأجل خير الدين ، المتمثل لأوامر مولانا ، ونتاج عز الدنيا والدين ، فإنه أحيا هذا الوطن ، وجميع النواحي والسكن ، وأرعب قلوب الكفار وخرب ديار المردة والفجار ، وأظهر نظام السلطنة العثماني ، وأحكام مولانا نصره الله حتى تزينت بها الديار والأمصار فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من إرساله لهذا الوطن أن (كذا) مولانا صلاح (كذا) في ذلك فيكون ذلك غاية الاحسان لجميع أهل الإسلام وقهر ونكاية لحزب الشيطان ، وقد اتفق جمعنا من المسلمين المذكورين على رفع الشكوا (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام لا زال بالعز موصوف (كذا) وبالبهاء والنصر محفوف (كذا) بأن يغيثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشه (كذا) إلى الجزائر ، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع أهل الشرك منه خايف وحاير (كذا) والسلام التام على المقام الشريف العالي ورحمة الله بتاريخ أوايل شهر شعبان أحد شهود ثمانية وأربعين وتسعمائة[1] الموافق ما بين ١٩ ، ٢٩ نوفمبر ١٥٤١ م .

(١) عبد الجليل التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة للسلطان سليمان ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد (٣) ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

كانت فكرة الوصول إلى الهند ، تراود أوروبا منذ وقتٍ طويل قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وذلك حتى يردوا على قوة الاسلام ، وينهوا وساطة المسلمين من تجارة الهند ، وقامت عدة محاولات ، ومن ذلك تلك المحاولة التي قام بها أجولينو دي فيفالدو سنة ١٢٩١ م / ٦٩٠ هـ لكشف طريق بحري إلى الهند ، فأبحر من جنوه عن طريق جبل طارق محاذياً للساحل الأفريقي ، وتمكن الجنويـون بفضل تشجيع اسبانيا والبرتغال من الوصول إلى المحيط الهنـدي بالـدوران حول رأس الرجاء والوصول إلى المحيط الهادي عبر القارة الاميركية .

كما اقترح الجنويون عـلى الخان أرغـون ملك فارس خـطة يرمـون فيها من ورائها إلى تحويل تجارة الأفاوية ، مع ملبار إلى الخليج الفارسي ، ومن ثم تحمل براً إلى موانىء شرقي البحـر المتوسط ، كـما كانت الفكـرة تقضي بأن يبني الجنـويون اسطولاً على الخليج الفارسي يغلق البحر الأحمر في وجه التجارة الهنـدية ، إلا أن ذلك الاقتراح لم يتحقق[1] . وتطورت بعد ذلك الاكتشافات ، وتوالت البعثـات الأوروبية الى الشرق لمعرفة الأحوال التجارية والبحث عن مسيحيين ، فبعث ملك البرتغال الدوم جوان الثاني جندي وجاسوس بيـردوا كوفلهـام ، ليكون سفيـراً له لدى « البريستـرجون » المسيحيـة في الحبشة ، وفي ١٤٨٨ م (٨٩٤ هـ) وصـل

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢٠ .

كوفلهام للهند وزار كلكتا .

وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلادي انطلق فاسكو دي جاما من لشبونة بعد أن أوضح الملك يوحنا لـه أهداف الـرحلة والتي تنحصر في العمل عـلى نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق ضارباً له المثل برخاء الجمهوريات الإيطالية نتيجة ثروات الشرق[١] . ثم دار حول رأس الرجاء الصالح واحتفل بعيد رأس أول السنة على جزء من ساحل افريقيا الشرقي الذي حوله للمسيحية بطريقة مناسبة[٢]. وفوجىء البرتغاليون عندما وصلوا إلى خليج مدغشقر إذ بددت مخـاوفهم هناك ، ولقي البحارة ما لم يكن في حسابهم حين خرجوا إلى البحر ، فوجدوا مرافىء عامرة تطن كخلايا النحل ، ومدن ساحلية عامرة بالناس ، وفرح البحارة عندما وجدوا رجالاً عبروا المحيط مرات عديدة ، ويعرفون دقائق مرافئها[٣] .

واصل فاسكو دي جاما رحلته نحـو المدن السـاحلية لشـرق افريقيـا ، ولم يخاطر في اجتياز المحيط الهندي وبدأ يبحث له عن دليل يقوده للهند ، فزار سوفالا وهنا سمع بوجود مرشد في مالندي يقود سفنه ويعبر المحيط الهندي ، ومن مالندي استعان دي جاما بالملاح أحمد بن ماجد[٤] .

ألقى فاسكو دي جاما مرساه لأول مرة في ميناء هندي ، ونعني به قاليقوط محققاً بتلك الرحلة ثورة في التجارة المنافسة لمصر والبندقية والدولة العثمانية[٥] . واستقبل حاكم الأقليم الزامورين البرتغاليين ، وقد دهش لمجيء البـرتغاليـين ، وعندما سألهم عن السبب في مجيئهم أجاب فاسكو دي جاما بإيجاز : المسيحية ثم

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٦٨ .

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbon Europe P. 33.

(٣) باذل دافدسن : افريقيا تحت أضواء جديدة ، ص ٢٦٣ .

(٤) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي ، ص ١٣ .

(٥) S. B. Miles: Country and tails of the Persion Gyly P 138.

البهارات[1] . وخاب أمل البرتغاليين في وجود حكام مسيحيين في الشرق ، ولكن عوضهم عن ذلك سياسة التسامح التي كان يسير عليها سلاطين المغول المسلمين في الهند واستقروا في الحال لتحويل بعض من سكان الهند إلى المسيحية . وأخذ دي جاما يطبق بالقوة ادعاء مولاه أنه سيد الملاحة ومولاها فكان يقطع الطريق دون أي تحذير على أية سفينة يلتقي بها في طريقه ويدمرها[2] . إذ كانت سفينة فاسكو دي جاما محملة بأكثر من عشرين مدفعاً وكانت تعد قوة ضاربة في ذلك الزمان[4] ، وكان هذا التفوق البرتغالي الحربي عاملاً أساسياً في تطور موقفهم السريع أثناء تلك الفترة ،إذ كانت هذه الأسلحة لم تكن معروفة في الهند في ذلك الحين[5].

ولما كانت رحلة دي جاما هذه رحلة ارتياداً واستكشافاً ، فإن همه اقتصر على التماس الأذن له بالتجارة فسمح الزامورين للبرتغاليين بذلك ، علاوة على عدم دفع الرسوم الجمركية ، ولاحظ دي جاما وجود العرب بالمدينة وكانت لهم حظوة في بلاط الزامورين[6] .ثم طلب دي جاما من حاكم قاليقوط السماح بإنزال أربعة أو خمسة من رجاله للاستقرار في المدينة ، غير أنه فشل في تحقيق تلك المطالب فاتجه بعد ذلك دي جاما إلى كنانور وجوا ، وبعد جولة أمام هذه المدن وغيرها من مدن ساحل الملبار شحن سفنه بنماذج من السلع الشرقية ، ومن ثم رحل إلى لشبونه حيث وصلها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

ولم يكن حكام مليبار مسلمين « ومع هذا فللمسلمين فيما بينهم حرمة وعزة

(١) محمد مرسي أبو الليل : الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ، ص ١٧٧ .

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone P. 34.

(٣) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٠ .

(٤) باذل دافدسن : افريقيا تحت أضواء جديدة ، ص ٢٦٩ .

(٥) فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٣٧

(٦) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٣٨ .

لأن أكثر عمادات بلادهم بهم »[١] . وكان المسلمون قد قدموا من مناطق مختلفة وتوطنوا هناك وقاموا بأعمال التجارة ، حتى أن اليهود والنصارى المقيمين هناك ، يحسدون المسلمين نظراً لنشاطهم الديني والتجاري ، من جهة ، ونظراً لقربهم إلى حكام مليبار من جهة ثانية ، لذلك أخذوا يعادون المسلمين ولكنهم لم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً ، إذ أصبحت ممالك الدكن وكجارات المجاورة تابعة لسلاطين دلهي ، وقوي شأن الإسلام في الدكن ، فأصبح حكامها سنداً للمسلمين المليباريين مما جعل اليهود والنصارى يؤثرون الصمت وعدم إظهار المعاداة حتى وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي ونزولهم ساحل المليبار[٢] .

وبعد عودة دي جاما من البرتغال باثني عشر شهراً غادر بيدرو كابرال (Pedro Al Vares Cabral) على رأس ثلاث عشرة سفينة مسلحة ، وبها ألف وخمسمائة رجل ، وذلك لتأسيس مراكز تجارية للبرتغال في المحيط الهندي . وفي طريقه بالسواحل الجنوبية للأطلنطي أبحر إلى الغرب ورسى على ساحل البرازيل ، وأدعى ضمها إلى سيده ملك البرتغال . ومن هناك أكمل طريقه للشرق ، وفي مطلع القرن التالي وصل إلى قاليقوط وحاول تأسيس مركز تجاري[٣] . وبدأ في معادة المسلمين فذكر لعمال الزامورين أنه ينبغي منع المسلمين من مزاولة التجارة وأن لا يتصلوا بالبلاد العربية ، والفوائد التي يمكن الحصول عليها منهم يستطيعوا الحصول عليها مضاعفة من قبل البرتغاليين ، إلا أن النصارى بدأوا في مضايقة المسلمين ، فأمر السامري بمقاتلتهم ، فقتل منهم سبعين أو ستين رجل من البرتغاليين ، وركب الناجون منهم مراكبهم هاربين ، ورموا بمدفعيتهم المدينة ، وتوجهوا إلى كوشي ، التي كان حاكمها على خلاف مع السامري فاستقبلهم حاكم كوشي وسمح لهم باقامة قلعة وهي أول قلعة بنوها في

(١) زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين ، ق ١٢ أ .

(٢) نصير أحمد نور أحمد : عصر أكبر سلطان الدولة المغلية الاسلامية في الهند ص ٢٩٣ .

(٣) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone P. 33.

الهند كما هدموا المسجد الكائن بالساحل [*] . بعد ذلك رجع كابرال (Cabral) إلى البرتغال محملاً معه شحنة من الفلفل والزنجبيل وغيره[٣] .

ناقش البلاط نتائج الرحلتين من خلال تقارير دي جاما التي أظهرت ما يلي :

أولاً : أن العرب الذين كانوا يسيطرون على السواحل التجارية قد تضايقوا من ارسالية التبشير المسيحي التي وصلت مع فاسكو دي جاما في رحلته الأولى إلى قاليقوط .

ثانياً : وضع فاسكو دي جاما البلاط البرتغالي أمام نقطة هامة وهي مسألة وجود العرب في الهند ، إلا أنه لم تكن هناك أنباء عن وجود العرب ، ولما كان البرتغاليون قد نجحوا في تأسيس مراكز على ساحل افريقيا الغربي بسهولة نظراً لعدم وجود العرب الذين التقوا بهم فيما بعد في سواحل المحيط الهندي فقد أدرك عمانويل إن فرض السيطرة البرتغالية في الهند يحتاج إلى بذل مزيدٍ من الجهد والتنسيق للمرحلة القادمة ، خاصة وأنهم كانوا يعلمون علم اليقين بمدى شدة المراس للعرب وبأسهم ، ولا ينسون أنهم ذاقوا الأمرين مدة طويلة من الزمان حتى تم إخراج المسلمين من شبه الجزيرة الأيبرية .

ثالثاً : إنه من المستطاع القيام بتجارة رابحة في الهند وبالتالي إمكانية تأسيس مستعمرة كبيرة في الشرق .

رابعاً : إن سفن العرب التجارية لا تستطيع مقاومة السفن البرتغالية الحديثة والمزودة بالمدفعية[٣] . وهي السفينة التجارية المسلحة ، والتي لم تكن

(١) زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين ، ق ١٤ أ .

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone P.

(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

معروفة من قبل .

أما بالنسبة لبعثة كابرال (Cabral) فقد أظهرت أن البرتغاليين لا يستطيعوا أن يضعوا أنفسهم في طريق لـه قيمتـه بـين الهند وأوروبـا الغربيـة بسبب عداء التجار ، وليس هناك أي مساعدة من أي أمـيرٍ مسيحي فحدث ذلـك وقلب كل التوقعات والآمال المعقودة[1] .

من أجل ذلك ، جهز ملك البرتغال حملة أقوى من الحملتين السابقتـين ، وحملها الأوامر بأن تنفذا بالقوة ادعاءه السيادة على البحار الهندية ، وعيّن فاسكو دي جاما على الحملة للمرة الثانية ، وكانت الحملة تتكون من خمس عشرة سفينة ، ست منهـا أعـظم حجـماً وأقـوى عتـاداً من تلك التي بلغت المحيط الهنـدي من قبل[2] . ورسا الأسطول عند موزامبيق ، وكان قد تبادل الرصاص مع أهلها في رحلته الأولى ، ووقف على المرفأ يستعرض قوته ويهدد وينـذر[3] . ثم وصل دي جاما إلى كيلوا وطلب من سلطانها بقـاءه فوق إحـدى سفنه الـراسية في المينـاء ، وخرج إليه الأمير ابراهيم الذي كان في وقتها يقوم بمهـام السلطان ، فأبلغـه دي جاما أن عليه أن يقبل حكم ملك البرتغال لبلاده كرهاً أو طوعاً ، فرفض الأمـير فقرر دي جاما الاحتفاظ به أسيراً فوق السفينة وعزم على حرق المدينة إذا أصر على رفضه فرضخ الأمير ووافق على طلبات فاسكو دي جاما وقبل أن يدفـع له جـزية سنوية باعتباره خاضعاً للحكم البرتغالي[4] . بعد ذلك وضع دي جامـا جزء من أسطوله عند مدخل البحر الأحمر لاغلاقه بقيادة فنست سودر (Vincet) ونتج عن ذلك تعرض السفن العربية لهجوم الأسطول البرتغالي في مياه المحيط الهندي[5] .

(١) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone P.

(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٣٩ .

(٣) باذل دافدسن : افريقيا تحت أضواء جديدة ، ص ٢٦٩ .

(٤) سبنسر ترمنجهام : الاسلام في شرق افريقيا ، ص ١٤ .

(٥) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، ص ٠

وخاصة السفن الغير مسلحة والتي تحمل حجاجاً إلى مكة .

ترك فاسكو دي جاما فنست سودر عند مدخل البحر الأحمر واتجه إلى كانانو وكوشي ، واجتمع بحكامها لتنظيم أعمالهم التجارية فيها ، ومن هناك اتجه إلى كلكتا وباشر بتخريبها بمدفعية اسطوله انتقاماً لمقتل وكلاء كابرال التجاريين ، ثم أخذ في اعتراض السفن الاسلامية المتجولة أمام ساحَل الميبار ، وفي تلك الأثناء كان الزاموريين يسعى جاهداً للخلاص من ذلك الخطر فوقعت معركة بحرية أمام سواحل كوشي لم تأت بنتيجة تذكر للزاموريين بسبب ضعف أسلحة سفنه وعدم تهيؤها للحروب بعيداً عن السواحل[1] .

ويلاحظ على هذه الفترة اهتمام البرتغاليين بتعزيز أساطيلهم في الشرق بحيث كانت الوحدات البحرية تخرج تباعاً دون انتظار ، فأبحر من لشبونة الفونسو دي البوكرك في ٦ فبراير سنة ١٥٠٣ م (٢٤ شعبان ٩٨٠ هـ) على رأس فرقة من ثلاث سفن إلى كوشي للمساعدة في بناء قلعة ، وخلال إقامته في الهند استفاد من وقته في جمع المعلومات لاكمال الخطط المستقبلية لملكه ولتوجيه دولته ، فوضع أمام الملك البرتغالي بعد عودته خططاً ، ومشاريع ضخمة للاستيلاء والسيادة والتفوق البحري ، وتهديد المسلمين والآسيويين عامة ، ويمكن القيام بها نظراً للضعف الذي يسود تلك الجهات[2] . وبدا الخطر واضحاً على الأماكن المقدسة الاسلامية ، ويظهر ذلك من خلال رسالة الملك عمانويل ملك البرتغال المؤرخة بعام ٩١١ هـ ـ ١٥٠٥ م للبابا يوليس الثاني حينما طلب منه البابا ايقاف الحملات إلى مياه الهند حتى تتحسن علاقات دول البحر المتوسط مع دولة المماليك فكان جواب الملك عمانويل : « إنه ليس عازماً على المضي في قتل التجارة المملوكية بل أنه سيجاهد في سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفاً

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٢) S. B. Miles: The Countrie and Tribes of The persian Gulf P. 140.

لمدافعه وجنوده » .

كما أكد للبابا أيضاً ضرورة وحدة الدول الأوروبية تحت زعامته وضم جهودهم إلى جهوده لاستعادة الأراضي المسيحية المقدسة[١] في القدس ، ولتأكيد ذلك هدد البرتغاليون جدة سنة ١٥٠٥ م (٩١١ هـ) ، وكان عمانويل قد أقسم أن يستولي على مكة وأن يقوم بنبش قبر الرسول (ص) في المدينة المنورة ، واهتز العالم الاسلامي لهذا الخطر القادم ، وخصوصاً اليمن باعتباره يقع في خط المواجهة الأولى على الحدود في الجنوب[٢] .

وفي عام ١٥٠٥ م (٩١١ هـ) عيّن الدوق الميدا (Francisco Al Meida) نائباً للملك في الهند بعد وفاة دي جاما في نفس العام ، وعمل دالميدا على اقامة دعائم الحكم الاستعماري البرتغالي في ساحل مليبار وتوجيه الحملات الحربية إلى الجهات المختلفة لفتح مجالات التجارة أمام البرتغاليين في البحار الشرقية[٣] . فاستولى دالميدا على مدينة سفالة (مدينة الذهب) ، ثم اتجه إلى كيلوا بعد ذلك وقصفها في ٢٢ يوليو ١٥٠٥ م (١٨ صفر ٩١١ هـ) ، ثم أرسل دالميدا إلى الأمير ابراهيم يسأله عن السبب في عدم انتظام دفع الجزية ، وإنزال العلم من فوق قصره ، ولم يعط الأمير إجابة واضحة على الأسئلة ، فنزل البرتغاليون إلى البر ، فهرب الأمير عندما اقتربوا من قصره ومعه عدد كبير من اتباعه[٤] .

وكان فرانسسكو دالميدا يميل إلى الإعتماد على القوة البحرية إلى جانب الاحتفاظ بعدد من الحاميات في البر ، لهذا نجده عندما وصل إلى منصب نائب الملك في الهند لم يفكر في الاستيلاء على عدن ضمن خططه ، لأنه يرى أن سفالة القريبة من البحر الأحمر كفيلة بأن تقوم بمهمة عدن ، وكان يرى عوضاً عن

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٠٤ .
(٢) فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .
(٣) S. B. Miles: The Countries and Tribes of the Persian Gulf P. 140.
(٤) سبنسر ترمنجهام : الاسلام في شرق افريقيا ، ص ١٤ .

الاستيلاء عليها ضرورة شن غارات تخريبية عليهـا لسلبها لأن ذلـك معناه عـدم وصول التوابل إلى اراضي مصر المملوكية[1] . وكانت سفالة (Sofala) وقتها مـا زالت مركزاً لتجـارة الذهب ولـذلك اختـار البرتغـاليون أقـرب مكان إليهـا وهو موزامبيق لكي تكون مركزاً لحكمـهم الإستعماري الذي امتد إلى مملكة مونومباتا في روديسيا حيث توجـد مناجم الـذهب ومع ذلك لقي كثـير من البرتغـاليين حتفهم بسبب الأمراض وغيرها أثناء البحث عن تلك المنـاجم ، إلا أنهم لم يتمكنوا من العثـور عليها بسبب رفض الأهـالي التعاون معهم[2] . ولعـل ذلـك يفسر مـدى اهتمام البرتغاليين بالمعدن النفيس لتغطية الحملات المسيحية ، ولتدعيم موقفهم في تهديد الأماكن المقدسة ، وفرض الحصار الاقتصادي على العالم الاسلامي .

تحركت حملة أخرى من لشبونة في عام ١٥٠٦ م (٩٢١ هـ) بقيادة كل من تريستاودي كونها (Tristao de Cunha) والفونسو دي البوكـرك وقد زودت هـذه الحملـة بتعليمات من قبل السلطات البرتغالية والتي تقضي بالاحتفاظ والتوسع في المراكز البرية ، وكان البوكرك يميل إلى هذه السياسة ، والتي كانت على النقيض من سياسة فرانسكو داليدا ، كما حمل البوكـرك تفـويضـاً سريـاً من الملك عمانـويل البرتغالي ،لتولي مهام نائب الملك في الهنـد بعد ثـلاثة أعـوام أي في سنة ١٥٠٩ م (٩١٥ هـ) خلفـاً للدوق فرانسسكـو دي الميـدا ، الـذي يجب أن يعـود إلى لشبونة[3] .

كما صدرت التعليمات لدى كونها بالابحار إلى سوقـطرة والاستيلاء عليهـا وتشييد قلعة فيها لحمايـة المسيحيين التي من المفـروض أن يسكنوا فيهـا ، لتكون مخزناً للأساطيـل البرتغـالية ومـأووى لها لـمواجهة الأسـطول المملوكي والأسطول البندقي ولتتمكن البرتغال من حصار البحر الأحمر ، وبعد الانتهاء من بناء القلعة

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٢) سبنسر ترمنجهام : الاسلام في شرق افريقيا ، ص ١٥ .

(٣) S. B. Miles: The Countries and Tribes of the Persian Gulf P. 141.

يتوجه دي كونها إلى الهند ، ويترك البوكـرك ليهاجم جـدة وعدن ويعتـرض تجارة المسلمين (Moorish)[١] .

من جهة أخرى أرسـل دالميدا حملة سنـة ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) إلى سيلان والتي تنمو بالقرب منها أشجار القرفة[٢] . إذ أدرك دالميد أنه على الرغم من تلك القوة البحرية الكبيرة التي كانت ، فإنهم عجزوا عن وقف حركة الملاحة العربية في المياه الهندية ، ولعل ذلك كان سبباً في توغل البرتغاليين الى مصـادر تلك التجارة لمنع التجار العرب من مزاولة نشاطهم[٣] .

وتنفيذاً لخطة البـرتغاليـين وصل تـريستاو دي كـونها في منتصف ١٥٠٧ م (٩١٣ هـ) إلى سـوكو (Soko) ميناء سوقـطرة وفرض دي كـونها حصـاراً عـلى المـدينـة ، ورفض السلطان ابـراهيم ابن السلطان كيشـين طلب البـرتغـاليـين بالاستسلام ، فشن البرتغاليون هجومهم ، ودافع أهالي الجزيرة عن قلعتهم بثبات وعزم ، ولكن الأسلحة الحديثة كانت أقوى من ذلك العزم ، واستشهـد سلطان المهرة وعدد كبير من رجاله ، بعد ذلك أصلح البرتغاليون القلعـة وأطلقوا عليهـا اسم السانت توماس (ST. Thomas) وعيّن لقيادتها أفونسو دي نورونها (Afonso de Noronha)[٤] .

وبعد اكمال القلعة ، وبناء دير للفرنسيسكـان لنشر المسيحية كـان على دا كونها أن يمضي الى الهند بجزء من الأسطول تاركاً البوكرك بجزء آخر من الأسطول لمواصلة هجومه على عدن وجدة ومضايقة التجارة الاسلامية[٥] . غير أن البوكرك

(١) S. B. Miles: The Countries and Tribes of the Persian Gulf P. 141.

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone P. 35.

(٣) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ص ١٤ .

(٤) S. B. Miles: The Countries and Tribes of the Persian Gulf P. P. 141- 142.

(٥) فـاروق عثمان أبـاظة : عـدن والسياسـة البريـطانية في البحـر الأحمر ، ص ٤٠ . السـير أرنولـد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢٠٤ .

أدرك أن الأسطول الصغير الذي خصصه دا كونها أضعف من أن يستولي به على عدن ، وفي الطريق نحو السواحل العربية نصب البوكرك أمام عينية ضرورة مهاجما كيلهات ومسقط ، إذ تشكل هذه المنطقة الى جانب هرمز أهم الأسواق للخليج العربي والمخازن الأساسية له حيث تتركز التجارة الشرقية هناك(١) ، كما أنه إذا تمكن من الاستيلاء عليها ، فسيعطيه ذلك السيطرة الكاملة على طريق الخليج وسيكون في ذلك خدمة عظيمة أفضل من الحصار المؤقت للبحر الأحمر(٢) .

بدأ البوكرك حملته في أوا خر ١٥٠٧ م (٩١٣ هـ) في البحر بالتصدي للسفن العربية القادمة من البحر الأحمر ، فآجتاز بأسطوله جزر كوريا موريا خا رج رأس الحد في عمان حيث وجد ثلاثين أو أربعين سفينة صيد من هرمز وأماكن أخرى فأحرقوا هذه السفن(٣) . بعد ذلك مر البوكرك من أمام خورجيراما فدمر بعض سفنها ، وكان يقصد البوكرك بهذه الأعمال في مهاجمة المدن الصغيرة والغير مهمة نشر الخوف بين صفوف سكان الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية ، حيث يقبل سكان بعض المدن والتي يرغب البوكرك في احتلالها قبول تبعيتهم لملك البرتغال ، في وقت كان يشعر فيها بنفاذ مؤنه(٤) ، ومن خور جيراما مضى البوكرك إلى الشمال ، فألقى المراسي مقابل قلهات ثم كليهات مستودع الشحن من الهند ، والمحمية لملك هرمز ، حيث أضرها ودمر معالمها(٥) . أما مسقط والتي كانت من أهم الأهداف التي زحف من أجلها ، فقد وصلها بعد عدة أيام من غاراته على قلهات وكوريات(٦) ، وخرج إليه « نيلان مسلمان » نيابة عن حاكم مسقط

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٩٧ .
(٢) السير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢٠٥ .
(٣) سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج ، ص ٤٢ . السير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .
(٤) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٩٨ .
(٥) مديحة أحمد درويش : سلطنة عُمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ص ٢٧ .
(٦) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٩٨ .

وتوسلا إليه ألا يلحق أي أذى بالمدينة وعبرا عن رغبتها في أن يصبحوا تابعين لملك البرتغال ، وأن يدفعوا الضرائب التي كانوا يدفعونها آنذاك لملك هرمز(١) . إلا أن البوكرك غدر بهم وأمر رجاله بنهب المدينة وتدمير السفن الراسية في مينائها بالاضافة الى تعذيب الأهالي وقتل الكثير منهم(٢) .

عقب سقوط مسقط اتجه البوكرك نحو صحار فأستولى عليها ، وأقر حاكمها في مكانه باسم الملك عمانويل شريطة قيامه بدفع الأموال التي كان يدفعها من قبل لمملكة هرمز(٣) . ومن صحار مضى الأسطول إلى خورفكان(Fakkan) فقاومه السكان ، فهوجمت المدينة وأُحرقت ، وقطعت آذان وأنوف الأسرى ، ثم اتجه الأسطول إلى رأس مسندم ثم مضى إلى هرمز مباشرة(٤) . قاعدة الخليج وهدفه الرئيسي ، وبعد حرب قاسية انتصر البرتغاليون وتمكنوا من الاستيلاء عليها وضمها للتاج البرتغالي بعد أن فرض عليها شروط مجحفة بحق الهرمزيين ، ونتيجة لذلك سيطر البرتغاليون على تجارة الخليج(٥) . وباستيلائهم على جزيرة سوقطرة ١٥٠٧ م (٩١٣ هـ) وعلى هرمز ١٥٠٨ م (٩١٤ هـ) قد اكتمل حصار البرتغاليين للتجارة الهندية ، وحصار المسلمين وتحطيم اقتصادهم(٦) .

طلب البوكرك تحديد مكان في هرمز لبناء قلعة ، فعُرضت عليه (قشم - طورومبيك - وناباد) إلا أنه اختار رأس مورونا على الجزيرة نفسها ، فوضع أساس البرج الرئيسي وأسرع في بنائها ، بقصد الشروع بالذهاب إلى البحر الأحمر ، لذلك أراد أن يتم البرج ، حتى تستطيع القوة البرتغالية أن تدافع عن نفسها بداخله إلى أن يعود لهرمز(٧) .

(١) السير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢٠٦ .
(٢) مديحة أحمد درويش : سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ص ٢٧ .
(٣) قدري قلعجي : الخليج العربي ، ص ٢٦٥ .
(٤) السير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢٠٨ .
(٥) مديحة أحمد درويش : سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ص ٢٧ .
(٦) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٨٢ .
(٧) السير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

كان الأسطول البرتغالي لا زال موجوداً في هرمز في حالة استياء وعدم قناعة مما أدى إلى تمرد القباطنة فوصلته تعليمات من فرانسسكو دالميدا نائب الملك البرتغالي في الهند ، بالقدوم للهند فغادر البوكرك هرمزاً متوجهاً للهند في نوفمبر ١٥٠٨ م (في شعبان ٩١٤ هـ)[١] .

كان المماليك هم أصحاب القوة الاسلامية التي قامت بالجهاد ضد البرتغاليين في هذه الفترة ، على الرغم من شيخوختهم ، إلا أنه لم يكن هناك مجال للفرار أو التأجيل ، فالعدو على أبواب البحار الجنوبية وقد أغلق منافذ التجارة ، كما قام بالتهديد بالدخول في البحر الأحمر حيث الأماكن الاسلامية المقدسة ، والقواعد العسكرية في السويس ، كما أخذ السامري حاكم مليبار في طلب الاغاثة من قانصوه الغوري ، في المبادرة بارسال قوات لمواجهة البرتغاليين ، فأرسل قانصوه الغوري من امرائه الأمير حسين الكردي في ثلاثة عشر سفينة من نوع القرابين ، فوصل إلى كوجرات ومنها خرج إلى شيول ، وهناك تقابل مع البرتغاليين ، وانتصر حسين الكردي في هذه المعركة سنة ١٥٠٨ م واستطاع أن يستولي على إحدى السفن البرتغالية وأضطر القائد حسين الكردي أن يتجه بسفنه إلى ديو بسبب الأمطار وهناك وصلت إليه نحو أربعين سفينة صغيرة من السامري ، وعندما علم البرتغاليون باستقرار حسين الكردي في ديو ، خرجوا في عشرين مركباً ، وباغتوا المماليك هناك وأوقع البرتغاليون الهزيمة بالمماليك والمليباريين ، ورجع البرتغاليون إلى كوشن[٢] . وانسحب الأمير حسين الكردي إلى جدة ، أما السلطان الغوري فقد هزته الهزيمة ورأى أن احتياطيه من الأموال والسلاح يتناقص بالتدريج ، في الوقت الذي تزداد فيه قوة البرتغاليين في الهند وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم[٣] ، فطلب السلطان الغوري السلاح من

(١) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ص ١٧ - ١٨ .

(٢) زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين ، ق ١٦ ب - ق ١٧ أ .

(٣) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٩١ .

السلطان العثماني بايزيد الثاني ، الذي وعد بارسال مطلوبه هدية لانقاذ الأماكن الاسلامية المقدسة ، إذ أعتقد كلاهما أن البرتغاليين لن يهدأ لهم بال حتى يصلوا إلى مكة والمدينة ، وبالفعل وصلت سفن المماليك إلى الاسكندرية محملة بالمعونة العثمانية[١] .

وتولى البوكرك منصب نائب الملك في الهند سنة ١٥٠٩ م (٩١٥ هـ) ، الذي قام فوراً بنقل المركز الرئيسي للبرتغاليين عن كنانور على الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الهند إلى جوا ساحل مليبار المطل على بحر العرب ، فدل بذلك على سياسة البوكرك التوسعية نحو فارس وبلاد العرب[٢] . والتي سيتبعها بعد قليل في تطويق العالم الاسلامي من الجنوب ، وتوفير مراكز بحرية لهم في داخل البحر الأحمر لمهاجمة الحجاز ومصر وا ليمن .

وفي ١٥١٠ م (٩١٦ هـ) توجه البوكرك إلى رأس جاردفوي المقابل لجزيرة سوقطرة وانزل بعثة دينية برتغالية في محاولة للوصول إلى ملك الحبشة ، عوضاً عن البعثات التي لم تكن قد وصلت من قبل ، وبانزاله تلك البعثة انقطعت اخبارها تماماً عن البوكرك ، ومن المرجح أن البعثة كانت فريسة سهلة للقبائل الافريقية في جنوب الحبشة[٣] .

أخذ السلطان الغوري نتيجة لتوغل البرتغاليين في البحر الأحمر يوجه عنايته في اعداد اسطول بحري ثانٍ في ميناء السويس لخوض معركة المصير التي سيترتب على نجاحها حل ازمته الاقتصادية ، هذا فضلاً عن اعداد الأساطيل القوية للدفاع عن سواحله الشمالية في البحر المتوسط التي كانت تهددها هجمات فرسان القديس يوحنا في رودس من جهة ، إلى جانب تآمر البنادقة[٤] . وقام الأمير حسين الكردي

(١) بدر الدين الخصوصي : دراسات في الخليج العربي الحديث والمعاصر ، ص ١٨ .
(٢) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٩٢ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٩٣ .
(٤) فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٢ .

ببناءسور ضخم محصن في جدة وطلب من حلفائه امراء الهنود المسلمين معونة مالية لبناء ذلك السور ، فاستجاب السلطان محمد محمود شاه سلطان كجرات ، وقد ذكر للأمراء المسلمين في تبرير هذا الطلب أنه طالما ظل البرتغاليون اقوياء وباستطاعتهم دخول البحر الأحمر والوصول إلى جدة ، فمعنى ذلك أن بإمكانهم تدمير الأماكن الاسلامية في مكة والمدينة ، وأعتقد امراء الهند المسلمون نفس الاعتقاد ، فمنحوا الأمير حسين المعونات لبناء ذلك السور(١) .

إلا أن البوكرك توجه بانظاره إلى الهند ، فكان أمامه خياران ما بين كالكتا وجوا ، إلا أنه نظراً للأحداث القديمة التي وقعت بين كالكتا والبرتغاليين ، والتي تزعمت فيها كالكتا حركة المقاومة ضدهم ، اضافة إلى أوامر الملك عمانويل بضرورة الاستيلاء عليها اتجهت انظار البوكرك إليها لذا خرجت من لشبونة حملة أخرى بقيادة فيرناندو كوتينو (Fernando Coutinno) للمشاركة في الاستيلاء على كالكتا ، والقضاء على نفوذ الزامورين ، وفي الوقت نفسه تدعيم الموقف في المحيط الهندي خاصة بعد ما بلغت الملك عمانويل انباء الاستعدادات التي كان يقوم بها السلطان الغوري في ميناء السويس والمساعدات العثمانية والاسلامية . وهاجم البرتغاليون كالكتا محاولين الاستيلاء عليها(٢) . فأحرقوا المسجد الجامع ودخلوا بيت السامري زاعمين أنهم تملكوها ، وكان السامري غائباً لقيامه ببعض الحروب ، إلا ان الملبار حارب البرتغاليين وأخرجوهم من كالكتا ، وقتلوا نحو خمسمائة برتغالي ، وركبوا سفنهم وغادروا كالكتا(٣) .

واتجه بعد ذلك البوكرك إلى جوا (Goa) على الساحل الغربي في ولاية بيجابور عام ١٥٠١ م وقد جعلها البرتغاليون عاصمة لمستعمراتهم في الشرق ، ووضع البوكرك خطة للاختلاط بالهنود ومصاهرتهم ، واستخدموا في الجيش

(١) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ١٠٨ .
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٠٣ .
(٣) زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين ، ق ١٧ ب .

البرتغالي جنوداً من الهنود[1] .

كان من الطبيعي أن يؤثر سقوط جوا بهذه الطريقة فيما جاورها من امارات الهند الغربية ، حيث قبلت كالكتا الصلح مع البرتغال بشرط اقامة حصن لهم على أراضيها ، أما مملكة الفيجايانكر ، فأرسلت وفداً للتهنئة على هذا الانجاز ، كما رحبوا باقامة حصن في مدينة بهاتكل بشواطىء بلادهم الغربية[2] . أما إقليم جوجارات فقد تمكن البرتغاليون من استدراج سلطانهم إلى إحدى السفن البرتغالية بدعوى عقد اتفاق معه ، وهناك قتلوه غدراً ، وقاموا ببناء حصن في ديو ، بعد ذلك غير البرتغاليون طريقة معاملتهم مع الهندوس ، وحرموا عليهم عبادتهم ، ودمروا معابدهم ، وأقاموا محاكم التفتيش لمحاكمة الزنادقة والمرتدين ، وقد دفع ذلكح الهندوس إلى هجرة المستعمرات البرتغالية مما ألحق بها ضرراً كبيراً[3] .

التفت البوكرك الى منطقة الملايو والمحيط الهادىء ، وكان قسم كبير من تجارة الأفاوية تجلب من الجزر الأندونيسية ، وكانت هذه التجارة إذا مرت من خلال مضيق ملقا (Malacca) ، وانطلقت في عرض البحر حملها تجار العرب إلى موانىء البحر الأحمر ، ولم يكن في الإمكان السيطرة التامة على تجارة المحيط الهندي ما لم تتوطد الهيمنة على مضيق ملقا[4] ، بالاضافة الى أن الأسعار في ملقا لم تكن تزيد عن ربع سعر بيعها في سواحل الهند ، وبلغ من شدة اهتمام البوكرك بها تكليفه لوبودي سكويرا بالاقتراب منها لجمع المعلومات متظاهراً بكونه تاجراً مسلماً[5] . وكان لوبودي سكويرا قد بلغ ملقا من قبل بعدة سفن صغيرة ، وتلقى

(١) محمد مرسي أبو الليل : الهند وتاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ، ص ١٧٧ .
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٠٤ .
(٣) محمد مرسي أبو الليل : الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ، ص ١٧٨ .
(٤) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٧ .
(٥) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٠٥ .

من سلطانها أذناً بالنـزول إلى البر والاتجـار هناك كسـائر النـاس ، ولكن التجار العرب بمدينة ملقا الذين قاسـوا الأهوال من نشـاط البرتغـاليين في الميـاه الهنديـة والعربية ، حرصوا كل الحرص على أن يفسروا للسلطان مطامع البرتغاليين وشدة عداوتهم للإسـلام ، فسحب السلطان اذنه السـابق للبرتغـاليين محـذراً سكويـرا بالعودة مرة أخرى[١] .

وفي ١٥١١ م أخذ البوكرك مجموعة كبيرة من السفن والجنود للهجوم عـلى ملقا (Malacca)[٢] ؛ ، كما ألقى في جنوده خطبة قال فيها : « الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وباطفائنا شعلة اتباع محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب » . وبعد ذكر خدمة الله والمسيحية تحدث عن خدمة الملك حيث قال : « وذلك لأني على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم (أعني المسلمين) لأصبحت كل من القاهرة ومكـة أثراً بعـد عين ولأمتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك »[٣] . وهاجم البوكرك مدينة ملقا من يوليو ١٥١١ م (جمادي الأولى ٩١٧ هـ) ، وبعد مقاومة عنيفة من سكانها ، تمكن البرتغاليون من الاستيلاء عليهـا ، وقامـوا ببناء قلعة وكنيسة ، وكان الاستيلاء عليها بمثابة أكبر انجاز حققه البرتغاليون في سبيل تحطيم السيطرة العربية التجارية ، ذلك أن استيلاء البرتغاليـين على ملقـا لم يكن يعني أنهم نجحوا في السيطرة البرتغالية فقط على المحيط الهندي ، ولكنه كان يعني أن المحيط الهادىء قد أصبح مجالاً لتوسع البرتغاليين أيضاً ، وهم الـذين حولـوا الأرخبيل كله ميداناً لصراعهم مع الإسلام والتجارة ، فاندفع دعاة النصرانية لنشر المسيحية ، الأمر الذي دفع بالمسلمين لمقاومة هـذا الزحف التنصيـري عن طريق نشر دعوة الإسلام في ماليزيـا وسومـطرا ، وجاوا وهي المنـاطق التي هاجـر إليها

(١) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٧ .

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone Europe.

(٣) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٨ .

المسلمون من العرب والهنود الذين ظلوا يقاومون المنافسة الأوروبية[1] .

وبفتح ملقا أتم البوكرك بناء صرح الأمبراطورية البرتغالية الأوروبية البحرية بآسيا ، وكان خروجه لتشييد امبراطورية تجارية تقوم على أساس مركز ممتاز لا سبيل إلى تحديه بالمحيط الهندي ، وكانت الموانىء الكبرى على الشاطىء الافريقي ، قد سقطت كلها آنفاً تحت سيادة البرتغاليين ، ولكن لم يكن لهم قبل زمانه ببلاد الهند إلا موطن قدم في كوشي دون وجود أية نقاط منيعة في أي مكان منها للبرتغال ممارسة سلطتها البحرية ، وبما أنه تم ضم سومطرة ، وأصبح هناك سلطان سياسي في هرمز ، وبعد استيلائهم على ملقا تأسس لهم نظام للهيمنة والضبط ظل ثابتاً لا يتزعزع ما بقيت لقوة البرتغال البحرية بأوروبا قوة وعزم ولتهيئة الظروف الملائمة للنجاح في تنفيذ هذه السياسة ، كان من الضروري قيام قاعدة برية ببلاد الهند تقوم بدور المحوري المركزي لقوة البرتغال ، وكان فتح جوا واستيطانها ، والتطور بها لتصبح مدينة وقصبة كبرى تضم جهازاً كاملاً للحكم هو الأساس الذي قامت عليه جميع خطط البوكرك[2] .

أدرك البوكرك أن مركزه في الهند لن يكون مرضياً إلا إذا قوى خط مواصلاته ، فوجه إلى الدون عمانويل رسالة سنة ١٥١٢ م (٩١٧ هـ) قال فيها : « إن أعظم الشرور كلها بالنسبة إلى جوا على كل حال الأراجيف المستمرة بأن الروم قادمون ، إن هذا مصدر عظيم للخطر على الهند ويسبب كثيراً من القلق والاضطرابات ما بين المواطنين والمسيحيين على حد سواء فيما بعد. بهذه الملاحظات المخربة ، أعرض لجلالتكم بكل احترام أنه لن يكون هناك ثقة أو سلام لرعايا جلالتكم في هذه الأجزاء ، إلا بأن نذهب إلى البحر الأحمر ونؤكد لهؤلاء الناس أن مخلوقات اسمها الروم ليس لها وجود »[3] . وبعد أن أرسل البوكرك هذه الرسالة

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .
(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٤٩ .
(٣) السير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

مباشرة غادر جوا ديجو فريـدناند دي بيجـا (Diego Fernandes de Bega) لهدم القلعة التي بناها البرتغاليون في وقت سابق في سوقطرة ، والذي برهن على عـدم جدواها ، ثم توجه بيجا إلى مسقط وهرمز لأخذ الضرائب[١] .

وكـانت الحبشـة في هـذه الفتـرة مهيـأة لأي عمـل صليبي ضـد العـالم الاسلامي ، وليس معنى ذلك أنها قد هيأت عدتها ، وإنما كانت على استعداد لأن تشترك في أية عملية يستهدف منها إلحاق الضرر بالمسلمـين ، فأرسلت لـذلك في نهاية عام ١٥١٢ م (٩١٧ هـ) ماثيو الفذي وصل جـوا بالهنـد ، واستقبله نائب الملك ألفونسو دي البـوكرك ، الـذي سر كثيراً لـرؤية مبعـوث من قبل القـديس يوحنا ، وكانت مناسبة سعيدة للبوكرك الـذي كان متلهفـاً لمعرفـة الطريق الـذي سلكه ماثيو للوصول اليه وكذلك الاطلاع على كافة الأوضاع الخاصة بـالحبشة ، وعندما عزم البوكرك على الهجوم على البحر الأحمر اصطحب معه ماثيو[٢] .

وضع البوكرك نصب عينيه أن مهاجمة الأماكن المقدسـة الاسلاميـة يستلزم إنشاء قاعدة بحريـة في مدخـل البحر الأحمـر ، وحيث أن سوقـطرة لا تمثل تلك القاعدة ، فكر البوكرك في احتلال عـدن ، المدخـل الحقيقي للبحر الأحمـر[٣] . وهال البوكرك ذلك المركز الطبيعي الحصين ، فصمم على الهجوم عليـه بواسـطة تسلق جدرانه ولسوء حظه كان الماء ضحلاً ، فاضطر الجنود للوصول إلى الأسوار غوصاً ، وفي أثناء ذلك ابتلت ذخائرهم وكانت السلالم التي استخـدموهـا للرقي قصيرة ، وذلك فشل هجوم البوكرك فشلاً ذريعاً ، فارتد متكبـداً خسائـر جمة في الأرواح والعتاد ، واضطر للإسراع إلى جزيرة قمران للحصول عـلى ماء للشـرب وللحاجة الشديدة للطعام[٤] . ومن قمران فكر البوكرك في مهاجمة جدة ، وكانت

(١) S. B. Miles: The Countries and Tribes of the Persian Gulf P. 153.

(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٣) نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ١٠٣ .

(٤) محمد عبد اللطيف الجراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٧٨ .

تلك الفكرة بالنسبة للبوكرك حلم يود تنفيذه ، فقد عرف عنه أنه كان يتمنى إنجاز مشروعين من مشاريعه قبل موته ، المشروع الأول كان يحمل في طابعه عاملاً صليبياً وهو احتلال المدينة المنورة لينبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويسرق ما فيه ويجعله رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الأماكن المقدسة في القدس ، أما المشروع الثاني فقد كان اقتصادياً حيث كان يرغب في تحويل مياه النيل إلى البحر الأحمر ليحرم المصريين من الماء العذب ، ويخرب شبكة الري التي كانت قائمة فيها آنذاك ، ولما كان المشروع الثاني يحتاج إلى مهندسين وعمال يستلزم إحضارهم من البرتغال لفترة طويلة ، فقد قرر البوكرك تنفيذ حلمه الأول وتأجيل الثاني ، وصمم على النزول في ينبع بأربعمائة جندي للهجوم على المدينة المنورة ، غير أن الرياح حالت دون الوصول إليها فعاد إلى قمران ، وعوض ذلك الفشل بشن حملات تخريبية ضد موانىء البحر الأحمر[1] . فهاجم زيلع وبربره ، واستخدم هذه الموانىء للاستيلاء على سفن العرب القادمة من البحر الأحمر وتحطيمها[2] .

وأرسل البوكرك ماثيو إلى لشبونة الذي قدم في أواخر سنة ١٥١٣ م (٩٨٩ هـ) رسالة من هيلانة ملكة الحبشة إلى ملك البرتغال عمانويل ، وشكت هيلانة في رسالتها الأخطار التي تهددها من ناحية مصر ودويلات الطراز الاسلامي ، وأشارت أيضاً إلى أن تريستان داكنها وهو أحد ضباط الملك في الهند قد أرسل إليها رسولين يسألها أن تمده بالطعام والرجال لتساعده في نضاله ، وإنها في قضية كهذه لن تتوانى أبداً ، ولهذا فهي ترسل ماثيو الذي أصدرت إليه الأوامر بأن يخبر القائد البرتغالي في الهند بأن لها الرغبة والاستعداد لتبذل له ما يريده من مؤونة ورجال ، وأضافت هيلانة بأنها على علم بأن السلطان المملوكي يجمع جيشاً كبيراً يهاجم به البرتغاليين في الهند ، ولهذا فلديها الرغبة في إرسال عدد كبير من

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٢) نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، ص ١٠٤ .

الجنود ليقدموا المساعدة عند باب المندب ويمكن أيضاً لجنودها أن يصلوا إلى الطور أو جدة وأنها أرسلت إليه كمقدمة ، وأشارت الأمبراطورة إلى أن الجيوش البرتغالية إذا اتحدت مع الجيوش الحبشية فهما يكونان قوة كافية لأن قوة الحبشة هي قوة برية ، ولكننا ليس لدينا قوات في البحر ولكنكم أنتم الذين تملكون قوة ضخمة في البحر[١] . وكانت الحبشة من جانبها تتطلع إلى مساعدة دولة مسيحية أوروبية لتعينها في حروبها ضد الدويلات الاسلامية المجاورة لها وأهمها مملكة عادل ومملكة آفات ، وهما مملكتان اسلاميتان مجاورتان للحبشة وكانت الحروب بين هاتين الدولتين وبين الحبشة مستمرة طوال القرن الخامس عشر ، وكانت أغلب مراحلها الانتصار الساحق للمسلمين ، وهكذا دخل الصراع المحلي بين الحبشة والقوى الإسلامية في البحر الأحمر وافريقيا الشرقية في نطاق الصراع الهائل بين البرتغال والدول الإسلامية[٢] .

وأحدثت زيارة ماثيو للبرتغال فرحاً كبيراً في نفوس البرتغاليين ، إذ تحقق حلمهم برؤية مبعوث خاص عن القديس يوحنا ومعرفة أخباره ، وكان الرأي العام يأمل في تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكي والتعاون مع الأحباش لانجاح أطماعهم الصليبية والاقتصادية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، ووافق المجلس الأعلى البرتغالي على امداد الحبشة بمعونة عسكرية لمقاومة المسلمين ، كما جمع البرتغاليون من ماثيو معلومات كبيرة فيما يخص عقيدة الأحباش الأرثوذكسية وأوضاعها الاقتصادية والطرق المؤدية للحبشة[٣] . وكانت الملكة هيلين ملكة الحبشة تعمل من جانبها على سلخ كنيسة بلدها عن كنيسة مصر وربطها بكنيسة روما كجزء من الاتجاه العام في ربط مصير الحبشة بالمسيحية الأوروبية ، وكان هذا أمراً بعيد الاحتمال ، أو أنها كانت مناورة منها لتشجيع ملك البرتغال على

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٩٤ - ٩٥ .
(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٩٥ - ٩٦ .

التحالف ، وكانت البرتغال في تحالفها مع الحبشة ، يحدوها وبشكل قوي الأمل في تحويل الحبشة إلى المذهب الكاثوليكي[1] .

وسط تلك الأجواء المعادية للإسلام ، اندفعت الحملات البرتغالية في محاولة لتهديد الأماكن المقدسة الاسلامية داخل البحر الأحمر لإثارة المسلمين هناك ، وهو الأمر الذي يؤكد أن إندفاع البرتغاليين نحو البحر الأحمر ، إنما تؤكده عوامل صليبية أكثر منه اقتصادية ، وأضحت الأماكن المقدسة هدفاً من الأهداف العسكرية[2] . لذلك أرسل المماليك الأساطيل البحرية إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي ، بإحكام سيطرتها على اليمن الذي يتحكم في مدخل البحر الأحمر عن طريق باب المندب لتكون قاعدة لهم في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وأخذ البرتغاليون في المقابل توطيد قواعدهم الحصينة في الهند واشتد ضغطهم على المسلمين هناك[3] .

استقبل البوكرك مبعوث من الشاه اسماعيل الذي يحرص على كسب صداقة البرتغاليين كما وصلت البوكرك أخبار غير سارة عن تحركات شيخ عدن، وأنباء عن وفاة الحاكم المحلي لهرمز ، الذي عارض بشدة بناء قلعة برتغالية في الجزيرة لكل ذلك أرسل البوكرك حملة تحت قيادة ابن اخيه بيرو الذي أسر عدة سفن عربية متجهة إلى البحر الأحمر . ووصل إلى هرمز بعد أن زار سوقطرة ، وتفاوض بيرو مع ملك هرمز بشأن تسليم القلعة أو دفع الجزية المستحقة إلا أنه أخفق في تحقيق ذلك وقدم تقريره إلى عمه البوكرك الذي عزم على المضي بنفسه نحو هرمز والبحر الأحمر فقام بأستعدادات سريعة معلناً أنه يفكر في حملة على « مضايق ميكا »[4] .

وفي فبراير ١٥١٥ م(محرم ٩٢١هـ) غادر البوكرك جوا على رأس الحملة

(١) محمد أنيس : الدولة العنمانية والشرق العربي ، ص ١٢٥ .

(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٣٢٧ .

(٣) نبيل رضوان : الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ، ص ١٢ .

(٤) السير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢١٣ .

نحو البحر الأحمر إلا أن الأحوال في الخليج العربي وخاصة هرمز جعلته يتوجه رأساً إليها وأن يتخلى عن البحر الأحمر مؤقتاً ، وذلك بسبب نقض حاكم هرمز خوجة عطار بعض نصوص المعاهدة السابقة بينه وبين البرتغاليين برفضه دفع الجزية المقررة عليه ، على الرغم من إعترافه بالتبعية البرتغالية .

ضرب البوكرك حصاره على هرمز وحاول خوجه عطار التفاوض معه خوفاً من تدمير المدينة ، وما أن بدأت تلك المفاوضات بين الطرفين حتى تجلت صورة أخرى من صور الحقد الصليبي ضد المسلمين ، عندما فاجأ البوكرك خوجة عطار بطعنة قتلته ، وأمام هذا الموقف اضطر حاكم الجزيرة سيف الدين الخضوع للبرتغاليين ، الذين فرضوا عليه قبول الحماية البرتغالية مع السماح لهم بانشاء قلعة في الجزيرة ، واخيراً دفعوا الجزية السنوية المقررة وعيّن بيرو (Pero) ابن أخ البوكرك حاكم برتغالي في هرمز[١] . في هذا الوقت وصل مبعوث من الشاه اسماعيل الصفوي حاملاً معه بعض المقترحات للتفاوض مع البرتغاليين بشأنها ، وقد انتهت المفاوضات الى توقيع اتفاقية هرمز ١٥١٥ م(٩٢١ هـ) التي أقرت بموجبها ملك هرمز حاكماً عليها باسم سيده ملك البرتغال ، وتعهد البرتغاليون في المقابل بمساعدة الفرس على غزو كل من البحرين والقطيف ، كما تعهدوا بالوقوف الى جانب الفرس في نزاعهم مع العثمانيين ، وكانت فارس قبلت التنازل عن هرمز للبرتغاليين بسبب الهزائم التي لحقت بها على يد العثمانيين في أعقاب شالديران على أمل إيجاد نوع من التفاهم والتعاون بينها وبين البرتغاليين لمواجهة العثمانيين الذين كانوا قد نجحوا في الاستيلاء على عاصمتها تبريز وعلى أمل قيام البرتغاليين بتزويد فارس بالسفن اللازمة لمد نفوذها نحو القطيف والبحرين على نحو ما ورد في الاتفاقية المذكورة[٢] . بذلك اتم البوكرك تنفيذ نصف سياسته

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٠٩ .
سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي ، ص ٤٧ .
(٢) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ص ٢٠ - ٢١ .

باغلاق الخليج الفارسي والسيطرة على مدخله[1] . عند ذلك قتل البوكرك في إحدى المعارك الحربية ، وخلفه على الممتلكات البرتغالية لوبو سواريز ١٥١٥م (٩٢١ هـ) ، الذي سار في سياسته مخالفاً لسلفه من حيث الشدة والعنف ولكنه كان أشره منه في احتلاب ثروات البلاد واستغلالها أبشع استغلال ، ومع ذلك ظل البرتغاليون متحكمين في الخليج[2] .

ظل الأمراء الهنود المسلمون يشجعون السلطان الغوري على إرسال حملة بحرية للهند للقضاء على النفوذ البرتغالي الذي اشتدت وطأته ، فأرسل الغوري حملة بحرية في شهر أغسطس ١٥١٥ م (رجب ٩٢١ هـ) ، التي عُرفت حينذاك بحملة الهند ، وعين الريس سلمان العثماني قائداً للأسطول على أن يتولى قيادة الحملة الأمير حسين الكردي نائب جدة بمجرد وصولها إلى هناك ، غير أنه لم يقدر لهذه الحملة أن تصل الى هدفها النهائي في الهند ، وأجبرتها الظروف التي واجهتها أمام السواحل اليمنية بالاضافة الى الظروف الأخرى على التوقف عند عدن[3]

نتيجة لذلك غادر سواريز جوا ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) إلى البحر الأحمر للبحث عن الأسطول المملوكي السابق ولدى وصوله عدن رأى قائد المدينة نفسه ألا قبل له بالبرتغاليين ، فعرض عليه مفاتيح القلعة ، ورفض سواريز ذلك ، على أمل أن يأخذ المدينة في يوم أكثر ملائمة ، ومضى إلى داخل البحر الأحمر ، ولم يجد أثراً للأسطول المملوكي ، ولدى رجوعه احتل زيلغ إلا أنه غادرها ، على أمل أن يأخذ عدن غير أنه قد تحصنت هذه المرة قلاعها وزودت بالرجال ولم يفلح في السيطرة عليها وبناء على ذلك غادر سواريز إلى بربرة (Barbara) وهنا تحطمت أغلب سفنه بفعل الرياح[4] . وغادر الى جوا مرة أخرى ، بعد ذلك ركز البرتغاليون في مراقبة

(١) محمد عبد اللطيف الجراوي : فتح العثمانيون عدن ، ص ٧٨ .
(٢) قدري قلعجي : الخليج العربي ، ص
(٣) فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .
(٤) السير أرنولد ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢١٧ .

نشاط الأسطول المصري في البحر الأحمر وضرورة تحطيم ميناء جدة وتوثيق الروابط مع ملك الحبشة المسيحي ، رحل سواريز من جوا عـام ١٥١٦ م (٩٢٣ هـ) ، وعندما وصل أمام عدن لم يهاجمها بعد فشله في الحملة السابقة ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) ، بل طالب حاكمها بعض الامدادات اللازمة للحملة وبعض المرشدين لتوصيله إلى جدة ، ثم أبحر سواريز بأسطوله إلى باب المندب في مارس عام ١٥١٧ م (ربيع الأول ٩٢٣ هـ) حتى وصل إلى جدة ، وكان قد وصل إليها قبل ذلك بقليل الريس سلمان الرومي والأمير حسين بعد فشلهما أمام عدن وساد بينهما خلاف خطير[١] فتحير من ذلك المسلمون ، « وخافوا خوفاً شديداً وكان الأمير سلمان ومعه مائتان من العساكر وعدد من الغربان التي جهزها الغوري الى مليبار لحربهم متروكة فيها فرماهم أهلها بالمدافع من البر فأصابت بعض مراكبهم ، فرفعوا شراعهم وأرسوا فوق العلم خوفاً من المدافع ، ثم شردوا فأرسل الأمير سلمان ورائهم سنبوقين فيهما ثلاثين رجلاً فأخذوا منهم غرباناً صغيراً في كمران وفيه أثنا عشر نفراً ووصلوا بهم إلى جدة[٢] .

في هذه الأثناء انتهى حكم الدولة المملوكية سنة ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) ، وانتقلت مسؤولية الدفاع عن الأراضي المقدسة الاسلامية الى سلاطين الدولة العثمانية وحماية الأماكن المقدسة في الحجاز وإستعادة طرق التجارة يتحتم على الدولة العثمانية أن تقضي على الخطر البرتغالي ، وعلى هذا الأساس شرع العثمانيون في بسط سلطانهم على البحر الأحمر وذلك بضم الحجاز واليمن ، وجانبه الأفريقي بضم سواكن ومصوع وهرر[٣] . وهذا ما نلاحظه في الفصل الخامس .

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيون عدن ، ص ٧٩ .
فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٤٦ .
(٢) زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين ، ق ٢٢ أ ـ ق ٢٢ ب .
(٣) نبيل رضوان : الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ، ص ١٢ .

كانت تجارة البحر الأسود متوسعة في المواد الغذائية مثل القمح والسمك والزيت والملح ، إذ تصدر تلك المواد الى الجزر الايطالية ، وكانت تحمل هذه التجارة بواسطة سفن البندقية[1] ، وكانت السفن المعدة لنقل هذه التجارة من النوع الأوروبي الشمالي ، والذي طوّر باضافة ساري آخر أو على أشرعة مربعة ومثلثة الشكل وهذا أدى بدوره إلى توسع الأوروبيين بتجارتهم ، إذ كانت حمولتها من ستين إلى سبعين طناً ، ومنها طورت السفينة الشراعية الضخمة والتي تحمل حتى الألف طن[2] . من هنا بدأت الجمهوريات الايطالية تتغلغل في داخل الحياة الاقتصادية لمناطق أوروبا الجنوبية الشرقية من خلال المستعمرات المكتسبة في البحر الأسود مثل كافا أو جزر مثل قبرص ، وكانت تلك التجارة تُدار بواسطة طبقة امتلاكية من أهل ايطاليا ، كما أن الجمهوريات الايطالية انشأت مجمعات تجارية هامة خارجة عن نطاق السلطات القانونية للبلاد[3] . لذلك أغلقت الدولة العثمانية مجال النشاط التجاري في وجه الإيطاليين ، عندما استولت الدولة على موانىء البحر الأسود الشمالية كافا وآزوف ثم كيليكا وأكيرمان وساعدها في ذلك

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire The Classic Age P. 129.

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone on Europe P. 28.

(٣) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. P. 131- 132.

سيطرتها على الدردنيل[1] . كما أن الصلات الثقافية بين العثمانيين والسكان المسلمين لمناطق شمال البحر الأسود ساعدت على تنشيط الارتباطات التجارية والاقتصادية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وقامت الدولة العثمانية بانشاء علاقات تجارية مع روسيا ، شجعها في ذلك العلاقات الطيبة بين خانات الكريميا والسلاطين العثمانيين والتي كانت حتى الثلاثينات من ١٥٠٠ م (٩٠٦ هـ)[2] ، زاد اهتمام العثمانيين بالبحر الأسود ليتخذوا من موانئه أماكن آمنة لصناعة السفن ففتحوا طرابزندة وسينوت شرقاً ، وكانت التجارة في تلك الأرجاء بيد تجار جنوة ، فتحولت تدريجياً إلى العثمانيين ، وهنا أدرك العثمانيون بعد تثبيت أقدامهم في تلك المناطق والمضايق ما للقوة البحرية من أهمية لا سيما أن جمهورية البندقية واقفة لهم بالمرصاد في شرقي البحر المتوسط ، إذ كانت لا تزال محتفظة بعدد من الموانىء في المورة وألبانيا ، لذلك وجهت الدولة عنايتها بالأسطول ، وأستولوا على جزر بحر ايجه واحدة تلو الأخرى ، وخاصة ما كان قريباً منها من مدخل المضايق ،وما زال العثمانيون يستعينون بناؤوا البندقية[3] ، التي سارعت الى عقد معاهدة دفاعية هجومية سنة ١٤٧٩ م (٨٨٤ هـ) مع السلطان العثماني الذي انتزع منها جزيرة يوبويا « نجربونت » وألبانيا بأكملها ، وأرغم البندقية على دفع مبلغ كبير لقاء الأذن لها بالاتجار في الأراضي العثمانية ، وهكذا أصبحت معظم تجارة بلاد اليونان وجنوب بحر ايجة في ايدي العثمانيين ، كما أمكنت السيطرة على البحر الأسود وسينوب وطرابيزون[4] كما تحكم العثمانيون في الطرق الرئيسية لشبه جزيرة البلقان وبالتالي تحكموا في تجارتها[5] ، وبهذا استندت الدولة العثمانية إلى ممتلكاتها الأوروبية للمواجهة مع الصليبية في البحار الجنوبية .

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire The Classic Age P. 129.

(٢) Halil Inalcik: The Ottoman Empire The Classic Age P. 131.

(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١١٨ .

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٢ .

(٥) ابراهيم شحاتة حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٨٤ .

كانت الأناضول تمثل الطريق العام للتجارة الشرقية الغربية ، وتمكن بعض التجار من الجمهوريات الإيطالية من مقابلة القوافل من الشرق الأقصى وايران في باياس (Payas) في الجنوب ، وترابزون (Trebzond) في الشمال ، كما سافر هؤلاء التجار إلى سيواس (Sivas) وكونيا (Konya) ، كما أن هناك طريقاً تجارياً قديماً يربط تبريز في ايران بكونيا عبر ارزروم (Erzurum) وأرزنكان وسيواس (Siras) ، ولم تقم الأناضول بربط أوروبا بالشرق فحسب ، بل كانت أيضاً نقطة عبور لتجارة الشمال والجنوب بين خانات القبائل الذهبية في أوروبا الشرقية والأراضي العربية ، وكانت التوابل والسكر وأقمشة متنوعة من الجنوب تستبدل بالفراء من الشمال ، وقام الايطاليون بنقل هذه البضائع بحراً ، في حين يقوم التجار المسلمون بنقلها براً إلى كونيا وسيواس ، أو من حلب الى قيسيري وسيواس وسينوب (Sinop) وسمسون (Samsun)، وأصبحت المدن الوسطى للأناضول مراكز تجارية هامة ، إلا أنه مع سقوط امبراطورية الالخانيين (Ilkhanid) في ايران في القرن الرابع عشر ، ونهوض الدولة العثمانية في الأناضول ، انتقل الثقل السياسي والتجاري الى الأناضول الغربية وسبب ذلك تغييراً في طرق التجارة وأصبحت بروسه (Bursa) المركز التجاري والسياسي للدولة العثمانية ، حتى كانت أهم مدينة تجارية في الأناضول ومستودع بضائع التجارة الشرقية والغربية ، كما ارتبطت المراكز التجارية الأخرى في الأناضول مثل بلاتيا (Palatia) والتولووجو (Al Tolougo) ، وايفزيس (Ephesus) وسيمرنا (Smyrna) (أزمير) ببروسة ، فوصلت القوافل الايرانية الى هذه الموانىء عبر بروسة[١] . وعندما سيطرت الدولة العثمانية على هذا الطريق عندماتوسعت الدولة شرقاً ، لم تعد قوافل الفرس تتبع الطرق في تريزون وفضلت الطريق البري الى بروسه ، وأصبحت المدن أماسيا (Amasya) وتوكات (Tokat) الواقعة على ذلك الطريق البري ذات أهمية اقتصادية تجارية في الأناضول بعد بروسة ، وكانت تجارة

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire P. 121.

الحرير الفارسي ركيزة تنمية وازدهار بروسة ، بعد ذلك تطورت صناعة الحرير الأوروبي ، إلا أنه زاد أهمية بروسة فأصبحت السوق الدولية لخامات الحرير وعندما توسعت الدولة العثمانية جنوب الأناضول ، انتعش الطريق البري القديم من حلب إلى القسطنطنية ، وكانت أشهر البضائع الهندية والعربية تسلك الطريق المذكور[1] . وساعدت تجارة البحر الأسود والبلقان والأناضول الدولة العثمانية في مواصلة فتوحاتها في أوروبا من أجل استرداد الأندلس ، وكانت التجارة السابقة عاملاً مهماً في تطور البحرية العثمانية وتأهيلها لضرب الأساطيل المسيحية الإيطالية .

وكانت الأراضي الفارسية معبراً آخر من معابر التجارة ، فقد وصل إلى الهند التجار الإيطاليون وعرف الأوروبيون اين تنتج التوابل ، بالإضافة إلى معرفة أسعارها ، وكانت معرفة الطريق السابق من قبل الايطاليين الغرض منه ، حتى إذا قطع عليهم الطريق الثاني ، وأغلقت دونهم الأسواق الهندية لوجود دولة اسلامية معادية وللحروب التي لا تنقطع ببلاد المشرق ، تجلى لديهم تماماً عظم الفرص التي تنتظر أية دولة تستطيع أن تجد سبيلاً جديداً لبلاد الهند .

اقترح الجنويين على صاحب فارس خطة يهدفون من ورائها إلى تحويل تجارة التوابل مع مليبار الى الخليج الفارسي ومن ثم تحمل براً إلى موانىء شرق البحر المتوسط ، وحيث تمكن الجنويين من الحلول محل البنادقة ، وكانت الفرة تقضي بأن يبني الجنويين أسطولاً على الخليج الفارسي يغلق البحر الأحمر في وجه التجارة الهندية ، على أن ذلك الاقتراح لم يتحقق ، ولكن جنوة لم تكف أبداً عن الشخوص ببصرها نحو الهند[2] .

وكانت السفن التجارية تسلك طريق البحر الأحمر والخليج الفارسي الى

(١) Halil Inalcik: The Ottoman Empire P. 124.

(٢) ك . م . بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ، ص ٢١ ـ ٢٣ .

موانىء الشام ومصر على البحر المتوسط فتجمعت في أسواقها البضائع الشرقية والغربية ، ودفع عبء نقل وتوزيع هذه البضائع على عاتق التجار العرب ، وتجار الجمهوريات الإيطالية(١) . وهكذا يتضح أن العثمانيين كانوا يخوضون صراعاً اقتصادياً إلى جانب الصراع من أجل الاسلام ضد الروح الصليبية .

وظل البحر الأحمر على مدى العصور عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به وكان طريقاً للملاحة فيها ووسيلة للتبادل التجاري ، فانتفع كل قطر بما يوجد لدى الآخر ، وساعد ذلك على ازدهار الحالة الاقتصادية ، وحينما تقدمت صناعة السفن وبدأت المواصلات مع الهند والصين وبقية بلدان الشرق الأقصى ازدادت أهمية هذا البحر ، فقد ساعدت حركة الملاحة لمراكب الصين في بحار الجنوب على ازدياد تدفق بضائع الشرق الأقصى إلى عدن والبحر الأحمر لأنها قديماً لم تكن تتجاوز في ابحارها غرباً الشاطىء الجنوبي الشرقي للهند(٢) . وتولى أهالي مسقط واليمن تلك التجارة ، الذين حافظوا على المعاملة والمواصلات المفيدة المثمرة سنوات بعيدة(٣) .

ولم يقتصر دور البحر الأحمر والتجار المسلمين على توصيل تجارة ومنتجات هذه المناطق الى المشرق بل أصبح الممر التجاري ، لتمويل العالم الأوروبي بكل ما يلزمه من هذه التجارة ، وتلك المنتجات ، وبالتالي أثر ذلك على بلاد الشرق الأوسط وأهالي المنطقة ، الذين جنوا ثروات طائلة سواء من دور تاجر البحار نفسه أو خلال دور الممر التجاري والوسيط (دور المكوس والرسوم الجمركية) فظهر الازدهار في هذه المنطقة وأثر ذلك بالتالي على العلوم والفنون والآداب ، بل انها أصبحت أكثر مناطق العالم ازدهاراً ورفاهية(٤) .

(١) نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج ، ص ١٠١ .
نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٢) أجيه يونان جرجس : البحر الأحمر ومضايقة بين الحق العربي والصراع العالمي، ص ٢٧ .
(٣) S. B. Miles: Countries and Tribes of Persian Gulf P. 138.
(٤) أجيه يونان جرجس : البحر الأحمر ومضايقة بين الحق العربي والصراع العالمي ،ص ٢٧ .

كانت السواحل المغربية المواجهة للأطلسي مناطق غنية بالأسماك ، وهذا ما يحتاجه الأوروبيون بالاضافة لكميات الذهب التي تجلبها القوافل المغربية من مناطق افريقية مجهولة تقع جنوبي المغرب ، وكان لهذا المعدن النفيس اغراء خاص بالنسبة للأوروبيين سواء بالنسبة في اقتنائه أو لاهميته في التبادل الاقتصادي[1] . لذلك ازدهرت المناطق الشمالية لافريقيا من جراء تلك التجارة ، وأثر بدوره على الحياة الاقتصادية للسكان .

وقامت عدة مراكز تجارية رئيسية في غرب افريقيا منها أرجيوم (Arguim) وميناء المينا (Mina) ، وكانت هذه المراكز عامرة بالتجارة والوسطاء التجاريين ، وقدم اليها سكان القرى المجاورة ، وأصبحت مزدهرة[2] .

أدرك الأوروبيون في هذه الفترة بأن سيطرة المسلمين على طرق التجارة في البحر الأسود والأناضول والخليج الفارسي والبحر الأحمر والشمال الافريقي هي سر قوة المسلمين ومن هذا المنطلق كان اندفاع البرتغاليين والأسبان كل في طريق حسب توجيهات البابوية ، وإن كان لهذا الاندفاع الشديد أهداف فإن من بين تلك الأهداف ما أدى إلى انتقال المواجهة من البر إلى البحر كأسلوب من أساليب المواجهة بين العالم الاسلامي والعالم المسيحي .

وظهر خطر البابوية ، عندما أصدر البابا أوامره إلى جميع البلاد المسيحية الأوروبية أن تضع كل امكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك اسبانيا من أجل إخضاع بلاد الشمال الافريقي للحكم والدين المسيحي ، بحيث صبغت الحروب الأسبانية في افريقيا بالصبغة الصليبية الحقيقية ، لدرجة أن الكنيسة الأسبانية أرادت في كثيرٍ من الأحيان اعتبار هذه المعركة خاصة بها ، ونحن عندما نقول أن تحويل التجارة كعامل اقتصادي لهدم العالم الاسلامي فالقصد هنا ان هذا

(١) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانكليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠ ، ص ٣٨ .

(٢) H. V. Livermore: A New History of Portu Gulf P. 136.

في حد ذاته عامل ديني ، لأن هدم الاقتصاد الاسلامي معناه هدم لقوة المماليك والعثمانيين أصحاب السلطة على الطرق التجارية ، وعنصر حيويتهم حتى يتمكنوا فيها بعد من التغلغل الى داخل المشرق العربي ، والحصول على المنتجات الاستوائية والشرقية دون الحاجة إلى وساطة المسلمين[١] .

وقامت حركة الاستكشافات البحرية في غرب أوروبا ، ونجحت هذه الحركة في العثور على طريق حول رأس الرجاء الصالح[٢] . وبدأت البرتغال في تنفيذ خططها لتحويل التجارة الشرقية ، كما أخذت في وضع الاستراتيجية لذلك ، واقتضت تلك الخطة اقامة قواعد في المحيط الهندي وهنا اختلفت فيها الآراء :

هل تكون في تلك القواعد البحرية لتعزيز الأساطيل المنتشرة على طول الخط التجاري من الهند الى لشبونة ، أو يلجأون إلى قواعد برية معززة بحاميات عسكرية ؟

ثانياً : سد مداخل الخليج الفارسي عن طريق اقامة نقط ارتكاز في تلك المداخل لمنع التجارة ومن ثم مهاجمة البحار الداخلية .

ثالثاً : اقامة قواعد على سواحل افريقيا الشرقية لتأمين ذلك الطريق التجاري الطويل الى لشبونة[٣] .

واستولى البرتغاليون على سوقطرة وجوا وهرمز بعد ذلك ، ثم سيطروا على سفالة وموزامبيق وهاجموا زيلع وبربرة لكي يتم تحويل الطريق التجاري تماماً إلى رأس الرجاء الصالح[٤] . واتبعوا لتحقيق ذلك وسيلتين ، فالأولى عن طريق

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) أجيه يونان جرجس : البحر الأحمر ومضايقه ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .
غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ١٨٠ ـ ١٨١ .
نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج ، ص ١٠٤ .

اعتراض السفن الاسلامية بكافة أنواعها في عرض البحر سواء كانت متجهة إلى البحر الأحمر أو الخليج أو خارجة منها . أما الوسيلة الثانية فكانت عن طريق تخصيص دوريات مسلحة للتجول أمام تلك المداخل السابقة الذكر(١) . ولم يكتف البرتغالي بذلك إنما اخترقوا مناطق تصدير التوابل ، لتؤكد سيادتهم على منابعها ، فكانت القرفة تنمو في سيلان فاستولوا عليها ، أما بالنسبة للمواد الأخرى مثل الفلفل الذي تزرعه جاوا (Jawa) وسومطرة ، والثوم الذي يقدم بثمن باهظ عن بقية التوابل كان يجمع في مولكس (Molucus) ، أما منتجات بورنو (Borneo) فكان جوز الهند ومشتقاته وكل المنتجات السابقة تصل من تلك المناطق عن طريق البحر مضيق ملقا (Malakka) الذي يفصل شبه جزيرة ملايو عن سومطرة(٢) . لذلك قاموا باحتلال تلك المناطق ابتداء من ملقا .

ولما كانت المكاسب لا تحقق عن طريق جلب بضائع الغرب وشراء البضائع الشرقية بالمقابل وذلك لأن التجار الآسيويين كانوا يدركون جيداً كيفية استغلال التاجر الذي يأتي من بعيد ويكون في عجلة للعودة إلى بلده ، فكانوا يشترون بأبخس الأسعار ويبيعون له بضائع بأعلى الأسعار ، فطن البرتغاليون لهذه الحقيقة فأقاموا مخازن على الشواطىء لتخزين بضاعتهم حتى تحين الفرصة للبيع بأسعار مناسبة(٣) . ومنحت الحكومة البرتغالية تصاريح للسفن الاسلامية ، وكان البرتغاليون في بداية الأمر يراعون هذا التصريح فلا يتعرضون للسفن التي تحمله ، ثم تطور الأمر وأصبحت المراكب البرتغالية تُمارس أعمال القرصنة في البحار ، ولم يعد التصريح إلا إجراء شكلي فما أن تخرج السفن الاسلامية إلى عرض البحر حتى يهاجمونها حتى لو كانوا حاملين تصاريح(٣) . وأجبر البرتغاليون التجار المسلمين

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢١٦ .

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone Europe P. 62.

(٣) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 62.

(٤) نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج ، ص ٩٩ .

على الاتجاه إلى هرمز ودفع الضرائب على تجارتهم ، وعلى الرغم من أن تحـركات التجار العرب وتنقلاتهم بين موانىء المحيط الهندي أصبحت محفوفة بالمخاطر ، إلا أن البرتغاليين تعمدوا وبصورة مركزة على محاولة قفل كافـة الأبواب أمـام التجار العرب والاستيلاء على كافة المراكز التجارية التي يلجأون إليها ، كما أحسوا بوطأة البرتغاليين الذين عمدوا إلى محاولة دفع المسلمين إلى بحارهم الـداخلية واغـلاقه عليهم ، والدليل عـلى ذلك أن البـرتغاليـين عندمـا وصلوا إلى كالكتـا وبدأوا في اعتراض السفن الاسلامية أمام السـواحل الهنـدية هاجموا معـظم التجار العـرب والأفارقة متجهين إلى ملقا وسيلان لنشر الإسلام ، التي ما لبثت أن تعرضت للغزو البرتغالي[١] .

عندما علمت البندقية بأن البرتغاليين أفلحوا في الدوران حول رأس الرجاء الصالح وتعطلت السفن الاسلامية في الوصول للبحر المتوسط ، فكروا في فتح قناة عبر برزخ السويس ، ولكن هذا لن يحيي تجارتهم ، حتى بالمنافسة مع رأس الرجاء الصالح ، لأن الطرق البرية عبر البحر الأحمر والخليـج الفارسي سيتحكم عليهـا البرتغاليين ولن يسمح للبنادقة أو لغيرهم بتنفيذ ذلك[٢] .

ازداد خوف البنادقة من أن يفقدوا دور الوساطة التجارية الذي كان يلعبونه فيما يتعلق بالتجارة الشرقية ، وأخذوا في حث المماليك في القاهرة على القيام بجهد مشترك ضد البرتغاليين الذين شكلوا خطراً على مستقبل المدن الايطالية كما طالبوا بخفض المكوس التجارية[٣] المفروضة على البضائع الشرقية .

وكانت مصر قد أصيبت بضربة اقتصادية شديدة نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاءالصالح وحرمانها من تجارة الشرق الغنيـة[٤] ، فتوقفت العـوائد والـرسوم

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢١١ ـ ٢١٧ .

(٢) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 74.

(٢) John Lynch: Spain under the Habsburge Val. 2 P. 83.

(٤) محمد عبد اللطيف الجراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص٨٦ .

الضخمة التي كانت تجنيها الخزانة المملوكية من موانىء مصر والشام والحجاز[1] .
وبدأ الفقر يخيم على المنطقة ، وأثر على مستوى المعيشة فأنصرف الناس عن العلوم والفنون إلى البحث عن قوت يومهم ، إذ أنه من المعروف أن العرب قد نجحوا نجاحاً بالغاً مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي في فنون الملاحة والنقل البحري في بحارهم الجنوبية ، وكان ذلك كفيلاً بأن يقودهم نحو نهضة كبيرة وقوية ، كما أخذت السفن الايطالية تقل من الوصول إلى موانىء مصر والشام ، وأخذت توجه انظارها إلى لشبونة وخربت الكثير من الطرق التجارية البرية والتي ذاعت شهرتها الآفاق ، بما كانت عليه من طرق معبدة وحراسة دائمة وخدمات متوفرة ، وتوقفت القوافل البرية التي كانت تغدو بين الشرقين الأدنى والأقصى ، وانحصرت التجارة الداخلية في نطاق ضيق واصبحت لا تتعدى حد الاستهلاك[2] . وأصيبت موانىء السويس والاسكندرية والبصرة وطرابلس لبنان وكلها مراكز للتجارة مع الخليج العربي في الصميم ، كما أن المشاكل المالية والاقتصادية المترتبة على الضغط البرتغالي جعلت من الصعب بالنسبة للمماليك أن يبنوا أسطولاً بجهودهم الخاصة لمواجهة البرتغاليين[3] . كما تغيرت الظروف العامة في المنطقة ، في الوقت الذي لم يجد فيه الفلاح مناصاً منالعمل في هذه الظروف الصعبة ، حاول الحكام والمسيطرون أن يحافظوا على مستوى معيشتهم ولم يجدوا سوى الأرض والفلاح أمامهم وسيلة للحصول على ما يلزمهم من موارد فزاد العبء اضعافاً مضاعفة على الفلاح ، ولم تسمح له الظروف بالتحرك أو التململ ، واستمر في فقره وعجزه عن مواجهة الأمراض والأوبئة وانقطعت صلته بالعالم، وبدأوا رحلة على طريق التخلف والخضوع للتحكم وللاقطاع والاستغلال[4] .

(١) فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ص ٣٨ .
(٢) جلال يحيى : العالم العربي الحديث ، ص ٢٥ .
غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .
(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٨٢ .
(٤) جلال يحيى : العالم العربي الحديث ، ص ٢٥ .

قرر السلطان الغوري نتيجة لذلك إرسال بعثة برئاسة الأسقف ماوروس دي سان برناديو (Mourus Disan Bernadina) رئيس دير جبل صهيون بيت المقدس ومعه راهبان إلى ملوك أوروبا وبابا روما للوقوف على الأحوال السياسية بصفة عامة ، وحث البابا على اقناع البرتغاليين بوقف أعمالهم العدوانية ضد مصالح السلطان في الهند ، ووصل ماوروس إلى البندقية في ١٥٠٤ م (٥١٠ هـ) ومعه خطابات للدوق لطلب مساعدات حربية للسلطان المملوكي لمقاومة البرتغاليين في مياه الهند وطلب كذلك منحه خطابات توصية الى ملكي اسبانيا والبرتغال والبابا وعقد السناتو جلسة خاصة حضرها الأسقف ماوروس ، الذي عرض طلب السلطان المعونة الحربية والتأييد الأدبي لدى البابا وملكي اسبانيا والبرتغال لوقف تعرض البرتغاليين للمصالح السلطانية في الهند أو إرسال أسلحة للسلطان لمقاومة البرتغاليين في حالة فشل المفاوضات لوقف اعتداءاتهم ، وأعلن ماوروس كذلك استياء السلطان من موقف الملك القطالوني من المسلمين في الأندلس والمضاربة في الشمال الافريقي ، وإجبارهم على ترك دينهم أو الموت ، ورد السناتو على مبعوث السلطان بأن الأضرار التي لحقت بالسلطان قد أصابت البندقية ، وأعتذر عن الكتابة للبابا ولملك البرتغال حتى لا تتهم البندقية بمساعدة المسلمين[1] . وكانت البندقية قد هداها تفكيرها في هذا الوقت الى مشروع تجاري جديد يدور حول استخدام الطريق البري من ايران إلى تركيا ، وأرسلت البندقية بعثة دبلوماسية الى ايران لمفاوضة الشاه حول هذا المشروع ، لكن الدولة العثمانية قبضت على هؤلاء الرسل وهم في طريقهم إلى ايران[2] .

واصل ماوروس رحلته وقابل البابا في روما الذي انزعج من تهديدات السلطان للمسيحيين والأماكن المقدسة المسيحية وأسرع بارسال ماتيوس ومرافقيه إلى فريدناند الخامس ملك قطالونيا ، وعمانويل ملك البرتغال ، وهناك أوضح لهما

(١) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٢٣ .

مضمـون مهمته ، فـأرسل عمـانويـل خطابـاً للبابـا يطمئنـه ، وأن لا يلقي بالاً لتهديدات السلطان لأنه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ هذه التهديدات ، كما أنه لا يستطيع القيام بأي عمل تعسفي ضد المسيحية في بلاده أو ضد الأماكن المقدسة المسيحية لأنه يجني من وراءها رسوماً طائلة في مواسم الحج ، وأضاف انه في حالة تنفيذ السلطان تهديداته فإن الأسطول البـرتغالي سيـدخل البحـر الأحمر ويهـاجم الأماكن المقدسة الاسلامية كإجراء مضاد وفي نهاية الرسالة طلب من البابا التأييد الديني الأوروبي في صراعه مع المماليك[١] .

اتبع البرتغاليون بعد ذلك من قواعدهم المكتسبة بافـريقيا الشـرقية وآسيـا سياسة متأنية ، وفي المدى القصير سياسة نـاجحة للغـاية في ازالـة جميع المصالح الاسلامية من تجارة التوابل ، وكتب معاصر مبتهج برتغالي : « ضيق الخناق على محمد فلا يستطيع أن يتقدم الى الامام بل يفر بقدر استطاعته . . . والحقيقة أن محمد سوف يدمر ،ولا يستطيع أن يفر عن ذلك . . . »[٢] .

تدفقت التجارة الشرقية على لشبونة العاصمة البرتغالية ، وطاف مبعوثيهم في أسواق أوروبا لاستمالة شركاتها التجارية الى لشبونة ، وتنازلوا عن الكثير من أرباحهم وعن الرسوم الجمركية تشجيعاً لوصول تجار أوروبا الى اسواقهم وخـطوا خـطوة لتدعيم مـركزهم التجـاري في شمال أوروبـا بتوزيـع المنتجات الشـرقيـة بـأنفسهم وخاصـة في الأراضي الألمانيـة وبنفس الأسعـار إمعـانـاً في هـدم تجـارة مصر [٣] .

أدرك البرتغاليون جدوى فصل البندقية عن دولة المماليك في سبيـل ضرب اقتصادها ، خاصة وأنها لم تكن تتورع عن تقديم أي عون يحتاجه المماليك[٤] .

(١) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ، ص ٧٨ .

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 107.

(٣) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ، ص ٧٢ .

(٤) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٢٠

فأرسلوا وفداً للبندقية ، يعرض على حكومة الدوج وهيئة التجار لتسهيل حصولهم على حاجتهم من التوابل والسلع الشرقية من أسواق لشبونة على أن يقوم البنادقة بتوزيعها بأنفسهم في أسواق أوروبا كما كانوا يفعلون ، بدلاً من إصرارهم على ارتياد أسواق مصر المرتفعة الأسعار والتي بدأ ينضب معينها ، ولكن كبرياء البندقية وعظمتها منعاها من الإستجابة لهذا النداء ، حتى لا توقع بنفسها صك تبعيتها التجارية للبرتغال ، ولكنها في الوقت نفسه لم تغفل إرسال مبعوثيها إلى لشبونة لجمع المعلومات الكافية عن رحلات الهند المباشرة ومواعيد مغادرتها وقدومها ، ومراقبة مشروعات البرتغاليين المستقبلية ، ومعلومات عن طبيعة الطريق الجديد[1] .

من خلال ذلك اتضحت أهداف البرتغال الاقتصادية ، وبصورة أدق ضد مصر من خلال ما دار من مناقشات بين البنادقة والبرتغاليين ، حددوا فيه أهداف بلادهم الاقتصادية ضد مصر والتي تتلخص في النقاط التالية :

أولاً : الضرب على أيدي التجار العرب والمصريين والاقلال من ثروتهم وبالتالي حتى يتمكنوا في الانتقام منهم سياسياً ودينياً ؛

ثانياً : فتح باب جديد لثراء البرتغال وسيطرتها على الشرق وتجارته ، ومن هنا نرى أن الروح الكاثوليكية كانت تسيطر على كافة المشاريع البرتغالية في المشرق الاسلامي ، لأن المذهب الكاثوليكي هو أقدم المذاهب المسيحية الأوروبية ، والذي حمل الراية التقليدية في حقد الأوروبيين على الإسلام ، وبإعتبار البرتغاليين أنهم انفردوا بالأمر في المشرق ، فقد ظهر عليهم ذلك الحقد الدفين من خلال ما قاموا به من مجازر ومذابح أينما حلوا[2] .

وازدادت البضائع الشرقية في البرتغال ، وقام اتصال مباشر مع المنتجين

(١) نعيم زكي فهمي « طرق التجارة الدولية ، ص ٧٢ .
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

للتوابل ، وأفتتحت أسواق جديدة للبضائع الأوروبية وكانت المبادلات التجارية مدفوعة بالذهب الخالص والفضة ، التي بدورها ساعدت على امتداد التجارة مع الشرق(١) . كما تدفقت بضائع الأرض الجديدة وأخذت القوة الاقتصادية دفعة كبيرة ، ومن أهم تلك الأشياء : التبغ والبطاطس ، بالاضافة الى السكر وفوق كل ذلك كانت هناك بضائع أثرت تأثيراً مباشراً على الحياة الاقتصادية مثل : المعادن النفيسة(٢) . تضخمت الأرباح لدى البرتغاليين نتيجة لتدفق البضائع الشرقية وبضائع الأرض الجديدة في الأمريكيتين بالاضافة إلى التدابير الاقتصادية التي أقيمت ضد العالم الاسلامي ، كل ذلك أدى إلى قيام نشاط رأسمالي كبير ، بالاضافة الى قيام البيوت المالية والمجتمع المالي بدلاً من المجتمع الزراعي والاقطاعي ، ولعل ذلك مؤشراً واضحاً لقيام العصور الحديثة وانتهاء العصور الوسطى ليس ذلك في البرتغال وحده وإنما يضاف اليها غرب أوروبا .

وأفتتح الملك البرتغالي مستودعات تجارية تمونها لشبونة ، ومن ثم تقوم بتوزيعها على كافة الدول الأوروبية، ومنأهم تلك المستودعات هي أنثورب في الأراضي المنخفضة وانثورب ، اشتهرت بمهمة توزيع التوابل على السواحل الشمالية لأوروبا ، وبلغ من ثراء البيوت المالية بها أن عمدت إلى مد البرتغال بالأموال اللازمة لاعداد الحملات إلى الهند ، أما انفرس فقد اشتهرت بأنها أكبر مركز تجاري في أوروبا ، ذلك أن لشبونة كانت تُعتبر المخزن الرئيسي ، أما انفرس فكانت بالنسبة للبرتغاليين السوق الرئيسية لتوزيع تلك الأطنان الكبيرة التي كانت تصل الى أرصفة ميناء لشبونة .

قامت الحكومة البرتغالية لتدعيم الخطة الاقتصادية بوضع نظام دقيق لتجارتهم ، فكانت هنا حكومة دول الهند وهيئات مكلفة بالادارة الاقتصادية في

(١) H. G. Koenigs Berger and George Mosse: Europe In the Sixteen Century P. 46.

(٢) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 74.

لشبونة ، التي كانت تشرف على تحديد الاسعار للسلع المصدرة وأصبحت تجارة بعض السلع خاصة بالتوابل احتكار لملك البرتغال ، ولا يحق لأحد التجارة بها دون تصريح برتغالي بعد دفع الضرائب ،حيث تصل الى لشبونة ومنها توزع إلى أوروبا(١) .

انتهى نتيجة لذلك دور رجال البندقية والعرب كموردين للسوق الأوروبي على الرغم من خبرتهم الطويلة وامتلاكهم لطريق قصير في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، فأعتقد الخبراء في البداية أن التوابل ستتلف أثناء الرحلة الطويلة حول رأس الرجاء الصالح ، إلا أن البرتغاليين الذين تورطوا في حروب بحرية لا آخر لها مع العرب في المحيط الهندي وجدوا أن ما فوق رؤوسهم يتصاعد وفي النهاية تحول النصر الى حقائق صعبة من الكفاءة البحرية والتجارية(٢) .

امتدت الامبراطورية البرتغالية ، واستقرت في الأرض التي امتلكها فأستهلكت الثروة التي جمعوها ، فقد عانى الملك البرتغالي من ذلك ، إذ كان مسؤولاً عن دفع مرتبات الجنود والموظفين الاداريين وموظفي الجمارك والمحاسبين والذين يشكلون أساس هيئة الموظفين البرتغالية ، وكانت أعباؤهم جسيمة مما أضطر الملك البرتغالي إلى تخفيض مرتباتهم ولكن هذا شجع الموظفين البرتغاليين على الاشتغال في تجارة السوق السوداء فتستروا على التهريب حتى يوفروا العملة لهم ، ومع الأيام الأولى كان الثراء الشخصي الهدف الرئيسي للذين يديرون دفة الأمبراطورية ولا يستطيع التاج أن يفرض بطريقة عملية سلطته على الموظفين المخفضة رواتبهم والمنتشرين على نصف العالم(٣) ، وبصفة عامة كان لتحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح أثره الفعال في ازدهار أُمم وانهيار أمم ، والواقع

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص

(٢) H. G. Koenigs Berger and George Mosse: Europe In the Sixteen Century P. 47.

(٣) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbon Europe P. 38.

أنه كان ازدهاراً لأوروبا التي انتقلت من العصور الوسطى الى الحديثة ، وكان ازدهارها فاق العالم الاسلامي قبيل تحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، ففي السابق كانت سلع الهند تأخذ طريقها عبر الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، وما أن تصل إلى موانىء الدولة المملوكية في مصر والشام حتى تكون السلع قد بيعت بأضعاف سعرها من مصدرها ، وأصبح الفرق هنا أن البرتغاليين هم أول من تلقى أرباح وصول التجارة إلى موانئهم ومن ثم قاموا بتوزيعها في أوروبا بأسعار مخفضة أقل كثيراً من أسعارها خلال العصر المملوكي .

بهذا العرض استكشفنا أن الدولة العثمانية كانت في هذا العصر من تاريخها فعلاً في مفترق الطرق ، وبدأ لنا حجم التحولات والأخطار الطائلة التي تعرض لها العالم الاسلامي وخاصة على حدوده الجنوبية ، وكان على العثمانيين أن يضعوا خططهم لاسترداد الأندلس ، خلال ذلك الخضم من التطورات التاريخية التي انتقل فيها التوازن الدولي من البر إلى البحر .

الفصل الثالث

الفصل الثالث

« شارل الخامس والأمبراطورية الرومانية المقدسة »

أ ـ الاستعمار الأسباني في أميركا الوسطى والجنوبية ـ تدفق الفضة على أسبانيا .

ب ـ أثر ظهور البروتستنتية في شمال أوروبا .

النشاط الكاثوليكي المضاد ـ الروح الصليبية .

ج ـ الجيوب الصليبية على الساحل الأفريقي العربي الشمالي .

د ـ أهداف شارل الخامس الصليبية في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

* * *

استخرجت كميات كبيرة من الفضة عام ٨٥٥ هـ (١٤٥٠ م) من أوروبا الـوسطى ، ومن منـاجم جـواشيمسثـال (Joachimsthal) في بـوهيميـا ، وهي منطقة مشهورة بصفة خاصة ، إذ أعطت أسمها إلى العملة الفضية المشهورة التالر (Thaler) والتي حُرفت بعد ذلك للدولار

ومنذ عام ٨٥٥ هـ (١٤٥٠ م) ارتفع عدد السكان الأوروبيين بعد الهبوط والانحـدار في التعداد السكـاني نتيجة للمـوت الأسود الـذي عم أوروبـا نتيجـة لانتشار الوباء فيها ، وفي إحدى التقديـرات كان عـدد السكان في أوروبـا لنفس العـام ما بـين ٤٠ مليون و٥٠ مليـون نسمة[٢] ، وتعـددت أغراض الـزيـادة في السكان ، وأصبحت واضحة في كل مكان ، فعلى الجانب الريفي كان الضغط على الأراضي المتوفرة قد أدى الى الامتداد الى المناطق الغير مزروعة ، والأراضي الغير صالحة لذلك الغرض تحولت الى مـراعٍ أو أراضٍ قابلة للزراعـة ، ولكن كانت أغلب تلك الأراضي من النوع الرديء إذ لا يمكنها أن تقدم بمفردها الحل للزيادة في السكان لذلك كان على كثيرٍ من الناس أن يتركوا أراضيهم ، فالبعض ذهب إلى المدن ، والبعض الآخر ارتبط بعصابات الرعاع واللصوص المتشردين ، فـأخذوا

(١) H. G. Koenigs Berger and George Mosse: Europe In the Sixteen Century P. 27.

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbon Europe P. 52.

ينهبون ويسلبون السكان في الريف أما بالنسبة للمدن فقد كانت غير قادرة على استيعاب الاعداد المتزايدة من السكان المهاجرين اليها ، خاصة أنه كان يوجد امتداد محدود في الانتاج الصناعي ، لذلك كانت فرص العمل قليلة متوفرة لعدد محدود من الناس ، وأصبحت مشكلة الفقر مزمنة ، وكان الضغط المتزايد في السكان على موارد محدودة ، من أسباب ارتفاع الأسعار ، والتي ظهرت علاماتها في الفترة بعد عام ٨٥٥ هـ (١٤٥٠ م) ، وكان ذلك الارتفاع بطيئاً ومن بين أسباب ارتفاع الأسعار ، الكمية المتزايدة من الذهب والفضة[١] . وكان مع ذلك الفقر المزمن الذي ساد أوروبا بصفة عامة ، ظهرت فئة غنية من الناس ، كما ظهر النظام الرأسمالي ، وبدأ ظهور طبقة رجال المال والأعمال الذين أخذوا في التقدم ليتسلموا زمام الأمور في أوروبا الغربية وبدأ ظهور الفروق الأجتماعية بين مختلف مناطق أوروبا ، ففي غرب أوروبا كان التجار والمزارعون يحتفظون بدرجة كبيرة من الحرية الشخصية بعكس شرق أوروبا حيث كان المزارعون يخضعون بالتدريج لنظام السخرة ، وحتى في المنطقة الغربية كان هناك اختلاف كبير ، ففي فرنسا وانكلترا المقاطعات الزراعية التي كانت تنمو وتزدهر ، بينما مناطق الريف في هولندا وسويسرا واقعة تحت سيطرة المدن وتجارها[٢] .

ومع ظهور تلك الكميات الكبيرة من الفضة ، وبمقابلتها مع ذلك الفقر الذي ساد أوروبا في هذه الفترة ، لم تكن تلك الكمية تسد حاجة أوروبا ، من ذلك المعدن النفيس بالاضافة إلى الخطر القادم من الشرق بواسطة الدولة العثمانية التي طرقت في هذه الفترة أبواب أوروبا الوسطى ، وأجتاحت أقاليم عديدة فيها ، فأوروبا في حاجة ماسة في هذه الفترة للذهب والفضة حتى تستطيع بناء استحكاماتها وتطور من وسائل الدفاع لصد تلك القوة الفتية علاوة على ذلك سادت أوروبا فكرة حروب الاسترداد ، فأسبانيا في حاجة لمزيد من الأموال فقد

(١) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbon Europe P. 52- 53.

(٢) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 75.

استقدمت الخبراء من ايطاليا والمانيا لتطوير سلاح المدفعية ، كما جلبت العديد من الجنود المرتزقة من مختلف أنحاء أوروبا ، كذلك كانت أسبانيا في حاجة لشق الطرق وبناء الجسور وحتى يتيسر لها نقل المدفعية ، فأسبانيا سوف تقضي سنوات طويلة في حربها مع المسلمين في الأندلس ، فهي في حاجة لكثير من الأموال حتى تفي باحتياجاتها والفضة الموجودة في أوروبا الوسطى ليست ملكاً لها ، وفي نفس الوقت لا تكفي لتلك المصروفات الكبيرة .

تُعتبر هذه فترة اختلال اقتصادي ، فمستوى الأسعار ، والقوة الشرائية ومستوى الشراء لمختلف المجموعات الاقتصادية ، فبعض الأفراد أفلسوا ، وآخرون كانوا يجدون صعوبة في العمل ، بينما أثرى البعض فجأة ، وكل الذين كانوا يتعاملون بقيم مالية ثابتة سواء عن طريق أجور يتقاضونها ، أو ضرائب يتحصلون عليها أو ديون يستوفونها ، كانوا يشترون بقيمة أقل من ما كانوا يشترون بها من قبل[1] .

ومن منتصف القرن الخامس عشر ، بدأت أوروبا في البحث عن أراضٍ جديدة خارج حدود القارة في الجنوب والغرب والشرق ، ومن عام إلى آخر أصبحت هناك اكتشافات عديدة ذات أهمية كبيرة ، ليست فقط من أجل قيمتها المادية ، ولكن من أجل أسباب ليست محسوسة بدرجة كبيرة ، ولكنها ذات فائدة أعلى فالاكتشافات الجغرافية خلصت أوروبا من مشكلة تزايد السكان ومن عزلتها عن العالم الواسع كما أنها أثرت على حسابات الافراد للمسافات ، والأرض التي كانت قاسية ومجهولة أصبحت الآن في متناول اليد ويمكن الوصول إليها ، وبالتالي ما كان بعيداً ، أصبح اليوم قريباً وسهل المنال[2] .

تلقى كريستوفر كولومبوس خطاباً هاماً عام ٨٧٩ هـ (١٤٧٤ م) من عالم

(١) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 75.

(٢) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 59.

أوصاف الكون والباحث الجغرافي باولو توسكانيـلي (Paolo Toscanelli) وكانت هذه الرسالة جواباً لتساؤل كان كولومبوس قد أثاره وهي في نفس الوقت نسخة من الرسالة التي كان قد أرسلها توسكانيلي لمراسل برتغالي يدعى فيرانو مارتينز (Fer-nano Martins) الذي طلب معلومات نيابة عن الملك ألفونسو ملك البـرتغال ، كانت هذه الرسائل توضح أن أفضل طريق للوصول إلى آسيا ليس بالابحار حول أفريقيا جنوباً ، بل بالابحار غرباً عبر المحيط الأطلسي(١) .

اعتبر كولومبوس أن وجهة نظر تـوسكانيـلي (Toscanelli) هامـة وواضحة فكتب آراء توسكانيلي هذه حرفياً على غلاف إحدى كتبه الخاصة في أوصاف الكون (كتاب جغرافية الكون) ، وتلقى كولومبوس رسالة ثانية ، كان تـوسكانيـلي قد تقبل تقدير ماركو باولو(Marco Polo) في حدود الأرض الآسيوية ، ولكنه اختلف مع تقدير بطليموس الذي كان تقديره أصغر من تقدير ماركو باولو ، وحسب أيضاً توسكانيلي درجات خط العرض عند خط الاستواء على انه مساوياً لـ ٧٢ كيلومتراً فقط والتي هي بمثابة ٧٥ ٪ من الطول الحقيقي وبهذا يكون توسكانيلي قد أخطأ في تقدير محيط الكـرة الأرضية ، وبـاستخدام حسـابات تـوسكانيـلي والمبالـغ فيها ، استطاع كولومبوس أن يحسب المسافة بين كيانجو (اليابان حالياً) وجزر الكناري والتي هي أقصى نقطة في غرب أوروبا .

كان كريستوفر كولومبوس شاعراً ومسيحياً وواقعيـاً في نفس الوقت ، كـان شاعراً لأنه تأثـر بالكتـابات والـروايات المنتشـرة في عصره ، ومسيحيـاً لأنه كـان مستعداً للقيام بحملة صليبية جديدة ، وواقعياً لأنه أعتقد في أن الأرض كروية ، وأنه يمكنه أن يجد في الغرب ما قام أجداده بالبحث عنه في الشرق(٢) .

كان كولومبوس في هذا الوقت رجلاً صاحب فكرة وكان مقتنعـاً أن الله قد جعل قدره بأن يقوم برحلة للوصول إلى آسيا عن طريق الغرب ، وكان كولومبوس

(١) Dan O'sullivan: The Ageoj Discovery 1400- 1550 P. 26.

(٢) جلال يحيى ، جاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٣١ .

مشغول البال بدوام الثراء والمجد والكرامة الذين يحظى بهم ويستحقهم إذا نجح في الوصول إلى هدفه[1] الأساسي في اكتشاف ثروات الشرق واستغلالها بمشاركة الدولة التي تتعهد بحمايته ، وكان في استطاعته الاعتماد على تجارب قشتالة في مغامراتها التجارية والاستعمارية في جزر الكناري ، وذلك عندما فكر في هذا المشروع ، ولكن لسوء حظه لم تكتمل تجارب قشتالة التجارية بالقدر الكافي ، حتى تغامر بتجارب عسكرية لتحقيق النجاح ، في الوقت الذي قدر نجاحه أساساً بشرط انشاء قواعد ومراكز تجارية[2] .

قدم كولومبوس خطته في عام ١٤٨٤ م (٨٩٩ هـ) للملك جون الثاني ملك البرتغال الذي عرضها بدوره لخبرائه الذين رفضوها ، إذ كانت لديهم خلفية علمية كافية بدون شك حتى رفضوا تلك الخطة ، ولكن لم يكن لعيب في الخطة ونقص في الهدف بل كان سببهم الرئيسي أن كل المصادر والموارد البرتغالية كانت تحت تصرف الطريق الأفريقي في ذلك الوقت ، والتي بدأت مؤشرات تبشر بالخير بعد عودة دياجو كاو (Diego Cao) من رحلته الأولى في هذا العام ، عندئذٍ اتجه كولومبوس إلى اسبانيا ، ولكنه عاد إلى لشبونة عام ١٤٨٨ م (٨٩٤ هـ) ، ليشهد عودة بارثليمو دياز (Bartholemew Dioz) من رأس الرجاء الصالح ، فلا بد وأن الإبحار حول رأس الرجاء الصالح قد انهى كل آمال ومطامح كولومبوس في البرتغال بصفة نهائية ، لذلك عاد كولومبوس مرة أخرى إلى أسبانيا حيث بقي هناك عدة سنوات صادفته عدة متاعب ، إذ توفيت زوجته وتركت له طفلا صغيراً ، فانصرف لتربيته وتدبير شؤونه ، إلا أن أهل زوجته من عائلة بريستيرلو (Perstrello) كان لهم نفوذ قوي لدى ملوك أسبانيا فأخذوا في إقناع فرديناند وايزابيلا لتنفيذ خطة كولومبوس الذي أرسل أخاه الصغير الى انكلترا ليعرض خطة أخيه كولومبوس ، وبعد محاولات عديدة قرر فرديناند وايزابيلا تدعيم خطة

(١) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 27

(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 50.

كـولومبـوس[١] بعد أن أوضـح لهـا أن هـدفـه الأسـاسي هـو تخليص الأراضي المقدسة ، واستخدام الكنوز التي سيعود بها من رحلته لهذه العملية[٢] . بعد ذلك ساءت الأمور بسرعة ، وجرى العمل في تحرير عقد عمل قانوني بين كولـومبوس والملكين الكاثوليكيين عُرف باسم البنود أتينونز (Capitulations) الذي توسع في استعماله فيها بعد حتى بلغ مستنداً أكبر اللقب ، ومنحه الملكان الكاثوليكيين لقب ادميـرال الهند ، ونـائب للملك في كل البـلاد التي يكتشفها ، مـع لقب أدميرال قشتالة الذي سيورث لأسرته ، ويتسلم بمقتضاه عشر البضائع المتحصل عليها بأي طريقة في الأراضي الجديدة[٣] .

استلم كولومبوس أيضاً من الملكين الكاثوليكيين خطابات اعتماد الى الحكام المحليين الذين سيلتقي بهم ، توضح الثقـة التي دفعها الملوك الكـاثوليكي « لقـد علمنا بفرح وسـرور عن التقديـر والإحترام الكبـير لنا ولشعبنـا ، وعلى حـرمكم وتشرفكم لأن تخبرونا عن أشياء تهمنا ، لذلك فقد أرسلنا القبطان النبيل كريستوفر كولومبوس حامل هذا اليكم » ووقع عقد الكابيتول أتينوز (Capitulations) بعد سقوط غرناطة بعدة شهور[٤] .

كان تعاقد كولومبوس مع التاج الأسباني يمثل تعاقد أي قـائد أثنـاء حروب الاسترداد ، فقد حظي على حقوق باهـظة من الأراضي الجديـدة التي سيكتشفها وينتسب كولومبوس في الواقع إلى حركة حروب الاسترداد نظراً لأنـه من جنوة ، ومقيم في البرتغال ، وبعد ذلك في جنوب أسبانيا ، بمعنى أنه مثل التقاليد التجارية للبحر المتوسط[٥] .

(١) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 27.

(٢) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٣٢ .

(٣) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 28.

جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٣٢ .

(٤) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 28

(٥) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 50.

انطلق كولومبوس من ميناء بالوس (Palos) في أغسطس ١٤٩٢ م (ذي القعدة ٨٩٧ هـ) ، متوجهاً إلى جزر الكناري ، وذلك لأنها تابعة للتاج الأسباني ، وكان يقصد في اتجاه كاثاي (Cathay) وبصفة خاصة مدن كنساي (Kinsai) وزايتون (Zaiton) والتي سبق وأن قرأ عنها في صفحات ماركو بولو ، وفي جزر الكناري أعاد ترتيب السفن وتخزينها ، وأخذ يعدل في نظام أشرعة السفن ، ثم أبحر في ٩ سبتمبر موجهاً دفة سفنه نحو الغرب ، وكان كولومبوس يستخدم الأساليب الفنية البحرية للدرجات الصحيحة لخطوط العرض ، ويحافظ عليها بواسطة الاستمرار على السير نحو الغرب ، حتى يصل الى المكان الذي يرغب فيه وكان محظوظاً للغاية إذ أنه لو أقلع من الآزور البرتغالية فإنه يواجه الرياح الغربية ، ومن المحتمل أن يفشل في ذلك ، بينما من جزر الكناري فإنه كان على حافة الرياح التجارية الشمالية الشرقية[١] .

قضى كولومبوس عشرة أيام بعد مغادرته لجزر الكناري ، وهناك تمكن من رؤية مساحات صغيرة من الأعشاب المائية الخضراء ، وأعتقد أن الأرض قريبة ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا على حافة بحر سارجاسو (Sargasso) وظل الأمل مصاحبهم باستمرار ، لوجود علاقات الأرض من سرطانات البحر ، والأعشاب ، والأغصان الطافية والطيور التي من المفروض أن تعود الى الأرض لتنام في الليل بعد ذلك طالب البحارة كولومبوس بالعودة للوطن ولكن عزيمته واصراره انتصرت ففي ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ م (١٩ ذي الحجة ٨٩٨ هـ) أي بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من مغادرة جزر الكناري شاهدوا الأرض بسان سلفادور في الباهاما ، بعد ذلك ذهب الى الشاطىء حاملاً العلم الملكي الأسباني ، وحرر وثيقة الاستيلاء باسم فرديناند وايزابيلا[٢] . وكانت لحظة مشهورة في تاريخ البشرية[٣] .

(١) Dan O'sullivan = The Age of Discovery P.28

(٢) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 31.

(٣) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 65.

استطاع كولومبوس بالاشارة أن يتفاهم مع الأهالي الذين كانوا يلبسون حلى من الذهب حول أعناقهم وأدرك الأسبان وجود الذهب وسألوا عن مصدره ، فأشار الأهالي لهم على منطقة هسبانيولا (Hispaniola) ومع نهاية الرحلة وصل كولومبوس إلى أقصى الغرب من المنطقة المذكورة ، ونجح في جمع كمية محدودة من الحلى الذهبية عن طريق المقايضة ، وأقنع كولومبوس نفسه أنه كان على عتبة قارة آسيا ، وإن الاعتمادات الضخمة من الذهب ليست بعيدة ، ثم واصلت البعثة سيرها الى كوبا ثم رجعوا إلى هسبانيولا (Hispaniola) ليقوموا برحلة العودة إلى اسبانيا[١] .

وصل كولومبوس بعد ذلك إلى اسبانيا التي استقبلته استقبال الأبطال الغزاة ، وأنعم عليه الملك فرديناند والملكة ايزابيلا ، وإذا كان كولومبوس قد عاد بكمية قليلة من الذهب والجواهر وبعض الطيور وهنود حمر من كوبا إلا أنه كان يحمل الأمل في الاستيلاء على مستعمرة كبيرة وليس لها حدود[٢] .

دل نجاح رحلة كولومبوس الأولى على خطف مرحلة استكشافية من البرتغال وحافزاً لجلب ثروات طائلة للخزائن الأسبانية الخالية ، ودون النظر الى اعتبار آخر فنظرت ايزابيلا لذلك النجاح بأهمية بالغة على أنه من ضمن الحروب الصليبية ضد الإسلام ، وكانت تأمل ايزابيلا من كولومبوس أن يعود عن طريق القدس ، وبذلك تفتح طريقاً آخراً لمهاجمة الدولة العثمانية من الخلف[٣] . بعد أن فشلت عن طريق البحر المتوسط ووسط أوروبا .

عاد كولومبوس الى جزر الهند الغربية وكان قد غادر في سبتمبر عام ١٤٩٣ م (ذو الحجة ٨٩٩ هـ) بأسطول مكون من ١٧ سفينة ، وعلى متنه ١٥٠٠ رجل ، وكانت نية الأسبانيين استعمار هسبانيولا (Hispaniola) ، وأسس كولومبوس مدينة جديدة ، أطلق عليها اسم ايزابيلا بعد أن زالت الحامية التي سبق أن

(١) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 31-32.

(٢) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٣٤ .

(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 49.

وضعها في رحلته الأولى في نافيداد ، ومن مدينة ايزابيلا اكتشف الساحل الجنوبي لكوبا ليكتشف بعدها جامايكا[1] .

لقد أثار هذا الاكتشاف مشكلة سياسية ، فأصدر البابا نتيجة لذلك أربعة مراسم بابوية ، المرسومين الأول والثاني منحت اسبانيا جميع الأراضي المكتشفة ، والتي ستكتشف فيها بعد بواسطة كولومبوس ، أما المرسوم الثالث فقد رسم خطاً فاصلاً من القطب الشمالي الى القطب الجنوبي وكان مقدار هذا الخط ١٠٠ فرسخ ، فكل ما يقع غرب هذا الخط فهو ملك اسبانيا وشرقه ملك البرتغال ، ثم قام ملك البرتغال جون الثاني بترويج اشاعات على أنه سيرسل اسطولاً كبيراً بقيادة الميدا ليؤكد ويثبت حقوقه في الأطلنطي ، وكانت النتيجة اقامة مفاوضات بين اسبانيا والبرتغال والتي تمخضت عنها معاهدة تورديسيلاس (Tordesillas) عام ١٤٩٤ م (٩٠٠ هـ) ، تحرك بموجب المعاهدة خط الحدود (Inter caetera) من ١٠٠ إلى ٢٧٠ فرسخ ، وصدر مرسوم بابوي بالموافقة عليه ، وهذا يعني أن اسبانيا وافقت على ترك الطريق بالكامل الشرقي للهند ، بالاضافة الى ساحل البرازيل[2] .

عاد كولومبوس الى اسبانيا سنة ١٤٩٦ م (٩٠٢ هـ) تاركاً مدينة ايزابيلا لأخيه بارثيليمو (Bartholemw) وذلك للإجابة على الشكاوي من عدم ارتياح الأهالي والمستوطنين في هسبانيولا (Hispaniola) وفي أثناء غياب كولومبوس ، أخلى بارثيليمو بعض المناطق لبناء مدينة جديدة سانت دومينجو ، وكان لدى الملوك الكاثوليك الشك المتزايد في قدرة كولومبوس على ادارة المستعمرات ومع ذلك سمحوا له بفرصة أخرى للاكتشاف ، وأبحر في هذه الرحلة للجنوب عن رحلاته السابقة ، ووصل الى ترينيداد (Trinidad) ، ومنها وصل الى سانت دومينجو ، ليجد بعض المستقرين قد تمردوا على أخيه بارثيليمو ، وليرضي كولومبوس

(١) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 34.

(٢) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 32- 33.

جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٣٥ ـ ٨٦ .

المستقرين وليعوضهم عن نقص الذهب أخذ كولومبوس في منح الأراضي للأسبانيين ، بما في ذلك السكان الهنود الذين يعيشون عليها ، وبذلك وضع الهنود تحت التصرف الكامل لسيدهم الجديد الذي يمكنه أن يستغلهم بأي طريقة وكان هذا مولد نظام ايكوميندا (Ecomienda) الذي انتشر في المكسيك وبيرو لمدة نصف قرن ، في هذا الوقت اكتشف رأس الرجاء الصالح ، ووصلت البرتغال أولاً إلى آسيا وهنا قرر فرديناند وايزابيلا السماح لكولومبوس مرة أخرى بالقيام برحلته الرابعة سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ م) ليرد على نجاح البرتغال ، وبدأ كولومبوس رحلته في البحث عن طريق آسيا عبر جزيرة أرشبيلاقو (Archipelago) التي اكتشفها مؤخراً[١] .

أعتاد أهالي قشتالة على مداومة التقدم العسكري ، والمشاركة في الأراضي الجديدة ، وتوزيع الغنائم وتغيير دين الكفار ، لذلك فقد اشتد الصراع الشديد بين نوعين من التقاليد ، تقاليد التاجر وتقاليد المقاتل ، ونتيجة ذلك الصراع هو هزيمة كولومبوس وأهدافه ، إذ أصبح من المستحيل أن ينافس كولومبوس تلك العادات المزروعة داخل مجتمع الحروب الصليبية ، كما واستحال عليه أن يقف منفرداً ضد سلطة الدولة المتزايدة ، والتي تنبهت الى امكانيات ، وأخطار الانتشار عبر البحار ، وعزمت على السيطرة الكاملة على خط سير الاستعمار .

توفي كولومبوس عام ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) بعد سنتين من وفاة ايزابيلا وأصبح ذكرى من ذكريات الماضي ، بعد أن فشل في استعمار هسبانيولا (Hispaniola) (هايتي - (Haiti) ، وانتشار احتكار تجاري ، بينما اكتشف اراضٍ جديدة هي هندوراس وبرزخ نيكاراغوا ، وقلّت امكانيات العثور على الذهب ، مما زاد من رغبة المهاجرين الى الأراضي الجديدة في أقرب فرصة[٢] .

بدأ نمط الاكتشاف بالتغير منذ عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م إذ تمت السيطرة

(١) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 35- 36.

(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 50- 51.

الأسبـانية التـامة عـلى هسبانيـولا ، لتكـون المنـطلق في الاكتشـافـات البـاقيـة ، والاستيلاء عليها مثل كوبا ، وجزر الأنتيل[١] .

أما ماجلان فقد عاد من الهند بعد مرافقته لحملة فرانسيسكو دي الميدا عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) ، واهتم بفكرة وجود طـريق اسرع الى جـزر التوابـل عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ويرى لتحقيق ذلك اتباع خطة كريستوفر كولومبوس الأصلية والابحار غرباً ، ولكن الملك البرتغالي رفض فكرة ماجـلان لتهمته بـأنه اثناء تطوعه في خدمة القوات البرتغالية في مراكش باع الماشية المستولي عليها ثانية الى العدو ، كما طلب من المسؤولين زيادة مرتبة إلا أنهم رفضوا مطلب ماجلان ، وهذه المواقف قد تكون العوامل في اتخـاذ قراره لمغـادرة البرتغـال ، والبحث عن الخدمة لدى التاج الأسباني ، وقا م بذلك عام (٩٢٣ هـ) ١٥١٧ م .

كان شارل الأول ملك اسبانيا متحمساً لرأي ماجلان ، فوقع ميثاق يعطيه الملكية لجميع الأراضي الجديدة التي من الممكن أن يكتشفها باسم اسبانيا بخلاف جزر الهند نفسهـا وخمس منها تتبـع التاج والاثنتـين الأخيرتـين لماجـلان ، وغادر ماجلان في سبتمبر ٩٢٥ هـ (١٥١٩ م) وبرفقتـه خمس سفن[٢] ليبدأ رحلتـه ، وليثبت للعالم وبطريقة عملية بدوران الكرة الأرضية .

اضـطر شارل الأول ملك اسبـانيا أن يقتـرض من جاكـوب فيجر (Jacob Fugger) رجـل الأعمال الألمـاني ، الذي أقـرضه مبلغ نصف مليـون فلورين ، ليصرفها شارل في حملته الانتخابية عـام ١٥١٩ م (٩٢٥ هـ) ، وأنه بـدون هذا القرض ربما لم يستطيع أن يظفر بلقب الأمبراطورية الرومانية المقدسة[٣] .

في هذا الوقت أقامت الدولة العثمانية نظام بيلر بـك الجزائـر ، وهذا يعني

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 51.

(٢) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 40- 41.

(٣) Koenigsberger and George. L. Mosse: Europe in the sixteenth century P. 50.

خطوة عملية من الدولة العثمانية لإنقاذ مسلمي الأندلس واستردادها ، والجزائر بموقعها الجغرافي تمثل للعثمانيين نقطة هجوم صالحة على اراضي شبه الجزيرة الأيبرية ، وكان على شارل الخامس الاسراع في مواجهة ذلك الخطر القادم من الجنوب وذلك ببناء الاستحكامات وتشييد الأساطيل الحربية لمواجهة العثمانيين في موقعهم الجديد في غرب البحر المتوسط ، فضلاً عن ذلك الانقسام الديني الذي اجتاح أنحاء أوروبا ، بالاضافة الى الحروب الايطالية ، كما وأن الخطر العثماني لشرق القارة الأوروبية ، ازداد ضراوة ، كل ذلك يحتاج إلى أموال طائلة لتغطية نفقات الجنود ، والمهندسين ، والفنيين في بناء السفن ، والبنائين ، وشارل الخامس لا يملك تلك الأموال ، وفضة أوروبا ليست ملكاً له ، وخزانة الأمبراطورية خاوية ، خاصة وأن التحالف التجاري بين البرتغاليين وتجار المانيا ازداد تصاعداً وفي مقابل توابل البرتغال ، التي احتاجت للنحاس الألماني ، والبضائع المعدنية وأهم من ذلك الفضة الموجودةفبمناجم وسط أوروبا ، من أجل ذلك وسع الألمان نشاطهم في التنقيب عن المناجم وحفرها ، وبدأت تمول الرحلات البرتغالية للهند[1] ، بطريق غير مباشر ، وظلت أسبانيا في حاجة للأموال .

قامت المحاولات الأولى للفتح والاستعمار الأسباني سنة ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م ، فأسست بنما وسيطرت اسبانيا على البرزخ ، وأسست أول قاعدة على المحيط الهاديء ، ثم توجهت حملة عسكرية بقيادة هرنان كورتيز (Hernan Cortes) من كوبا[2] ، ونزلت الحملة على ساحل المكسيك ثم بدأ قادة الحملة في الاتصال برؤساء الأزاتكة وأعطوهم بعض الخرز ، وعاد الأزاتكة يحملون هديتهم ، وكانت عبارة عن صناديق ملأى بالذهب من امبراطورهم مونتزوما ، إلا أن كورتيز (Cortes) من كوبا[3] . طلب من الرسل أن يخبروا

(١) Koenigsberger and George. L. Mosse: Europe in the sixteenth century P. 48.

(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 51.

سيدهم الاستمرار في ارسال الذهب ، ثم أسرع كورتيز يجمع جيوشه لمواجهة إحدى القبائل التي كانت قد ثارت على حكم الأزاتكة ، وسار على رأسهم إلى مكسيكو ، وتمكنت جيوشه ومدفعيته من القضاء على جيشٍ من الهنود ، ثم عسكر في النقط الاستراتيجية من مكسيكو ، وحطم تماثيل آلهة الأزاتكة ، ونصب تمثال السيدة العذراء ، وطلب من رئيسهم أن يقسم بولائه ، ثم استولى على أطنان من الذهب من القصر الملكي ، وخضعت امبراطورية الأزاتكة تماماً في مدة سنتين[1] .

كان كورتيز من أوائل الوافدين الى العالم الجديد مع عددٍ كبير ، يتمتع معظمهم بخبرة عسكرية مسبقة ، وينتمون لطبقة الاشراف والطبقات الشعبية ذلك لعدم اسهام طبقة النبلاء في حركة الفتح ، بالإضافة الى استنكارهم لمشاريع الهجرة التي ستبعد العمال عن ممتلكاتهم ، كما أشعل المايورازجو (Mayorozgo) نظام الأرث لأكبر الأبناء من الذكور ـ حافزاً قوياً لدفع الأبناء الصغار من عائلات النبلاء على الهجرة أملاً في إنشاء ثروة في العالم الجديد بعد أن استحال عليهم تحقيق ذلك في أوروبا .

ملأت الأفكار العجيبة رؤوس الفاتحين وتشجعوا وتمثلوا بالأبطال والفرسان العظا م ، واستعدوا لخوض الشدائد والتضحيات ، حينما توغلوا في المستنقعات والأدغال داخل القارة الجديدة ، ووصف كورتيز تلك الروح عندما قال : « إن في مقدورهم تحمل الجوع والشدائد ، وأينما أمرتهم بالتوجه ففي استطاعتي انجاز الانتصارات معهم ، ولم يكفوا عن القتال لحظة واحدة في الاستيلاء على المدن والقلاع مهما زاد الخطر على حياتهم ، أو جُرحوا أو تهلهلت ملابسهم ، كان هؤلاء الرجال محاربين بالسليقة ، أقوياء عازمين ، لا يبالون بالأخطار ، متغطرسين ، سريعي الانفعال مغالين ولا يطيقون شيئاً ، ومن سلالة المجتمع المقاتل والمتنقل ،

(١) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

المقيم على أراضي قشتالة السهلة والجافة خلال العصور السابقة .

كانت متطلبات هذا الجهد المكافأة ، ووصف أحد مرافقي كورتيز المؤرخ (Bernal Diaz del Castillo) الموقف عندما قال : « حضرنا لخدمة الله والملك ، كذلك من أجل الإثراء » حضر الفاتحون الى العالم الجديد سعياً وراء الثراء والمجد والشرف .

حمل كورتيز معه على الدوام صورة العذراء مريم ، وكان يحضر القداس يومياً وكتب على علمه الذي يحمل صورة الصليب العبارة التالية : « أيها الأصدقاء فلنتبع الصليب ونعتمد عليه لينصرنا » وبالرغم من هبوط قيمة هذا الشعار عند العمل به إلا أن الحماس التنصيري للفاتح كان كافياً لرفع أهل اسبانيا الى هذا المناخ الصليبي [1] .

اعتمد بعد ذلك شارل الخامس بعثتين في محاولة لمتابعة ما حققته بعثة ماجلان ، بالاضافة الى ذلك اقامة اتصال دائم للتجارة بين جزر التوابل وأميركا ، وفي عام ١٥٢٥ م (٩٣٢ هـ) أبحرت البعثة بقيادة فرانسيسكو دي لويسا (Fran-saisco de Loaysu) الذي زود بتعليمات في اقامة علاقة تجارية مع مولاكس (Moluccas) فاتجهوا الى مضيق ماجلان ، ثم عبروا الباسفيك ، وفي جوام قامت الحرب مع البرتغاليين ، وأخذت كل قوة في التحالف مع بعض الزعماء والأهالي المحليين ، إلا أن شارلز الخامس غيّر سياسته تجاه الجزر الأسبانية ، نتيجة لضغوط سليمان العظيم على الدانوب ، بالاضافة الى الحروب الفرنسية في ايطاليا فقرر أن يقطع خسارته ، وعقد معاهدة ساراجوس (Saragossa) مع البرتغال في عام ١٥٢٩ م (٩٣٦ هـ) تخلى بموجبها عن مطالبه في جزر التوابل مقابل ثلاثمائة وخمسون ألف دوكة ذهبية[2] .

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 52- 54.

(٢) Dan O'sullivan The Age of Discovery P. 44.

عبـر فـرانسيسكـو بيـزارو (Francisco Pizarro) خط الاستواء ، وعرف أن أحد الملوك والأغنياء يحكم في بيرو ، وعاد الى اسبانيا وشرح الوضع ، وذكر أن بيرو لم تكن إلا ذهباً يستولي عليه ، ونفوساً تقبل الـدخول في المسيحية ، فمنحه البلاط مرسوماً بتعيينه قائداً أعلى وحاكماً عاماً لقشتالة الجديدة والتي ستؤسس فيما بعد ، واستند بيزارو الى هذا المرسوم وأخذ في تجميع الرجـال وتنظيم الجيش[١] ، ثم أبحر من بنما سنة ٩٣٨ هـ (١٥٣١ م) على رأس هؤلاء الجنود ، وبعد أن اجتاز المسافات الطويلة والحواجز الجبلية العالية ، نجحت فرقته من هـزيمة امبـراطوريـة الأنكا العـظيمـة في فتـرة تقـل عن سنتـين ، ومن وسط الأمبراطورية المهزومة انطلق المنتصرون الى قلب قارة أميركـا الجنوبيـة بحثاً عن الجنة (El Dorado)[٢] .

إذا نظرنا الى هذه الاكتشافات بشيء من الاهتمام ، فإن علينا أن نذكر أن عـدداً كبيراً من الـرحالـة أخذتهم جـرأتهم وقوة تحملهم عبـر البحـار والأراضي الشاسعة والمحيطات الواسعة وفوق الجبـال ، ولم يبالـوا بالتعب أو الاخـطار التي تعرضوا لها يوماً بعد يوم ، وخلف هؤلاء كان التمويل المنظم من رجال السيـاسة والدولة علاوة على المهارة الحرفية العالية للعمال والتفكير العميق من العلماء بمقارنة هذه المشاريع بتلك التي تجري في العصر الحاضر قد تبدو بسيطة وسهلة وعفوية ، ولكن بمقارنتها بما كان يجري في ذلك الوقت قبل الاقدام على هـذه المغامـرات ، تبدو اسطورية وجديدة ، وكانت المحاولات التي ظهرت قبل ذلك التـاريخ تبـدو وكأنها زوائد على الحياة الأوروبية[٣] .

جاءت المرحلة الثانية للفتح بعد ذلك ،وتمثل في نقل هيئات قشتالة وعاداتهـا المعيشية الى القارة الجديدة ، وأثنـاء فترة الانتقـال تعدلت الهيئـات والعادات الى

(١) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 51.

(٣) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 59.

درجة الانقلاب الكامل في بعض الأحيان ، وكان الواجب الأول لقائد الحملة العسكرية مكافأة اتباعه قبل قيام الرحلة ، وتم عقد اتفاقيات رسمية بشأن توزيع الغنائم ، وتخصيص جزء منها للتاج ، على أن يوزع الباقي بنسب محددة حسب رتبة ومكانة المشتركين في الحملة ، وكما حدث في حروب الاسترداد في شبه الجزيرة الأيبرية وشمال افريقيا ، تم توزيع الدفعة الأولى بعد الفتح مباشرة وفقاً لقواعد ونظم مؤقتة ، على أن تحدد نسبة التقسيم النهائية ومسح الأراضي بعد الاحتلال النهائي ، ومن الناحية القانونية عند وصول الأسبان كان الهنود هم أصحاب الأراضي المملوكة لهم والتي يقومون بزراعتها ، أما بقية الأراضي والتربة السفلية فهي ملك للدولة ، وكان المفروض أن يوزع التاج هذه الأراضي على الغزاة مكافأة على خدماتهم ، وفقاً لما سبق وأن عملت به في قشتالة أبان العصور السابقة ، لكن قسمت الأراضي على الهيئات والأشخاص .

وكانت المدن هي أهم الوكالات لتوزيع الأراضي المستولى عليها من العرب اثناء حروب الاسترداد وتكررت الحالة على نفس النمط بعد فتح أميركا ، بضمان المكاسب على قاعدة ثابتة ، وأسس القواد في العالم الجديد ، مدينة معينة ، ثم ضمنوا انضمامها للتاج من الناحية القانونية ، ثم عينوا أتباعهم في المناصب الرئيسية ، أما من الناحية الانشائية كانت تلك المدن مشابهة لقشتالة في العصور السابقة[١] .

حلت السلطة الملكية مع الزمن محل أهواء الغزاة ، وإن كانت العملية قد تمت على مراحل ، وانشأت هذه السلطة الملكية حكومة مباشرة ، كانت تباشرها من اسبانيا ، وتنفذ تعليماتها في العالم الجديد ، وكانت الهيئات المركزية في اسبانيا تتمثل في مجلس الهند الذي يعاون الملك ، مثل مجلس قشتالة وأراغون ومجلس الحرب ، وحل هذا المجلس ـ مجلس الهند ـ محل المراقبة العامة لشؤون الهند ، والذي أُنشيء بعد رحلة كولومبوس الأولى ، وكان هذا المجلس يخضع لمستشار

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 55- 56.

أعلى لشؤون الهند ، وكان يعد القوانين مثل محكمة الاستئناف ويتدخل في القرارات التي تصدرها الكنيسة المتعلقة بالعالم الجديد ، فكانت له في واقع الأمر جميع السلطات التشريعية والقضائية وحتى الدينية ، أما السلطة التنفيذية في العالم الجديد ، فقد نظمت على أساس حكم الأنتيامنتو أو حكم البلديات في قشتالة والذي يتمثل في انشاء مجلس خاص في كل اقليم ، يتكون من ثلاثة أو أربعة أشخاص ويجتمع في أول الأمر كمحكمة ، ثم أصبح يجتمع بعد ذلك كمجلس ، وكان الحاكم هو الذي يرأسه أو يستشيره وكانت أعلى المناصب نائب الملك ، وكانا نائبين الأول في المكسيك والآخر في ليما ، وكان كل واحد يسيطر على نصف العالم الجديد ما عدا الأنتيل وهافانا فقد كانت لهما قيادة عامة خاصة بهما ، ونائبي الملك يعينهما الملك نفسه ، فهما يمثلانه ، ويسيطران على شؤون الحرب ، وكان نائبي الملك يعينان كبار الموظفين ويشرفان على الشؤون المالية ويراقبان الكنيسة[1] .

كان لذلك التوسع الأسباني في أوروبا والعالم الجديد نتائج اقتصادية غيرت من ظروف المعيشة لكل طبقات الشعب ، البعض منهم ارتقي مستوى معيشته إلى الأحسن ، والبعض إلى الأسوأ ، حتى النظم الاقتصادية نفسها شملها التغيير ، وبدأ تيار التغيير يغزو الحياة الاقتصادية ، كما حدث للحياة الثقافية والسياسية من قبل ، بعض هذه التأثيرات أظهرت في الحال وبعضها ظهر بعد وقت طويل ، ومن الآثار التي ظهرت متأخرة، الزيادة في عدد السكان في أوروبا ، وهذه الزيادة لا يمكن تفسيرها سوى ارتفاع مستوى المعيشة ، وازدياد الرفاهية نتيجة للتوسع ووجود اسباب للرزق كثيرة وبالتالي بدأت الزيادة في عدد السكان ، كما ظهرت الحاجة الملحة للأيدي العاملة التي تستخدم في نشاطات أخرى غير الزراعة والصناعة . الجيش مثلاً كان حجمه يزداد ، لتعدد الجبهات الحربية ، والأخطار الاسلامية ازدادت ، فأضطرت الدول المعنية لاستئجار فرق عسكرية من المشاة ، من سويسرا وغيرها ، حيث كان عدد الرجال زائد عن حاجة الأرض الزراعية ،

(١) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

لذلك كان عدد منهم لا يجد عملاً فيتجه للانخراط في العسكرية .

وكانت الزيادة في عدد السكان مستحبة لزيادة الانتاج ، وبالتالي أصبحت القارة غنية ، وهذا الغنى يوحي الينا بالتغيير الكامل في النظام الاقتصادي فهناك أنظمة كانت تستعمل في بعض نواحي الحياة العملية فقط ، فتوسع نطاق عملها ، وهذه الأنظمة كان يطلق عليها الرأسمالية ، والتي بدأت منذ القرن الثاني عشر ثم انتشرت انتشاراً بطيئاً حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وهذه الفترة كان يطلق عليها الرأسمالية المبكرة ، والرأسمالية التجارية تعني نظام النشاط الاقتصادي تحت ادارة وإرشاد مالك رأس المال(1) .

نشطت الرأسمالية التجارية في أوروبا في مجال التنقيب عن الثروات المعدنية وعلى الأخص الذهب والفضة فوجدت الفضة في مناطق أوروبا الشرقية ، ولكن تكلفة أعمال المناجم واستخلاص الفضة كانت مرتفعة وتحتاج إلى أموالٍ طائلة ، وفي عام ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م) اعتمد دوق ساكسونيا (Duke of Saxon) استخدام الرصاص في استخلاص الفضة من المواد الخام ، مما أدى إلى زيادة الانتاج الألماني بالتدريج ، ولم تستمر قيمة الفضة الأوروبية مدة طويلة ، إذ هبطت أهميتها عندما شحن البلاتين - أو الذهب الأبيض - من أميركا الأسبانية ، ثم حدث التغيير الكبير عندما اكتُشف جبل من الفضة في بوتوس (Potosi) التي أطلق عليها الأسبان بيرو(2) للدلالة على الثروة الكبيرة التي تكمن في ذلك الجبل ، ولم تكن الفضة المستخرجة نقية ، وكانوا يضطرون إلى تكسيره وغسله ثم تنقيته ، وتمكن رجال الكيمياء من تحسين طرق فصل الشوائب عن الفضة ، وذلك بمعالجتها بالزئبق ووجد الأسبانيون لحسن حظهم مناجم للزئبق في بيرو نفسها ، فتزايدت كميات الانتاج الاميركية بشكلٍ كبير(3) .

(1) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 71, 62, 73.

(2) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbon Europe P. 53.

(3) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٦٢ .
Sir George Clark: Early Modern Europe P. 75.

كانت تلك المناجم المكتشفة في أميركا الجنوبية ، وكانت المناجم ملكاً للتاج ، الذي يمنحها بدوره للمستغلين والذين يتعهدون بتسليم الملك جزءاً من الانتاج ، يصل الى النصف أو الثلث في أول الأمر ، ثم إلى الخمس فيما بعد وكان هذا المعدن ينقل عن طريق البحر من بيرو الى بنما ثم على ظهور البغال لعبور البرزخ ، ولشحنه من جديد على سفن اسبانية متسعة وبطيئة ، وحقق الانتاج الاميركي من المعادن النفيسة آمال اسبانيا والمستعمرات في وقتٍ قصير ، وكان الانتاج يمثل ما بين خمسة وستة أطنان من الذهب وثلاثمائة طن من الفضة في كل عام[١] .

كانت معظم تلك الفضة القادمة من سيفيل (Seville) للتاج الأسباني ، فتصدر في نفس الوقت لتسديد الديون للبنوك في المانيا وجنوا والتي سبق وأن استدانتها الحكومة الأسبانية اثناء حروب الاسترداد ، وفي مواجهة الخطر العثماني في شرق أوروبا ، وغرب البحر المتوسط ، ولتستمر عجلة الحروب الأسبانية مع العثمانيين ، ولرفع معنوية الجنود الأسبان فقد انفق التخاج الأسباني كذلك جزء من تلك الفضة على القوات الأسبانية المشاركة في مواجهة الدولة العثمانية ، وبالتالي فإن اسبانيا كانت لا تزال تعاني من نقصٍ في الذهب والفضة[٢] . لتغطية نفقات الحرب مع العثمانيين ، وليحقق شارل الخامس أهدافه في البحر المتوسط .

لم تكن مناطق السيادة العثمانية أغنى من فرنسا وأسبانيا وايطاليا والمانيا ، ولكن مع ذلك كانت موارد السلطان العثماني لا تقل عن أي حاكم أوروبي ، وكان يقدر دخل السلطان السنوي بأثني عشر مليون دوكة ، أما شارل الخامس فيقدر بستة ملايين ، وبناء عليه لا غرابة في الانتصارات العثمانية على المسيحيين ، فالسلطان العثماني في القسطنطنية يملك ميكانيكية عسكرية تفوق أي شيء آخر في

(١) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) Koenigsberger and George. L. Mosse: Europe in the sixteenth century P. 27-28.

أوروبا الغربية ، بالاضافة الى أن الجيوش العثمانية كانت أكبر ، وإمدادهم ومرتباتهم أفضل ، وكانت تحركاتهم أكثر سهولة ، وفوق ذلك الدين الذي زودهم بقوة أكثر من القومية والوطنية عند خصومهم[1] .

كان على الحكومة الأسبانية تزويد جميع الاحتياجات المعيشية ، للمستقرين في أميركا الجنوبية ، من مواد غذائية وخيول وملابس وأسلحة ، وعمال للعمل في المزارع ، وكانت قشتالة غير قادرة على توريد البضائع المصنعة إلى المستعمرات في أميركا ، وذلك بسبب أعبائها المالية الضخمة على الحكومة ، فتولى الهولنديون والألمان وتجار جنوا أغلب تلك التجارة مع المستعمرات ، ولو أن أغلبها تحت اسم من شركات قشتالة[2] التي كانت غير قادرة على صنعها وتوريدها للمستعمرات[3] . ونتيجة لذلك فإن القسم الأكبر من الفضة الاميركية مرت ببساطة عبر اسبانيا لتدفع لقاء البضائع المشحونة إلى المستعمرات .

ازداد احتياج الحكومة الأسباني وعلى رأسها شارل الخامس للذهب والفضة الاميركية ، لمواجهة الخطر العثماني الذي أخذ يرنو ببصره تجاه الأندلس لاستردادها ، ولتوفير الذهب والفضة للحكومة الأسبانية واحتكر الأسبان التجارة مع مملكة قشتالة ، واتباع الحكام الأسبان ، وذلك بحجة أن رجال قشتالة سبق وأن قاموا بتمويل البعثات الاستكشافية ، وبناء عليه فالتاج الأسباني يمكنه أن يحمي ويتحكم في التجارة ويطالب بنصيبه في (quint) أو ٢٠ ٪ من جميع شحنات الفضة ، وقد ساعد التاج في تصدير الفضة الخاصة بالتجار والرجال الرسميين للتاج[4] . وبذلك خفضت اسبانيا من حجم وارداتها من أوروبا ، ثم تمكن الأسبانيون بعد ذلك من القيام بعمليات الاستقلال الزراعي في العالم الجديد ،

(١) A. J. Grant: A History of Europe from 1494 to 1610 P. P. 47- 48.

(٢) A. J. Grant: A History of Europe from 1494/1610 P. 212.

(٣) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٥٠ .

(٤) Koenigsberger and George. L. Mosse: Europe in the sixteenth century P. 48.

فأخذت تدر عليهم الكثير من المحاصيل والمنتجات الزراعية[١] مثل السكر والقطن والكاكاو والطباق ، وكانت كلها ترسل الى اسبانيا التي تقوم بدورها في تموين مستعمراتها[٢] ، لذلك كان يرى شارل الخامس في أميركا وسيلة أكثر من كونها غاية ، وسيلة لاحصول على الذهب ، وبالذهب كان يمكنه أن يسيطر على أوروبا ويحكمها[٣] .

كان المفروض أن يكون تدفق الثروة الأميركية في القرن السادس عشر قد شجع وساعد التنمية الاقتصادية الكبيرة ، ولكن الواقع أن عبء الضرائب حرم التجار وأصحاب المصانع من العملاء وأعاق الاستثمار في مضاربات جديدة ، ومن الناحية النظرية كانت اسبانيا أغنى قوة أوروبية ، ولكن ثروتها كانت رخاء عقيماً يقتصر على الطبقات الغير المنتجة[٤] التي بدورها تحكمت في الاقتصاد وأخذت تصرف بسخاء على بقية الطبقات في أنحاء أوروبا حتى أنه صار من السهل الحصول على النقود المعدنية ، فآرتفعت الأسعار أرتفاعاً كبيراً ، وأطلق عليه ثورة الأسعار ، التي بدأت أولاً في اسبانيا لأنها كانت أول محطة للفضة المستوردة[٥] . ثم انتشرت الى ايطاليا وفرنسا ثم أنحاء أوروبا حتى وصلت إلى بولندا وروسيا حتى الدولة العثمانية ، عندما كانوا يستبدلون بضائعهم مقابل الفضة[٦] .

كان ارتفاع الأسعار شراً لا يمكن تخفيفه والتفاوت في مستوى الأسعار بين ناحية من أوروبا ، وناحية أخرى كان مثيراً للتجارة ، والتجار والمزارعين

(١) جلال يحيى : العالم العربي الحديث ، ص ٢٢ .
(٢) جلال يحيى ، جاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٢٢ .
(٣) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٦٧ .
(٤) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 126..
(٥) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 75.
(٦) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٩١ .

المستأجرين بعقود إيجار طويلة ومخفضة ، كونوا ثروتهم ، والأشخاص محدودي الدخل عانوا صعوبة كبيرة ، ولم يكن العمال الذين يتقاضون أجوراً بأسعد حالاً من هؤلاء ، لأنه بالرغم من إرتفاع أجورهم فإن الأسعار ارتفعت هي الأخرى ، وكانت الفجوة عريضة بين الأجور والأسعار ، وعلى قدرٍ كبير من عدم النظام في القرن السادس عشر(١) .

ساهمت ثورة الأسعار الناتجة عن تدفق سبائك الذهب والفضة من المستعمرات الأسبانية في أميركا الجنوبية ، بالاضافة الى الاضطهاد الديني وطلبات السوق المتزايدة لمهارات الطباعة وتجارة السفن والحاجة المتزايدة للحصول على مدافع في عصر الحروب الكبيرة ، ساهمت هذه العناصر جميعاً في قيام طبقة كبيرة من المتشردين والمنبوذين اجتماعياً ، والذين كان لديهم استعداد نفسي لاجتياز حدود العنصرية الاجتماعية والدينية عند الضرورة ، ساعين لمصلحتهم الشخصية والسلطة ، فاجتذب العالم العثماني هؤلاء الأشخاص اجتذاباً كبيراً ، فأظهر العثمانيون لهم التسامح الديني الى أبعد الحدود بخلاف ما عملت به جميع الحكومات الأوروبية(٢) .

ومهما يكن من أمر فإن تدفق الذهب والفضة وغيرهما من مواردااقتصادية قد جعل من العسكرية حرفة وطنية لا تستطيع الحكومة معها تسريح جيوشها لأنها لن تجد أمامها عملاً تقوم به(٣) . مما يؤدي إلى البطالة والتي ستؤدي إلى إخلال الأمن الداخلي ، فمن الأصلح للدولة الإبقاء على تلك الجيوش وتوجيهها إلى العالم الاسلامي المتمثل في الدولة العثمانية ، في مختلف الجبهات ، لتحقيق هدف المسيحية وهو الوصول الى الأماكن المقدسة الاسلامية والقضاء على الاسلام .

(١) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbon Europe P. 54.

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 154.

(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة عام ، ص ٢٢ .

هذه هي الحالة في الأمبراطورية الرومانية المقدسة تحت حكم شارل الخامس والتي كـان على الـدولة العثمـانية مـواجهتها إذا شـاءت أن تخـطو نحـو استـرداد الأندلس .

كانت المسيحية في أوروبا كلمة تُعبر عن المثل العليا وصفات أكبر من التعبير عن الحقائق[١] ، وكانت الكنيسة في نظر المسيحيين المتدينين صورة للاخلاص والصفاء ، والامانة فغدت الكنيسة وعلى رأسها البابوية سيدة أوروبا والمتحكمة في كل المجالات ، لكن فشل الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها أفقد الكنيسة الكثير من قدراتها وطاقاتها[٢] . يُضاف الى هذا أن البابا جمع بين صفته الدينية كرئيس للكنيسة المسيحية وصفة أخرى اكتسبها كحاكم دنيوي لا يقل عن الملوك والحكام ، فصار يحكم ولايته حكماً زمنياً ، وله بلاط يُنافس بلاط الملوك والأمراء في الترف والانحراف ، وفقدت البابوية هيبتها في القرن الرابع عشر وخاصة في الفترة ما بين عامي ٧٠٥ ، ٧٧٩ هـ (١٣٠٥ ، ١٣٧٧ م) نتيجة للأسر البابوي عندما انتخب مجلس الكرادلة رئيس أساقفة بوردو بفرنسا ليعتلي عرش البابوية باسم كلمنت الخامس ، ورأى البابا الجديد أن يبقى في فرنسا وتمت مراسم تولية البابوية في ليون بدلاً من روما ، وجعل مدينة افنيون على نهر الرون مقراً جديداً للبابوية[٣] ، والتي استمرت هناك اثنين وسبعين سنة ، وكانت البابوية شبه اسيرة بحكم خضوعها للملكية الفرنسية ، على الرغم من شراء كلمنت السادس مدينة

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 147.

(٢) محمد مظفر الأدهيمي : دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٤٤ .

(٣) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٦٦ .

افنيون سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ، وصارت ملكاً للبابوية وتعاقب على البابوية في هذا المقر ستة بابوات ، حتى عاد البابا جريجوري الحادي عشر الى روما سنة ١٣٧٧ م ، (٧٩٩ هـ) وبذلك تنتهي فترة الأسر البابوي[١] .

ازداد انهيار المركز البابوي في عام ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) عندما حدث الانقسام البابوي العظيم (The Great Papal Schism) (١٣٧٨ ـ ١٤١٧ م ، ٧٨٠ ـ ٨٢٠ هـ) فقد جرى انقسام الكرادلة ، وصار كل فريق يعمد الى تسفيه منافسه ويطعن فيه وفي صلاحيته لتولي كرسي البابوية ، بل أن بعضهم لم يتورع عن اصدار قرار الحرمان ضد البابا الآخر ، فآهتزت في نظر المسيحيين الصورة المضيئة الطاهرة التي كانت قد تمثلت في أذهانهم عن البابوية في عصورها الأولى ، وكان أيضاً من الأسباب التي أدت أيضاً إلى فقدان الكنيسة هيبتها المواقف الصلبة التي اتخذتها المجامع الكنسية من البابوية ، وما كشفت عنه مناقشات هذه المجامع من تكالب كبار رجال الدين على المناصب وتمسكهم بها ، والبعد عن التضحية فتكشفت للعيان حقيقتهم[٢] . ومن تلك المجامع ، المجمع الكنيسي في كونستاس (Constance) ١٤١٣ ـ ١٤١٧ م (٨١٦ ـ ٨٢٠ هـ) الذي قرر حسم المشكلة والقضاء على الإنقسام بانتخاب رجل واحد هو البابا مارتن الخامس (Martin V) على أن تكون روما وحدها مقر البابوية وهكذا مرت البابوية في ظروف دقيقة أفقدتها هيبتها وعظمتها القديمة وزادها انهياراً أن البابوات صاروا جماعة من المترفين الذين لا يعنيهم أمر الكنيسة بقدر ما يعنيهم جمع المال لتحقيق مصالحهم الخاصة ومصالح أقاربهم والمحيطين بهم[٣] عن طريق تجارة الحصول على حق الصفح وصكوك الغفران ، وكان البابا (Bonsiface) الثامن قد وضع مذهب توافر قربان المسيح ،

(١) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٢٩ .

(٢) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٦٦ .

عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

(٣) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا ص ٦٦ .

وإن الكنيسة لها الحق في توزيعه على هيئة هبة تمنح الصفح الكامل أو الجزئي على العقوبة الواقعة على ذنب الكفر أو ارتكاب خطيئة[١] .

كانت البلقان ميداناً لانتشار المذاهب والعقائد لفترة زمنية طويلة ، حيث قامت فيها عقيدة (Bogomils) في البوسنة ومولدافيا والصرب ومقدونيا وبخلاف تلك العقائد مع السلطات الكاثوليكية الرومانية ، ساهمت في تسهيل مهمة الفتوحات العثمانية[٢] في الشرق بهدف اختراق أوروبا والوصول الى الأندلس ، قام عدد من المفكرين والمصلحين بدراسة الموقف ، وكان ذلك نذيراً بوجود معارضة قوية لما وصلت إليه حالة الكنيسة الكاثوليكية والمطالبة بالاصلاح لتوحيد موقفهم ومواجهة الدولة العثمانية ، فطالب المصلحون الكنيسة بازالة مفاسدها وتنظيم شؤونها على ايدي رجالها أي تصلح الكنيسة نفسها بنفسها ، وبذلك يأتي الاصلاح من الداخل وكان كبار المنادين لذلك يوحنا رخلن (Reuchlin) وارزم (ارزمس Erusmus) ، وقد أثار رخلن بكتاباته وانتقاداته تفكير المثقفين ، فكون له اتباع وتلاميذ يبحثون في مساوىء الكنيسة ، وينتقدون ما تفشى على يد الكنيسة من بدع وخرافات ، ونجحوا في اقناع الرأي العام بفكرة الاصلاح . أما أرزم فقد سعى في تأليب الرأي العام ضد البابوية ومفاسدها بما كان ينشر على الناس من آراء سديدة وأفكار متحررة ، وأهم عمل أدبي قام به هو نشره ترجمة الكتاب المقدس اليوناني القديم[٣] . وساعد ذلك ظهور الطباعة فظهرت تغييرات كبيرة ، فبعد ترجمة الانجيل الى اللغات العامية ، طبعت بعدد من اللغات الأوروبية ، وتم بذل مجهود لغوي كبير جداً بالنسبة للإنجيل الأصلي المكتوب باللغة العبرية والاغريقية للحصول على النص والمعنى السليمين ، فظهرت خلافات جوهرية مرتبطة بذلك ، شارك فيها جمهور من المصلحين[٤] ، ولكن فشلت الكنيسة في

(١) J. M. Thompson: Lectures on Foreign History P. 49.

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 102.

(٣) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(٤) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 39.

الاستجابة لاصلاح الداخل ، فقام الحكام الأقوياء في كل مكان خاصة في فرنسا واسبانيا بربط علاقاتهم بالكنيسة ، وكانت هناك محاولات من قبلهم في دفع عجلة الاصلاح وإذا كان الحكام يغريهم الجشع وحب المال ، فيتأثر بالوضع قوة وثـروة المراكز الدينية ، وظهر أن الكنيسة مهددة باتجاهات جديدة ، البعض يخمد والآخر يساعد في انتشار الاتجاهات الأخرى ، وأدى عدم الاستقرار في العقائد القديمة إلى تسامح بعض الناس وإلى ازعاج البعض الآخر ، وذلك عندما رأوا الفسق منتشر بـين رجال الـدين ، وكلما انغمس رجال الـدين في الفسق والانحـلال كلما قلّت فرصهم في الحفاظ على ممتلكاتهم ، وانتشر ذلك إلى ملاك الأرض الـذين سرقـوا الأرض المخصصة للكنيسة ، وأعتبروا أنفسهم أنهم لهم الحق في اختيار الكهنة ، وقام البابوات فيما بينهم بتوزيع ومنح الأديرة ، والكنائس لرجال الدولـة والحكام الذين حولوها إلى جامعات تنشر العلم والمعرفة بين كافة طبقات الشعب في كـل أنحاء اوروبا[1] ، تلك كانت هي الحالة حين كـان الاسلام يـدق أبواب شـرقي أوروبا .

لم ير القرن السادس عشر أي تحسن في الوضع الديني في أوروبا ، واندمجت الانقسامات السياسية في صراعات اجتماعية ، وتطور وضع الفلاحين الهنغاريين في سنة ١٥١٤ م (٩٢١ هـ) من حرب صليبية ضد العثمانيين الى تمرد ضد الوضع الاجتماعي لهم ، وكتب سفير البابا بشـأن ذلك الـوضع وحـالة المملكـة « تسود الكراهية والاحتجاج بين الضياع ، والرعايا سوف يقومون بثورة مخيفة ضد النبلاء إذ وعـدهم السلطان بالحـرية » . وكـان السكان من طبقـة الفلاحـين في أوروبـا الدانوبية وفي مستعمرات البحر المتوسط قد نظروا إلى العثمانيين كمحررين ، وكما توضح الأمثلة الأخيرة ، فإن الخلافات الاجتماعية والسياسية تدعمت بالنـزعات الطائفية المختلفة ، وأنفجر الهجوم العثماني بالقرن السادس عشر على أوروبا التي اهتـزت بسبب أزمة الاصـلاح الديني ، واغتنمت خـلاف البابـوات مع بعضهم

(١) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 40.

للدفاع عن المسيحية كوسيلة لإعادة الوحدة المسيحية ، لكن صار الاصلاح الديني متشابكاً للغاية[١] ، فبينما كان الاسلام يقترب خطره ، كان المسيحيون ينقسمون على أنفسهم ويحاربون بعضهم بقسوة وعنف عن نقط غامضة من المذهب ، بينما كانت العقيدة المسيحية تحت الخطر الاسلامي[٢] . وقد التزمت أوروبا الغربية بالحياد بسبب العوامل الجغرافية ، هذا وعندما ازدادت كثافة الهجمات العثمانية شراسة اقترح رجال السياسة البولنديين والهابسبرج بأن تتولى حكومتيهما الدفاع عن الأقاليم الأوروبية الشرقية وبصفة خاصة القيم الأوروبية والديانة المسيحية من الهجوم الاسلامي وطابق هذا التصور الرأي العام في الدوائر الثقافية الغربية[٣] .

كانت المعتقدات الدينية وفلسفة اللاهوت في المانيا أرسخ من ايطاليا مقر البابوية وكان في المانيا عدد من المفكرين تعرضوا للبابوية بالنقد اللاذع على عيوبها ومثالبها ، المالية والأدبية وساعد على نشر آرائهم وجود الطباعة في شمال المانيا مما سهل على الطبقة الألمانية المثقفة الاطلاع على أوجه النقد الموجهة الى الكنيسة ومشاركة كبار الكتّاب آرائهم وفلسفتهم الدينية[٤] ، والذين كانوا متجانسين الى درجة جعلت زد فعلهم واحد بالنسبة للتغيير السياسي والديني سواء كانوا من نفس المقاطعة أو من أخرى[٥] ، وقد كان للموقف السياسي في المانيا في ذلك الحين أثره الواضح في قيام ثورة دينية فقد كانت المانيا مقسمة الى مئات من الولايات شبه المستقلة لا يجمعها سوى انتمائها الأسمي لحكم أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة الذي لا يملك ولا يحكم[٦] . وكانت اللغة الألمانية هي السائدة في أوروبا ، إذ كان المتحدثين بتلك اللغة يفوق عدد سكان أوروبا وكان القسم الألماني من

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 101- 102.

(٢) A. J. Grant: A History of Europe from/1610 P. 207.

(٣) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 148.

(٤) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٥) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 41.

(٦) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٦٨ .

الأمبراطورية الرومانية المقدسة عدد سكانه يفوق عدد سكان فرنسا[١] .

احتفظت الكنيسة الرومانية بقوتها وسلطانها في المانيا ، وذلك بسبب ضعف الأمبراطورية وتفرق كلمة الحكام الاقطاعيين وغالى بعض البابوات في التحكم وفرض الإرادة على الشعب الألماني ، وأرسلوا إليهم أتباعهم من رجال الدين يجمعون المال بكافة السبل ، وارتكبت رسل البابا جرائم الرشوة والابتزاز ، فكانوا يقبلون المال من المرشحين لوظائف الكنيسة ، لينفقوها بعد ذلك لتحقيق أطماعهم السياسية ، والتشبه بالملوك والأمراء في الاستمتاع بالحياة المرفهة وكان أسوأ مظاهر ابتزاز الأموال هو التوسع في بيع صكوك الغفران مما أثار المعارضة والجدل[٢] .

وصل مدينة وتنبرج (Wittenberg) الألمانية سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) ، راهب يدعى حنا تتزل (Jean Tetzel) من طائفة الدومنيكان ، وذلك لبيع صكوك الغفران ، وتحمس تتزل في بيع الصكوك فوقع في عدة مآخذ ، فأمسك الصكوك في يده ولوح بها ، وقال مخاطباً الفلاحين السذج الذين التفوا حوله : أنهم إذا ما أسهموا عن طواعية واشتروا صكوك الغفران ، فإن كل تلال مدينة أنابورج (Saint Annaburt) في مقاطعة سكسونيا ، ستتحول إلى كتلة هائلة من فضة صافية ، وبالغ في قوله حين خاطب الجماهير أن الرجل إذا ارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها فهذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل[٣] .

أثارت هذه التصريحات مارتن لوثر الذي يعتقد أن الغفران لا يأتي إلا عن طريق الإيمان برحمة الله ، وليس من حق الكنيسة أو رجال الدين أن يمنحونه للناس لأنه من هبة الله للتائبين ، واستغل لوثر فرصة اجتماع الناس في كنيسة وتنبرج وعلق على باب الكنيسة احتجاجاً يتألف من خمسة وتسعين بنداً ، ضمنها آراءه

(١) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 40.

(٢) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٧٠ .

(٣) عبد العزيز الشناوي :وروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

ومواقفه من قضية صكوك الغفران[1] ، كان ذلك بداية للثورة اللوثرية والتي قادت لتأسيس كنيسة بروتستانتية .

كان لوثر رجلاً مبشراً ذو قوة هائلة للإقناع والتصديق ، كان يصدقها ويؤمن بها ، لم يكن يعلم بأجزاء من الدين وأجزاء أخرى يكرهها ويحط من قدرها درب عقله على مميزات العصور الوسطى والجدل والنزاع اللاهوتي ، كان لوثر يستطيع فهم طبيعة البشر بسرعة فائقة ، ولكنه لا يعلم بنتائج كلماته ، وأفعاله مما أدى إلى انتقاله من مكانٍ لآخر ، وحاول لوثر أن يجد ما يؤيد عقائده وآرائه في كتابات القرن السابق[2] .

قامت محاولة لإلقاء القبض على لوثر وترحيله إلى روما ، وأخفقت هذه المحاولة لتدخل فردريك ناخب سكسونيا الذي لم يقبل بمحاكمة أحد من رعاياه في روما ، رأى البابا أن يسلك مع لوثر طريق الإقناع فأرسل البابا إليه الكاردينال كاجيتان (Cajetain) الذي حاول اقناعه بأخطائه في مهاجمة الكنيسة وأجاب لوثر بأنه على استعداد لتحكيم إحدى الجامعات الكبرى ، ومضت سنة ٩٢٤ هـ (١٥١٨ م) في محاولات ومفاوضات للتوفيق بين لوثر وبين كنيسة روما ، ولم تسفر عن نجاح ، وفي السنة التالية ظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن الانفصال عن كنيسة روما أصبح أمراً لا مفر منه ، ونظمت مناظرة بين لوثر وبين حنا ايك (Jean Ech) أحد كبار أنصار الكنيسة الكاثوليكية وأخيرت مدينة ليبزيج مقراً للمناظرة ، وجرت المناقشة حول نقطتين أساسيتين رئاسة البابا في روما ، والمدى الذي تصل إليه سلطات البابا الروحية والمدنية على العالم المسيحي ، وصرح لوثر بأن صكوك الغفران والبابوية كلها بدع مستحدثة وذكر أن المجامع الكنيسية والمجالس الدينية غير معصومة عن الخطأ ، وحاول ايك استدراج لوثر وتشبيهه بآراء حنا هس (Jean Huss) الذي حوكم أمام مجمع كنيسي وأدين بالهرطقة وحُكم عليه بالحرق ، لكن

(١) محمد مظفر الأدهمي : دراسات في التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٤٦ .

(٢) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 44.

لوثر فوت عليهم ذلك[1] .

لاقت آراء لوثر رضاء الكثيرين ، وألتف حوله المتحمسون في المانيا والساخطون على تصرفات الكنيسة في روما وتحكم البابا في رقاب العباد وادعائه بأنه واسطة الغفران عند الله ، وعبأ لوثر في ٩٢٥ ـ ٩٢٦ هـ (١٥١٩ ـ ١٥٢٠ م) الرأي العام باصدار سلسلة من الكتب الدينية التي ضمنها تفسير العقيدة الجديدة وأوضح أن ادعاء الأكليروس بأنهم أصحاب الكلمة وأنهم يختلفون عن عامة الناس محض ادعاء كاذب[2] . وقد بلغت المؤلفات الألمانية المطبوعة في عام ١٥١٨ م (٩٢٤ هـ) شاملة مؤلفات لوثر مائة وخمسين ، زاد الى ستة أضعاف بعد مرور ثلاث سنوات . وفي بداية عام ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م نشر لوثر مؤلفاته اللاهوتية الرئيسية والتي ساهمت في النمو الثقافي السريع ، ويذكر فوربين (Forben) ناشر أعمال لوثر في مدينة بازل (Bazel) أنه في ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م ، أرسل ستمائة نسخة من مؤلفاته الأخيرة إلى فرنسا وأسبانيا علاوة الى كافة أرجاء إيطاليا وانكلترا وهولندا ، وأنها كانت تباع كذلك في باريس ويقرأها الطلبة في السوربون ونفذت النسخ عن آخرها ، ويضيف فوربين (Forben) أنه لم يصادف كتاب يُباع بمثل هذه السرعة ، وكانت الثقافة في ذلك الحين تنحصر في اللغة اللاتينية التي تميزت برواج واسع ، وحظي لوثر بجمهور كبير من القراء ليس له مثيل حتى في القرون اللاحقة ولم يكن الحال مجرد طلب كتب لوثر للعناية باللاهوت لضمان رواج مؤلفات لوثر ، ولكن أسلوب كتابته ساعد ذلك[3] .

اتخذ لوثر بعد ذلك خطوات عملية لتنفيذ الاصلاح الديني فوجه في عام ١٥١٩ م (٩٢٥ هـ) الدعوة الى حكام الولايات الألمانية من الأمراء كي يتزعموا الحركة الاصلاحية ، وبنى تلك الدعوة على أساس أن رجال الدين خاضعون

(١) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٢) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٣) J. M. Thompson: Lectures on Foreign History P. 54.

للسلطة الزمنية وإن البابا ليس وحده صاحب الحق في احتكار الكتاب المقدس[1] .

مثل ما دعى لوثر الحكومة للتدخل في شؤون الكنيسة ، كان لوثر رجل كنيسي قوي ، ففي عام ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م قرر التنازل عن تهجمه لحق الصفح وكتب في هذا الشأن ما يلي : « أقسم الله والخلق بأجمعه بأنني لم أرغب أبداً في اضعاف أو تدمير سلطات الكنيسة في روما . إنني أؤمن تماماً بعظمة سلطان هذه الكنيسة »[2] .

أجابت الكنيسة على حركة لوثر بأن أصدر البابا ليو العاشر قرار الحرمان من الكنيسة ضد لوثر محرم ٩٢٧ هـ / ديسمبر ١٥٢٠ م) وكان رد مارتن لوثر أن أحرق قرار البابا علانية وبصورة رسمية أمام الناس في ساحة وتنبرج ، وبذلك انقطعت الصلة بين لوثر والكنيسة ، وتفاقم الأمر حتى أن البابا طلب من الأمبراطور شارل الخامس أن يلقي القبض عليه وقمع حركته وتنفيذ قرار الحرمان الصادر ضده باعتباره خارجاً عن المسيحية[3] ، كما طلب أوريان أوفي أوترخت (Adrian of Utrecht) الوصي على شارل ، وعلى عرش اسبانيا « شخص يدعى مارتن لوثر حكمت عليه دائرة الأساقفة المقدسة بعد ثبوت تهمة الكفر عليه ، وبالرغم من ذلك فإنه يداوم بكل عناد ترويج أخطائه والكفر عن طريق الكتابة الى المناطق الخاضعة للأمبراطورية وهو عمل مشين يجلب العار والفضيحة ، ويعتبر هذا التصرف إهانة شخصية لجلالتكم ، حيث أن الجميع يعلم بنواياكم الجياشة نحو صد كل ما هو متناقض لملكنا يسوع المسيح ، وعقائدنا المقدسة ، لذلك التمس من جلالتكم بكل تواضع أن تقنعوا العالم أجمع بعداوتكم نحو أعداء المسيح والعقائد المقدسة . . . أو على الأقل الدفاع عن شرفنا بالحظر على هذا

(١) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج١ ، ص ٣١٧ .
(٢) H. M. Thompson: Lectures on Foreign History P. 55.
(٣) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٧٣ .

الشخص الشـرس المصـاب بـالـطاعـون وإيقـافـه عن الإفسـاد العلني للعقيـدة الكاثوليكية المقدسة المشار اليها مع إحالة مارتن لوثر هذا الى المحاكمة أمام والدنا المقدس لكي ينال القصـاص العادل « خـادمكم المتواضـع . كاردينـال تورتـوسا (Tortosa) »[1] .

استدعي مارتن لوثر للمثول أمام مجلس يمثل الأمبراطورية في مدينة نورمس (Norms) لمحاكمته في ٩٢٨ هـ /١٥٢١ م ، وعندما ناقشه مجمع نورمس في آرائه أصر على كمل كلمة فاه بها ، أو كتبها من قبل ، وعندئذٍ اعتبر خارجاً على القانون وحُكم عليه باهدار روحه وحرمانه من الحقوق المدنية في الأمبراطورية[2] . أضطر الأمبراطور شارل الخامس الذي كان حاضراً المحاكمة في مجاملة البابا ، فقد صرح في أول تقرير سياسي مكتوب بواسطته صرح فيه عزمـه على التعهـد بالـدفاع عن المسيحية ومذاهب الكنيسة[3] ، كما تعهد باستخدام سلطانه في إزالة حركة لوثر ، وقد جاء في ذلـك التعهد : « كـان اسلافي أعـلى الأباطـرة المسيحيين من الجنس الألـماني وكذلـك الأرشيدوقـات النمساويـين ودوقات بـرغندي الأبنـاء الحقيقيـين للكنيسـة الكاثـوليكية حتى وفـاتهم ، تركـوا ورائهم الطقـوس الكاثـوليكيـة التي سـأعيش وأموت بهـا ، لذلـك عشت حتى الآن بعون الله كـما يعيش أمبـراطـور مسيحي »[4] .

كانت لدى شارل الخا مس مشكلة سياسية في المانيا ، نتيجة سيادة وسلطة الـولايات ، واستغـلال الأمرء ، أحبـطت رغباتـه في تنفيذ عقـوبـات الحكـومـة لربراطورية الرومانية المقدسة التزاماته الأخرى وكان على شارل الخامس أن يعهد بمسؤولية تلك الأحداث في المانيا إلى أخيه فرديناند ، وبعد أن أعلن عن لوثر بأنه

(١) J. M. Thompson: Lectures on Foriegn History P. 57.

(٢) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٣٣ .

(٣) John Lyech: Spain under the Haburgs Vol 1 P. 99.

(٤) J. M. Thompson: Lectures on Foriegn History P. 58.

خارج على القانون بمقتضى مرسوم نورمسي ، كان في استطاعة لوثر أن يعيش تحت حماية ناخب ساكسون ، بينما اعتبر شارل ذلك انشقاقاً مؤقتاً[١] . وكان مغلوباً على أمره ، وصارت قراراته الصادرة بدون فاعلية مجرد حبر على ورق مثل مراسيم البابا ضد البروتستانت ، وواجهت شارل بعد ذلك مشكلة موقف البابا وهي مشكلة غير منظورة ، فبعد أن كان البابا ليو العاشر على علاقة ودية مع شارل في عام ٩٢٨ هـ /١٥٢١ م وظهر ذلك في تصريح شارل عند البروتستانت في نورمس ، توفي ليو العاشر في نفس السنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م وخلفه أوريان السادس السابق الذكر ، الذي تحالف مع فرانسيس الأول ملك فرنسا في المنازعات القائمة بينهما ، كما أمتثل الى طلب فرانسيس نحو مساعدة الدولة العثمانية ، وشعر شارل بالاحباط وغيّر من سياسته تجاه الكنيسة فصار غير حريص على خدمة البابا الجحود وبالتالي قلل من الاجراءات المقامة ضد البروتستانتية[٢] . وشجعه على ذلك ازدياد الخطر العثماني ، الذي هدد في هذا الوقت اسبانيا فصارت الجزائر بيلر بكية عثمانية ، ووضحت خطة العثمانيين لاسترداد الأندلس .

اضطر شارل الخامس أمام تلك التطورات العودة الى اسبانيا[٣] لمواجهة الخطر العثماني القادم من الجنوب . صحيح لم يكن شارل اسبانياً بل كان فلمنكياً يتحدث اللغة الفلمنكية والفرنسية ولا يتحدث الأسبانية ولا الألمانية ، إنه أرشيدوق الفلاندرز أجمل جوهرة في التاج الأمبراطوري نظراً لأهميته الصناعية والتجارية ولما ورث شارل عرش اسبانيا ، وعندما وصل إليها أحاط نفسه بالفلمنكيين ، فأعتقد الأهالي أنها عملية غزو ولم تقبله اسبانيا إلا بعد انتخابه امبراطوراً[٤] . لذلك كان يهمه الدفاع عنها من المسلمين المصممين على استردادها

(١) John Lynch: Spain Under The Habsburgs P. 99.

(٢) J. M Thompson: Lectures on Foriegn History P. P. 59- 60.

(٣) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٧٣

(٤) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي ال!لا ، ص ٦٨ ـ ٦٩

بمساعدة الدولة العثمانية ، وهكذا مضى شارل الخامس في سياسته نحو الأمبراطورية الرومانية المقدسة في تأمينها ووحدتها حتى لا تفكك أجزاء الامبراطورية ، لتواجه المسلمين بكل قوة وعنفوان .

قيل إن في مقدرة شارل التغلب على مشاكله باعتناقه البروتستانتية يعتبر هذا حلاً يسيراً لرجل واقعي يعيش في القرن السادس عشر مثل نابليون الذي كان على استعداد لاعتناق الاسلام إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك ، أما بالنسبة للشارل فكان هذا الحل مستحيلاً لأنه كاثوليكياً متعصباً ، وملك لدولة الأكثرية كاثوليك وشريك البابا منذ القدم . فكيف كان عليه أن يضيع مثل هذا الجهد في سبيل توحيد المانيا ؟ خاصة وإن نصف البلاد كاثوليك ، هل كان في استطاعة شارل توحيد المانيا ؟[1] . في وقت كان لوثر فيه في بداية اصلاحه إذ لم يمض على ذلك سوى سنوات عديدة .

مضت مناصرة الشعب للوثر وكتب سفير البندقية الى بلده بقول : « لا استطيع التعبير عن شعبية لوثر هنا في الحقيقة ولو توخى هذا الرجل كل الحرص ، واكتفى بعروضه الأولى ، ولم يتورط في الاخطاء الفاضحة تجاه العقيدة لأصبح معبوداً في المانيا »[2] .

رأت بعض الطبقات الألمانية في حركة لوثر وسيلة لتحقيق ما كانت تطمع فيه من اصلاح أحوالها ، فطبقة الفرسان كانت في العصور السابقة تعيش على الحرب وتحقق لنفسها عن طريقها مكاسب وامتيازات ، ومع بداية العصور الحديثة فقدت تلك الامتيازات ، لذلك رأت في حركة لوثر فرصة لاسترداد مكانتها ، إذ سبق وأن نادى لوثر بتجريد الكنيسة من أملاكها كوسيلة لإرغامها على الرجوع إلى سيرتها الأولى في البساطة والبعد عن أسباب البذخ ، اتخذ الفرسان من آراء لوثر

(١) J. M. Thompson: Lectures on Foriegn History P. P. 59- 60.

(٢) J. M. Thompson: Lectures on Foriegn History P. 59.

ذريعة لمهاجمة الكنيسة والاستيلاء على أملاكها ، ومن ثم قاموا بحركة ثورية سنة ٩٣٠ هـ /١٥٢٣ م ، أضفوا عليها الطابع الديني ، فاقتحموا الكنائس وحطموا ما كانت تزخر به من تماثيل وصور وزخارف ، وتزعم هذه الثورات فارسان المانيان فرانز فون سيكنجن (Franz von Sickingen) وأولريخ فون هوتن (Ulrich van Huten) ، فهاجموا مدينة تريف (Treves) أو (Trer) ، كما استنجدوا بالمدن المجاورة ، ولكن لم تستجيب ولم تنجح تلك الثورة بسبب تقدم الوسائل الحربية لدى الأمراء وحكام المقاطعات الألمانية بعكس الفرسان[١] .

كما كانت طبقة الفلاحين في المانيا تعاني من أوضاعها الأجتماعية والاقتصادية فهم يرزحون تحت أعباء ثقيلة من حياة السخرة وفرض الضرائب وما كان الأمراء ، ورجال الدين يطالبونهم به من عمل في أراضيهم ، فجاءت الحركة اللوثرية في وقتٍ تفاقمت فيه روح التذمر والسخط بين الفلاحين ضد السلطات القائمة ، ولما كان لوثر ينادي بحرية الإنسان ، أعتقد الفلاحون أن الآوان قد آن لاستغلال مبادئه في الثورة[٢] . فقاموا في ٩٢١ هـ /١٥٢٤ م بالتمرد ضد الحكام في جنوب غرب المانيا فأحرقوا وهدموا كل شيء يقف في طريقهم ، لم يستحسن مارتن لوثر ذلك ، وطالب الحكام والأمراء بأن يقفوا أمام تلك الثورة ، وأن يشددوا العقوبة على أعمال العنف حتى لو يصل الأمر بهم إلى القتل[٣] ، وانتهت تلك الثورة في أواخر عام ٩٣٢ هـ /١٥٢٥ م ، وهي نفس السنة التي هزم فيها شارل الخامس فرنسوا الأول ملك فرنسا ، فأعطى ذلك النصر الأمبراطور شارل التفوق السياسي في أوروبا[٤] ليواجه الاصلاح الديني في المانيا بكل حزم حتى تتحد الأمبراطورية الرومانية المقدسة .

(١) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج١ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٢) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٧٥ .

(٣) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 45.

(٤) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٢٢٢ .

قرر الأمبراطور شارل الخامس أن يعقد المجلس الأمبراطوري الدايت في مدينة سبير (Speier) في اقليم بافاريا في شهر رمضان ٩٣٢ هـ / يونيه ١٥٢٦ م ، لبحث المسألة الدينية ، وتنفيذ القرار الصادر بحق مارتن لوثر بطرده خارج القانون[١] واهدار دمه .

لم يحضر شارل جلسات الدايت لانشغاله بمواجهة الحشود العسكرية رتي كان يبعثها السلطان سليمان استعداداً لاستئناف الزحف على قلب أوروبا ، لذلك أناب عنه في حضور جلسات المجلس الأمبراطوري أخاه فرديناند ملك النمسا[٢] . وقرر المجلس أنه لكل أمير الحق في أن يختار المذهب في منطقته الخاصة[٣] . أراد شارل الخامس من ذلك أن ينتقم من كلمنت السابع الفذي انتهج ضده سياسة عدائية حين انشأ في ٢٢ مايو ١٥٢٦ م (٩ شعبان ٩٣٢ هـ) حلف كونياك المقدس لطرد قوات الأمبراطور من شبه الجزيرة الإيطالية ، كما أوعز للايطاليين بضرورة تحرير بلادهم من نفوذ الأمبراطور[٤] الذي هدد البابا باستئناف انعقاد المجلس العام إذا لم يغير البابا سياسته التي اعتبرها الأمبراطور كارثة على المسيحية[٥] . كما رغب شارل في اصدار ذلك القرار إيجاد نوع من المهادنة مع اللوثريين حتى لا تبقى الجبهة الداخلية في المانيا سليمة في الوقت الذي كان العثمانيون فيه يهددون المجر بأكملها ، وقد تحقق لهم النصر في معركة موهاكس أغسطس ١٥٢٦ م (ذو[٦] القعدة ٩٣٢ هـ) فأنشلت الكاثوليكية الهنغارية بتلك الفاجعة عندما توفي سبعة أساقفة من الستة عشر للمملكة في ميدان القتال ،

(١) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٧٧ .
(٢) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .
(٣) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val 1 P. 99.
(٤) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .
(٥) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val 1 P. 28.
(٦) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .

والاستفادة من هذا الموقف ، فقد أحرز المتصرون اللوثريون تقدماً سريعاً في المناطق المستولى عليها(١) . كما أخذت تنتشر في فرنسا ، وشجعها الملك الفرنسي فرنسوا ، الذي سرعان ما غيّر موقفه فأخذ في اضطهاد اللوثريين منذ عام ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م(٢) .

جعل الاصلاح الديني المجتمع المسيحي طوائف متحاربة فيما بينهم ، ولكن سريعاً ما تتحد تلك الطوائف عندما يطرق الاسلام أبواب الخطر على المسيحية ، ومن ذلك ناشد لوثر في ٩٣٥ هـ /١٥٢٨ م ، الأمبراطور شارل الخامس توحيد المانيا لمواجهة الدولة العثمانية ، ارتاب الكاثوليك في ذلك ، وأعتبروه مجرد تحويل انظار الأمبراطور والبابا عن اضطهاد اللوثريين ، كما راود هذا التفكير بعض اللوثريين من رجالات السياسة ، ومن هؤلاء السير فرانسيس والسنجهام (Fkcis Walsingham) الذي اعتبر الصراع بين الكاثوليك والعثمانيين في البحر المتوسط صراعاً بين طرفين من أنصار الشيطان ويأمل في أن ينتهي الصراع بإبادة الطرفين(٣) .

كان شارل الخامس طيلة حياته كاثوليكياً ، ومع هذا لم يحجم عن أخذ بعض سلطات الكنيسة في ٩٣٥ هـ /١٥٢٨ م عندما نزع الصفة الدينية عن الامارة الكنيسية في يوترشيت (Utrecht) إحدى مقاطعات برغندي ، ثم اضطر البابا اعطاءه الحق في تنصيب القساوسة هناك رغم أن سلطاتهم صارت دينية فقط بعد ذلك(٤) . يتضح من ذلك أن شارل الخامس لم يكن مضاداً للإصلاح الديني ، أو قائداً للإحياء الروحي في الكنيسة الكاثوليكية ، بل كان معادياً لما

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 102.
(٢) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ٢١١ .
(٣) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 149- 150.
(٤) Sir George Clark: Early Modern Europe P. 43.

اسماه الكفر والتمرد وإذا كان يملك الوسائل للقضاء على الكفر لقضى عليه ، مثل ما عمل في اسبانيا والبلاد المنخفضة حيث استنفذت قوة أكبر مما فعل في المانيـا ، كان ذلك الموقف الأسباني ، وهنا تتطابق وجهات النظر تلقائياً ، فالقوات والجنود في حـرب الكفار والمتمـردين جاؤوا من أسبـانيا وكـذلك غـالبية القـادة والمثقفين المضـادين للاصـلاح مثل اجنـاتيـوس لـويـك (Agnatuis Layola) قـدمـوا من اسبانيا ، وعلى الرغم من أن المهمة التي تطالب بها الأمبراطور ليحار بها الوثنيـين والكفرة والمتمردين فإنه لم يعط الأولوية الى التمرد اللوثري ، كما فعل في مهـاجمة الاسـلام ، وزعم أنه لا يمكنـه عمل ذلـك حتى يعلم السلام أوروبـا الغربيـة ، ويصل إلى حل مع فرنسا[١] .

استـطاع مارتن لـوثر أن يخفف من مخـاوف الشعوب المسيحيـة فقد تنـاول وصف العثمانيين في كتابه مـواعظ عن الحرب الصـادر في ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م ، ونظر ألى الحرب على أنها تحقيق تنبوءات (Ezekil) التي تقول : « سوف يحرر إيلين من سجنه » ولرؤية القديس يوحنا فخفت حدة المخاوف في مناطق أوروبا الغربية والشمالية النائية ، وعلى الرغم من الدعايـة للحروب الصليبيـة لإيقاظ رد فعـل عميق في تلك الأقاليم ، إلا أن الإنذار العثماني أحدث مخاوف كبيرة بين فلاحي المانيا ووسط أوروبا[٢] .

تفاقم الموقف في المانيا بالنسبة للكاثوليك لأن الزمن كان مساعداً للوثريـين فرأى الأمبراطور شارل الخامس أن يخطو خطوة أخرى لحل المشاكل الدينيـة التي تهدد المانيا بانقسام ديني مذهبي خطير ، فوجه الدعوة لعقد المجلس الأمبراطوري مـرة أخرى في مـدينة سبـير في رجب ٩٣٥ هـ / مارس ١٥٢٩ م[٣] ، فتـراجـع المجلس عما أصدره من قـرارات في المجلس الأول ٩٣٢ هـ / ١٥٢٦ م ، واصدر

(١) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val 1 P. 98.

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe 146.

(٣) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .

قراراً بنفاذ قرارات نورمس التي تقضي بإهدار دم لوثر وقمع ثورة اللوثريين وإلغاء الحرية التي منحت للأمراء في مجلس سبير الأول في اختيار المذهب الذي يريدونه في ولاياتهم ، أزعجت تلك القرارات الأمراء اللوثريين لأن اختيارهم للمذهب الجديد منحهم الفرصة للاستيلاء على أراضي الكنيسة الكاثوليكية في بلادهم ، ومعنى تنفيذ قرارات المجلس الثاني أن يحرموا من الثروة التي وصلت إليهم ويعيدوا الأرض للكنيسة ، لذلك أعلنوا أنهم لن يستجيبوا لتلك القرارات ولا يتقيدون بها بل يحتجون عليها ومن هنا أطلق اللوثريون على أنفسهم أسم (المحتجين) (Protestant) ، وكان ذلك الاحتجاج القوي تحدياً لسلطة الأمبراطور الذي أملى عليه الموقف أن يتريث في الأمر ، إذ صارت جيوش الدولة العثمانية تهدد أوروبا ، مما يدعو إلى توحيد كلمة المسيحيين أمام الخطر الداهم ، وكان العثمانيون إذ ذاك يحاصرون فيينا[١] . بالاضافة الى موقف فرنسا العدائي وفوق كل ذلك موقفه المالي الميؤوس منه ، لكل هذه الأسباب ، استمر شارل الخامس في سياسة المهادنة والتأجيل مع البروتستانت، وطلب تكوين جبهة متحدة في المانيا واقتنع كلاً من شارل الخامس وسكرتيره جرانفيل أن الأمبراطور له الحق في حل المشاكل الدينية عند الضرورة ، بدون تدخل البابا ، وبناء على ذلك استجاب البابا بول الثالث لآمال شارل ، لأنه كان شغوفاً للاصلاح ، وإنعقاد مجلس امبراطوري عام[٢] .

وجه شارل الخامس الدعوة لعقد المجلس الأمبراطوري الدايت - في أوجزبرج (Augsberg) سنة ١٥٣٧ م وحضر اليها بنفسه، وأعلن أن جدول الأعمال للمجلس يتضمن مسألتين رئيسيتين تدعيم المجهود الحربي لصد خطر العثمانيين وإعادة الوحدة المذهبية إلى صفوف المسيحيين[٣] .

كان موقف الأمبراطور في هذا المجلس موقف المتردد فقد تمسك كل

(١) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث، ص ٧٨ .

(٢) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val 1 P. 100.

(٣) عبد العزيز الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

فريق بآرائه وكان موقف الأمراء ورجال الدين الكاثوليك متعصباً، وأهابوا الأمبراطور باستعمال القوة والشدة مع البروتستانت، إلا أن الأمبراطور لم يكن في وسعه أن يستجيب لذلك الرأي وطلب من ممثلي البروتستانت أن يتقدموا بآرائهم ومشاكلهم كتابة، فقام بهذه المهمة فيليب ميلانكتون (Melanchton) مساعد مارتن لوثر الأيمن، الذي وضع العقيدة اللوثرية في صيغة معتدلة وسميت باعتراف أوجستانا (Conjessio Augustano) أو الاعتراف العظيم وبذل الأمبراطور جهوده لمحاولة التقريب بين الطرفين ولكنه فشل في ذلك إذ وضع كبار الكاثوليك وثيقة مضادة فندوا فيها آراء البروتستانت ووافق الأمبراطور عليها، وانفض المجلس في أواخر صفر ٩٣٧ هـ / سبتمبر ١٥٣٠ م بعد أن أعطى الأمبراطور مهلة للبروتستانت ليفكروا في الأمر ويقلعوا عن آرائهم، وإلا استعمل الشدة فأصدر قراراً بتخطئة معظم عقائد اللوثرية ودعوة الناس إلى التنحي عن المذهب المبتدع وإلا عواقب أنصاره أشد العقاب[١] .

كانت الأقاليم الألمانية البروتستانتية قد بلغت من القوة ما جعلتها لا تعير اهتماماً لذلك ورفضت الحل الوسط ولم تكن في نية شارل سحق البروتستانية، ذلك لأنه في حالة نجاحه سوف يعتبر انتصاره انتصاراً للكنيسة ولم تكن لديه ميول في تحقيق ذلك الانجاز الكبير في مصلحة البابا الغير متعاطف معه والمتآمر ضده وكان الباباوات يبغضون سلطات شارل في ايطاليا كما لم يثقوا في زعامته المستقلة للكنيسة، هذا ويقع اللوم في فشله في تدمير البروتستانية على حقد الباباوات عليه[٢] .

تشجع زعماء البروتستانت وعملوا على تحسين مواقعهم السياسية وذلك بتشكيل عصبة شمالكلد (Shmalkalde) في رجب ٩٣٧ هـ / فبراير ١٥٣١ م، يرأسها ناخب ساكسون لاندجراف هس (Land Grave of Hesse)

(١) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٧٩ .
(٢) J. M. Thompson: Lectures on Foreing History P. 60

وبعض من الحلفاء السياسيين من أعداء شارل في أوروبا الشمالية[1]، وذلك من أجل الدفاع عن مصالحهم.

ازدادت الهجمات العثمانية ضراوة على الجبهة الشرقية لأوروبا وحوصرت فينا التي كانت حمايتها من مسؤولية فريدناند، الذي التزم بالزود عنها، وكانت امكانيات المجر الحربية لا تفي لمواجهة الموقف، بالاضافة إلى أن التمرد ضد الهاسبرج ازداد تصاعداً وأمام هذا الموقف المتزمت وتحت وطأة هذه الظروف كان على شارل اللجوء إلى تهدئة الوضع في الأراضي المنخفضة ليضرب منها فرنسا بدلاً من استمرار تعريض نفسه للخطر في ألمانيا نتيجة للانتفاضات الدينية[2]، وأوضح شارل الخامس لأخيه فرديناند أن احتياجات اسبانيا الأمبراطورية، والنضال ضد البروتستانية اعاقت تركيز جيوش الهاسبرج في أوروبا الشرقية، ومع ذلك تجمعت قوة الهاسبرج العسكرية مرة واحدة عام ٩٣٨ هـ / ١٥٣٢ م أمام فينا وكانت المعونة العسكرية مقتصرة على امدادات سلاح مشاة إسباني وايطالي من فالون في الأراضي المنخفضة (Wallan) وشاركت هذه القوة في الدفاع عن البوابة الشرقية لأوروبا ولكن أمام الضغط العثماني وتشتت شملها[4]، وذلك بسبب اصرار العثمانيين على تنفيذ خطة استرداد الأندلس سواء من البر عن طريق أوروبا أو عن طريق البحر من الجنوب.

لم تكن لدى الارشيدوق فرديناند الوسائل لشن هجوم على الدولة العثمانية إذ كانت عزيمة قوته ضعيفة وروحهم المعنوية منحطة بسبب ضعف المرتبات علاوة على ذلك حاجة فرديناند الماسة للأموال فالأمراء الألمان حتى لو كانوا مستعدين لتقديم المساعدة وقت اشتداد الخطر فقتالهم لن يكون في حرب طويلة ومكلفة على الدانوب تعود فائدتها للهاسبرج، ولا يستطيع فرديناند أن يعتمد على مساعدات أخيه شارل الخامس، المشغول في هذا الوقت بالصراع

(١) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 100

(٢) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 103

(٣) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 120

القائم بين الكاثوليك والبروتستانت، وحاول فرديناند عرض السلام على السلطان العثماني، وقدم اتاوة كبيرة مقابل امتلاك المجر، ولكن فشلت محاولته لرفض سليمان ذلك العرض [١]، المصمم على المضي في طريق الأندلس.

طلب فرديناند وبطريقة ميئوس منها مساعدة أمراء وحكام المانيا وذلك من أجل حماية سلطانه بعد أن لقب ملك الرومان، والدفاع عن بلاده من سليمان القانوني الذي كانت هجماته على النمسا عام ٩٣٨ هـ / ١٥٣٢ م أجبرت شارل الخامس على عمل تسوية مؤقتة مع البروتستانت في ألمانيا أطلق عليها سلام نورمبرج (Nuremburg) شوال ٩٣٨ هـ / مايو ١٥٣٢ م، وبموجب تلك التسوية قام سلام عام في أنحاء الأمبراطورية الرومانية المقدسة حيث لا يحاكم شخص في معتقداته الدينية حتى انعقاد مجلس امبراطوري آخر ليفصل في المشكلة الدينية وكان ذلك فرصة ثمينة لها تأثير كبير لتدعيم وتعزيز قوة البروتستانت [٢] الذي انتشر مذهبهم في مدن أخرى مثل أوجزيرج وفرانكفورت وهمبرج وهانوفر، وقبل البروتستانت دعوة الأمبراطور شارل الخامس لتوحيد الصف أمام عدوهم المشترك وأمده امراؤهم بالعون العسكري حتى تم انسحاب العثمانيين من المجر [٣] بعد أن فتحوا جبهة جديدة في غرب البحر المتوسط من أجل تحقيق هدفهم الذي هو استرداد الأندلس.

كان شارل الخامس نتاج عصر متعصب من أجل ذلك ادخر مفهوماً خاصاً لمعنى الملكية إذ تصدر حماية الكاثوليكية قائمة اهتماماته، ونظر شارل إلى نفسه بصفته هذه فركب ظهر السفينة وتقدم من برشلونة لقيادة الحملة العسكرية ضد تونس عام ٩٤٢ -٨ / ١٥٣٥ م، من أجل الانتقام من المسلمين وليفوت الفرصة على الدولة العثمانية في التحكم في غرب البحر المتوسط.

(١) M. A. Cook: A History of the Ottoman Europe P. 84.

(٢) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 100

(٣) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٨٤ .

وقدمت اسرة الهاسبرج صورة معاكسة للتكريس الاسلامي للجهاد وعندما وجه العثمانيون وحلفاؤهم الهجمات على خطوط ساحل البحر المتوسط الغربي، فإن العقيدة الدينية العميقة والشعور الحيوي بحفظ الذات حثت ملوك اسبانيا على الاطلاع بدور أبطال المسيحية [١] فتقدموا لمواجهة الدولة العثمانية في الشمال الأفريقي، وتطلعوا لاسترداد بيت المقدس، وقاموا بوضع الخطط لذلك كخطط مضادة.

ارتفعت الأصوات في أوروبا تطلب بتوحيد الصف لمواجهة الخطر العثماني الداهم الذي تتعرض له الكنيسة الكاثوليكية فتجمعت في عام ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م، قوات صليبية من الأمبراطورية الرومانية المقدسة وجمهورية البندقية والبابوية وتلاقت أساطيل هذا الحلف أمام ميناء برفيزا (Preveiza) جنوبي جزيرة كورفو فاشتبكوا مع خير الدين بربروسا الذي ردهم على أعقابهم خاسرين واسترد الأسطول العثماني سمعته بعد أن نال منها انتصار الأمبراطور شارل الخامس الذي كان قد استولى على تونس [٢] في المرة السابقة.

انشغلت بعد ذلك الدول الكبرى الأوروبية بالخصومات الدينية، والمسائل الوراثية للحكم، وقد ساهم هذا الانشغال بدون شك في التقدم المكتسح المذهل للفتح العثماني، ونقيض ذلك إذ ساهم نجاح الأوروبيين في تسوية بعض خلافاتهم الضيقة في فشل المفاوضات الاستراتيجية بين العثمانيين وأسرة هاسبرج على الدانوب، والذي اكدته حروب السلطان سليمان الأخيرة ضد المجريين [٣].

وظل الأمبراطور شارل الخامس مشغولاً بالحرب مع العثمانيين في

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 125

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ٢ ، ص ٨٩٠ .

(٣) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 159.

الشمال الأفريقي ثم بالحرب مع الفرنسيين في ايطاليا وحاولت البروتستانية أن تنشر مذهبها في بقية أنحاء أوروبا.

وتعددت الكنائس في أوروبا بعدد الأمراء وكانت ظاهرة هامة في فرنسا وانجلترا وهولندا والبلاد الأسكندنافية وفي اسبانيا تسبب تعداد الدويلات في رواج البروتستانية وكذلك في افسادها نصب كل من الأمراء باباً على نفسه، واعتنقت دول كاثوليكية البروتستانية بعد قيام اعتراض وطني وصار الدين مسألة احزاب سياسية، ومهدت هذه الحالة لتراجيديا نصف سياسية ونصف دينية[1] . كما تشتت البروتستانية وكان للكاثوليكية كذلك انقساماتها غير أنها لم تظهر بصورة واضحة، وتحولت الانقسامات الدينية إلى مذاهب احتجاج كاللوثرية والكلفنية والزونجلية وذلك خلال سنوات قليلة وقسم الاصلاح الديني أوروبا أفقياً من كنيسة إلى كنيسة على نمط المذهب والتنظيم متجاهلاً للفروق الوطنية [2].

قامت نتيجة لذلك الوضع حركة مناهضة للاصلاح الديني رداً على الاصلاح الديني وتحدد قيامها عام ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م عندما منح بولس الثالث ميثاقاً للجزويت وهو قرار بالغ الخطورة في تاريخ الكنيسة اتسم بوضعين الرجعية ضد محاولات اصلاح الكنيسة من الخارج واصلاحها من الداخل [3].

ومؤسس جماعات الجزويت رجل نشأ بين الشعب الاسباني المفرط في تعصبه للكاثوليكية وهو دون اينجو لبيز دي ريكالدي (Don Inigo Lepez de Recalde) وعرف في التاريخ باسم اجنات لوبيك (Ignatuis Loyobc) من سلالة أسرة شريفة اسبانية [4].

(١) J. M. Thompson: Lectures on Foreing History P. 62.

(٢) J. M. Thompson: Lectures on Foreing History P. P. 61- 62.

(٣) J. M. Thompson: Lectures on Foreing History P. 65.

(٤) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ١٩٣ .

كان هدف حياة الجزويت هو تكريس جميع سلطاتهم بالتعاون مع الفرق الدينية في اكمال تربية الشخص ويتم ذلك عن طريق التهذيب الديني والوعظؤ والأعمال الخيرية وخدمة المرضى والفقراء، وكان الجزويت هيئ عسكرية تعيش بنظام عسكري تسري نظامها على الجميع دون استثناء حتى أصدقاء (Loyola) المقربين إليه وهم الأعضاء الأول للهيئة وعلى رئيسها (Loyola) نفسه يسري هذا النظام إن قواعد التجنيد والترقية كانت صارمة، هذا وقد رفضت الهيئة انخراط الكفار وغير الكاثوليك من المسيحيين كما رفضت المجرمين والرهبان المرتدين والمتزوجين والعبيد.

كان للهيئة نظام اداري للرتب ولا تمنح الجزويت العضوية الكاملة ولا ترسم قسيساً إلا بعد انتهاء فترة تدريب لمدة ستة عشر سنة، التسع السنوات الأولى خصصت لحصص التلاوة وأسس تنظيم القيادة العليا، وأعلى المناصب في الهيئة الجنرال الذي يتمتع بسلطات مطلقة، وينتخب مدى الحياة وكانت الهيئة مقسمة على الأقاليم.

كان ارتباط عهد الجزويت صارماً وفي نفس الوقت طاعة سلبية ليتأكد العضو بأن واجب الذين يعيشون تحت عهد الطاعة، وأن يمتثلوا لرؤسائهم في التنظيم والتوجيه تماماً مثل الجثة الهامدة، تتحرك في أي اتجاه وكتب (Loyola) في كتاب الهيئة الخاص بالتعبد (إذا قررت الكنيسة بأن شيء ما أبيض اللون وبأن لونه أسود علينا اليقن بسواده) [١].

تنوعت طرق الجزويت في محاربة البروتستانية فكان بعضهم يشتغل بالسياسة لخدمة البابوية فكان منهم مستشارون ووزراء ومن اليهم، على أن الحقل الذي أصابوا فيه نجاحاً أكثر هو حقل التعليم فقد رأى(Loyola) إن البروتستانت اعتمدوا في مهاجمة كنيسة روما على جهل رجال الدين الكاثوليك

(١) J. M. Thompson: Lectures on Foreing History P. P. 68- 69.

وفسادهم[1] لجأت كنيسة روما إلى وسيلة أخرى غير الجزويت في مناهضة حركة الاصلاح وهي محاكم التفتيش وتخويلها سلطات واسعة في تعقب المخالفين للمذهب الكاثوليكي والتنكيل بهم بعد تعريضهم صنوف التعذيب ولم تكن محاكم التفتيش بدعة استحدثها البابوات في القرن السادس عشر في مواجهتهم للبروتستانت وغيرهم فهو نظام قديم استعانت به البابوية في العصور السابقة للقضاء على الحركات الدينية التي خرجت على تعاليم كنيسة روما.

نجحت محاكم التفتيش الرومانية هذه في القضاء على البروتستانية في ايطاليا من جهة كما نجحت في اذكاء روح التعصب في الكنيسة، وكان تأسيس هذه المحكمة بداية عهد الاصلاح الكاثوليكي في اطاره الضيق أي الاصلاح المستند على استخدام وسائل العنف والقوة التعسفية لارجاع الكنيسة الى مكانتها الأولى، وذلك للقضاء على الذين يريدون الاصلاح الكاثوليكي على أساس التسامح والتساهل مع البروتستانية من جهة، ثم القضاء على اتباع البروتستانية أنفسهم من جهة أخرى[2].

اكتشف الباب مشكلة كبيرة في انعقاد المجلس الأمبراطوري العام، إذ أشرك شارل الخامس البروتستانت في جلسات المجلس الذي نظر في مساعدة الولايات الأمبراطورية ضد فرنسا والدولة العثمانية المتحالفين، وقرر شارل ايجاد حل خاص للمشكلة الألمانية وتمثل ذلك الحل في تصريح راتيسبون (Ratisbone) ربيع الثاني ٩٤٨ هـ / يوليو ١٥٤١ م، الذي أعطى الأمان للأمراء الألمان، كما أقر تجريد بعض ممتلكات الكنيسة ومنح امراء البروتستانت الحق في اصلاح الأديرة والمؤسسات الدينية وأدى ذلك إلى ازدياد وتأثير البروتستانت في مجلس الأمبراطور فاستنكر البابا ذلك التصريح وأدان

(١) جلال يحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ١٩٥ .

(٢) جلالبحيى وجاد طه : معالم التاريخ الأوروبي الحديث ، ص ١٩٧ ـ ١٩٩ .

الأحداث أيضاً [٢ (١)]

أصدر البابا بول الثالث مرسوماً بابوياً يدعو فيه مجلس ترنت للانعقاد لكن في هذا الوقت نقض فرانسيس الأول هدنة نيس، واستعد لمهاجمة الأمبراطور غما أدى إلى تأجيل انعقاد المجلس وحاول البابا أن يصلح الوضع بين فرنسا والأمبراطورية الرومانية المقدسة ولكنه فشل، كان شارل يتلاعب بالوقت وكان يرغب في مساعدة موريس الساكسوني وأمير براندبرج (Brandenburg) وبعض الأمراء الألمان ضد فرنسا وكان شارل يعلم بمعارضة البروتستانت لانعقاد مجلس يدعى بواسطة البابا، ولكن بتوقيعه معاهدة السلام في كرسبي (Crcpy) سبتمبر مع فرانسيس الأول، استطاع أن يهاجم البروتستانت بقوة أكثر من السابق [٢] .

عاد شارل الخامس إلى المانيا فوجد معظم الامارات قد أعلنت انضمامها إلى المذهب اللوثري فقرر أن يقوم بآخر محاولة سلمية، فدفع البابا بول الثالث إلى دعوة مجلس ديني يجمع بين الكاثوليك والبروتستانت في مدينة ترنت (trent) في منطقة التيرول عام ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م، إلا أن البروتستانت رفضوا الحضور في هذا المجلس لعلمهم أن غالبية أعضائه الايطاليين والاسبان المتعصبين للكاثوليكية، ورأوا ألا يقيدوا أنفسهم بقرارات هذا المجلس عندئذ قرر الأمبراطور نهائياً أن يستخدم القوة، وفي هذه الظروف العصيبة مات لوثر ١٤ ذو الحجة ٩٥٢ هـ / ١٧ فبراير ١٥٤٦ م، وخسر البروتستانت زعيمهم الروحي واستطاع شارل أن يضم إلى صفه موريس السكسوني، وبذلك خسرت البروتستانتية قائداً محنكاً ودخلت الحرب ضد القوات الامبراطورية، التي كانت تضم جنوداً من اسبانيا وايطاليا ويقودها دوق ألفا القائد الاسباني الكبير[٣] وحقق

John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 100. (١)

John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. P. 100- 101. (٢)

(٣) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٨٢ - ٨٣ .

شارل الخامس انتصاره على البروتستانت في معركة مهلبرج (Muhlburg) ربيع الأول ٩٥٤ هـ / ابريل ١٥٤٧ م، ولكن النصر شلم ينجح في القضاء على حركة الاصلاح الديني[١] بل وضعت شارل في موقف يمكنه عمل تسوية سياسية ودينية خاصة به في المانيا كانت نتيجتها نكسة عليه، إذ أن انتصار الامبراطور في المعركة المذكورة زاد الشقاق والمخاصمة في المعسكر الكاثوليكي فكانت الكنيسة خائفة من قوة شارل فتفرقت كلمة أعضاء مجلس ترنت، فالمؤيدون لسياسة شارل الدينية من أساقفة ظلوا ماكثين فيها، أما المخالفون لسياسته من كاثوليك غادروا ترنت واجتمعوا مرة ثانية في بولنيا بناء على رغبة البابا، واختتم المجلس دورة انعقاده، بعد أن اعترض شارل الذي رغب في أن يعمل مستقلاً عن البابا وأخذ مهام الوظائف الكنيسية[٢] .

حاول شارل ارضاء الكاثوليك والبروتستانت فوضع مشروع انتريم (Interim) المعروف وذلك في ٢٢ جماد أول ٩٥٥ هـ / ٣٠ يونيو ـذدظ م عبارة عن مستند مكتوب دعى فيه الحفاظ على المذهب الكاثوليكي واعتمادات البابا، والأخذ بالرأي البروتستنتي في مواضيع النظام والعبادة، إلا أنه هاجم الكاثوليك والبروتستانت في تلك الوثيقة وفشل شارل الخامس في تحقيق السلام الديني في ألمانيا وبينما كانت تسوية شارل قد سببت الانشقاق والمخاصمة في الكنيسة فإن أهدافه السياسية سببت نفس الشيء بين أسرته الهاسبرج أنفسهم، إذ أن موت فرانسيس الأول قبل معركة مهلبرج جعل شارل يطلق يديه بحرية في المانيا هنا أدرك تنفيذ رغبة عزيزة إلى قلبه وهي أن يجعل وراثة الأمبراطورية في المانيا إلى ابنه فيليب، ويربط الميراث الألماني مع ميراث برجندباو اسبانيا لكن مثل هذا الاقتراح لم يكن مقبولاً للرأي الألماني سواء الكاثوليك أو البروتستانت، فتحرك كاردينال أوجسبرج في ذو الحجة ٩٥٨ هـ / نوفمبر عام

(١) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٢٦ .

(٢) John Lynch: Spain under the Habsburgs Va!. 1 P. 101.

١٥٥٠ م واعترض على الوجود الاسباني الذي لا يطاق وأعلن أن ألمانيا لا تقبل أن يحكمها إلا شخص ألماني [١].

عقدت أسرة آل هاسبرج اجتماعاً عائلياً في شتـاء عام ٩٥٨ ـ ٩٥٩ هـ / ١٥٥٠ ـ ١٥٥١ واستغرق ذلك الاجتماع أكثر من ستة شهور، احبـطت خلالـه خطط شارل نحو أخيه فرديناند وابنه مـاكسيمليان، وهكـذا كانت قـوة أسرة آل هايسبرج الشرقية متمـركزة في النمسـا وممتدة إلى بـوهيميا والمجـر، ورفضت المانيا أن تقبل القوانين الكاثوليكية والنظام الاسباني كما رفضت أن يحافظ عليها بقوات اسبانية وايطالية علاوة على ذلك تحول الـرأي الألماني نحـو امراء فيينـا وطالبوا بأن يكون فرديناند وابنه ماكسمليان ورثـاء الأمبراطـورية عـوضاً عن ابن شارل فيليب، واجبر ذلـك الموقف شـارل على اتخاذ حـل وسط في ١٢ ربيع الأول٩٥٨ هـ/ ٩ مارس ١٥٥١ م، إذ وافق أن يرثه في الأمبراطورية فرديناند ثم ابنه فيليب ثم ماكسيمليان.

لعبت فـرنسا دوراً كبيـراً في نمو الاسـاءة والعداء ضـد شـارل ورأت أن مشاكله في المانيا هي الفرصة الحيوية لانقاص قوته خـاصة وأن أمـراء المانيـا تحالفوا مع هنري الثاني ملك فرنسـا ووافقوا على اخـذ متز وتـول وفردان التي كانت جزء من الأمبراطورية كما شراك عداء شارل موريس السكسوني الذي كان على الرغم من كونه بروتستانتي ظل يحارب بجانب الأمبراطور كما وطدت فرنسا علاقاتها مع الدولة العثمانية فأوعزت للسلطان بأن يقطع الهدنة مع آل هايسبرج فـاستولى العثمـانيون على طـرابلس وصار شـارل محاصـراً بالأخـطار في عدة جبهات علاوة على الصعوبات المالية، شاهد شارل عالمه يتفكك ويتحطم وهو غير قادر أن يقوم بموقف ايجابي ويخشى فوق كل ذلك على البحـر المتوسط، فاتخذ قراراً بالغ الخطورة والأهمية إذ أمر القوات الاسبانية والايطالية بالانسحاب

(١) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 102.

عن وتمبرج في اغسطس وبذلك مهد شارل وبطريقة غير مباشرة للانفجار الألماني عام ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م [١].

احتدم الصراع من جديد بين الولايات الكاثوليكية والبروتستانية التي تلقت مساعدات من فرنسا وحاول شارل أن يفرض نتضامه بالقوة، واستخدم في ذلك قوات اسبانية ضد البروتستانت فاكتسبوا بذلك قوة جديدة وسارت الأحداث في غير مصلحة الأمبراطور فاستطاع الأمراء الألمان وبمساعدة بعض القوات الفرنسية أن يهزموا الأمبراطور الذي لم يجد بداً من مغادرة المانيا [٢] بعد ذلك عقدت معاهدة باسو (Passau) بين فرديناند المكلف من قبل شارل الخامس في حفظ الأمن في المانيا وموريس السكسوني وصادق شارل على تلك المعاهدة في ٢٤ شعبان ٩٥٩ هـ / ١٥ اغسطس ١٥٥٢ م، وبموجب تلك المعاهدة صودق على هزيمة الأمبراطور والاعتراف بموجبها بالمذهب البروتستانتي ومساواته بالكاثوليكية في الأمبراطورية ثم قام شارل باتصالاته مع الأراضي المنخفض ة وفرانش كوميه (Franch Comet) وحاول استرداد متز في شتاء ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م وهاجمها عدة مرات [٣]

ضعف اهتمام آل هاسبرج بالحرب عندما تحول اهتمام الأمبراطور إلى حركة الاصلاح الديني وبالصراع في أوروبا وفي ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م تنحى شارل الخامس عن العرش بعد توقيعه معاهدة الصلح أوجزبرج يأساً من عجزه في القضاء على البروتستانتية واستعادة الأمبراطورية الرومانية المقدسة [٤] وأعطى الحرية لكل أمير في اختيار المذهب الذي يروق له في امارته وعلى الرعايا الذين يرغبون في البقاء أن يدينوا بالمذهب المختار، وإلا فلهم الحق في مغادرة

(١) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. P. 102- 103

(٢) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث ، ص ٨٤ .

(٣) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 104.

(٤) Stangard Shov: History of the Ottoman Empire P. 106.

الولاية التي يعيشون فيها إلى الولاية التي تدين بالمذهب الذي اختاروه لأنفسهم ولكل شخص منهم الحق في أن يأخذ معه أمواله دون مضايقة وتبقى أملاك الكنيسة الكاثوليكية التي أخذها البروتستانت قبل عام ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م في أيدي من استولى عليها من رجال الدين أو غيرهم، أما الأملاك التي فقدتها قبل عام ٩٦٠ هـ / ١٥٥٢ م فيجب ردها إلى الكنيسة الكاثوليكية في ررما وهكذا كان صلح أوجزبرج من الناحية انتصاراً كبيراً للبروتستانتية أدى إلى تجزئة المانيا وبعثرتها إلى دويلات (١).

ولاحت في الأفق بعد ذلك نتائج جديدة نحو مناهضة العثمانيين في ظروف تجردت فيها المسيحية نتيجة للتطور السياسية والديني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من كافة المعاني والنبيلة والمثل العليا واضطرت بعض الدول المسيحية العظمى مثل فرنسا ودول وسط أوروبا بدافع الواقعية السياسية إلى ضرورة التحالف مع العثمانيين وبالتالي قام تناقض في الضعط المتواصل للتصور المسيحي وأطلق الشاعر الفرنسي رونسورد (Ronsord) العنان لخياله واقترح عام ٩٦٣ هـ / ١٥٥٥ م طريقة لانقاذ أوروبا إذ تسلم الأقاليم الأوروبية الى العثمانيين وتنقل المجتمعات الأوروبية بالكامل إلى العالم الجديد وتواصل نموها دون عرقلة الهجمات الاسلامية(٢) واستعاد الأدباء إلى خاطرهم وبطريقة متشائمة تدمير الحدود الرومانية بواسطة الغزاة (البرابرة) أما الوعاظ ومؤلفو كتب الدعاية فقد اعتبروا العثمانيين وسيلة الاستياء الألهي من مجتمع مسيحي منحط ابتعد عن قيمه الدينية (٣).

وكان انتشار المذهب البروتستانتي قد قسم الأوروبيين على أنفسهم وقلل

(١) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحديث، ص ٨٤.

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. P. 147- 149.

(٣) Paq Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 110.

من امكانية استعادة الأقاليم المفقودة في شرق أوروبا فعلى سبيل المثال كانت ترانسلفانيا مرتعاً للأحداث الكاثوليكية والبروتستانتية وكان البروتستانيين قد نظروا إلى التمرد من تبعية السلطان بمساعدة النمسا الكاثوليكية بشيء من الفتور وفي بعض الأحيان بالرفض.

كانت جنوة قد استولت على مدينة جيجل في اواسط القرن الرابع عشر ، ووضعت بها حامية ، وجعلت منها مركزا للتبادل التجاري بين ايطاليا وافريقيا ، ثم تضاءل اهمية المركز التجاري شيئا فشيئا ، وتغلب اهل البلاد على الحامية (١).

بدأ السباق البحري (الجهادي ـ القرصني) بعد ذلك على السواحل المغربية وقد تعلق اساسا بالمقاومة الاسلامية المغربية بالاندلس ، حتى انه كان احد الاسباب التي وقفت وراء احتلال البرتغال لسبته (٢) ، وكانت مدينة سبتة تتحكم في المضيق كمركز لاغاثة الاسلام بالاندلس ، كما كانت من الناحية التجارية المركز الاول في هذا المضيق تؤمه سفن التجارة من اجل المرافىء الاسلامية الشرقية والاندلسية وغيرها فكان الاستيلاء عليها يسيل لعاب البرتغال الطامعين في الاسواق الخارجية ، ثم بدأت اساطيل البرتغال تحاول تحقيق تلك الاهداف ، فتوجهت صوب سبتة التي اشتبكت مع رجالها في حرب مستميتة ، سقطت بعدها المدينة بين ايديهم ورفعوا ، بها علمهم وتركوا بها حامية ، وكما هو معهود في البرتغال في اقامة تحصينات دفاعية في سبتة اثر احتلالهم لها(٣).

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٦٦ .

(٢) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٢٦٥ .

(٣) محمد بن تاويت : تاريخ سبتة ، ص ١٧٥ ـ ١٧٩ .

كان احتلال البرتغاليين لهذا الموقع الاستراتيجي الهام امرا بالغ الخطورة للمسلمين ، لان احتلال البرتغاليين لهذه المدينة كان من بين الاسباب التي اعاقت سكان شمالي افريقية عن تعزيز القوات الاسلامية في الاندلس عن طريق بوغاز جبل طارق ، ولذلك حرص البرتغاليون والاسبانيون من بعدهم على الاحتفاظ بهذا الموقع ثم احتل البرتغاليون مدينة طنجة في غربي سبتة لحكام الحصار حول المعبر الجنوبي لشبه جزيرة ايبيريا عن طريق بوغاز جبل طارق[1]

ازدادت حركة النزول البرتغالي عنفا ، فجهز الملك البرتغالي الاوفونش الخامس إسطولا كبيرا ونزل بالقصر الصغير بين سبتة وطنجة[2] ثم استقل البرتغاليون الاضطرابات الداخلية في المغرب وتمكنوا من اخذ اصيلا عنوة معززين بأربعماية وسبع وسبعين سفينة وثلاثين الف رجل واضطر محمد الشيخ الوطاس الى عقد اتفاق يقضي باقامة هدنة مدتها عشرون سنة تقضي بعدم الهجوم على المراكز البرتغالية المحصنة وتلقب ملك البرتغال بعد ذلك بلقب :

Rei de Portugal Ados Al Garves Daqueuse dalem mor en A)
fric)ولم يتمكن السلطان الوطاس رغم حزمه من بسط نفوذه الا على جهة فاس ، اذ خرج على طاعته البربر في الجبال واصحاب الطرق الدينية في الجنوب ، ولم ينفك البرتغاليون يواصلون زحفهم بلا انقطاع رغم ما اظهرته الزوايا من حماس في مقاومة الكفار ، واعترف القشتاليون للبرتغاليين بمقتضى اتفاقية بحقهم المطلق على ساحل افريقيا المواجه للجزر الخضراء « جزر كناريا بما فيه مملكة فاس ، كما مكنوهم من احتكار التجارة ورغم فشلهم الذريع في الاستيلاء على جزيرة لكوس (Loukkos) فانهم تمكنوا من تحصين مراكزهم الاربعة في سبتة والقصر الصغير وطنجة واصيلا[3] ، وهكذا نجحت البرتغال

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٠٠ .
(٢) محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٦٣ .
(٣) شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

في التطور بهذه العلاقات من معالم الصفحة التاريخية (الجهادية ـ الصليبية) الى معالم الجاذبية الاستعمارية في معاملاتها التجارية والسياسية مع شيوخ القبائل والسلطات المغربية وظهرت معالم هذه السياسة واضحة عندما عقدت الاتفاقية السابقة مع محمد الوطاس ، كما طبقت البرتغال وبنجاح ذلك الاسلوب من المعاملات في الجنوب المغربي ، واتخذت من علاقاتها التجارية بالقبائل حول ازمور واسفى واكادير مدخلا اساسيا لفرض حمايتها السياسية والعسكرية على شيوخ هذه القبائل ، ومن ثم متدمة للتوسع في سلسلة جيوبها الاستعمارية في هذه المدن الساحلية [١]

ازداد انحلال دول شمال افريقيا وتفاقم الامر اثر الخلافات بين الجزائر والمغرب وتونس وبين سكان الجبال والسهول ، وبين السكان الاصليين والوافدين الجدد من الاندلس ، وفي الواقع كانت شمال افريقيا ارضا غير مناسبة للحرب ، كما ان سكانها كانوا غير ملمين بوسائل قشتالة الحديثة ، فاستغل الاسبان تلك الخلافات الداخلية وامكانياتها في الاخذ بنصيبهم في الشمال الافريقي [٢]

كانت هناك عوامل اخرى دفعت الحكومة الاسبانية الى تأسيس جيوب صليبية على سواحل شمال افريقيا ، ونتيجة ازدياد الروح الوطنية بين الاسبان بعد ان تمكنوا من القضاء على الدويلات العربية في الاندلس واخراج العرب منها ورغبة الاسبان في مطاردتهم للتنكيل بهم ومطاردة معتنقي الاسلام اينما وجدوا علاوة على ذلك فان الاسبان ورثوا الحضارة العربية ، التي كانت قائمة في بلادهم وعرفوا التكتيك العربي بعملهم في السفن العربية وبسبب ذلك تمكنوا من اكتشاف امريكا وادى هذا الى شعور الاسبان بالقوة والسيادة ، كما رغب الاسبان في احتلال قواعد في الشمال الافريقي لامتلاك المواني والاسواق

(١) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية ، ص ١٢٠ .

(٢) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 41.

التي يستطيعون منها احتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي ترد اليها عن طريق القوافل من وسط افريقيا ، ولمزاحمة المدن الايطالية جنوة والبندقية والتي استغلت واحتكرت التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة [١]

توفرت لدي الاسبان ومن قبلهم البرتغاليين الاسباب الكافية لمحاولة مد نفوذهم الى المغرب وقد عزز من هذا الاتجاه الاوضاع الداخلية في البلاد ، اذ كان الحكام في تلك البلاد في حالة من الضعف والعجز لا تسمح لهم بمقاومة تذكر للتعديات البرتغالية والاسبانية [٢]

جهزت اسبانيا بضغوط من الكنيسة ، وتشجيع من الراهب خيمنيس اسقف طليطلة جيشها واسطولها لغزو المغرب العربي ، وبادر البابا باصدار قرار يعطي به الولاية لملكي اسبانيا على الارض التي يفتحانها بهذا الغرب ، كما سبق وان اصدر البابا نفسه اسكندر الرابع عهدا يبارك به الصليبية الاسبانية بافريقيا ، عندما بدأ التفكير الجدي في احتلال المغرب العربي [٣] كما سمح البابا بمداومة جباية الضرائب لتغطية تكاليف تلك الحرب[٤]

تم الاتفاق بين اسبانيا والبرتغال على تقسيم شمال افريقيا وذلك بمقتضى معاهدة توردى سيلاس والتي قسمت بمقتضاها المغرب الى منطقتين الاولى تقع شرق حجر باديس ويتولى الاسبان فيها بمهمة الاستيلاء عليها ، والثانية تقع غرب هذه النقطة وقد تركت للبرتغال [٥] ، وكانت تلك المعاهدة قد طبقت فيها النظرية الاستعمارية وهي ان كل طرف لا ينازع الطرف الاخر في وصوله للهند وهي من سمات العصور الحديثة .

(١) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ، ص ١٥٩ .
(٢) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانكليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠ ، ص ٣٨ .
(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٨٠ ـ ٨١ .
(٤) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 41.
(٥) محمد بن عبد السلام ابن عبود : تاريخ المغرب ، ج ٢ ، ص ١٥ .
صلاح العقاد : المغرب العربي ، ص ١٥ ـ ١٦ .

كان الملوك الكاثوليك يبعثون بالمسافرين الموالين لهم لدراسة سواحل الشمال الافريقي واستهوتهم مليلة فاقنعوا البرتغاليين الذين خصتهم المعاهدة السابقة بكامل مملكة فاس بالتخلي عنها لقائدهم ، وبعد استقرار الامور في اسبانيا احتلها دوق مدينة شذونة (Sidonia) بدون اية مقاومة ، ومن هناك تتبع الاسبان تفاقم الصراع بين الوطاسيين والاشراف السعديين [١]

اهملت اسبانيا الجبهة الجديدة ضد الاسلام في الشمال الافريقي لفترة مؤقتة واكتفت في البداية بالاستيلاء على مليلة وكان الاسبان قد خافوا ان يعيد عليهم المسلمون الكرة من جديد ، ويستردوا مجدهم السابق ، وكان خوفهم على الاخص ان تمتد يد المساعدة الاسلامية من الشمال الافريقي لاولئك المسلمين المقاومين الذين قوض الاسبان سلطاتهم ، ولجأوا الى جبال البشرات بدينهم وايمانهم وعزمهم يزودون عن الاسلام بسلاحهم حتى الموت .

قامت الانتفاضة الاولى للمسلمين في منطقة البوشرات ، وبمجرد قيامها تيقنت اسبانيا بالخطر الداهم عبر شمال افريقيا واشعل ذلك الشعور الديني الى قيام حماس الاوروبيين ونشأة متطلبات جديدة لاقامة حرب صليبية ضد الاسلام ، وساند الاساقفة الدينيين والملكة هذا الشعور ، الا انه لم تتخذ اية خطوة ايجابية حتى وفاة ايزابيلا ولم يبقى سوى تنفيذ وصيتها الاخيرة الى زوجها وهي ان يكرس جهوده في فتح افريقيا وعلى ما اسمته حرب الايمان ضد العرب [٣]

توالت الهجمات المسيحية على الشمال الافريقي وصارت الحالة تدعو الى اليأس فكانت في اشد الحاجة للانقاذ لا سيما وقد تجددت الدعوة في اوروبا الى اتحاد المسيحية لتجديد الحرب الصليبية وتنفيذ وصية ايزابيلا [٤] .

(١) شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٣) J. . Elliott: Imperial Spain P. P. 41- 42.

(٤) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون ، ص ١٨٦ .

قامت حكومة مدريد بأول محاولة لتنفيذ تلك الوصية واختير ميناء المرسى الكبير في غرب الجزائر لنزول اولى هذه الحملات الاسبانية ، ويبدوا ان اختيار هذا الميناء كان ردا على غارة قام بها بحارته على شاطىء بلنسية[١] ، علاوة على ذلك اهمية الميناء التجارية ، اذ كان من عادة سفن البندقية ان تلجأ الى المرسى الكبير عند تلبد الجو ، وترسل بضائعها في قوارب الى وهران واذا كان الجو صحوا قصدت وهران مباشرة[٢] كما يعتبر ميناء المرسى الكبير قاعدة استراتيجية لها اهميتها في عملية تسهيل الهجوم على وهران من قبل الاسبان[٣]

ابحرت الحملة الاسبانية من مالقة ٧ ربيع الاول ٩٠٩ هـ / ٣ سبتمبر ١٥٠٥ م ، متوجهة نحو الشاطىء الجنوبي للبحر المتوسط ورست تجاه المرسى الكبير الذي احتلته في ١٤ ربيع الاول / ٩ سبتمبر ، ثم كانت بعدئذ معركة قرية مسرغين الواقعة على بعد خمسة عشر كيلو متر من وهران ، وانهزم الجيش الاسباني ، وفر الى المرسى الكبير ومعتصمين بأسواره ، ثم توالت الحروب والهزائم الاسبانية على السواحل المغربية[٤] واتجه اهتمام الحكومة الاسبانية وعلى رأسها القائد (Cisneros)الى الاوضاع الداخلية والحروب الايطالية[٥]

وجه فرديناند الكاثوليكي ملك الارغوان اهتمامه الى الحروب الايطالية لان مسألة افريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية بالنسبة له وعندما ظهر الكساد على الشؤون الايطالية بعد ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م ، كان على فرديناند ان يتدخل وبشكل حازم في افريقيا ولكن بعد دراسة حساب وضعية الخزينة والتي لا تسمح بتدخلات حربية لا مغنم منها ، لذلك لم تكن السياسة الافريقية مستقلة بذاتها ،

(١) صلاح العقاد : المغرب العربي ، ص ١٧ .
(٢) الحسن بن محمد الرزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٣١ .
(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 42.
(٤) عبد الرحمن الجيلاني : تاريخ الجزائر العام ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .
(٥) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 42.

ولا يمكن فهمها بدون ربطها بسياسة اسبانيا العامة [1]

كانت سواحل اسبانيا عرضة لغزوات المسلمين ، والتي كانت تنطلق بصفة خاصة من وهران والجزائر وبجاية ، ولذلك كانت تخرج المراكب الاسبانية تغزو سواحل افريقيا الشمالية وتنهبها ، وكان احتلال الشمال الافريقي قد بدا شيئا ضروريا للاسبان ، تدعوا اليه اسباب سياسية واقتصادية ، وفي نفس الوقت اسباب دينية [2]

تولى بيدرو نافارو (Pedro Navarro) قيادة الاساطيل الاسبانية فقام بالاستيلاء على حجر باديس (Penon de Velez)الواقعة في سواحل المغرب الاقصى سنة ٩١٤هـ /١٥٠٨م ،وفي العام التالي هاجم وهران [3]ونجح في اقتحام اسوارها بسهولة لخيانة القائدين المسؤولين عن حراسة وهران ، ثم قام الاسبان بارتكاب اعمال وحشية اشرف عليها الكاردينال خيمنيس اسقف طليطلة بنفسه فقتل اربعة لآلاف واسر ضعف العدد ، وقام بتحويل مسجدين الى كنائس وعين دون دييجو قائدا عاما لمدينة وهران والمرسى الكبير ومملكة تلمسان ويدل ذلك على ان الاسبان كانوا مصممين على احتلال تلمسان ، ولكن النفقات الكثيرة حالت دون توسيع دائرة الاحتلال [4] ، وكانت الدولة الزيانية في تلمسان قد بلغت ارذل العمر حيث لم يعد نفوذها يتجاوز رياض المدينة ، بينما تكونت امارة قبلية متعددة في شرق المغرب الاوسط وجنوبه ، لا تهتم بغير التطاحن فيما بينها ، لذلك لم يجد الاسبانيون صعوبة في الاستيلاءعلى أهم الموانى المرسى الكبير ووهران ومن بعدها تنسى وبجاية والجزائر ومستغانم [5]

(١) شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .
(٢) أتوري روس : ليبيا منذ الفتح العربي حتى ١٩١١ م ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .
(٣) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ١٥ .
(٤) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٢٠ .
(٥) محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، ج ١ ، ص ٣٨

، وكان سقوط المرسى الكبير ووهران خسارة عظمى لمملكة تلمسان ، حتى ان الشعب طرد الملك ابا حمود وعينوا احد اعمامه واعمام ابيه ابى عبد الله المدعو ابا زيان ، ولم يعد تجار البندقية يقصدون وهران لكونها مليئة بالجنود الاسبان ، فطلب منهم اهل تلمسان ان يأتوا الى هنين [١]

انطلقت السنة العلماء والشعراء بتوجيه الدعوة الى الولاة والرؤساء وامراء القبائل لانقاذ وهران من هذا الاحتلال الغاشم والعودة بالائمة على مشايعي الاسبان من بني عامر الذين ساعدوا في الاحتلال الاسباني وهذه قصيدة الشيخ ابى العباس احمد بن القاضي تخبر بذلك :

فمن مبلغ عني قبائل عامر ... ولا سيما من قد ثرى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشد ... بتيجانهم مع رأسها عبد قادر
وجيرانهم في الغرب من كل ماجد ... طويل القنا أهل الوفاء والمغافر
وطلحة والأحلاف في غرب هذه ... وشيخ سويد بل وكل مفاخر
وشيخ بني يعقوب والكمي الفتى ... بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الاسلام في كل موطن ... وفي كل نادٍ سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من آل هاشمٍ ... وغيرهم بالله ما صبر صابر ؟
ويا معشر الأتراك يا كل عالمٍ ... وكل ولي حافظ لك وآمر
أُناشدكم بالله ما عذر جمعكم ... لدى الله في وهران أمر الخنازر. إلخ[٤]

وهكذا تتجدد الاستغاثة مرة أخرى بالدولة العثمانية القائمة بالفتوحات الاسلامية لانقاذ معقل آخر من المعاقل الاسلامية ، وفي هذا الوقت كانت الدولة تواجه الخطر الصفوي في الشرق ، علاوة على ذلك تريد أن تؤمن ظهرها في الدانوب ، وتعزز فتوحاتها في شرق أوروبا .

(١) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص٩ .

(٢) عبد الرحمن محمد بن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

تسبب احتلال ساحل افريقيا في عامي ٩١٥ ـ ٩١٦ هـ /١٥٠٩ ـ ١٥١٠ م في زيادة الخلافات بين فرديناند وسينروس (Cisneros) في التوغل داخل افريقيا حتى مشارف الصحراء الكبرى وتأسيس دولة اسبانية موريتانية في افريقيا بدافع من روح الحرب الصليبية ، ومن ناحية أخرى لم يبد الملك الكاثوليكي اهتماماً كافياً للمسألة الأفريقية ، وأخذ في الاعتبار القيام بأعمال حربية لحماية ايطاليا وقطع سينروس (Cneros) كل اتصالاته مع الملك ، وانسحب الى جامعة الكالا (Al Cala) سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٩ م ، وسيطرت بعد ذلك سياسة فرديناند حتى نهاية حكمه[١] .

اخذ الاسبانيون في ارهاق الجزائريين والتضييق عليهم بفرض الضرائب الباهظة على مكاسبهم التي تأتيهم عن طريق البحر ، كما فعلوا كذلك بسائر السواحل الجزائرية فضاق الجزائريون بهؤلاء الاسبان ذرعا وسئموا من هذه الاهانة والذل [٢] ولكن لم تكن لديهم المقدرة للمقاومة .

قام الجزائريون بتسليح انفسهم واغاروا على الجزر الاسبانية ميورقة ومنورقة ووصلوا بغاراتهم الشواطىء الاسبانية نفسها ، لذلك ارسل الملك الكاثوليكي اسطولا كبيرا لحصار الجزائر ، فشيدوا قلعة كبيرة في جزيرة مقابلة تماما لمدينة الجزائر وكلف القائد بيدرو نافارو احد قواده بتشييد برج (Penon)ويقوم بقذف المدينة بالمدفعية فاضطر اهل الجزائر بايفاد سفارة الى اسبانيا تطلب الهدنة مقابل بعض الخراج ، فقبل الملك الكاثوليكي ذلك ، وعاشوا في السلم بضعة اشهر[٣]

كان البجائيون اناسا طيبين يميلون الى المرح والموسيقى لا سيما الامراء منهم الذين لم يشهروا الحرب على أحد، وقد ظهر ضعفهم واضحاً عندما جاءهم

(١) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 42.

(٢) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

(٣) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

الكـونت بيدرو نـافارو ببعض سفن النقـل في ٢٣ رمضان ٩١٥ هـ / ٥ ينـايـر ١٥١٠ م ، فروا الى الجبال المجـاورة حاملين معهم كـل ما يملكـون دون ان يبدوا مقاومة واخذ الكونت بيدروا نافارو المدينة ، وشيد قلعة اسبانية في موقع هام ، كما حصن القلعة القديمة المجاورة للبحر [١]

احدث سقوط بجاية في البـلاد الاسلاميـة اسى عميق لقرب العهـد بين سقوطها وبين نكبة وهران وساد القسم الشرقي من البلاد نوع من الهلع والخوف وبـادر السلطان الحفصى بتونس ابـو عبد الله عم المتـوكل بـاسترضـاء الملك الاسباني والتقرب اليه واعلن تبعيته لاسبانيا ، كما فعل ملك تلمسان في السابق عندما سقطت وهران وتعهد بدفع جزية سنوية للملك الاسباني ، كما تمكن عبد الله بجاية الشرعي والذي سبق وان خلع من مغادرة سجنه ، وسار به البعض الى أنصاره ثم قابل بيدرو نافارو واعلن الولاء لأسبانيا ، وقرر بيدرو نافارو أن يقسم صف المسلمين ويضرب بعضهم ببعض بمساعدة الملك عبدالله فهاجم المسلمين في بعض المعاقل وتمكن الأسبان من المسلمين[٤] ثم قام الأسبان بنهب بجـاية ونقـل جميع النفائس والمغانم إلى اسبانيا في ثلاثين مركب ، كـما هدمـوا منار قصر اللؤلؤ الـذي يُعتبر من أعـظم آيات فن المعمـار الجزائـري ، وحـطمـوا قصر الكـوكب والمسجد الجامع[٣] .

صارت بجاية مدينة خالية من سكانها الاصليين ولا يوجـد بها الا رجـال الحامية الاسبانية والمبعدين من اسبانيا والغير مرغوب فيهم ، الى جانب الملك عبد الله الذي لا يملك من الملك الا اللقب ويتولى امر الحاكم العام ، وبجانبه ممثل العدالة القاضي الاسباني (Al Cade) وهو اشبه بمعاون الحاكم ، وهناك المشرف على الادارة المحلية المسمى الفيدور (Al Vudor)ومن مهام وظيفته تسلم الغنائم والاسلاب التي تؤخذ اثناء الغارات على المسلمين والارسال بهـا

(١) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٢٦ ـ ١٢٩ .

(٣) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٢٠ .

الى التاج الاسباني كما اعلن الملك الاسباني حمايته للتجارة الاسبانية مع بجاية وفرض ضريبة مقدارها ٥٠ ٪ على الاقمشة الصوفية المستوردة من بجاية اذا لم تكن صادرة الى مرسى برشلونة ، كما اعلن الملك الكاثوليكي انه يجب ان تكتفي بجاية بمواردها الاقتصادية وان لا تتلقى اي اعانة مالية من اسبانيا سواء لدفع اجور الجيش او مرتبات الموظفين او للقيام باعمال دفاعية فكانت تلك الموارد عبارة عن الجزية والاتاوات التي فرضها الاسبان على امراء وشيوخ المسلمين ، وكانت تلك الموارد تكفي من الناحية النظرية لقيام الادارة المحلية بما هو مطلوب منها ولكن من الناحية العملية كان الامر مخالفا للواقع اذ ان المسلمين لم يكونوا يقبلون التعهد بدفع الجزية الا من اجل التخلص من الضيق وبصفة مؤقتة ، فاشتدت الضائقة بالاسبان الى درجة فادحة . [١]

صارت اسبانيا اثر تلك العمليات سيدة الموقف دون منازع ، فيما بين بجاية شرقا ووهران غربا وصخرة الجزائر وسطا ثم ان القيادة الاسبانية والتي كانت تنفذ برنامجا دقيقا من اجل الاستيلاء على المدن الساحلية قد اخذت تضيق الدائرة فاحتلت مدينة عنابة وسلك الاسبان نفس الطريق في السلب والنهب وانتهاك الحرمات ثم ترك بها حامية لحراستها . [٢]

وهكذا تمكن الاسبان خلال بضعة سنوات من السيطرة على النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الاوسط وكان بامكانهم الاعتماد عليها للسيطرة على المغرب الاوسط كله مستغلين حالة الضعف والتمزق السائدة فيه ، لكنهم لم يفعلوا وظل احتلالهم ناقصا مقصورا على السواحل . [٣]

لم تكن مطامع الاسبان لتقف عند حد عنابة وما حولها من المدن الساحلية بل كانت ترغب في أن تمتد سيطرتها إلى أبعد من ذلك إلى مملكة بني حفص،

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٣٦ ـ ١٣٨ .

(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٤١ .

(٣) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٢١ .

فسار بدرو نافارو بعد أن وطد أموره في مدينة بجاية وما حولها على رأس أسطول يرتاد الساحل التونسي لكي يجد نقط الضعف الذي تمكنه من النزول والتي يتخذ منها مركز لعملياته المقبلة، لكن سكان مملكة بني حفصى التونسية كانوا قد أخذوا في تعمير الثغور الساحلية وحراستها بعد أن انهالت نكبات وهران وبجاية فغير بدرونا فارو من خطته ورأى احتلال مدينة طرابلس الغرب ثم يتقدم نحو الشمال على الأراضي التونسية والذي يكون بين طرفي كلابة وكان أهل طرابلس يتصفون بالكفاح والصلابة [1].

اتجه الأسطول الاسباني إلى جزيرة غوزو (Gozo) بمالطا وانضم إليه بعض المالطيين بصفة مرشدين ذلك لمعرفتهم بطرابلس وتولى الارشاد والبجري المرشد المالطي جوليانو أبيلا (Guiliono Abela) وكانت الحملة مكونة من ستين سفينة وحوالي مثلها مراكب شراعية، وفي مالطا انضم اليها خمسة سفن مالطية مسلحة تسليحاً جيداً، وكان عدد الجنود حوالي خمسة عشر ألف جندي اسباني وثلاثة آلاف ايطالي ومجموعة من المغامرين [2].

رسا الأسطول الاسباني في ميناء طرابلس، ورتب الكونت بيدرو نافارو جيشه ثم فتح نيران مدافعه على المدينة، وتمكن الاسبان من احتلالها ودخلوا الجامع الكبير فقتلوا فيه أكثر من ألفي شخص ثم هاجموا القصر حيث أسروا والي المدينة وبعض الزعماء [3].

أثار احتلال طرابلس بهجة خاصة في ايطاليا، ودعا مندوب البلاط البابوي في بولونيا فرانشيسكو اليدوس (Francessco Alidosi) المسيخيين إلى تنظيم مظاهرة كبيرة تعبيراً عن فرحتهم وبهجتهم، كما تبادل دوق البندقية التهاني مع ملك اسبانيا، وفي روما نظم موكب ديني احتفالاً بسقوط طرابلس، وكان استقبال

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٢) اتو روسي : ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ م ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ .
(٣) حسن سليمان محمود : ليبيا الماضي والحاضر ، ص ١٦١ .

هذا النبأ عظيماً يتناسب مع ما كانت تتمتع به طرابلس من سمعة باعتبارها مدينة غنية وقوية بحصونها وقد شجع ذلك ملوك اسبانيا على أن يدفعوا بحملاتهم نحو افريقيا ويبدو أن الحماس قد سرى إلى الملك الكاثوليكي نفسه، فرغب أن ينهض بنفسه إلى قيادة حملة تهدف إلى توسيع رقعة انتصاراته (١).

استاء المسلمون لسقوط طرابلس وقابله الطرابلسيون المقيمون في الاسكندرية بعمل عدائي ضد الاسبان (٢).

ورغبة في ضمان استمرار السيطرة الاسبانية على طرابلس واتخاذها قاعدة للعمليات الحربية القادمة في افريقيا نهض الكونت على الفور إلى حملة ضد جزيرة جربة وبعد أن استلم دعماً قوامه ثلاثة آلاف رجل بقيادة ديجو دي فيرا (Diego de Vera) غادر طرابلس في ٢٢ جمادي الأول ٩١٦ هـ / ٢٨ اغسطس ١٥١٠ م على رأس حملته وترك لحماية طرابلس والدفاع عنها حامية مكونة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة الكولونيل سامانيجو (Samanyego) وبالومبينو (Palumbino) وقد حمل الكونت بدرونا فارو معه اثني عشر ألف جندي ولحقت في جربة سبعة عشر سفينة اسبانية بقيادة دون غارسيا دي توليدو (Garcia de Taledo) وعلى ظهرها ثلاثة آلاف رجل، وجرت المعركة في جو شديد الحرارة وانتهت إلى كارثة حين أخذت القوات المسيحية تتهافت في فوضى وتشتت على إحدى الآبار (٣).

لم تضعف هزيمة جربة من شأن الانتصارات الاسبانية إذ ظلت المراسي التي لم تعرف الاحتلال خائفة من أن ينالها ما نال المرسى الكبير ووهران وبجاية وطرابلس، وعرضت تنس ودلس وشرشال ومستغانم دفع الأتاوة ، كما عرض الوفد الجزائري ٩١٧ هـ - ١٥١١ م، على مجلس سرقسطة (Saragossa)

(١) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ، ص ١٦١ .

(٢) اتوري روسي : ليبيا منذ الفتح العربي ، ص ١٤٨ .

(٣) شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

تسليم أكبر جزر الجزائريين الصخرية للاسبان حتى يقيموا عليها معقلاً ليحرس تجارتهم ويضمن حرية مواصلاتهم البحرية، ويجعل مدينة الجزائر نفسها تحت رحمة مدافعهم [١].

وهكذا وضعت اسبانيا لنفسها موضع قدم في أفريقيا كانت عبارة عن نقط ارتكاز أمامية منعزلة للدفاع عن سواحلها الخاصة، كما شيدت سلسلة من القلاع على طول الساحل الشمالي لافريقيا ولكن تحول الأحداث في ايطاليا جعلت فرديناند يهمل في تمديد دفاعاته الأفريقية والاستيلاء على الأجزاء الداخلية للمغرب وهذه الفرصة التي فقدها لم تتكرر مرة أخرى [٢] ولجأ الاسبان بعد ذلك إلى الخمول واكتفوا بالاستيلاء على الشريط الساحلي الضيق مما تسبب في قيام القرصنة البربرية انطلاقاً من القواعد المقامة على امتداد الساحل [٣]، وعاشت القلاع والحصون الاسبانية في حالة حصار طوال فترة الاحتلال الاسباني وكانت حياة الجند شاقة جداً لأنهم كانوا لا يجدون دائماً ما يسد الرمق ولا يتقاضون مرتباتهم بانتظام ولجأوا إلى نهب مواشي القبائل الرحل، وبلغ يأس الجنود مبلغاً جعلهم يفكرون في أن يتحولوا إلى مسلمين[٤].

وهكذا حرص الاسبان على إخضاع سواحل شمال أفريقيا لتتم لهم السيادة، على الحوض الغربي للبحر المتوسط، ولكي يقارعوا الأساطيل العثمانية التي صارت لها السيادة في حوضه الشرقي [٥]، وحتى يدافعوا عن سواحلهم من المجاهدين المسلمين الذين حرضوا على امداد اخوانهم في الأندلس، واستمر الأمر كذلك حتى مجيء شارل الخامس إلى عرش الأمبراطورية الرومانية المقدسة ورأى في وجود الجيوب الصليبية في الشمال

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٢٧ .

(٢) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 93.

(٣) J. H. Elliott: Imperial Spain P. 42.

(٤) شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٥) محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٦٦ .

الأفريقي حماية للحدود الجنوبية لأمبراطوريته، لذلك سارت سياسته على نفس النهج السابق، لتحقيق أهدافه، وهذا ما نلاحظه في الفترة التالية.

شهدت سواحل غرب البحر المتوسط في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي صراعاً اسلامياً صليبياً اتسم بطابع جديد، حيث انتقلت المواجهة من البر إلى البحر، ونتج عنه قيام الطرفين بشن الغارات البحرية كل ضد الآخر، وهو ما عرف عند الأوروبيين باسم القرصنة، والواقع إن ما كان يقوم به المسلمون لا يمكن أن نسميه بالقرصنة، وإنما بحركة الجهاد الاسلامي الذي تتطلبه الأوضاع الجديدة هناك، ونتيجة لاضطراب العلاقات البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدويلات المسيحية، كذلك رغبة الاسبان في تحرير أنفسهم من وفهم من فتح جديد للأندلس، ومن هنا فإنه لا يمكن تفسير ما قام به المسلمون إلا أنه رد فعل لما قام به سكان شبه الجزيرة الايبيرية من اضطهادهم واجبارهم على قبول التعميد والدخول في المسيحية، الأمر الذي قوبل بالمقاومة من قبل مسلمي شبه الجزيرة الايبيرية واضطرت اعداد كبيرة منهم إلى الهرب بدينهم.

وكانت الأوضاع في غرب البحر المتوسط ملائمة لنشاط حركة الجهاد الاسلامي، لأن اسبانيا كانت ترى أن أهم ما يربط ممتلكاتها الساحلية هو ضرورة وجود عدد من الاستحكامات والقواعد البحرية الساحلية حتى تتمكن من التحرك والسيطرة، الأمر الذي أدى إلى قيام المجاهدين في شمال أفريقيا بمهاجمة موانىء السواحل الاسبانية باستمرار والحاق الضرر بسفنها واقتصادها،

كذلك كان جبل طارق يمثل نقطة التقاء تجارة البحر المتوسط وتجارة بحر الشمال بحيث كان ميداناً هاماً لتكثيف حركة الجهاد وقد تمكن هؤلاء المجاهدون في بعض السنوات من إقفال طريق الملاحة في جبل طارق ومنعوا سفن جنوا من الوصول إلى الأراضي المنخفضة في شمال غرب أوروبا، وقد تكونت نتيجة لذلك مجموعة من المراكز البحرية الاسلامية امتدت من جربة إلى مراكش، شملت تونس، بنزرت، بجاية، الجزائر، وهران سلا، الرباط، وجهزت كل مجموعة اسطولاً خاصاً بها للتجول في البحر المتوسط، حيث وجهوا اهتمامهم نحو تخريب ممتلكات العدو، وسبي ما استطاعوا من رجال ونساء ومد يد العون والمساندة للمنكوبين من مسلمي الأندلس [١] الذين ما إن استقر بهم المقام بعد ذلك في المدن الأفريقية حتى أخذوا يعملون على الانتقام من الاسبان الذين أخرجوهم من ديارهم [٢] بتجهيز سفن القراصنة لمهاجمة السفن والسواحل الاسبانية [٣].

وكان المغرب في هذه الفترة يعيش وضعية تفكك سياسي، بلغ حداً من التدهور والانحلال لم يصل إليه قط قبل ذلك، فالدول القائمة فيه شاخت وأخذ زمام الأمور يفلت من يدها تاركاً المجال فسيحاً للفتن الداخلية والباب مفتوحاً للهجمات الخارجية، وزاد من سوء حظ هذه البلاد أنها تردت في هذا الدرك السحيق، في وقت كان الغرب المسيحي يعيش نهضة كبيرة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية وقد فتحت له الكشوف الجغرافية آفاقاً واسعة في أمريكا، والشرقين الأوسط والأقصى وجعلت الثروات الطائلة تتكدس بين يديه، الأمر الذي اغرى الدولتين المسيحيتين في شبه الجزيرة الايبيرية بالانقضاض على أفريقيا الواقعة في طريق المستعمرات الجديدة، خاصة

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .
(٢) محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٣٦٢ .
(٣) Stanford Show: A History of the Ottoman Empire P. 96.

المغرب الكبير الذي ما زال رجال الكنيسة، والملوك المتعصبون يدعون إلى اكتساحه والقضاء على سكانه [1] ولتحقيق ذلك يجب استعمال جند كثيف يعيش على البلاد المحتلة، فيخفف عن اسبانيا بذلك غائلة الخصاصة ومن المغرب العربي يقع الاتصال براً بأفريقيا الوسطى وقد شاع يومئذ وذاع عنها أنها بلاد التبر، وأن خيراتها لا تنضب لها معين، زد على ذلك أن الاستيلاء على سواحل المغرب العربي يقضي القضاء المبرم على القرصنة الاسلامية التي نشأت على ضفافه، والتي كانت تقابل العدوان بالعدوان وتستعيد لهؤلاء المنكوبين من مسلمي الأندلس بعض ما أخذ منهم ظلماً وعدواناً.

إن التمكن من احتلال المغرب العربي يجعل الحوض الغربي من البحر المتوسط بحراً اسبانيا بحتاً خاصة وأنها كانت تملك الساحل الجنوبي الغربي من ايطاليا، وتملك أهم الجزر التي فيه صقلية، وسردينيا، كورسيكا، الباليار، فهي بذلك تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه في الحوض الغربي منه، وتحمي بذلك سياسة (بحرنا) الرومية [2] ، وبدت تلك الحروب حرباً صليبية لكن بأهداف وأسلوب جديدين، فوجدت تلك الحرب تشجيعاً من الدوائر التجارية الناشئة في غرب أوروبا والتي كانت تهدف إلى السيطرة على التجارة العالمية وطرق ووسائل نقلها واشتركت رغبات رجال المال والأعمال الأوروبية الناشئة مع آمال الكنيسة في السيطرة على الشواطىء الأفريقية ثم النفاذ إلى داخلها حيث يمكن للحركات التبشيرية أن تؤدي دورها في خدمة المسيحية في نفس الوقت الذي يمكن فيه تحقيق الأهداف التجارية [3] .

ركزت اسبانيا والبرتغال حملتهم الصليبية في عنف على المسلمين

(١) عبد الرحمان تشانجي : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .
محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، ج ١ ، ص ٣٧ .
(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .
(٣) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ، ص ٢٣٦ .

وأخذت تقتفي آثار مسلمي المغرب في حرب صليبية صاخة مبيدة في الجزائر والمغرب وتونس وتوغلت البرتغال في المغرب ولم يجد مقاومة تذكر لانهيار المغرب في هوة سحيقة من التفكك حتى أن بعضهم توسط في فداء الأسرى وحاول أن يعقد معاهدة مع البرتغال مقابل المحافظة على حياتهم وممتلكاتهم في هذه الحرب الصليبية الغاشمة[١].

تطورت الأوضاع في اسبانيا وردد ملكها فرديناند في آخر حياته القول بأن حلمه تحقيق السلام في أوروبا والانطلاق بحملة صليبية كبيرة لاحتلال مصر التي كانت من أهم المراكز للقوة الاسلامية في تلك الفترة ثم الاتجاه بعد قهر مصر إلى القدس لاحتلالها هي الأخرى، ولطالما حشد فرديناند الجيوش وأكثر من بناء السفن لايهام الناس بأنه يريد غزو الساحل المغربي قبل أن يعدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة ويوجه جيوشه وسفنه لمقاتلة الفرنسيين في ايطاليا[٢]، كانت تلك الأحداث تسير في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تدعم نفوذها البحري في شرقي البحر المتوسط لتنفيذ الجزء الثاني من خطتها لاسترداد الأندلس.

كان عام ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م بداية حلقة جديدة في تاريخ العالم أكدت استمرار التقدم والتفوق العثماني، وفي تلك السنة كان كلاً من شارل وفرنسوا مرشحين لوراثة الأمبراطورية الرومانية المقدسة، وكلاهما وعد باستخدام جميع القوى في مناهضة العثمانيين وقد رأى الناخبون في شارل أنه أنسب من فرانسوا في تحقيق هذا الهدف مما تسبب في اندلاع الحرب بين الملكيين المسيحيين وأثناء هذه الحرب أمكن للسلطان العثماني سليمان القانوني أن يستولي على بلغراد بوابة وسط أوروبا وتبعها بالاستيلاء على رودس مفتاح شرق البحر

(١) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون ، ص ٢٢١ .
(٢) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٣٢ .

المتوسط من أيدي فرسان القديس يوحنا [1]، وبذلك ضمن السلطان سليمان الحصول على قاعدة يستطيع أن يوجه منها عملياته مباشرة ضد شارل الخامس، وحتى يكون الهجوم أكثر دقة كان لدى السلطان قائد له أهمية كبرى هو خير الدين باربروسا باعتباره تابعاً للسلطان، وباسم الاسلام وجه خير الدين كفاحه في غرب البحر المتوسط حيث كان القائد لقوة جديدة [2].

وكانت امبراطورية شارل الخامس تضم قشتالة وأراغون وأملاكها في البحر المتوسط (نابولي وصقلية وسردينيا)، والنمسا وملحقاتها ولوكسمبرغ وهنغاريا ومورافيا بالإضافة إلى ممالك أخرى شملت نصف القارة الأوروبية والمستعمرات الكبيرة في العالم الجديد وإذا كانت الأملاك التي ورثها شارل الخامس على هذا الاتساع الكبير فإن المشاكل كانت ضخمة [3] وتتعارض مع أماني شارل.

انفجرت القوة العثمانية في شرق البحر المتوسط ومنطقة الدانوب واضطرت أسرة الهابسبرج في اعداد عدتهم لمواجهة العثمانيين المتقدمين في عدد من النقاط الاستراتيجية في المناطق السابقة[4].

كان شارل الخامس حريصاً وحذراً من التهديدات العثمانية على أراضي استريا (Styria) وكارنيولا (Corniola) وأقليم كارنتيا (Carinthia) إذ تعددت الهجمات على تلك المناطق، وتمنى شارل أمام الأخطار السابقة على الأمبراطورية الرومانية المقدسة من الناحية الشرقية بأن يوحد المسيحية للوقوف في وجه المسلمين الغازيين، إذ كانت أوروبا ليست في حالة تستطيع مقاومة الهجوم العثماني المتجدد [5].

(١) ابراهيم شحاتة حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ٢٢٧ .

(٢) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 93.

(٣) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة، ص ١٢٥ .

(٤) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 119.

(٥) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone P. 24.

اضطر الأمبراطور شارل الخامس بصفته ملك اسبانيا إلى الاضطلاع بمهمة تنظيم المقاومة ضد الهجمات البحرية الاسلامية على البلاد الايطالية التابعة له وعلى خطوط الساحل الاسباني نفسه، إذ أنه من المحتمل أن تتقدم القوات الاسلامية وتسترد الأندلس وبصفة شارل امبراطور للأمبراطورية الرومانية المقدسة أدرك بطريقة مرهفة لدوره كحامي للمسيحية الكاثوليكية ضد الاسلام.

وحيث أن شارل كان مشغولاً بالصعوبات السياسية في اسبانيا وبداية العصيان اللوثري والجبهة الثالثة، إن كانت ليست حربية في العالم الجديد، لذلك قام شارل بنقل حقوق ملكية أراضي الوراثة النمساوية ودوقيات النمسا وكارنتيا وكارفيولا واستريا و (Tyrol) في ١٥٢١ - ١٥٢٢ م، (٩٢٨ - ٩٢٩ هـ) إلى أخيه الأصغر فرديناند الذي تمكن من عرش هنغاريا بعد وفاة ملكها لويس زوج شقيقته وبذلك يكون قد وضع نفسه أمام الخط الدفاعي الأول ضد الدولة العثمانية.

اضطرت أسرة الهاسبرج في اسبانيا وايطاليا الاسبانية وأوروبا الشرقية للاضطلاع بمسؤولية الدفاع عن قطاعات طويلة من منطقة الحدود الأوروبية وواجه فرديناند أكبر صعوباته في هنغاريا وذلك لأن ثلثي المملكة كانت تحت السيطرة العثمانية ولا يأمل في استردادها، ولكن بصفته رئيس فوج الرايخ (Reichs) وهو الجهاز الاداري للأمبراطورية الرومانية المقدسة وبصفته ملك الرومان استقدم فرديناند مصادر عديدة ضخمة وذلك لتدعيم سيطرة الهاسبرج على الأقاليم الشمالية الغربية لهنغاريا والتي ظلت خارج الحكم العثماني كما عمل استحكامات دفاعية على الحدود للوقاية من الاعتداءات العثمانية [١].

يبدو واضحاً أن تنظيم المقاومة ضد التقدم العثماني في شرق البحر المتوسط والدانوب قد أشرك الحكومة الهاسبرجية لاسبانيا في نشاطات غير مجدية أفسدت الآمال العالية التي حصل عليها شارل الخامس على إرثه

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. P. 119- 120.

الايبيري كما أن النزعات الانفصالية في أوروبا والسياسية والاجتماعية المسببة للشقاق كانت المشكلة الرئيسية بالنسبة لاسبانيا [١] .

أراد شارل تأمين الجناح الأيمن للأمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان يعتبر طرابلس الغرب إحدى يمينية على العالم الاسلامي إذ كانت تعطي بعض الحماية الصقلية الاسبانية وللملاحة المسيحية في سط أوروبا، كما احتاج شارل أن يربط أملاكه في ايطاليا باسبانيا[٢] ، وحتى يؤمن ذلك أبدى الأمبراطور شارل الخامس ترحيبه بطلب الوفد الذي بعثه رئيس فرسان القديس يوحنا بمنحهم جزيرة مالطا، بشرط أن تتولى المنظمة ـ فرسان القديس يوحنا ـ مهمة الدفاع عن قلعة طرابلس ومدينتها.

ترددت المنظمة في قبول العرض بإلحاق طرابلس ضمن سيطرتها الأمر الذي كان شرطاً ثقيلاً مقروناً بمنح مالطا، وقد نصح المبعوثون الذين زاروا طرابلس سنة ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م رئيس فرسان القديس يوحنا، بعدم قبول هذه المهمة الثقيلة، ومع ذلك فقد كان لا بد من الإذعان لإرادة الأمبراطور وعدم اضاعة الفرصة التي تهيء للمنظمة تنظيماً يتلاءم مع تقاليدها وأهدافها وقد استغرقت المفاوضات مدة طويلة حتى أمكن الاتفاق النهائي، وذلك لتوالي بعض الأحداث التي أذهلت شارل الخامس وصرفته عن التفكير في طرابلس، وهي الحروب الايطالية، وأخيراً وقع الأمبراطور مرسوم التنازل عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا في كاستيل فرانكو بولو نبيتري (Costel Franco Bolognese)[٣] .

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 129.

(٢) جورن رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ، ص ٩٠ .

(٣) أتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ، ص١٥٨ ، ١٦٠ . كان فرسان القديس يوحنا قبل ذلك قد نقلوا مقر قيادته ومركز نشاطهم الصليبي إلى جزيرة رودس بعد طردهم مع فلول الصليبيين في عهد دولة المماليك البحرية ، بعد ذلك طردهم السلطان سليمان القانوني عندما استولى على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢ م (١) ٩٢٩ هـ .

من خلال ذلك تتضح عدم مقدرة الأمبراطور شارل الخامس في تأمين الجناح الأيمن لأمبراطوريته إذ مضى في هذا الوقت لتدارك الأوضاع في ايطاليا ووسط أوروبا نتيجة ظهور البروتستانتية وازدياد نشاطها، كما أن الهجوم الاسلامي في وسط أوروبا وشمال أفريقيا قد خفف نشاطه وذلك للالتفات إلى الخطر البرتغالي القادم من الجنوب الذي ازدادت حدته على الأماكن المقدسة الاسلامية إذ بدأت البرتغال في احتلال المراكز الاستراتيجية في البحار الجنوبية الاسلامية للوصول إلى مكة والمدينة ثم القدس، وهنا كان مفترق الطرق بالنسبة للدولة العثمانية التي أخذت تؤمن الأماكن المقدسة بدروع واقية، وتضع الخطط لذلك والأمبراطورية الرومانية المقدسة التي انشغلت بالاصلاح الديني ثم الحروب الدينية، ولكن لفترة مؤقتة، إذ أن الدولة العثمانية لم تلبث أن تعود لنشاطها في البحر المتوسط لتنفيذ سياستها لاسترداد الأندلس.

احتد النزاع الديني في اسبانيا وازداد شراسة ولما كانت المملكة الاسبانية تضم عدداً من السكان الموروسيكيين الذين تعرضوا في عهد قريب لمهانات عديدة نتيجة لحروب الاسترداد المسيحية، وحيث أن الحكومة الاسبانية كانت متحفزة من أن المد العثماني في وسط أوروبا والشمال الأفريقي الذي سوف يشجع الأقلية الاسلامية الموجودة في اسبانيا إلى التحول من الاستياء إلى التمرد العلني، لذلك أسرع شارل في العمل ضد العثمانيين المتقدمين [١]، فأصدر أوامره في ١٦ جمادي الأول ٩٣١ هـ / ١٢ مارس ١٥٢٤ م بتنصير الموريسكيين وعهد لتنفيذ ذلك للمفتشين، كما أمر بتحويل المساجد إلى معابد نصرانية وأخذ العشر من المسلمين والذي كان يدفع للمساجد وحوله للكنيسة، وأخذ المفتشون في مضايقة الموروسيكيين بكثرة الرقابة وسوء المعاملة، ثم أجبر الموريسكيون على مغادرة أحيائهم الخاصة بهم إلى المدن الكبرى حتى يضمن انصهارهم في بوتقة المجتمع المسيحي والكنيسة [٢] وليفتت اجتماعاتهم حتى

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 126.

(٢) محمد قشتيليو: محنة الموريسكوس في اسبانيا، ص ٥٨ .

يسهل مقاومتهم .

دعم شارل الخامس نشاط محاكم التفتيش في هولندا للقضاء على البروتستنت ، نظراً لأن المحاكم تلك كانت تعتبر امتداداً طبيعياً لسلطة شارل كما كانت كذلك أيام الملوك السابقين، وفي البداية كان شارل لايعير اهتماماً كبيراً لتلك المحاكم باعتبار ظروف تربيته البعيدة كل البعد عن التعصب الكاثوليكي، إلى أنه عندما شعر بخطر المسلمين في اسبانيا، وتقدم البروتستانية في ألمانيا واحتمال تأثير ذلك على الدخل الهائل الذي كان يحصل عليه من الضرائب الباهظة التي فرضها على الهولنديين، اهتم شارل بالمحاكم التفتيشية وشجعها على زيادة نشاطها[1] وظلت اسبانيا قوة محاربة في القرن السادس عشر بمدى أكبر من أية دولة أوروبية وقاومت الموروسيكيين في حروب طويلة وكانت اسبانيا تعتبر شن الحملات على الوثنيين والمسلمين والمخالفين للكاثوليكية مهنة نشطة وتقليداً مقدساً[2]، وكان شارل الخامس من رجال الدولة الموصوفين بالعناد، وكان يميل للحماس الصليبي ولم يضع استراتيجية واقعية إلا بعد وصوله لخبرة طويلة وحادة من الحرب الفاشلة ضد العثمانيين في بداية القرن السادس عشر، وكانت الاستراتيجية هو نظام التحصين الذي اكتسبه شارل من أخيه فرديناند عندما حصن هنغاريا[3] .

دعمت الدولة العثمانية قبضتها في شبه جزيرة البلقان وسوريا ومصر والتحموا مع القوى الاسلامية في الشمال الأفريقي وبزغوا كقوة بحرية مهاجمة نتيجة لذلك صارت ايطاليا معرضة وبصورة متزايدة للهجمات الاسلامية، وفي الوقت نفسه تم ادماج الكثير من شبه جزيرة نابولي وصقلية وجنوا وميلانو في النظام الأمبراطوري الاسباني، ومع الصراع بين الدولة العثمانية والأسرة الهابسبرجية في البحر المتوسط، وضعت ايطاليا في الخط الأمامي من العمليات

(١) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 125.

(٣) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 100.

الحربية، وصارت البندقية وانكونا ومسينا ونابولي وجنوا النقاط الأكثر حساسية للاتصال الأوروبي بالعالم العثماني.

وبالدبلوماسية الحذرة، استطاعت البندقية أن تفلت من آثار الحروب الايطالية المدمرة، وظلت مستقلة عن الممتلكات الداخلية الواقعة خلف جبال الألب [١]٧

وكانت البندقية وبشكلٍ خاصٍ عرضة للفتح العثماني من القرنين الخامس عشر السادس عشر ولمواجهة تلك احتاجت البندقية موارد إدارية وبشرية لإدارة تجارتها الواقعة تحت السيطرة العثمانية متقدمة بدرجة كبيرة في تقنيات التجارة والنقل والحرب البحرية والدبلوماسية والجاسوسية وكانت استجابة مقاومة البندقية للضغط العثماني ماكرة ومركبة وكان نمو القوة العثمانية يشكل مشكلة خطيرة لحكومة البندقية ومع ذلك استغل البنادقة قدرتهم لخدمة العثمانيين مراراً وتكراراً في سبيل الاعتراف بممتلكاتهم وضمان أمن تجارتهم، وعلى سبيل المثال عندما اقترح السلطان العثماني سليمان القانوني الهجوم على أملاك شارل الخامس في ايطاليا ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م، كان السلطان قلقاً للحصول على معلومات الاجراءات الدفاعية الاسبانية، وعندما استقبل سفير البندقية في القسطنطينية بادره بهذه الكلمات« أكتب فوراً إلى سيدك أنه يمكن الكشف عن ما تفعله الأسماك في قاع البحر وأيضاً يمكن لنا معرفة الأسطول الذي تعده اسبانيا في موانيها [٢] » وبذلك أثبت البنادقة بأنهم يخدمون أي جهة في سبيل تحقيق مصالحهم الاقتصادية ولا ينبغي لأي قوة أن تعتمد عليهم.

من ناحية أخرى كانت جنوا تعتبر المفتاح الاستراتيجي لايطاليا وذلك

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 131.

(٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 131, 132, 133.

بالنسبة لفرنسا واسبانيا لذلك كانت تقع دائماً تحت حماية إحدى تلك القوات العظمى، وكانت كلتا الدولتين فرنسا أو اسبانيا معرضتين للضغط العثماني، لذل كانتا في أغلب الأوقات متصادقتين تحت الزعامة الاسبانية الهاسبرجية ولو على مضض لمقاومة الضغط العثماني في القرن السادس عشر (١).

كان شارل الخامس حتى أوائل الثلاثينات من القرن السادس عشر لا يستطيع الرد على الهجمات البحرية الاسلامية، وذلك لضعف الامكانيات البحرية والحربية لديه، وعدم الحصول على تعاون من أراجون وكتالونيا، وهو شرط أساسي للتفوق البحري الاسباني في غرب البحر المتوسط (٢) فلما حصل شارل الخامس على مساعدات بحرية من جنوا بعد أن تحالف معها حديثاً ظهرت قيمة تلك الامدادات والمساعدات في نجاح الأسطول الاسباني في خليج كورنث عام ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢ م، حيث كان قادراً على الاستيلاء على ميناء باتراس (Patras) واستولى على كورون (Coron) في جزيرة موريا (Morea) ولكن كان ذلك الاستيلاء مؤقتاً وكان لتلك الحملة تأثير في تحويل اهتمام السلطان وتخفيف الضغط على الجبهة الشرقية في النمسا، كمارکز السلطان على الشمال الأفريقي إذ عين خير الدين بربروسا قائداً عاماً للأسطول العثماني بجانب لقب البيلربكية في الجزائر وبدأ سليمان ينشد تحالفاً أكثر تقرباً مع فرنسا للسيطرة على البحر المتوسط(٣).

أقام اندريا دوريا روابط ثابتة وأساسية بين بلدة جنوة واسبانيا التي كانت في حاجة ماسة إلى سفن حربية لتتولى عبء الدفاع البحري من العثمانيين مما أدى إلى اتاحة الفرصة للمقاولة البحرية، وكانت الجزيرة الايطالية بقيادة أندريا دوريا ضماناً لسيادة شارل الخامس في شبه الجزيرة الايبيرية والايطالية، كما

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. 131.

(٢) Roger Lockyer: Habsburg and Bourbone P. 97..

(٣) John Lynch: Spain under the Habsburgs Val. 1 P. 95.

كانت وسيلة للدفاع الأول عن العالم المسيحي من الاعتداءات الاسلامية، وكان نواة هذا الأسطول الجنوي السفن المسطحة المملوكة لشخص اندريا دوريا والمؤجرة لاسبانيا، إذ كان متعهداً بحرياً في ذلك الوقت وكان ابحار السفن المسطحة قد غطت سطح البحر المتوسط، ومتنفساً لجهود حرب البحر المتوسط ضد العثمانيين السنوات الوسطى من القرن السادس عشر وهي الفترة الحرجة بالنسبة لاسبانيا وكان أندريا دوريا مسؤولاً عن تنظيم الرحلات البحرية بين اسبانيا وايطاليا، كما قام بإمداد السفن بالبحارين ومرافقة تلك السفن لحمايتها، وكان تأمين السفن قد ظهرت أهميته عندما كان دور دوريا كرجل مرور، منظم الحركة والمراقبة من بالاماس (PLalmas) إلى سوفونا (Savona) ومن جنوا إلى برشلونة ومن جنوا إلى ايفوس مورتيس (Aigues Mortes) إلى برشلونة ومن جنوا إلى اسبيزا (Sprzia) إلى الجزائر ومن برشلونة إلى سافونا وجنوا وكان نقل الوحدات العسكرية الاسبانية مهمة أخرى شاقة تقوم بها سفن دوريا المسطحة [١].

كان مجهوداً كبيراً من شارل الخامس ومن اسبانيا. لولا نمو القوة البحرية العثمانية وتهديدها الذي اقترب من سواحل نابولي وصقلية بل واسبانيا نفسها، ولقطع تلك الجبهة البحرية الاسلامية في البحر المتوسط قرر شارل تشييد قاعدة اسبانية بين الجزائر والقسطنطينية ، وبالفعل كان تحقيق ذلك في تونس، إلا أنه لم يتابع ذلك النجاح لعدم امتلاكه للقوة البحرية اللازمة لذلك، مما أتاح المجال لخير الدين باربروسا في تنظيم غارات جديدة ضد جزر البليار وساحل فالينسيا وسواحل ايطاليا الجنوبية حاول شارل أن ينظم هجوماً على العثمانيين بواسطة انجاز حلف مسيحي مع البابوية والبندقية ولكن لم يكتمل ذلك الحف وتفككت العصبة، بعد أن تحالفت البندقية مع الدولة العثمانية ٩٤٧ هـ /

(١) Paul Coles: The Ottoman Impact on Europe P. P. 142- 143.

١٥٤٠ م، والتي فضلت مصالحها التجارية لدى الدولة العثمانية، وبدون اسطول البندقية فإن العصبة المسيحية لا تستطيع مواجهة البحرية العثمانية، فقرر شارل أن يركز جميع مصادره وموارده المتاحة في الغرب ليهزم القبضة القوية للدولةالعثمانية في الجزائر وبذلك يستكمل برنامجه في تأمين الجناح الأيمن لأمبراطوريته، وقاد شارل بنفسه حملة على الشمال الأفريقي هدفها الجزائر في ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م)، إلا أنه لم يحقق هدفه، وانسحب مرة أخرى لاسبانيا وكان ذلك آخر محاولاته، لأن موقف شارل في البحر المتوسط قد تدهور بسرعة بعد أن تجددت الحرب مع فرنسا، وقدمت الدولة العثمانية لحليفتها فرنسا خدمة كبيرة، كما أن السفن ذات المجاديف الفرنسية دعمت وعززت البحرية العثمانية، وتعاون خير الدين بارباروسا في حصار نيس عام ٩٤٧ هـ / ١٥٤٤ م ثم سيطر العثمانيون على طرابلس وكانت قاعدة أخرى لها أهميتها كما سقطت مراكز أخرى في الشمال الأفريقي، واستمر السلطان في ارسال اساطيله القوية للهجوم على مراكز بحرية في سواحل البحر المتوسط وهكذا لم تتح الفرصة لشارل الخامس للدفاع عن الطريق البحري للأمبراطورية الرومانية المقدسة وبالتالي لم يستطع انجاز حملته الكبيرة ضد القسطنطينية والتي كانت حلمه في سنوات صغره، كما اتضح عدم مقدرة شارل على تقديم مصالح مباشرة لاسبانيا، لأن القوة البحرية السائدة في ذلك العصر لا تعتمد على حملات تعد بسرعة، بل تعتمد على مجهود شاق في البناء والتجنيد والتدريب وهذا البرنامج لم يتعهده شارل [١].

مضت الدولة العثمانية في مواجهتها للفرس، الذي ازداد تمردهم وحاولوا ايجاد تعاون مع البرتغاليين الذين نجحوا في الاستحواذ على نقاط استراتيجية في الجبهة الجنوبية في البحر الأحمر والخليج العربي وهكذا سارت الدولة

(١) John Lynchpain under the Habsburgval. 1 P. .96 9

العثمانية والأمبراطورية الرومانية المقدسة كل في طريق ولكن لفترة مؤقتة إذ استمر المجاهدون المسلمون في مناوشاتهم على طول سواحل البحر المتوسط وازعجوا التجارة والمواصلات بين ايطاليا واسبانيا.

الفصل الرابع

الفصل الرابع

«الجهاد البحري الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط»

أ ـ صدى حروب الاسترداد في العالم الاسلامي.

ب ـ قيام نظام بيلربك في الجزائر ٩٥٤ هـ (١٥١٨).

ج ـ دور الحفصيين في تونس، وبني وطاس والسعديين في مراكش.

كان الجهاد البحري في شمال افريقيا قد لفت أنظار أوروبا المسيحية ولا سيما مجاهدي الجزائر الذين وجهوا نشاطهم ضد السفن الأوروبية وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوروبية المواجهة للبحر المتوسط ونقلوا معهم الكثير من الأسرى إلى موانىء شمال أفريقيا، مما شغل الكثير من المؤسسات الدينية والسياسية لافتكاك هؤلاء الأسرى.

وتعود أصول الجهاد البحري الجزائري إلى منتصف القرن الرابع عشر بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية التي عصفت بالمغرب الأوسط [1]، والتي كان من أهم عواملها هجرة قبائل بني هلال وسليم، علاوة على ذلك هجرة مسلمي الأندلس إلى شمال أفريقيا واسقرارهم في الموانىء واسهامهم في تمويل سفن المجاهدين وتشجيعها بدافع الربح من جهة وبدافع الانتقام ممن طردوهم من موطنهم من جهة أخرى [2]، واتخاذهم مواقع الدفاع عن وطنهم الجديد، وبنائهم السفن والمعدات الحربية للجهاد ضد الاسبان في البحر والاستيلاء على ما يمكن أن يقع في أيديهم من أسطول العدو [3].

بدأ سكان موانىء شمال أفريقيا بدورهم يشنون حرباً بحرية ضد السفن

(١) محمد خير فارس: تاريخ الجزائرالحديث، ص ٨٩ - ٩٠.

(٢) محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث، ص ١٦.

(٣) أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج١، ص ١٣٦.

والموانىء الاسبانية، وكان المسلمون الذين أجبرتهم ظروفهم على البقاء في اسبانيا واجبروا على التظاهر بتغيير دينهم، يتصلون سراً برجال البحر المسلمين ويمدونهم بالمعلومات اللازمة ليقوموا بهجماتهم دون أن يتعرضوا للأخطار[١] .

ترامت إلى مسامع المسلمين في شمال أفريقيا الانتصارات الباهرة التي أحرزتها الدولة العثمانية في ذلك الوقت في القارة الأوروبية وآسيا وما تخللها من نجاح السلطان محمد الفاتح في فتح القسطنطينية فاشرأبت الأعناق إليه وإلى خلفائه[٢] ، وكانت نظرة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الاسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل، ونظروا إلى السلطان العثماني وهو يخوض الحروب تباعاً ضد الدول الأوروبية على أنه الأمل المرتجى في إعادة مجد الاسلام الغابر فكانت عواطف المسلمين وآمالهم متعلقة بالدولة العثمانية والسلطان العثماني[٣] ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت في نفوس الشعوب الاسلامية في هذا الوقت المبكر من العصور الحديثة .

واصل المجاهدون المسلمون في غرب البحر المتوسط ومعظمهم ممن أرغموا على الرحيل عن الأندلس تحديهم للسفن والسواحل المسيحية، وكانت القرصنة اسلامية ومسيحية تسود الحياة البحرية في العصور السابقة وإن لم تعرقل التجارة[٤] ، وفي أواخر القرن الخامس عشر وضع المهاجرون الأندلسيون أساس مدينة تطوان الجديدة، ثم اشتبكوا في حرب مع البرتغال من ناحية سبتة وأسروا عساكر لهم وأتوا بالأسرى واستعملوهم في بناء مدينتهم التي سيستقرون بها نهائياً[٥] .

(١) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ١٧ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ٢ ، ج ٩٠١ . ٩٠٢ .

(٣) فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية في اقليم الحجاز ص ٢٣ .

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، ص ٩٢ .

(٥) محمد بن تابت : تاريخ سبتة ، ص ١٨٠ .

كان المجاهدون العثمانيون طلائع الدولة العثمانية على سواحل شمال افريقيا وقد هيأوا الظروف لتحرير كل البقاع التي تمتد من الجزائر حتى طرابلس، ويمكن تحديد ذلك بنهاية القرن الخامس عشر، بمعنى أنه اعتباراً من نزوح المسلمين عن الأندلس بدأ التدخل العثماني في غرب حوض البحر المتوسط بل أن مسلمي أفريقيا الذين صاروا مهددين بتزايد القوة الاسبانية قد بعثوا يستدعون العثمانيين إلى ثغورهم وطلبوا نجدة السلطان في القسطنطينية[1]، وفي أوائل القرن السادس عشر وضع حد للتسامح المتبادل بين المسلمين والمسيحيين في مجال التجارة والقرصنة وذلك نتيجة لطرد المسلمين من الأندلس وتحول الشعور في داخل الدولة العثمانية نتيجة ذلك الطرد. والاضطهاد الديني، فظهرت القوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط، وأسس المسلمون المنفيون من اسبانيا مستوطنات على طول سواحل شمالي أفريقيا وعقدوا العزم على الانتقام من مضطهديهم، وذلك بالإغارة على سواحل اسبانيا ومهاجمة السفن المسيحية وبخاصة في مضيق جبل طارق، والمنطقة البحرية المحيطة بجزيرة مالطة، وما لبثوا أن حصلوا على مساندة العثمانيين عززت وزادت من حدة الغارات السابقة، وفي خلال سنوات كانت أغلبية الموانىء الممتدة من جزيرة جربة في الشرق إلى سالي في الغرب تضم قراصنة أثاروا الرعب في قلوب أوروبا المسيحية[2].

كان بزوغ العثمانيين في الواقع قد أعطى الاسلام القوة القائدة في العالم، إذ لم تكن مراكش ولا الجزائر ولا تونس ولا مصر تملك القوة الهجومية الحيوية، وعندما ضغطت الجيوش المحمدية بانتصاراتها أبواب فينا، والقوة المحمدية الذي عاد نشاطها وتحدت أوروبا في مضيق جبل طارق بدا بسهولة أن العالم الغربي المسيحي قد قبض عليه بين النقطتين بهجوم متلاقي من الشرق

(١) أتوري روسي : ليبيا منذ الفتح العربي، ص ١٥٥ .
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٢ .

والغرب، وأن أوروبا لا يمكن أن تنقذ نفسها إلا بمقاومة متحدة [١]، وكان هذا مستحيلاً، الأمر الذي يتيح للدولة العثمانية أن تحقق أهدافها في البحر المتوسط وأن تجعل منه بحيرة اسلامية بالاضافة إلى تحويل القارة الأوروبية المسيحية للاسلام.

زادت اسبانيا في أوائل القرن السادس عشر من اجراءاتها القمعية على المسلمين في الأندلس وتطايرت الأخبار بما يلقاه المسلمون من الذل في هذه البلاد، ولم يقتصر الاسبان على ذلك بل أخذوا يجوبون البحار، ويرسون على سواحل بلاد المسلمين فيخطفون من يظفرون به منهم وينهبون سفنهم ويخربون مدنهم، وصارت حركة متبادلة بين المجاهدين المسلمين والقراصنة المسيحيين، ولم يكن إلى السلم سبيل بين الجانبين على هذه الحال، وصار النهوض لانقاذ المسلمين في اسبانيا واجباً شرعياً يتحتم على كل مسلم أن يقوم به، وصار لزاماً على الدول الاسلامية أن تقابل اعتداءات أساطيل الاسبان [٢]، وتقوى الطابع الديني في ذلك الهجوم المتبادل بين المسلمين والمسيحيين [٣] وتحولت السفن الاسلامية المسيحية التي كانت تعمل في شرق البحر المتوسط إلى غربه حيث الجهاد تحول إلى هذه الناحية نتيجة لاضطهاد المسلمين في الأندلس والاعتداء على الأراضي الاسلامية في شمال أفريقيا التي مهدت إلى بسط النفوذ العثماني على المنطقة [٤]

عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في البحر المتوسط ظهور حركة عامة بين رجال البحر من أبناءالمغربالعربي تستهدف في العمل على حماية موانيهم وسواحلهم وتأمين وصول المهاجرين المسلمين من شبه الجزيرة الايبيرية وقام رؤساء البحر المغاربة بدورهم كاملاً، وساعدوا على الاحتفاظ باستقلال أقاليم

(١) A. J. Grant: A History of Europe from 1494- 1610 P. P. 209- 210..

(٢) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، ص ٢٩٢ .

(٣) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٩٠ .

(٤) Stanford Show: History of the Ottoman Empire P. 96.

المغرب العربي[1] ، كان من بين المجاهدين العثمانيين الذين ظهروا في البحر المتوسط عروج وأخيه خير الدين أبناء يعقوب بن يوسف الذي تزوج من إحدى بنات النصارى في جزيرة مدلي ببحر الأرخيل فبعد أن فتحها السلطان محمد الفاتح استأذن بقايا الفاتحين المجاهدين السلطان محمد الفاتح بالسماح لهم بالزواج من النصرانيات، فسمح لهم السلطان بذلك، وكان من ضمن هؤلاء العسكر يعقوب بن يوسف، وأنجب أربعة أبناء هم اسحاق وعروج وخسرف وخير الدين ومحمد الياس[2]، وتذكر بعض الروايات أن يعقوب بن يوسف كان متزوجاً من سيدة أندلسية أنجبت له أولاده الأربعة، وأن الدم الأندلسي جرى في عروق عروج وخير الدين عن طريق والدتهم وقادهم ذلك للجهاد في الحوض الغربي من البحر المتوسط حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان، وحيث كان المستضعفون من الرجال والنساء يحاولون الفرار بدينهم وبشرفهم من ذلك الجحيم الأليم فيقعون غالباً بين أيدي القراصنة الاسبان يستعبدونهم ويغزون بهم أسواق الرقيق[3] .

سافر عروج وأخوه الياس إلى طرابلس الشام وعند عودته وقع قتال كبير مع فرسان القديس يوحنا بالقرب من جزيرة رودوس وقتل الياس بينما وقع في الأسر عروج وسجن في الجزيرة المذكورة[4]، اضطر عروج لمغادرة الأرخبيل برفقة أخويه بعد أن تخلص من ذلك الأسر، واختار غرب المتوسط ميداناً لنشاطه وذاع صيته بين المسلمين لما اشتهر به من هجوم على مراكب المسيحيين وخاصة الاسبانية منها، وبفضل ما حققه من انقاذ لآلاف المسلمين في الأندلس ونقلهم إلى شمال أفريقيا[5] .

(١) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، ص ٢٣٧ .

(٢) عبد القادر ابن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ق١ ـ أ ،

ارجمنت كوران ، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي ، ص ٢١ .

(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

(٤) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ٢ ـ أ .

(٥) شارل أندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .

ألقت الريح بعروج في جزيرة جربة من ناحية المغرب وأودع فيها بعض الأمتعة ثم هاجم المسيحيين في أراضيهم وغنم وسبي سبياً كبيراً ثم دخل مدينة تـونس ووجه إلى سلطانهـا الحفصي هديـة نفيسة بمـا احتوت عليـه من غنائم ونفائس الأموال، ووقعت في السلطان الحفصي أحسن موقع، واستأذنه عـروج أن يقيم في بعض مراسي بلاده، فأذن له واشترط عليه أن يعطيه خمس الغنائم التي تحصل بيده من المسيحيين فرضي عروج بذلك(١).

كانت الدولـة الحفصية في هـذا الوقت تعيش آخـر رمق في حياتهـا، إذ استولى الاسبان على عدة جهات من الساحل الأفريقي، كما كانت الجزائر غير قادرة على مقاومة الاسبان(٢)، ولذلك رأى السلطان الحفصي أبو عبد الله محمد أن يجعل مما يدفعه عروج وأخيه خسروف من خمس الغنائم مورداً ثرياً لخزانة الدولة التي كانت تعاني من الافلاس، بالاضافة لحماية الدين والدولة فأقطعهما مرفأ حلق الواد يتخذان منه قاعدة لمحاربة من يحارب الاسلام(٣)

ظهر الأخوان عروج وخسروف من حلق الواد بتونس كقوة اسلامية جديدة وكان هذا هـو الخيط الأول في علاقـات العثمانيين بـالمغرب التي سـرعان مـا تعددت خيوطها(٤)، وانطلقا من هناك إلى نـاحية الأنـدلس ينصران الاسـلام، ويمعنوا في اسطول المسيحيين تقويضاً وأسـرى، هنالـك أطلق النصارى لقب بربروس أي ذي اللحية الشقراء على كل الأخوين الذين صاروا مصـدر الرعب والفزع في البلاد المسيحية المتاخمة وفي بحارها، كما اقترح فضلاء الأندلسيين والمغاربة على خسروف أن يغير اسمه وأطلقوا عليه منذ تلك الساعة اسم خيـر الدين(٥)، ولعل السبب في تغيير الاسم أن الروح السائدة في ذلك الوقت هـو

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ٧ ـ أ .

(٢) محمد بيرم التونسي : صفوة الاعتبار ، ج ٤ ، ص ٧ .

(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٥٨ .

(٤) ابراهيم شحاتة حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ١١٩ .

(٥) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٥٨ .

الجهاد وتغيير الاسم لخير الدين تيمناً بذلك، علاوة على ذلك الانتصارات الساحقة التي حققها الأخوان.

خرج الأخوان عروج وخير الدين من مقرهما الجديد حلق الواد غازيين في سبيل الله ناحية بلاد النصارى فغنموا مركباً للمسيحيين وشحنوها بالرجال المجاهدين وبعد ثلاثة أيام استطاعوا أن يأسروا مركباً آخر واستمروا في سفرهم وجهادهم ذلك حتى غنموا مركباً آخر، وتجول الأخوان وعاشوا في بلاد الكفار مدة عشرين يوماً، ثم رجعوا إلى تونس، مسرورين بما منحهما الله سبحانه وتعالى من هذه الغنائم فسر ذلك سلطان تونس سروراً عظيماً وحصل بيد المجاهدين أموالاً كثيرة (١).

جهز عروج وخير الدين بعد ذلك ثلاث مراكب، وخرجوا من حلق الواد، فالتفوا في عرض البحر من ناحية نابولي بسفينة حربية متجهة إلى اسبانيا وعلى ظهرها ثلاثمائة جندي، وكانت السفينة أقوى من السفن الاسلامية من حيث الحجم وقوة المدفعية واندفع الأخوان في محاولة منهم للاستيلاء على السفينة وهاجماها عدة مرات حتى تمكنوا منها، ورجع خير الدين إلى تونس بتلك الغنيمة العظمى وبقي عروج في البحر (٢).

ملأت أقطار المغرب العربي وبلاد الأندلس أخبار عروج وخير الدين وصارا في مدينة حلق الواد يمثلان قوة اسلامية عظيمة تتوجه نحوها الأنظار (٣)، لتخليص أراضيهم من الوجود الاسباني، غادرت عمارة عروج وخير الدين مرسي حلق الواد سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) وتوجهت نحو بجاية، إلا أن أسطولاً اسبانياً مؤلفاً من خمس عشرة سفينة كان راسياً على مرسي بجاية، فاعترض في طريق اسطول المسلمين أمام المدينة، وفكر الزعيمان بحيلة، فتظاهروا

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ٨ ـ أ .

(٢) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ٨ ـ أ .
أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٥٩ .

(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٦٣ .

بالانسحاب أمام الأسطول الاسباني الذي تتبع العمارة الاسلامية، حتى اقترب من مرمى مدفعيتها وعندئذ كر عليه المسلمون، وهاجموا بعنف الأسطول الاسباني، فاستولى عروج على احدى السفن الاسبانية وغرقت أخرى وانهزمت بقية السفن [١]، بعد ذلك قرر عروج مهاجمة بجاية عن طريق البر، فأخذ في استئصال الاسبان قتلاً، حتى اقترب من أحواز المدينة، فرمى الاسبان عروج فأصيب في ذراعه واشتد الأمر عليه بسبب الألم، فحمله المجاهدون إلى أخيه خير الدين، وقرر الأطباء قطع يديه، وساعدهم خير الدين على ذلك [٢]، مفضلاً حياة أخيه عن موته فقطعوا يديه [٢].

أخذ خير الدين بربروسا في العمل على الجهاد، فبادر بانقاذ المسلمين في غرناطة، والذين يعبدون الله خفية، ولا يجهرون بالآذان، وظل خير الدين يعمل في الجهاد نحو ثلاثة أشهر، وأنقذ بعض المسلمين من الأندلس واستطاع أن يغنم من احرازها كثيراً، ومن تلك الغنائم سفينة صغيرة كانت محملة بالأموال وباقي السفن الستة استطاعت الهرب من أمام خير الدين، وشكا الفاروق للملك فرديناند ما حل بهم وما لاقوه من خير الدين، وأوضحوا أن خير الدين يقطع عليهم البحر، وتشاوروا فيما بينهم في التخلص منه، وأثناء ذلك، توجه خير الدين إلى ميورقة وهاجمها [٣].

ظهرت أولى الاشارات إلى وجود السفن العثمانية سنة ١٨ هـ (١٥١٢ م) وأخذت تهدد طرابلس التي لم يمض على احتلالها من قبل الاسبان سوى زمن قليل حين بدأ نشاط الأخوين باربروسا [٤]، رأى عروج أن محاصرة بجاية ليس بالأمر السهل، كما فكر أن وجوده بتونس يبعده عن أرض

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا، ق ١٠ـ ب.
شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية، ج ٢، ص ٣٢٦.
(٢) محمد خير الدين فارسي : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٢٤.
(٣) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا، ق ١٠ ب.
(٤) أتوري روسي : ليبيا بعد الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ م، ص ٥٦ ٧

المعركة فصمم على فتح مدينة جيجل التي تقع على بعد ١٠٢ كيلو متر غربي بجاية، وانقاذها من يد الاستعمار، وذلك حتى يتخذ منها نقطة انطلاق نحو بجاية ويجمع بها رجاله وسلاحه ويجعلها مركز تجمع للمجاهدين [١]، الذين صمموا على تطهير الشمال الأفريقي من براثن الاستعمار، حتى يمدوا نفوذهم بعد ذلك نحو الأندلس لاسترداده.

وكانت مدينة جيجل من أوائل المدن التي سقطت بيد المستعمرين الجنويين الذين جعلوها مركزاً تجارياً عظيماً [٢]، كما احتفظ قصر جيجل بعد ذلك بحريته بالرغم من محاولات ملوك بجاية وتونس احتلاله لأنه يستحيل حصاره [٣].

رسا الاخوان عروج وخير الدين في السواحل الجزائرية لقضاء بعض المهمات فاتصل بهما أهالي تلك النواحي ملتمسين منهما دفع الأجانب عنهم وانقاذ ثغورهم من تسلطهم عليها، فلبى الأخوان ندائهم وكان أول ما شرعوا في انقاذه من البلاد الجزائرية هو مدينة جيجل فاحتلوها سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) [٤] بمساعدة الأمير ابن القاضي، وفرض عروج على أهالي جيجل زكاة عشر الحبوب والثمار مما هو معمول به [٥]، وبفتح مدينة جيجل تم لعروج هدفه المزدوج في انقاذ مدينة اسلامية، وكانت أول مدينة ينقذها على ساحل البلاد، التي صارت فيما بعد تدعى ضمن البلاد الجزائرية، والاستقرار بمركز منيع من ناحية البر والبحر، كما أنه يساعد المجاهدين على حرية المناورة من أجل تطهير البلاد من الاحتلال الأجنبي، وهكذا استقر عروج مبجلاً مكرماً بين جماعة المسلمين في

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٦٥ .
(٢) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ص ٣٦٨ .
(٣) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٥٢ .
(٤) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ص ٢٦٨ .
(٥) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج٢ ، ص ٥٤ .

جيجل وكانت الاتصالات هنالك بينه وبين مختلف وفود المسلمين من المغرب الأوسط واستمر يعالج في مقره الجديد ذلك الجرح البليغ الذي أصابه من جراء بتر يديه [١]، وأخذ عروج متابعة الأحوال في المغرب الأوسط حيث كان الصراع على أشده بين سلاطين بلاد القبائل من بني عباس وآل القاضي سلاطين كوكو، وبدأ يمد القبائل المجاورة لجيجل التي كانت تعاني المجاعة بالحبوب فحصل على شعبية كبيرة بين هذه القبائل، كما أنه بدأ يتدخل في الصراع بين زعمائها، وقد تعزز موقفه بتدخله في الوقت المناسب لصالح بني عباس المنتصرين [٢]، كما التف المسلمون من ناحية جيجل والجبال المحيطة بعروج ورأوا من ايمانه بالله واخلاقه ما جعلهم يبايعونه أميراً، وعاهدوه على السير وراءه إلى ميادين الجهاد من أجل انقاذ المدن الاسلامية والأندلس وتمكن عروج بذلك من انشاء جيش منظم، وأحسن تشكيله في كتائب متعددة، ودربه على استعمال الأسحة الجديدة للرماية والتي كانت متقدمة في هذا المجال وأخذ رجال الدين والعلماء يستنفرون الناس إلى الجهاد في سبيل الله، وعمت الدعوة أرجاء البلاد، كما استمر خير الدين في جمع السفن التي غنمها من المسيحيين، وأرسلها للأندلس ملبياً أصوات الاستغاثة التي جاءت حيث المستضعفون من الرجال والنساء والولدان، الذين نكث الاسبان بعهودهم وتنكروا للمواثيق [٣].

كان من حسن سياسة عروج وخير الدين وانقيادهما للمبادىء الاسلامية السامية التي خرجا مجاهدين في سبيل الله من أجل تحقيقها، أنهما ما كادا يفتحان مدينة جيجل ويستقران فيها، ويستحوذان على نفائس الأموال والبضائع التي ادخرها أهل جنوة المعادين للمسلمين، علاوة على الغنائم التي حصلوا عليها من السفن المسيحية التي كانت تجوب البحر المتوسط بعد الهجوم عليها في وسط البحر أو السواحل الاسبانية ـ حتى بادر عروج وخير الدين إلى اعداد

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٢٥ .

(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٦٧ .

هـدية عـظيمة من نفـائس الأموال التي غنمـوها من المسيحيين وأرسلوهـا إلى السلطان الأعظم سليم في استانبول، كما بعثوا إلى كل واحد من خاصته هدية تليق بمكانتهم، وذلك برفقة محي الدين رئيس الذي وصل إلى تونس فاستحسن السلطان العثماني سليم وخاصته هذه الهدايا، وبالغوا في الثناء على عروج وخير الدين، ودعوا لهما بالتأييد والنصر على أعداء الله الكفـرة، وأجابهمـا السلطان سليم بخطاب تضمن الدعاء لهما والشكر على هديتهمـا، ووجه اليهمـا صحبة محي الدين بسفينتين مدججة بالسلاح والرجال المجاهـدين [1] أراد السلطان سليم الذي كان منشغلاً في هذه الفترة بالشرق حيث الفرس والمماليك كانوا قد بدأوا في خلق المشاكل في المنطقة، أراد أن يشجع عـروج وخير الـدين، في المضي في تطهير شمال أفريقيا من الوجود الأجنبي حتى يتحقق لهم بعد ذلك استرداد الأندلس، والتي توافق استراتيجية الدولة العثمانية، ومما لا شك فيه أن رد السلطان العثماني كان له أكبر الأثر في نفوس المجاهدين إذ شعروا بمشاركة الدولة العثمانية وعلى رأسها السلطان وجدانياً وعملياً، فكـانت دفعة قـوية لهم نحو تحقيق المزيد من الانتصارات على المسيحيين.

كان عروج وأخوه خير الـدين قد عـزما على السفـر إلى سبتة ومنهـا إلى الأندلس وذلك في عشرة سفن فوصلا ناحية بجاية، ورسوا في بعض المراسي هناك، فسمع بقدومهما أهل تلك الناحية من العلماء والمشايخ وبعثوا إلى عروج وخيـر الدين خـطاباً يشكـروهم على ما يسـر الله لهما من غـزواتهمـا الكبيـرة، وفتوحاتها الشهيرة وأردفوا قائلين أن الله تعالى تكفل بنصرهم حيثما توجهوا لم ينكسر لهم راية قط في الجهاد، فكيف يتركان المسلمين في يد العدو الكافر، فلا يعبدون الله إلا في الخفاء، ولا يقدرون على اشهار دينهم وتضرع أهل بجاية غاية التضرع في ذلك الخطاب واستشفعوا لهم بالنبي ﷺ وعندما وصل الخطاب لعروج وخير الدين دخلتهم الحمية لدين الاسلام فاقتربـوا من ساحـل بجايـة،

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ١٤ أ .

وكان بالقرب منها قلعة سبق وأن شيدهـا الاسبان فـاحتلها المجـاهدون ودخـل عروج وخير الدين بأسـطولهما الـوادي الكبير، وحمـلا من هناك على الاسبـان حملة شعواء، استأصلا فيها الاسبان قتلاً وأسراً واستمرت المعـركة عـدة أيام، انتصر فيها المجاهدون بقيادة عروج وخيـر الدين وانضم اليهم رجـال الجزائـر المتطوعة وبلغت نحو عشرين ألف مقاتل، فأخذ الاسبان في استعمال الحيلة، وتمكنوا من حصار المجاهدين نحو أربعة وعشرين يوماً، صبر خلالها المسلمون للدفاع عن وطنهم فنفذ عنهم البارود فلجأ عروج وخير الدين إلى طلب المعونة من سلطان تونس، فامتنع وأظهر عداوته للمجـاهدين، كمـا وصلت الامدادات إلى الاسبان من مختلف الانحاء فتقوى العدو ضد المجـاهدين ، فاضطروا إلى الانسحاب ومعهم نحو ستمائة أسيـر وقبل أن ينصـرف عروج أحـرق بيده نحـو اثنتي عشر سفينة تابعة لهم خشية أن يستعملها العـدو فيما بعـد، إذ تعذر على المجاهدين ارجاع السفن وذلك بسبب نضوب ماء الوادي الكبير فصعب سحب السفن [1].

كان السلطان العثماني سليم مشغولاً في هذه الفترة كما ذكرت بحروبه مع الفرس، لكن لا يعني هذا أن حركة الجهاد الاسلامي في البحـر المتوسط قـد توقفت بل على العكس فقد ازدادت نشاطاً، لأن ذلك العصر هو عصـر الجهاد والمجاهدون المسلمون أخذوا يجوبون البحر المتوسط بسفنهم لمحاربة السفن المسيحيـة والاستيـلاء عليهـا، وذلـك كمـا شجـع رؤسـاء البحـر العثمـانيـون المجاهدين على مواصلة حركة الجهاد ضد المسيحيين بل وشـاركوهم ذلـك، فوصل إلى تونس محي الدين رايس الذي سبق وأن أوصل هـدية عـروج وخير الدين إلى استانبـول ومعه رئيس جليـل من رؤساء السلطان يـدعى قرط أوغلي وصالح الدين ريس في أربعة عشر مركباً بغرض الجهاد، ومشاركـة خير الـدين

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ١٤ ب ، ١٥ أ ،
الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .
عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

جهاده، وكان خير الدين قد انتشر خبر جهاده في بلاد الاسلام، وهاجمت هذه القوة سفن المسيحيين واستطاعت أن تغنم أربعين سفينة، اثني عشر منها تابعة لجنوة، وذهب قرط وأغلى بتلك المغانم إلى تونس لمقابلة خير الدين [1] وهو سبب مجيئه إليها، والتشاور في أمور الجهاد ووضع الخطط الاستراتيجية لذلك، وهنا تتجسد قوة التلاحم بين المسلمين، لتنفيذ غرض واحد هو محاربة المسيحيين في حوض البحر المتوسط وتطهير الشمال الأفريقي من الوجود الاسباني، ليتحقق هدف المسلمين في استرداد الأندلس، فالعقيدةواحدة، وبالتالي الهدف واحد.

بعث أهل الجزائر إلى عروج أثناء اقامته في جيجل خطاباً يشكون فيه سوء حالهم ،بعد أن بنى الاسبان قلعتين أمام المدينة، أضرت بهم، وضيقت الخناق عليهم، ورجوا عروج أن يخلص الجزائريين من ذلك، وأنهم لم تعد لديهم قوة واستعداد لتحمل تلك المضايقات وعندما سمع ذلك أدركته حمية الاسلام وتحركت في قلبه نخوة الجهاد، فقرر التوجه إلى الجزائر.

كان خير الدين في هذا الوقت بعيداً عن جيجل فأوصى عروج أهلها بأنه إذا قدم خير الدين يهيأ له مدد من الغزاة يستعين بهم على جهاد أهل تلك القلعة في الجزائر، وبعد مضي فترة من الزمن، رجع خير الدين إلى جيجل فاستقبله أهلها وأبلغوه وصية أخيه، فأعد خير الدين مائتين وثمانون رجلاً بكامل أسلحتهم وأرسلهم لأخيه في الجزائر، ففرح بذلك عروج وأكرمهم ووسع في جرايته عليهم [2].

سار عروج أولاً نحو مدينة شرشال فاحتلها ثم تقدم نحو مدينة الجزائر

(١)عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ١٥ أ ، ق ١٥ ب .

(٢) محمد أمين : فتوحات خير الدين باشا ، ق ١٥ أ .

فأنقذها من الاسبان، ثم حاول القضاء على الحصن المسمى بينون (Penon)[1] إلا أنه أخفق في ذلك، وعملت الدسائس عملها، فانقلب ضده حاكم الجزائر وتآمر مع الاسبان، فصمم عروج على الانتقام من حاكم الجزائر سالم التومي فقضى عليه، وأعلن نفسه رئيساً، ولم يواجه من ذلك أي معارضة من قبل الأهالي وذلك لما يجمع بينهم جميعاً من أخوة الاسلام، ورابطة الدفاع عن الأراضي الاسلامية، وهرب يحي بن سالم التومي إلى وهران مستنجداً بالاسبان وفي ١٨ رجب ٩٢٢ هـ (١٨ أغسطس ١٥١٦ م)، وبينما ضربات عروج القوية تدك حصن الصخرة الاسباني بعث القائد الاسباني ديقو دو فيرا (Diego de Vera) برسالة إلى يحي بن سالم التومي قال فيها : « . . أيها الشريف الشجاع والسيد الأمين، إن مولانا الملك وقداسة الكاردينال وإلى المملكة الاسبانية بلغتهما أنباء موت أبيك الصادق الأمين . . . وللأخذ بالثأر ومعاقبة المجرمين فإن الأمر صدر لجمع أسطول وجيش عظيم، ولهذا تهيأ واستعد لمساعدتنا عندما نصل إلى مدينة الجزائر حتى نقضي على الأتراك ومن تبعهم الذين كانوا سبباً في قتل أبيك وحتى لا ينجوا أحدهم من البر، أما من ناحية البحر فسأكفيك شرهم ولن يستطيعوا هروباً دون أن ألاحقهم ولو فروا إلى اسطنبول . . »[2]

أبحرت العمارة الاسبانية نحو الجزائر في أواخر رمضان ٩٢٢ هـ /سبتمبر ١٥١٦ م بقيادة ديقو دو فيرا (Diego de Vera) مكونة من خمس وثلاثين سفينة وعلى ظهرها ثمانية آلاف رجل مع ما يلزمهم من سلاح ومدافع وذخيرة ونزلت الساحل حيث كان عروج والمجاهدين الملتفين حوله واثقين من أنفسهم، وأخذ كل من الجانبين ينفذ خططه بعناية ودقة، ودارت المعركة ولم تدم إلا أياماً قليلة، إذ

(١) أحمد جواد مولي : الزهرة النيرة في بيان ما جرى حين أغارت على الجزائر جنوس الكفرة ، ق ٣ ، ٣ ب .

(٢) البينون مصطلح يطلق على الجزر الساحلية والرؤوس الداخلة في البحر أعتاد الأسبان أن يقيموا عليها قلاعاً حصينة تهدد سكان الساحل وتمنع في نفس الوقت وصول سفن المسلمين .

اندفع المسلمون على الاسبان، وهم يصيحون صيحات الجهاد، ويحاربون بذكر الله فما كاد الأعراب المحيطون بالمدينة يسمعون نفير الجهاد وأصوات التهليل والتكبير حتى أقدموا على ميدان المعركة في جموع متتالية يشدون أزر المسلمين، ويمعنون في جهاد العدو الذي اختل نظامه وحاولوا الانسحاب إلى اسطولهم بينما أمعن المسلمين فيهم قتلاً وأسراً [1].

في هذا الوقت وصل اسحاق الأخ الأكبر لعروج وخير الدين من بلاد الروم إلى تونس، وذلك ليقنع خير الدين بالقدوم إلى بلاد الروم، ولم يوافق خير الدين على الذهاب، وأقنع أخاه اسحاق بالبقاء معهم. وأرسل خير الدين أخاه اسحاق إلى الجزائر مع أربعة سفن وأمر الجنود بالسمع والطاعة، فوصل اسحاق مع سفنه إلى الجزائر وقابل أخاه عروج الذي فرح بقدومه، وبقي خير الدين في تونس لمقابلة العلماء في فصل الشتاء [2]، بينما سافر قرط أوغلي ومصلح دين ريس إلى مصر لمشاركة السلطان سليم في الاستيلاء عليها وأخذها من السلطان الغوري [3].

بدأ المجاهدون المسلمون في الجزائر من هذا التاريخ ومن خلال وجودهم داخل المغرب العربي الكبير في تأسيس نظام في غرب البحر المتوسط [4] أخذت على عاتقها استرداد المدن التي سبق وأن سقطت في يد الاسبان، ثم استرداد الأندلس وانقاذ المسلمين هناك.

كان هدف عروج وخير الدين أن يطهروا الشمال الافريقي من الاحتلال الأجنبي، وأن يقوضوا على ذلك الاحتلال في وهران والمرسي الكبير أولاً،

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٤٠ ـ ٤١ .
(2) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٨٠ ـ ١٨٣ .
جلال يحيى : المغرب الكبير ، ص ٢٢ .
محمد أمين : فتوحات خير الدين باشا ، ق ٤٨ ب .
(3) أحمد جواد مولِلي : الزهرة النيرة ، ق ٣ أ ، ٣ ـ ب .
(4) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ١٦ أ ، ١٦ ب .
عبد الرحمان تسانجي

وبنظرة دقيقة أدرك الأخوان أن تلك المنطقة تشكل خطراً بالوجود الاسباني الذي تسرب إلى مملكة بني زيان، ومن وراء الاسبان ومملكة بني زيان يوجد الخطر الداهم البرتغالي والغزو الذي لم تتمكن مملكة بني وطاس المرينية من ردعه [1] كل ذلك كان عائقاً يقف في وجه الأخوين بربروسيا لتنفيذ خطتهم في استرداد الأندلس وانقاذ المسلمين فيها، لذلك كانت الخطوة التالية بعد تدعيم الموقف في الجزائر هو الغرب لمواجهة النفوذ الاسباني والبرتغالي ليتسنى لهم استرداد الأندلس، وإقامة ولاية بحرية قوية تابعة للعثمانيين هذا المشروع لو تحقق لأغلق البحار كلها في وجه الأوروبيين.

شرع عروج وخير الدين من أجل تحقيق تلك الأهداف في التوسع على حساب الامارات المجاورة فاستولوا على قبصة بعد أن هرب حاكمها إلى الصحراء ثم استحوذا على مليانة [2] وخضع أهلها وفرضوا عليهم الضرائب [3]، ثم استولوا على بلاد القبائل ونصب عروج عليها أخاه خير الدين على أن يكون مركزه ولي، وساعد عروج في السيطرة على تلك النواحي هو ما كان قائماً بين زعماء بني عباس وأهل جبل كوكو من تنازع واختلاف على السيادة لتلك النواحي [4]، ثم هاجم عروج بجيش مؤلف من ألف تركي وفرق من المجاهدين الاندلسيين والجزائريين ملبين داعي الوحدة والجهاد الاسلامي المتأجج في قلوب المسلمين وحكم عروج تنسى في ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) وقتل حاكمها الموالي للاسبان بعد ذلك رأى عروج أن يقسم المملكة إدارياً إلى منطقتين وذلك حتى يسهل عليه السيطرة على البلاد، والاضطلاع بأمورها، منطقة شرقية يشرف عليها خير الدين ومقرها دلسى، وأخرى غربية يشرف عليها عروج بنفسه

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٨٧ .

(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٤٢ .

(٣) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

(٤) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٤٢ .

ومقرها الجزائر الميناء، لذلك غادر خير الدين مدينة تنسى، واتجه نحو دلسى فافتتحها دون مقاومة تذكر وانتصب بها ممثلاً للحكومة الجديدة [1] وبرفقته جنوده الذين شاركوه الجهاد، وقرر لهم مرتبات وذلك ليستعين بهم على ما تبقى من النواحي كما عين خير الدين في بعض المواطن نواباً عنه كان عددهم أربعة نواب[2] .

كان عروج في حاجة إلى صبغة شرعية لامتلاكه الأمصار والأراضي التي فتحها لذلك ربط تلك الفتوحات باسم الدولة العثمانية، فصار يغزو باسمها وكانت الدولة العثمانية حريصة على مثل هذا العمل بل وتشجعه لتحقيق أهدافها في الحوض الغربي للبحر المتوسط أما الأسبان وأحلافهم فقد هالهم الأمر واستعدوا للقيام بعمل أكبر، للتصدي لذلك[3] إذ أن الجهاد الذي مارسه العثمانيون منذ تأسيس دولتهم نوعان : جهاد بحري، وجهاد بري فالجهاد الأول كان في البحر لا يعرف حدوداً سوى حدود الغلبة والهزيمة فهو حرب بكل معنى الكلمة، كان العثمانيون خلاله يجوبون البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وبحر الشمال لفرض حصار حول الأندلس، ووصلوا بمغامراتهم ومطارداتهم لأعدائهم إلى شواطىء أفريقيا الغربية وجزر الكناري وشواطىء انكلترا وكان هذا الجهاد موجهاً ضد كل الدول المسيحية التي لا تعقد معاهدة صداقة مع الجزائر ويقتضي ذلك مطاردة سفن العدو في البحر والاستيلاء عليها بما فيها من غنائم وأخذها إلى الجزائر[4] .

كانت تلمسان مسرحاً للتنافس على الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة من بنو زيان فتنافس أبو حمر الثالث وابن أخيه أبو زيان أحمد، فاتجه الأول إلى

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٨٥ - ٧١٨٦
(٢) عبد القادر محمد بن عمر : سيرة خير الدين باشا ، ق ١٨ أ .
(٣) محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .
(٤) أبو القاسم سعدالله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

الاسبان مستنجداً بهم ليساعدوه في الوصول إلى الحكم مما أدى إلى ذهاب أبو زيان أحمد إلى عروج وذلك لنجدته، وانقاذ البلاد من التدخل الاسباني الذي أضر بحياة السكان[1]

اندفع عروج نحو تلمسان وقطع عدة مراحل لنجدة ابو زيان احمد فأخذ طريقه الى تلمسان بين الهضاب الداخلية، وذلك حتى لا يصطدم بالاسبان من ناحية وهران، يصدوه عن تلمسان، او قطعوا عنه خط الرجعة وعندما وصل الى قلعة بني راشد «هوارة»[2] اتخذها مركزا لحماية مواصلاته، وترك فيها اخاه اسحاق على رأس فرقة من الجنود ليحفظ مؤخرته وخط تراجعه، كما امرهم بالتضييق على الاسبان في وهران، وعرقلة اعمالهم وتحركاتهم العسكرية وحتى لا يعوقوا سيره نحو تلمسان[3] وعندما اقترب عروج من أحواز تلمسان تدفق أهلها عليه من كل ناحية،وتلقوه بالطاعة والخدمة، فلما رأى سلطانها ذلك، أدرك انه لا طاقة له لحربه ففر منها بعد ان جمع كل ما وصلت اليه يداه من ذخائر وأموال، ودخل عروج تلمسان[4] بكل سهولة.

أجلس عروج على كرسي تلمسان السلطان ابو زيان، بدلا من عمه أبو حمو الثالث، الذي سبق وأن اغتصب الحكم، ثم حاول عروج ان يوفق بين رغبته في توحيد البلاد تحت ادارة مركزية قوية في مدينة الجزائر والاستعداد العام لمواجهة الاسبان، وتخليص البلاد من مضايقتهم، وبين بقاء الحكم لبني زيان على ناحية تلمسان، ضمن دولة الجزائر، لكن التوفيق بين عمليتي الجمع والفرقة امر صعب إيجاده فلم يستقر الوضع بتلمسان الا قليلا، فعادت

(١) شوقي عطاالله : المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ص ٨٥ .

(٢) هوارة أو قلعة بني راشد : هي قلعة صغيرة من ولاية وهران تبعد عن معسكر بنحو ٢٥ كم وعن مستغانم ٥٥ كم وتعتبر من أغنى البلاد زراعياً يعتمد عليها الأسبان في ذلك .

(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٤) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا، ق ١٨ ب .

الاضطرابات والفتن والدسائس، وشجعها الاسبان من جهة والطامعون في العرش من جهة اخرى، وتولى السلطان ابو زيان وأشياع عمه ابو حمو معا[1]، كان ذلك بينما كان عروج قد توجه الى المغرب فوصل وجده واخضع بني يزناسن وشرع في اجراء مباحثات مع الوطاسيين في فاس للتعاون معهم ضد الاسبان[2]، وعندما عاد الى تلمسان قتل أبا زيان الذي سبق وأن نصبه عليها، بينما توجه أبو حمو الثالث الى وهران، واجتاز البحر الى اسبانيا لمقابلة ملكها شارل، متوسلا اليه ان يعينه على أهل تلمسان وعروج[3]. فاصدر اوامره الى حاكم مدينة وهران بأن يستعمل كل امكانياته لارجاع ابي حمو الثالث الى عرش تلمسان، وابعاد خطر التوسع التركي عن انقاض مملكة بني زيان، وأمده بجيش كبير وعتاد فخرج ابو حمو على رأس جموع من الأعراق ومعه فرقة من الجيش الاسباني، فداهموا اول الأمر قلعة بني راشد، حيث رابض اسحاق شقيق عروج، ونازلوها بقوة وعنف وتمكنوا منها بعد دفاع عظيم ولم يستسلم لهم اسحاق[4] على الرغم من الحصار الذي فرض عليهم والذي دام ستة اشهر، بعد ذلك اضطر الاسبان الى ضرب القلعة بالمدافع فأحدثت فجوة فيها، وأراد الاسبان النفاذ منها، لكن منعهم من ذلك طائفة من الغزاة. واشترط اسحاق لتسليم القلعة ان يخرج كافة المسلمين بجميع اشيائهم وامتعتهم، فوقع الاتفاق على ذلك، وعندما خرج المسلمون نقض الاسبان شروطهم وقام قتال شديد قتل اثناءه اسحاق واستمرت البقية في القتال حتى استشهدوا جميعا، فاستولى على القلعة ابو حمو الثالث ثم توجه هو ومن معه من العرب والاسبان الى تلمسان فحاصره، وخرج اليه عروج وجماعته فلم يزل يقاتله حتى استشهد وكذلك جماعته الذين قاتلوا حتى استشهدوا[5] وذلك بالقرب من الوادي المالح على

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

(٣) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٤) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٥) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ١٩ أ ، ١٩ ب .

مقربة من مدينة وجدة كان ذلك في جمادى اول ٩٢٤ هـ/مايو ١٥١٨ م، فسر لقتله الاسبان، واحتزوا رأسه وأخذوه معهم الى بلادهم وطافوا به الشوارع وحصل ارتياح كبير لدى الاوساط الاسبانية، التي رأت الفرصة سانحة لاطفاء ما يتأجج في صدرها من نار طلب الثأر من سكان شمال افريقيا المسلمين منذ امتداد حكمهم للاندلس في العصور السابقة[١].

أعاد الاسبان أبا حمو الثالث ملكا على تلمسان، على أن يكون حليفهم وقطع على نفسه عهودا، وهي ان يؤدي للاسبان اتاوة حددت بـ١٢٠٠٠ مثقال من الذهب و١٢ فرس و٦ صقور اناث، وظل ملتزما بذلك طوال حياته، وعندما آل الحكم الى اخيه عبدالله بعد وفاته، امتنع عن اداء ما كان يدفعه ابو حمو للاسبان، وذلك ثقة منه في مساندة السلطان العثماني[٢].

من خلال ذلك كله اتضح لنا صدى حروب الاسترداد المسيحية لدى المسلمين الذين اصبغوا على حروبهم مع المسيحيين روح الجهاد، الذي ساد العصر كله، وهناك تجمع مجاهدون من جميع انحاء العالم الاسلامي، وصمموا على استرداد المناطق التي احتلها المسيحون في الشمال الافريقي، وذلك تمهيدا لارجاع الحكم الاسلامي الى الاندلس، ووافق ذلك هدف الدولة العثمانية التي قدمت العون للمجاهدين بل وشجعتهم بكل الوسائل لتحقيق اهدافهم على الرغم من مشاغلها في الجبهة الشقية والاوروبية، والمتاعب التي كان يسببها الفرس، وترقب الخطر البرتغالي القادم من الجنوب.

(١) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٤٤ .

(٢) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ، ج ٢ ، ص ١٠ .

تشجعت الحكومة الاسبانية في الوقوف امام الجبهة الاسلامية بقيادة خير الدين بربروسا، ورغبت في القضاء على تلك القوة الاسلامية والروح الجهادية التي ظهرت بها، والتي اخذت تهدد الاستراتيجية الاسبانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط والشمال الافريقي، لتحقيق اهداف الدولة العثمانية في تلك المنطقة والتي تعتبر مقدمة لاسترداد الاندلس.

جمع شارل ملك اسبانيا جيوشه، واخذ في تجهيز السفن، لتوجيه ضربة قاضية للمسلمين في الجزائر فوصلت تلك الحملة الى وهران واستكملت عدتها هناك، ثم توجهت الى الجزائر، هذا بينما اخذ حاكم تلمسان يستعد لمواجهة خير الدين الذي أوعز لسكان الجزائر بأن يستقبلوه احسن الاستقبال والا يظهروا له عداوتهم، وبالفعل استقبل اهالي الجزائر حاكم تلمسان بحفاوة بالغة، حسب تعليمات خير الدين بربروسا، ورست السفن الاسبانية على ساحل الجزائر، كما بعث الاسبان برسالة لخير الدين، اذ طلبوا منه الجزائر، واذا لم يتنازل خير الدين عنها، فسيصيبه ما حل باخويه عروج واسحاق في تلمسان، وما آل امرهما اليه من الاهانة والقتل[1] وأجابهم خير الدين على ذلك ان اخويه اللذين استشهدا في سبيل الله احياء عند ربهم يرزقون، وعندما علم القائد الاسباني

(١) محمد أمين : فتوحات خير الدين باشا ، ق ٦٢ ب .

بموقف خير الدين، تحركت حميته وبدأ في انـزال جنوده على السـاحل، وتم ذلك في يومين، بينما نظم خير الدين جنوده، ووضع خطة حربية لذلك، وبدأت المعركة التي استمرت يوما واحدا، اذ اخلص المسلمـون فيها نيـاتهـم وهجموا على المسيحيين، وبعناية الله انتصر المجاهدون، على الاسبان الـذين هربـوا الى سفنهم ومن خلفهم المسلمين، وأسروا اعدادا كبيرا من الاسبان وعاد حكم تلمسان الى ولايته[١].

كان وجود الاسـرى مشكلة للمسلمين، فاقتـرح اهل الجـزائر على خيـر الـدين بأن يقـوم هؤلاء الأسرى بعمـل ، خاصـة وإن القلعـة الأسبـانيـة ليست بعيدة عن معسكر المسلمين، فـأصدر خيـر الدين اوامـره بانشـاء ثلاثـة سجون لايوائهم الا ان بعض الاسرى حاولوا الفـرار الى القلعة بعـد ان قتلوا الحراس المسلمين وعندما سمع المسلمون بذلك قاموا بقتل القتلة، وقامت المفاوضات بين خير الدين والاسبان لافتداء هؤلاء الاسرى بمبالغ كبيرة من الاموال، فرفض خيـر الدين تلك واستمـع لرأي بعض العلمـاء المسلمين، الذين افتـوا بقتلهم جميعا، لأنهم عندما يعودون لاسبانيا، فانهم سيعودون الى الجزائر خاصة وأنهم القادة الاسبان، فنفذ خير الدين ما جاء في فتوة هؤلاء العلماء معلقا على ذلـك بقوله: «انا فعلت ذلك امتثالا للفتوى لأنه من امتثل للشرع فان الله سيجزيه خير الجزاء»، واحدث خبر مقتل الاسرى حزنا عميقا في الاوساط الاسبانية[٢].

عزم خير الدين بربروسا على السفر الى اقليم الروم بغرض الغزو ومواصلة الجهاد، فجمع أعيان أهل الجزائر من المشايخ والعلمـاء، وأوضح لهم عـزمه على السفر الى السلطان العثماني، بعد ان امن بلاد الجزائر وصار لديهم جنود مجاهدون كما وصل اعداد كبيرة من الأندلسيين علاوة على الاسلحة الأمر الذي

(١) أحمد جواد مولي : الزهرة النيرة ، ق ٨ أ ، ١٠ ب .
محمد أمين : فتوحات خير الدين باشا ، ق ٩٠ أ ، ٩٠ ب .
(٢) أحمد جواد مولي : الزهرة النيرة ، ق ١١ أ ، ١٣ ب .

يقوم به الجهاد، وأن المسيحيين قد صدوا عن الجزائر، وصاروا لا يطمعون فيها بعد ذلك، وأنه عندما قدم الى الجزائر لم يكن لدى الجزائريين مدفع واحد؛ وصار لديهم بعد ذلك اربعمائة مدفع، وعلى الجزائريين اختيار واحد منهم يكون من خيارهم ليكون اميرا عليهم، بعد ان انتهت المهمة التي جاء من أجلها[1].

ناشد علماء الجزائر خير الدين وقالوا له ايها الأمير يتعين جلوسك في هذه المدينة بغرض حراستها، ولا رخصة لك في الذهاب عن الجزائريين وتركهم عرضة للعدو الكافر، واذا كنت تخشى ان يكون لك اجر في الجهاد ببلاد الروم، فان هنا كثير من يقوم بهم غيرك، والمصلحة التامة هي اقامتك في مدينة الجزائر من اجل حمايتها،فلما اكثر العلماء الكلام على خير الدين اجابهم بأنه يشعر بالغربة في الجزائر، اذ انه من جزيرة مدللي، وأنهم رأوا موقف سلطان تلمسان السابق، وكيف جلب الاسبان على المسلمين لولا عناية الله وكفاهم شرهم وردهم على أعقابهم، ورجع سلطان تلمسان الى بلاده بخيبة وحسرة، بالاضافة الى موقف سلطان تونس الحفصي، الذي لم يقدم يد العون والمساعدة في جهاد العدو، وذكر لهم خير الدين بأنه لم يغتصب الجزائر من يد واحد منهما، وانما استولى عليها بعناية الله وخلصها من براثن العدو وكذلك كان أخوه عروج، وكان على سلطان تلمسان وتونس ان يكونوا يد واحدة مع المجاهدين في الدفاع عن الاسلام والأراضي الاسلامية، وجهاد اعداء الله[2].

اقترح خير الدين بربروسا على الجزائريين لحماية مدينتهم، بأن يمدوا يد الطاعة للسلطان العثماني واذا فعلوا ذلك، فان السلطان العثماني سوف يمدهم

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ٢٣ ب .
(٢) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا ، ق ٢٣ أ .

بالمال والرجال وجميع ما يحتاجون اليه من آلات الجهاد، ولا يكون ذلك الا بالدعاء في الخطبة له وضرب السكة باسمه؛ فرضى الجزائريون بذلك استحسنوا رأيه.

أمر خير الدين سكان الجزائر ان يكتبوا على لسانهم رسالة للسلطان العثماني يخبرونه بغرض طاعتهم اليه، وأنهم من جملة من يقام فيهم احكامه، ويكتب خير الدين بدوره خطابا مثل خطابهم، ففعلوا ذلك، وعين خير الدين اربع سفن للسفر الى حضرة السلطان وعلى رأسها رجل من خواصه اسمه الحاج حسين، ووجه صحبتهم هدية عظيمة للسلطان سليم، ومن ذلك اربعة قواد من الأسرى المسيحيين، فقبل السلطان سليم الهدية، وأمر بانزال الوفد واجراء النفقة عليهم، وعندما عزموا عى العودة وجه صحبتهم خطابا وسنجقا الى اهل الجزائر بقبول ما كتبوا اليه، وأنهم ممن تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته[1]، فأرسل السلطان سليم الفي جندي من قوة سلاح المدفعية العثمانية، وكانت المدفعية (طوب) العثمانية اقوى مدفعية في ذلك الوقت ومن أقوى اسلحة الجيش العثماني[2]، كما أرسل اربعة الاف من المتطوعة للجهاد وجند الانكشارية، وجاء معهم كثير من المهاجرين الاتراك، ومن هؤلاء الجنود والمهاجرين تكون الأوجاق او قوة الجزائر الحربية[3]، وذلك بعد أن اعطى السلطان سليم للذين يذهبون الى الجزائر كمتطوعين امتيازات الانكشارية[4]، تشجيعيا لهم على الانضمام الى كتائب المجاهدين، وقد اقبل سكان الاناضول على السفر الى الجزائر والتطوع في عمليات الجهاد، كما بادر بمنح خير الدين لعب بيلربك الجزائر ٩٢٤ هـ/١٥١٨ م وهو من اعظم القاب الدولة

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا، ق ٢٣ ب، ٢٤ أ.
(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ٢، ص ٩١١.
(٣) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج ٣، ص ٤٦.
(٤) أرجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ص ٢٢.

العثمانية[1].

والبيلربكية في الدولة العثمانية نظام اداري، وتعتبر قاعدة ارتكاز لـزحف يتلوها، ومثال ذلك كانت بغـداد بيلربكية سنـة ٩٤١ هـ/١٥٣٤ م، ثم صارت البصرة بعد ذلك سنة ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م، وكان من مدلولات بيلربكية الجـزائر ان الدولة العثمانية جعلت الجزائر قـاعدة حـربية، لتـزحف منها الى الانـدلس لاستردادها، من خلال ذلك فقد اعتبرت الجزائر ولاية ممتازة. واعتبرت قاعدة الحكم العثمـاني في شمال افريقيا، وفي غـرب البحر المتـوسط واشرفت على اخضاع باقي شمال افريقيا للسلطة العثمانية وظلت هي المسؤولة عن توجيهات الحكم في طرابلس وتونس[2]، ان منح خير الدين لقب بيلربك الجزائر اي امير الأمراء، وهو من أرفع المناصب في الدولة، والتي تخول صاحبها اختصاصات اداريـة واسعة، كمـا تجعله قـائـدا اعلى للقـوات المسلحـة في اقليمـه ممثـلا للسلطان، دليـل على اهمية المـواجهة بين الاسـلام والمسيحية للسيـطرة على البحـر المتوسط اذا كـانت الأحداث في غـربي البحر المتـوسط تتطلب وجـود شخصية في الجزائر، كما كانت تقتضي وجود تعاون وثيق بين السلطنة ونـوابها في الجزائر، ذلك ان ارتباط الجزائر بالدولـة العثمانيـة جرى في الـوقت الذي اتحدث فيه مملكة اسبانيا مع الامبراطورية الرومانية المقدسة بتـاج واحد حمله ملك اسبانيا باسم شارل الخـامس[3]، فكان معنى هـذا ارتباط مـوقف اسبانيـا بمـوقف الامبراطـور المعادي للدولـة العثمانيـة[4]، اذ ان السلطان سليم اثنـاء وجوده بالقاهرة قد أدرك اهمية الجزائر بالنسبة للجهاد، وادرك مدى المسؤوليـة التي اضطلع بحملها[5]، لذلك سعى في تدعيم وجود الدولة هناك.

(١) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٠.
(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥٦.
(٣) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ ٢، ص ٩١١.
(٤) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥٨.
(٥) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ١٩٨.

عندما سمع اهل طرابلس بانضمام الجزائر الى الدولة العثمانية سنة ٩٢٤ هـ/١٥١٨ م، وشاهدوا الدعم السخي من الدولة وبعد ان عجزوا في التخلص من الوجود المسيحي في طرابلس، بسبب ضعف امكانياتهم الحربية والبشرية وقلة مواردهم المالية، رأوا ان ينهجوا نهج أهل الجزائر[١]، فبعثوا في ٩٢٥ هـ/١٥١٩ م وفدا الى استانبول يطلب المساعدة لتخليص بلادهم من الوجود المسيحي، فاستجاب السلطان العثماني لمطالبهم، وأمر باسناد امارة طرابلس الى مراد اغا، وذلك لمعرفته باللغة العربية، وبرفقته جنود عثمانيين، وأقام مراد ادارة في تاجوراء باسم الدولة العثمانية، وشيد حصنا ليكون مركز امامي فيما بين طرابلس وتاجوراء، وبذل جهود كبيرة في مقاومة فرسان القديس يوحنا، الذين يتلقون دعما كبيرا من اسبانيا[٢].

لم يكن بذلك امتداد نفوذ الدولة العثمانية لكل من تونس والجزائر بواسطة غزو عسكري، بل جاء تدخل الدولة نتيجة لاشتداد الصراع بين الاسلام والمسيحية في الحوض الغربي للبحر المتوسط في اوائل القرن السادس عشر[٣] ونتيجة لطلب الأهالي في تلك المناطق، الذين رغبوا في ربط مصيرهم بالدولة العثمانية، لوحدة الهدف فامتلأت القلاع والثكنات العسكرية والسفن، وخاضوا حروب الجهاد[٤] بكل قوة واقتدار، كما ساهم سكان تلك المناطق من طرابلس الى مراكز مع الدولة العثمانية بالخبراء الفنيين والحارة[٥]، وبدت تلك الحروب غاية في القوة تجسدت فيها كل ملامح التلاحم الاسلامي.

إن أهم مميزات الوجود العثماني في الشمال الافريقي بوجه عام والجزائر

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ ٢، ص ٩٢٨ - ص ٩٢٩.
(٢) عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٢ - ٢٣ ، نجم الدين غالب : مدينة طرابلس عبر التاريخ ، ص ٩١ .
(٣) صلاح العقاد : المغرب العربي، ص ١٩ .
(٤) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي جـ ١ ، ص ١٣٥ .
(٥) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 89

بوجه خاص هي استمرارية فكرة الجهاد ضد المسيحية بالمعنى التقليدي للكلمة، وبالمعنى الذي آمن به العثمانيون منذ نشأة امارتهم ثم دولتهم، ومنذ أن صاروا جنودا على حدود الدولة الاسلامية يغيرون على بيزنطة فيستشهدوا أو ينتصروا. هذا المعنى للجهاد وهو الذي جاء به العثمانيون للجزائر ايضا، فهو اذا من تقاليدهم العريقة، وقد انضم اليه جهاد الاندلسيين، وأهل شمال افريقيا، وهم ايضا كانوا يستعملون الجهاد وفي معناه الذي ورثوه عن اجدادهم[١]، لذا كانت أهمية الدولة العثمانية انها تجربة فريدة وجريئة في تطبيق النظم الاسلامية، وعلى الأخص في معاملة أهل الذمة في العصور الحديثة[٢]، من هذا المنطلق اخذ المسلمون في الاندلس يسترحمون من الدولة العثمانية القائمة بالاسلام مساعدتهم على الاسبان ووافق ذلك الوقت وفاة السلطان سليم ٩٢٥ هـ/١٥١٩ م، وجلوس السلطان سليمان القانوني على العرش، ولما عرضوا عليه الاسترحام المذكور رق قلبه لحال المسلمين ووعد بارسال حملة عسكرية لمساعدتهم وتخليصهم من الضيق[٣]

كان التحاق الجزائر بالباب العالي باعثا قويا لاضطراب الامور فيها فقد كان على خير الدين أن يحارب في جبهتين، الجبهة الخارجية، وتتمثل في ذلك الصراع العنيف مع الدول الأوروبية عامة واسبانيا التي ساد الفزع فيها، عند اعلان انضمام الجزائر للمجموعة الاسلامية العثمانية، ومن ثم وصول الخطر الاسلامي العثماني الى هذا الجزء الغربي من البحر المتوسط لاسترداد الاندلس، والذي يعتبره الاسبان بحكم استيلائهم على اهل المدن الساحلية الجزائرية وعلى جزره الكبرى ومعظم السواحل الايطالية بحرا اسبانيا صميما[٤]، وهناك الجبهة الداخلية التي تتمثل في محاولة توحيد بلاد المغرب

(١) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، جـ ١، ص ١٣٩.
(٢) محمد البحراوي : التاريخ المعاصر. مجلة الدارة، العدد (٢)، السنة ١١، ص ٨١.
(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار جـ ١، ق ٣٦١.
(٤) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة ص ٢٠٥.

تحت حكمه، الا انه تعرض في هذا السبيل لمؤامرات الحفصيين بتونس، وبني زيان في تلمسان، علاوة على امارات القبائل الصغيرة(١)، وذلك خشية امتداد القوة العثمانية الى بلادهم، ونشر جناح السلطنة على كامل بلاد المغرب العربي، فاجتهد الحفصيون الزيانيون يومئذ في العمل على قطع العلاقة بين الجزائر واستانبول، وسعوا في ايقاد الفتن والثورات الوطنية ضد السلطة العثمانية، وانفقت في سبيل ذلك اموالا طائلة، وفيهم من استعان بملوك الاسبان وملوك المغرب الاقصى(٢).

تضايق سلطان تونس من خير الدين، فوجه الى سلطان تلمسان ابو عبدالله الزياني خطابا يقول فيه انظر الى مملكة الاتراك كيف استقرت بالجزائر، وأن خير الدين دانت له القلعة، واتصلت بالمملكة اعوانه، وأنه اي خير الدين قد فتح عمالة الجزائر بطائفة قليلة من الجنود الذين كانوا يغزون معه في البحر وأما الآن فان الامدادات وجميع ما يحتاج اليه تأتيه من السلطان العثماني في البحر، وهو يتفرع لي ولك ويسلبنا ملك ابائنا واجدادنا باقتدار، وقبل ان تتسع تلك الفجوة، يجب ان نكون يد واحدة(٣).

كان لسلطان تلمسان ابو عبدالله الزياني اخوان وكانا قد هربا الى صاحب فاس وظلا هناك حتى طلبهما اخوهما، ورجعا اليه بعد ان تعهد ابو عبدالله بضمان سلامتهم(٤)، وعندما اقترب الأخوان من نواحي تلمسان توهما من أخيهما شرا، ففر احدهما الى وهران والآخر دخل في عمالة خير الدين فاستعطفه بمساعدته على أخيه، ووافقه خير الدين على ذلك، فبعث الى شيوخ القبائل خطابا يدعوهم فيه الى خلع صاحب تلمسان ابي عبدالله وبيعة اخيه

(١) صلاح العقاد : المغرب العربي، ص ٢٢.
(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر الحديث، جـ٣، ص ٤٧.
(٣) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين ق ٢٤ ب، ٢٥ أ.
(٤) محمد أمين : فتوحات خير الدين باشا، ق ٧٩ ب، ٨٠ أ.

مسعود، فأجابته كافة القبائل الى ذلك، واجتمع نحو عشرين الف رجل مع مسعود، وبعث اليهم خير الدين بطائفة من الجنود، فذهب مسعود وبمن معه من رجال القبائل والجنود التي وجهها اليه خير الدين الى تلمسان، فهرب ابو عبدالله ودخلها مسعود، وأقام بها حكمه تحت اشراف خير الدين.

عندما عاد جنود خير الدين الى الجزائر، طمع مسعود وحدثته نفسه بالاستقلال بتلمسان، والخروج عن طاعة خير الدين، فبعث الى الاسبان في وهران خطابا طلب فيه ان يكونوا يد واحدة في حرب العثمانيين بقيادة خير الدين فعلم بذلك خير الدين فوجه اليه خطابا يلومه على ما فعل، ويحذره عاقبة امره، ويقول له فيه انك ان تماديت على موالاة الاسبان، والانحياز اليهم فلا بد ان انتقم منك غاية الانتقام، وأجعلك حديثا بين الأنام فأنظر لنفسك، وجدد اسلامك وتب الى الله عز وجل من هذا الذنب العظيم فان الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وكان خير الدين نفسه في نفس الوقت الذي بعث فيه الخطاب المذكور اخذ في الاستعداد لمواجهته اذا لم يستجب لذلك التحذير[1].

سمع أبو عبدالله الزياني بالاحداث السابقة، فطمع بملك تلمسان مرة اخرى، فبعث الى رجل صالح من صلحاء ذلك الوقت، ليتشفع به لدى خير الدين ومن جملة ما قاله ابو عبدالله ان خلصني خير الدين وردني الى ملكي اكون عبدا من عبيده يتصرف بي كيف يشاء، وأنا أعلن توبتي الى الله من مخالفته والخروج عن أمره، فتوجه ذلك الرجل الصالح الى خير الدين في الجزائر بغرض الشفاعة لأبو عبدالله، وقبل خير الدين تلك الوساطة من قبل ذلك الرجل، وبعث خير الدين لأبو عبدالله بالحضور اليه بالجزائر، للتفاوض معه في امر تلمسان، فأجابه بخطاب انه لا يستطيع الحضور للجائر، خوفا من ترصد

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين ق ٢٥ ب، ٢٦ أ.

اخيه مسعود في الطريق، واذا رغب خير الدين ان يحصل على هدفه بخصوص تلمسان، فعليه القدوم الى مستغانم فبعد فتحها يتم التفاوض على تلمسان.

جهز خير الدين ثمان وعشرين سفينة بجميع ما تحتاج اليه من العدو والعدد، كما جهز جنود من ناحية البر، وذلك لحصار مستغانم برا وبحرا ففتحها وخلصها من مسعود، وعندما استقرت الأوضاع خرج أبو عبدالله من وهران، وعندما سمع ذلك خير الدين سر بهذا النبأ، بينما اتجهت سفن خير الدين والتي ساعدت في حصار مستغانم الى الاندلس لانقاذ المسلمين هناك ومساعدتهم في العبور للجزائر، كما اتجهت القوة البرية الى قلعة بني راشد وخلصتها من مسعود، ثم توجهت الى تلمسان وصحبتهم عبد الله الزياني[1].

حاصرت قوة خير الدين تلمسان وضيقوا عليه الخناق، ثم تم فتحها وفر مسعود الى بلاد القبائل، وعينوا مولاي عبدالله وأعادوه الى العرش الزياني تحت اشراف خير الدين، ثم اغارت قوة عثمانية على القبيلة التي تواجد فيها مسعود، واستطاعوا القبض عليه وسلموه لأخيه عبدالله، الذي أودعه السجن حتى توفي فيه[2].

أسس احمد بن القاضي امارة بجبل كوكو، وعندما تولى خير الدبن امر البلاد أقر امارته واستقر ابن القاضي بجبل كوكو (سوق الاربعاء) من بلاد زواده، الا أن السلطان الحفصي اجتهد في التفريق بين احمد بن القاضي وخير الدين، فرفض ابن القاضي سيطرة الحكم العثماني، وقام بمناهضة حكمهم في النواحي الشرقية من الجزائر، وساعده في ذلك الحفصيون[3] الذين جهزوا عدتهم لمواجهة العثمانيين، وعندما سمع ذلك خير الدين وجه قواته الى الناحية الشرقية بناحية تيفليست يمليل، فانهزم الحفصيون، وحاصرهم العثمانيون في احد

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين، ٢٦ ب، ٢٧ أ.
(٢) محمد أمين : فتوحات خير الدين، ق ٩٢ أ، ٩٢ ب.
(٣) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٤٨.

الجبال، فتقدم احمد بن القاضي وأظهر صداقته واخلاصه للعثمانيين، وأشر عليهم بالصعود للجبل لاستئصال الحفصيين، وهناك وعندما وجد العثمانيون الحصيين بمكان ضيق في الجبل ارادوا الهجوم على الحفصيين للقضاء عليهم الا أن ابن القاضي وثب على العثمانيين وغلبهم ثم اخذ ابن القاضي في الاستيلاء على النواحي الشرقية، ولم يبق لخير الدين سوى مدينة الجزائر، فتقدم اليها ابن القاضي بجنود كبيرة وحاصرها حتى ضاق أهل الجزائر بذلك الحصار الذي أجهدهم كثيرا.

دخل فصل الشتاء، وأراد ابن القاضي رفع الحصار والعودة الى موطنه فمنعه من ذلك العرب الذين معه من نواحي الجزائر قائلين له أنا كنا مع العثمانيين في أمان وعافية ولم نر منهم الا الخير فراودتنا عن ذلك وغررتنا حتى تحولنا عن طاعتهم وقاتلناهم، فاذا عدت الى حال سبيلك فسوف يقتلوننا، ولم يزالوا به حتى منعوه من الذهاب، فتحير ابن القاضي عند ذلك ورأى مصالحة خير الدين، فبعث اكابر قومه ومشائخهم الى خير الدين يطلبون منه العفو والصفح، وكان خير الدين رجلا حليما، وقبل منهم سياسة منه وهو يعلم ما يكيده ابن القاضي، وشرط خير الدين ان يردوا اليه جميع الأسرى العثمانيين، ويدفع ابن القاضي جزية سنوية فرفض ابن القاضي وجماعته بذلك، وسلم لخير الدين جميع الأسرى، كما دفع جزءا من الجزية.

جهز ابن القاضي حملة اخرى لشقيقه، ورغب في ارسالها للجزائر الا ان خير الدين سمع بتلك الاستعدادات فبادر عليهم، ووجه جنوده اليهم بالقرب من الجزائر، وانتصر العثمانيون، وفر شقيق ابن القاضي من المعركة[1] وكانت في النواحي الشرقية بعض القلاع والمدن، سبق وأن استولى عليها ابن القاضي ووضع فيها رجاله، وبعد أن استقر خير الدين رغب في تلخيص تلك المدن والقلاع من يد ابن القاضي، فجهز حملة بقيادة قرة حسن الذي استطاع تحقيق

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين، ٢٨ أ، ٢٨ ب، ٢٩ أ.

تلك الأهداف وخلص جميع القلاع من يد ابن القاضي وعينه خير الدين بيكا على النواحي الشرقية، وعندما شاهد ابن القاضي ذلك، لم يستطع ان يقاوم النفوذ العثماني، فأخذ في اشعال الفتنة بين خير الدين وقره حسن، وبعث خطابا الى الأخير ذكر فيه أنه قام بمجهود كبير حتى استطاع ان يفتح تلك النواحي، وصارت ملكا له، فمن الأجدر أن يستقل عن خير الدين ويصير ملكا ويجبي الضرائب لنفسه بدلا من ارسالها لخير الدين، فسولت نفس قره حسن على الخروج عن طاعة خير الدين، وصارت النواحي الشرقية بين احمد ابن القاضي وقره حسن[1].

لم يكتف ابن القاضي بذلك، بل دعى أعيان اهل الجزائر للوثوب على خير الدين والخروج عن طاعة الدولة العثمانية فاضطربت الأوضاع في الجزائر وانقسم الجزائريون على انفسهم بين مؤيد ومعارض، وحدثت فيه القلاقل والفتن مما جعل خير الدين ان يترك العاصمة ويخرج منها الى جيجل[2].

كان لذلك العصيان من قبل بنو زيان في تلمسان، وابن القاضي في النواحي الشرقية، ودور الحفصيين في ايقاد الفتنة بين القوى الجزائرية ودعوة تلك القوى للخروج عن طاعة الدولة العثمانية، جميع تلك العوامل كان لها تأثير كبير في اعاقة توطيد نفوذ الدولة في الشمال الافريقي التي جعلت من بيلربكية الجزائر قاعدة ارتكاز لتتقدم منها نحو الاندلس فتأخر تحقيق ذلك الهدف، وساعد في ذلك التأخير ان الدولة كانت قادمة على تغيير جديد في اسلوبها، اذ جلس على عرش الدولة السلطان سليمان القانوني بعد وفاة والده السلطان سليم ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م، فانشغل السلطان سليمان بأمور الدولة، فهناك الشؤون الداخلية التي لم يتشبع السلطان بمعرفتها، علاوة على ذلك الجبهات الحربية والموزعة على القارات الثلاث كل ذلك يحتاج لوقت لرسم خطة جديدة تسير

(١) محمد أمين: فتوحات خير الدين، ق ٩٣ ب.
(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٤٨.

عليهـا الدولـة ، لتحقق طموحـاتهـا وعنـدمـا انتهى السلطان من رسم سيـاسـة الـدولـة ، فـإن جميـع الأمـور عـادت إلى طبيعتهـا شـأن كـل حـاكم أو سلطان جديد .

استقـر خيـر الـدين بـربـروسـا في جيجـل للفتـرة مـا بين ٩٢٨ ـ ٩٣٢ هـ/ ١٥٢١ ـ ١٥٢٥ م، وذلـك حتى تنتهي الدولـة من تنـظيمـاتهـا، لتـواصـل امداداتها العسكرية للجزائر، التي كان خير الدين في حاجـة لها، عـلاوة على ذلك فانه كان يرغب في اعادة تنظيم القوات العثمانية المتواجدة معه في هذا الوقت وريثما تصل الامدادات فقد استـأنف من جيجل نشـاطه في الجهـاد فشرع في مهـاجمة سـواحل البحـر المتوسط الغـربية[١]، كمـا اخذ في مهـاجمـة السفن المسيحية في عرض البحر المتوسط ،وصد هجوما مسيحيا على تونس، وفي هذا الوقت وصل سنان ريس الذي قام من جزيرة جربة وبمعاونة خير الدين بالهجوم على السفن المسيحيـة، فغنم المسلمين كثيـرا، واجتمعت الأعـوان على خيـر الدين، وضاق البحر على المسيحيين، فأخذ في انقاذ المسلمين بالاندلس، بأن حملهم على ظهر سفنه الى الشمال الافـريقي[٢]، وكان خير الدين قد سمـع اصوات الاستغاثة اليائسة، فلبى نداءها وصار يجوب البحر على رأس سفنه حتى بلغ السواحل الاسبانية التي التجأ اليها المسلمون، ولم يجرؤ اسـطول اسبانيـا على صـده. فأخـذ خير الـدين يحمل على سفنـه اكبر عـدد ممكن من اولئك المستضعفين الفارين بدينهم، بل انه كان يترك اكبر عدد من بحارته الجزائريين فوق الأرض الاسبانية لكي يحمل مكانهم عددامن اللاجئين، حتى اذا ما وصلوا الى بر الأمان فوق ساحل الجزائر، عاد الى اسبانيا ليـأتي بغيرهم، وكـرر ذلك عدة مرات، حتى انقذ اعدادا كبيرة اشتد بهم ساعد المسلمين [٣]

(١) محمد خير الدين فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٢.
(٢) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين، ق ٣٣ ب، ٣٤ أ.
(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

كان خير الدين يرغب في توحيد بلاد الشمال الافريقي تحت اسم الدولة العثمانية، حتى تنطلق منها الدولة لاسترداد الاندلس، فاستولى على مدينة القل ٩٢٨ هـ/١٥٢١ م وعنابة ٩٢٩ هـ/١٥٢٢ م وقسنطينة، واستعان بعد ذلك لسلطان بني عباس لطرد قبائل الكوكو من الحزائر، بعد أن ساءت سمعتهم بين الناس، واحتل المتيجة ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٥ م[١] وتبين للأهالي من خلال سياسة ابن القاضي مدى القسوة، التي اوغرت عليه قلوب الجزائريين، لذلك عندما دخل خير الدين مدينة الجزائر سنة ٩٣٢ هـ/١٥٢٥ م بناء على طلب من أهلها فان أهل المدينة احتفلوا برجوعه احتفالا عظيماً[٢] بينما قام رجال ابن القاضي بقتل زعيمهم وحملوا رأسه الى خير الدين علامة على خضوعهم[٣]

رأى خير الدين ان يذهب الى قرة حسن، الذي انحاز بمن معه الى مدينة شرشال واتفق مع الاسبان على اخذ الجزائر، وعندما وصلها خير الدين انضم اليه جنود قرة حسن بعد ان طلبوا من خير الدين العفو فعفا عنهم، ثم احضر قرة حسن امامه ووبخه ثم امر بقتله، واستقر الأمن بعد ذلك في الناحية الشرقية[٤] ووطد فيها نفوذ الدولة العثمانية ثم اتجه الى مدينة الجزائر.

كان أبو عبدالله الزياني سلطان تلمسان قد سولت له نفسه على الخروج عن طاعة الدولة العثمانية وذلك اثناء انحسار حكم خير الدين الى جيجل، فحول الخطبة له، وضرب السكة باسمه، ونقض العهد الذي اخذه خير الدين عليه، وامتنع عن ارسال ما هو مقرر عليه من اعانات سنوية للمجاهدين.

بعث خير الدين خطابا الى سلطان تلمسان يحذره من مغبة خروجه على

(١) شارل أندري جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية، جـ ٢، ص ٣٢٩.
(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ٣، ص ٤٩.
(٣) محمد خير الدين فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٢.
(٤) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين، ق ٣٦ أ، ٣٦ ب.

الدولة العثمانية، وانحيازه للاسبان في وهران، ونصحه بالعودة الى عهده ووعده، وأن ترجع الخطبة وتضرب السكة باسم السلطان العثماني الا أن ابا عبدالله الزياني لم يستجب للنصائح التي وجهها خير الدين، بل جمع أعيان البلاد من بني عبد الواد، وذكر لهم بأنه لم يكن دخيلا على حكم تلمسان، بل هو أحق من خير الدين الدخيل على البلاد، فجهز جيشا وتوجه للجزائر لمواجهة خير خير الدين، ووقع بينهم قتال كبير، كانت الكرة فيه على جيش تلمسان، وهرب ابو عبدالله الزياني، وعندما احس بعدم مقدرته في مواجهة خير الدين، عاد مرة اخرى للمداهنة، فبعث الى خير الدين أعيان مملكته يلتمسون منه الصفح والعفو، ويعدونه بحمل ما هو مقرر على صاحب تلمسان لرسم الجهاد، ويضاعفون الخراج الذي كانوا يدفعونه بالاضافة الى هدايا اخرى يوجهونها اليه كل سنة، فرضي خير الدين بذلك، وعاد للجزائر[1]، فكر خير الدين بربروسا بعد ان وطد دعائم الدولة العثمانية في انحاء الجزائر، في الحصن الذي شيده الاسبان امام مدينة الجزائر وكان هذا الحصن قد بالغ الاسبان في تشييده وتحصينه وكان كافة المسيحيين يمدونه بالاموال، اذ فرضوا له نوعا من الضرائب؛ لغرض العون ضد المسلمين، كما ارسلوا لذلك الحصن جميع أنواع السلاح وآلات الحرب والمدافع فتضايق الجزائريون من ذلك الحصن وهذا الاجراء.

اخذ خير الدين في شراء ما يحتاج اليه من مدافع، وعندما اكتمل استعداده امر بقذف المدفعية عليه بكل كثافة وصمد الاسبان في قلعتهم وحاولوا المقاومة، وقذفوا بدورهم مدينة الجزائر، فهدمت بعض المنازل واجزاء من الجامع الكبير، واستمر تبادل اطلاق النار عدة ايام استولى بعدها خير الدين على

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين، ق ٣٦ ب، ٣٧ ب.

ذلك الحصن[١]، من ناحية اخرى لم تصل الأخبار لملك اسبانيا بهزيمة جنوده واستسلام القلعة، فأرسل بدوره سفينة امدادات عسكرية لمساندة القلعة ضد المسلمين، وعندما وصلت السفينة أمام الجزائر قررت العودة الى اسبانيا اذ لم تجد اثرا للوجود الاسباني هناك، فهاجم اسطول خير الدين تلك السفينة واستولى عليها[٢].

شيد خير الدين بربروسا كأسرة امواج وذلك لتأمين ميناء الجزائر تربط اطلال القلعة والجزيرة بالساحل وبذلك اوجد ميناء حصينا استعمله المجاهدون كملجأ لهم في حالة سوء الجو، والهجوم البحري من قبل السفن المسيحية[٣].

ان موقع ميناء الجزائر بين صقلية والمدخل الغربي للبحر المتوسط جعلته مكان مراقبة الطرق المتجهة مباشرة الى جبل طارق تجاه غربي البحر المتوسط والى جنوب اسبانيا في اتجاه جنوب ايطاليا او صقلية وكذلك التصدي لمن تحدثه نفسه باستعمالها، مما جعل العثمانيون يتخذون من هذا الميناء الحربي الذي يمتاز بموقعه اكثر مما يمتاز بمرساه قاعدة محصنة وملجأ لأسطولهم[٤] وصار ميناء الجزائر منذ ٩٣٦ هـ/ ١٥٢٩ م عاصمة كبرى لمغرب الاوسط بل ولكل شمال افريقيا العثمانية[٥] وظلت الجزائر طيلة الحكم العثماني قوة بحرية يتركز نشاطها وموردها الرئيسيان على البحر، كما ادخل العثمانيون مفهوم الحدود السياسية في شمال افريقيا، ورسموا للجزائر حدودها الحالية التي لم

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين، ق ٣٨ أ، ٣٨ ب.
(٢) محمد أمين : فتوحات خير الدين، ق ٢٨ ب، ١٢٩ أ.
(٣) أرجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ص ٢٢.
(٤) شارل أندري جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية، جـ. ٢، ص ٣٣٠.
(٥) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ ٢، ص ٩١٣.

تتغير مذ ذلك الوقت[١].

نجح خير الدين بربروسا نجاحا كبيرا في انشاء هيكل بيلربكية قوية في الجزائر بفضل المساعدات العسكرية التي كان يتلقاها من السلطان سليمان القانوني والتي مكنته من توجيه ضربات قوية على السواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في انقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا، فقد قام ٩٣٦ هـ/١٥٢٩ م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات الى السواحل الاسبانية لنقل سبعين الف مسلم، وغدا خير الدين الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط[٢]، وبفضل مساعدات الدولة العسكرية، وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبي ومغانم والزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج وما يقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد والهدايا المتنوعة من الاموال والبضائع والخمس من المغانم البحرية المختلفة وغيرها، وكان مجموع ما يصل للخزينة العامة من ولايات الجزائر اربعمائة وثمان وستون الف دورو[٣]، ثم عكف خير الدين في تنظيم الجزائر اداريا، وذلك لتنظيم أمور الدولة العثمانية وتوطيد نفوذها، فجعل للجزائر مجلسين استشاريين الى جانب البيلربك وهما مجلس الشورى واليوان، وكان البيلربك يمارس نفوذه على باشوات تونس وطرابلس وظل على ولائه التام للباب العالي[٤]، كما كان البيلربك يسيطر على القوتين العسكريتين الانكشارية (القوات البرية) وطافة الرؤساء البحرية[٥].

(١) محمد خير الدين فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥٥.

(٢) John Lynch : Spain under the Habsburg Val 2 P 95

عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ ٢، ص ٩١٤.

(٣) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٢٠ ـ ٢٢. الدورو قطعة فضية وزنها ٢٠ غرام.

(٤) شارل أندروي جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية، جـ ٢، ص ٣٤٠.

(٥) محمد خير الدين فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥٧.

غادر خير الدين سنة ٩٣٨ هـ/ ١٥٣١ م الجزائر على رأس عدد من السفن ورسى بتطوان والعرائش، وتزودت ببعض المؤن والعتاد خاصة القمح، اذ كان قد عم الجزائر جفاف، فقدم أبناء المنطقة لأبناء ملتهم ذلك العون(١)، ثم بعث خير الدين في السنة التالية سفيرا الى ملك فاس احمد الوطاس، يبلغه بأنه على استعداد للقدوم بمراكبه الحربية، لمهاجمة اي موقع مسيحي يرغبه كما طلب خير الدين من الملك الوطاس بعض ملح البارود، وأمنت طلبات خير الدين بسرعة، وشاعت الأخبار بأن خير الدين وأحمد الوطاس سوف يهاجمون سبتة فأسرع الملك البرتغالي جان الثالث بارسال القوافل المحملة بالذخائر الى مضيق جبل طارق، وباشر استعداداته اللازمة هناك، كما اوفد في نفس الوقت القائد دون جورج ذي نورنها (Don Gorge De Nornha) الى ملقا (Maiaga) لتجميع الجيوش وتسليح السفن، وابلغ دون لوبي هورنادو (Don Lope Hurtodo) بأنه يتمنى طرد خير الدين بربروسا من الجزائر، وأنه اذا رغبت اسبانيا في ذلك فان البرتغال مستعدة للمشاركة(٢).

اخذت سياسة التعاون العثماني الوطاس تؤتى ثمارها، خاصة بعد ان نجح القائد العثماني العطار في تحرير غصاصة، وطرد الاسبان منها ثم عندما حاصر الوطاسيون مليلة، وصار موقف الاسبان حرجا للغاية اذ أن السفن الاسبانية المتجهة اليها كانت معرضة لخطر المسلمين في غصاصة كان ذلك الموقف في صالح الدولة العثمانية التي اخذت في التمركز في الساحل الشمالي الافريقي، واتخذت من تلك المراكز قواعد لمحاربة اعدائهم واذا استمر العثمانيون في سياستهم تلك، فانه لا محالة من ان يبسطوا نفوذهم على المغرب بأكمله، ولن يلبثوا ان يتعاونوا مع السعديين، لأن عملية الجهاد ومحاربة اعداء

(١) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٣٦.
(٢) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ٥٥.
(٣) Soucs Inediles de L Historire de Maroc' Espagne Tom 1 P 41

المسلمين تعد صفة مشتركة بين الطرفين[1] .

اقلق ذلك التعاون والاتصالات التي قامت بين خير الدين بربروسا، واحمد الوطاسي علاوة على النجاح الذي حققه خير الدين في الجزائر، وموارده المالية الثابتة، والدعم العثماني، وتخليصه لحصن الجزائر، اقلق ذلك كله الاسبان وانزعجوا لتلك الانجازات، فتآمروا يومئذ مع فرنسا وجنوده على مهاجمة خير الدين في الجزائر وانهاء الوجود العثماني، فوجهوا حملة بحرية بقيادة اندريا دوريا، التي تحاشى الاشتباك مع خير الدين بربروسا، وحاول الاستيلاء على شرشال، لكنه فشل في تحقيق ذلك[2] .

كتب اسقف طليطلة ـ صاحب النفوذ المطلق باسبانيا ـ للامبراطور شارل الخامس عن مرسي هنين بالجزائر:

« . . . لقد اكد لنا الذين يعرفون البلاد، ان لمدينة هنين ومرساها اهمية بالغة، فهنين بلدة محصنة ذات اسوار منيعة، ولها قلعة عظيمة، ولا تبعد عن تلمسان الا ١٢ مرحلة، وهذا امر له اهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية، التي يمكن ان نتداولها مع العرب، كما ان امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بالاخص، على ابقاء ملك تلمسان تحت قبضة ايدينا، فهو لن يفكر في مهاجمتها، عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة» .

أصدر شارل الخامس نتيجة لذلك أوامره للقائد الاسباني دون الفارو دربازان (Don Al Varo Bazan) بمهاجمة مرسى هنين واحتلالها، اذ كان الامبراطور شارل الخامس، يرغب في تطويق مملكة الجزائر الجديدة من شرقها وغربها، بسياج من الحصار، ويفرض سلطانه بقوة على بني حفص بتونس وعلى بني زيان بتلمسان، الذين كانوا آخذين في الانقراض والاضمحلال .

(١) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ٥٥ .
(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٢٨ .

وقف الاسطول الاسباني المؤلف من احد عشرة سفينة وناقلتين امام المرسى الذي لم تكن به قوة كافية للدفاع، فأنزل الجيش الذي به من اسبانيا، والفرقة التي اخذها من وهران واحتل القائد الاسباني المدينة وتحصن بها، بعد دفاع من قبل أبنائها[١].

مما لا شك فيه ان اسبانيا كانت اكثر الدول الاوروبية تضررا بما يحققه خير الدين من نجاح في الشمال الافريقي، وكانت اسبانيا كما هو معروف في ذلك الوقت ضمن الامبروطرية الرومانية المقدسة، والتي كان على رأسها شارل الخامس الذي تعهد على نفسه بالدفاع عن اوروبا المسيحية ضد التقدم العثماني نحو شرق ووسط اوروبا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين ببيلربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الافريقي، لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجىء على سواحل الجزائر، بل ارسل مبعوثا للتجسس في شمال افريقيا سنة ٩٤٠ هـ/١٥٣٣ م وهو الضابط (اوشوا دوسلا) الذي طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذر من امتداد النفوذ العثماني على تونس، وذكر ان هذا الاستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على افريقيا[٢]، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا ما يخشاه العالم المسيحي.

كانت سياسة المملكة الحفصية في تونس تسير نحو انحطاط مستمر، كان السلطان الحفصي الحسن بن محمد بن الحسن قد اساء السيرة في البلاد وقتل عددا من اخوته، فاضطربت الأحوال في تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصي، وكان اخو الحسن المسمى بالامير الرشيد قد هرب من اخيه خوفا من القتل ولجأ عند العرب في البادية، ثم ذهب الى خير الدين في الجزائر وطلب

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٢) صلاح العقاد : المغرب العربي، ص ٢٢.

منه الحماية والعون ضد اخيه[1] فمنحه ذلك خير الدين، الذي كان مركزا اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التي مزقت الاسرة الحفصية، كما كان لتونس في نظره اهمية استراتيجية كبيرة لاشرافها على المضيق الصقلي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تهديد وقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي[2] بالاضافة الى رغبة خير الدين في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الاندلس.

عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد، السفر بسائر جنوده الى اسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان، أنه لا بد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالما بأحوالها فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة واقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الافريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه اليه خطابا يطلبه فيه الى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه بالجزائر، وأن لم يجد من يصلح لذلك، يبعث اليه السلطان نائبا، وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشي، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان الى خير الدين فقبله ووضعه فوق رأسه ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديوانا عظيما، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان أهل البلد، وقرأ عليهم خطاب السلطان، الذي وجهه اليهم وأعلمهم انه لا يمكنه التخلف عن امره، وعندما سمع اندريا دوريا بما عزم السلطان عليه من فتح اسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك، أراد ان يشغل خير الدين من سفره الى حضرة السلطان[3]، واشاع بين الاسرى المسيحيين في الجزائر، عن عزم الحكومة الاسبانية في الهجوم على الجزائر، وتخليصهم من الاسر، ففرح الاسرى الاسبان لذلك الخبر وتمردوا

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، ج١، ص ٤١٩.
(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٣.
(٣) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا، ق ٤٨ أ ٤٨ ب.

على خير الدين، الذي رأى ان من المصلحة العامة اعدام اوئك الاسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهرا أتم الطاعة للسلطان(١).

عزم خير الدين على السفر الى استانبول ٩٤٠ هـ/١٥٣٣ م، وعين مكانه حسن آغا الطوشي، وكان رجلا عاقلا وصالحا، صاحب علم واسع(٢).

أبحر خير الدين شرقا في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعين سفينة وهزم في طريقه فرقة من اسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة(٣)، واستمر خير الدين في رحلته ووصل الى مدينة بيروازن، وفرح اهالي المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم اندريا دوريا، الذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين سفره، ورست مراكبه في قلعة اوارين «اناوارنيه»، فصادف هنالك اسطولا للسلطان سليمان القانوني وفرحوا لذلك، ثم خرجوا جميعا حتى وصلوا الى قرون، ثم كتب خير الدين الى السلطان يعلمه بوصوله ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه اليه السلطان خطابا يستحثه بالدوم عليه(٤)، اقلع خير الدين من قرون ولم يزل مسافرا حتى وصل الى استانبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص اصحابه الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصور الملك وفوض اليه النظر في دار الصناعة(٥)، ومنحه لقب قبودان باشا وزير بحرية ـ حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر لتحقيق هدف الدولة في استعادة الاندلس.

(١) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ ١، ص ٣٦١.
(٢) محمد أمين : فتوحات خير الدين ق ٢٧٠ أ، ٢٧٠ ب.
(٣) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 97
(٤) محمد أمين : فتوحات خير الدين، ق ١٨٩ أ، ١٩٠ أ.
(٥) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا، ق ٥١ أ، ٥١ ب.

كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين، فوجه خطاباً للسلطان يلتمس منه أن يوجه إليه خير الدين لمقابلته فأرسل السلطان إلى خير الدين مخبراً عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر خير الدين متوجهاً إلى حلب، واحتفل الصدر الأعظم بمقدم خير الدين في حلب وأنزله في بعض القصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وصول خير الدين، وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر مقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة وأركب على فرس مرصع بأنواع اليواقيت، وركاب من الذهب الخالص، ولجام مثله، وسار الديوان أمامه إلى القصر المعد لتوليه، وجلس بعد ذلك خير الدين بحذاء الصدر الأعظم وأقام عنده ثلاث ليال ثم أن خير الدين استأذن الصدر الأعظم في العودة إلى استانبول، فأذن له في ذلك، وجهز بجميع ما يحتاج إليه من آلات السفر وخرج من حلب خروج الملوك فدخل إلى مدنية قونيه وزارها، ثم سافر إلى بورصة ومنها توجه إلى ميدانية ومنها إلى استانبول ونزل بقصره المعروف باسمه، وعندما علم السلطان بقدومه أحضره بين يديه ثم أن السلطان أشار إليه وإلى نائب الصدر الأعظم أن يتقدما إليه، فقبل خير الدين يده، ومسح السلطان بيده على رأسه، وجعل في عمامته سرهوجاً من الذهب تكريماً لشأنه وخرج من عند السلطان إلى القصر الذي أعد له، واشتغل بالنظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان (١)، بمساعدة بحارته، وذلك ليجعل منهم نواة الأسطول العثماني الجديد، في نفس الوقت كان السلطان يقوم فيه بحملته في أذربيجان وفتح العراق (٢).

(١) عبد القادر بن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا، ق ٥٢ أ، ٥٢ ب.

(٢) أرجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ص ٢٢.

(٢) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 97

خرج خير الـدين بربـروسا بـأسطولـه الجديـد من الدردنيـل متجها نحـو سواحل ايطاليا الجنـوبية، فـاستطاع أن يـأسر الكثيـر منها، وأغـار على مدنهـا وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقليـة، فاستـرجع كـورون وليبانتـو [1]، كان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروسا بأهمية تونس وضرورة دخولها في إطار استراتيجية الدولة العثمانيـة، لتحقيق هدفهـا نحو استـرداد الأندلس، وتأتي أهمية تونس بالنسبة للدولة من حيث موقعها الجغرافي إذ تقع في منتصف الساحل الشمالي لأفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من ايطاليا التي تعتبر أحد جناحي الأمبراطـورية الـرومانيـة المقدسـة، بينما يمثـل الجناح الآخر اسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيـرة مالـطة مقر فـرسان القـديس يـوحنا حلفـاء الأمبراطـور شارل الخـامس، وأشد الـطوائف المسيحيـة عـداوة للمسلمين، ثم الامكـانيات الهـائلة التي تتيحها مـوانيء تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحـر المتوسط وهكـذا تضافـرت تلك العوامـل على اضفاء الأهمية العسكرية على تونس [2].

كانت المرحلة التـالية بـالنسبة لخيـر الدين بعـد هجومـه على السواحـل الجنوبية لايطاليا وجزيرة صقلية هي تونس، وذلك لتنفيذ خـطة الدولـة، والتي تقتضي تطهير شمال افريقيا من الاسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس، إذ سبق وأن أشار خير الدين بربروسا على السلطان سليمـان القانـوني في خطابـه للسلطان الـذي بعثه قبيـل استدعـاء السلطان له في ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م)، إذ قـال فيـه «... إن هدفي إذا قدر لي شرف الاشتراك هو طرد الاسبان في أقصر وقت من أفريقيا، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الاسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجة وأن تونس قـد اصبحت تحت سلطانك أنني لا أبغى من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كـلا ...

(١) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر، ص ١٦٦.
أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٣.
(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ ٢، ص ٩١٥ - ٩١٦.

لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولا سيما أن حروبك في آسيا أو أفريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فإن كل ما أطلبه هو جزء من أسطولك وسيكون ذلك كافياً، لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضاً. . . » (١)

وصل الأسطول العثماني تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية فعرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الامدادات، ثم تقدم نحو بنزرت ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منهما بدون صعوبة (٢)، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس في نفس الوقت هرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى اسبانيا (٣) ثم أقام خير الدين الرشيد أخو الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي (٤).

حاصر السلطان السعدي أحمد الأعرج في نفس الوقت مدينة آسفي بأزمور وذلك سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤ م)، وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجدات التي بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدا وكأن تعاوناً قد حصل بين العثمانيين والقوى الاسلامية في المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم في الشمال الأفريقي، وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث (Jean III) بوصول الأسطول العثماني في ٣ ربيع الأول ٩٤١ هـ (١٣ سبتمبر ذ؟دظ م) بقيادة خير الدين بربروسا إلى الشمال الأفريقي، فكر في الجلاء عن بعض المراكز مثل سبتة وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين في غرب البحر المتوسط، ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الايبيرية

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن، ص ١٢٧ .
(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٣٠ .
(٣) محمد أمين : فتوحات خير الدين ق ١٩٨ ب .
(٤) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٢٨ .

بعث الملك يوحنا الثالث استفتاء إلى جميع النبلاء والأساقفة يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب، وكان المطلوب الاجابة على الأسئلة الآتية : هل ينبغي ترك آسفي وأزمور للمغاربة؟ هل نيبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات؟ ثم ما هي الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفاداها؟ [١].

تلقى الملك البرتغالي أجوبة عديدة بين مؤيد في الابقاء على المناطق الجنوبية في حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت أجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريباً تضمنت النصح بالتخلي عن المراكز الجنوبية، يحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المراكز الشمالي لصد الخطر العثماني بقيادة خير الدين بربروسا فأسقف (Lemego) ينصح باخلاء سانتاكروز وأسفي وأزمور لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التي تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة خوفاً من هجوم خير الدين عليها، أما رئيس (Santiago) كان رأيه قريب من الأول، رأى التخلي عن المراكز السابقة، واختلف أسقف (Al Grave) نوعاً ما فذكر في جوابه « . . . إذا كان الملك يهمه بالدرجة الأولى القضاء على الشريف فعليه أن يسيطر على سلا، ويجعلها قاعدة للهجوم على فاس ومكناس. . . ونصح الملك إلى ضرورة الاستعانة بأموال الأكليروس للقيام بمشروعه وعليه أيضاً كسب جانب القبائل المغربية القريبة من المراكز البرتغالية وذلك بجعلها تستقر حول هذه المراكز وتقوم بالزراعة ثم طلب غزو المغرب واعلاء الصليب » [٢]

(١) Sources Inedites de L Histoire Du Maroc Portugal Tom MMM Seconde parte P 640

(٢) Saurces Inedites de L Histoire du Maroc' Portugai Tom MM Seconde parte P 656 — 662

إن الوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا، والأمبراطور شارل الخامس الذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع اطراف مملكته [١]، فوصل التهديد، العثماني أقصاه فضلاً عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وأفريقيا [٢].

كان الموقف ملائماً بالنسبة لاسبانيا وذلك للقيام برد عنيف فقد انشغلت الدولة العثمانية في النزاع مع الفرس، وطغى على الصراع في أوروبا ووعد فرنسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد ـ تردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه إليه ضربته في شمال أفريقيا الجزائر أو تونس ولكن استنجاد السلطان الحفصي الحسن بن محمد والرغبة في عزل استانبول دفع شارل الخامس إلى اختيار تونس للهجوم [٣].

قاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل اسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الأمبراطور البحر من ميناء برشلونة، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت الحروب الشديدة بين الطرفين [٤]، الأمر الذي أعاد السيطرة الاسبانية على تونس في ٩٤٢ هـ (١٥٣٥ م) [٥] إذ لم تكن قوة خير الدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الاسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد،

(١) عبد الجليل التميمي : رسالة غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني، المجلة التاريخية المغربية عدد (٣)، تونس.
(٢) J H Elliott : Imperial Spain P 43
(٣) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٤.
(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ ١، ص ٤٢٠.
(٥) Paul Coles : The Ottoman Imact on Europe P 93

فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس، ثم تونس[1]. ونصب الاسبان الحسن بن محمد حاكماً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان مولاي الحسن بن محمد سيسلم بونة والمهدية إلى شارل الخامس، فاستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين، فإن مولاي الحسن لم يستطع الوفاء بعهده فاشترط الاسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا في طرابلس[2]، وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي اسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الواد (Guletta) وعاد شارل الخامس إلى اسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الذي كان فيه السلطان يحارب الفرس[3]

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس، واستقر أول الأمر بمدينة قسنطنية، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الاسبان في الجبهات التي يحددها، وكان لزاماً على خير الدين وقد استقر مؤقتاً بمدينة الجزائر نظراً لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الاسلامي العثماني أن يشعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها فقام بالهجوم على جزر البليار الاسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، فاهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد خطأ أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في ٩٤٢ هـ (١٥٣٥ م)[4]، من ناحية أخرى دخلت الدولة العثمانية في تحالف رسمي مع

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة عام ص ٢٣١ .

(٢) عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٣٨ . حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر، ص ١٦٧ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ص ١٣٠ .

(٤) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٢٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .

فرنسا في ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م)، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الاسبان على تونس [١].

وبدا وكأن الأمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينها من جديد كما صارت أهداف اسبانيا والبرتغال واحدة وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالاضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الايبيرية

تلقى الملك أحمد الوطاس هزيمة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) من السعديين في موقعة بير عقبة قرب وادي العبيد، بسبب تخلي قبائل الخلوط التي كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسي، ونشرت الفوضى في سائر الجيش وأثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسي من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين في حروبهم ضد الاسبان ووقع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عاماً [٢] تقضي بوضع المغاربة المقيمين في ضواحي أصيلا وطنجة والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسي المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة وإذا وصلت مراكب عثمانية أو فرنسية أو تابعة لمسيحيين من غير الاسبان ولا البرتغاليين إلى أراضي برتغالية، محملة بغنائم أخذت من المغاربة فلن يشتري منها شيء، وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيين ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف لآخر ما لم يسمح قوات العدو في مهاجمتها [٣].

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذي استجاب لذلك، لأنه كان في حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة سيما بعد الانتصارات التي حققها ضد خصومه

(١) Stanford Show : History of tne Ottoman Empire P 79

(٢) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦٠.

(٣) Sources Indites de L Histoire du Moroc Espagne Tom M P 83

الـوطاسيين في مـوقعة بيـر عقبة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٦ م، واتفق البـرتغاليـون مـع السعديين لعقد هدنة بينهما في ٢٥ ذي القعدة ٩٤٤ هـ / ٢٥ ابـريل ١٥٣٧ م لمدة ثلاث سنوات، مع اقامة تبادل تجاري بين رعايا الطرفين [١].

كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولـة دون قيام تعاون حقيقي بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أي تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الايبرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف اسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الايبيرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس.

اشتغل خير الدين بربروسا بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل في لأسطول العثماني وبدا نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بينمـا استمر حسن اغا الطوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلربك يعمل على قهر القرصنة الأوروبية فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه في الجزائـر مثالاً بارزاً في البطولة والتضحية الاسـلامية في سبيـل الدفـاع عن بلاد الاسـلام في الشمال الأفريقي فاكتسبت الجزائر بموقفه مهابة وجلالاً وجعلت الأمم المسيحية تهرع على عاهلها الأكبر الأمبراطور شارل الخامس مستنجدة بسلطانه منضـوية تحت لوائه، ومن بينها البابا بول الثالث، وقد حاول شارل الخامس ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩ م عقد هدنـة مع خيـر الدين إلا أنـه خاب أمله [٢]، مثـل ما خـاب في محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سراً الاعتراف به حـاكماً لشمـال افريقيا مقابل جزية بسيطة، إذ كان شارل الخامس يأمل في قيام تحالف اسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ويعمل على فصل شمـال أفريقيـا عن لباب العالي على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال افـريقيا إبـداء

(١) Sources Indites de L Histoire du Moroc Espagne Tom P 44

(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ٣، ص ٦٢ ـ ٦٣.

مقاومة قوية ويكون من السهل سقوطها [١].

انهمك حسن أغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للادارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية [٢]، فأخضع مدينة مستغانم لدولته ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصناً وأقام به حامية [٣].

ركب الجيش العثماني في شهر جمادي الأول ٩٤٩ هـ / سبتمبر ١٥٣٩ م البحر، وكان قوامه ١٣٠٠ رجل، على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا في حركة سريعة نحو بلدة جبل طارق وعلى حين غفلة من أهلها والمدافعين عنها من الاسبان نزل حسن أغا وجيشه إلى البر فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين وتوغل في جهات الساحل الاسباني الجنوبي، وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الاسبان ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان وعندما أراد الرجوع للجزائر اعترضت طريقه عمارة اسبانية كبيرة العدد، وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ومع ذلك كانت خسائر الاسبان في هذه المعركة عظيمة [٤].

عزم شارل الخامس على تجريد حملة للقضاء على حركة الجهاد الاسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط مستغلاً فرصة الهدوء النسبي في القارة الأوروبية إثر عقد هدنة نيس في محرم ٩٤٥ هـ /يونيو ١٥٣٨ م مع فرنسا

(١) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٥.
(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٧٩.
(٣) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ؟، ص ٦٢.
(٤) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٢٨٠.

والتي كانت مدتها عشر سنوات [١]، فتولى شارل الخامس بنفسه الاشراف على إعداد حملة شارك فيها هرنان كورتيس (Hernan Clrtes) قاهر المكسيك [٢]، كما شارك في هذه الحملة نبلاء اسبانيا وألمانيا وايطاليا كما اشترك أخو البابا وفرسان القديس يوحنا، وكانت هذه الحملة من الحملات الكبرى في القرن السادس عشر [٣].

رسا شارل الخامس أمام مدينة الجزائر في يوم الثامن والعشرون من شهر جمادي الأخيرة سنة ٩٤٨ هـ الموافق الخامس عشر من شهر اكتوبر ١٥٤١ م وعندما شاهده حسن أغا الطوشي، اجتمع في ديوانه مع أعيان الجزائر وكبار رجال الدولة، وحثهم على الجهاد والدفاع عن الاسلام والوطن قائلاً لهم « . . . لقد وصل العدو عليكم ليسبي أبناءكم وبناتكم، فاستشهدوا في سبيل الدين الحنيف . . . هذه الأراضي فتحت بقوة السيف ويجب الحفاظ عليها، وبعون الله النصر حليفنا، نحن أهل حق . . »، فدعا له المسلمون وأيدوه في جهاد العدو، ثم بدأ حسن أغا الطوشي في إعداد جيوشه والاستعداد للمعركة [٤]، من ناحية أخرى بدأ الاسبان في تحضير متاريسهم وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن أغا وأراد أن يستهزىء به، فأمر كاتبه بإعداد خطاب لحسن أغا جاء فيه « . . . أنت تعرفني أنا سلطان . . كل ملة المسيحيين تحت يدي إذا رغبت في مقابلتي سلمني القلعة مباشرة . . أنقذ نفسك من يدي وإلا أمرت بإنزال أحجار القلعة في البحار، ثم لا أبقي عليك ولا سيدك ولا الأتراك، وأخرب كل البلاد . . . » وصل ذلك الخطاب إلى حسن أغا وأجاب عليه « . . أنا خادم السلطان سليمان . . . تعال واستلم القلعة، ولكن لهذه البلاد عادة، أنه إذا جاءها العدو، لا يعطى إلا الموت »، فغضب شارل من جواب حسن أغا

(١) عبد الحميد البطريق : تاريخ أوروبا الحيث، ص ٥٨.
(٢) John Lynch : Spain under the Habsburg Vol 1 P 96
(٣) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٦.
(٤) أحمد جواد موللي : الزهرة النيرة ق ١٤ أ ـ ١٥ ب.

وتشاور مع مستشاريه مع الاستمرار في التجهيزات [١] وما كاد الأمبراطور بنزل أرض الجزائر حتى هبت عاصفة قوية مزقت اسطول الأمبراطور كما نفذت مؤنه، وصار بارود مدفعيتهم غير صالح لتعرضه للمطر وأمام تلك الصعوبات أضطر شارل للانسحاب من أرض الجزائر وتتبعهم المسلمين فقتلت أعداداً كبيرة من المسيحيين، وتلقى شارل هزيمة قاسية لم يتلق مثلها من قبل [٢].

وصل خير الدين بربروسا إلى مدينة الجزائر للاسهام في الدفاع عنها إلا أنه وجد قوة الله القاهرة وسواعد المسلمين قد قضت على اسطول الاسبان فاكتفى بتفقد أمور البيلربكية والاطلاع على سير الأمور فيها، ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الاسبانية يذيقها العذاب الأليم، وانعم السلطان سليمان على حسن أغا الطوشي برتبة الباشوية، لدوره الفعال في النصر سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م وخلى البحر المتوسط تقريباً من الأساطيل الاسبانية الذي كان يضمد جراحه ويحاول استرجاع قوته، فانطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الاسبانية والايطالية وتوالت هنالك الغزوات وساد الرعب والفزع تلك النواحي التي بقيت مفتوحة في وجه العثمانيين يتوغلون داخلها ويغنمون ما فيها [٣]، كما صارت الدول الأوروبية تعمل للعثمانيين حساباً، فاهتز بذلك مركز الاسبان في وهران وغيرها من مناطق نفوذهم في الشمال الأفريقي [٤].

حقق السعديون على صعيد آخر نصرا كبيرا على البرتغاليين وفتحوا حصن سانتا كروز ، وما ان علم الملك البرتغالي جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفى وأزمور بالجلاء فورا عنها ، وقد وجه الملك جان الثالث في هذا الشأن الى سفيره بمدريد (Francisco Lobo) رسالة مؤرخة في الثاني

(١) محمد أمين : فتوحات خير الدين ق ٢٧٢ أ، ٢٧٥ أ.
(٢) أحمد جواد : الزهرة النيرة، ق ١٨ أ، ١٨ ب.
محمد أمين : فتوحات خير الدين، ق ٢٧٦ أ، ٢٧٧ أ.
(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣١٣.
(٤) شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير، ص ٩.

والعشـرين رمضان ٩٤٨ هـ / ديسمبـر سنة ١٥٤١ م ، يـطلع فيها الامبـراطور الاسباني شارل الخامس ، حيث جاء فيها ذكر للاسباب التي اجبـرت البرتغـال على اتخاذ قرار الجـلاء عن قاعـدتي لأسفى وأزمور فبـالاضافـة الى موقعهمـا الحرج هناك تزايد قوات السعديين بفضل المساعـدات العثمانيـة ، حيث صار الحاكم السعدي يملك المدفعية العثمانية ، حيث صار الحاكم السعدي يملك المدفعية العثمانية ، والآلات الحربية ، وعلى جنود مدربين وقد رأينا كل ذلك عند حصار سانتا كروز ، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين امرا شاقا وصعبا ، ثم ان الجلاء عن أسفى وأزمور ليس معناه التخلي عن المغرب ، فقـد اعطيت الاوامر لتحصين مازكان لسهولة استغلال مينائها طوال ايام السنة [١] ، يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانيـة في تقديم المسـاعدة للقـوى الاسلاميـة في المغرب ضد المسيحيين المتـواجدين فيهـا وذلك لان الـدولة تـرغب في تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم ، فرغبت الدولة هنا في مساعدة السعديين لينهوا التواجد البرتغالي في المراكز الجنوبية من المغرب ، ثم يعبروا للاندلس ، لأن المغرب يمثل اقرب نقطة للعبور .

استمر حسن أغا في القيام بواجبه الديني حتى وفـاته ٩٥١ هـ (١٥٤٤ م) فأجمع اهل الديوان بالجزائر على تولية الحـاج بكير مكـانه ، وريثمـا يعين الباب العالي باستانبول الحاكم الجديد ، الذي عين حسن ابن خير الدين وقدم في نفس السنة . [٢]

شـرع حسن بن خير الـدين حال وصـولـه ، ليستعـد للجهـاد ومـواجهـة المسيحيين ، فعمل على تحصين مدينة الجزائر ، وذلك في المناطق التي اظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفها ، كما اخذ يعمل في توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش ، ثم انصرف الى معالجة مشكلة تلمسان ، اذ تبين له ان

(١) Sources Indeites L'Histoire du Noroc Portugal Tom P 560

(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ٣، ص ٨٤.

بقاء الاسرة الزيانية ووجود الاسبان في وهران يعيقان حل المشكلة .[1]

كان حاكم تلسمان (ابو زيان) احمد الثاني قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين ، غير انه ما لبث ان خضع لمؤمرات خارجية وانساق في تيارها واخذ يتقرب من الاسبان ، مما أدى الى كره الأهالي له وقرروا خلعه عن العرش ومبايعة احد اخوته (الحسن) فتوجه ابو زيان الى وهران طالبا الدعم من الاسبان ، مقدما لهم التعهدات بأن يحافظ على ولائه لهم ، فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة ، فجهز جيشا ، وانضم اليه جموع الخاضعين للاسبان من بني عامر وفليتة وبني راشد وعلى رأسهم القائد المنصور بن بو غنام ، وتقدموا الى تلمسان لابعاد الحسن ، واعادة تنصيب ابو زيان على عرش المدينة ، وما ان علم حسن بن خير الدين بتحرك القوة الاسبانية ، حتى قاد الجيش الاسلامي في تلمسان ليمنع الاسبان من الوصول الى هدفهم ، وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك ، ودعم حليفه الملك حسن في تلمسان [2] ، الذي اعترف بسلطة الدولة العثمانية كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية وتعدادها مائتي جندي بقيادة القائد محمود في قلعة المشوار في تلمسان ، إلا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهتزاً خارج تلمسان ، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بوغنام ، الذي يرغب في مساندة زوج ابنته الأمير مولاي أحمد ، حليف الأسبان[3] .

عقدت الدولة العثمانية هدنة مع ملك النمسا سنة ٩٥٤ هـ (١٥٤٧ م) ، لمدة خمس سنوات تعهد فيها الملك النمساوي بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون الف دوكة مقابل ان يبقى ما تحت يده من بلاد المجر[4] ، وعلى اثر

(١) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٢) بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية، ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) Les Sources Inedites De L'Histoire Du Moroc Espagne Tom M P 202 — 203.

(٤) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٣٨ .

ذلك تمكنت الدولة من ارسال جنود عثمانيين وعدد من المورسكيين يقدر عددهم بنحو عشرين الف رجل الى الشريف السعدي ، فألتفوا حوله ، ودفعوه الى بناء مراكب حربية للاستيلاء على اسبانيا ، فوافق الشريف السعدي على ذلك وصرف لهم اجورهم ومكافأت لهم[١]

أنصرف الشريف السعدي محمد الشيخ في منازلة خصومه الوطاسيين ومحاولة القضاء عليهم ، فتقدم نحو سبتة والقصر الصغير ، ورفض فاس وأقسم بالاستيلاء أولا على (Fronteras)ثم دخل فاس وانهى الحكم الوطاسي وخصص محمد الشيخ للملك الوطاسي مقرا يستطيع الاقامة فيه ، ثم اقامت مدينة فاس الاحتفالات بمناسبة الحكم الجديد [٢]

أستقر البلاط الاسباني بعد استيلاء الشريف السعدي على فاس ، فصدرت التعليمات بانهاء استحكامات مليلة ، وفرضت عدة اجراءات امنية على جبل طارق وقادش (Cadix)واضطر كونت تنديلا (Tendilla)الى تحصين وتموين مدن الشاطىء الاندلسي ، وصدرت الأوامر ايضا لدون دي ميندوزا (Don Juan DDE Medoza)بزيارة (Fronteras)البرتغالية على المضيق وتفقد احوالها [٣] ، وذلك تحسبا من أي هجوم عثماني سعدي مشترك ، الغرض منه استرداد الاندلس .

ان طمع الشريف السعدي محمد الشيخ في تلمسان جعله يتابع الاحداث القائمة فيها باهتمام ، وفي ٩٥٦ هـ (١٥٤٩ م) اوفد الى الشرق فيلق مكون من ٦٠٠٠ خيال احتل جيرسيف (Furecif)في صفر ٩٥٦ هـ (مارس ١٥٤٩ م) ، وكان اظهار قوة السعديين قد أدى الى انضمام المديونة وبني سناسن (Be- ni Snassen) كما فتحت وجده (Oudjda)في نيدروما (Nedroma)وقدم

(١) Les Sources Indites de L'Hstoire du Moroc Espagne Tom M P 151

(٢) Les Sources Indites de L'Histoire du Moroc Espagne Tom M P 151

(٣) Les Sources Indites de L'Histoire du Moroc Espagne Tom M P 164

اهـالي الترارا (Terara)خضـوعهم ، وفي كـل مكـان كـان رجـال الشـريف يستقبلون كمحررين ، وكما هو الشأن دائما في الازمنة المضطربة كانت أغرب الاخبار المغالي فيها تدور بين الأهالي ، فقيل ان الشريف السعدي سوف يدخل تلمسان ومنها يتجه الى وهران ليطرد المسيحيين منها ، فقدمت قبيلة المديـونة نفسها لحصار المدينة ريثما يصل جيش الشريف ، ومن الاخبار المؤكدة اكثر من غيرها ان الشريف قدم عروضا لباشا الجزائر حسن بن خير الدين للعمل سويـا ضـد الاسبان ، غيـر أن حاكم وهـران الذي كـان يملك جهاز مخـابرات على مستوى عال ، لم يكن ليتأثر بتلك المعلومـات ، ومع ذلـك امر بسـرعة تـرميم اسوار مدينة وهران وطالب بلاط اسبانيا بتعزيزات ومساعدات نـظرا للتجمعات الكبيرة للجيش السعدي في فاس .

عين محمد الشيخ ابنه الاكبر محمد الحرار قـائدا للحملة المـوجهة الى تلمســان ، واصطحب معـه شقيقه مـولاى عبد القـادر ، ومولاى عبـد الرحمن وتحركت الحملة في جمادي الاول ٩٥٧ هـ / أواخر مايو سنة ١٥٥٠ م ، ولم يواجه اي مقاومة اثناء تقدمـه ، بل على العكس انضمت اليـه فصائـل من بني راشد بقيادة المزوار المنصور ، الـذي بعد وفـاة ابو زيـان أحمد طـالب بعرش مولاي عمار على اذن بـالانسحاب مـع رجالـه وتوجهـوا الى مليلة فوصلهـا مع حاشيته المكونة من ٣٠٠ شخص في ٢٦ جمـادي الاول ٩٥٧ هـ (١٢ يوليـو ١٥٥٠ م) ، بعد ان خضعت تلمسان ودبدو ، كان من المنتظر ان يتجه رجال الشريف نحو الشرق الا ان قائـد الحملة مرض وعـاد الى فاس ، ومعـه الجزء الاكبر من الجيش ، الذي انتقل قيادته الى مولاى عبد الرحمن ، فـأمر الجنـود بالتوجه الى تافيليت ليعمل ضد مولاى احمد الاعرج ، بينما بقي اخيـه مولاى عبد الرحمن في تلمسان مع حامية صغيرة .

اغتـاظ باشـا الجزائـر حسن بن خير الـدين لسقوط تلمســان ، التي كان الشريف يرغب في احتلالها نهائيا ، فجمـع جيشا ، بلغ تعـداده خمسة لألاف

رجـل انضم اليهم فيما بعـد خيالـة القبائـل التي خضعت لحكم العثمـانيين ، بالاضافة الى ثلاثين مدفعية خاصة بالحصار والميدان ، وعقد قيادة ذلك الجيش لحسن كورسو ، فتقدم نحو ودتيلات طاردا امامه المـزوار المنصور ، وجمـاعة بني راشد الذين تقهقروا نحو تلمسان .

شعر الامير السعدي محمد الشيخ بالخطر الذي يتعرض له ابنه مولاى عبد القادر والذي لا يستطيع مقاومة العثمانيين ، فأمـر في أواخر أغسـطس بتجميع القوات ووجه قيادته لآخر ابنائه مولاى عبد الله ، تقدم حسن كـورسو لمـا بعد القليـلات ، ووصل امـام تلمسان واحتـدمت المعركـة بالقـرب من ودزاد جيدة (Zadidja)وسـاء وضع مـولاى عبد القـادر ، ورد جيشه على اعقـابـه داخـل المدينة .

علم حسن كورسو بوصول مولاى عبد الله وجيشه لتدعيم أخيه مولاى عبد الله ، فبادر برفع حصاره فأندفع رجال الشريف وراء العثمانيين ، فأضطر حسن كورسو الى التحصن بأحد المرتفعات ، فخفت حد العمليات الحربية نوعا ما ، وانسحب العثمانيون نحو الجزائر عن طريق مستغانم ، وعاد ابناء الشريف الى تلمسان .

اعد حسن بن خير الدين جيشا قوامه ثلاثة آلاف وأربعمائة رجل حاملي البنادق ، وأربعة آلاف فارس ، وعهد بقيادته الى القائد صفا ، الذي تحرك في ذو الحجة ٩٥٧ هـ (ديسمبر ١٥٥٠ م) وضم في طريقه عددا كبيرا من القبائل من جهة اخرى أمر محمد الشيخ ابنه مولاى عبد الرحمن بالتحـرك من تلمسان نحـو تازة (Taza)حتى يكـون بالقـرب من أخوانـه عند اللزوم ، وانتـظر ابناء الشريف بكامل قواتهم وصـول العثمانيين ، ووقـع الاصطدام في محـرم ٩٥٨ هـ / أوائل فبراير سنة ١٥٥١ م ، بالقرب من ترعة ابو عزون على بعد ميل من تلمسـان واصيب رجال الشـريف بهزيمـة ساحقـة ، واستولى العثمـانيون على مخيمهم ، وسقـط مولاى عبـد القادر في المعـركة ، بينمـا استطاع مـولاى عبد

الرحمن الهرب مع فرسانه ، وكانت الخسائر السعدية كبيرة للغاية ، وسارع العثمانيون وراء بقايا الجيش السعدي ، اما عن مولاى عبد الله والمزوار المنصور فقد اضطروا إلى اللجوء لانصارهم حيث وصلوا الى فاس سائرين على اقدامهم .

ودخل العثمانيون تلمسان منتصرين ، وعين مولاى عمار احد امراء بني زيان ملكا عليها ، ومن خلفه القائد صفا ، وكانت نكبة ود بو عزون (Bou Azzon)معناه سقوط اهداف الشريف نحو تلمسان ، وكان من اثرها المباشر التخلي عن كل البلاد الواقعة بين الووجده (Oudjda)وتازه (Taza) .[1]

يتبين من خلال ذلك مدى الاهمية التي نشأت من اجله بيلربكية الجزائر من اجل تحقيق هدف الدولة العثمانية في استرداد الاندلس التي واجهتها عدة عوائق ، ومن تلك العوائق الوجود الحفصي في تونس وقد رأينا كيف سعى الحفصيون في إيقاد نار الفتنة والثورة ضدالدولة العثمانية في الناحية الشرقية في جبال الكركر وتلمسان ، كما ان بعض هؤلاء السلاطين لم يكتفوا بذلك ، وانما ذهبوا الى الاسبان يستنجدون بهم لنصرتهم على العثمانيين فكان يهم هؤلاء السلاطين ضمان البقاء في الحكم والسيادة ،حتى لو كان ذلك على حساب دينهم ورغبة شعبهم في الجهاد ، فلو استمر الوجود العثماني في تونس دون مضايقات ، لكان من الممكن ان تتحكم الدولة في غرب البحر المتوسط وطرق المواصلات فيه ، فيسهل بذلك التقدم نحو الغرب .

يأتي العائق الثاني في تلمسان والاسرة الزيانية ، التي لم تتردد في الاستنجاد بالاسبان في سبيل الوصول للملك ، وضمان البقاء فيه ، فنجد الدولة تمد نفوذها في تلمسان ، لكن بمجرد رجوعها للجزائر ينقلب الوضع فيتعاون الملك الزياني مع الاسبان ، ويذهب مجهود الدولة سدى ، وبذلك لم تستطع

(١) Les Sources Inedites de L'Historie du Moroc S pagne Tom M P 202 — 207

الدولة ان تجعل من تلمسان نقطة ارتكاز للتقدم نحو المغرب او نحو الانـدلس مباشرة ، وكان تخوف الحفصيين وبنو زيان من الدولة العثمـانية لشعـورهم بأن الدولة فاتحة بالجهاد ، فخافوا على مراكزهم ، وانصراف المسلمين عنهم .

توالت العوائق على بعضها فظهر الوطاسيون الذين قبلوا التعاون مع الدولة العثمانية في تحرير الشمال الافريقي من الوجود المسيحي في الشمال الافريقي بعد ان عرضت الدولة خدماتها ، ونظرا لانشغال الدولة العثمانية في حروبها مع الاسبان في جبهات عديدة ، وتزايد نفوذ السعديين المنافسين للوطاسيين ، رأى الملك الوطاسي ان يوقع معـاهدة صـداقة مـع البرتغـال من ناحيـة اخرى بـدا السعديون اول الامر كمحررين للمغـرب من الوجـود المسيحي فأكسبهم ذلـك تـأييد الملسمين ، اذ اعتبـروا ذلك نـوعا من الجهـاد فقدمت الـدولة العثمـانية مسـاعدات كبيـرة لتحقيق ذلك ، ثم عـرضت على السعديين مشـروع استرداد الاندلس ، الا انه بعد ان دانت بلاد المغرب للشريف السعدي وانتهاء الحكم الوطاسي ، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسـان ، فأرسـل جيوشـا كبيرة لانهـاء الحكم العثماني فيها ، وعندما شعر العثمانيون بتلك المطامع وانحراف الشريف السعدي عن الهدف الاسلامي ارسلت له حملات ليعود الى بلاده .

كان كل ذلك عوائق ، اثرت وبشكل واضح على المشروع الاكبر للدولة في استرداد الاندلس ، لكن مع ذلك تواصل الـدولة جهـودها لتحقيق ذلـك ، طالما ان لديها القدرة ، والقوة اللازمة ، هذا سوف نلمسه فيما هو آتٍ .

الفصل الخامس

الفصل الخامس

«تكثيف الجهود لاستعادة الاندلس»

أ- دور البحرية العثمانية في عصر سليمان الكبير

ب - خطة استعادة الاندلس في عهد صالح ريس بيلربك افريقية ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٢ م

جـ - أدوار حسن بن خير الدين

د - جهود بيلربك قلج علي ٩٧٨ هـ/ ١٥٦٨ م

كان فتح القسطنطينية، والوصول الى مصادر الخشب اليوناني، والمصادر في البحر الأسود، قد نشط فكرة بناء السفن العثمانية وتكوين قوةبحرية[1] ففي عهد السلطان بايزيد الثاني كان للدولة العثمانية اسطول بحري كبير به، بالاضافة الى ترسانات كبيرة في استانبول وغاليبولي وموانيء اخرى في انحاء بحر ايجة وشرق البحر المتوسط، كما زادت كميات الخشب الصالح لبناء الاسطول، كما ضمت الدولة بين سكانها اعداد من الرجال لهم خبرتهم في بناء وتشغيل السفن[2] وكانت مهام الاسطول في هذا الوقت لا تتعدى الدفاع عن البسفور والدردنيل ونقل الجنود.

بعد ان حقق السلطان سليم انتصاره على الصفويين، أمر قائد اسطوله بيري باشا بالبدء في بناء اسطول جديد وقوي، مكون من مائة وخمسين قطعة بحرية مختلفة، بجانب مائة مركب صغير، وكان واضحا تصميم السلطان سليم على السيطرة على البحر المتوسط بأكمله، وتحويله الى بحيرة اسلامية وابعاد النفوذ المسيحي، خاصة البنادقة والجنويز وقراصنة البحر الاسبان حتى يضمن تأمين مواصلات الدولة وتجارتها ،ويتضح احساس السلطان سليم بأهمية البحرية

(١) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 88

(٢) Stnford Show : History of the Ottoman Emire P 97

العثمانية من قوله لبيري باشا قائد الاسطول «طالما بقيت اساطيل جنوه والبندقية ورودس ونابولي وصقلية تتحكم في مياه البحر المتوسط بدون رادع، فاني لن استطيع ان احكم في اوروبا وآسيا، لأن البحر حزام يربط كل قارة منها بالاخرى،كما سأظل سجينا في دولة تقتصر مهمتها على حراسة ما فيها من طرق وبوابات عالمية، وبذلك فاني في حاجة الى قوة بحرية تناسب مع عظمة املاكي . . »[1]. .

ازدادت مهام الاسطول بعد فتح الشام ومصر سنة ٩٢٢ ـ ٩٣٢ هـ/١٥١٦ ـ ١٥١٧ م، فانضم للدولة العثمانية القاهرة والاسكندرية وبيروت وهي موانىء إبحار البحار الرئيسية الواقعة في شرق البحر المتوسط[2] كما ورثت الدولة العثمانية تركة المماليك المثقلة بالاعباء والمسؤوليات، وفي مقدمتها انقاذ البحر الاحمر منالبرتغاليين، الذين كانوا يرابطون على منافذ البحر، ويحاولون اجتياحه، الى جانب الدخول في علاقات وارتباطات مع الحبشة المسيحية بهدف خوض غمار حرب عامة ضد المسلمين[3].

بذلت جهود كبيرة في عهد السلطان سليم لبناء اسطول عثماني جديد اكثر قوة يمكنه استغلال انتصار بايزيد على البندقية للتوسع في غرب البحر المتوسط ضد اسرة آل هابسبرج في اسبانيا وضد فرنسا، وكذلك للتحرك نحو انهاء الحصار البرتغالي في البحار الشرقية، ذلك الحصار الذي أحدث دمارا خطيرا في العالم العربي، قبل الفتح العثماني، فشيدت الدولة العثمانية ترسانة كبرى في القرن الذهبي باستانبول في مكان يسمى قاسم باشا، بينما اعيد بناء وتوسيع الترسانات القديمة في غاليبولي (gallipoli) وكادريجا (kadriga)[4].

(٣) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(١) Paul Coles : The Ottoman Imact on Europe P 108

(٢) السيد رجب حراز : أرتيريا الحديثة، ١٥٥٧ ـ ١٩٤١، ص ٢٧ .

(٣) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 86

مضى وقت طويل قبل أن يتطور بنيان الاسطول وتنظيمه الى درجة يمكن مقارنته ببنيان القوات البرية وتنظيمها، ولما كانت الحرب البرية هي اساس استراتيجيات الفتوج العثمانية، فان ضباط القوات البرية كانوا يشغلون معظم وظائف الاسطول ورتبها، على أن نظم الاسطول وقيادته قد تطورت بالتدريج وفقا للنمط الجنوي والبندقي واحيانا تستعمل المصطلحات البحرية الايطالية، وبعد أن تم انشاء الاسطول العثماني، صار كأنه طبق الأصل من الأساطيل الايطالية، ومرجع هذا في اساسه هو تفوق الايطاليين في المشرق قبل ذلك بوقت طويل، لهذا فعلى الرغم من انه القراصنة الذين دخلوا في خدمة السلطان العثماني من المسلمين او اليونانيين، فانهم كانوا قد تتلمذوا على ايدي البنادقة والجنويين، وأدخل البحارة العثمانيين تطورات كبيرة على الأسطول، فبنيت السفن ذات المحاديف المزودة بأشرعة قليلة لا تستعمل الا في أوقات الالتحام بسفن العدو ومهاجمتها، بينما كانت في السابق لا تتم الا باستعمال المجاديف[1].

شعر العالم المسيحي بعد وفاة السلطان سليم ان ظلاما حالكا قد أبعد وكابوسا مخيفا قد تبدد وأن الخطر الذي كان سيقع على أوروبا قد زال فجأة وكان يقال عن سليمان الابن الوحيد لسليم والذي سيرث السلطنة، بأنه غير خبير في الشؤون الحربية، وله طبيعة هادئة، وبناء على ذلك فانه لا يميل الى الحرب واذا حصل فهو نادرا[2].

ان فتوحات بايزيد الثاني وسليم الأول جعلت سليمان في موقف استراتيجي، لا يستطيع احد أن ينافسه سواء في الشرق او في الغرب، فالمماليك انتهوا، والصفويين والبنادقة خضعوا، وعندما رغبت امبراطورية آل هايسبرج القيام بدور فعال في هنغاريا، كمنافس رئيسي للدولة العثمانية في

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ١٢٩.
(٢) M A Cook : A History of the Ottoman Empire P 79

منطقة شمال الدانوب فان الدولة لم تكن قد اكتملت قوتها بعد، كما ان السلاح البحري القوي، الذي أمر ببنائه السلطان سليم كان سلاحا جديدا، يستطيع استخدامه في محاربة اعدائه برا وبحرا، وكذلك وفرت فتوحات سليم في اراضي الخلافة الاسلامية مصادر هائلة للدخل للسلطان سليمان، بالاضافة الى المنزلة الرفيعة في العالم الاسلامي، لدرجة استطاع ان يصل بدولته الى قمة الرخاء والعظمة، والتي كانت تبرر منحه لقب العظيم، وأيضا التركي العظيم الذي كان يعرف به في اوروبا[١]، ومع ذلك ما ان وصل السلطان سليمان الى العرش ٩٢٠ هـ/ ١٥٢٠ م، حتى خف لاستكمال ما بدأ به اسلافه، فتوسع في انشاء اسطول جدير بدولته، يشق الطريق عنوة بين اساطيل الدول الكبرى ويتقدمها[٢].

صار لدى السلطان سليمان ترسانات عظيمة في استانبول وغاليبولي ومناطق اخرى، وموانىء جيدة على طول سواحل بحر ايجة والبحر المتوسط وخشب بوفرة، وأعداد كبيرة من بناة السفن، واسطول كبير[٣]، كما ان مدفعيته تطورت، وتفوقت على المدفعية الاوروبية[٤] وهو مهيأ لمواجهة العالم المسيحي.

شاهد البحر المتوسط على صعيد اخر توسعا مماثلا للقوة البحرية المسيحية، خلال الصراع للهيمنة على ايطاليا بين فرنسا واسبانيا في اوائل القرن السادس عشر، فلجأ الجنود يباشرون الامدادات بالاضافة الى نشاط الاستخبارات والتي كانت عصب الامبريالية الفرنسية والاسبانية[٥].

قام السلطان سليمان القانوني بتوجيه حملاته البرية، والتي كانت موجهة

(١) Stanford Show : History of the Ottoman Emire P 87

(٢) محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، ص ١٤٠.

(٣) M.A. Cook : A History of The Othoman Empire.

(٤) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 212

(٥) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 212

اساسا للقضاء على آخر الجيوب المسيحية على طول الضفاف الجنوبية لنهري درافا (drava) والدانوب (Danube) في الصرب والبوسنة، تمهيدا للقيام بغزوات جديدة في الشمال وفي ٣ رمضان ٩٢٧ هـ، ٨ اغسطس ١٥٢٠ م تم الاستيلاء على اهم تلك الجيوب[١] ثم تحرك الجيش العثماني للقيام بحملته الكبرى، وعبر مناطق سيادته وسلطته التي يمكن ان يضرب بها قلب اوروبا، وكانت بلغراد الاستحكام العظيم في المجر، وهي التي سبق وأن صدت العثمانيين في عهد محمد الثاني، فضرب الجيش العثماني حصاره على قلعة بلغراد، وأشرف السلطان سليمان بنفسه على ذلك الحصار[٢] وألقت المدافع العثمانية قذائفها على القلعة من وسط جزيرة في نهر الدانوب، واندفعت الحامية داخل القلعة بينما قام الاسطول العثماني بقطع كل المساعدات والامدادات عن القلعة، فنشب نزاع بين المجريين وجنودهم المرتزقة الصربيين، فالمجريون يرغبون في الاطالة والدفاع، بينما الجنود يرغبون في التخلي عن الدفاع وتسلم القلعة، واخيرا سقطت القلعة واستسلمت بلغراد عام ٩٢٨ هـ/١٥٢١ م[٣]، وسقط بذلك الاستسلام خط دفاع اوروبا المسيحية على نهر الدانوب، ووقعت اخر اجزاء الصرب في ايدي العثمانيين، وصارت ساباتز (sabatz) مركزا بين مراكز الحدود الحديثة التنظيم، تمركز بها مجموعة من الفصائل العثمانية والتي كان من أهم واجباتها الأغارة شمالا داخل النمسا والتي كان يحكمها اسرة الهايسبرج[٤]، وتبين من خلال ذلك مدى فاعلية الاسطول العثماني في حصار قلة بلغراد، والتي سبق وأن صدت السلطات محمد الفاتح، فلولا قطع الامدادات عن القلعة، لكان بامكان المجريين الصمود حتى يحل فصل الشتاء وينسحب السلطان وجنوده ولكن عملية قطع الامدادات بواسطة الاسطول

(١) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 91

(٢) A G Gramnt : A History of Europe P 214

(٣) M A Cook : A History of the Ottoman Empire P 79

(٤) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 79

العثماني، قلل من وقت الحصار.

شغلت جزيرة رودس تفكير السلطان سليمان، وكانت الجزيرة تعتبر مركزا اماميا خطيرا للمسيحيين وسط بحر من العثمانيين، وكان قراصنة رودس يستولون على السفن المحملة بالحبوب والذهب القادمة من الاقاليم العربية الجديدة، كما كانوا يعتدون على السفن التي تنقل الحجاج من والى الأراضي المقدسة مهددين بذلك السلطان في مكانته الاسلامية ومركزه الاقتصادي[١] وحتمت تلك الاسباب السياسية والاستراتيجية على السلطان احتلال رودس، وواجه العثمانيون ستين الف مدافع رابطوا في اقوى القلاع المعروفة في ذلك الوقت وتعددت هجمات العثمانيين، ونجح جواسيسهم الذين انتشروا بين النساء من اليهوديات والمسلمات استعبدهم فرسان القديس يوحنا في تمكين قوات السلطان من اقتحام القلعة واجبار المدافعين على الاستسلام[٢]، وكان احتلال رودس في ١ محرم ٩٢٩ هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٢٢ ٫م بمثابة اعلان عن عزم السلطان سليمان السعي وراء هجوم على جبهتين وتغاضى العثمانيون عن القليل من المراكز التجارية الاوروبية وعلى الأخص قبرص التابعة للبندقية و(chios) الجنوبية في البحر المتوسط الشرقي، وكان انسحاب فرسان القديس يوحنا الى قلعتهم الجيدة في مالطة، يعتبر تغيير المبادرة الصليبية في البحر المتوسط من المسيحية للاسلام[٣].

بعد أن أمن السلطان سليمان الناحية الشرقية بالاستلاء على رودس بدأ في مساندة النظام العثماني في شمال افريقيا، وذلك بأن ارسل لهم قوات عن طريق البحر، لتساعدهم في حربهم ضد الأسبان[٤] من ناحية اخرى بعث السلطان

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٨٩.

(٢) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 88

A G Grant : A History of Europe P 214

(٣) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 92

(٤) Sir Gerog Clark : Early Modern Europe P 48

سليمان الصدر الأعظم ابراهيم باشا في ٩٣١ هـ/١٥٢٤ م لتنظيم الادارة العثمانية في سوريا ومصر، فأعاد ابراهيم باشا ترتيب الشؤون البحرية في ميناء السويس، الذي جعلوه قاعدة لعملياتهم في البحر الأحمر والمحيط الهندي، ثم لم يلبث ان ابحر الاسطول في ٩٣٢ هـ/١٥٢٥ م في محاولة لاخضاع اليمن للنفوذ العثماني الا أن الحملة لم تحقق ما هو مرسوم لها وكان السلطان سليمان قد اهتم بشن هجوم مضاد قوي ضد الغزو البرتغالي في البحر الاحمر[(١)]

تطورت الأحداث في القارة الاوروبية، وتكن شارل الخامس من اسر الملك الفرنسي فرنسوا الأول، ولجأ الأخير الى طلب المساعدة العثمانية بعدها لم تعد الممالك والامارات الاوروبية ترى في شارل حاميا للعالم الاوروبي من العثمانيين، بل على العكس مما أخبر فرانسوا السفير البندقي فيما بعد رأوا في الدولة العثمانية القوة الوحيدة القادرة على ضمان استقلال الدول الاوروبية من أطماع شارل، ومن ناحية العثمانيين رأوا بدورهم في التحالف الفرنسي وسيلة للحيلولة دون تجمع اوروبا في قوة واحدة يخشى من نتائجها والتي قد تصل كما أوضح السفير الفرنسي للسلطان العثماني في جمادى الاولى ٩٣٣ هـ/فبراير ١٥٢٦ م إلى حد السيطرة على العالم اجمع[(٢)]، هذا فضلا عن ان التحالف العثماني الفرنسي ،كانت الدولة ترغب في الاقتراب من الاندلس علاوة على ذلك ما كانت تنتجه فرنسا من أشرعة للسفن، ففي ذلك تدعيم للاسطول العثماني.

انشغل السلطان سليمان بعض الوقت في شؤون الشرق الاسلامي، ولكن في ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م استعد السلطان للتقدم ثانية في اوروبا، ولكن في هذه المرة بميزة جديدة وغريبة، فالسلطان المسلم كان حليفا للملك المسيحي الفرنسي وترك السلطان القسطنطينية بجيش يقدر بمائة الف جندي وثلاثمائة مدفع، وفي ٣١ ذو القعدة ٩٣٣ هـ/٢٨ اغسطس ١٥٢٦ م، قابل لويس الثالث

(١) السيد رجب حراز : أريتريا الحديثة ١٥٥٧ - ١٩٤١، ص ٢٨.
(٢) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ٢٨٨.

ملك المجر على سهول موهاكس، فاقترب الخيالة المجريون من انتزاع النصر، لكن المدفعية العثمانية والثبات الذي ظهر به الجنود الانكشارية حولت ذلك اليوم لصالح السلطان، وقتل ملك المجر وعدد كبير من النبلاء، وسقطت بعد ذلك بودا (buda) وبست (pesth)في يد السلطان سليمان[1]

كان السلطان سليمان القانوني يفضل بقاء المجر تحت الحكم الذاتي وعلى رأسه حاكمها زابوليا، ليكون صمام أمان لمواجهة آل هايسبرج، وذلك بدلا من ان يبدد قواته وموارده في الاستلاء المباشر، والسيطرة على البلاد، ونتيجة لذلك غزا المجر للمرة الثانية في صيف ٩٣٥ هـ/١٥٢٨ م، وفي عام ٩٣٦ هـ/١٥٢٩ م استطاع ان يعيد احتلال بودا ثم ضرب الحصار على فيينا في الفترة ٢٢ محرم - ١ صفر ٩٣٦ هـ/٢٧ سبتمبر - ٥ اكتوبر ١٥٢٩ م[2]، واستعان في حصاره باسطول من سفنه غطى الدانوب بأكمله، يحدوه الأمل في الاستيلاء على عاصمة آل هايسبرج، والنظام العسكري النمساوي، وكتب السلطان سليمان «اذا كان ملك اسبانيا له روح عالية وعظيمة، فدعه يشتبك معي في الميدان، وما سوف يقرره الله سيقع»[3]، واخترق العثمانيون جبال الألب متجهين الى جنوب المانيا، وعندما وصلوا الى راتسبون (ratisbon) في بافاريا وبرن (brunn) في بوهيميا كانت اوروبا قد أصابها الذعر لذلك، الا أن فصل الشتاء بدأ في المنطقة، ولو أن السلطان صمد قليلا لتمكنت قواته من اقتحام فيينا، وعاد السلطان الى استانبول، وبذلك كتب النجاة لفيينا[4].

رغب السلطان سليمان القانوني في وقف الحملات الموجهة لوسط اوروبا حتى يتمكن من سن القوانين والنظم والذي سبق وأن أعلنه عندما اعتلى العرش، لكن استمرار مطالبة فرديناند اخو شارل الخامس بتنصيبه ملكا على

(١) A J Grant : A History of Europe P P 214 — 215

(٢) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 93

(٣) A J Grant : A History of Europe P 215

(٤) Stanford Show : History of Ottoman Empire P 93

المجر، علاوة على الحصار الذي قام به الهابسبرج على بودا في ٢ جمادى الاولى ٩٣٧ هـ/٢٣ ديسمبر ١٥٣٠ م، دعت السلطان بأن يجهز حملة جديدة، ليس فقط من اجل اعادة الموقف في المجر الى سابق عهده، بل ليدمر الامبراطورية الألمانية، وليبرهن للجميع بأن السلطان العثماني هو أقوى قوة حاكمة في العالم كله.

اخترق سليمان المجر في محرم وصفر سنة ٩٣٩ هـ/يوليو واغسطس ١٥٣٢ م، ومعه قوة هائلة تبلغ ثلاثمائة الف جندي، ثم عبر النمسا وارسل المغيرين في جميع انحاءها، واحدث هؤلاء دمارا هائلا، لكي يدفعوا لهابسبرج الى الخروج للمعركة لكن دون جدوى، لذلك انسحب السلطان بحلول فصل الشتاء الى المجر وأرسل المغيرين في اتجاه مصب نهر (drava) ثم الى منطقته النمساوية في كرواتيا (croatia) وسلافونيا (slavonia) وهكذا لم يكن للحملة السابقة للمجر اي نتائج عاجلة، ولم ينهزم الهايسبرج لقد بقي فرديناند في موقف يمكنه من اعادة احتلال جنوب النمسا وشمال غرب المجر، بمجرد ان يرحل جيش لسلطان، ان ما فعله سليمان كان على اكثر تقدير اصابة النمسا ومعظم اوروبا بالصدمة، بسبب عمق اختراقاته، مما جعل شارل يمنح تنازلات للبروتستنات في المانيا لكي يكسب تأييدهم، وهذا يعتبر واحد من اهم العوامل التي ادت الى توسع الحركة اللوثرية في جميع انحاء أوروبا[١].

يعتبر توقف السلطان سليمان القانوني عند ابواب فيينا، مغيرا لسير الاحداث في اوروبا الوسطى، صحيح لم يتشجع العثمانيون على القيام بهجمات على القوات المسيحية وبدلا من تكرار الهجوم على فيينا منح العثمانيون سلاما لفرديناند وشارل الخامس ٩٤٠ هـ/١٥٣٣ م[٢]، ولو سقطت فيينا في يد السلطان سليمان في ذلك الوقت، ومن خلف فيينا الثورة الدينية في المانيا،

(١) Stanford Show : A History of the Ottoman Empire P 93

(٢) A G Grant : A History of Europe P 216

لتغيير مجرى التاريخ الحديث تماما، ولا احد يدري ماذا سيكون مصير اوروبا في ذلك الوقت(١).

وجه السلطان سليمان اسلحته وقوته الى البحر المتوسط، وأخذ يقدم المساعدات لملك فرنسا كل ذلك كان بمثابة انذارا لأوروبا الغربية، يوازي في حد ذاته الاستيلاء على فيينا(٢).

أتاحت اتفاقية السلام السابقة مع آل هايسبرج التحرر نسبيا من الاشتباكات في اوروبا، مما اعطى الفرصة للسلطان سليمان التفرغ للصفويين الذين يحركون الثورات في الاناضول، وبناء اسطول جديد يواجه به تحديات البرتغاليين في البحار الشرقية، وآل هايسبرج في غرب البحر المتوسط(٣) قرر أن يقضي السلطان سليمان شهور الشتاء فقط في الأنشطة الادارية، ونادرا ما يتحرك في هذا الوقت من القسطنطينية لزيارة العواصم الاقليمية، غير أنه كان في كل صيف يبتعد عن عاصمته ومعه الجيش على حدود دولته(٤).

توجه السلطان سليمان بجيوشه سنة ٩٤١ هـ/١٥٣٤ م نحو فارس، وأخذ في منازلة ملوكها الصفويين، ودمر قوتهم، ودخل بغداد، عند ذلك تقدم الشيخ راشد بن مغامس، الذي سبق وانتزع البصرة من الصفويين، وسلم المدينة للسلطان، وبذلك صارت الدولة العثمانية في مواجهة البرتغاليين في منطقة الخليج العربي(٥).

استعادت القوات العثمانية في نفس الوقت ٩٤١ هـ/١٥٣٤ م قلعة كورون (coron) في أموريا (amorea) والتي سبق وان احتلها اندريا دوريا

(١) Sir George Clark : Early Modern Europe P 49

(٢) A G Grant : A History of Europe P 216

(٣) Stnanford Show : A History of the Ottoman Empire P 95

(٤) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 34

(٥) قدري قلعجي : الخليج العربي، ص ٣٤٧.

باسطوله المدعم من البابا وقوات مالطية وسيسيلة، بعد ان نصح وزراء شارل الخامس سيدهم بتقوية دفاعاته على الساحل الاطالي، واعتبروا ذلك افضل وسيلة لازاحة السلطان العثماني عن الدانوب[1].

منح السلطان العثماني سليمان القانوني فرنسا امتيازات تجارية وذلك بعد عودته من فارس ٩٤٣ هـ/١٥٣٦ م وكانت تلك الامتيازات مثل التي منحت للبندقية، وكان ذلك الاتفاق رمزا لنمو الصداقة التي وحدت بين ملك فرنسا والسلطان[2]، الذين اتفقوا على القيام بعمل يجمع بينها في الهجوم على ايطاليا، العثمانيون بحرا من الجنوب، والفرنسيون برا من الشمال وقد سبق للعثمانيين بأن فكرو باستمرار غزوايطاليا ولكنهم ترددوا في الاقدام على ذلك حين وضعوا نصب أعينهم احتمال تصدي اوروبا لهم بزعامة البابا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، بمعنى اخر اتحاد الزعامة الدينية مع السلطة الزمنية، كما ان العثمانيين لم يكونوا يرغبون في المجاذفة بفتح جبهة بحرية، على ان حلفهم مع فرنسا شجعهم على الاقدام على هذه الخطوة[3]، وانفتحت بذلك جبهة جديدة ضد الهابسبرج، انتقل فيها المشهد الرئيسي للصراع بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والدولة العثمانية من الأرض الى البحر.

تقدمت الجيوش الفرنسية في شمال ايطاليا للاستيلاء على ميلانو وجنوى في ذو القعدة ٩٤٣ هـ/ابريل ١٥٣٦ م، بينما قام خير الدين بالهجوم ضد المواقع التابعة للهايسبرج في غرب ووسط البحر المتوسط، ثم عاد الى استانبول في صيف ٩٤٣ هـ/١٥٣٦ م لينضم الى السلطان سليمان القانوني في حشد قوة عسكرية كبرى، على أن يخرج سليمان على رأس جيش قوامه ثلاثمائة الف مقاتل من استانبول متوجها الى البانيا، ومنها ينقلهم الاسطول العثماني الى

(١) M A Cook : A History of the Ottoman Empire P 87

(٢) M. A. Cook: A History of the Ottoman Empire P. 87.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٥ - ٩٦.

ايطاليا، عند هذه النقطة الحرجة، وفي اثناء وجود الارماد العثمانية الرابطة بكامل استعداداتها على شواطىء البانيا للانضمام مع فرنسا في غزو ايطاليا، علم السلطان سليمان القانوني، ان حليفه فرانسوا الأول قد أوقف الصراع مع شارل الخامس تحت ضغط الكنيسة، وذلك تمهيدا لتوحيد اوروبا المسيحية ضد العثمانيين(١).

لم يكتف فرانسوا بعقد الصلح مع شارل، بل انه وعد بالاشتراك في حملة صليبية ضد العثمانيين، وسحب جيوشه في شمال ايطاليا(٢).

هاجم العثمانيون المدن الساحلية في ايطاليا الجنوبية، وحاصروا مستعمرة البندقية كورفو (corfu) احد القواعد في البحر الادرياتيكي(٣)، كما توجه خير الدين بربروسا بعد أنّ شعر بالاحباط بسبب الخيانة الفرنسية؛ جزر بحر ايجة وحول معظمها الى ولايات تابعة للسيادة العثمانية، وفرض السيطرة البحرية العمانية على بحر ايجة، واستغرق ذلك العمل ثلاثة شهور من سبتمبر وحتى ٩٤٤ هـ/١٥٣٧ م(٤).

دخلت اسبانيا والبندقية والمنصب البابوي سنة ٢٤٥ هـ/١٥٣٨ م في تحالف ثلاثي للقيام بعمليات حربية ضد الدولة العثمانية، التي نزلت في ايطاليا بالقرب من امترانتو (otranto) وعملت فيها الدمار، وتقابلت الاساطيل في بريفيزا (prevesa) جنوب كورفو (corfu) عند مدخل خليج آرتا (arta) وتجاهل دوريا قائد الاسطول المسيحي طلبات القباطنة البنادقة، الذي كان اهتمامهم الأول منصبا على اخلاء البحر الادرياتيكي من القوات العثمانية، وكان الاعتبار الرئيسي لاندريا دوريا هو الدفاع عن ايطاليا من الاعتداءات العثمانية، حيث انه

(١) Stanford Show : A History of the Ottoman Empire P 98
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٦.
(٣) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 93
(٤) Stanford Show : A History of the Ottoman Empire F 99

كان متشككا من قوة العثمانيين الاحتياطية[١]

اشغل خير الدين بربروسا الحلف المسيحي في بداية المعركة بوضع اقتراحات للمفاوضات، وفي القتال الذي تلا ذلك صدت السفن المسيحية وشعر الحلف ان صدهم كان عارا عليهم وعلى اسلحتهم، وأعيدت للبحرية العثمانية هيبتها وكرامتها، وتفكك ذلك الحلف بعد تلك المعركة[٢]، وكان الانجاز الوحيد للاسطول المتحالف هو اخذ كاستلنوفو (castelnuovo) على ساحل دالماشيا في جمادى الثاني سنة ٩٤٥ هـ/اكتوبر ١٥٣٨ م، ولكن حتى هذا النصر المتواضع قد محي وطمس حالا، لأن خير الدين استعادها في العام التالي[٣].

أصدر سليمان القانوني اوامره الى والي مصر بتجهيز اسطول وقال فيه «عليك ان تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجاتك واعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله، حتى اذا تهيأ لك اعداد اسطول وتزويده بالعتاد والذخيرة وجمع جيش كاف، فعليك ان تخرج الى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء، فانك اذا طعت الطريق وحاصرت السبيل المؤدية الى مكة والمدينة تجنب سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر[٤].

توجه الأسطول العثماني من السويس صوب الشرق في صفر ٩٤٥ هـ/يونيو ١٥٣٨ م بقيادة والي مصر سليمان باشا الخادم، وخلال مروره بعدن واليمن استغل الخلافات الناشبة بين الأسر الحاكمة، واستولى على المناطق الساحلية وبذلك وفر للدولة قواعد متقدمة للدفاع عن البحر الأحمر[٥] بعد ذلك

(١) Paul Coles : The Ottoman Impect on Europ P P 93 — 94
A J Grant : A History of Europe from 1494 — 1610 P 218
M A Cook : A History of the Ottoman Empire P 89
(٢) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ص ٥١.
(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٨.
(٤) السيد رجب حراز : أرتيريا الحديثة، ص ٢٨.
(٥) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ص ٥.

اتجه نحو المحيط وعندما اقترب من الهند، تمكن الحاكم البرتغالي من اجبار حاكم قاليقوط على الاشتباك معه في معركة بحرية، ومن تشتيت سفنه، وعندما بلغت هذه الانباء مسامع سليمن عاد أدراجه الى مصر ، بينما كانت الاساطيل العثمانية تؤدي واجبها في جهادها ضد المسيحية في الشرق والغرب كان السلطان سليمان نفسه يتعهد الحملات الجديدة في اوروبا، مضرب المثل في العمل بنظام الحرب الحديثة وهي ان تكون الحرب البرية تسير بجانب البحرية اذا وجدت .

فقام السلطان بغزو مولدافيا سنة ٩٤٢ هـ/١٥٣٨ م والذي كان اميرها بيتر (peter Rares) حاول وبايعاذ من اسرة الهابسبرج تحرير نفسه من تبعية السيادة العثمانية، ثم هرب الأمير الى تراتسلفانيا وجعلها منفى له، ثم قام السلطان باحتلال المدن الكبرى في مولدافيا بما فيها العاصمة (gos Jassy) ثم اشرف السلطان على ترتيبات الانتخابات والتي أعدت لاختيار أميرا من اهل البلاد، ثم قام بعد ذلك بضم جنوب بساربيا (bessaralia) المنطقة بين براث (pruth) ونهر الدنيستر (dniester)، وأبقى حامية من القوات العثمانية النظامية لمراقبة نواب السلطان، ثم نظم الأراضي الجديدة تحت اسم سنجق، ووافق سكان مولدافيا على الا يقوموا ببناء اية قلاع او مراكز عسكرية على طول الحدود حتى تستطيع القوات العثمانية التحرك بحرية في اي مكان وزمان بدون مقاومة[١] .

إن الحملات العسكرية الناجحة التي قام بها السلطان سليمان القانوني في البلقان، أجبرت الهايسبرج النظر في الاحتفاظ بمصالحهم الاسرية في الدانوب بعد فترة من الاهمال، وكان الهايسبرج مضطرين الى تسخير نشاطهم للمشاكل المتعلقة بضم بقايا المملكة القديمة في البلقان الى النظام الاداري النمساوي وتنظيم وتقوية استحكامات الحدود لصد اية هجمات عثمانية اخرى[٢] .

(١) Stanford Show : A History of the Ottoman Empire P 100

(٢) Paol coles : the Ottoman Impact on Europe P 122

كانت حملة الجزائر ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م آخر عمليات شارل البحرية العظمى بعد ذلك تدهور موقفه في البحر المتوسط اذ تجددت حروبه مع فرنسا، علاوة على ذلك كان العثمانيون مستعدين لتقديم مساعدات كبيرة الى حليفتهم كما ان السفن ذات المجاديف ستدعم وتعزز البحرية العثمانية[١] والتي كانت تنتظر التقارب مع فرنسا، لأن الدولة كانت تعمل دائما للاقتراب من سواحل الاندلس بأي طريق.

تعزى تلك النكسة على اسطول شارل الخامس الى سوء الأحوال الجوية وكان احد المورسيكيين قد اظهر الفرح بتلك النكسة وصاح «كيف لا يكون الطقس رديئا وهم عازمون بتحولهم الى الجزائر لنهب هؤلاء المساكين والشهداء الذين يعيشون في الجزائر، وقد صرحوا بذلك للعرب[٢] كان هذا في سنة ٩٤٩ هـ/١٥٤٢ م، وفي قضية اخرى اتهم دياقو الطليطي (diago de Toledo) أنه انحاز للعثمانيين والفرنسيين وأنه كان يعبر عن ابتهاجه خلافا للمسيحيين: «وهذا بسبب الأهمية التي كان جعلها وما زال لدين محمد وكلما كان الأمر يتعلق بانتصار يحققه الامبراطور شارل الخامس على العثمانيين كان يبدي كآبته ويظهر غمه ويقول ان ملك فرنسا سوف يتدارك ذلك، أما اذا تعلق الأمر بتسجيل المسلمين انتصارا ضد الامبراطور، فانه يعبر عن عميق سروره، وكان يكثر الكلام باعجاب عن العثمانيين غير أنه عندما يمنع من القيام بذلك يرجع الى بيته في حالة هيجان كبير[٣].

عادت الحرب في اوروبا بين فرنسوا الاول ملك فرنسا وشارل الخامس ٩٥٠ هـ/١٥٤٣ م، وطلب فرنسوا الأول من جديد مساعدة السلطان سليمان القانوني[٤] وقاد خير الدين بربروسا الأسطول العثماني استجابة لطلب فرنسا

(١) John Lynch : Spain under the Hasburgs Val 1 P 97

(٢) لوي. كارديلاك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ص ٨٤.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٧.

(٤) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 102

النجدة ضد آل هايسبرج، وبعد الانقضاض على سواحل ايطاليا تاركا نابولي وروما في حالة من الذعر .

ابحر العثمانيون متجهين الى جنوب فرنسا، فقاموا بسلب ريجو (eeggio) ونيس (nice ولقوا ترحيبا هائلا من العثمانيين هناك، ثم شن خير الدين هجوما على سواحل قطالونيا (catalonia)[1] .

ثارت المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسي في محالفتهم مع العثمانيين، وأخذت الدعاية المسمومة تجوب ارجاء اوروبا يحملها الاسبان وغلاة المسيحية يستثمرونها الى اقصى حدود الاستثمار[2] . لذلك قام خير الدين باحتلال طولون (toulon) بدون الحصول على أذن بذلك في ١٥ اغسطس وأرغم السلطات المحلية الفرنسية على امداده بالمساعدات[3]، وقضى خير الدين فصل الشتاء في طولون، في انتظار شن هجومه في العام التالي على موانىء توساني (tusary) ونابليتانو (nepoletano)[4] .

كان العثمانيون في اوائل القرن السادس عشر قد اضافوا على جيوشهم حنكة من التنظيم العسكري لا مثيل لها في قارة أوروبا. إلى جانب المهارات القتالية، ونستطيع ان نستشهد على ذلك بالحملة العسكرية الهنغارية للسلطان سليمان سنة ٩٥٠ هـ/١٥٤٣ م التي استعانت بقوافل الجمال، والشحن النهري والمزيج الحاذق من سلاح المهندسين والمدفعية مع وحدات سلاح المشاة والفرسان النظاميين والغير نظاميين، واسناد القيادة التكتيكية الى بكوات محليين مسلمين بالموقف، وتمت قيادة العمليات الحربية بأكملها على مسافة شاسعة من ادرنة العثمانية (adrianople) والقسطنطينية[5]. واستطاعت القوات العثمانية ان

(١) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 95

(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣١٥.

(٣) Staford Show : History of the Ottoman Empire F 103

(٤) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 95

(٥) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 95

تسقط مـدينة فـالبو (valpo) وشيـزكلوس (sziklos) وبكس (pecs) التي فتحت الطريق الى بودا، ثم استسلمت جران (gran الهدف الرئيسي للسلطان في ٨ جمـادى الاولى سنـة ٩٥٠ هـ/ ١٠ اغســطس ١٥٤٣ م، ثم ضـربت مــدينـة ستلويسنبرج (stuhl Weissenburg)، وبذلك صار لدى السلطان قواعد حصينة على الدانوب[١].

كان شارل الخامس في ذلك الوقت هاجم شمـال فرنسـا الشرقي، ولقي هزيمة تحت أسوار مدينة شاطـوتياري فـاضطر الى التـوجه الى المـانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية قائمة على قدم وساق، فاضطر امام تلك الصعوبات الى عقد معاهدة مع ملك فرنسا فرنسوا الأول في ١ رجب سنة ٩٥١ هـ/١٨ سبتمبر ١٥٤٤ م في مـدينة كـرسبي[٢]، ادى تنصل فـرنسوا الأول من وعوده مرة اخرى الى انسحاب خير الدين بربروسا الى المشرق، ثم عقد هدنة مع الهابسبرج في ٤ رمضان ٩٥٢ هـ/ ١٠ نوفمبـر ١٥٤٥ م، يعترف فيها الامبراطور شارل الخامس بالفتوحات العثمانية الجديدة، ووعد بأن يـدفع الجزية عن ناطق شمال وغرب المجر التي كانت لا تزال في حوزة الهابسبرج، ووعد الجانبان بالتوقف عن شن الغارات على أراضي الجانبين، وتحولت الهدنة الى اتفاق سلام دائم في ١٣ يونيو ١٥٤٧ م، بعد وفاة فرنسوا الأول، وقد اضيفت بنود جديدة تضمن سريان الامتيازات التجارية على تجار الهابسبرج[٣] كما توفي خير الدين بربروسا بعد أن قضى كثيرا من مجهوداته ووقته في مهـاجمة أمـلاك الامبراطور شارل الخامس من ناحية البحر[٤].

كانت غزوات السلطان سليمان القانوني في الجبهة الاوروبيـة استكمالا

(١) M A Cook : A history of the Ottoman Empire P 93

(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣١٥.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، ص ٩٧.

Stanford Show : A History of the Ottoman Impire P 103

(٤) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٨٣.

للخطة التي وضعها والده السلطان سليم للكيان الجديد للدولة العثمانية وواضح أن مسؤولية التنفيذ في الجبهة الغربية وقعت كلها على عاتق السلطان سليمان [١].

إن المجهود الحربي الذي قام به الامبراطور شارل الخامس والحملات العسكرية التي أعدها، قد فرض ذلك كله اعباء جسيمة على المجتمع والاقتصاد الاسباني وتبعثرت الالوف المؤلفة من الجنود والبحارة وارتفعت الضرائب على طبقة (pecheros) وهي الطبقات العامة في اسبانيا، وذلك لتغطية تكاليف المجهودات، رغم ان طبقة النبلاد ظلت معفية من تلك الضرائب فقد فرضت على الطبقة الوسطى ومع ذلك ظلت احتمالات الضرر بنمو الاقتصاد الاسباني قائمة [٢].

استمر المجاهدون في شمال افريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين اسبانيا وايطاليا وغص المجاهدون من البربر الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الافريقي، وبذلك اضطرت السفن المسيحية ان تطرق الطرق الأكثر امانا بالقرب من رأس كورسيكا، ولكن الاحتلال الفرنسي للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا ايضا الاتصالات بين اسبانيا وايطاليا، ولم تكن هناك مهلة لشارل في الدفاع عن الطرق البحرية لامبراطوريته، وبالتالي لم يستطع انجاز الحملة ضد القسطنطينية التي كانت حلمه منذ سنوات طفولته، كما أنه صار غير قادرا على تقديم مصالح مباشرة لاسبانيا [٣].

توفي خير الدين بربروسا قبودان الاسطول العثماني، وكان نجم درغوث باشا قد اخذ في الارتفاع بسبب أعماله المجيدة في البحرية العمانية، حيث

(١) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ص ٢٥٢ .

(٢) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 126

(٣) Hohn Lynch : Spain under the Habsburg Val 1 P 97

تمكن من طرد الاسبان من سوسة والمنستير وصفاقس[1]، كما اخذ في مهاجمة الشواطىء الشمالية للبحر المتوسط، فأحرق موانيها وأشاع الذعر والفزع فيها وفي سنة ٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠ م، حضر درغوث امام المهدية، التي تعتبر من اقوى القلاع التونسية، وكان سكان القطر التونسي يبغضون حكامهم الحفصيين وينتظرون قدوم العثمانيين لحمايتهم من الاسبان ومن حكامهم المحتمين بهم لذا فان درغوث احتل المدينة والقلعة بدون مقاومة[2].

اضطر شارل الخامس ان يعد حملة كبيرة في اواسط عام ٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠ م الى المهدية، بينما توجه درغوث الى سواحل اسبانيا تاركا المهدية لقيادة احد الربانية، وكان درغوث قد دمر سواحل بالنسبة، ثم توجه الى جزر الباليار وعندما عاد وجد المهدية سطوقة برا وبحرا من قبل شارل الخامس[3].

وصل الى طرابلس الحاكم الجديد فاليس (gaspare de Vallies) في جمادى الاولى ٩٥٨ هـ/مايو ١٥٥١ م[4]، وهو يعلم بأن الاسطول العثماني في طريقه الى طرابلس لتحريرها، فأخذ في تقوية الحصون وأبراج واسوار طرابلس واستصرخ الفرسان ملوك اوروبا، واستنجدوهم لدفع خطر المسمين ضد المسيحية ولكنهم فشلوا في مسعاهم، التقى الاسطول العثماني في شرق البحر المتوسط بقيادة سنان باشا، بدرغوث باشا في ١٤ رجب ٩٥٨ هـ الموافق ١٨ يونيو ١٥٥١ م، وقاموا باحتلال جزيرة فوزوا احدى جزر مالطة، وعندما اكتفوا بتحقيق ذلك، أبحر الاسطول العثماني نحو طرابلس[5] ورسا الاسطول قرب طرابلس؛ ونزلت قوة في منطقة زماوة، بينما نزل سنان باشا على تاجورا، حيث كان يقيم مراد آغا، الذي أحضر المدفعية، وفتحت نيران المدفعية على طرابلس

(١) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر، ص ١٧٠.
(٢) عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في أفريقيا ص ٢٩، ٣٧، ٣٨.
(٣) عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في أفريقيا، ص ٣٩.
(٤) أتوري روس : ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١، ص ٣٧٣.
(٥) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر، ص ١٧٠.

وسرعان ما بدأ حاكم المدينة دوفاليرز مفاوضاته مع العثمانيين، واستجاب لشروطهم وسلم المدينة لهم، بعد ذلك عين العثمانيون مراد آغا واليا على تاجوراء وطرابلس، وصدمت اوروبا بسقوط طرابلس [١].

عمل مراد باشا في حدود ادراكه لتنظيم ادارة البلاد وتحصينها واعمارها ولم يثر اي حادث مدة حكمه حتى وفاته ثم اسندت الامارة الى درغوث باشا وبذل جهود جبارة في تحصين طرابلس، كما جلب عدد من الانكشاريين وجاهد لترسيخ العدالة والطمأنينة في البلاد [٢]، وامتدت سيطرة درغوث فشملت طرابلس الغرب بأسرها، وبلغت جنوبا منطقة غريان، وشرقا منطقة مصراتة، وكان حكمه على غربي طرابلس اكثر توسعا وامتدادا حيث شمل كل الجنوب التونسي من جربه وصفاقس والمونستير وسوه والقيروان [٣]، رغب الاسبان تسليم المهدية لفرسان القديس يوحنا، بعد خروجهم من طرابلس، الا أن الفرسان رفضوا ذلك بسبب ادراكهم بعجزهم عن الاحتفاظ بها، فقام الاسبان بنقل الاسلحة، وبعد ان دمروا التحصينات اخلوها ورحلوا عنها، وبذلك الحقت المهدية، كما ربطت فزان بالحكم العثماني وفرضت عليها ضريبة [٤].

اشترك سنان باشا ودرغوث في قيادة اسطول جديد يتجه للغرب، واستطاعوا بمساعدة الفرنسيين الاغارة على شواطىء نابلس وصقلية وكورسيكا [٥]، كما ارهب درغوث باشا موانىء (elba)، وقطالونيا (catalonia) وباليركس (balearics) [٦]

قامت عدة محاولات مسيحية لاعادة احتلال طرابلس بعد سيطرة

(١) جون رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ص ٩١.
(٢) عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٥٣ ـ ٥٤ .
(٣) أتوري روس : ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ م، ص ١٩١ .
(٤) عزيز سامح : الأتراكَ العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٥٤ .
(٥) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 106
(٦) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 95

العثمانيين عليها، فنادى البابا بيوس الرابع الدول المسيحية، باعداد جيش صليبي ضد العثمانيين، وقد لقي هذا النداء استجابة، فقامت مدن ايطاليا، وكذلك اسبانيا وصقلية بالتحضير للحملة، وكان التخطيط المرسوم لها، أنه سيتم احتلال طرابلس ويترك فيها اسطول مالطة وصقلية، وذلك لمنع السفن العثمانية من العبور الى غربي حوض البحر المتوسط، وبذلك لا تستطيع الجزائر ان تتلقى النجدة من العاصمة، وتعتمد على قواتها الخاصة، ثم تهاجم الجزائر ويتم اخراج العثمانيين من افريقيا الشمالية، خاصة بعد ان تمكن الاسبان من استمالة حكام المغرب الى جانبهم وقرروا ان يقوموا باحتلال اقاليم الجزائر الغربية. اما تونس فانها كانت تابعة لاسبانيا.

تأكد بيلربك الجزائر من هذه الاخبار، وبادر بارسالها الى استانبول فحرك ذلك مخاوف كبيرة، لأن امور الدولة غير مستقرة نوعا ما، اذ بدأ الروس بالزحف في اتجاه بحر أزوف والبحر الأسود، والبرتغاليون دخلوا خليج البصرة والبحر الأحمر، كما بدأت سفنهم تتجول أمام السواحل العثمانية، وقامت عصابات صغيرة من القراصنة في بحر الادرياتيك وايجة بالاعتداء على المسلمين والنصارى من رعايا الدولة العثمانية، وأمام تلك اخطار ومع كل ذلك، صدرت أوامر الباب العالي لأمير البحر بيالة باشا بأن يستكمل احتياجاته، ولما كانت رودس تقع في منطقة خطرة، فقد أمر شجاع أمير بحر الاسكندرية بالتوجه الى رودس، وأخذ بعض المراكب من اسطول رودس لمضاعفة قواته وحراسة تلك الجهات، كما صدرت الأوامر الى علي بك حاكم قوجه ايلي والى قورت أوغلي احمد بك بأن يلتحقوا بأمير البحر بيالة بيك[1] وأمام تلك الاستعدادات العثمانية لمواجهة الحلف الصليبي، لقي المسيحيون هزيمة ساحقة سنة ٩٦٨ هـ/ ١٥٦٠ م، الا انهم مع ذلك استطاعوا احتلال جزيرة جربة، بعد أن ذبحت معظم قواتهم، عندما تخلى عنهم اسطولهم[2].

(١) عزيز سامح : الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص ٥٥ ـ ٥٨.
(٢) جون رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور، ص ٩٣.

صار للعثمانيين قاعدة مفيدة في طرابلس، وحلقة اخرى في سلسلة مع الجزائر، كما صار لدى الدولة مواقع ونقط أمامية اخرى على ساحل شمال افريقيا، وقعت بالتدريج في ايدي المسلمين، واستمر السلطان يرسل اساطيله القوية لتهاجم سواحل البحر المتوسط المسيحية، ولكن كانت هناك نقاط ضعف لم تكن السلطان من الضغط المتواصل، ومن تلك النقاط انشغاله بالحرب مع فارس وشعوره بعدم الثقة من التعاون مع فرنسا، اذ انه عبرت الاساطيل العثمانية المسافات الواسعة للبحر المتوسط، ولم تستطيع تلك الأساطيل على تحقيق السيادة والتفوق البحري في غرب المتوسط، لقد كان عامل المسافة اكسب اسبانيا مهلة واستراحة[1]، ومع ذلك لا زال السلطان العثماني يواصل جهوده في توية اساطيله البحرية، التي اثبتت من خلال ما سبق ذكره على مقدرتها في تطوير نفسها، لتنفيذ ما خططته الدولة في السابق لاسترداد الأندلس، وسنلاحظ ذلك من خلال الفقرات التالية.

(١) John Lynch: Spain under the Hasbrgs Val 1 P 97

كان حسن بن خير الدين بربروسا بعد أن هزم السعديين في تلمسان ، ووطد دعائم الحكم العثماني فيها ٩٥٩ هـ /١١٥١ م[١] ، انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية ، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة ، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الامتيازات الاقتصادية التي منحت لها مع استانبول والتي شملت جميع اقاليم الدولة العثمانية ، غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك ، واعلن عداءه لفرنسا في مناسبات عديدة فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد في استانبول إلى الجزائر بهدف معرفة المدى الذي سيصل إليه حسن بن خير الدين في عدائه لفرنسا ، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبيلربكية الجزائر .

اجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدين ، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية ، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية في مهاجمة اسبانيا ، ونجدة مسلمي الاندلس ، لكن حسن رفض هذا العرض ، لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة مع الدولة العثمانية نفسها ، واعلن صراحة ان قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين ، فأكد بذلك القاعدة الثابتة وهي عدم الانتصار بكافر على

(١) ابي عبدالله السليماني : اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب ، ص ٩٤ .

كافر ورجع السفير الفرنسي الى اسطانبول ، بأوغر صدر الباب العالي بقوله (ان السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام[١] خاصة وان والدته من الأسر الجزائرية المعروفة .

رأت الدولة العثمانية انه لزاما عليها من تغيير سياستها في المنطقة خاصة بعد ان صار المغرب حليفا قويا للاسبان ، مما ادى الى قلب الموازين الاستراتيجية رأسا على عقب ، فأتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة ، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانوني بيلربك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الاساءة الى حسن الجوار مع المغرب ، كما دعا الى الوحدة الاسلامية والى حسن الجوار[٢] .

اسندت الدولة العثمانيين بيلربيكية الجزائر الى صالح رايس في صفر ٩٦٠ هـ / يناير ١٥٥٢ م ، بدلا من حسن بن خير الدين[٣] ، وكان صالح رايس قد ذاع صيته منذ أن كان يعمل الى جانب خير الدين ، وعرف بالشدة والاقدام[٤] وهو اول حاكم عربي ، وكان لتوليه ارتياح عظيم لدي الاوساط الجزائرية . الجزائرية[٥]

بعث السلطان سليمان القانوني بالرسالة التالية الى حاكم فاس محمد السعدي « هذا مثالنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني لازال نافذا مطاعا بالعون الرباني والصون الصمداني اصدرناه الى الجناب العالي الاميري الكبيرى الاكرمي الافخمي الاكملي الارشدي ، الاعدلي

(١) بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية، ص ٣٢ ـ ٣٠ .
(٢) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص ٩٠ ـ ٩١.
(٣) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ٧٩ .
(٤) شارل أندري جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية، جـ ٢، ص٣٤٣.
(٥) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٨٦١.

الهامي الماجد النصيري الذخيري الحسبي النسبي نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المحفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصمد حاكم ولاية فاس يومئذ الشريف محمد دام علوه وزاد سموه .

اصدرنا هذا المثال الشريف العالي الى جنابه العالي نخصه منا بسلام بتكميل صلاة (صلات) المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد .

فان الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ اقامنا في دولة هائلة نركب خيولها ، ونعمة طايلة نسحب ذيولها ، وسيادة سائدة كالشمس وضحيها ، وسعادة ساعية كالقمر اذا تليها ، وخصنا خلافة جليلة عضد الايمان بها منصور ومنحنا سلطة ساعد الاسلام بها مرفوع لاجرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا اداء (شكر) هذا الطف الجسيم والاحسان العميم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وكان ابدا دابنا ، ودائما عادتنا الاهتمام باجراء الشرع المبين وانفاذ سيد الاولين عليه الصلوة وعلى لآله اجمعين والقيام في اطفاء نايرة الكفر والطغيان وطي الظلم والعدوان ونشر العدل والاحسان .

ولما بلغ سمعنا الشريف ان امير الامراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين ، لذلك بدلناهم غيره ، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية وخلاصة خدام اعتابنا الجليلة امير الامراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي الجلال والاحترام صاحب الفرد الاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الاعلى صالح باشا دام اقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا اليه تلك الديار وامرناه باقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين ، واحياء تواقر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله تعالى وان يكون مع الاهالي الاسلام على اكمل اتحاد واجمل اتفاق مجدا فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس

سلطاننا المتين مثابرا على دفع اعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على ان اقصى مراد حضرتنا العلية احياء مراسم الاسلام واطفاء نائرة الكفرة والمتمردين اللئام وذلك المرام يكون باتفاق امراء الاسلام واتحاد امناء شرع سيد الامام ويتم به النظام وينفي لأثارهم في الشهور والاعوام .

وأمرناه ايضا ان ينظر الى احوال المسلمين بنظر الاشفاق والمراحم وينظر بينهم بكمال العدالة وحن المكارم ليكونوا في ايام دولتنا العادلة لآمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

ولا بد لكم ان تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم ولاد سيد الانبياء ، واحفاد سيد الاصفياء سمعنا عدلكم وانصافكم وبكمال لتقوى وصفات الكمال اتصافكم ، ولذلك الشأن كتبنا اليكم منشورا يوجب ضمونه المصافات ويشفي مكنونه ان تكون المودة في اقصى الغايات ولكم ان نبئوا بأخبار صحتكم الغالية الى اعتابنا العالية . . »

تحريرا في اوائل شهر محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة ، الموافق يناير ١٥٥٢ م بمقام ادرنة .

كما بعث السلطان سليمان القانوني بخطاب آخر الى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدي ، يمنحه بخلع ، والخطاب عبارة عن مرسوم سلطاني قال فيه « . . هذا مثالنا الشريف . . الخ اصدرناه الى الجناب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد . . نخصه بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد .

فان الله جلت قدرته وتعالت عظمته منذ اقامنا في دولة هايلة نركب خيولها ، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سايدة كالشمس وضحيها . . وامضاء سني سنن سيد الاولين والاخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وانت من اولاد سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله عليه وسلامة وقد سمع سيدتنا العلية حسن اقدامك وكمال دينك وديانتك وخلوص

طويتك وصفاء سيرتك وقيامك في الذب عن المسلمين وقمع اعداء الدين ولذلك الشأن حباك احساننا الشريف العالي السلطاني ورعاك جزيل فضلها السامي الخاقاني فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسببا لنسج المودة بيننا ، على ان اقصى مراد حضرتنا العلية ان تكون اهالي الاسلام وحماة دين النبي عليه السلام في ايام دولتنا العادلة في اكمل الراحة واجمل الاستراحة لأمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ان شاء الله تعالى . . »

تحريرا في وائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة المافق يناير ١٥٥٢ م ، بمقام ادرنة .

كما بعث السلطان العثماني مرسومه الى العلماء والفقهاء وسائر رعايا الجزائر يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية ، وقد جاء في ذلك المرسوم ما يلي « . . هذا مرسومنا . . ارسلناه الى العلماء والفضلاء والفقهاء والائمة والخطباء وجميع العلماء والقواد والنقباء وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية ، زيد توفيقهم يتضمن اعلالهم ان صدقاتنا الشريفة العالية الخاقانية وعوارفنا السنية السامية السلطانية قد انعمت على مملوك حضرتنا العالية ومعتمد دولتنا القانية امير الامراء الكرام . . . صالح باشا دام اقبالا ، بولاية الجزائر لفرط شهامته وشجاعته وكمال قوته وصلابته وحسن سيرته وصفاء سريرته فوضنا اليه تلك الارض وامرناه باحياء السنن والغرض والرعايا الذين هم ودائع الله تعالى وحفظ الثغور وسد خارق الامور ، لتكون رعايا اهل الاسلام ثمة في ايام دولتنا العادلة في اكمل الراحة ، واجمل الاستراحة لأمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فليكونوا مع امير الامراء المشار اليه على احسن حال واكمل اتفاق مراد حضرتنا العلية قيام قاموس الشرع القويم والصراط المستقيم واحيائه مراسم الاسلام وطريقة سيد الأنام وحفظ العباد وصون البلاد وقمع الكفرة الفجرة بكل ناد تقبلوا ذلك وتعتمدونه والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه والعلامة

الشريف حجة بمضمونه » .

تحريرا في اوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق يناير ١٥٥٢ .

اصدر السلطان سليمان القانوني تعليماته للمسؤولين باعداد السفن وتجهيزاها فقد جاء في امره ما يلي « امرنا ان تسلموا شيئا من البارود الى السفن الخمس المتوجهة الى جزائر الغرب والتي ستمكث هناك . . . » [١] ، لم يكن ينتظر من صالح رايس حسن الجوار مع السعديين ، طالما لا يفضلون لجيرة العثمانيين ، المنافسين لهم في زعامة العالم الاسلامي ، وطالما كان السعديون طامعين في تلمسان ، لكن المصلحة اقتضت المداراة حتى تضع الحرب اوزارها عمل صالح رايس في سياسته الداخلية على تحقيق امرين ، اولهما تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل اجزاء الجزائر ، وثانيهما ادخال بقية اجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للاندلس ، اما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمي الى ثلاثة اهداف ، اولها ابعاد الاسبان نهائيا عن اراضي الجزائر ، وثانيهما وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجات التي تقوم بها الدولة المغربية السعدية ، وثالثهما اعلان نفير الجهاد العام والسير برا وبحرا على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد الاندلس[٢]

ابتدأ صالح رايس في مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية ، وكان في الجنوب الجزائري ، امارتان مستقلتان تمردتا على الحكم العثماني ، فأمارة توقرت كان يتولى امرها ملوك بني جلاب يتوارثونها ابا عن جد ، وامارة بني وارجلان (ورقلة) يتولى امرها الشيوخ الاباضيون ـ احدى الطوائف الخوارج ورثة دولة بني رستم ، ويمتد سلطانها الى قرب وادي ميزاب غربا والى المنيعة

(١) خليل الساحلي : تقليد صالح باشا ولاية الجزائر سنة ١٥٥٢ م، المجلة التاريخية المغربية عدد (٢) ، ص ١٢٩ ـ ١٣٣ .

(٢)، أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٣٧ .

جنوبا ، كانت الامارتان قد دخلتا ايام خير الدين بربروسا ضمن تلمسان والمغرب ، قد جعل الامارتين تمتنعان عن دفع الجزية للعثمانيين وتعلنان استقلالهما عن ادارة الجزائر ، وحاول صالح رايس اقناعهما باللين إلا أنه فشل[1] في تحقيق ذلك ، فقرر توجيه حملته إليهم مستعيناً بصديقه عبد العزيز أمير قلعة بني عباس حيث اتصل به في جعانة ومعه يومئذ ثمانية آلاف جندي[2] وسار الجميع نحو توقرت حيث تمت مهاجمة واحات توقرت ، وكانت قوة الصدمة اكبر من ان يحتملها ملك توقرت وجيشه ، وبعد معركة قصيرة وحاسمة امكن تصفية المقاومة في توقرت ، والقضاء على حكم بني جلاب وضم توقرت نهائيا الى السلطنة العثمانية وتوجه جيش الجزائر بعدها الى بني وارجلان ، واجتمع هنا شيوخ ورقلة واعلنوا رفضهم لقتال اخوتهم المسلمين وانضمامهم للدولة العثمانية وصاروا منذ ذلك الوقت جزءا لا ينفصل عن الدولة العثمانية وتعهدت لهم الدولة بالمقابل احترام مذهبهم الاباضي وحرية ممارستهم له والتقاضي بمقتضاه بالنسبة لكل من يعتنقونه[3]ولا يعني امر السلطة العثمانية هنا قيام حكم مباشر لان ظاهرة الحكم المباشر اصلا في نظام السلطة العثمانية

دب الخلاف بين صالح رايس كممثل للدولة العثمانية ، وبين عبد العزيز كسلطان لقلعة بني عباس ومجانة ، فالأول كان يرى انه من الضروري التوحيد المطلق للبلاد ، والثاني كان يرى انه ملك مستقل ، وانه يمد يده للدولة العثمانية كحليف يعينها عندما يرى ذلك ، وانما لا يخضع لها ، فكان الصدام بين لفكرتين ، ووقعت احداث مؤلمة بين الجانبين ، واندحر اثناءها الجيش العثماني في محرم سنة ٩٦٠ هـ / ديسمبر ١٥٢ م ، كما اندحر مرة اخرى رغم

(١) بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية ص ٧٣ .
(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ .
(٣) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

انضمام بلاد كوكو اعداء قلعة بني عباس التقليدين للعثمانيين [١]

حدث ان هرب احد افراد اسرة بني وطاس ابن الحسن علي بن محمد الشيخ الوطاس المعروف بلقب ابو حسون من مراكش وذهب يتلمس مساعدة البرتغاليين والاسبان لاعادة اسرته الى الحكم[٢]

علم مولاي عمر[٣] بتوجه بو حسون الى اسبانيا مع ابن الامبراطور شارل الخامس لجمع حملة عسكرية وكانت المغرب في حالة فوضى ، فعرض العثمانيون على مولاي عمار تدخلهم ، لكن رفض المذكور نظرا للعلاقات التي تربطه بالامبراطور ، فأوفد مولاي عمار وفدا الى البلاط لمقابلة بو حسون ويرجوه بالعودة سريعا ، وان يعرض على الامبراطور ويلتمسه المساعدة ضد العثمانيين نظرا لتشبه موقفهم[٤]

لم يستقر لقاء بو حسون مع ابن الامبراطور عن النتيجة المشودة ، كما ان محاولته للقاء الامبراطور في المانيا قد فشلت ايضا ، وانتهت جهوده الى البرتغال التي وصلها في عام ٩٦١ هـ / ١٥٥٣ م وحصل من ملكها على مساعدة تمثلت في ست سفن حربية ، والتساؤل التاريخي حول سبب رفض الاسبان تقديم العون الى بو حسون وانحصار العون البرتغالي في هذا المدد المحدود ، وقد اتجه الى الاخذ باحتمال تحالف بين الاسبان والسعديين ، كذلك او على الاقل الاتصال من اجل تحقيق مثل هذا التحالف [٥]

نزل بو حسون بسفنه الى خليج الحسيمة ، غير ان الاسطول العثماني

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ،ذ؟.

(٢) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ ٢ ، ص ٩٤٧.

(٣) أحد أمراء بني زيان، عينوه العثمانيين على تلمسان بالاسم، إذ كانت السلطة الحقيقية في يد القائد العثماني.

(٤) Les Sources Indites L'Histoire Du Moroc Espagne Tom 1 P 591

(٥) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٤٤، ١٤٥ .

سرعان ما اسر السفن البرتغالية بعد معركة جرت بين الطرفين [١] ، وذلك اثناء تجول صالح رايس في البحر لغزو سواحل الامم المسيحية والذي اشتهر بها صالح رايس مدة ولايته ، في محاولته الجادة لاسترداد الاندلس [٢] ، وكان الجهاد الاسلامي يشمل يومئذ من الناحية الجزائرية بلاد اسبانيا والبرتغال .

حكي بو حسون على صالح رايس قصته ، وذكر انه ذهب اول الامر الى اسبانيا لطلب العون والمساعدة في استرجاع عرشه ، لكن لم تستجب اسبانيا لدعوته وان الامر يهم البرتغاليين فتوجه الى البرتغال التي كانت ترغب في الانتقام من الاشراف السعديين الذين اخذوا يسترجعون من البرتغاليين ما يحتلونه من المغرب الاقصى ومن سواحله فقرر اعانته وامده بالسفن ، وكانت تلك العمارة التي اسرها صالح رايس[٣]

ان العثمانيين قد ادركوا هدفهم من الحلف الاسلامي ، الا وهو الوصول بالحكم العثماني نفسه الى الحاضرة المرينية فاس التي مال اهلها آنذاك بكل مشاعرهم نحو بو حسون الوطاس ، فهو اصلا ابن مؤسس الاسرة الوطاسية ومن ثم فان هدفه من الحملة العثمانية لم يكن يعني سوى العودة بهذه الاسرة الى حكم المغرب وان كان تحت السيادة العثمانية [٤]

اتفق صالح رايس مع ابن حسون ، تعهد له بأنه يعترف بمجرد جلوسه على فاس بالتبعية للسلطان العثماني ، والاستعداد من قبل الطرفين لتجهيز الجيوش الاسلامية لمباشرة غزو اسبانيا برفقة صالح رايس [٥]

وصلت القوات العثمانية لنجدة ابو حسون الى بادس حتى تلقى طاعة

(١) Les Sources Indites L'histoire Du Moroc' Espagne Tom 11 P 36

(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٨٧.

(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٤١.

(٤) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٤٤.

(٥) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٤١ .

القبائل المجاورة للمنطقة ، واخذ في اعداد قوات محاربة ، كما انضم الى ابو حسون عمر ـ عمار ـ ملك دبدو [1] ، وقد حصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التي رسا بها الاسطول العثماني الا ان الهزيمة لحقت بالقوات السعدية ، مما افسح المجال امام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل ، وقبل ان تنتهي سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٣ م ، سقطت مدينة تازة في يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين في معارك متواصلة اهمها بكدية المخالى في ساحة فاس ، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها ابو حسون نحو فاس التي دخلتها في ٣ صفر سنة ٩٦٤ هـ / ٨ يناير ١٥٥٤ م [2] ، واعلن الباب العالي ضم المغرب الى الدولة العثمانية بعد ان خطب الامام للسلطان العثماني [3]

ان الاعتراف الرمزي بالسيادة العثمانية تمثل اخطر مرحلة في تاريخ المغرب منذ الفتح الاسلامي ، لأن المغرب اصطدم خلالها باحتلال اسباني وبرتغالي لقسم كبير من شواطئه ، فكان الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية والحالة هذه ليس من باب الحكمة فقط بل وضرورة سياسية كذلك ، لأن العثمانيين احتضنوا الخفة الاسلامية اولا ، ولأنهم جابهوا الدول الاستعمارية بما فيها الاسبان سواء في تونس والجزائر ، كما فعلوا ايضا في مساعدتهم للوطاسيين والقوات السعدية بالمغرب ضد الوجود الاسباني [4]

باستقرار مولاى عمار في دبدو وابى حسون بفاس ، ساد النفوذ العثماني شرق المغرب والمناطق الوسطى ، وازداد فزع الاسبان والبرتغال لرؤية الاساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانىء المغربية القريبة من مراكز

(١) دبدو هي مجموعة من القرى تقع على الهضبة المطلة على ساحل تفرطا على الضفة اليمنى لنهر ملوية ، وكان شيخ هذه القبائل يشمل نفوذه قبائل وادي تازة وفي القرن السادس عشر لقبه الأسبان بلقب ملك .

(٢) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٣) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، ص ٩١ .

(٤) ابراهيم حركات : التأثير العثماني في المغرب ، اشغال المؤتمر الأول ، لتاريخ المغرب وحضارته ، ج ٢ ، ص ٩ .

احتلالهم التي سيطهرها العثمانيون ومن ثم التوجيه للاندلس ، وقد جاء في الرسالة التي بعثها الملك البرتغالي (جان الثالث) الى الامبراطور شارل الخامس ، ما يدل على هذا الفزع اذ كتب اليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لاقدامهم في هذه البلاد ، لان ذلك يشكل خطرا كبيرا على مصالح الأمتين [1]

مكث صالح رايس بمدينة فاس اربعة اشهر ضمن خلالها استقرار الامور للدولة العثمانية ، وفي خلال تواجده في فاس ، لم يترك الجهاد ضد الاسبان فأرسل فرقة من جيشه الى الريف المغربي استرجع من الاسبان معقلهم الكبير باديس او صخرة فاليس كما يدعونها [2] ، كما حاول صالح رايس ان يستبدل الباشا العثماني ابا حسون بالشريف الادريس الراشدي مولاى بو بكر ، بناء على اقتراح المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثماني ، الا ان ثورة الاهالي اضطرت صالح رايس لاعادة بو حسون الى حكم فاس ، فأذعن بو حسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثماني واقامة حامية عثمانية في مقر بلاطة [3] تمهيدا للعمل المشترك في استرداد الاندلس .

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء الا بمحاربة الاسبان ، ولا يهدف من وراء اي عمل الا جمع القوى الاسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي ، كان يرى قبل كل شيء وجوب طرد الاسبان من وهران ، من النزول الى الاندلس ، لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بني عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله ، ترامت لصالح رايس يومئذ الانباء عن ضعف القوى الاسبانية بمدينة مجانة ، علاوة عن

(١) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ٨١ .
(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ٣٤٢ .
(٣) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ١٤٧ .

معاناة الحامية بالضيق فرأى صالح ان يغتنم الرفصة ، وان يبدأ بتطهير الشرق من الاسبان قبل ان يطهر الغرب ولعل انقاذ بجاية سيكون له اثر في عودة ملك بجاية الى حظيرة الوحدة الاسلامية تحت ضغط السكان .

سار صالح رايس في ربيع اول سنة ٩٦٣ هـ / يناير ١٥٥٥ م نحو مدينة بجاية على رأس جيش كبير يقدر بنحو ثلاثين الف رجل عززهم في الطريق بالمجاهدين من امارة كوكو ، فوطدت الجيوش العثمانية وحاصروا المدينة ، بينما جاء الاسطول العثماني يحمل الاسلحة والمدافع فرس بجانب الجيش وصوب المسلمين قذائفهم على القلعة [١] ودارت معركة عنيفة ونجح صالح رايس في انتزاع بجاية من الاسبان في ذو القعدة سنة ٩٦٣ / سبتمبر ١٥٥٥ م ، ولم يستطع حاكم نابولي من نجدة حاكمها في الوقت المناسب [٢] ، كما استسلم الحاكم الاسباني الونسو دوبيرالتو (Alonso de Perralto) للقوات العثمانية [٣]

صار بو حسون يواجه منافسه المولى محمد الشيخ السعدي الذي جمع قوات من الحوز والسوس واتى يجر جنوده الى ان وصل رأس الماء من احواز فاس [٤] وكان بو حسون بعد انسحاب العثمانيين قد اخذ في اعداد الجيوش والات الحرب الى ان قضت ثمانية شهور فأمر بالخروج لمواجهة مولاى محمد الشيخ والوصول الى مراكش ولما تقابل الجيشان قام بينهم قتال عظيم واستطاع بوحسون أن ينزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم ، ثم أرسل بو حسون لمولاي محمد الشيخ وقال له : أخرج أنت وأولادك إلى لقائي وأنا أخرج إليكم بنفسي ونترك المسلمين بدون قتال ، فتظاهر محمد

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.
(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٤١ .
(٣) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٨٨.
(٤) شارل أندري جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية، جـ ٢، ص ٣٤٤ .
(٤) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ٨٢ .

ورجع الى والده واخوته الستة الذين اجتمعوا على بو حسون فجعل يطاردهم حتى طمر به فرسه فسقط فطعنوه فأحتزوا رأسه واتوا به جيشه ، فأنهزموا بلا قتال ، واخذ محمد الشيخ فاس [١] وهكذا مات بو حسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس ، وان كانت قد ضاعت بموته الفرصة الاولى لاعلان ، السيادة العثمانية على فاس ، الا ان احداث هذه الوقائع كانت تعني ان الفرصة ما زالت واسعة امام العثمانيين لتطبيق غزوهم المرحلي للمغرب ، لا سيما وان محمد الشيخ السعدي باسم القضاء على الحزب العثماني بين المغاربة انزل القتل في اكثر من مائتين من كبار اعيان فاس فضلا عن الفقيهيين المرينيين ابي محمد عبد الوهاب الزقاق قاضي فاس ، وابي الحسن على حزوز خطيب فاس [٢]

ان عودة فاس للسعديين كانت نقطة تحول هامة في تاريخ الدولة السعدية فالمولى محمد الشيخ قد ظهر كخصم عنيد للعثمانيين ، ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في بلاد المغرب ، بل والاكثر من ذلك انه اعلن اثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب الى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك ، فهذا التنافس السعدي العثماني على شمال افريقيا ، بل وعلى الخلافة الاسلامية كان في صالح الاسبان والبرتغال ، ولا عجب اذا رأينا بعد ذلك تقاربا بين هؤلاء جميعا ضد العثمانيين [٣]

بعث الملك جون الثالث رسالة إلى حاكم مازكان البرتغالي الفارو دي كافالو (AL Varo de Carralho) رداً على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ إلى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين كما حددت الرسالة بعض الشروط التي يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين كتسليم

(٢) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية، ص ٢٠ ـ ٢١ .
(٣) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٤٨ .
(٤) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة السعدية، ص ٨٣ .

بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس بنيون والعرائش، بالاضافة إلى تموين القوات المسيحية التي سيرسلها لمساعدته، وأخيراً يختتم الملك البرتغالي يوحنا الثالث بضرورة إخبار الأمبراطور الاسباني بذلك للتنسيق في عمل مشترك ضد العثمانيين، ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك في مطلع ٩٦٢ هـ / ١٥٥٥ م، وظل مفعول هذه الهدنة زمناً طويلاً.

إذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين فإن المزوار بو غانم هو الذي كلف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الاسبان وأول رسالة للمنصور في هذا الصدد، تلك التي بعثها إلى حاكم وهران الاسباني الكونت دي الكودين (Comet de Al Coudet) في مطلع ربيع أول ٩٦٣ هـ / يناير ١٥٥٥ م، وقد أخبر المزوار الكونت الاسباني بوصول رسائله وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبد الله الذين أعربا عن سرورهما لقدوم وفد اسباني للتفاوض معه، وقد أرسل حاكم وهران بالفعل إلى فاس وفداً يتألف من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول إعداد حملة مشتركة اسبانية ـ مغربية ضد العثمانيين [1].

وقد جاء في التقرير الذي رفعه الوفد للكونت حاكم وهران الاسباني الذي أشرف على سير المحادثات « . . . بعد أسلمناه الرسائل. . طلب إلينا الملك السعدي أن نقول له شفوياً عن سبب المهمة التي قدموا من أجلها إلى فاس. . . إننا جئنا استجابة لطلب مولاي عبد الله والقائد منصور بن غانم حيث طلب من حاكم وهران إرسال بعض الرجال للتفاوض في أمر الجزائر.

أجابنا الشريف بأنه لا يزال عند فكرته وأنه يرغب في طرد العثمانيين من بقايا افريقيا ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الأمبراطور امداده بعشرة آلاف

(١) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة السعدية، ص ٨٣، ٨٤

مقاتل مسلحين بأسلحة نارية، وأنه (أي الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الأمبراطور بكل ما يلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات، ذلك لأن طرد العثمانيين انما هو عمل تستفيد منه ممالك الأمبراطور والمسيحية جمعاء. . . وطالت المذكرات كثيراً وأخيراً علمني القائد برشميدة بأن الشريف قد ادخر كثيراً من المال لمحاربة العثمانيين، وأنه يسعده أن يعين الأمبراطور على ذلك وأن الأمر مستعجل جداً. . . ».

« . . . جاء ذكر الجزائر ماذا نصنع بها بعد احتلالها، فكان من رأى الملك السعدي تحطيم هذه المدينة وإزالتها تماماً، أما أهلها فتؤخذ أموالهم، وإذا امتنعوا فيقتلوا ورفض الملك السعدي أن يؤخذوا عبيداً للمسيحيين، وذكر الوفد أن الأتراك أجانب عن البلاد وأنهم أعداء له فيجب معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم في حالة استسلامهم دون مقاومة. إلا أن الملك السعدي أوضح أنه لن يسمح أبداً بأن يصبح أي عربي عبداً، لأن هذا مخالف الشريعة »[1]

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدي على العثمانيين، الذي لم يتورع في الاستنجاد بالقوى المسيحية اسبانيا والبرتغال في سبيل تحقيق أهداف شخصية، حتى لو كان على حساب عقيدته الاسلامية، ومصالح المسلمين.

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك إلى الأمير فيليب ابن الأمبراطور شارل مشفوعة بخطاب هذا نصه « . . . يجب علينا أن نعتبر أنفسنا سعداء جداً في الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده للحصول على أسطول السلطان العثماني، حتى يهاجم ممتلكات جلالة الأمبراطور وكون أمير عربي يعرض علينا نفوذه في مهاجمة العثمانيين في

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٦١ ـ ٦٢.

الجزائر ومحاربتهم وابعادهم عن الأرض التي يحتلونها في أفريقيا وذلك فيما إذا قدمنا له اثني عشر ألف من المقاتلين الاسبان على حسابه، كذلك يتعهد الشريف السعدي في حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائي رهينة لديه، وأن يضع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة، وبما أن هذه الصفقة ستجر خيراً عظيماً على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد في قبول طلب الشريف وأرسل إليه ابني رهينة حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه بل أنني وجميع من حولي مستعدين لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيداً. . . » [1]

أطلع صالح ريس على تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والاسبان والتي كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر، لأنه طالما أن الدولة في الجزائر معناه خطر على اسبانيا، فبعث صالح ريس للباب العالي يخبره بشأن تلك المحادثات، فكان جواب السلطان سليمان سريعاً وحاسماً بوجوب مهاجمة وهران قبل أن تستمر المحادثات بين الجانبين السعدي والاسباني عن نتيجة عملية، فأرسل السلطان سليمان أربعين سفينة وعلى ظهرها ستة آلاف رجل إلى صالح رايس لمساعدته في الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير، ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعي من مختلف انحاء الدولة العثمانية هي التي تغذي الأوجاق، الذي كان تبعاً لذلك يتجدد على الدوام [2].

استعد صالح ريس لفتح وهران، وضم اسطوله إلى جانب أسطول السلطان وصار لديه نحو سبعين سفينة، واجتمع لديه من الجند ما يقارب من أربعين ألف جندي، وكان ينوي من اتمام زحفه هذا بالمسير إلى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات واخضاعها لسلطانه، ولكن القدر لم يمهله فتوفى

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.
(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٨١.

صالح ريس بالطاعون في شهر رجب ٩٣٦ هـ / الموافق ١٥٥٦ م عن عمر سبعين سنة [١].

وهكذا لم ستطع الدولة في تحقيق خطتها في استعادة الأندلس، من خلال وجود صالح ريس، الذي رأى تطهير الشمال الأفريقي من الوجود المسيحي أولاً، ثم الوصول إلى أقرب نقطة للعبور للأندلس لكن كان هناك الوجود السعدي الذي فضل التحالف مع اسبانيا والبرتغال ليكتمل حكمه على المغرب ثم الجزائر، وكان ذلك عائقاً لتقدم الدولة.

إن الدولة العثمانية سعت إلى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الاسلامية والوقوف بها صفاً واحداً ضد الهجمات المسيحية، ذلك أن استقراره في قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي، يعني حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية في اعتراض الطرق البحرية للبرتغال أو اسبانيا مع العالم الجديد والشرق، من هنا نرى أن نجاح الفكرة كان يعتمد أساساً على وصول العثمانيين إلى تلك السواحل ليشاركهم في ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت أمرة أمراء البحر العظام، أمثال خير الدين وعروج بربروسا وصالح رايس [٢].

قام القائد يحي بإكمال خطة صالح ريس فأبحر نحو وهران وفي الطريق وصلت الأوامر السلطانية بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلرباي، ووصلت الجيوش البرية والبحرية إلى وهران وحوصرت حصاراً شديداً، إلا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة وذلك بسبب النجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا إلى المدينة المحاصرة [٣].

(١) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ٣٤٣.
(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

انتهز الشريف السعدي محمد الشيخ فرصة عودة الأسطول العثماني إلى اسطنبول فأسرع بإرسال جيوشه نحو تلمسان، التي كان رجالها قد انضموا إلى صفوف المجاهدين في محاولتهم لاسترجاع وهران فدخلها الشريف السعدي على غفلة ووضع على رأسها القائد ابن غنام زعيم قبائل بني راشد، ووزير آخر ملوك الزيانين المحتمين باسبانيا، أما الحامية العثمانية الموجودة في تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود في وجه السعديين حتى احتوت ذلك الهجوم السعدي [١].

إن السعديين كانوا يرون في ضم تلمسان عاملاً قوياً في توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقي لصد كل تدخل عثماني في المغرب بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيماً لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب [٢]، باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس كما أن شواطىء المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والاسبان.

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين، عندما بعث السلطان سليمان القانوني برسالة إلى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من انتصارات ويعلمه بما كان عليه بنو مرين من الهدايا والرد والخدمة والميل إليه، وأن السلطان في نصرتهم وقد سبق وأن ظهر ذلك في آخر ملوك دولتهم أبي حسون، الذي زوده بأربعة آلاف جندي، كان ذلك في محاولة من السلطان لتكوين اتحاد اسلامي كبير يواجه به الأخطار الخارجية، غير أن ذلك قوبل بالرفض من قبل السلطان السعدي محمد الشيخ، الذي رد على مبعوث السلطان بقوله « سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان الغرب لا بد أن

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.
ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٥٠.
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ٣٤٥.

ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام »[1]، يظهر من خلال ذلك استياء محمد الشيخ الذي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما أظهر طموح محمد الشيخ الذي كان يحلم بإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

لقد كان اغتيال محمد الشيخ ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧ م من قبل حرسه الخاص، بداية تطور هام للأحداث المقبلة بالغرب، خاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، إذ لم يعد هناك مجال للشك في أن العثمانيين إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الأفريقي فحسب، بل ولأهميته الاستراتيجية كأقرب نقطة إلى بلاد اسبانيا والبرتغال[2].

أعاد السلطان العثماني حسن بن خير الدين إلى الجزائر للمرة الثانية وذلك بعد مصرع حسن قور ٩٦٤ هـ / ١٥٥٧ م بعد غيبة ناهزت أعوام قضاها في الجهاد في ميادين أخرى، واستبشر الناس خيراً، لما عرفوه عنه من سيرته وما كاد يستقر به المقام حتى أرجع إلى الادارة نظامها، وإلى الجيش انقياده ثم عزم على استئناف الجهاد، وانجاز مشروعين عظيمين، تطهير الشمال الأفريقي من الوجود المسيحي، والنزول إلى الأرض الأندلسية[3].

تجددت الثورات الانفصالية عن الامارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ في تارودانت، فقامت ثورة المولى عثمان في السوس بالجنوب من جمادي الأول ٩٦٥ هـ / فبراير ١٥٥٨ م، وثورة المولى عمر في دبدو بالمشرق في رجب ٩٦٥ هـ / ابريل ١٥٥٨ م، وثورة المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول ٩٦٦ هـ / ديسمبر ١٥٥٨ م، ثم كانت المذبحة الجديدة التي أنزلها

(١) مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية، ص٢٦ ـ ٢٧.
(٢) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة السعدية، ص٨٥.
(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٧١.
عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام جـ٣، ص ٩٠.

عبد الله الغالب بثلاث من أخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل، مما اضطر أخوته للهروب إلى تلمسان والجزائر فهرب المولى عمر والمولى عبد المؤمن وعبد الملك وأحمد المنصور، وذلك خوفاً من القتل [١].

قصد مولاي عبد الله الغالب إلى مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من قتلة أبيه، كما قضى على ثورة السوس التي نزعها المولى عثمان، ثم عاد سريعاً إلى فاس لاعداد قواته، لصد الحملة العسكرية التي يقودها حسن بن خير الدين والذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد [٢] وقامت بين الطرفين معركة على وادي اللبن بالقرب من فاس لم تسفر عن شيء إلا أن حسن بن خير الدين وصلته أنباء عن تحرك الاسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة، فذهب الجيش العثماني إلى مرفأ قصاصة في الشمال فركب سفنه وعاد للجزائر، بينما ذهب قائد تلمسان إلى حاميته استعداداً للحوادث المقبلة [٣].

كان دو الكوديت (De Al Coudet) حاكم وهران يدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الاسباني تهديداً خطيراً فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران، وكان دا الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر [٤] لذلك أعد قوة كبيرة تتكون من اثني عشر ألف مقاتل وخرج على رأسها فهاجم مدينة مستغانم، إلا أن محاولته باءت بالفشل إذ تكبدت القوات الاسبانية في ذو القعدة ٩٦٥ هـ / أغسطس ١٥٥٨ م خسائر فادحة وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى، ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فإن العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك في تواطؤ المولى عبد الله الغالب بالله مع الاسبان مما جعلهم يتخذون

(١) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٧.
(٢) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة السعدية، ص ٨٦
(٣) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٧٢.
(٤) أبي عبد الله السليماني : اللسان المعرب ص ٩٤.
محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص٤٤.

جانب الحيطة والحذر عند محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين، فعندما ثار المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول ٩٦٦ هـ / ديسمبر ١٥٥٨ م واستنجد بوالي الجزائر لم يمده بأية مساعدة عسكرية بل رحب به في بلاد الجزائر وزوجه بإحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان (١)

أراد حسن بن خير الدين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الاسباني في وهران وأخذ يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة إلى جانب الجيش العثماني، فجند عشرة آلاف رجل من زواوة (٢)، كما أنشأ قوة من العلوج ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضي وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلي آخر (عبد العزيز بن عباس) الذي أعلن استقلاله في المغرب (٣)، بذلك صار اسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة (٤).

عين حسن بن خير الدين في ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م بو يحي الرايس (الهراس AL Harraez) (٥) قائداً على بادس، فقام بتخريب الساحل الاسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في بادس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء في تقرير اسباني بقلم فرانسسكو دي ايبانير (Grncissco de Iborez) أن يحي يملك أربع سفن حربية الأولى

(١) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة السعدية، ص ٨٧
شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير، ص ٤٤ .
(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٧٧ .
(٣) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٤٥ .
(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، جـ ١ ، ص ٣١٩ .
(٥) بو يحي الرايس تركي الأصل، اشتغل بأعمال الجهاد البحري من أول. . / وصوله إلى الجزائر وفي عام ١٥٥٢ م أسر عند رأس جاتا (Cap de Gata) وأمضى سنتين ونصف في الأسر، إلى أن افتداه قبطان جنيوي، عاد بعدها إلى الجزائر وامتلك سفينة حربية (Galiote) نشط بها ضد سواحل الأندلس.

بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثماني مسلحين بالسهام والأقواس والمناجيق والسفينة الثانية يقودها قره مامي (Cara Mami) وعلى ظهرها ٨٠ جندي عثماني مسلحين بنفس الأسلحة والثالثة بقيادة مراد الرايس (Morato Arraez) بقوة ٧٠ جندي، والرابعة تحمل نفس العدد وبنفس الأسلحة، وبالاضافة إلى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان في حوزة بو يحي سفينتان في بادس ويقوم بصنع سفينة أخرى، ويتصل بنشاط سفن بادس سفن تطوان العرائش وسلا، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان، وفي سلا سفينتان من النوع الأخير، إلا أن السفن الأخيرة لم تتبع قيادة بويحي ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الاسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند ورفع تجار اشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الاسباني يشكون فيها الفظائع التي تركتها سفن بادس والسفن الاسلامية الأخرى ضد السفن الاسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية [١]، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بو يحي، فعم الخوف سكان الساحل الاسباني، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالباً ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يجازفون بالابتعاد كثيراً عن الشاطىء [٢].

تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية إلى مقاومة الهدف في المغرب والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من اسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم، والمحافظة على أحوال السلم معهم وقد دفعته سياسة المهادنة مع المسيحيين إلى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض الدول الأوروبية كفرنسا التي استقبل سفيرها وحمله إلى الأمير أنطونيو دي بربون (Antonie de Bourbon) رسالة يعبر فيها عن استعداد المغرب الاستجابة للمطالب الفرنسية، ثم عقد الأمير الفرنسي معاهدة في شوال ٩٦٦ هـ / يوليو ١٥٥٩ م مع المولى عبد الله الذي تنازل عن المرسى الصغير لفرنسا مقابل مده بالأسلحة

(١) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص !، لا، ظ، ٢١٩.

(٢) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة السعدية، ص ٩٠.

والعتاد الحربي، وإرسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب، بعد أن فقد ثقته بالحرس التركي الذي سبق وأن اغتال والده محمد الشيخ.

كانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتوكمبرسيس Cateu- Cambresis في ٢١ جمادى الأولى في سنة ٩٦٦ هـ ١٣ ابـريل ١٥٥٩ م مـع اسبانيـا والتي انهت الحرب الايطالية، أخذت تبحث عن أسلوب جديد يمكن الاعتماد عليه في حالة تجدد النزاع مع اسبانيا. خصوصاً وقد صار لفليب الثاني نفوذ قوي في أوروبا، لأن المعاهدة المذكورة دعمت نفوذ اسبانيا في ايطاليا والأراضي المنخفضة مما يهدد فرنسا، فأخذت في التقـرب من المغرب البلد الاسـلامي. ومما لا شـك فيه أن فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الإعتماد عليه، كما كانت ترى في ميناء القصر الصغير الاستراتيجي الذي لا يبعد إلا بضـع كيلومترات عن جبـل طارق منطقة هامة يمكن إتخاذها للهجوم على اسبانيا.

ولعل ذلك كان سبباً في عدم قيام الدولة العثمانية بمـوقف ايجابي تجـاه المعاهدة لأنها كانت تأمل في أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين، فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحـد في مسألـة الهجوم على اسبـانيا وإن اختلفت من الناحية العقائدية ففرنسا كانت ترغب في الهجوم على اسبـانيا من أجـل تحقيق نصر عسكري لتكـون سيدة المـوقف في غرب البحـر المتوسط، بينمـا الدولـة العثمانية تهد انقاذ المسلمين من الحكام الاسبان ثم استرداد الأراضي الاسلامية في الأندلس حول حسن بن خير الدين انظاره سنة ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩ م وتحرك بجيوشه نحو النواحي التابعة لأميـر قلعة بني عبـاس عبد العـزيز فـاستولى على المسيلة وحصنها وبنى برجاً وذلك لتثبيت الوجود العثماني هنالك، ووضع حامية بلغ عددها أربعمائة جندي، ثم غادر حسن بن خير الدين المسيلة متـوجهاً إلى بلاد حمزة من أنحاء بربـرة، عندهـا انقض أمير قلعـة بني عباس على الحصن العثماني ونشبت معارك بين الحامية العثمـانية لقي فيهـا الأمير عبـد العزيـز بن عباس صاحب القلعة حتفه وخلفه أحمد مقران الذي امتلك نواحي بلاد كـوكو فاعترف به حسن بن خير الدين [١].

(١) عبد الكريم كريم: تاريخ الدولة السعدية، ص ٨٧ ـ ٨٨

اشتدت حملة ازعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانىء تونس والجزائر وذلك بالإغارة على السفن المسيحية، كما بعثت تلك الموانىء ببعض القوات العسكرية البرية وجزء من الأسطول، لمساندة السلطان في حروبه في الشرق [١].

ترددت الأنباء في أنحاء أوروبا عن استعدادات الدولة العثمانية للقيام بحملة لسلب قوة اسبانيا وضرب تحالفها وصداقتها التي قامت بها في سواحل المغرب، وبالتالي يسيطرون على طرق الملاحة، وتتعرض اسبانيا ذاتها للخطر، أو تقوم القوات العثمانية بالهجوم على مالطة وصقلية ومكان آخر في ايطاليا [٢] قام الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا بالهجوم على جزيرة جربة في رمضان سنة ٩٦٧ هـ / مايو ١٥٦٠ م، ونجح الأسطول في تحقيق أهدافه ضد الاسبان [٣]، الذين لم يجدوا حرجاً من الاستنجاد بفرنسا [٤]، بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالي باشا ببعض الغارات في البحر المتوسط قبيل عودته لقسطنطنية، ولكن درغوث باشا الذي سبق وأن ضايقه الثوار في الداخل، أقنع بيالي باشا بالتوجه إلى طرابلس لمساعدته في القضاء على التمرد قرب تاجوراء، وقد وصل بيالي باشا إلى طرابلس وصول الفاتحين ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام والشارات التي غنمها من الأعداء بينما كانت أعلام الأعداء منكسة فوق سواري السفن وقام بيالي باشا بطرابلس أياماً قليلة كافية لمعاقبة سكان تاجوراء، ثم أقلع بأسطوله صوب عاصمته [٥].

صار بإمكان حسن بن خير الدين متابعة استعداداته لمهاجمة المغرب

(١) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، جـ ٣، ص ٩١.
Sir George Clark : Early Modern Europe P 48

(٢) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ٢٠٠ .

(٣) M A Cook : A History of the Ottoman Empire P 101

(٤) ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٣٨ .

(٥) اتوري روسي : ليبيا منذ الفتح العربي ، ص ١٩٠ ،

فشرع في تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل إليهما حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالانكشارية، الذين أحسوا بالخطر فقاموا في صيف ٩٦٩ هـ / ١٥٦١ م باعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيداً إلى اسطنبول ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التي دفعتهم إلى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوي القضاء على الأوجاق والاعتماد على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان أرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح أحمد باشا في اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم إلى اسطنبول [1].

إن قصر المدة التي تولاها حسن بن خير الدين في منصب بيلربك الجزائر وذلك بسبب استماع الباب العالي للوشايات التي تحاك ضده، وخوف السلطان العثماني من استقلال حسن بن خير الدين ثن الدولة العثمانية، وبذلك تتعطل خطةالدولة لاسترداد الأندلس، وكان هذا في الواقع عائقاً في تقدم الدولة العثمانية المباشر نحو الأندلس، علاوة على أن الحركة البحرية خلال فصل الشتاء كان لها سبباً في انقطاع الاتصال بين اسطنبول والقواعد المغيرة ذات المسافة البعيدة مثل الجزائر وربما كان للحملات التي يقوم بها المجاهدون ضد المسيحيين مفعول قوي، لكن أيضاً كان موسم الابحار قصير جداً، بالاضافة لمشاكل الاتصال والامدادات المعقدة، كل ذلك كانت عوائق تقلل من امكانية الاستيلاء على مراكز استراتيجية متقدمة وبعيدة، لتحقق منها الدولة العثمانية أهدافها في استرداد الأندلس وتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة اسلامية.

إن الأسطول العثماني قاسى من أفول نجمه جزئياً في أواخر حياة باوباروسا وبعد موته مباشرة، وذلك بسبب انتقال قيادة الأسطول ولأسباب

(١) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٤٦ .

ـيسيه إلى قواد الجيوش البريه مثل محمد صوقللي (Mehmet Sokullu) ثم
لسنان باشا (Kosa Sinan Pasha) والذي كان مجرد شقيق رستم كما تحددت
ملطة أمير البحر بسبب تعيين حكام مستقلين للجزائر وانحسار الدخل المالي
للأسطول والذي يتعين لأمير البحر الحصول عليهم في غاليبولي والاسكندرية
ـانتقلت القيادة الفعلية للأسطول في هذا الوقت لدرغوث باشا الذي أظهر نجاحاً
ـتمكن من الاحتفاظ على السيطرة العثمانية رغم كل المصاعب [١].

يتبين من خلال ذلك محاولة صالح ريس وحسن بن خير الدين في سترداد الأندلس، لكن ظهرت تلك المحاولات بعدم وضوحها نظراً لتحالف القوى المغربية مع المسيحيين، ويلاحظ أن محاولات خير الدين بربروسا تختلف تماماً عن تلك التي قام بها كل من صالح ريس وحسن بن خير الدين، وذلك لأن خير الدين تولى منصب قبودان باشا بجانب منصب بيلربك الجزائر، فظهرت محاولاته نظراً لصلاحياته الكبيرة أكثر وضوحاً ممن خلفه ولكن تصر الدولة العثمانية في تحقيق هدفها لاسترداد الأندلس، وتعود سياستها السابقة في تخصيص منصب قبودان باشا، لبيلربك الجزائر باعتباره أعلم القواد العثمانيين بالمنطقة وأكثرهم دراية بأبناء المنطقة، وهذا ما نلاحظه في الفقرة التالية عندما يتولى حسن بن خير الدين في ولايته الثالثة على الجزائر منصب قبودان باشا ويتبعه قلج علي.

١) . Stanford Show : History of the Ottoman Empire P. 105

أعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين إلى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة في أواخر سنة ٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م، معززاً بعشرة سفن حربية ومزوداً بقوات عسكرية مسلحة [١] قضى بعدها حسن بن خير الدين خمسة أشهر بعد عودته يهيء العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل ما بقي لاسبانيا ببلاد الجزائر [٢].

فبعث في نفس الوقت ملك البرتغال سباستيان الأول برسالة إلى سفيره في اسبانيا في ٢٥ رجب ٩٧٠ هـ / ٦ مارس ١٥٦٢ م، أندري دي منزس (Andre Tles de Meneses) يخبره بأن رسائل القادة البرتغاليين أفادت باستعدادات الشريف السعدي للخروج لحصار تطوان رداً على خروج سيدي حمو عن طاعته، كذلك أفاد القادة البرتغاليون بأن نوايا العثمانيين تتجه إلى التوسع في المغرب، وبناء قلعتين في القصر الصغير والمرسى (قرية جنوب غرب سبتة) حيث سيضعون فيها قوة من ٦٠٠ جندي عثماني مع سفنهم للسيطرة على طريق السفن الموصلة بين الشرق وبونانت (Ponant) مما يهدد إلى حد كبير المسيحية والملاحة في المضيق لا سيما على الطريق المؤدي إلى مملكة

(١) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٩٣ ،
(٢) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٧٩ .

الجرف (AL Garve) ومن الأفضل لنا ألا يملك العثمانيون مدخل الطريق إلى مملكة فاس، وألا يشيدوا هاتين القلعتين لأنهم منذ تواجدهم في الجزائر قد كلفوا المسيحية غالياً، وكلما سيطروا على أحد المضايق كان من الصعب اخراجهم منه، ومن جهة أخرى سيكون الخطر أعمق إذا ما اتحدوا مع الشريف، وهو أمر ممكن حدوثه لأنهم يعتنقون ديناً واحداً [1].

وحول استعدادات العثمانيين بقيادة حسن بن خير الدين لمهاجمة وهران، وصدى ذلك لدى الشريف السعدي، بعث حاكم طنجة البرتغالي برناردديم دي كارفالو (Bernard dim de Carvalho) إلى سكرتير الدولة بدرو دي الكاسوفا كارنيرو (B de A Carneiro) في ٢٩ جمادي الأول ٩٧٠ هـ / ٨ مارس ١٥٦٢ م، بأن الشريف السعدي يتجه إلى حصار مازكان بقوات عظيمة، لكن وصلت للشريف أخبار تفيد بأن العثمانيين غادروا الجزائر للهجوم على فاس أو وهران، فرجع الشريف عن حملته على مازكان لانقاذ الحاضرة المغربية، ودرء الهجوم العثماني المرتقب، ثم توصل الشريف السعدي بأخبار أخرى تفيد عن قيام العثمانيين على حصار وهران بالفعل، فكان أن اتجه الشريف من جديد لاستئناف حملته على مازكان كما بعث حاكم طنجة إلى سبستيان الأول في ٢١ رجب ٩٧٠ هـ / ٣١ مارس ١٥٦٢ م برسالة أخرى تفيد أن الشريف أجل حصار مازكان لاعتقاده بأن العثمانيين إذا ما فشلوا في الهجوم على وهران سيتجهون بقواتهم إلى فاس [2].

خرج حسن بن خير الدين في سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشاً كبيراً مؤلفاً من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية تحت أمرة أحمد مقران الزواوي، واثني عشر ألف رجل من زواوة وبني عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثماني إلى مدينة مستغانم التي اتخذها قاعدة للعمليات، وفي ٣ ابريل وصل

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٢١٢ .

(٢) براهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٢١١ .

حسن بن خير الدين بكامل قواته أمام مدينة وهران وضرب الحصار حولها، وكان الاسبان مستعدين لتلقي الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم [١]، بعد أن توالت النجدات الاسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها، منذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، وبينما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما اضطر حسن بن خير الدين إلى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التي اتخذت من مالطة مركزاً لتجمعها [٢] وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثاني كان قد وضع برنامجاً طموحاً للأسطول الاسباني، والبناء البحري في ترسانات ايطاليا وقطالونيا، كما وردت لخزانة اسبانيا إعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعية في جلسة غير عادية، وأقرت وجوب امداد اسبانيا بمعونات مالية، لتساندها في حربها مع العثمانيين، وما كانت ثمرة تلك المجهودات وإعادة التنظيم لهيكل اسبانيا هزيمة العثمانيين في وهران سنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م [٣].

بدأ فيليب الثاني يستعد لاحتلال جزيرة بادس (Penon de Vellez) فدعا بذلك النصر الذي حققه في وهران، توجه لذلك اسطولاً في نفس السنة ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة، اضطرت الأسطول إلى التراجع [٤] والجدير بالذكر أن جزيرة بادس كانت أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق، وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناءاً هاماً [٥]، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضي الاسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذ ما دفع الاسبانيين الهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة.

(١) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٧٩ .

(٢) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ٢١٣ .

(٣) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P . P . 96 - 97 .

(٤) محمد بن تاويت : تاخيخ سبتة ، ص ١٨٣ .

(٥) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة السعدية ، ص ٣٦ ،

كما كانت جزيرة بادس بالإضافة إلى ذلك مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدي الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثماني من تلك الجزيرة إلى . المغرب، فاتفق مع الاسبان أن يخلي لهم الادالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين، وينقطع أسطول العثمانيين في تلك الناحية [1]، مقابل الدفاع عن شواطىء المغرب إذ هاجمها الأسطول العثماني الذي علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع إلى الجزائر [2]، كما عزل بو يحي رايس من منصبه في بادس في أواخر ٩٧١ هـ / ١٥٦٣ م، وانصرف العثمانيون عن الحرب في غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الأسطول الحربي إلى جزيرة مالطة في الشرق [3].

كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة التي كانت أكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، والتي سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثماني أسطوله بقيادة بيالي باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربه، وحسن بن خير الدين باي لرباي الجزائر، أن يتوجها على رأس أسطوليهما الاسلاميين للمشاركة في عملية مالطة واخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل الاسلامية بعد ذلك فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل ووصل الأسطول الاسلامي أمام جزيرة مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقاً شديداً إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، برفقة أسطول تعداده ٢٨ سفينة حربية تحمل عدد كبير من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الأسطول الاسلامي من الانسحاب في ١٨ ربيع الأول ٩٧٣ هـ / ٨ سبتمبر ١٥٦٥ م [4].

(١) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ، ص ٨٩ ،

(٢) محمد بن عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب ، ص ١٧ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٤) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٨٣ .

اشتد مرض السلطان القانوني وتوفي في ٢٠ صفر ٩٧٤ هـ، الموافق ٥ سبتمبر سنة ١٥٦٦ م عن عمر يناهز أربع وسبعين سنة، وكانت مدة حكمه ثمان وأربعين سنة قضاها في إعلاء كلمة الاسلام والجهاد في سبيل الله [١] ونتساءل هنا ماذا كان يحدث أو يتحقق إذا امتدت حياة السلطان سليمان القانوني أو على الأقل وجد وريثاً قادراً على استمرار أعماله وانجازاته؟

توقف النشاط الحربي مؤقتاً، إذ كانت الدولة تعاني من مشكلة اقتصادية ذلك بسبب الزيادة الهائلة في الانفاق الحكومي خلال حكم سليمان القانوني إذ كانت الدولة تضم جهاز إداري ضخم، كما أحاطت بالسلطة بلاط فاخر بالاضافة إلى حملات السلطان سليمان القانوني السنوية في أوروبا وآسيا[٢] .

خلف السلطان سليمان القانوني ابنه السلطان سليم الثاني، الذي اسند منصب القائد العام للأسطول العثماني إلى حسن بن خير الدين فترك مملكة الجزائر متوجهاً إلى اسطنبول سنة ٩٧٥ هـ / ١٥٦٧ م[٣]، ومن هنا يتجدد إصرار الدولة العثمانية على استرداد الأندلس من خلال اسناد منصب قبودان دورياً إلى بيلربك الجزائر، العالم بشؤون اسبانيا، المقدر للموقف في الشمال الأفريقي إذ سبق أن اسندت الدولة ذلك المنصب إلى والده خير الدين بربروسا، وكانت تلك الهجمات على سواحل أوروبا عامة واسبانيا بصفة خاة، وها هي الدولة الآن ترغب في إعادة تلك الضربات على السواحل المسيحية من خلال تعيين حسن بن خير الدين أميراً للبحر، وكأن الدولة تريد إعادة بناء الأسطول لتسترد الأندلس.

تولى منصب بيلر باي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس، في ذي الحجة ٩٧٤ هـ / يونيو ١٥٦٧ م وصادف في تلك السنة انتشار

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٥١ .
(٢) Stanford Show : History of the Ottoman Impire P . 107 .
(٣) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٨٥ .

الأوبئة والمجاعة، صحبها تمرد الجند العثماني واضرب الشعب، فاضطر إلى صرف وقته في مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأت محمد بن صالح رايس ثورة عامل قسنطنية المتأثرة بولاة تونس الحفصيين فعزله البيلر باي وقضى على ثورته وولى على قسنطنية القائد رمضان بن تشولاق، وفي ربيع الأول سنة ٩٧٥ هـ / سبتمبر ١٥٦٧ م، هاجم الاسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم، ثم لم تطل ولاية محمد بن صالح رايس، إذ تعين نقله إلى ولاية أخرى في أنحاء الدولة العثمانية [١]

كان قلج علي المعروف لدى المؤرخين الغربيين باسم (Oechiali Lucciali) قد اعتنق الاسلام وأصله من كالابريا (Calabria) ومن مواليد كاستللي (Castelli) الواقعة قرب رأس الأعمدة (Capo delle Colonne) وكان قد أسره أحمد علي وهو أيضاً يوناني الأصل الحديثي عهد في الاسلام وكان من رؤساء البحر في الجزائر، فرمى بقلج إلى عمل المجداف، وكان قبيحاً ذميماً لذا لقب بالفرطاس، وقد عرف اسم قلج علي بين أعوان درغوث الذي أرسله إلى القسطنطينية للابلاغ بوصول المسيحيين إلى جربة وعاد مع الحملة العثمانية ضمن حاشية بيالي باشا، وكان له نصيب وافر في توجيه المعركة الحربية التي انتصر فيها العثمانيين، كما شارك قلج علي في حصار مالطة السابق [٢] .

تمرد أهل تاجوراء في عهد محمد باشا بعد استشهاد درغوث فحل قلج علي مكان محمد باشا، واستطاع قلج علي أن يشتت المتمردين ودخل تاجوراء، وأخضع جميع سكانها وفرض الضريبة عليهم، وتقديراً لما قام به قلج علي في اخماد ثورة أهالي تاجوراء فقد صدر الأمر السلطاني التالي « أخبرتنا بوصولك

(١) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٩٤ - ٩٥ .
(٢) اتوري روسي : ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ ، ص ١٩٦
عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٨٢ .

للولاية وأن البلدة المسماة تاجوراء كانت ثائرة في عهد أمير الأمراء السابق محمد بك وبعد وصولك لما وجدتم يعاندون في التمرد بالهجوم على عساكر المسلمين زحفت عليهم واستوليت بعناية الله على حصنهم، والزمتهم بالطاعة، لقد بعثت لك سيفاً وخلعتين ولتكن أفعالك مشكورة في حفظ وحراسة البلاد [١].

اسند منصب بيلربك الجزائر إلى قلج علي في ١٤ صفر سنة ٩٧٦ هـ / الموافق ١٨ اغسطس ١٥٦٨ م وعرف عنه بالعزم في تسيير الادارة والبطولة الحربية والشجاعة الأدبية [٢] وكان الباي لارباي الجديد قلج علي على معرفة تامة بالايالة إذ سبق أن ولى على تلمسان وقاد المقاومة الاسلامية فيها ضد الاسبان، وشغل فكره في انقاذ المسلمين في الأندلس، وتدعيم ثوراتهم ضد اضطهاد النصارى [٣].

اتخذ القلج على خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية هو إعادة الحكم الاسلامي في اسبانيا وتحرير المغرب العربي من لجيوب الصليبية فوجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره وصار من بعده مبعث قلق ورهبة للأوروبيين [٤]، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة [٥].

من المؤكد أن القلج علي قبل أن يقدم على مشروع استرداد الأندلس كان على علم تام بالجهود الجبارة التي بذلتها الدولة العثمانية إبان وجود خير الدين

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٨٢ .
(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٩٥ .
(٣) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٩٥ .
(٤) شارل اندري جوليان : تاريخ افريقيا الشالية ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ .
(٥) شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكبير ، ص ١٠٠ .
عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٩٥ - ٩٦ .

بربروسا وخلفائه في الجزائر للقضاء على الزحف الصليبي على شمال أفريقيا، كما كان يعلم مدى النجاح الـذي حققه في طـرد الاسبان من بعض قـواعدهم وتحطيم حصن بنيون في الجزائر وفي تشجيعه بل وفي اسهامه في انقـاذ آلاف المسلمين في اسبانيا من الافـلات من قبضة الحكـومة الاسبـانية واللجـوء إلى شمال أفريقيا (١).

صمم قلج علي على ضرورة تصفية القواعد الاسبانية في تونس، قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجـزيرة الايبيـرية (٢)، وذلـك لتعبئة الـدفاع عن طـرابلس والجزائر وكان الاسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكـاز وقاعـدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر (٣) لذلك لا بد من تأمينها.

كانت اسبانيا تواجه صعوبات داخلية من جراء ثورة المسلمين في غرناطة وثورة الأراضي المنخفضة وحـدث خلاف بين السلطان الحفصي ابي العبـاس أحمد ووزيره أبي الطيب الخضار، وأحس الـوزير بـالخطر فـاتصل بقلج علي يحرضه على احتلال تونس ويهون عليه أمرها ويتعهد له بتقديم العون (٤).

جهز بيلر بك الجزائر قلج علي جيشـاً مؤلفاً من نحـو سبعة آلاف مقـاتل وزحف به نحو تونس فقابـل سلطانها أبي العبـاس أحمد ببـاجة، ثم بعـد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصي وتقدم قلج علي بجموعه نحو تونس وأخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثاني ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيـدر باشـا وعاد إلى مقره بالجزائر (٥)، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الاسبان، وكانت قوات قلج

(١) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ٣ ، ص ٩٢٤ - ٩٢٥ .
(٢) جلال يحيى : المغرب الكبير ، ٨٤ .
(٣) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في شمال افريقيا ، ص ٨٤ .
(٤) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٤٩ .
(٥) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ٩٦ .

علي لا تكفي وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الاسباني، لذا فإنه كتب إلى اسطنبول يطلب مده بقوة تكفي لتحرير الموقع [1]، وكان اهتمام قلج علي بشرق الجزائر يأتي مخالفاً لاسلافه [2]، فكان يرى أنه لا بد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس، بعد أن يكون قد خفف من قوة الاسبان في الشمال الأفريقي.

كانت الأعمال البطولية البارعة للمجاهدين المسلمين في شمال أفريقيا، هيج المورسكوس وأثارت حفيظتهم على المسيحيين كما جعلتهم متململين، وزاد من توترهم محاصرة العثمانيين لمالطا، حيث كان الكثير من اللاجئين المورسكوس والذين كانوا بارزي الشأن في القوات العثمانية قد تذمروا من القسوة الاسبانية فأثار ذلك تمرد المسلمين في الأندلس على الحكومة الاسبانية [3] التي كانت تعاني من أزمة كبيرة في إدارتها واقتصادها نتيجة الهيجان العام في الداخل والحروب الخارجية، فسادت الأقاليم الاسبانية موجة من الظلم والارهاب والفظائع، فهذه الحالة المربكة وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمي اسبانيا في الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المتنصرين ظاهرياً، يتأهبون للانقضاض على الحكم الاسباني [4].

ساد اسبانيا ارهاصات ثورة المسلمين في غرناطة فشكل الملك الاسباني فيليب الثاني نوعاً جديداً من الميليشيات تقيم في كل مدينة من مدن اسبانيا لمواجهة الثورة بين المورسيكيين، الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم في الولاء لسيادة الأمير السعدي، كما تلقى المورسيكيون

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشالية، ص ٨٥ .
(٢) رجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ص ٢٤ .
(٣) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P . 128 .
(٤) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٢ .

على مساعدات عثمانية [1]، صار الموقف حرجاً بالنسبة لاسبانيا خاصة في غرناطة ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة في أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة، خاصة الشواطىء الجنوبية موقع الثوار.

تعرقل وصول المروسكيين لأسوار غرناطة في الموعد المحدد لذلك في ٥ رجب سنة ٩٧٦ هـ / ٢٥ ديسمبر سنة ١٥٦٨ م بسبب كثافة الثلوج المتراكمة في جبال نفاذا وكانوا قد أعلنوا بذلك كمقدمة للثورة، إلا أن زعيمهم أبو الفرج وصل إلى البيازين على رأس جماعة من المجاهدين يوقظ الناس، وينادي بأعلى صوته « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ورنين السلاح يتردد من المآذن ولكن النصارى عندما سمعوا ذلك، قرعوا أجراس الكنائس طلباً للنجدة، فرجع المجاهدين من حيث أتوا، ولكن مع ذلك شاع خبر الثورة بين الاسبان، فاستعدوا للأمر فجمعوا السلاح والجيش وأرسلوا الجواسيس في كل النواحي ليستطلعوا الخبر.

كان أهالي البوشارات يتشوقون بدورهم إلى اليوم الذي يعلنون فيه الثورة على المسيحيين ليتخلصوا من نير الاستعباد ونظروا إلى غرناطة التي يشرفون عليها بشوق وحنين، ومنوا أنفسهم بالعودة إليها لاقامة ملكهم الضائع لذلك أخذوا بعد فشلهم الشابق يتربصون الفرص لتحقيق رغبتهم والصول إليها.

بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية للمورسكيين وتحويلهم للمسيحية لجأوا إلى العنف فحرموا على المورسكوس التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين في الشمال الأفريقي وفي بعض اقاليم اسبانيا كما حرموا على النساء الخروج إى الشارع متحجبات وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك كانت من دواعي

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٧٩ ـ ٢٠٤ .

إثارة الحرب، وحرب البوشارات هذه هي أهم حـرب أو ثورة مسلحـة قام بهـا المسلمون بعد سقوط غرنـاطة كـانت هذه الحـرب في ١٥٦٨ م وتزعمهـا أحد الموريسيكوس المنتصر بالظاهر يدعى فرناندو دي فالور وسمي فيما بعد بمحمد بن أمية (٢).

بذل السلطان السعدي الغالب بالله الوعود لرسل ثوار البورشـارات وذلك بأن يناصرهم ويقدم جميع ما يحتاجونه في ثورتهم، لكن ظل الغالب بـالله في الواقع محافظاً على الروابط الودية التي تربطه مع فيليب الثاني، بل وذهب إلى أبعد من ذلك فقد عمل في الخفاء ضد المورسكيين (وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه ذرة من الايمان وأدنى مملكة من الاسلام وذلك أنه لما احتـوى عليهم النصـراني، وأخـذ جميـع أراضيهم وشملهـا سلطانـه، بقي المسلمون بضع سنين تحت الـذمة والـذلة فقهـروهم بكثرة المكس، فصـاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم يناشـدونهم الله في الاغاثـة وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله لأنه هو القريب إلى أراضيهم، وكان قد قوي سلطانه وصحت أركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشاً منهم بأن يقوموا مـع النصارى ليثق بهم في قولهم بظهرو فعلهم، فلما قامـوا على النصارى تـراخى عمـا وعدهم بـه من الاغاثـة وكذب عليهم عشـاً منه لهم ولـدين الله عز وجـل ومصلحة لملكه الزائل وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات، وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى الناحيـة المغرب وقصده بذلك تعمير سـواحله ويكون لهم بمـدينتي فاس ومـراكش جيش عظيم ينتفع به في صالح ملكه (٢).

تطورت الأحداث سريعاً في اسبانيا، وبلغ عدد المتمردين في أوائل سنة

(١) محمد قشتيليو : محنة المورسيكوس في اسبانيا ، ص ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ .
(٢) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

٩٧٦ هـ / ١٥٦٩ م أكثر من مائة وخمسين ألف مسلم، وصادف ذلك التمرد صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الاسبانية، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البا (Duke of Alba) في الأراضي المنخفضة وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين في الجزائر [١]

بعث محمد بن أمية أخاه عبد الله للجزائر مع هدايا من الرقيق بعد أن نظم رجاله بنظام عسكري دقيق [٢]، وكانت الجزائر هي الدولة الاسلامية الوحيدة والتي مدت يدها بالاعانة الفعلية للثائرين في الأندلس من رجال وأسلحة وعتاد، لأنها كانت جزء من الدولة العثمانية [٣] وتنفيذاً لهذا البرنامج عقد القلج علي اتفاقاً سرياً في مطلع سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م مع المسلمين المعتصمين بجبال البشارات تم الاتفاق بمقتضاه على أن يقوموا بثورة عارمة، في الوقت الذي تصل فيه القوات الاسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الاسباني [٤].

جمع قلج علي جيشاً عظيماً قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستين ألفاً من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد، وأرسلهم إلى مدينتي مستغانم ومازغران استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدداً كبيراً من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق.

وفي اليوم المتفق علي وصلت أربعون سفينة من الأسطول العثماني أمام مرسى المرية الاسباني، لشد آزر الثورة ساعة نشوبها لكن أخفق ذلك المخطط وذلك بسبب سوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين إذ انكشف أمره فداهمه

(١) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P . 128 .

(٢) محمد قشتيليو : محنة الموريسيكس في اسبانيا، ص ٤٤ .

(٣) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٤ .

(٤) عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج ٢، ص ٩٢٦ .

الاسبان، وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح[1] بعد أن نجح قلج علي في انزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الاسباني[2]، لم تقع الثورة في اليوم المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة المبادرة.

بعث قلج علي في شعبان سنة ٩٧٦ هـ / يناير سنة ١٥٦٩ م أسطول الجزائر لتأييد الثائرين في محاولتهم الأولى، وحاول انزال الجند العثماني في الأماكن المتفق عليها، لكن الاسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط فصدوا قلج علي عن النزول وكانت الثورة في عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية في البحر فالأسطول الجزائري صار يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب،إلا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من انزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدين[3].

تقدم في هذا الوقت القبطان خوان ماطيو فلوبر (J M de Fiorio) وهو مهندس اسباني تقدم بمشروعه إلى فيليب الثاني سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م يقضي بإغلاق مدخل بحر شيكا (المرسى الجديد Puerto Nuero) وبعد أن ترددت أخبار استعدادات اسطنبول والجزائر من جديد لتمويل الأسطول العثماني بكل ما يلزمه حتى يستعد مع قدوم الربيع التلي لنجدة الموريسكيين في غرناطة واقترح المهندس الاسباني المذكور في البداية تشييد القلعة عند مدخل الخليج، وحصن على الحدود مع المسلمين، إلا أن الحكومة الاسبانية لم تأخذ بهذا الاقتراح فبعث باقتراح آخر بسد مدخل الخليج وأن يكون ذلك في سرية تامة،

(١) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ ،
بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية ، ص ٥٨ .
(٢) عبد العزيز الشاوي : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج ٢ ، ص ٩٢٦ .
(٣) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٩٣ ،
بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية ، ص ٦٢ .

حتى لا يقوم المجاهدون بعمل يعوق تنفيذ المشروع، إلا أن السياسة الاسبانية رأت أن اغلاق الخليج المذكور لن يمنع العثمانيين من ن يفتحوه بدون صعوبة، وأنه من الأفضل تركه مفتوحاً مع اتخاذ الوسائل الحربية لتحصينه، كما كان الأمر أيام سيطرة العثمانيين عليه (١) من ذلك يتبين إدراك الاسبان لمقدرة الأسطول العثماني على اختراق الحواجز البحرية وأن اسطورة الأسطول الذي لا يقهر لا زالت سائدة لدى جميع الأوساط الأوروبية لذلك فإن التخوف من محاولة الدولة العثمانية لاسترداد الأندلس لا زال عالق في الأذهان.

لم يأبه قلج علي للكارثة التي أحلت بالدعم العسكري للثوار في شعبان ٩٧٦ هـ / يناير ١٥٦٩ م، وصمم على ارسال مدد جديد لمسلمي الأندلس وتمكن من انزال أربعة آلاف من المجاهدين من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين، للعمل في مراكز قيادة الثورة (٢) وعاد العثمانيون فأرسلوا دعماً جديداً غن الرجال والسلاح اعانة للثورة الأندلسية، فصدرت الأوامر إلى قلج علي بذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧ هـ / ٣١ مارس ١٥٧٠ « . . . عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الاسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار أصابهم الدمار غير جائرة . . » وكان قلج علي قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هنالك لكن ما شاع عن تجمع الأسطول الصليبي للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين وأمر السلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة جعله مضطراً للبقاء في الجزائر منتظراً للحوادث (٣).

وفي غمرة الثورة الأندلسية كانت خيوط المؤامرة تحاك ضد ابن أمية وكان المسؤولون عن تلك المؤامرة قد اتهموا محمد بن أمية بالتقاعس في حرب

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٢) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٤ .

(٣) دفتر الامور المهمة رقم ٩، صفحة ٧٧، حكم رقم ٢٠٤، ارشيف (Basrekalet)

الاسبان، فهاجم المتآمرين منزل ابن أمية وخنقوه وانتخب أحد المتآمرين مكان ابن أمية لتولي قيادة الثورة وهو دييغو لوبث (Diego Lopez) وأطلق عليه اسم مولاي عبد الله محمد بن عبو، ووافق على انتخابه قلج علي نائب السلطان في الجزائر وبعث لابن عبو بعض التعزيزات، ونجح الأخير في حملاته الحربية الأولى ضد الاسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه (Orjiba) (١)

أرسلت الحكومة الاسبانية أخاً للملك فيليب الثاني دون جوان النمساوي - وهو ابن غير شرعي - للأمبراطور شارل، وقد تولى فيما بعد قيادة الأسطول المسيحي - للقضاء على ثورة المسلمين، فباشر في قمعها سنوات ٩٧٧ - ٩٧٨ هـ / ١٥٦٩ - ١٥٧٠ م، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوادة، وانتهى الأمر بإذعان المورسيكيين، لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاي عبد الله أن أعاد الكرة، فاحتال الاسبان عليه، حتى قتلوه غيلة، ونصبوا رأسه منصوباً فوق أحد أبواب غرناطة زمناً طويلاً (٢) .

يتبين من خلال ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية بالحالة في الأندلس ومحاولة استعادتها والدخول مرة أخرى في ديار الاسلام، وتحقيقاً لذلك فقد أخذت الدولة تواظب في اسناد منصب قبودان دورياً إلى قواد لهم خبرتهم، وعلمهم في مجال البحر كما اسندت منصب بيلر باي الجزائر إلى قلج علي الذي كان له دور في المنطقة وفي الهجوم على السواحل الأندلسية وبالفعل حققت الدولة ما هدفت إليه ونجحت في انزال قواتها في الأراضي الاسبانية إلا أن انكشاف مخطط الثورة وتخاذل السلطان السعدي الذي كان له دور كبير في ذلك أفشل نجاح الخطة وتبقى مع ذلك محاولات الدولة في استرداد الأندلس

(١) محمد عبده حتاملة : التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد فيليب الثاني، ص ٦٧ - ٦٩ .
(٢) احمد مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٩٥ .

قائمة بعد ذلك، لكن هزيمتها في ليبانتو قد رفعت من معنويات الأوروبيين، وزالت المخاوف من الأسطول العثماني [1] ويزداد الخطر في البحار الجنوبية، مما يؤدي إلى توجيه اهتمام الدولة لتلك المناطق وهذا ما نلمسه من خلال الفصل التالي.

(١) د. محمد عبد اللطيف البحراوي: التاريخ المعاصر وعلاقة العضوية بالأزمة الحديثة. الدارة، العدد (٢)، السنة (١١)، ص ٨١.

الفصل السادس

الفصل السادس

« العوامل المضادة والتحولات »

أ ـ الصراع بين العثمانيين والصليبيين في البحار العربية .

ب ـ موقف الصفويين الشيعة في ايران .

ج ـ التجمع البحري الصليبي في البحر المتوسط ـ موقعة ليبانتو البحرية ٩٨٠ هـ / ١٥٧١ م .

د ـ انتهاء عصر بيلربك افريقية .

النيابات الثلاث : الجزائر ـ تونس ـ طرابلس.

هـ ـ الدفاع عن شبه الجزيرة العربية ـ تأمين مكة والمدينة .

سبق وان تحدثنا في الفصل الثاني عن وصول البرتغاليين الى المحيط الهندي وتحالفهم مع الحبشة ، وتهديد الحدود الجنوبية للعالم الاسلامي ومحاولتهم الوصول الى الاماكن المقدسة الاسلامية ، والآن نتابع الحديث عن صراع الدولة العثمانية مع البرتغاليين في البحار العربية ، وذلك بعد سقوط دولة المماليك سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ، وقيام العثمانيون بالامر .

كان ادراك العثمانيين للثروة المحيطة قد بدأ منذ تولي السلطان سليم الثاني مهام السلطة العثمانية ،الذي أخذ يهتم، بوقف التوسع البرتغالي في المحيط الهندي ، فخطط للقيام بعملية كبيرة ، بهدف مواجهة التوسع البرتغالي وساعده في تحقيق ذلك ان جاء الى الاستانة ومدن الشرق الاخرى عدد من السملمين الفارين الى الشرق بعد سقوط غرناطة ، وكان هؤلاء الفارون بدينهم على علم وثيق بكل التفاصيل التقنية للمشروعات الاطلسية والمشروعات القديمة لارتياد افريقيا [١]

كان العثمانيون يرون في فتح مصر تحقيقا لغرضهم في التشرف بحماية الاماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز وكذلك في انتقال خلافة المسلمين اليهم حتى تتوفر لهم الزعامة الروحية والسياسية اللازمتين لمواجهة الغرب

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٨٢ ، ٩٩ .

المسيحي ، فقد كان يوجد في القاهرة خليفة من نسل العباسيين ، وكان للغورى شأن عظيم في الحجاز ودخل كبير في تولية الاشراف [١] ، بدأ العثمانيون في توجههم الجديد نحو العالم العربي ، فضموا حلب ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م [٢] .

واتجه العثمانيون بعد حلب نحو مصر وحينما تم لهم ضمها اعلنوا انفسهم حماة للاماكن المقدسة الاسلامية فواجهوا في نفس الوقت تهديدا سياسيا خطيرا في البحر الاحمر ، وانهيارا تاما في تجارة الشرق التي قطع البرتغاليون اصولها ، ثم تهديدا مباشرا للاماكن المقدسة الاسلامية التي كانوا يعتبرون حمايتها شرفا كبيرا لهم ، ومصدرا اساسيا لقوة نفوذهم في العالم الاسلامي كله ، ومن ثم كان عليهم ان يحلوا محل المماليك فيما فشلوا فيه وان يبدأوا عملياتهم لتأمين البحر الاحمر [٣]

لم تتوقف تهديدات البرتغاليين للاماكن المقدسة الاسلامية بعد ان حل العثمانيون محل المماليك على الرغم من علم البرتغاليين بمدى قوة الدولة الجديدة في وقت كان فيه العثمانيون يهددون اوروبا بالفتح لهذا عاود البرتغاليون مرة اخرى محاولة تهديد الاماكن المقدسة الاسلامية ، فوصلت في ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م حملة برتغالية بقيادة لوبو سوارير (Lopo Soares)الى ميناء عدن ، ثم دخل الاسطول البرتغالي من باب المندب الى البحر الاحمر في صفر ٩٢٣ هـ / السابع عشر من مارس ١٥١٧ م ، ووصل الاسطول الى جدة ، الا ان العثمانيين استطاعوا ان يرغموا البرتغاليين على العودة ، وقد ساعدهم على ذلك تعرض الاسطول البرتغالي لرياح شديدة [٤]

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٧ .

(٢) Halil Inalcik : The Ottoman Empire P . 125 .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن، ص ٨٠ .

(٤) هشام محمد علي عجيمي : قلعة المويلح « دراسة معمارية حضارية » ، ص ٢٥ .
، نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج ، ١٦١ .
، سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي ، ص ٥١ .

رغب العثمانيون توطيد نفوذهم في الساحل الشرقي لافريقيا ، أرسل السلطان سليم في السنة نفسها قوة بقيادة سنان باشا ضمت سواكن على الساحل الغربي للبحر الاحمر والتي كانت تمتد اليها حدود مصر في العهد السابق ، وكان هدف السلطان سليم من ضم سواكن منع البرتغاليين من الاستيلاء عليها(١).

في الوقت الذي فشل فيه البرتغاليون في محاولتهم السابقة للاستيلاء على جدة ، وتهديدهم للاماكن المقدسة الاسلامية ، وبعد ما علم العثمانيون بخطورة الاتصالات التي كانت تجري بين الحبشة والبرتغال ، هذا فضلا عن ان العثمانيين كانوا يعتبرون انفسهم حماة للاماكن المقدسة ، وهو ما كان سائدا بين الشعوب الاسلامية ، لهذا لم يكن من الغريب ان يتمسك العثمانيون بذلك اللقب ، دليلا على خضوع الحجاز (٢).

عزل لوبو سواريز (Lopo Soares)في ذو الحجة ٩٢٤ هـ / ديسمبر عام ١٥١٨ م ، وخلفه ديجو لوبز دي سيكويرا (Diago Lopez de Sequira)في منصب نائب الملك في الهند ، الذي اخترق البحر الاحمر للمرة الثالثة فأتجه نحو مصوع في ربيع الاول ٩٢٦ هـ / فبراير سنة ١٥٢٠ م ، وكان معه السفير البرتغالي دي ليما (De Lima)الذي حل محل دون جالفان (Don Galvan)للاتصال بملك الحبشة المسيحي ، وقد انزله سيكويرا في اركيكو على بعد ميل واحد من مصوع ليقوم بمهمته (٣) ، ولم تلبث ان فشلت الحملة البرتغالية امام جدة نتيجة معاكسة الرياح لها ، وعلم البرتغاليون بمدى الاستعدادات العثمانية وحشدها للجيوش (٤) وبفشل تلك الحملة كان الخطر البرتغالي قد

(١) السيد رجب حراز : اريتيريا الحيثة ، ص ٢٧ .
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .
(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٨٠ .
(٤) نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج ، ص ١٦٢ .

خف تدريجياً عن الأماكن المقدسة الإسلامية بسبب اتجاه البرتغاليين الى تعزيز علاقاتهم مع الأحباش[1] في الوقت الذي بدأ فيه تدهور العلاقات بين الحبشة والسلطنات الاسلامية .

لم يشتبك العثمانيون خلال الفترة السابقة مع البرتغاليين في معركة فاصلة تحدد مصير تجارة المحيط الهندي وكان ذلك بسبب انشغال العثمانيين بجبهات متعددة ، ولا يدل هذا على تقاعس العثمانيين وانما للدور الكبير الذي كانوا يقومون به سواء في اوروبا او في آسيا ، فالسلطان سليم لم يتسع له الوقت للبقاء بمصر اثناء مقامه بها لدراسة احوالها ، ومن ثم التعرف على طبيعة الغزو البرتغالي عن كثب . وذلك بسبب انشغاله بالخطر الصفوي الذي كان يهدد شرق الاناضول ، اضافة الى ان الدولة العثمانية كانت دولة عملاقة تمتد من المجر الى بلاد الشام ، وكانت مسؤولية حكم هذه الشعوب المختلفة يدخل فيها الزود عنها بقتال القوى الاوروبية ، امر صعب [2]

رأت الدولة العثمانية اصرار البرتغاليين على اختراق البحر الاحمر وتهديد الاماكن المقدسة ، لذلك بدأت في تأسيس الاسطول المصري الجديد على يد الوالي العثماني خاير بك ، الذي امر بتشييد السفن في دار الصناعة ببولاق عام ٩٥٦ هـ / ١٥٢٠ م ، ثم عرض امامه ما انتجته من مراكب واغربه وباعتلاء السلطان سليمان عرش الحكم نهج العثمانيون طريقا جديدا في امر الثغور المصرية ، حيث تم ترتيب نظام خاص لادارة السواحل المصرية التي قسمت بين ثلاث قبودانات ، احدهم لثغر دمياط ، والثاني لثغر السويس ، والثالث لثغر الاسكندرية ، وصار مرجعهم المباشر السلطان العثماني نفسه[3] ، اذ تبين للدولة مدى اهمية الصراع مع البرتغال في البحار العربية ، وما ربط القبودانات

(١) عمر عبد العزيز عمر دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٩٦ .
(٢) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

الثلاث بالسلطان مباشرة ، الا دلالة على اهتمام الدولة بحماية الاماكن المقدسة الاسلامية ، وكذلك اهتمامها بمصالح المسلمين .

اهتم البرتغاليون بعدن ، بعد ان فشلوا في محاولتهم الوصول الى جدة ونظرا لمعاكسة الرياح من جهة ووجود الحشود العسكرية العثمانية من ناحية اخرى مما جعلهم يخشون مهاجمتها ، لهذا رأوا من الافضل لهم ان يسيطروا على عدن ، قبل ان تقع في قبضة العثمانيين[١]

كان حاكم عدن الامير مرجان قد اراد ان يقوي جانبه في هذا الوقت بالاتصال بالعثمانيين ، فأعد خطابا باسم السلطان عامر بن عبد الوهاب الظاهري ، الذي سبق وان قتل اثناء صراعه مع المماليك فوقع على الخطاب من قبل بعض الفقهاء والتجار في عدن يؤكدون ما جاء به ، ووجهة الى السلطان العثماني واشتكى فيه اعمال حسين الكردي وسلمان الرومي امام عدن ومن تصرفات بقايا المماليك في اليمن ، كما اوضح الاسباب التي دفعته لمساعدة البرتغاليون ومهادنتهم حتى لا يعرض عدن للخطر [٢]

من ناحية قامت عدة ثورات في مناطق مختلفة من الخليج ضد النفوذ البرتغالي ، فبعث نائب الملك في جوا بالهند دي منزيس (Dom duarte de Menaze)فور سماعه بانباء الثورة دوم جونكالو (Dom Goncalo)لتشجيع الحاميات في الخليج وحثها على الصمود ، لحين قدوم الاسطول البرتغالي بقيادة شقيقه دوم لويس دي منزيس (Dom Luis Menezes)لمساعدتهم ، وقد ابحر دي منريس بالفعل على رأس اسطوله من الهند في سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٢٢ م ، فزار مناطق الخليج المختلفة لتهدئة اوضاعها واستعادة نفوذ البرتغاليين المنهار ، وعقد اتفاقا مع حاكم هرمز الجديد يخول للبرتغاليين حق فرض

(١) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في لبحر الاحمر ، ص ٤٧ .
(٢) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في لبحر الاحمر ، ص ٤٧ .

سيطرتهم الكاملة على هرمز [١] ، رأى البرتغاليون ضرورة مواصلة حملاتهم البحرية سنويا الى البحر الاحمر ، لمهاجمة ميناء جدة ، ولكن دون جدوى فهاجموا ميناء الشحر في نفس السنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م ، ونهبوه ، وذلك اثناء توجههم الى ميناء مصوع لتنسيق التعاون بينهم وبين الاحباش[٢].

بدأ البرتغاليون بعد ذلك يحاولن تحقيق هدفين اولهم اعادة بعثة دي ليما الى جوا في الهند لمعرفة نتائج المباحثات في البلاط الحبشي ثم محاولة الاستيلاء على عدن ، ولتنفيذ ذلك خرجت حملة برتغالية ٩٣١ هـ / ١٥٢٤ م ، بقيادة دي سيلفرا (De Silveyra)الى البحر الاحمر ، وبلغ من قوتها ان قائدها تمكن من اجبار حاكم عدن الذي خلف مرجان الظاهري على عقد معاهدة مع البرتغاليين نصت على دفع عدن الجزية سنويا للبرتغاليين ، علاوة على فتح عدن مراسيها امام السفن البرتغالية ، الا ان نائب ملك البرتغال في الهند فاسكو دي جاما رفض ما جاء في المعاهدة ، على اعتبار ان البرتغاليين يجب ان تكون لهم السيطرة التامة على المراكز التجارية في سبيل نجاح مهمتهم الاقتصادية ، وبهذا لم تأت الحملة بشيء جديد ، اضافة الى فشلها في التقاط بعثة دي ليما[٣]
وقد ادى ذلك الى قيام حملة برتغالية في سنة ٩٣٢ هـ / ١٥٢٥ م ، بضرب عدن بالمدافع ، ولم تحقق اي هدف للبرتغاليين[٤] ، قامت ثورات جديدة سنة ٩٢٣ هـ / ١٥٢٦ م في قلهات ومسقط ضد تعسف البرتغاليين ، ولكنها اخمدت على يد لوبو فاز (Lopo Vaz de Sampaya)الذي اتجه هناك على رأس اسطول كبير[٥]

ابحر دي سيلفرا (Silveryra)مرة اخرى الى البحر الاحمر سنة ٩٣٢

(١) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي ، ص ٢٧ - ٢٨ .
(٢) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٤٧ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٦٩ - ٢٧٠ .
(٤) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٤٧ .
(٥) ارنولد ت . ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

هـ / ١٥٢٦ م ، حيث اجبر مصوع ودهلك على دفع الجزية ومن ثم اتجه الى ساحل الحبشة حيث تمكن من التقاط دي ليما (Delima)الذي كان في انتظارهم ومعه مبعوث ملك الحبشة الى البرتغال ، ومن هناك عاد ادراجه الى مدخل البحر الاحمر محاولا الاستيلاء على عدن ، الا ان الرياح ابعدته عنها وشتت سفنه ، فخرج متجها الى هرمز ، وبذلك نجح البرتغاليون في تنفيذ احد شقى عملياتهم الصليبية في البحر الاحمر ، والتي من اجلها كانوا يكثرون من ارسال حملاتهم وهي عودة بعثة دي ليما الى البرتغال[١]

نتيجة لتلك التحركات البرتغالية ، ارسل العثمانيون حملتهم الاولى سنة ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م الى جنوب البحر الاحمر والهند وتكونت من عشرين سفينة الا ان هذه الحملة لم تحقق الاهداف المرجوة في الهند ضد البرتغاليين الذين ازداد خطرهم بعد تحالفهم مع الصفويين ، بينما نجحت نسبيا في القضاء على بعض العناصر القوية في اليمن ، مما مهد السبيل امام العثمانيين فيما بعد للسيطرة على البلاد[٢]

طرأت تعديلات جديدة على السياسة البرتغالية مع بداية ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧ م ، وذلك بعد ان حددوا اهدافهم من الناحية الصليبية والاقتصادية ، فصارت حملاتهم فيما بعد وحتى قبيل تدخل العثمانيين والبرتغاليين في الصراع بين مسلمي الطراز والحبشة ، تتسم بطابع محاولة اثارة القوات العثمانية في موانىء البحر الاحمر ومحاولة الاحتكاك بها ، اضافة الى استمرار الهدف الاقتصادي الخاص بالاستيلاء على عدن وعلى سبيل المثال اعد نائب الملك في الهند لوبو فاز (Lopo Vaz Desampaya)عدته للذهاب الى البحر الاحمر لمهاجمة العثمانيين الذين قاموا بتحصين جزيرة كمران اثناء حملتهم السابقة ، غير ان احداث الهند حالت دون ذلك[٣]

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٧٠ .
(٢) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٥٠ ،
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٧٠ - ٢٧١ .

وهكذا مضت السنوات بداية من دخول العثمانيين القهرة ، وانتقال امر حماية الاراضي المقدسة اليها وحتى ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧ م ، ولم تقم الدولة بحركة ايجابية تجاه البرتغاليين وذلك بسبب انشغال الدولة في تركيز جهودها خلال تلك الفترة على القوى البرية التي حاولت سواء في آسيا ام في اوروبا بحروب واستعدادات بحرية وبرية واموال تصرف في سبيل اعداد الجيوش والعتاد اللازم للفتح او للدفاع ، خاصة في الجبهة الغربية للدولة .

نستطيع ان نقول مع ذلك ان الدولة العثمانية نجحت في حماية البحر الاحمر وتأمينه ، واضحت صاحبة الامر فيه ، وجلبت انظار الدول الاوروبية الى البحر نفسه وتحول الصراع الى جزء من المسألة الشرقية .

ابحر الادميرال انتوني دي ميرا (Antony de Mira)في اوائل ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م ، من جوا الى البحر الاحمر ، وحاول النزول في الشحر الا ان القوات العثمانية حالت دون تحقيق ذلك ، فاتجه الى مدخل البحر الاحمر حيث قابل اسطول برتغاليا لأخر بقيادة دي ماكدوا (Henry de Macedo)الذي اشتبك مع اسطول العثماني ، ولم تسفر المعركة عن نتيجة محددة ، الا ان دي ميرا (De Mira)واصل طريقه نحو داخل البحر الاحمر فدمر زيلع ومنها عاد الى مدخل البحر الاحمر وتجول مدة في خليج عدن ، ومنها عاد الى مسقط قضى بها فصل الشتاء وعاد مرة اخرى الى التجول في مدخل البحر الاحمر حيث قام باعتراض طريق بعض السفن العربية التجارية . (١)

اصدر البرتغاليون اوامرهم سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٢٩ م بترحيل المعارضين في الخليج خاصة في هرمز ، كما اعتقلوا ونفوا الكثير من كانوا يتوسمون فيه التمرد والانتفاض . (٢)

دخل الاسطول العثماني في عام ٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م الى الخليج وذلك

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .
(٢) سليم طه التكريتي :غ المقاومة العربية في الخليج ، ص ٤٩ .

كحركة مضادة للبرتغاليين ، فلم يقابل مقابلة ودية من حكام عمان[1] كما ان تافا ريز دي سوسا ، قام بتقديم مساعدات لأمير البصرة ، فأحرق تافريز مدينتين ثم تراجع الى هرمز ، وفي السنة نفسها ارسلت حملة الى البحرين لقمع الثورة التي قامت هناك ضد سلطة مركز هرمز ، ولكنها انتهت نهاية مدمرة للبرتغاليين بسبب عدم صلاحية معداتهم[2]

فضل البرتغاليون اخيرا عقد معاهدة جديدة مع حاكم عدن ، فقام دي سليفرا (De Silveyra) بغرض هذه المعاهدة في شهر رجب ٩٣٧ هـ / شهر فبراير سنة ١٥٣٠ م ، ونصت هذه المعاهدة على اعتراف عدن بسيادة البرتغاليين عليها وبدفع الجزية السنوية إليهم، وذلك مقابل اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة لسكان عدن شريطة عدم توجههم الى جدة ، وليضمن البرتغاليون تنفيذ المعاهدة ، تركوا في ميناء عدن احدى السفن وقوة قوامها اربعين برتغاليا ليشرفوا على الميناء وعلى ايراداته المالية ، وقد أثار ذلك سخط الاهالي والعلماء في البلاد[3]

كانت اليمن حينذاك تعج بالفتن والحروب ، وعاش في ظلها مصطفى بيرم اين اخت سلمان الريس قائد الحملة التي توجهت لليمن قبل سنتين ، والتي ارسلت من السويس لدفع اذى البرتغاليين وأخذ اليمن[4] ، وكان من جراء تلك الحروب والفتن اثرها الفعال في مصطفى بيرم ، الذي ادرك خطورة الموقف من المؤامرات التي يحيكها المماليك وخوفا من الانزلاق في هوة مشاكل اليمن وما يؤدي ذلك الى تبديد قوة الحملة وما بقى منها تحت قيادته في

(١) ستيفن هيملسن : اربعة قرون في تاريخ العراق ، ص ٥٨ .
، مديحة احمد درويش سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ص ٢٨ .
(٢) ارنولد . ت . ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢١٩ .
(٣) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .
(٤) قطب الدين محمد بن احمد النهروالي الملكي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

حروب على ارض اليمن قد تطول ولا تنتهي ، قرر مصطفى بيرم الخروج الى الهند لمساعدة سلطان كجرات ، ولمواجهة البرتغاليين هناك ، فأعد سفنه وخرج بما تبقى من الجند والسلاح ، وترك اليمن تحت امرة علي الرومي ، ثم اتجه الى الهند سنة ٩٣٦ هـ / ١٥٣٠ م ، واكرمه السلطان بهادر غاية الاكرام ، وفرح بقدومه عليه ولقبه (رومى خان) وعينه حاكما على ديو[١] .

ان الدولة العثمانية استطاعت بكل قوة واقتدار ان تفرض وجودها في البحر الاحمر ، على الرغم من مشاكلها في اوروبا وبطريقة مكنتها من التعرف على القوى السياسية سواء في البحر الاحمر او المحيط الهندي .

واكتفت الدولة العثمانية حتى هذا الوقت، بالاعتماد على القادة الذين اثبتوا للدولة امكانية الاعتماد عليهم في سبيل مواجهة البرتغاليين وخير مثال على ذلك مصطفى بيروم، الذي اتجه الى الهند وفضل مواجهة البرتغاليين عن بقاءه في اليمن.

ازداد الخطر البرتغالي في هذا الوقت على البحر الأحمر، لذلك قام ابراهيم باشا اثناء اقامته في مصر، باحياء ترسانة المماليك القديمة في السويس، وجعل للبحر الاحمر قيادة بحرية منفصلة تمولها الرسوم الجمركية المصرية، والتي خصص معظمها لهذا الغرض، وصار الاسطول العثماني في البحر الاحمر جاهزا للعمل في سنة ٩٣٧ هـ/ ١٥٣٠ م[٢]، الا أن الدولة العثمانية لم تخرج ذلك الاسطول لتواجه به الخطر البرتغالي، وفضلت نقل ميدان الجهاد ضد البرتغاليين قرب أراضيهم في غرب اوروبا، حتى تبعد الخطر البرتغالي عن منطقة الأماكن المقدسة، لتنعم بنعمة الامن والامان، وليؤدي المسلمون شعائرهم الدينية، وزيارة الاماكن المقدسة في هدوء وطمأنينة، وهذا ما كانت تهدف اليه الدولة دائما في سياستها، وقد مر بنا في الفصل السابق، الصفحة

(١) قطب الدين محمد بن احمد : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ـ ٥٣ ـ ٥٥ .
(٢) Stanford Show : History Ottoman Empire P . 100 .

المجيدة لذلك الجهاد، ولعلنا نلمس ذلك الاثر من خلال ندرة الهجوم البرتغالي على البحر الاحمر.

تجددت مشاكل الدولة مع اعدائها في الجبهة الشرقية للصفويين سنة ٩٤١ هـ/١٥٣٤ م، اذ استنجد والي بغداد الفارسي، بالسلطان العثماني ضد الشاه الفارسي الذي خلعه من منصبه، فاندفعت الجيوش العثمانية واستولت على مدينة تبريز عاصمة الشاه[١] واستمرت الدولة في تقدمها حتى وصلت الى الخليج العربي، لتصبح في مواجهة البرتغاليين من ناحية الخليج، ومع ذلك ابقت الدولة على قاعدتها الاساسية في السويس لتكون منطلقا لحملاتهم الموجهة للبرتغاليين، الذين ارادوا من البحر الاحمر ان يكون مجالا حيويا لاهدافهم الدينية والاقتصادية، كما ان السطان العثماني اراد ان تكون قاعدة الاسطول العثماني في السويس، حتى يبتعد عن الصفويين الذين لم يترددوا لحظة في التحالف مع البرتغاليين في سبيل الوقوف امام الدولة العثمانية، وسنلاحظ ذلك بالتفصيل في الفقرة التالية.

تلقى السلطان العثماني سليمان القانوني نداء استغاثة من الحاكم المسلم لكوجرات الواقعة في غرب الهند، يطلب فيها المساعدة من العثمانيين ضد البرتغاليين والمغول احفاد (تيمور لنك) بقيادة بابر (babur) والذين يتحركون تجاه الغرب؛ يهددوا المسلمين هناك[٢]، فاستجاب لذلك النداء السلطان سليمان، وبعث بتعليماته بهذا الخصوص الى واليه في مصر سليمان باشا الخادم، وقد جاء في تلك التعليمات ما يلي: «. . . عليك بابك البكوات بمصر سليمان باشا ان تقوم فور تسلمك اوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجاتك واعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله حتى اذا تهيأ لك اعداد اسطول وتزويده بالعتاد والميرةوالذخيرة وجمع جيش كاف، فعليك ان تخرج الى الهند وتستولي

(١) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، ص ٥٨ .

(٢) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P . 100 .

وتحافظ على تلك الأجزاء، فانك اذا قطعت الطريق، وحاصرت السبيل المؤدية الى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون، وأزلت رايتهم من البحر. . . »[1].

تنفيذا لتلك التعليمات، بدأ سليمان باشا العمل في بناء الاسطول الجديد في نفس السنة التي وصلت فيها استغاثة حاكم كوجرات ٩٤٤ هـ/١٥٣٧ م، وسخر في خدمة بناء الاسطول البحارة والبنادقة المتواجدين في الاسكندرية واكتمل بناء ذلك الاسطول في ربيع السنة التالية[2] على الرغم من الصعوبات التي وجدها العثمانيون في تجهيز ذلك الأسطول نظرا لبعد البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي عن مراكز الاساطيل العثمانية الكبرى في البحر المتوسط[3].

وصل الى مصر باشا الخادم ليتسلم مهام سليمان باشا، الذي اقترب موعد مغادرته البلاد، وخرج سليمان بأسطوله من السويس، فوصل جدة بعد سبعة ايام، فهال ذلك اهل جدة، واضطربت لخشيته البلاد، غير ان سليمان باشا ضبط العسكر وصعد الى سفينته مبعوثو الشريف الذي كان حينئذ بجدة، والبسوهم الخلع والتشاريف[4]، ثم توجه للهند.

استغل سليمان باشا اثناء مروره بعدن واليمن المنازعات القائمة بين الاسر الحاكمة المحلية في الاستيلاء على المناطق الساحلية، فوفر للدولة العثمانية قواعد هامة ومتقدمة للدفاع عن منطقة البحر الاحمر ضد الغزو المسيحي[3]،

(١) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) M . A . Cook : A History of the Ottoman Empire P . 90 .

(٣) نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ١٦٨ .
النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني، ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٤) Stqnford Show : History of the Ottoman Empire P . 100 .

لذلك قام بتحصين عدن، وعين عليها برام بك سنجقا، ورتب لديه جنودا، ووضع مع الحامية عددا من المدافع والمكاحل[1]، وبذا حلت هذه المدينة الاستراتيجية منذ هذا الوقت فصاعدا محل جدة بالحجاز كخط دفاعي امامي ضد البرتغاليين وقاعدة بحرية متقدمة لمهاجمة المحطات والمراكز البرتغالية في الخليج العربي والمحيط الهندي، ولو ان ذلك لم يمنع البرتغاليين من التوغل في البحر الاحمر فيما بعد[2].

سمع البرتغاليون بأنباء حملة العثمانيين قبل خروجها من عدن، فصدرت التعليمات من القيادة البرتغالية في الهند بأن على كل سفينة برتغالية تدخل موزمبيق في افريقيا الشرقية عليها ان تمضي الى ديو وتترك بعض رجالها لحماية القلعة التي سبق وأن شيدها دي كونها والتي حصنت تحصينا قويا وزودت بست سفن مسلحة لمقاومة هذا الغزو المرتقب[3]، وكان البرتغاليون يقدرون المكانة الاستراتيجية لقلعة ديو[4] عن بقية المناطق في جاوا وملقا وسيلان، لأنهم يعلمون أنه اذا سقطت ديو، فان ذلك يؤدي الى ازدياد وحدة المسلمين في الهند، وبالتالي يتعاونوا مع العثمانيين، الذين سيقدمون الاسلحة والعتاد بدورهم لسكن تلك المناطق، وهذا يؤدي الى ثورة الاهالي ويساعد على المقاومة، ذلك ان مسلمي الهند على استعداد للتعاون والتضحية حتى وجدوا المساعدة اللازمة وخاصة الاسلحة المتطورة، والمفقودة لديهم والتي كان نقصها سببا في استقرار البرتغاليين، وقد لاحظنا ذلك في الفصل الثاني، لذلك فانه ليس من المستغرب ان يواجه العثمانيون مقاومة عنيفة في ديو.

كان حاكم كوجرات، الذي طلب مساعدة العثمانيين، قد حل مكانه احد

(١) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ٨٠ ـ ٨١ .
(٢) السيد رجب حراز : اريتريا الحديثة ، ص ٢٩ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٤٨ .
(٤) قلعة ديو حصينة جدا تحيط بها مياه البحر من ثلاثة جوانب ، ويحدها من ناحية البر سور عظيم واشجار عالية .

أبنائه[١] الذي رفض تقديم المساعدة للقوات العثمانية التي وصلت الى قلعة ديو، وذلك خشية ان يكون العثمانيون قد قدموا لاقامة حكمهم على بلاده وليس لمساعدته[٢] لذلك اقام حاكم كوجرات في واقع الأمر حاميات من القوات البرتغالية بالدفاع عن القلعة لمنع العثمانيين من الرسو فيها[٣]، ونظرا لابتعاد سليمان باشا عن قاعدة اسطوله، وخوفا من نقص المؤن والامدادات، والتي قد تنشأ عن الحصار الطويل، بالاضافة الى احتمال قطع الاسطول البرتغالي طريق الرجعة، تخلى سليمان باشا عن مشروعه الجزئي، وانسحب الى اليمن، حيث اقر النظام العثماني في زبيد[٤] وكان اقرار الامور في اليمن شيئا ضروريا لتحقيق الزعامة الاسلامية، وخاصة لقيام علاقات قوية بين الأشراف، في الحجاز وبين أئمة اليمن وسلاطينها، بالاضافة الى تأمين الحدود الجنوبية للحجاز[٥]، والتي حرص سليمان باشا على احكام السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر حتى يمنع تسرب اية سفينة برتغالية عبر مضيق باب المندب، لذلك اهتم بتحصين جزيرة كمران، وقام باخضاع ميناء جيزان اثناء عودته الى جدة ووضعه تحت اشراف زبيد[٦].

ادى التحالف بين البرتغال والحبشة الى زيادة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر فنجاح البرتغاليين في ايجاد حلف في هذا الجزء كان يعني تطويق العالم العربي من ناحية الجنوب، كما كان يعني تهديد الحرمين الشريفين تهديدا مباشرا[٧]، ولما كانت سياسة العثمانيين بالنسبة للحبشة ترمي الى حصار

(١) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 100

(٢) Haill halil Inalcik : The Ottoman Empire P . 126 .

(٣) Stanford Show : History of the Ottman Empire P . 100 .

(٤) M . A . Cood : A History of the Ottoman Empire P . 90 .

(٥) بيل رضوان : الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية ، ص ١٣ .

(٦) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٥٧ .

(٧) عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٩٦ .

الاحبـاش، وقوى العثمـانيون مـراكزهم على السـاحل الغـربي للبحر الاحمـر واضعين في كل مركز حاكم عثماني ومعه قـوة حربيـة، كان ذلـك في وقت لم يعرف الاحباش فيه سوى السهم والقوس، واشعلها المسلمون حربا شعواء على الاحباش حتى سقطت معظم مدنهم وسبوا منها وقتلوا اعدادا لا تحصى، وهرب ملك الحبشة وأتباعه، وشردوا داخـل الهضبة، وكـانت السنوات السـابقة ٩٤٧ هـ/١٥٤٠ م مليئة بالمصـائب المتتابعـة والهزائم السـاحقة لـلاحباش، ومنيت الحبشة بانقسـام ديني مذهبي[١]، عنـدما حـاول ملك الحبشة ادخـال الكنيسة الـحبشية تحت تشريع الكنيسة في روما، اضافة الى تعيينه يوحنا برمودز (gean Prmudez) بطريركا للحبشة[٢]، الذي بعثه الملك في سفارة الى بلاط بلاده في البرتغال طالبا نجدة الملك البرتغالي، فكلف يوحنا ملك البرتغال نائبه في الهند بارسال نجدة عسكرية الى الحبشة، ولكن توفي الملك الحبشي قبل ان تصـل النجـدة، كان هـذا في وقت قضى المسلمـون فيـه على بـلاده، وازداد النفـوذ العثماني ثباتا وقوة، خصوصا بعد تحصين كمران وفتـح عدن وزبيـد، وأخذت اعداد وفيرة من الأحبـاش تتحول لـلاسلام[٣]، كمـا طالبت بعض المشيخـات الاسلامية على ساحل افريقيا الشـرقي مثل هـرر وزيلع ومصوع بـالدخـول في حماية الدولة العثمانية واستجابت الدولة لتلك الرغبة واتخذت من الحجاز مركزا للاشراف على شؤون المشيخات، لذلك عرفت سنجقية جدة بصنجقية الحبش أو ولاية الحبش[٤].

يعتبر طلب الحبشة النجدة من البرتغال حدثا هاما وجريئا للبرتغاليين وذلك في انقاذ الحبشة من المسلمين لتظل في معسكر المسيحية لا تخرج عنه[٥]، وكان

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٥ .
(٢) زاهر رياض : الاسلام في اثيوبيا ، ص ٢١٩ .
(٣) محمد عبد اللطيف البحرواي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٦ .
(٤) فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٥٣ .
(٥) باذل دافدسن : افريقيا تحت اضواء جديدة ، ص ٢٨٧ .

ذلك هدفهم منذ زمن ليس بالقصر، لذلك وصلت النجدة العسكرية البرتغالية بقيادة ستيفن دي جاما (steph de Gama) نائب الملك البرتغالي في الهند، وقد حددت أهداف تلك الحملة وذلك بتوصيل المساعدات اللازمة للحبشة، والقضاء على الاسطول العثماني في السويس، وازالة السفن المتخلفة من حملة سليمان باشا عن طريق الهند التجاري، والتي اخذت في تهديد السفن البرتغالية.

وصلت الحملة البرتغالية الى مدخل البحر الاحمر، فرسا في أول الأمر في مصوع، ثم اتجه الى سواكن، فاستقبله حاكمها خوفا من ان يدمر ستيفن دي جاما بلاده[١]، ويبدو هنا عدم تسرع دي جاما في انزال المساعدة للحبشة اذ رغب في القضاء على المراكز العثمانية والمنتشرة على معظم سواحل الحبشة ثم يتجه الى شمال البحر الاحمر حيث ميناء السويس.

اتجه بعد ذلك دي جاما الى ميناء السويس حيث قام بغارة جريئة على الميناء، وذلك لتحطيم الاسطول العثماني الرابض في مياهه، الا أن هذه الغارة باءت بالفشل رغم وصول السفن البرتغالية الى الطور، وذلك بفضل تحذير امير سواكن للعثمانيين الذين اخذوا حيطتهم، مما جعل البرتغاليين ينتقمون منه باحراق سواكن، وتخريب خزانات المياه بها، على امل ان يؤدي ذلك الى اضمحلال هذه المدينة التجارية المزدهرة التي كانت في حوزة العثمانيين[٢] وهكذا قدر لتلك الحملة البرتغالية بالفشل رغم ضخامة الاستعدادات.

اثر الوجود العثماني في المياه الشرقية في التطورات والاحداث التي جرت في شرقي افريقيا، فقد شجع ذلك على شن الهجوم على البرتغاليين، الذين سيطروا على موانىء، سواكن ومصوع وزيلع؛ خاصة وان البرتغاليين كانوا يسعون بتحالفهم مع الحبشة الى تعزيز وجودهم العسكري والتجاري في البحر

(١) نوال حمزة صيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج ، ص ١٦٣ .
(٢) السيد رجب حراز : ارتيريا الحديثة ، ص ٢٩ .

الاحمر وضمان استمرار تجارة اوروبا مع الشرق عبر طريق رأس الرجاء الصالح، كما قامت عدة محاولات في الاعوام ٩٤٩ ـ ٩٥٠ هـ/١٥٤٢ ـ ١٥٤٣ م، لغزو الحبشة على ايدي امراء ساحل شرقي افريقيا المسلمين، الذين استعانوا بالعثمانيين لطرد البرتغاليين[١].

لم يكن يعني ان امتلاك الحبشة بالنسبة للعثمانيين امر ضروري للغاية وانما هو أمر مرغوب فيه حتى لا تتيح الفرصة للبرتغاليين التمركز هناك، ثم تهدد الاماكن المقدسة في مكة والمدينة، لذلك ركزت الدولة العثمانية بعد ذلك دائرة اهتماماتها في جعل البحار العربية الجنوبية نظيفة عن طريق حملات بحرية اتخذت من عدن قاعدة لانطلاقها، ففي ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م أبحرت اربع سفن عثمانية باتجاه البحار العربية الجنوبية حيث رست في مسقط، وشرعت في قصف القلعة البرتغالية، فأحدثت رعبا وفوضى، وحاول الجنود النزول الى الشواطىء الا أن محاولاتهم تلك باءت بالفشل مما اضطرهم العودة الى عدن[٢]، الا أن العثمانيين تدخلوا بعد ذلك في منطقة الخليج واستولوا على البصرة في ذو القعدة سنة ٩٥٣ هـ/ديسمبر ١٥٤٦ م[٣]، والتي سبق وان اعترفت بالسيادة العثمانية منذ سبع سنوات، كان خلالها الحكام العرب البدو قائمين بالحكم وعندما خضعت للسيطرة العثمانية المباشرة، تم بناء اسطول اسلامي في الخليج وكان رد فعل حكام الخليج ازاء التوسع العثماني هو التعاون مع البرتغاليين الذين اقاموا قلعتهم وحاميتهم الخاصة عند مسقط وهرمز ونزلوا في القطيف بهدف فرض حصار على البصرة للحيلولة دون تطورها لأن تكون قاعدة بحرية عثمانية[٤].

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .
(٢) غسان علي رمال) : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٣٣٩ .
(٣) فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ، ص ٤٣ .
(٤) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P . 107 .

تعرض العثمانيون في منطقة اليمن لهزة عنيفة كادت تـذهب بهم، ففي اليمن الاعلى شن الامام شرف الدين وابناؤه هجـوما على العثمـانيين في ٩٥٤ هـ/١٥٤٧ م، اما عدن فقـد هاجمهـا علي بن سليمان البـدوي، وانتهز مـرور اسطول برتغالي بقيادة دي بايو دي نورنها (d. Payo de Noronha) امام عدن، فتحالف مع القائد البرتغالي في نوفمبر ١٥٤٧ م، وعلى ان يقف اسطوله امـام عدن لحمايتها من البحر حتى يتفرغ علي بن سليمان لقتال العثمانيين في البـر وبعقد هذه المعاهدة اعلن البرتغاليون وقوع عدن في ايديهم مما احدث مـوجة جزع شديدة على جانبي البحر الاحمر وخاصة في مصر[١] جهز داود باشا نائب مصـر حملة قويـة عززت بقـوة اخرى من بنـدر المخا، وهـاجم الجميع عـدن وتمكنوا من استرجاعها في ٩٥٥ هـ/١٥٤٨ م بعد مقتل قائد الانقلاب علي بن سليمان البدوي[٢].

صار الاسطول العثماني في البحر الاحمـر قوة ضـاربة، عنـدما اسنـدت قيادته الى بيري ريس أعظم أبطال البحرية العثمانية، والذي سبق وأن بـرز في عهد بايزيد الثاني باعتباره مجاهدا في البحر المتوسط، ثم عاون سليم في فتح مصر وقد جاء ذلك التعيين عندما انفصل لقب امير البحر للاسطول في المحيط الهندي، وامير البحر على اسطول مصر عن حكم جنوب اليمن فوجه بيري ريس حمـلاته السنـوية الى المحيط الهنـدي[٣]، مما أكسب الاسـطول العثماني في البحار الجنوبية هيبة وقوة كادت أن توقف البرتغـاليين في ارسال حمـلاتهم الى داخل البحر الاحمر والاهتمام بالمراكز البحرية والتي تؤمن طريق تجارتهم.

ركـز البرتغـاليون بـداية من العقـد السادس من القـرن السـادس عشـر، حمـلاتهم في محاولـة شن غارات تخـريبية على مـوانىء البحر الاحمـر، وفي

(١) محمد عبد اللطيف البحرواي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٥٨ .
(٢) النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ١٠١ .
محمد عبد اللطيف البحرواي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٥٨ .
(٣) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P . 107

الوقت نفسه انزال بعثاتهم الكاثوليكية الى الاراضي الحبشية، ففي عام ١٥٥٠ م ارسل نائب ملك الهند في جوا حملة الى البحر الاحمر من خمس سفن حربية بقيادة لويس فايقيرا (louis Figueyra) الذي ما ان وصل على السواحل الحبشية حتى اعترضته الدوريات العثمانية، واجبرته على الفرار دون تحقيق غرضه[1]، نتيجة لذلك عينت الدولة العثمانية حاكما على مصوع وآخر على سواكن مرتبطين بالوالي العثماني على الحجاز، كما استعانوا بأحد الزعماء الوطنيين وهو نائب «آركيكو» (arikiko) للمعاونة في أعمال الحكومة بمصوع، واستعانوا ايضا بآخر مثله في سواكن[2].

وجدت البابوية في فشل البرتغاليين السابق فرصة لاعطاء المجال لجمعيات الجزويت في محاولة لتعيين احد رجال الدين في روما اسقفا على الكنيسة الحبشية ولكن ملك البرتغال يوحنا الثالث لم يشأ ان يتسرع في ارسال بعثات الجزويت الى الحبشة الا بعد التأكد من ان ذلك أمر مرغوب فيه لدى ملك الحبشة والذي سبق وأن قاوم ربط كنيسته بكنيسة البرتغال[3].

ارسل البابا جوليوس الثالث وملك البرتغال بعثة الى ملك الحبشة برئاسة جونكالي روديجوز (gan Calo Rodrigues) وكان الغرض منها ان يتحولِ الملك الحبشي إلى المذهب الكاثوليكي، وأن يسمح لجمعيات الجزويت بالتبشير في الحبشة.

كان وصول هذه البعثة الى الحبشة نذيرا بموقف انقلاب تام في الموقف وبدأ التحالف بين الحبشة والبرتغال وشيكا على الدخول في مرحلة عملية اكثر ايجابية، وكذلك محاولات روما تحويل الاحباش الى المذهب الكاثوليكي، يضاف الى ذلك حدوث توازن في الموقف الحربي بين الحبشة والمسلمين في

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٣٠١ .
(٢) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ، ص ٥٤ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٣٠١ .

عادل، لكل ذلك اضطر العثمانيون الى اتخاذ اجراءات في هذا الميدان حاسمة واسعة النطاق، فنزلت قواتهم في مصوع وأركيكو وأخذوا يتقدمون بقيادة أزدمر باشا الذي وصل من مصر بقوة اضافية.

منيت الحبشة بانقسام ديني وبحري وبحروب اهلية، وغرقت البلاد في مناقشات دينية عقيمة أيد فيها البعض كنيسة روما بينما البعض أيد كنيسة الاسكندرية، وانضم الملك الحبشي الى الفريق الثاني، وطلب من المبشرين البرتغاليين مغادرة البلاد، ومنعهم من نشر عقيدتهم، وأعلن اسحاق حاكم دباروا (dabarwa) العصيان وحارب جيش الحبشة وأعلن تأييده للكنيسة في روما، وانضم اليه البرتغاليون المطرودون، ثم تقرب من العثمانيين بقيادة أزدمر، وعقد تحالفا معهم، وفي وسط هذا النزاع تمكن العثمانيون من توسيع الرقعة التي تحت أيديهم[1]، وفي الوقت نفسه أقاموا بعض التحصينات العسكرية في باروا، حيث وصلتهم امدادات عسكرية وبذلك نجح العثمانيون في جعل الاقليم قاعدة عسكرية للانطلاق منها.

كان من المتوقع ان تستمر القوات العثمانية في زحفها نحو وسط الهضبة الحبشية، الا أن شيئا من ذلك لم يتم، اذ تراجعت القوات العثمانية نحو مراكزها على السواحل الحبشية بسبب تفشي الحمى بين افراد القوات العثمانية، لذلك تمكن الاحباش من استغلال تلك العوامل، وقاموا بهجوم مضاد على القوات العثمانية المنهكة، وأحاطوا باقليم دباروا من جميع الجهات ولم تستطع القوات المتبقية تحمل الحصار حيث سقطت دباروا، وانسحبت القوات العثمانية بعدما فقدت معظم قواتها، كان ذلك في الوقت الذي تجري فيه المعارك، نشب صراع علني وعنيف بين ملك الحبشة جلاوديوس، ومندوب نائب الملك في الهند، الذي أعد وثيقة أوضح فيها اخطاء الكنيسة الحبشية، ومن ثم القى خطابا نصح فيه الاحباش بترك مذهبهم والثورة ضد جلاوديوس الذي رد على ذلك

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

بوثيقة مسماها شهادة العقيدة وفيها اصرار بأنه لم يخضع لكنيسة روما[١].

اخذ العثمانيون يظهرون نشاطا متزايدا في منطقة الخليج، وفي منتصف القرن السادس عشر، مما ادى الى قيام صراع علني ما بينهم وبين البرتغاليين، وفي ٩٥٧ هـ/١٥٥٠ طرد أهالي القطيف حاكمهم، واستنجدوا بالعثمانيين في البصرة لحمايتها من البرتغاليين، فاحتل مراد بك القطيف[٢] وكان العثمانيون هدفهم ان يتجاوزوا مياه دجلة والفرات والسير جنوبا للسيطرة على هذا الخليج، ليكونوا خط دفاع شرقي عن الاماكن المقدسة والذي يعتبر من صلب سياسة الدولة.

أغضب ذلك التصرف من قبل أهالي القطيف ملك هرمز الذي لديه قوة قوامها ٣٠٠٠ رجل تحت تصرفه، دفعا البرتغاليين لمساعدته، ووعدهم مقابل ذلك ضمانا الامتيازات الاخرى، السماح لهم ببناء قلعة في ميناء البصرة[٣]، ولما كان التقدم العثماني في الخليج الفارسي مبعث قلق للبرتغاليين، لذلك فان نائب الملك في الهند كلف انطون دي نورنها (antoine de Noronha) بالتوجه ومعه قوة من الف ومائتي رجل على ظهر عشرين سفينة لأخذ القطيف[٤].

أرسلت الدولة العثمانية نتية لذلك حمية بقيادة بيري ريس عن طريق البحر الاحمر ثم عدن، للانتقام من البرتغاليين واجراءاتهم في القطيف والبصرة.

أبحر بيري ريس من السويس، ومعه ستة عشر ألف رجل على ظهر ثلاثين سفينة حتى وصل عدن وتزود هناك بما يحتاج اليه، ثم ابحر حتى وصل مسقط، وكان يقوم على حساستها اسطول برتغالي بقيادة جوا دي لزبوا (joao de

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر، ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .
(٢) ستيفن عيملسن : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص ٥٨ .
(٣) السير ارنولد . . ويلسون : الخليج العربي، ص ٢٢٠ .
(٤) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن، ١٦٢ .

(Lisboa هزمه بيري بعد أن قام بقذف المدينة عدة ايام، ثم أمر بيري ريس بنقل جميع المدافع الى سفنه، وبعد ان تم له ذلك مضى نحو هرمز، وفرض عليها الحصار.

سمع بيري ريس بقرب اسطول برتغالي، كما هبت عاصفة قوية شتت الجزء الأكبر من اسطوله الى المياه العمانية في اتجاه البصرة، فما كان من بيري الا أن رفع الحصار، وابحر من الخليج الفارسي بثلاث سفن للعودة الى مصر، تاركا هرمز التي كان الاستيلاء عليها يشكل أهمية قصوى لحماية الخليج من البرتغاليين، فهي بالنسبة للخليج قريبنة عدن بالنسبة للبحر الاحمر(١).

اشتغلت الدولة العثمانية بعد ذلك في انقاذ بقايا اسطول بيري ريس فعهد السلطان العثماني الى مراد بك بذلك، وكلفه بالتوجه الى الخليج، وترك ولاية مصر مؤقتا، وكان مراد بك سنجقا على القطيف، فذهب مراد بك الى البصرة يحدوه الامل في اتمام هذه المهمة في اقرب وقت، لينعم بالعودة الى مصر.

وصل مراد الى البصرة، وابحر بالاسطول حتى جزيرة هرمز، واشتبك مع اسطول برتغالي في رمضان ٩٦١ هـ/اغسطس عام ١٥٥٣ م، ولقي هزيمة كبيرة، وفقد جزء من اسطوله ثم مر بما تبقى امام صور وقلهات، وهناك قابله اسطول برتغالي اخر بقيادة دي نورونها (de Noronha) واضطره للعودة من حيث اتى واسرع مراد بك الى البصرة ثم الى القسطنطينية(٢).

أصرت الدولة العثمانية على تحقيق اهدافها في البحار الجنوبية فبعد وفاة بيري ريس، عينت الدولة بطلا آخر من ابطالها المجاهدين في ١ محرم سنة

(١) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٣٤ ،
محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٦٤ ،
السير ارنولد . ت . ويلسون : الخليج العربي ، ٢٢٠ .
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٦٦ ،
بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج ، ص ٢٦ .

٩٦١ هـ/٧ ديسمبر ١٥٥٣ م، فعينت سيدي على ريس حسين قبطانا لاسطول البحر الاحمر، مع تكليفه بمهمة اخرى جديدة وهي استعادة السيادة العثمانية على الخليج زاعاد سيدي على ريس بناء ميناء البصرة كما شيد اسطول جديد[١].

أبحر سيدي علي ريس ميناء البصرة بأسطوله المكون من خمس عشرة سفينة وتجاوز رأس مسندام (musandim) وهناك هاجمه اسطول برتغالي من عشرين سفينة في شوال ٩٦٢ هـ/اغسطس عام ١٥٥٤ م، ولكنه تمكن من الافلات منه؛ الا انه لم يلبث ان هوجم مرة اخرى من اسطول برتغالي من اربع وثلاثين سفينة، ثم هبت عاصفة قذفت باسطوله قرب ديووسرات، واضطر للاختباء في ميناء دماو (damoo) وشعر سيدي علي بعدم مقدرته على مهاجمة البرتغاليين، فسافر الى استانبول[٢].

تجددت الاشتباكات بين البرتغاليين والعثمانيين بالقرب من مسقط في عام ٩٦٥ هـ/١٥٥٧ م، فكسبها البرتغاليون، وجددوا سيطرتهم على الخليج[٣].

لم تستسلم الدولة العثمانية لذلك الوضع، فحاولت بعد ٩٦٧ هـ/١٥٥٩ م، في انزال بعض جنودها في البحرين، والتي كان يحكمها يومئذ شيخ تابع لملك هرمز، الذي ساعد الشيخ المحلي، كما قدم البرتغاليون نفس المساعدة له فاستسلم الجنود العثمانيين، وغادروا البحرين[٤].

ظل الخليج مغلقا أمام الدولة العثمانية بعد ذلك من الناحية الجنوبية، وانتهت آمال العثمانيين في السيطرة التامة عليه، كما سبق وأن ضاع املهم في

(١) Stanford Show : A History of the Ottoman Empire P . 107 .
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٦٨ ،
محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ، ص ٢٣٣ .
(٣) قدري فلعجي : الخليج العربي ، ص ٣٧٤ .
(٤) ستيفن هيلمسن : اربعة قرون من تاريخ العراق ، ص ٥٩ .

الهنـد، لكن السيطرة العثمـانيـة على البحـر الاحمـر، التي ازدادت قـوة بعـد الاستيلاء والتحكم على موانىء البحر الاحمر.

استمرت الدولة العثمانية تتسلم التوابـل مباشـرة من جزر الهنـد الشرقيـة والهند، على الرغم من المصاعب التي تتعرض لها في بعض الاحيان، فكـان هنـاك تبادل نشط للبضـائع الهنـدية مـع التجـار الاوروبيين في اسـواق حلب، والقاهرة واستانبول وبروسه.

يتضح من خلال ذلك مدى قوة الصراع الذي شهدته البحار العـربية بين العثمانيين والصليبيين، اذ تمكن العثمانيون من وقف التوسـع البرتغـالي وتأمين البلدان الاسلامية وخاصة في البحر الاحمر من عدوان البرتغـاليين الا أنهم لم يتمكنوا من تحطيم السيطرة البرتغالية في المحيط الهندي، وكان ذلـك الصراع سببا في انشغال الدولة عن مشروع استعادة الاندلس.

تحدثنا في الفصل الثاني عن هزيمة أوزون حسن في ايران عام ٨٧٦ هـ/١٤٧١ م على يد السلطان محمد الفاتح الذي استطاع قمع حركة قبائل الخراف البيضاء والخراف السوداء التي كانت بقيادة اوزون حسن، والذي امتد نفوذه في غرب ايران وشرق الاناضول، ثم مساعدة اوزون حسن للصفويين ضد العثمانيين وكيف كانت قوة الصفويين في الشرق قوة مضادة للدولة العثمانية، أعاقت تقدم الدولة في الغرب.

وكان اسماعيل الصفوي وهو من سلسل اسرة من مشايخ أردابيل (ardabil) ومن أقرباء اوزون حسن قام بانتزاع السلطة من اكونيلوس (akkoyunlus) في شرق الاناضول سنة ٩٠٦ هـ/١٥٠٠ م، ثم امتد نفوذه من ازربيجان وايران[١] فضم اليه املاك قبيلتي الخراف البيضاء والسوداء[٢] وكان اسماعيل يرمي من وراء توحيد اجزاء ايران خلق دولة شيعية موحدة، فاستولى بعد ذلك على تبريز وجعلها عاصمة له، ثم اتخذ التشيع مذهبا رسميا لدولته، ليوطد هذا المذهب بعد ذلك في المناطق المجاورة[٣].

(١) Halil Inalcik : The Ottoman Empire P . 32 .

(٢) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص ٣٢ .

(٣) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ١٠٥ .

فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز، ص ٢٦ .

قام اسماعيل نظرا لكونه زعيم جماعة دينية، بتوسيع نفوذه على جميع اتراك الاناضول، وقام مساعدوه وممثلوه بنشر دعوته، في كل انحاء الاناضول وحتى روميليا، وتبع اسماعيل آلاف من الرعايا العثمانيين وصار الزعيم الديني والسياسي لمعظم الاتراك[1] في تلك الانحاء.

تطلع اسماعيل الى المناطق التي من حوله كمجال لدعوته؛ وكان لا بد للعراق من ان يجذب انظاره فهو مجال التوسع في الغرب، كما ان ظروف العراق السياسية، وما أحاط بها من اضطراب كان مشجعا للتوسع الصوفي، والعراق الى جانب هذا مجال اقتصادي، ففي الجزيرة الفراتية، ارض زراعية جيدة والعراق مركز تجاري هام لأنه يطل على الخليج الفارسي، غير ان للعراق أهمية خاصة بالنسبة للصفويين، فالعراق مركز الشيعة وبه الكثير من تراث الشيعة مثل مقابر ائمتهم وهي التي يطلق عليها المزارات[2].

فتح اسماعيل الصفوي العراق في شتاء ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م، بالاضافة الى معظم الأجزاء الغربية من ايران، وبدأ في ذبح المسلمين السنيين على نطاق واسع كما دمر مساجدهم ومقابرهم، وكان رد فعل السلطان بايزيد، مطالبته بوقف تلك الممارسات المخالفة للدين، اذ بعث بايزيد عدة رسائل الى اسماعيل املا في اقناعه بالعودة الى جادة الطريق[3].

اتبع اسماعيل الصفوي بعد ان استقرت الأوضاع في العراق، سياسة بسط المذهب الشيعي وهي السياسة التي كان يطبقها في ايران، واعتمد في ذلك على بقايا الشيعة هناك[4].

ان النجاح الذي احرزه الصفويون في تأسيس دولتهم وتوسيع ممتلكاتهم

(١) Halil Inalcik : The Ottoman Empire P . P . 32 .

(٢) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العابي ، ص ١٠٥ .

(٣) Stanford Show : History of the Ottoman Impire P . 78 .

(٤) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٠٦

على هذا النحو، جاء مواكبا لنجاح البرتغاليين في اسقاط مملكة هرمز ووراثة ممتلكاتها المترامية في انحاء الخليج، الا ان الصفويين لم يعمدوا الى الاصطدام بالبرتغاليين واحباط مخططاتهم قبل ان يستفحل خطرها، ولعل السبب في ذلك يعود الى أن الصفويين عندما اخضعوا العراق سنة ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م، صاروا على حدود متاخمة للدولة العثمانية السنية، ومن ثم اتجهوا بانظارهم الى نشر المذهب الشيعي هنالك[1]، خاصة بعد أن قضى كل من العثمانيين والصفويين على الامارات التركمانية الصغيرة التي نشأت كنتيجة لانهيار دولة أوزون حسن ولم تكن هذه الحدود مضبوطة بحيث تمنع الاشتباك بين الدولتين، كما كان يسكنها عناصر مختلفة من اكراد وتركمان وعرب وترك.. وهؤلاء كانوا يتأرجحون في ولائهم للدولتين فكانت مشاكل الحدود من العوامل التي لا بد من أن تؤدي الى قيام الحرب بينهما[2].

أعلن اسماعيل الصفوي على الملأ مثل تيمور وأوزون حسن قبله بأنه سوف يجعل الاناضول جزء من دولته الايرانية، وعمل العثمانيون الذين يواجهون الاخطار في الشرق، على انهاء الحرب مع البندقية ثم بحث اسماعيل امر التحالف مع البندقية بطلب خاص للحصول على المدفعية وبعض الاسلحة النارية المتطورة، ومع ذلك كان موقف السلطان بايزيد استرضائيا تجاه اسماعيل[3].

لم يكن يعني ذلك الموقف من قبل السلطان بايزيد، التخوف من قوة الصفويين، بل كان اهتمام الدولة العثمانية موجه نحو الجبهة الغربية ومن هذا المنطلق لم يعر العثمانيون اهتمامهم بالخطر الصفوي، في البداية واتبع بايزيد سياسة السلم السابقة.

(١) بدر الدين عباس الخصوصي : دراسات في تاريخ الخليج ، ص ٢٢ .
(٢) محمد انيس : الدولة العثمانية والرق العربي ، ص ١٠٦ .
(٣) Halil Inalcik : The Ottoman Empire P . 32 .

ازداد الخطر الشيعي ضراوة في السنوات الاخيرة من عهد السلطان بايزيد فثارت قبائل القزلباش (kizil Bas) في سنة ٩١٧ هـ/١٥١١ م، وفي مرتفعات الاناضول الغربية، حيث كان الامراء العثمانيون في صراع على العرش وزحفت تلك القبائل وبمساندة وتشجيع من اسماعيل الصفوي، على بروسه يحرقون ويدمرون كل شيء في طريقهم(١).

ان تقدم الصفويين نحو الغرب من ايران لم يعد من الممكن تجاهله وباتت الامارات الكردية والقبائل التركية في جبال طوروس الصغرى، والاقليات المسيحية في ارمينيا كلها من ممتلكات الشاه بحسب ادعاء الصفويين فأعلن ساسة استانبول ان ايران قد خرقت الحدود العثمانية بضمها العراق وكردستان وأرمينيا زيادة على ذلك أنها آوت اخيرا الفارين من السلاطين العثمانيين وصارت ملجأ لهم(٢).

قام السلطان سليم ٩١٨ ـ ٩٢٧ هـ/١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م، بتأمين نفسه على العرش وذلك بابعاد اخوته المنافسين له(٣)، وكان هذا السلطان الشاب لديه طموحات تناسب معرفته للعالم، فوجه نضاله للمالك ليصل لنصر نهائي، فتعامل اولا مع الشيعة، فسجن وأعدم عددا كبيرا من انصار الشاه اسماعيل في الاناضول ثم قام بمهاجمة اسماعيل نفسه، فتداولت الرسائل الخشنة بينهما حسب المعتاد(٤)، وكتب السلطان سليم رسالة الى اسماعيل الصفوي قال فيها: «... ان علمائنا ورجال القانون قد حكموا عليك بالقصاص يا اسماعيل، بصفتك مرتدا، وأوجبوا على كل مسلم حقيقي ان يدافع عن دينه، وأن يحطم الهرطقة في شخصك، أنت وأتباعك البلهاء، ولكن قبل ان تبدأ الحرب معكم،

(١) Halil Inalcik : The Ottoman Empire P . 32 .
(٢) ستيفن هيملسن : اربعة قرون في تاريخ العراق ، ص ٣٣ .
(٣) Roger Locky : Haburg — Bourbon Europe P . 23 .
(٤) ستيفن هيلمسن : اربعة قرون في تاريخ العراق ، ص ٣٣ .
Halil Inalcik : The Ottoman Empire P . 33 .

فاننا ندعوكم لحظيرة الدين الصحيح قبل ان نشهر سيوفنا وزيادة على ذلك فانه يجب علي ان تتخلى عن الاقاليم التي اغتصبتها منا اغتصابا، ونحن سنكون حينئذ على استعداد لتأمين سلامتك. . »، وكان رد اسماعيل على هذا الخطاب ان بعث للسلطان العثماني هدية من الافيون قائلا انه اعتقد ان هذا الخطاب كتب تحت تأثير المخدر.

كذلك جاء في خطاب آخر مشابه «أنا زعيم وسلطان آل عثمان، أنا سيد فرسان هذا الزمان، أنا الجامع بين شجاعة وبأس افريدون الحائز لعز الاسكندر، والمتصف بعدل كسرى، أنا كاسر الاصنام ومبيد اعداء الاسلام انا خوف الظالمين وفزع الجبارين المتكبرين، أنا الذي تذل امامه الملوك المتصفون بالكبرة والجبروت، وتتحطم لدى قوتي صوالج العزة والعظموت، أنا الملك الهام السلطان سليم خان بن السلطان الأعظم مراد خان، أتنازل بتوجيه اليك ايها الامير اسماعيل، يا زعيم الجنود الفارسية. ولما كنت مسلما من خاصة المسلمين وسلطانا لجماعة المؤمنين السنيين الموحدين. . واذ قد افتى العلماء والفقهاء الذين بين ظهرانينا بوجوب قتلك ومقاتلة قومك فقد حق علينا ان ننشط لحربك ونخلص الناس من شرك[١]، في هذا الوقت وصل حكم الصفويين الى الجنوب والغرب من بحر قزوين، الذين سبق وان قبلوا بالسيطرة العثمانية على الشرق الاوسط[٢].

كان من المحتم على السلطان سليم القضاء على الصفويين، وذلك حتى يؤمن ظهره، ليتقدم بعد ذلك في شرق ووسط اوروبا، بالاضافة الى ذلك ان اسماعيل الصفوي خصم عنيد، ودولته التي انشأها ما زالت في طور الشباب فعندما وجد اسماعيل نفسه الوريث الوحيد للامبراطورية التيمورية، وعندما نجح في توحيدها تحت لوائه لا بد وأنه قد احس بقيمة النجاح الذي حققه، ومما لا

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١١٣ .

(٢) Roger Lockyer : Habsburg - Bourbon Europe P . 23

شك فيه ان السلطان سليم قد وضع في اعتباره الا يقع في الخطأ الذي وقع فيه السلطان بايزيد الاول من قبل، ونتج عنه غزو تيمور لنك الدولة العثمانية، لذلك صمم سليم على غزو فارس وتحطيم قوة الصفويين[1].

يعتبر فصل الشتاء فترة استعداد بالنسبة للعثمانيين وكذلك الحال بالنسبة للفرس، وكانت الدولة تحشد كل امكانياتها في هذا الفصل من العام ولم يكن احد يعلم الى أين سيتجه السلطان، فاذا اتى الشتاء التالي ذهبت كل هذه المجهودات سدى، او كادت ووقفت العوامل الطبيعية حاجزا دون التقدم[2] ففي جمادى الثاني ٩٢٠ هـ/اواسط اغسطس ١٥١٤ م قرر السلطان سليم الزحف على تبريز لارغام الشاه اسماعيل على خوض القتال دفاعا عن عاصمته، وكان اسماعيل يفضل التراجع لولا ضغط قبائل الفزلباش (kizilbas) التي غضبت لذلك، حتى لا يتهمهم العثمانيون بالجبن، وطالبت اسماعيل بخوض غمار القتال واخيرا انصاع اسماعيل لرغبتهم ووقعت الموقعة الفاصلة في سهول جالديران في منتصف ارزنجان وتبريز في ١٠ رجب ٩٢٠ هـ/٢٣ اغسطس ١٥١٤ م وانتصر السلطان سليم بفضل اسلحته المتطورة[3]، ودخل العاصمة تبريز، ونجا الشاه اسماعيل الصفوي من الاسر، واكتفى السلطان سليم بهذا النصر، وعاد الى بلاده بعد أن استولى على كردستان وديار بكر، ومرعش وأبلستين وباقي املاك دلفاود[4]، وبذلك صارت الاناضول مأمونة من الاعتداء من الشرق، وصارت الطرق الى ازربيجان والوقاز مفتوحة للعثمانيين.

ما ان هزمت فارس في موقعة جالديران السابقة امام السلطان سليم حتى كان الفرس انفسهم اكثر استعدادا وتقبلا من قبل للتحالف مع البرتغاليين لتغطية هزيمتهم في جالديران، وبدأت تلك الاستعدادات للارتباط بالبرتغال عقب

(١) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، ص ١٣١ .
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٤٢ .
(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٨٠ .
(٤) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ٣٢ .

استيلاء البوكرك على هرمز، عندها وصل سفير من لدى الشاه اسماعيل وتم الدخول في اتفاقية محدودة ما بين البرتغاليين والصفويين نصت على ما يلي : ان يقدم البرتغال اسطوله ليساعد الفرس في غزو البحرين والقطيف كما يقدم البرتغال المساعدة للشاه اسماعيل لقمع ثورة في مكران وبلوجستيان وأن يكون الشعبان البرتغالي والفارسي اتحادا ضد العثمانيين، الا أن وفاة البوكرك التي أتت بعد ذلك قد أعاق ذلك التحالف ويمكن لنا القول ان مشروع التحالف قد دفن معه(١) .

اثر الصدام المسلح بين الدولة العثمانية والصفويين على قيمة ايرادات جمارك الدولة العثمانية من الطرق القديمة في الأناضول ويتضح ذلك من خلال هذا الجدول الذي يمثل قيمة الايرادات لبورصة كمثال، كما يعطى فكرة عن حجم الواردات :

السنة	قيمة الواردات بالدوكية الذهبية
١٤٨٧	٤٠٠٠٠
١٥٠٨	٣٣٠٠٠
١٥١٢	٤٣٠٠٠
١٥٢١	١٣٠٠٠
١٥٢٣	١٧٠٠٠

وكان هذا الهبوط في الايرادات بعد سنة ٩١٨ هـ/١٥١٢ نتيجة الحروب القائمة بين الصفويين والعثمانيين(٢)، اذ اقفلت معظم الطرق التجارية القديمة، كما سادها الاخطار، وصار التبادل التجاري بين الاقاليم الايرانية والعثمانية محدودا، اذ انخفض ايراد الدولة العثمانية من الحرير الفارسي في حين

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٤٣ .
السير ارنولد . ت . ويلسون : الخليج العربي ، ص ٢١٥ .
(٢) Halil Inalcik : The OttOman Empire P . P . 124 - 125 .

تحـولت سيطرة البـرتغاليين على البحـار الشرقيـة الى حصار عـام لكل الـطرق القديمة بين الشرق والغرب عبر الشرق الاوسط التي كانت حينئذ تحت السيطرة العثمانية[١].

ان النزاع المسلح بين الدولة الصفوية والدولـة العثمانيـة، كان مـا يبرح يشتد من وقت لآخر؛ لـرفع الصفـويين لواء زعـامة المـذهب الشيعي ولتمسك العثمانيين بمذهب السنة واعلان الشيعة مارقين عن الدين[٢].

كان حاكم بغـداد يعين من قبل الشـاه الايراني، ويبـدو ان ضعف النفوذ الايراني في العراق الاوسط كـان مشجعا على قيـام النزاع حـول منصب حاكم بغداد، الذي كان يطلق عليه الخان، وفي هذا النزاع بطبيعة الحـال يميل كـل فريق من المتنازعين الى العمل للحصول على تأييد احدى الدولتين الكبيـرتين فقام احد الطامعين في حكم بغداد واسمه ذو الفقار بمهاجمة خان العراق وقتله، وأعلن نفسه حاكما ولما كان يخشى من الشاه طهامب الذي خلف والـده الشاه اسمـاعيل سنـة ٩٣١ هـ/١٥٢٤ غ، فقد بعث الى السلطان العثمـاني سليمان يرجوه في تبعيته ومنحه الحماية[٣] علاوة على ذلك رغبـة السنيين في الخضوع لدولة متمسكة بمذهبهم.

ذعـر البلاط الايـراني في شتاء عـام ٩٣٢ هـ/١٥٢٥ م، عنـد سمـاعـه للاستعدادات الحـربية الـواسعة النـطاق التي كانت تجـري في استانبـول وكان السلطان سليمان القانوني قد استعمل عبارات التهديد والوعيد في آخـر رسائله والتي بعث بها لتهنئة الشاه طهماسب، الذي كان دون سن الرشد يومذاك فاتصل المستشـارون الصفويـون بملك المجر، ليعـاونهم على العدو المشتـرك، فـرد سليمان على ذلك باعدام الاسرى الفرس، الذين كانـوا معتقلين في غاليبـولي

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٩١ .
(٢) قدري قلعجي : الخليج العربي ، ص ٣٦٩ .
(٣) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

حينذاك، وقرر توجيه حملة قوية على ايران، الا أن السلطان سليمان حول قواته ضد المجر بدلا من ذلك[1] وذلك نظرا لحيوية تلك الجبهة وأهميتها للدولة، والتي كانت هدف الدولة الرئيسي في مواجهة المسيحيين.

سار طهماسب بعد أن بلغ السن القانوني في ٩٣٧ هـ/١٥٣٠ م على طريق كرمنشاه الى بغداد، محاولا استرجاعها الا أن صلابة وصبر ذو الفقار في الدفاع عن المدينة، حالت دون دخول طهماسب بغداد، الذي رغب في ارجاعها لدائرة نفوذه.

أعرى طهامسب اخوة ذو الفقار بخيانة اخيهم، ونجحت جيوش الشاه في اقتحام بغداد، بعد ان قتل ذو الفقار وهو يدافع بكل بسالة عن المدينة وبموت ذو الفقار انتهت تبعية استانبول، ثم اجزل الشاه المكافآت للاخوين وسلمت مدينة بغداد الى محمد خان لحساب الشاه الايراني[2].

كانت قبائل الاكراد القاطنة على الحدود بين الدولتين العثمانية والصفوية تتأرجح في ولائها نحو دولة واخرى فحدث ان أعلن خان تفليس والذي كان خاضعا من قبل للنفوذ العثماني، أعلن ولائه للايرانيين، وقام حكام الولايات العثمانية المجاورة باقتحام تفليس، لكنهم فشلوا في اخضاع خانها امام مقاومته العنيدة.

اعتبرت الدولة العثمانية هذا الفشل اهانة تتطلب تدخل السلطنة نفسها بجيوشها، فضلا الى صرخات اهل السنة في العراق الى السلطان سليمان لانقاذهم من الحكم الشيعي[3].

(١) ستيفن هيملسن : اربعة قرون في تاريخ العراق ، ص ٣٥ .
(٢) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ٣٥ .
ستيفن عيملسن : اربعة قرون في تاريخ العراق ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٣) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

كانت اهداف السلطان سليمان في الحرب ضد فارس، شبيهة كل الشبه بالاهداف التي أدت الى قيام السلطان سليم لغزوها قبل ذلك بعشرين عاما فبينما سيطرت قبائل القزلباش على طهماسب لم تشكل فارس تهديدا عسكريا خطيرا على العثمانيين، لكن طهماسب في هذه الأعوام الست التي تؤهله لتقلد منصب الشاه، ويبدو ان توجيه حملة ضد الصفويين تمنع انتعاش ملكية عسكرية قوية في فارس[١].

انتهز سليمان عقد الصلح مع شارل الخامس سنة ٩٤٠ هـ/١٥٣٣ م، فاستأنف القتال ضد فارس في الميدان الشرقي في وقت كانت الدولة في حاجة الى نسمة من الهدوء والاستقرار، ولعل أبلغ وصف الدولة نفسها وطبيعة العثمانيين ما كتبه السلطان نفسه في احد خطاباته «فان آبائي الكرام، وأجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحرب لاجل فتح البلاد، ورد العدو ونحن ايضا سالكون على طريقتهم، وفي كل وقت تفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة وخيولنا ليلا ونهارا مسروجة وسيوفنا مسلولة»[٢].

كان الصفويون تحت قيادة طهماسب ابن اسماعيل الصفوي، زادوا من اثارتهم للقلاقل في اوساط التركمان في الاناضول في الوقت الذي شهد فيه العراق لاوسط والجنوبي بما في ذلك بغداد والبصرة التي كانت في ايدي الصفويين محاولة لفرض المذهب الشيعي[٣].

ترك السلطان سليمان القانوني استانبول في ذو الحجة ٩٤١ هـ/ يونيو ١٥٣٤ م، فعبر اغلب مناطق الحدود، فمر خلالها ازربيجان)فئةتصة(الى ارزروم (erzerum) ثم جنوبا الى بحيرة فان (van) ثم شرقا نحو تبريز، حيث

(١) عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ٩٠ .
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ٩١ .
(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

يلتحق بـه الصدر الاعـظم ابراهيم بـاشا هنـالك[1]، بعـد ان وطد الامـور في تفليس، اذ توفي شريف بك الذي خرج عن الدولة العثمانية فعين ابراهيم باشا ابنه أولاماه حاكما عليها[2]، دخل الصدر الاعظم ابراهيم باشا تبريز دون صعوبة ولا سفك دماء، بعد ان ثبت فتوحاته على الاصقاع الجبلية من اذربيجان، عند ذلك وصلت قوات السلطان سليمـان، وخلد السلطان مكوثـه القصير في تبريز يبذل العطايا بالسخاء، وتقبل الخانات والبكوات والوافـدين بغرض الـطاعة في حفلة عامة[3].

تابع السلطان سليمان القانوني، والصدر الأعظم ابراهيم بـاشا تحـركهم عبر جبال فارس الغربية، في خريف ٩٤١ هـ/١٥٣٤ م، وهنا حاربت الطبيعة القوات العثمانيـة اذ تساقط ثلج الشتـاء واحاط بـالارض وصار الـطعام نـادرا، والخسارة في حيوانات النقل كانت قاسية واسرع السلطان الى هدفه التالي بغداد التي دخلها في ٢٧ جمادى الأولى / ٣٠ نوفمبر[4] بدون مقاومة، بعد أن قاد كبار رجـال الدين من السنـة الشعب في ثورة قضت على زعمـاء الشيعة، والجنـود الايرانيين الذين كانوا يضطهدونهم[5]، اضطر السلطان سليمان البقاء في بغداد حتى الربيع لتنظيم الادارة في الولايات الجديدة، وتقوية وسائل الدفاع، وأعلن الحاق العراق الدائم بالدولة العثمانية، ثم انعم بالمكافآت الجزيلة والترفيعات على ضباط الجيش[6].

كان دخول العراق في اطار الحكم العثماني ايذانا ببدء عهـد جديـد في تاريخه، لأن سلطان العثمانيين السنيين في العراق، كـان كفيلا بـأن يبعد عنـه

(١) M . A . Cook : A History of the Ottoman Empire P . 85 .
(٢) ستيفن هيلمسن : اربعة قرون في تاريخ العراق، ص ٣٦ .
(٣) ستيفن هيملسن : اربعة قرون في تاريخ العراق، ص ٣٦ .
(٤) M . A . Cook : A History of the Ottoman Empire P . 85 .
(٥) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني، ص ٩١ .
(٦) ستيفن هيلمسن : اربعة قرون في تاريخ العراق، ص ٣٨ .

التأثير الفارسي الشيعي الى حين، وأن يقيم فيه منار السنة من جديد بل أن سليمان القانوني كان يشعر بأن فتحة للعراق فيه شيء من الجهاد الديني لأن فيه انصافا للسنة، ولهذا عنى اشد العناية بأن يجدد قبر أبي حنيفة النعماني وان لم يبخل بالعناية على مراكز الشيعة في النجف وكربلاء وغيرها وكذلك كان السنيون من عرب العراق يشعرون بهذا ويعتبرون الفاتح العثماني مخلصا لهم، فسارع شيخ القبائل العربية، والذي يحكم البصرة بارسال ابنه راشد بمفاتيح البلاد وبعث معه رسائل فياضة بالولاء الى السلطان، وبهذا بدأت السنية تتنفس من جديد بعد أن طال سكونها وخمولها طوال السنوات التي كانت السيادة فيها للفرس الشيعة[١].

غادر السلطان سليمان القانوني العراق، متجها الى الشمال عبر كردستان، الى تبريز وكان الشاه طهماسب مصمما على تجنب المخاطر في معركة فاصلة، وكانت هذه المراوغة والتهرب لم يكن لها تأثير ايجابي اذ كانت عاصمته تبريز تقع في وسط ازربيجان وهي منطقة جبلية وبعيدة عن اقرب قاعدة عثمانية ومحاولة العثمانيين الاحتفاظ بها مخاطرة مشكوك في نجاحها طالما وأن جيش الشاه محتفظا بقوته وحيويته، والأمل العثماني في تحطيم الجيش في اقرب وقت وبضربة واحدة كان مهملا، وفي أواخر اغسطس اعطى السلطان سليمان تعليماته للقواد بالتقهقر والعودة، وحققت الحملة نتيجتين واضحتين اولهما تكوين ولاية جديدة في ارزروم (erzerum) على الحدود الشرقية وثانيهما فتح العراق وضمه لاملاك الدولة[٢].

قرر العثمانيون فتح عدن نظرا للصعوبات التي واجهتهم في الاراضي الفارسية، وكان فتح عدن يعني تقدمهم نحو الخليج الفارسي وتأمينه، ثم فتح جبهة ضد الفرس بيد ان فشل العثمانيين في تمهيد هذا الطريق وتأمين حملاتهم

(١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ، ص ٣٢٧ .

(١) M. A. Cook; A History of the Ohoman Empire p. 86.

في المحيط الهندي بسبب ازدياد قوة البرتغاليين ونفوذهم، كما مر بنا في السابق قضى على هذا الامل واحبط هذه الخطة بل كان له فعل عكس تمثل فيما حدث بين البرتغاليي والفرس من علاقات وتعاون مشترك ضد العثمانيين[1].

استولت القوات العثمانية على البصرة، بعد أن تمرد حاكمها، وما لبث ان امتد الحكم العثماني بعد ذلك الى الاحساء، واكتملت بذلك سيطرة سليمان على الاراضي التي كانت تدخل في نطاق الخلافة القديمة، وتم انقاذ المذهب السني من الخطر الشيعي وتأكدت زعامة الدولة العثمانية على العالم الاسلامي ورغم استيلاء سليمان على كردستان ومعظم العراق، فانه لم يوقع الهزيمة بالصفويين الذين احتفظوا بأذربيجان وبعض اجزاء من العراق وجنوبي القوقاز[2]، ولعل الدولة هنا ارادت محاصرة ايران والاكتفاء بذلك، حتى لا تدخل بعد ذلك في صراع محلي مع الشيعة.

لجأت كل من الدولتين الى استمالة الولايات المتاخمة واغرائهم على الخروج على الطاعة، كما كانت ملجأ سياسيا للامراء والحكام الفارين ٩٥٤ هـ/١٥٤٧ م هرب القاسب ميرزا (el Koz Mirza) شقيق طهماسب الاصغر الى الاراضي العثمانية وكان سبب لجوء العثمانيين، أنه لما استولى طهماسب على مشروان، جعل القاسب واليا عليها، ثم وقع بينه وبين طهماسب الذي قرر قتاله فلما سمع بهجومه خاف منه القاسب، فترك مشروان خالية وهرب مع جماعة من خواصه الى استانبول، وأحسن اسلطان اليه، وقدم له الهدايا، ووعده بتخليص بلاد أبيه، وردها اليه، وكان الشاه طهاحب قد فدعل مثل ذلك مع بايزيد بن سليمان[3] الذي لجأ للصفويين.

كان السلطان سليمان اقانوني يأمل في استغلال تلك الخلافات، التي بين

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن، ص ١٤٤.
(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني، ٩١.
(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن، ص ١١٤.

الصفويين للقضاء على تهديد الشيعة وفتح القوقاز واذربيجان على أقل تقدير . وكانت (Minimah) ورستم باشا يأملان في أن يؤدي الانتصار في ايران إلى زيادة مكانة الأمير بايزيد ، بينما كانت زوجة سليمان القانوني الثانية تأمل بأن يكون ابنها نائب (Kaimakam) للسلطان في استانبول ، وبذلك يعطيها فرصة وضع اعوانها في المناصب الكبرى في الدولة[1] .

تحرك السلطان سليمان القانوني نحو تبريز للمرة الثانية في صيف عام ٩٥٥ هـ/١٥٤٨ م، ووجد أن الشاه طهماسب قد فضل عدم مواجهة السلطان في معركة حاسمة فأخلى عاصمته، عند ذلك اتجه السلطان غربا لحصار القلعة الرئيسية في فان (van) والتي سبق وأن سقطت في يد العثمانيين عام ٩٤١ هـ/١٥٣٤ م، ثم استردها الفرس في العام التالي وبقيت كذلك حتى تقدم اليها السلطان سليمان للمرة الثانية، وقاومت القلعة مقاومة بسيطة، واستسلمت فان (Van) ١٣ صفر الموافق ٢٥ أغسطس، بالإضافة إلى الأراضي المتاخمة لها وصارت نواة الولايات للحدود العثمانية[2].

تحرك السلطان سليمان الى ارزروم (Erzerum) بعد ان قضى فصل الشتاء في حلب (allepo) كما بعث في رمضان ٩٥٦ هـ/سبتمبر ١٥٤٩ م، وزيره احمد باشا، لمحاربة سكان جورجيا (georgia) في اقليم (akhaltzikh) والذين كانوا يعتدون مع الصفويين على مناطق الحدود في كارس (kars) واولتو (olto) وأرتفين (artrin)، وتخطى احمد باشا ارزيا (arazzia) في ستة اسابيع واستطاع ادخال المنطقة الواقعة حول تورتوم (tortum) تحت النفوذ العثماني ، في نفس الوقت عجز القاسب ميرزا في اثارة الفوضى في فارس، وسقط في يد الشاه، وبذلك ضاعت كل الامال المرسوم لها، فشعر السلطان سليمان بالارهاق والاحباط، مما ادى الى اتخاذ قرار العودة الى استانبول التي وصلها ١ ذو

(١) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P . 104 .

(٢) M . A . Cook : A History of the Ottoman Empire P . 93 .

الحجة/٢١ ديسمبر من ناحية اخرى خفت حدة التهديد الصفوي، وحاول طهماسب الابتعاد عن مواجهة العثمانيين[١] بعد ان شعر بعدم مقدرته لذلك.

صار طهماسب اكثر استعدادا وفي استطاعته استعادة الاقاليم التي اخذت منه، وفي ٩٥١ هـ/١٥٥١ م، دمر ترسانة منطقة اكهالت (akhlat) واديلزفار (adilzevarz) على الشاطىء الشمالي لبحيرة فان (van)، كما قام فرسان طهماسب بمحاربة القوات العثمانية في ارزروم بقيادة اسكندر باشا التي لحقت به هزيمة كبيرة.

اصدر السلطان سليمان القانوني اوامره للصدر الاعظم رستم باشا ومحمد الصقلي ورجال روميلي بالاستعداد لاستعادة الاراضي المفقودة[٢].

تأخرت الحملة الموجهة ضد الصفويين حتى صيف ٩٦٢ هـ/١٥٥٤ م، حيث استأنف السلطان سليمان حربه ضد الصفويين وكان السلطان يسعى في حملته اصطياد العدو المتقهقر بتدمير أراضيه في القوقاز ولكن الشاه انسحب كالعادة الى جبال (luriston)، وأنقذ جيشه من الدمار والهزيمة وعلى الرغم من مقدرة السلطان سليمان على تحطيم جيش الشاه وقوته، وعلى الحصول على كميات كبيرة من الغنائم والاسرى، والعودة بها الى استانبول، ولشعور السلطان سليمان القانوني بالارهاق والاحباط عقد السلطان اتفاقية مع طهماسب في اماسيا في ٨ رجب ٩٦٣ هـ/١٩ مايو ١٥٥٥ م، وهو السلام الأول من نوعه بين العثمانيين والصفويين[٣].

اعترف طهماسب بموجب تلك الاتفاقية، بالحدود العثمانية مثل ما كانت عليه في السابق، شاملة آخر تلك الفتوحات، كما تعهد بالكف عن دعوته للتشيع

(١) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P . 105 .
(٢) M . A . Cook : A History of the Ottoman Empire P . 94 .
(٣) Stanforord Show : History of the Ottoman Empire P . 109 .
M . A . Cook : A History of the Ottoman Empire P . 94 .

زرعت غاراته على الحدود العثمانية، وفي المقابل اعطى السلطان سليمان التصريح للحجاج الإيرانيين للذهاب إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة، والأماكن المقدسة الخاصة بالشيعة في العراق، وكانت الحدود التي استقرت في ذلك الإتفاق تمر عبر الجبال فتقسم جورجيا إلى قسمين شرقي وغربي عبر أرمينيا وعبر المنحدرات الغربية لجبال (Zagaross) حتى الخليج الفارسي بعد ذلك اقتصرت مصالح السلطان سليمان في الشرق على الحفاظ بعلاقات حسنة مع أسرة أزبك (Uzbegs) وشجعوهم بإثارة القلاقل والفتن لحكومة طهماسب، حتى تخف اعتداءاتهم على العثمانيين[1]، وبذلك يكون الصفويين قد شغلوا في وقت ما يحاربون التتر من ناحية، بينما كانوا في حرب مع العثمانيين من ناحية أخرى[2].

اشتكى حاكم خوارزم للسلطان سليم الثاني، من أن شاه فارس يقبض على الحجاج الوافدين من تركستان، بمجرد عبورهم حدوده، وأن موسكو بعد استيلائها على استراخان منعت مرور الحجاج والتجار، ووضعت العقبات والعراقيل امامهم، لهذا طلب حاكم خوارزم، وحكام بخارى وسمرقند، من السلطان سليم الثاني ان يحتل استراخان بهدف اعادة فتح طريق الحج[3] ولما كان السلطان العثماني حامي الحرمين الشريفين، وهدف الدولة تأمين طرق الحج في انحاء المعمورة، لاقى ذلك الطلب الترحيب لدى الدولة العثمانية.

اعد صوقللي باشا الصدر الاعظم في الدولة حملة كبرى سنة ٩٧٦ هـ - ٩٧٧ هـ/١٥٦٨ - ١٥٦٩ م للاستيلاء على استراخان، وتحويلها الى قاعدة عثمانية للدفاع عن المنطقة وان يصل ما بين نهري الفولجا والدون بقناة صالحة لمرور السفن لتسهل دخول الاسطول العثماني بحر الخزر (قزوين) عن طريق

(١) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P . 109 .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١١٥ .

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٤ .

البحر الاسود لتمكن العثمانيين من وقف التوسع الروسي نحو الجنوب، وتطرد الفرس من القوقاز واذربيجان، بل وغزو فارس من الشمال، بدلا من مرور الجيوش العثمانية بأرض اذربيجان الوعرة، والاتصال بالأزيك أعداء الصفويين، وتتار القرم، ومن شأن كل ذلك أن يؤدي الى احياء طرق القوافل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق الى الغرب(1)

شرع العثمانيون في تنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولجا، وحل شهر جمادى الأولى ٩٧٧ هـ/اكتوبر ١٥٦٩ م حتى كان ثلث القناة قد اكتمل، وان يكن موسم الشتاء قد أدى الى ايقاف العمل، وحينئذ اقترح قائد الحملة استعمال سفن صغيرة محملة بالمدافع والذخيرة لشن الهجوم على استراخان بالاستعانة ببعض الزحافات.

حاربت الطبيعة الحملة العثمانية التي فشلت في تحقيق اهدافها، وكان نجاحها كفيلا بمنع امتداد روسيا جنوبا، نظرا لوجود القوة العثمانية على نهري الدون والفولجا وشواطىء بحر قزوين، الا أن صوقللي تمكن برغم فشل الحملة، أن يشدد قبضة السلطان على امراء مولدافيا وولاشيا وبولندا، وبذلك اعترضت الدولة العثمانية مرحليا توسع روسيا شمال وغرب البحر الاسود(2)!

كان ذلك موقف الصفويين الشيعة من الدولة العثمانية، التي اخذت على عاتقها حماية المسلمين ونشر الاسلام في اوروبا، ويعتبر موقفهم السابق عائقا ضد العثمانيون من تقدمهم نحو اوروبا لاسترداد الأندلس، اذ انشغل العثمانيون لفترات في تلك الجبهة، كان كافيا لتحقيق انتصار اكبر لما وصلت اليه في القارة الاوروبية.

لم يحدث تسجيل انتصار حاسم للدولة على الصفويين، الا لتهرب

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن ، ص ١٤٥ .
احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ٤٤ظ ـ ١٤٥ .
(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

الصفـويين من مواجـة الجيوش العثمـانية، وهـذا ما جعـل السـلاطين والقـواد العثمانيين كثيرا ما ينسحبوا الى قواعدهم، علاوة على ذلك الطبيعة التي حاربت الجيوش العثمانية في كل مرة، كما ان السلاطين العثمانيين لم يرغبوا في القضاء على الصفويين، لأنهم يؤمنون بعقيدة واحدة، ودين واحد، ولعل ذلك ما جعلنا نشعر بأن الحملات الموجهة لاوروبا هي مخـالفة لتلك المـوجهة للصفـويين، فهناك التصميم والاصرار على النصر، وهنا العاطفة الاسلامية التي قد لا تشجع الدولة العثمانية على تحطيم القوة الصفوية والاكتفاء بمحاصرتهم في اراضيهم وعدم الاستيلاء عليها.

عاشت الشواطىء الاسبـانية خـطرا دائما، طـول القرن السـادس عشر، وذلك بسبب تهديد المجاهدين العثمانيين الذين كانوا يرون في انقـاذ اخوانهم المسلمين في الأندلس واجبا دينيا واعتراض اي قـافلة تجاريـة بحريـة اسبانيـة وكانت البحرية الملكية الاسبانية عاجزة عن صد تلك المناورات وردعها، حتى تشجـع احد المـوريسكوس من قرطبة، وقابـل السلطان العثماني يعـرض عليه احتلال اسبانيا وارجاعها لحظيرة الاسلام، مؤكدا ان اسبانيا يوجد بها خمسمائة الف مسلم ينتـظرون السلطان العثماني[١]، وغضب من ذلـك الملك الاسباني فيليب الثاني وزاد من غضبه حركات العثمـانيين في البحر المتـوسط، وخاصـة حصارهم ماطة سنة ٩٧٣ هـ/ ١٥٦٥ م[٢]، واقتراب الخطر العثماني من الاملاك الاسبانية في ايطاليا.

استمرت البندقيـة من ناحيـة اخرى في القيـام بأعمـالها العـدوانية ضـد العثمانيين، متخذة من قبرص قاعدة لها على الرغم من المعاهدة التي عقدت مع النمسا في رمضان ٩٧٦ هـ/١٥٦٨ م[٣]، وقد ذكر السلطان سليم الثـاني ذلك الاعتداء خطابه للموريسكين في ٢٤ شوال ٩٧٧ هـ/ ٢٠ مارس ١٥٦٩ م قـوله

(١) محمد قشتيليو : محنة الموريسكوس في اسبانيا، ص ٦٨ - ٦٩.

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن، ص ١٣٢.

(٣) بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية، ص ٣٤.

«. . . ولكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالكي المحروسة والتي كانت على العهد والامان، منذ زمان اجدادي العظام، انار الله براهينهم، الا أنهم نقضوا تلك العهود، واخذوا بالتعدي على التجار واهل الاسلام، والمسافرين بحرا لطواف بيت الله الحرام، وزيارة تربة حضرة سيد الانام عليه افضل الصلاة والسلام بخلوص النية، وصفاء الطوية، وبذلك فانهم مصرون على العصيان والطغيان، لذا فبعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوسل والاسناد الى المعجزات الكثيرة البركات، لفخر الموجودات صلوات الله عليه وسلامه، وكذلك بالاستمداد بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام عليهم رضوان الله تعالى أجمعين، فقد استقرت نيتي الملوكية على فتح وتسخير الجيرة المذكورة في الربيع الأخير القادم ونضرع الى عتبة الحق جلا وعلا ان ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة، وأن يبسط ايدينا عليها حتى تأهل بأهل الاسلام كما كانت عليه، وحتى تقام بها شعائر الشرع الشريف وحتى يأمن التجار ويسلموا في غدوهم ورواحهم وينصرفوا للدعاء الشريف وحتى يأمن التجار ويسلموا في غدوهم ورواحهم وينصرفوا للدعاء وثبات ومجد ورفعة الدولة. . »[1]

استعدت الدولة العثمانية لخوض غمار الحرب ضد البندقية، وفتح قبرص فتعذر على الدولة ارسال الاسلحة للمسلمين في الاندلس، وبعث السلطان سليم الثاني خطابا لهم في ٣ صفر ٩٧٩ هـ/٢٧ يونيو ١٥٧١ م، جاء فيه «. . ارسلتم الى سدة سعادتنا خطابا تعربون فيه عن عدم وصول الاسلحة المرسلة وانكم اصبحتم تواجهون ضائقة من الذخيرة، وأن الكفار تمكنوا من السيطرة على تلك الجوانب لذا تعلمون عن حاجتكم عن ارسال المعونة.

اننا نلاحظ أهمية ارسال الاسطول الهامیوني لنجدتكم، غير أن ذلك لم

(١) دفتر الامور المهمة، رقم ٩، صفحة ٨٩، حكم رقم ٢٣١، ارشيف (Basrekalet)

-- يبيسر نطرا لتوقع غزو البنادقة لممالكنا في هذه السنة، هذا الى جانب مهمة فتح قبرص.

وقد ارسل حكم همايوني الى علي دام اقباله امير امراء الجزائر بشأن توجهه الى طرفكم على رأس بضعة قطع من الاسطول لمعاونتكم اذا سنحت الظروف المذكورة بذلك في هذا العام...»[1]

اصدرت الدولة توجيهاتها الى قلج علي بيلربك الجزائر، ليستعد في معاونة الاسطول العثماني لفتح جزيرة قبرص، كما وضعت الخطة اللازمة لذلك اذ جاء في الامر السلطاني الصادر في ٣ صفر سنة ٩٧٩ هـ/الموافق ٢٧ يونيو ١٥٧١ م، ما يلي: «... حال وصول (الحكم) عليك بالاهتمام بهذا الموضوع وفيما اذا اتحد الاسبانيون مع البنادقة وتعسر انفصالك عن اسطولي الهايموني فعليك بالتشاور بالامر مع وزيري برتو باشا ادام الله تعالى اجلاله، لبذل قدراتك في الخدمات اللازمة في كلا الحالتين، وحسبما تقتضيه الظروف، أما اذا لم يكن ثمة خطر من اسطول الكفار اصابهم الدمار، وتوقعتم محاولات استيلاء الكفار، والحاقهم الضرر بتلك الديار، فعليك بالتشاور مع المشار اليه بالتوجه الى هناك بما في حوزتك من سفن اللوند، وفيما اذا اقتضى الامر يمكنك اصطحاب قبوداني دام اقباله ايضا.

وعليك ببذل انواع سعيك واقدامك في سبيل دفع ورفع ضرر وفساد الاعداء عن المسلمين، وعليم ايضا القيام بما تقتضيه المصلحة بتمام البصيرة والانتباه، اخذا بمشورة المومى اليه والمأمول منك هو بذل قدراتك واظهار جلادتك وشهامتك المتأصلة في ذاتك سواء كنت تؤدي خدماتك في اسطولي الهايموني او في العمل على دفع الاذى عن المسلمين في تلك الديار، ولا تتوانى عن اعلامنا بأوضاع الجزائر وبما اقدمت عليه، وعليك بتتبع افكار

(١) دفتر الامور المهمة، رقم ١٤، صفحة ١٩٩، حكم رقم ٢٨٣، بأرشيف الوثائق التابع لرئاسة الوزراء. (Basrekalet)

وتحركات الكفار، وابعث لنا بكل ما يردك من الاخبار الموثوقة»[١].

كانت ايطاليا واسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص وشاع في اوروبا عن تكون حلف ضد السلطان ولكن لم يعمل شيء في حينه لانقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوا بقوة كاسحة، نفذت الى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا (famagosta) الحصينة امام العثمانيين بقيادة باجليون (baglino) وبراجادينو (bragadino)، الذين واجهوا القوة العثمانية التي وصلت مائة الف مقاتل استعمل خلالها العثمانيين جميع وسائل الحصار المعروفة، من فر للخنادق، وزرع للالغام ولم ينتج اي تأثير على الحامية، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة، لصار العثمانيين في خطر، الا ان المجاعة قامت بعملها، واستسلمت المدينة في ربيع الثاني ٩٧٩ هـ/اغسطس ١٥٧١[٢].

نقلت الدولة العثمانية بعد احتلالها لقبرص عددا كبيرا من سكان الاناضول الذين لا يزال احفادهم مقيمين في الجزيرة، ورغم ترحيب القبارصة الارثوذكس بالحكم العثماني، الذي انقذهم من الاضطهاد الكاثوليكي الذي مارسته البندقية لعدة قرون، الا أن احتلال العثمانيين اثار الدول الكاثوليكية[٣].

رسى الاسطول العثماني بعد انتهاء مهمته في ابنانجني (lepant) وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء، حيث تتوقف ساحة المعارك في مثل هذا الوقت من السنة، والاستعداد للسنة المقبلة[٤].

ارتعدت فرائض الامم المسيحية من الخطر الاسلامي العظيم الذي هدد القارة الاوروبية، من جراء تدفق الموجة التركية العثمانية برا وبحرا فأخذ البابا

(١) دفتر الامور المهمة ، رقم ١٤ ، صفحة ٢٠٠ ، حكم رقم ٢٨٤ ، بأرشيف الوثائق التابع لرئاسة الوزراء .
(٢) A . G . Grant : A History of Europe from 1494 - 1610 P . 222 .
(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ١٤٦ ـ ١٤٧ .
(٤) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٤٢ .

بيوس الخامس (١٥٦٦ ـ ١٥٧٢ م) يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الاوروبية المختلفة وتوحيد قواها برا وبحرا تحت راية البابوية[١].

عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك اسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في اوائل ٩٧٩ هـ/ الموافق مايو ١٥٧١ م، تعهدوا فيه القيام بهجوم بحري ضد العثمانيين الذي يرجع لهم الفضل في احياء مجد الاسلام وتأسيس دولة اسلامية واسعة الارجاء تضم قسما كبيرا من اوروبا ومعظم الحوض الشرقي من البحر المتوسط والذين ما فتئوا يهددون المسيحية في عقر دارها لجهودهم المتواصلة الى اتمام السيطرة على الحوض الغربي من البحر المتوسط حتى يسهل عليهم تطويق اوروبا الغربية وانكال الضربة الحاسمة بها ويستردوا الاندلس[٢].

شارك في الحلف كذلك بعض المدن الايطالية، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف، اذ ارتبطت توسكاني (tuscany) وجنوة، وسافوي (savoy) وبعض الايطاليين في الحلف المقدس، بينما حافظت فرنسا على مفهوم علاقاتها الحسنة مع السلطان العثماني كما كان شارلز التاسع ملك فرنسا مشغولا بالحروب الأهلية في بلاده، لذلك لم يكن قادرا على تقديم اي مساعدة للعثمانيين.

حددت المعاهدة عدد السفن والبحارة والجنود والاموال التي يقدمها الاطراف المتعاهدة في الحلف المقدس، وعين دون جون (don John) وهو ابن غير شرعي للامبراطور شارل الخامس، قائدا لاسطول الحلف[٣]، وذلك بعد ان اقترح اخاه فيليب الثاني على العصبة بتعيينه وذلك فور انتهاء دون جون من قمع ثورة الموريسكيين في الجنوب، غير ان الاخبار التي كانت ترد من مناطق الثورة

(١) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٩٦ .

(٢) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ٩٤ .

(٣) A . G . Grant : History of Europe from 1494 - 1610 P . 222 - 223 .

لم تكن مشجعة والمقاومة العنيفة التي أبداها الاندلسيون يمكن ان تستمر فترة طويلة وقد يضطر دون جون الى البقاء في الجنوب مما سيضيع الفرصة عليه وهنا أوعز فيليب الى أخيه فتح حوار مع الاندلسيين[1].

صارت مقومات احراز نصر مسيحي كما ينبغي ، فعزز دون جون نفسه باستقدام الاميرال الاسباني سانتا كروز، كما تقدمت البندقية بقائد اسطولها بربريجو (barbarigo)، وكان مجموع الاطول المسيحي مقاربا للاسطول العثماني[2].

سار دون جون الى البحر الادرياتيك، حتى وصل الى الجزء الضيق من خليج كورنث (corinth) بالقرب من باتراس (patras) وليس ببعيدة عن ليبانتو والذي اسمها اعطى للمعركة[3].

كان من رأي قادة الاسطول الاسلامي الافادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالاسطول الصليبي ، غير أن القائد العام علي باشا صمم على الخروج للمعركة معتمدا على تفوقه في عدد سفنه، ونظم علي باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال الى الجنوب ، بحيث كانت ميمنتها تستند الى مرفأ ليبانتو، ومسيرتها في عرض البحر، وقد قسمها علي باشا الى جناحين وقلب فكان هو في القلب وسيروكو في الجناح الايمن وبقي الجناح الايسر بقيادة قلج علي .

ومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الاسلامي ووضع جناحه الايمن بقيادة دوريا مقابل قلج علي ، واسند قيادة جناحه الايسر الى بربريجو مقابل سيروكو وجعل دون جون نفسه لقيادة القلب ،

(١) عادل سعيد بشتاوي : الاندلسيون المواركة ، ص ١٦١ .

(٢) A . G . Grant : History of Europe from 1494 - 1610 P . 223 .

(٣) A . G . Grant : History of Europe from 1494 - 1610 P . 223 .

وترك اسطولا احتياطيا بقيادة سانت كروز[1]

احتدمت المعركة في ١٧ جمادى الاولى سنة ٩٧٩ هـ/١٧ اكتوبر ١٥٧١ م، احاط الاسطول الاسلامي بالاسطول المسيحي وأوغل العثمانيون بين سفن العدو، ودارت معركة قاسية اظهر فيها الفريقان عناداً كبيرا، غير ان المعركة انقلبت على العثمانيين، وانتهت بتحطيم عدد كبير من اسطولهم، واستطاع قلج علي انقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها ومن بينها السفينة التي تحمل علم البابا، رجع بها لاسطنبول، التي استقبلته استقبال الفاتحين، رغم الشعور بمرارة الهزيمة[2]، وبادر السلطان سليم الثاني اثر ذلك بترفيع قلج علي الى رتبة قائد البحرية العثمانية (قبودان باشا)، مع الاستمرار في منصبه كباي لرباي للجزائر[3].

احتفلت القارة الاوروبية بنصر ليبانتو، فلأول مرة منذ اوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين[4] فهلل الاوروبيون وكبروا لذلك الانتصار واقيمت معالم الزينات في كل مكان وافرطت في التسبيح بحمد دون جون أمير الاساطيل المتحدة، الذي احرز هذا الانتصار، الى حد أن البابا لم يتورع عن القول اثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس، بمناسبة هذا النصر (ان الانجيل قد عنى دون جون نفسه، حيث بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا) وظل العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحري، حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانت، الا وتذكر معه دون جون المشار اليه على اعتبار انقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها [5].

إن نتيجة معركة ليبانتو، كانت مخيبة لامال العثمانيين، فقد زال خطر

(١) بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية ، ص ٣٧ - ٣٨ .
(٢) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .
(٣) ارجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي بالجزائر ، ص ٢٤ .
(٤) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٧ .
(٥) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٤٣ .

السيادة العثمانية في البحر المتوسط ومع زوال الخطر، زال الخوف الذي كان قويا، للمحافظة على حلف مقدس دائم، واستعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية.

ان اهمية ليبانتو كانت عظيمة واسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على اقل تقدير في البحر، وازيح ذلك الخوف عن قلوب حكام ايطاليا، واسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لاوروبا، اذ كانت من الحقيقة القوات العثمانية هائلة في كل من المجال البري، والمجال البحري(١)، كما أن الانتصار المسيحي في ليبانتو ١٥٧١ كان اشارة لتحضير حاسم في ميزان القوة البحرية في البحر المتوسط، كما أنه انهى عصرا من عصور العمليات البحرية الطموحة في البحر المتوسط، والتي تكاليفها باهظة(٢).

لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة في اضافة حلقة اخرى الى سلسلة امجادهم البحرية(٣)، اذا كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية(٤).

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لاظهار طمع فرنسا نحو المغرب الاسلامي، اذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الاسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعا الى السلطان العثماني (٩٨٠ هـ/١٥٧٢ م)، وذلك بواسطة سفيره باسطنبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوى الدفاع عن حمى الاسلام والمسلمين بها وان

(١) A. G. Grant: History of Europe P. 224.
(٢) Paul Cloes: The Ottoman Impact on Europe P. 97.
محمد البحراوي: التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالازمة الحديثة الدارة، العدد الثاني، السنة ١١، محرم ١٤٠٦ هـ، ص ٨١.
(٣) محمد الغربي: بداية الحكم المغربي في السودان، ص ٩٤.
(٤) محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، ص ١٤٣.

فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به، ومع ذلك اوغلت فرنسا في طموحها وألحت على طلبها وسلكت للتوصل الى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة، حتى تحصلت على امتيازات خاصة، في السقالة وأماكن اخرى على الساحل الجزائري، وتصريح من لسلطان باقامة مراكز تجارية[1].

اقبل القبودان باشا قلج علي، بهمة ونشاط متزايد، على تجديد الاسطول العثماني، وتعويض ما فقد منه، وما حل صيف ٩٨٠ هـ/١٥٧٢ م، حتى قد هيأ مائتان وخمسون سفينة جديدة، وخرج قلج علي باسطوله في البحر وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحري، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية، بشروط مخزية اذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة الف دوكة[2]، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التي تسبق فترة الاحتضار البحري ذلك لأن الدولة انصرفت الى حروب متواصلة، نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها من جهة، وبينها وبين فارس من جهة اخرى كما أنها انشغلت باخماد الثورات الداخلية المستمرة[3].

انهار الحلف المقدس بعد انسحاب النبدقية، واذا كان الحلف لم يستفد من انتصاره في ليبانتو بسبب اختلاف القادة حول ميادين القتال المقبلة ضد العثمانيين، فان الاسبان والبرتغاليين قد خططوا لغزو شمال افريقيا[4]، وحسب هذا المخطط شرع فيليب الثاني في اعداد حملة كبيرة، وأسند قيادتها للامير دون جون النمساوي[5]، وكان فيليب الثاني قد تشجع لذلك بسبب لجوء السلطان الحفصي ابي العباس الثاني، الذي حكم تونس ٩٤٢ ـ ٩٨٠

(٤) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج ٣، ص ٩٧ ـ ٩٨.
(١) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٩.
(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني، ص ١٤٣.
(٣) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ٩٥.
(٤) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥٠.

هـ/ ١٥٣٥ ـ ١٥٧٢ م الى فيليب الثاني، وطلبه المساعدة في اخماد الثورات القائمة، الا ان شروط الاسبان كانت قاسية تقضي باغطائهم امتيازات كبيرة، وتتيح لهم سكن جميع انحاء تونس، وتتنازل عن عنابة وبنزرت وحلق الواد[١]، فرفض ابو العباس الشروط لكن اخاه محمد بن الحسن قبلها[٢] بعد ذلك.

خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية في رجب ٩٨١ هـ/اكتوبر ١٥٧٣ م، على رأس اسطول مكون من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرين الف مقاتل، ونزل بقلعة حلق الواد التي كانت تحتلها اسبانيا، ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج اهلها بوادي تونس فارين بدينهم وشرهم[٣]، كما انسحب الحاكم العثماني الى القيروان[٤]، وكانت اوروبا قد ادركت انها لا تستطيع ان تقضي على الدولة الا مجتمعة، لأنها اي الدولة لا زالت لديها القدرة على استرداد الأندلس ولعل ذلك سبب خروج الجيش المسيحي بقيادة دون جون للاستيلاء على تونس والتي كانت السيطرة عليها تشكل عنصرا هاما لاسبانيا في معاركها الحربية ضد الدولة العثمانية.

اهتم قلج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الاسلحة النارية الحديثة، وقد لفت هذا النشاط البحري انظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة قلج علي حتى ان البابا نصح فيليب الثاني ملك اسبانيا ان يسعى لاغرائه[٥] وذلك بمنحه راتبا من عشرة آلاف واقطاعية من مملكة نابلس او غيرها من ممتلكات العرش الاسباني ويتوارثها نسله من بعده، مع لقب كومت او ماركيز او دوق، كما شمل المشروع ايضا منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعدين[٦]، وكان

(١) شوقي عطا الله الجمل : المغرب العربي الكير، ص ١٠٧ .
(٢) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص٥٠.
(٣) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ ،
عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشالية، ص ٢٤٥ .
(٤) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥٠ .
(٥) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث، ص ٥١ .
(٦) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية، ٢٨٠ .

البابا يرى أن هذه المحاولة ان لم تنجح فانها على الاقل ستثير شكوك السلطان قلج علي وهو الشخص الوحيد القادر على دعم امور السلطنة ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة انها اثارت غضب قلج علي بدلا من ان تقربه[1]، وأنه لا يمكن شراء امانة المسلم المجاهد اذ انه وجوده في خدمة الدولة، انما كان يعني انه وهب نفسه لسبيل الله وهذا ما سارت عليه الدولة في سياستها في جميع فتوحاتها ولعل ذلك كان سببا مباشرا في سرعة الفتح ونجاحه، في كل الاقاليم والميادين التي طرقتها الدولة وكان العثماني في اي موقع يخدم الدولة بكل اخلاص وما خدمته تلك، الا خدمة للاسلام.

اصدر السلطان سليم الثاني اوامره الى وزيره سنان باشا وقبودانه قلج علي بالاستعداد للتوجه الى تونس، لفتحها نهائيا، واعادة نفوذ الدولة العثمانية اليها[2] كما صدرت نفس الاوامر والتوجيهات لبقية الاقاليم بتحضير الجنود والذخيرة، والمؤن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الاحجام، كما اكد على المكلفين بالخدمة في الاناضولي والروم يلي بالاشتراك في السفر بحرا، كما احصر المجدفين اللازمين للاسطول، وانذر من لا يحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على ان لا يسند اليهم في المستقبل اي عمل[3] وبينما كان الاسطول يتأهب، اخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس والذي انسحب للقيروان في حشد المجاهدين من الأهالي الذين التفوا من حوله[4].

أبحر الاسطول العثماني بقيادة سنان باشا وقلج علي في ٢٣ محرم ٩٨٢ هـ/ ١٤ مايو ١٥٧٤ م، فخرج من المضائق ونشر اشرعته في البحر الابيض، فقاموا بضرب ساحل كالابريا، مسينا، واستطاع العثمانيون ان يستولوا على سفينة مسيحية وبعد أن نقلوا الغنائم احرقوها ومن هناك قطعوا عرض البحر في

(١) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥١ .
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٤٢١ .
(٣) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٤٨ .
(٤) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٥١ .

خمسة ايام[١]، في هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا، كما وصل ثمة متطوعين من مصر[٢] .

بدأ القتال في ربيع سنة ٩٨١ هـ/١٥٧٤ م، ونجح العثمانيون في الاستيلاء على حلق الواد، بعد ان حوصر حصارا محكما[٣]، وقامت قوات اخرى بمحاصرة مدينة تونس، ففر الاسبان الموجودون فيها ومعهم الملك الحفصي محنمد بن الحسن الى البستيون[٤]التي بالغ الاسبان في تحصينها وجعلوه من أمنع الحصون في الشمال الافريقي[٥] .

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم الى حصار البستيون، وضيق العثمانيون الخناق على أهله من كل ناحية وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى انه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من في البستيون كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود، فعرفه احد امراء الجنود فقال له: ما هذا ايها الوزير؟ نحن الى رأيك أحوج منا الى جسمك، فقال له سنان لا تحرمني من الثواب.

وشدد سنان باشا في حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه[٦]، وقد شارك سنان باشا في الحصار الاميران السعديان عبد الملك واخوه احمد اللذان كانا قد توجها الى استانبول طالبين المعونة لفتح المغرب لخلع ابن اخيهما

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٥٠ .
(٢) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة عام ، ص ٤٠٠ .
عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٥٣ .
(٣) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥١ .
(٤) البستيون قلعة بناها الاسبان بجانب تونس .
(٥) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، ص ١٩٥
(٦) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٤٠١ .

المتوكل، وقد ساعدهما الحظ في أن يكونا أول من أبلغ السلطان بنبأ النصر[١].

لجأ الحفصيون الى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك اسبانيا سعيا لاسترداد ملكهم، واتخذهم الاسبان آلات طيعة تخدم بها مآربهم السياسية حسبما تمليه الظوف عليهم[٢] وقضى سقوط تونس على الامال الاسبانية في افريقيا وضعفت سيطرتها تدريجيا حتى اقتصرت على بعض الموانىء مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتدد حلم الاسبان نحو اقامة دولة اسبانية في شمال افريقيا وضا بين الرمال[٣]، اذ كان من المنتظر رد فعل اسباني قوي، ولكن فيليب الثاني خيب ظن الجميع، ويعود هذا الى شخصية فيليب، التي تختلف عن شخصية والده شارل الخامس، ذلك ان فيليب لم يمارس قط قيادة جيش ولم يظهر في ساحة معركة، وكان ملكا اداريا يعاني آنذاك من ضائقة مالية وثورات في ايطاليا والاراضي المنخفضة ومشاكل سياسية مع انكلترة وفرنسا، وكانت انظاره تتجه نحو عرشها، كل هذا يفسر انصراف فيليب الثاني عن البحر المتوسط وشمال افريقيا[٤]، وكان بامكان الدولة العثمانية انتهاز ذلك، الا أنها كانت قد حولت كل مجهوداتها نحو فارس، وفي المجر ضد آل هابسبرج، لكنها لغ تتوج تلك الحروف بانتصارات ساحقة كما هو الحال في السابق[٥]، الامر الذي جعل العثمانيون يفكرون في مفاوضات للسلام وهي التي بدأت[٦]، على الرغم من التماس قلج علي لدى الشريف السعدي في مراكش عبد الملك، بتدخله لدى الباب العالي للحيلولة دون عقد الصلح بين

(١) عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الادب العربي ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .
(٢) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في بعة قرون ، ص ١٩٦ .
(٣) J . H . Elliott : Emperial Spain P . 43 .
(٤) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥١ .
(٥) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P . 167 .
(٦) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P . 98 .

السلطنة العثمانية واسبانيا، وما يترتب على هذا الصلح من آثار سلبية على النشاط الجهادي على طريق الملاحة عبر المضيق[١].

مضت الدولة العثمانية في مفاوضات السلام مع الحكومة الاسبانية في ٩٨٥ هـ/١٥٧٧ م، ثم تم ابرام هدنة رسمية بعد اربع سنوات تحددت بعد ثلاث سنوات مرة اخرى كانت خلالها الدولة تتسم بمنزلة سامية في البحر المتوسط الشرقي، بالاضافة الى امتلاكها للقواعد الافريقية الشمالية الرئيسية مثل الجزائر وطرابلس وتونس التي ظلت في حيازتها[٢].

يتبين من خلال ذلك بداية التحول في سياسة الدولة بعد معركة ليبانو التي تعتبر نقطة البداية نحو تحولات كبيرة وتوقف الامتداد العثماني بعد ذلك اتجهت الدولة في سياستها الى المحافظة بقدر الامكان على ما بحوزتها خاصة الاماكن المقدسة الاسلامية.

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٢٢٠ .

(٢) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P . P . 98 , 102 .

كانت الحكومة الاسبانية قد سحبت قواتها من تونس وطرابلس والجزائر تدريجياً بعد استقرار العثمانيين في تونس سنة ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م، وذلك بسبب قيام المنازعات بين السلطتين العسكرية والمدنية حول إدارة تلك الجيوب بالإضافة إلى صعوبة تموين تلك المدن الساحلية، نظراً لامتناع السكان عن التعاون مع الغزاة المسيحيين، مما أدى إلى اضطرار الحكومة الاسبانية إلى نقل المؤن عبر البحر المتوسط، فصارت تلك الحاميات عبئاً ثقيلاً على ميزانية الدولة، لذلك كان طلب فيليب الثاني توقيع الهدنة مع الباب العالي، ولكن النزاع بين اسبانيا ونيابة الجزائر تجدد بعد ذلك [١] وذلك لخوف اسبانيا من أن تعود الجزائر مركزاً لاسترداد الأندلس خاصة بعد تحول الدولة في سياستها تجاه الشمال الأفريقي.

اكتسب نجاح العثمانيون في البقاء بتونس أهمية، ذلك أن وجودهم صار شرعياً فقد ربطت ولاية تونس بالمركز مباشرة، وطبق نفس النظام المعمول به في الجزائر بعد معركة ليبانتو [٢]، إذ قسمت تونس إلى تقسيمات إدارية أسوة بالايالات العثمانية، وطبق نظام التيمارات والزعامات والوقف [٣]، كما انتفع

(١) صلاح العقاد : المغرب العربي ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .
(٢) عبد الرحمن تشانجي : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ، ص ٢٩ .
(٣) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٥٩ .

العثمانيون في نفس الوقت بالنظم المتبعة في العهد السابق[١]، فظل النظام الجبائي السابق على ما كان عليه، وذلك في استخلاص الجباية بالمحلات العسكرية في الصيف والشتاء، وإن كان قد أجرى عليها بعض التغييرات وذلك في أسماء فرق المحلات العسكرية، فبعد أن كانت التشكيلات يطلق عليها الموحدين أو الزمازمة، صارت تسمى الجوانب أو الصباحية والمزارقة، وألحقوا بالمحلة قاضياً حفصياً كالحفصيين، وكان هذا القاضي تعينه الدولة من الأتراك[٢]

كان سنان باشا قد وضع قوة عسكرية في تونس قوامها أربعة آلاف جندي من الانكشارية بقيادة الوالي العثماني حيدر باشا، ووضع على رأس كل مائة رئيس[٣] بلوك باشي (Bluk Bos) ويشكل مجموعهم الديوان، الذي اهتم بادىء الأمر بشؤون الجنود الانكشاريين، أما طائفة الرؤساء البحريين فأخذوا على عاتقهم مراقبة أعمال القرصنة المسيحية[٤]، ثم فرض سنان باشا على طائفة الصناع الأعمال، وأشغلهم بعمل المدافع والتحصينات ثم رتب القوانين وسن الأنظمة وأصلح شؤون العامة، ونظم الادارة، وجعل الخطبة باسم السلطان العثماني، وعند توجهه للاستانة أوصى حيدر باشا الوالي العثماني على تونس باليقظة والحذر، وأمره بأن يصرف أموال الجباية في تقوية القلاع والحصون الموجودة في أنحاء تونس، وإدارة المصالح الضرورية، وغادر سنان باشا البلاد بعد أن اطمأن عليها[٥] .

أديرت تونس وطرابلس معاً من قبل حيدر باشا، وذلك بعد وفاة حاكم طرابلس مصطفى باشا ٩٨٢ هـ / ١٥٧٥ م، وكان مصطفى باشا، قد رمم

(١) صلاح العقاد : المغرب العربي ، ص ٣٣ .

(٢) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٢٦ .

(٣) محمد بيرم التونسي : صفوة الاعتبار ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

(٤) عبد الرحمن تشانجي : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ، ص ٢٩ .

(٥) اسمعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول الجار ، ج ١ ، ص ٤٢١ .

المسجد الكائن في طرابلس، كما سك النقود باسم سلاطين آل عثمان، وعمل على تحسين حالة الأهالي [١].

كان ديوان الانكشارية ينظر في شؤون الجند، وكان البايات يتشاورون مع ديوان الانكشارية في الشؤون الهامة، وديوان الباشا هو مركز الادارة الأساسي وجميع الأعمال تقرر وتنفذ على يديه، وكان أغاوات الانكشارية يعينون بالترقية من نواب الانكشاريين، إلا أنه قد يحدث أن يعين ويرسل من الاستانة وكان أغاوات الانكشاريين يتنقلون حسب الحاجة التي يراها الحاكم.

قسم حيدر باشا تونس إلى ألوية، وعين حكام للألوية وأسست قيادات أرسل لها قادة، كما عين حسين أفندي أحد كبار العلماء قاضياً للعمل بالأحكام الشرعية، وأوفد لكل الجهات قضاة ونواب، وتحددت مرتبات الجنود والحكام والكتاب ووظائف الديوان.

وكان الانكشاريون في عهد حيدر باشا شأنهم في كل مكان، يقومون بمشاغبات، وكان الباشا يسعى لاصلاحهم وتنظيمهم ولما كان التونسيون لم يألفوا بعد الادارة العثمانية فإن كثيراً من المفسدين حرصاً منهم على مكاسبهم الخاصة ـ يسعون لضمهم إلى صفوفهم في العمل للاتحاد مع المسيحيين ولما عرف حيدر باشا بعض هؤلاء المفسدين استخدمهم ضد الآخرين منتهجاً بذلك سياسة إضعافهم وتصفيتهم [٢].

أصاب الفقر تونس، وصغرت كثيراً، وبما أن التمرد استمر في هذا الأقليم، فقد تعذر جباية الضرائب، كما أن اعتداءات الأساطيل المسيحية قد زاد من صعوبة الجباية، لذا فقد كانت الواردات عبارة عن واردات مدينة تونس.

ولما كان حيدر باشا يبذل جهوده للمزيد من التحصينات من بنزرت

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٨٨ .
(٢) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في فريقيا الشمالية ، ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠ .

وتونس، إلا أنه كان يفتقر للمـال فكتب للباب العـالي يعرض عليـه، أن ولاية تونس لم تسلم إليه وهي عامرة، بل كانت محتاجة للاعمار، وأنه عندمـا وصل لادارتها لم يجد بارة واحدة في خزينتها وأن بذل كل جهوده لاعمارها ولما كانت سواحل العدو قريبة فهو مضطر للانفاق على عدد كبير من الجنود وبما أن الجنود الكثيرين يحتاجون لمصاريف كبيرة، فقد زادت نفقاتهم لذلـك استرحم حيـدر باشا من الباب العالي بإلحاق القيروان والمنستير بتونس.

استجـاب الباب العـالي إلى طلب حيدر بـاشا، وأمـر بإعـطاء القيـروان والمستنير إلى تونس، على أن تقـدر وارداتها، وبعـد تنزيـل المصاريف يـرسل الباقي للاستانة [١].

لم يـأل جهداً حـاكم قفصة ذو النـون في بث الفتنـة والفسـاد في أنحـاء تونس، فانتشرت أقواله الداعية لاثارة العربان، وعمت الفـوضى بينهم، لذلـك باشر حيدر باشا بنفسه ردع حاكم قفصة فقـد وصلته الأوامـر من الباب العـالي بذلك، كما أرسل له من طرابلس ألف جندي ومدافع عن طريق البر، وشحنت أسلحة ومدافع بسفينة خفيفة بقيادة حاكم المنستير، وزحف الوالي السابق رجب باشا أيضاً على رأس أكثر من خمسمائة فارس، وأمام تلك القوات لم يستطع ذو النون الصمود في قفصة، فانهزم مع بعض أعوانه ولجأوا إلى قلعة نفعة التي كان بها في السابق [٢].

استولت القوات التابعة لحيدر باشا على قفصة، وأرسل محمود بك حاكم فزان على رأس ألف فارس في اثر ذي النون، الذي تسلل من حصار نفعة أيضاً وانسحب إلى جبال تبغة بعد ذلك قام حيدر باشا بالاستيلاء على عدة قلاع ومدن وقتل ألفاً من المتمردين ورحل الباقون فعين إلى تونس وجربة وطرابلس [٣].

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٦٤ .
(٢) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٦٥ .
(٣) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٦٥ .

انفصلت طرابلس عن تونس في ١٨ ربيع الأول ٩٨٥ هـ / ٨ يوليو ١٥٧٧ م، وصارت ولايتين وأوفد النشاقرجي حسن باشا من الديوان السامي معيناً لامارة طرابلس وبقي حيدر باشا على تونس فقط، إذ صدر إليه الأمر الآتي :

يؤمر أمير أمراء تونس حيدر باشا :

« فصلت الآن إمارة طرابلس الغرب ووجهت في ١٨ ربيع الأول سنة ٩٨٥ هـ إلى تشاقرجي باشا المقام السامي الذي هو حسن باشا دام اقباله وتقرر أن تبقى إمارة تونس لك بنفس المخصصات المذكورة في مرسوم تعيينك لها في السابق وعليك أن لا تغمض طرفك عن حراسة طرابلس الغرب والمحافظة عليها إلى أن يصل المرى إليه لذلك الجانب ».

في ١٨ ربيع الأول ٩٨٥ هـ[١] .

إن طرابلس الغرب بالنسبة إلى تونس والجزائر بلاد فقيرة والأماكن المسكونة منها هي الواحات والسفوح الشمالية للجبال والوديان، وكانت الأراضي التي تزرع وتحصد قليلة، وكانت القواعد التي وضعتها الحكومة هناك لجباية الضرائب هي نفس تلك في الولايات الأخرى إذ يخرج الجنود مرتين في العام للجباية [٢].

اشتكى أهالي تونس حيدر باشا ووجهت شكاوى كثيرة للاستانة، الذي صدر أمرها بنقل حيدر باشا إلى طرابلس الغرب وتعيين رمضان باشا،نائب قلج علي في الجزائر [٣].

استقرت الأمور في تونس وصارت أكثر هدوءاً وتنظيماً، إذ منحت الحرية

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشالية ، ص ٨٩ .
(٢) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في فريقيا الشمالية ، ص ٩١ .
(٣) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ص ٢٧٠ .

للزوايا الدينية، والمدارس التونسية بناء على تعليمات الباب العالي بأن لا يتعرض أحد لهذه المؤسسات وكان أشراف وأعيان تونس قد بعثوا تقريراً للاستانة يثنون فيها على خدمات رمضان باشا، ويطالبون بعدم تعرض أحد لتلك المؤسسات.

ظل رمضان باشا في منصبه بتونس التي يعرفها جيداً عدة سنوات إلا أنه في الثامن من شهر رمضان سنة ٩٨٧ هـ الموافق أكتوبر ١٥٧٩ م، عين حاكماً للواء تلمسان أن تعيين رمضان باشا من منصب أمير أمراء تونس إلى حاكماً للواء يعد انتقاصاً لمكانته، إلا أن ذلك من المؤكد أنه مكلف بأعمال تتعلق بفاس ومراكش[(١)]

قام حسن فنزيانو نائب قلج علي في الجزائر بالهجوم على الأراضي الاسبانية وجزر البليار، وبعد أن قضى حسن فنزيانو ثلاث سنوات، استدعى إلى اسطنبول وسافر إليها سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م، وعين بدلاً منه جعفر باشا وفي عهده بلغ وحدات الأسطول العثماني في الجزائر ستين قطعة منها خمس وثلاثون بارجة وعشرون مركب حربي.

استطاع جعفر باشا أن يخمد الثورات التي قامت في أنحاء الجزائر ثم أدخل بعض الاصلاحات في الادارة العسكرية وأنشأ قلعة الكيفان الموجودة شرق الجزائر[(٢)].

تولى أمر السعديين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذي كان يضمر الشر لعميه عبد الملك ابى مروان وأحمد المنصور فخرجا من المغرب واتجها إلى السلطان العثماني يستنجدا به[(٣)]، وما من شك في أن

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية، ص ٢٧٠ .
(٢) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، ج ٣، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .
(٣) محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق العربي، ص ٢٦٥ .

انتصار العثمانيين في تونس ضد الاسبان واستباب الأمر فيها، قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربي، لبسط نفوذهم على البلاد، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للدلة العثمانية، ويوطد أقدام العثمانيين في مجموع الشمال الأفريقي علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب في قلوب الاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في اسطنبول(١).

تابع المتوكل على الله خطة والده في التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين، حيث لم يعد لديه شك في أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية فعقد اتفاقاً مع انجلترا، التي كانت ترغب في تنمية تجارتها مع المغرب للفوائد التي تعود على التجار الانجليز من وراء ذلك، زيادة على أنها تدرك الأهمية العظمى التي للمغرب، خصوصاً وقد كانت انجلترا في حالة حرب ضد اسبانيا(٢)

وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الانجليز، يعد العمل الوحيد الذي قام به خلال حكمه القصير، وقد فعل ذلك باعتبار أن الانجليز كانوا من بين التجار الأجانب الذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر وأسلحة للمغاربة منذ زمن بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل في هذا الوقت إلى السلاح لصد الخطر العثماني ولمقاومة عمه المطالب بالعرش.

وجدت الدولة العثمانية في انشغال ملك اسبانيا فيليب الثاني بأحداث أوروبا الغربية حيث ثورة الأراضي المنخفضة، فرصة مناسبة للتدخل في المغرب(٣)، فأمدوا المولى عبد الملك بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأحسن الأسلحة، ودخل المولى عبد الملك فاس بعد أن أحرز انتصاراً

(١) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ٩٧ .
(٢) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، ص ٩٤ .
(٣) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ٩٧ - ٩٩ .

كبيراً على ابن أخيه المتوكل وعاد الجيش العثماني أدراجه إلى الجزائر [1].

ظلت العلاقات بين المولى عبد الملك والعثمانيين هادئة بسبب انصراف السلطان السعدي إلى تثبيت دعائم حكمه، وشاء عبد الملك أن ينهج بالمغرب سياسة جديدة، تكسبه احترام الجميع لهذا فقد تودد للسلطان العثماني وأرضى قواته التي جاءت لمساعدته كما أرسل إلى ملك فرنسا هنري الثالث مع الضابط (Luis Cabrette) يطلعه على أحداث المغرب ويخبره بتوليه حكم البلاد، كما كلف الضابط نفسه، بنفس المهمة لدى ملك اسبانيا فيليب الثاني [2].

قام تاجر انجليزي يدعى جون وليامز، والذي كان يعمل وكيلاً لأدموند هوجان، أحد كبار تّجار لندن، قام ببيع كمية كبيرة من قنابل المدافع إلى الحاكم السعدي عبد الملك، وقد حصل الانجليز مقابل ذلك من المغاربة على كمية من نترات البوتاسيوم وكان هذا بمثابة تفاؤل هام، لأن حكام المغرب السعديين كانوا قد منعوا تصدير هذه المادة وقصروا استخدامها على قواتهم.

وكان عبد الملك في حاجة إلى قنابل المدافع، خاصة وأنه كان قد اشتبك قبل ذلك بقليل في قتال ابن أخيه محمد المتوكل، وقد سعى بعد ذلك القتال إلى تدعيم مركزه في مراكش وكان ما أبداه من استعداد لتقديم نترات البوتاسيوم إلى النصارى إنما يعبر عن تلك الحاجة، ذلك أن المسلمين الحقيقين كانا يستنكرون مثل هذا العمل شأنهم في ذلك المسيحيين الذين أدانوا بيع السلاح والذخيرة إلى المسلمين[3]، الجدير بالذكر أنه كان من أسباب توثيق العلاقات الانجليزية مع الملوك السعديين في هذا الوقت تلك العداوة المشتركة من جانبهما تجاه اسبانيا، ذلك أن الملكة اليزابيت والحكام السعديين قد تخوفوا من

(١) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، ص ٩٤ .
(٢) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ٩٩ .
(٣) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ، ص ٤٢ .

الروح الصليبية لفيليب الثـاني وكانت نتيجـة ذلك تـوثق العلاقـات الوديـة بين الملكة البروتستنتية والملوك المسلمين [١] .

وكان السلطان السعدي محمد المتوكل بعد هزيمته من عمه عبد الملك قد اتصل بملك البرتغـال سبستيان (Sebastian) واتفق معـه على أن يعينه على طرد عمه من حكم المغـرب، وأن يتنازل لـه مقابـل ذلك عن جميـع شواطىء المغرب، فقبل سبستيان ذلك العرض المغربي [٢] .

انتقل المتوكل إلى سبتة وأقام بها أربعة شهور، ومنها اتجه إلى طنجة في انتظار دون سبستيان على رأس القوات العسكرية، ومن هنا وجه المتوكل كتاباً إلى علماء المغرب يبرر فيه علمه، إلا أن العلماء استنكـروا تصرفـاته وأجـابوه بخطاب طويل وهام.

وبإلتجاء المتوكل إلى طنجة حيث الحامية البرتغالية خضعت معظم البلاد لعمه عبد الملك، ولم يبق خارجاً عنه غير منطقة الغرب التي تضم القصر الكبير وأصيلا والعرائش، والتي كانت تحت حكم عبد الكريم بن تؤدة صهر المتوكل الذي طلب النجدة من البرتغال مقدماً لهم مـدينة أصيـلا التي سرعـان ما وقـع احتلالها من طرف البرتغال [٣] .

إن تمادي ملك البرتغال دون سبستيان في خطته الرامية إلى غزو المغرب بدعوى مساعدة المتوكل وحرصه على اغتنام هذه الفرصة، جعل ملك اسبانيـا فيليب الثاني الذي كان منشغلاً بأحداث أوروبا الغربية ونزاعه مع بريطانيا يبعث إلى قريبه دون سبستيان عدة سفارات يحذره من مغبة أعماله ومن السفارات التي وجهها فيليب الثاني إلى لشبونة (Don Luis de Silba ثم Don Juan de Silba) كمـا بعث إليه سفيـراً فوق العـادة هو (Don Medina Sidonia) ولكن جميـع

(١) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ، ص ٤٨ .

(٢) محمد عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب ، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٣) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

المحاولات باءت بالفشل، لاصرار ملك البرتغال على اغتنام الفرصة للتدخل في المغرب، واستعادة نفوذ بلاده [1] .

وفي أثناء استعدادات الدول المسيحية وخاصة البرتغال للوثوب على المغرب، وإخضاعه بالكامل، أرسل العثمانيون مدربين وأسلحة متنوعة، واشفعوا في ذلك بفيلق عسكري [2] ، حيث تتجلى هنا الروح الاسلامية في الدفاع عن عقيدتهم لأن المعركة هنا تهم الدولة العثمانية، التي كانت تحمل على عاتقها حماية المسلمين وأراضيهم بعيدة عن المصالح المادية.

تقدم دون سبستيان ملك البرتغال مدفوعاً بروح صليبية إلى المغرب مستهدفاً إخراج شعبه عن الاسلام [3] ، وذلك على رأس قوات جرارة، وأرست جميع قطع الأسطول بمدينة أصيلا، التي اتخذت نقطة انطلاق لغزو المغرب، وقد كان وصول القوات المهاجمة يوم ٦ جمادي الأول ٩٨٦ هـ / الاثنين ١٢ يوليو١٥٧٨ م، حيث عسكرت بضواحي مدينة أصيلا وعلاوة على قوات المتوكل، أما المولى عبد الملك الذي كانت عيونه تراقب كل تحركات الحملة البرتغالية منذ خروجها من لشبونة في ١٨ ربيع الثاني ٩٨٦ هـ / ٢٥ يونيو ١٥٧٨ م، فقد خرج من مراكش في اليوم التالي وقصد مدينة سوس، وذلك لاعداد وتجهيز القوات العسكرية ثم عاد إلى مراكش وخرج منها باتجاه الشمال حيث عسكر في منطقة الخميس ثم تحرك ووصل تاسنا فسلا فالمعمورة، ونصب بها بعض قطع المدفعية لكنه أدرك هنا بنزول الحملة في أصيلا، والتقى الجمعان قرب وادي المخازن وجرت معركة حاسمة في تاريخ المغرب يوم الاثنين ٣٠ جمادي الاول سنة ٩٨٦ هـ / ٤ أغسطس ١٥٧٨ م عرفت بمعركة وادي المخازن [4] ، إن معركة وادي المخازن التي تعد أعظم حدث عسكري

(١) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ١٠٣ .
(٢) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، ص ٩٤ .
(٣) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ، ص ٤٥ .
(٤) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ١٠٤ .

في تاريخ المغرب الاسلامي، لم تسل فيها دماء الأتراك إلى جانب المغاربة فحسب، بل دبرت فيها خطط عسكرية بالغة الدقة على يد القواد العثمانيين[1] الذين استطاعوا الحاق الهزيمة بالوات البرتغالية سقط بها آلاف القتلى وعلى رأسهم دون سبستيان، والمتوكل، وعبد الملك، لذلك اشتهرت باسم معركة الملوك الثلاثة[2]، وبذلك صار شمال أفريقيا كله في دائرة النفوذ العثماني وحانت الفرصة الحقيقية لتحقيق ذلك لو قدر لها أن تكون في ضمائرهم.

اعتلى أحمد المنصور عرش المغرب بعد مقتل أخيه عبد الملك المعتصم فأعم غالبية القواد الأندلسيين وذلك بعد أن اتضح وجود اتفاق بين الموريسكيين والأتراك لقلب نظام الحكم وتأسيس دولة أندلسية تحت الحماية العثمانية[3].

استقبل أحمد المنصور عدداً من السفراء الذين قدموا لتهنئته، وكان من بين هؤلاء سفير البرتغال، والوفد العثماني الذي قدم هديته إلى المنصور عبارة عن سيف مرصع، إلا أن المنصور، بدرت منه جفوة تجاه الوفد العثماني كان كافياً لقيام الحرب بين البلدين[4]، فحاول قلج علي وزير البحرية تحريض السلطان لارسال حملة إلى المغرب، لكن المنصور السعدي أرسل وفداً مغربياً لاسترضاء السلطان برئاسة أحمد بن يحي الهولي، كما حمل رسالة خاصة إلى باشا الجزائر حسن البندقي[5].

(١) ابراهيم حركات : التأثير العثماني في المغرب ، اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب وحضارته ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٤) صلاح العقاد : المغرب العربي ، ص ٥٧ ، عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الادب العربي ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٣) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ، ص ٩٤ .

(٤) ابراهيم حركات : التأثير العثماني في المغرب ، اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٥) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥٣ .

ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٢٤٦ .

بدأت القوات الاسبانية في اكتساح الأراضي البرتغالية، ولم يستطع الأمير البرتغالي دون أنطونيو (Don Antonio) مقاومة تلك القوات الاسبانيـة، التي ضمت أراضيه سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م، عند ذلك اقترح السلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكري ضد الاسبان على أساس امداده بـأسطول حـربي وقوات عسكرية فبعث برسالتين في رجب ٩٨٨ هـ / سبتمبر ١٥٨٠ م، قال فيها « . . . فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وأنه احتوى على سلطنة برتغال، أو كاد وأنه جعل أهلها في الاغلال والأصفاد، وأنه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الاسلامية . . لاظهار الالفة الأزلية أن تتخذ عهداً ونؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة المورة والحوضة المعظمة فإذا تم هذا الشـأن . . نوجـه لكن ثلاثمـائة غـراباً سلطانيـة وجيش عز ونصر وكماه عثمانية تستفتح بها إنشاء الله بلاد الأندلس . . . »

كما قبل في نفس الوقت السلطان العثماني زواج المنصور من إحدى بناته « عهدنا إلى أمير الأمراء . . أن يصهر لكم على إحدى بناتنا . . إسعافاً لغرضك المنيف . . » غير أن المنصور تردد في جوابه [١].

عقـدت الدولـة العثمانيـة نتيجة لتـطور الأحداث في الأنـاضول وفـارس وأوروبا هدنة في ١٨ ذو الحجة ٩٨٨ هـ / ٢٥ ينـاير ١٥٨١ م مـع اسبانيـا [٢] وحتى تهيء الدولة نفسها لفرض نفوذها على المغرب .

كان قلج علي بعد استقرار الدولة العثمانية في تونس بدأت انظاره تتطلع إلى المغـرب [٣]، وأخذ يعمـل في توحيـد الوجهـة السيـاسيـة لبـلاد المغـرب الاسلامي، لضمه إلى الدولة العثمانية [٤] خـاصة بعـد تذبـذب موقف المـولى

(١) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ١١١ - ١١٢ .
(٢) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P . 98 .
(٣) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥٢ .
(٤) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ١٠١ .

أحمد المنصور الأخير من الدولة.

صدرت الأوامر إلى قلج علي قائد الأسطول العثماني بالتوجه إلى المغرب لضمه للدولة العثمانية، فوصل قلج علي إلى الجزائر في جمادي الثانية ٩٨٩ هـ / يونيو ١٥٨١ م، بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر تانسيفت، وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثماني، إذ جهز المنصور جنوده وتقدم بها حتى حدود بلاده، كما سد مداخل مملكته، وحصن الثغور، وإلى جانب تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لاسطنبول وذلك بعد أن توصل إلى شبه اتفاق عسكري مع الملك الاسباني الذي انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة في ٢٧ جمادي الثاني ٩٨٩ هـ / ٣١ يوليو ١٥٨١ م، على أساس تقديم المساعدة العسكرية للمغرب، لمواجهة التدخل العثماني، مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات أخرى وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثمان بداً من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن أمر قلج علي(١)، وجعفر باشا نائب قلج علي في الجزائر، بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال إلى الشرق، حيث اضطربت الأمور بالحجاز فتخلى قلج علي عن هدفه الطموح في استرداد الأندلس، بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الاسلامي(٢).

شجع المولى أحمد المنصور السعدي التجارة مع انجلترا وذلك لحاجته إلى أنواع جديدة من الأخشاب المتوفرة في أوروبا لبناء أسطول جديد لمواجهة العثمانيين، غير أن انجلترا كانت حريصة على الاحتفاظ بتلك الأنواع من الأخشاب لبناء اسطولها، ومع ذلك فإنه عندما قدم أحد التجار لانجلترا واحد المتعاملين مع المغرب ويدعى جون سيمبكتس، ضماناً للملكة اليزابيت في جمادي الأول ٩٨٩ هـ / يونيو ١٥٨١ م، بأنه سوف يستبدل الأخشاب بنترات

(٥) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص ١١٢.

(١) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر، ص ١٠١.

البوتاسيوم أعطته تصريحاً بقطع ستمائة طن من النوع المطلوب من الأخشاب في كل من سكسي وهامبشير لتصديرها إلى المغرب [١].

كان لتراجع الدولة العثمانية عن مشروعها في المغرب وشبه الجزيرة الايبرية، والاتفاق القائم بين ملك اسبانيا فيليب الثاني والمولى السعدي المنصور كان لذلك أثره في حياة الموريسكيين الذين فقدوا كل الآمال لتلقي المساعدات فقامت الحكومة الاسبانية بمحاولاتها نحو فصل الموريسكيين عن حلفائهم في شمال أفريقيا، وذلك بمنعهم من الدخول إلى المناطق البحرية في الأندلس وفالينسيا، وأعلنت الحكومة الاسبانية رسمياً « بأنه ينبغي حصر جميع المورسكيين، الذين لا يخفون عداوتهم عند الحكومة وحيث أن المورسكيين قد تجردوا في انسانيتهم بسبب المعاملة القاسية لذلك تناقص عددهم، وتحولوا إلى الجريمة وقطع الطريق كأسلوب لحياتهم . . .) [٢]

جهز الوالي العثماني في الجزائر أسطوله في سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م، لمحاربة اسبانيا فوق أرضها، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة فأعملوا فيها تدميراً ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكناري التي تحتلها اسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا ما فيها ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرد التنكيل بالاسبانيين ولتدمير منشآتهم بل كان يهدف بالدرجة الأولى انقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم أحياناً [٣].

ازداد تطاول الانكشارية في الجزائر على الأهالي في الوقت الذي انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحري على نطاق واسع [٤]، لذلك حضر حسن

(١) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات المغربية الانجليزية ، ص ٤٦ .
(٢) PAul Coles : The Ottoman Impact on Europe P . P . 128 - 129 .
(٣) بسام العسيلي : الجزائر والحملات الصليبية ، ص ٦٣ .
(٤) محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥٩ .

فنزيانو من نشاطه البحري، الذي بادر إلى عودته إلى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود، فانتصب على الجزائر للمرة الثانية، وفرض طاعته على الرعية وذلك في ربيع الثاني سنة ٩٩١ هـ / ابريل ١٥٨٣ م، ولم يعارض الباب العالي في توليه، لما كان له من الفضل في حسم الخلاف وإطفاء نار الفتن واستتباب الأمن بالجزائر.

باشر حسن فنزيانو تسيير الادارة بما عهد منه من نشاط وحزم فإنه لم يترك قيادة الأسطول العثماني بالجزائر لغيره، وكثرت في أيامه المغانم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الاسبانية والجزر الشرقية من نفائس، وبما كان يستولى عليه من الأسرى ومغانم البلاد في غزواته.

وفي ٩٩٢ هـ / ١٥٨٤ م أبحر حسن فنزيانو بأسطوله على ثغر بلنسيه وحمل اعداداً كبيرة من الموريسكيين، إذ انقذهم من اضطهاد الاسبان، كما استطاع في السنة التالية انقاذ جميع سكان كالوسا، إذ حملهم إلى الجزائر وفي السنة بعدها توغل مراد رايس في المحيط الأطلسي فأغار على جزر الكناري وغنم منها غنائم كثيرة بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر، وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر إلى أن استدعاه السلطان إلى اسطنبول ليتولى منصب امارة البحر « قبودان دوريا » (١) وذلك بعد وفاة قلج علي سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م وبوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظام البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السلطة والنفوذ واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس (٢)، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني يخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

وكان الباشا موظف ترسله الاستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم

(١) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .
(٢) احمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة ، ص ٤١٠ .

البلاد دون أن يكون له سند أساسي أو سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد[1] ، ويكون الباشا في كل من طرابلس وتـونس والجزائـر وكيلاً للسلطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة أسطنبول[2] .

كانت أحداث ما بعد ٩٩٧ هـ / ١٥٨٨ م في النيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطة فيهـا على حساب سلطة الباشا إلا أن طبيعة علاقات السلطة في داخل الولايـة، مع امساك السلطنة العثمانية بسلطة إصدار الفرامانات، قد ضمنا تحقيق الأهـداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة بـاسم السلطان وتحصيل الصيبـة سنويـاً والمساهمة في حروب الدولة والقبول بالباشـا القادم من الاستـانة ممثـلاً أعلى للسلطان في حكم النيابة وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية[3] .

كان ذلك هو التحول الذي جرى في الدولة نحـو الشمال الأفـريقي، إثر المعركة ليبانتو سنة ٩٧٨ هـ / ١٥٧١ م، فبعد أن كان الشمال الأفـريقي تحت مسؤولية البيلربك الموجود في الجزائر، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات هي طـرابلس وتونس والجـزائر وصـارت ولايات عـادية مثلهـا مثل سـائر الـولايات العثمانية الأخرى، مع الابقاء على خطة استرداد الأندلس وانقاذ المسلمين فيها، إذا ما سنحت الفرصة لذلك، وقد ظهر ذلك فيما سبق، إلا أن موقف السعديين من جهة وتصرف بعض الانكشاريين في الدولة من جهة أخـرى، جعل الـدولة العثمانية تصرف نظرها عن تلك الخطة الطموحة.

(١) صلاح العقاد : المغرب العربي ، ص ٢٨ .
(٢) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون ، ص ٢٢٠ .
(٣) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ٢٣٩ .

كان من أعظم الانتصارات التي حققتها الدولة في مطلع القرن العاشر الهجري / الخامس عشر الميلادي ، دخول الحجاز تحت السيادة العثمانية ، اذ اكد ذلك زعامة الدولة العثمانية للعالم الاسلامي وقد مر بنا انه كانت هناك ثلاث دول اسلامية كبرى تنافست على تلك الزعامة هي الدولة الصفوية في بلاد فارس ودولة المماليك في مصر والشام ولها السيادة على الحجاز ، والدولة العثمانية في الاناضول والبلقان .

ولما كان من اهداف الصفويين نشر المذهب الشيعي في ارجاء العالم الاسلامي فقد قامت الدولة العثمانية بمحاصرة الشيعة في داخل بلادهم ، وحتى لا يتمكنوا من التوسع في نشر مذهبهم ويضطهدوا اهل السنة في مناطق العالم الاسلامي ثم ظهر اخفاق المماليك في الدفاع عن المقدسات الاسلامية ، على الرغم من مساعدة العثمانيين لهم في ذلك ، فرأت الدولة هنا ضرورة حمل لواء الدفاع عن تلك المقدسات ، وسبق وان تحدثنا عن صراع الدولة العثمانية مع البرتغاليين في البحار الجنوبية ، وكيف استطاعت الدولة ان تجعل من البحر الاحمر بحيرة اسلامية وان توقف النشاط البرتغالي فيه .

كان العثمانيون يقدرون اهمية المحافظة على نفوذهم في الجزيرة العربية التي تحتضن بين جنباتها مقدسات المسلمين ، فكانت حماية العثمانيين لتلك المقدسات ضمانا لزعامتهم للدول الاسلامية ، واحتفاظا بلقب السلطان

العثماني خليفة للمسلمين وحاميا للحرمين الشريفين [١] لذلك فلم يكن هناك بد من استمرار الحجاز جزء من الدولة ، ومن هذا المنطلق حاول العثمانيين دائما ان يحيطوا الحجاز بسياج واق ودرع قوي [٢] والدرع القوي معناه هنا هو بناء استحكامات عسكرية في المنطقة التي تلي المنطقة المراد حمايتها ، وذلك حتى تبعد بقدر الامكان الخطر عنها لتنعم بسلام وطمأنينة ، وكان الحجاز من امناطق التي اهتم السلاطين العثمانيين بحمايتها وحماية الطرق المؤدية اليها .

اعتبر العثمانيين السواحل اليمينية الخط الدفاعي الاول للزود عن البحر الاحمر والاماكن المقدسة الاسلامية ، فاليمن بحكم موقعها الممتاز في جنوب الجزيرة العربية ، ولقربها من مدخل البحر الاحمر ، وخاصة باب المندب يوفر للدولة العثمانية ميزات عديدة منها امكانية الحصول على موقع مناسب لمواجهة الاساطيل البرتغالية في المياه الجنوبية ، كذلك امكانية ضمان سلامة الاماكن المقدسة ، وذلك على اعتبار اليمن درع قوي ، واخيرا موقع مناسب يتم من خلاله محاولة تطويق الفرس من الجنوب[٣]

ركز العثمانيون انظارهم كذلك على عدن وذلك لوجودها على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ولها ميزات عديدة منها انها ميناء طبيعي ممتاز فهي عبارة عن حائط من صخور نارية ورمال قاحلة واضافة الى التحصين الطبيعي الذي حبته به الطبيعة كان يجعل الدفاع عنها امرا سهلاً ميسوراً بالنسبة لمن يسيطر عليها ، واخيرا خشية العثمانيين من وقوعها في ايدي البرتغاليين والتي كانت بالنسبة لهم قاعدة مناسبة لاغلاق البحر الاحمر في وجه السفن التجارية والحربية ومن ثم تهديد الاماكن المقدسة[٤] ، كل ذلك يفسر بأن هناك

(١) نبيل رضوان : الدولة العثمانية وغرب الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ، ص ١٥ .
(٢) نبيل رضوان : الدولة العثمانية وغرب الجزيرة العبية بعد افتتاح قناة السويس ، ص ١٩١ .
(٣) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٣١ .
(٤) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٢٤١ .

استراتيجية صحيحة للدولة في جنوب الجزيرة العربية في وقت ان البرتغاليين لم يكن لهم تلك الثقافة .

استمرت الدولة في تدعيم مركزها باليمن فأخذت تتوسع داخل ارجائه مما ادى الى وقوع الصدام بينها وبين ائمة الزيدية ، فسيطر العثمانيون على تعز وصنعاء ولكن المحافظة على صنعاء او اي من المدن الجبلية امر صعب للغاية ، وذلك امام مقاومة اتباع الامام الزيدي ، الذي كان يسيطر على المنطقة الجبلية الشمالية الممتدة من صعدة شمالا الى ذمار ورادع جنوبا وعلى الرغم من ان بقية اجزاء اليمن يدين معظم سكانها بالمذهب الشافعي السني ، فقد التقوا مع اخوانهم الزيديين لمقاومة العثمانيين الذين اختلفوا عنهم في الجنس واللغة واحسوا انهم اعداء مغتصبون وان كانوا يدينون مثلهم بالاسلام ويتبعون المذهب السني .

قسمت الدولة العثمانية اليمن الى قسمين وذلك في شوال سنة ٩٧٣ هـ / ١٥٦٦ م نظرا لاستمرار مقاومة الامام الزيدي المطهر للوجود العثماني ، فتعين مراد بك سنجق غزة السابق على زبيد وتهامة ، بينما تولى رضوان باشا على صعدة وصنعاء واب ، وجبلة عد .[1]

ارسل مراد باشا الى الباب العالي مكاتبات المطهر اليه ، والتي توضح فيه اطماع رضوان باشا الزائدة في جمع الخراج وتكليف السكان بما لا يطيقونه مما ادى الى اثارة حفيظة السكان فأدى ذلك الى عزل رضوان باشا ، بحسن باشا ووصل الامر السلطاني الى مراد باشا بأن يحفظ جهات صنعاء حتى يصل متوليها حسن باشا ، هذا ولما خلت صنعاء من رضوان باشا وكبار رجالات الدولة المتصفين بالشجاعة ولم يبق في صنعاء الا جنود قليلة نزل المطهر على صنعاء وقطع عنها الميرة ، فضاق الجنود لذلك وجاعوا فتحرك مراد باشا من تعز متجها الى صنعاء ، الا ان المطهر كاتب اهالي اليمن ودعاهم للخروج عن طاعة

(١) قطب الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ص ١٦٥ .

السلطان العثماني فأجتمعت القبائل لدي المطهر الذي دخل صنعاء بعد ان القى العثمانيون هزيمة ساحقة[١] ، وعقد العثمانيـون صلحا مـع القرى الـزيديـة ، انسحب العثمانيون بموجبه الى زبيد وسهول تهامة ، حتى ترد اليهم الامدادات لتساعدهم على حكمهم في اليمن بأكمله وقد وجه المطهر عدة حملات بقيادة علي بن محمد الشويع لاحتلال مـدينة زبيـد التي احتفظ بها العثمـانيون كخط دفاعي لهم[٢] ، الا انه فشل المطهر في تحقيق ذلك ، واستطاع الاستيلاء على معظم المناطق الساحلية بما في ذلك عدن ، بحيث لم يبقى في أيدي العثمانيين سوى المناطق المحيطة بزبيد .

شعرت الحكومة العثمانيـة بخطورة المـوقف وقررت ارسـال حملة كبرى الى اليمن بقيادة سنان باشا وقد اهتم السلطان العثماني سليم الثاني اهتاما كبيرا بارسال تلك الحملة ، لإن اليمن كان يمثل جزءا هاما من استراتيجية العثمانيين في البحر الاحمر وهي غلق هذا البحر امام الخطر البرتغالي[٣] علاوة على ذلك يكون درعا قويا للحجاز ، وقاعدة للتقدم في المحيط الهندي .

وصل الوزير العثماني سنان باشا الى مصر تنفيذا لاوامر السلطان وهنـاك اجتمعت لديه الجنود من كافة الانحاء ، حتى انه لم يبق في مصر الا المشـايع والضعفاء[٤]

تحركت الحملة ووصلت الى ينبع واستقبله هناك قاضي القضاء في مكة وعند وصوله الى مكة المكرمة استقبله اهلها ودخلت الجيوش العثمانية معـه ، وكـان جنود مصـر انتقلت الى مكة بـالاضافـة الى جنود الشـام وحلب وفرمـان ومرعش ، وضبط سنان باشا الجنود ، واجرى الصدقات واحسن على العلمـاء

(١) قطب الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ص ١٧٣ - ١٧٧ .
(٢) فاروق عثمان اباظة : الحكم العثماني في اليمن ، ص ٢٢ .
(٣) عمر عبد العزيز عمر : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .
(٤) يحيى بن الحسين : غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ، ج ٢ ، ص ٧٣٣ .

وقرر الكثير من الفقهاء المجاورين من الخزائن السلطانية ، ومكث سنان باشا عدة ايام في مكة [١] ، وغادرها الى جازان ، وعندما اقترب منها ، هرب حاكمها من قبل الامام الزيدي المطهر ، واقام سنان باشا في جازان ، فأقبلت عليه العربان يطلبون الطاعة وكان منهم اهل صبيا فأكرمهم سنان باشا وخلع عليهم وكساهم كما اقبلت عليه وفود عربان اليمن وبذلوا الطاعة طالبين الامان .

اسرع سنان باشا الى تعز ، بعد ان ضبط جازان اذ بلغه ان الوالي العثماني في تعز ومن معه من الجنود في ضيق من امرهم بسبب قطع عرب الجبال عليهم الميرة ، وحصل عليهم المجاعة ، فقطع الوزير سنان باشا المسافة في غاية السرعة ، ونزل خارج تعز ، وانتشر جنوده في جبالها ولما شاهد الزيديون كثافة ذلك الجيش ، اعتصموا باحد الجبال المسمى الاغبر .

قام سنان باشا وجزء من جيشه بمتابعة الزيود في جبل الاغبر ، وتمكنوا منه عند ذلك خرج اليزد من مخابئهم لمواجهة العثمانيين ، فأنهزم الزيود وولوا هاربين فأنعم سنان باشا على جميع الجنود العثمانيين[٢]

جهز سنان باشا حملتان وذلك للاستيلاء على عدن ، الاولى عن طريق البحر بقيادة خير الدين القبطان المعروف بقورت اوغلى ، واخو سنان باشا ، والثانية عن طريق البر بقيادة الامير حامى وبرفقته عدد من الفرسان .

وكان حاكم عدن قاسم بن شويع من قبل الامام الزيدي المطهر ، قد اظهر شعار الزيدية ، فكرهه اهالي عدن لانهم شافعيون ، ثابتون على الكتاب والسنة وبنى مدرسة باسم مطهر يدرس فيها بعض من مذهب الزيدية ، كما استدعى البرتغاليين الذين ارسلوا سفينة وعليها عشرين جنديا ، فأطلعهم قاسم الى القلعة واراهم ما فيها من العدد والآلات واعطاهم المدافع ليدافعوا عن عدن

(١) قطب الدين الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ص ٢١١ - ٢١٥ .

(٢) قطب الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ٢١٨ - ٢٢٦ .

من جهة البحر ويكون البر للزيدية واشياعهم الا ان خير الدين القبطان سبق الى عدن ورأى من وسط البحر عشرين شراعا للمسيحيين قاصده عدن ولما تحقق خير الدين من ذلك توجه بسفنه اليهم فولوا هاربين ، وتتبعهم خير الدين حتى اطمأن على ذلك .

لما عاد خير الدين الى الساحل وانزل مدافعه فوجهها نحو قلعة عدن منتظرا القوة البرية لتتم محاصرة عدن ففاجأهم الزيود ، واذ بالامير ماحى قد وصل واحاطوا بعدن من كل جانب ، فهجموا عليها هجمة واحدة ودخلوا عليها من كل جانب ، واعطى خير الدين الامان للاهالي ، الذين جاءوا بقاسم بن شويع وولده وذويه ، واذا بشخص منهم تقدم ليقبل يد خير الدين ، فضربه بخنجر في بطنه وجرح خير الدين على اثرها ، وتقدم الامير ماحى ، وقطع رأس بن شويع لاتهامه بهذه الخيانة واراد قتل ولده وجميع اتباعه فمنعه الامير خير الدين عن ذلك .

فرح لذلك الفتح الوزير سنان باشا وشاركه في ذلك الجنود وزينوا زبيد وتعز وسائر الممالك السلطانية في اليمن ، ثم عين الوزير سنان باشا ابن اخته الامير حسين ، وارسل معه مئتين من الجنود ، ورقى جميع الجنود الذين فتحوا عدن . [١]

فرغ سنان باشا في هذا الوقت من جنوب اليمن ، فأتجه نحو ذمار وامر بسحب المدافع لحصار صنعاء ، فجهز المطهر نفسه للانسحاب منها ، ونقل ما فيها من الخزائن وتقدم سنان باشا نحو صنعاء بعد ان وعد اهلها بالامان فأطمأنت قلوبهم واختاروا عددا منهم لمقابلته ، فأكرمهم سنان ودخل صنعاء بعد ذلك الا انه لم يستقر فيها بل نهض بجيوشه الكبيرة لحرب كوكبان وثلا [٢]

(١) قطب الدين محمد بن احمد النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٥
(٢) يحيى بن الحسين : غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ، ج ٢ ، ص ٧٣٦ .

اذ رأى سنان باشا انه لن يتمكن من السيطرة على اليمن بأكمله الا بالقضاء على مقاومة المطهر واتباعه فأخذ يوالي حشد قواته وتبعه في ذلك الوالي العثماني ودامت الحرب سجالا ما يقرب من عامين ، انتهت بموت الامام الزيدي المطهر في مدينة ثلا سنة ٩٨٠ هـ / ١٥٧٣ م وقد اتاح موت المطهر للعثمانيين مزيدا من السيطرة وبسط النفوذ حتى تمكن الوالي العثماني حسن باشا من الاستيلاء على ثلا ومدع وعفار وذي مرمر والشرفين الاعلى والاسفل وصعده مركز الامامة الزيدية فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت واستطاع حسن باشا ان يأسر الامام الحسن بن داود الذي استحوذ على الامامة بعد وفاة المطهر (١)

وهكذا تحول اهتمام الدولة العثمانية من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي، ومما يدل على ذلك التحول خلال هذه الفترة أن نفس العام الذي شهد فتح العثمانيين قبرص، شهد أيضاً استكمال سنان باشا لفتح اليمن وضغط عثمان أزدمير أوغلو على الأحباش من قاعدة مصوع(٢)، ونتيجة لذلك كله ضعفت إمكانية الدولة العثمانية عن الاستمرار في التوغل في أوروبا.

ومن هذا العرض اتضح اتجاه سياسة الدولة العثمانية بعد معركة ليبانتو ٩٧٩ هـ/١٥٧١ م إلى أن تكون الأولوية للمحافظة على الأماكن المقدسة الإسلامية أولاً ثم إلى البحر الأحمر والخليج الفارسي كحزام أمن حول هذه الأماكن وتطلب ذلك منها أسطولاً قادراً على أن يقاوم البرتغاليين ولبناء هذا الأسطول احتاج العثمانيون إلى مصاريف ضخمة للعتاد والرجال والمدافع والخشب وعليها أن تجلب ذلك براً إلى السويس، أو بالأنهار من العراق إلى البصرة، كما يجب الحصول على الفنيين والبحارة المهرة(٣) وليس أدل على ذلك من أن القلج

(١) فاروق عثمان اباظة : الفتح العثماني لليمن ، ص ٢٣ .

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٩ .

M . A . Cook : A History of the Ottoman Empire P . 100

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : في اصول التاريخ العثماني ، ص ١٤٩ ،

محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث ، ص ٥٣ .

علي كان قد اهتم في أواخر أيامه بالحرب في المياه العربية وأولى الصراع ضد البرتغاليين اهتماماً كبيراً، ولما لقي صعوبات في إنشاء قوة بحرية ضخمة في البحر الأحمر فكر في مشروع شق قناة تصل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، بهدف تمكين الأسطول العثماني في البحر المتوسط من العمل في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وكان بإمكان قلج على إنجاز ذلك المشروع لو استمر السلطان العثماني في منحه عائدات مصر التي طلبها لإتمام المشروع[4].

عاد البرتغاليون لمزاولة نشاطهم البحري في البحر الاحمر ففي سنة ٩٨٩ هـ / ١٥٨١ م ، دخل (Haerome de Mascarennes)البحر الاحمر في حملة بحرية الا ان تلك الحملة لم تأت نتيجة معينة بسبب اليقظة العثمانية ، كرر البرتغاليون المحاولة في عام ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م ، عندما تحركت حملة بقيادة (Rue de Camre)نحو البحر الاحمر وتسلل احد قادتها ويدعى ، (Casme Faya)لكشف البحر الاحمر حيث نزل في جزيرة كمران غير ان المقاومة العثمانية حالت دون تنفيذ البرتغاليون لماربهم ، اذ قتل القائد وجنوده في الجزيرة ، ومع ذلك الفشل واصلت الحملة تجولها غرب سواحل العرب الجنوبية ومن ثم عادت الى جوا بدون نتيجة وكانت هذه الحملة خاتمة الحملات البحرية التي دخلت البحر الاحمر بغرض مهاجمة المراكز العثمانية داخل البحر ، اذ اقتنع البرتغاليون استحالة مهاجمة تلك المراكز وليس معنى ذلك ان امتنع البرتغاليون نهائيا عن دخول البحر الاحمر ، انما صار دخولهم فيما بعد مرتبطا بفكرة معينة وهي ارسال البعثات الكاثوليكية الى الحبشة ومحاولة ان تكون هناك اتصالات دائمة بالبعثات الكاثوليكية بالحبشة للاطلاع على سير اعمالها . [1]

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٣١٦ ـ ٣١٧ .

اضطرت الدولة العثمانية ان تستأنف جهادها ضد الاحباش ، وذلك عندما نشبت ثورة سنة ١٥٨٩ م بقيادة البحر بخبش ولدا عزوم (Walda Azum)ضد ملك الحبشة سرسادنجل ، والذي اتصل بالعثمانيين في مصوع وتحالف معهم ولكن سرسادنجل كان اسرع ، اذ ادرك مدى المتاعب التي ستتعرض لها بلاده نتيجة ذلك التحالف ووجه جيوشه نحو مركز البحر نجبس في دباروا ، الا انها دحرت جميعها ، وتقدم بعدها العثمانيون الى دباروا ومنها الى اقليم شيري (Shire)وهناك تمكن سرسادنجل من نصب كمينا للقوات العثمانية واباد معظمها ، اما القائد العثماني فقد تمكن ومعه البقية من القوات في التراجع الى قاعدته حرقيقو ، وحوصرت هناك القوات العثمانية وهوجمت ولكنها تمكنت من المقاومة بنجاح وراء خنادقها وبذلك فشل سرسادنجل من اخراج العثمانيين واضطر الى العودة الى عاصمته .

عملت القوات العثمانية على تشديد رقابتها على السواحل الحبشية لمنع وصول البعثات الدينية ، خاصة بعدما قضى الموت على كافة الجزويت في ابرشية فريمونا الحبشية ، وحرمت الارساليات من كل قساوستها ، ولهذا نشطت القيادات البرتغالية مرة اخرى لاغاثة الحبشة برجال الدين ، رغم علم نائب الملك في الهند بالصعوبات التي كانت تعيق تلك المحاولات من قبل العثمانيين في مصوع ولم يكن بد من المخاطرة واستعمال الحيل لخداع العثمانيين عن طريق اشخاص اجادوا اللغة العربية ، اذ ارسلوا القس (Maromite Priest)على امل عدم اكتشاف امره ، ولكن كشف امره بمجرد دخوله البحر الاحمر ثم ارسلوا ملشيو دي سيلفيا (Milchior de Sylva)الذي نجح في الوصول الى الحبشة وبتلك المحاولة توقفت كافة عملياتهم الحربية والدينية داخل البحر الاحمر حتى نهاية القرن السادس عشر ، فان البرتغاليون ما لبثوا ان واصلوها ولكن بعد مرور عدة سنوات من القرن السابع عشر ، في وقت تميز فيه ملوك

(١) غسان علي رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ، ص ٣١٨ - ٣٢٠ .

الحبشة الذين خلفوا سرسادنجل بالتسامح الديني مع كافة البعثات التي كانت تنزل اراضيهم ورغم ذلك كله فقد كان مقدرا للعثمانيين البقاء لمدة ثلاث قرون اخرى على سواحل الحبشة . [١]

استطاعت الدولة العثمانية بذلك من خلق درع قوى ، حمى الاماكن المقدسة الاسلامية من الهجمات المسيحية ، ومع ذلك الدرع فقد احتفظ السلطان بحرس عثماني خاص في مكة المكرمة والمدينة المنورة وينبع ، كما اقامت الدولة العثمانية محطات حراسة بجوار بار المياه على طول الطريق بين مصر وسوريا ومكة المكرمة لحماية القوافل ، كما قررت الدولة ان يكون والي جدة ممثلا للباب العالي في الحجاز ، عرف الحجاز في العصر العثماني بثنائية السلطة ، وقررت الدولة ان تقسم حصيلة الرسوم الجمركية التي تجمع من السفن في ميناء جدة بين الوالي العثماني وبين شريف مكة المكرمة [١] كان كل سلطان لا يتردد في اقرار الشريف على امارته ، وارسال الخلع والهدايا اليه وتخصيص رواتب كثيرة لكثير منهم ، اضافة لارسال الاف الأرداب من الحبوب وذلك عن طريق تخصيص ارض موقوفة على اهل الحرمين الشريفين ، ونتيجة لتلك الامتيازات نعم الحجاز بسلام وطمأنينة لم يعهده من قبل ولم تكن سلطة العثمانيين قائمة على الجاه وقوة النفوذ وانما لاتباع المسؤولين في الدولة العثمانية وسائل ادارية حسنة جعلت الحجازيين يألفون هذه السلطة . [٢]

وهكذا اتضح من هذا العرض نمو العوامل المضادة والتحولات الخطيرة التي وقفت في طريق الدولة العثمانية لاسترداد الاندلس ، ومن اهمها واخطرها اضطرار الدولة ان تخصص الجزء الاكبر من طاقتها لحماية الحرمين الشريفين وان تقيم حزام امن لحماية الجزيرة العربية ، وبذلك تراجع مشروعها لاسترداد الاندلس الى الخلف ثم لم يلبث ان اختفى من سياسة العثمانيين .

(١) فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ص ٥٢ ـ ٥٣ .
(٢) نبيل رضوان : الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العبية بعد افتتاح قناة السويس ، ص ١٣ .

الخاتمة

ظهرت نزعة الجهاد الاسلامي واضحة جلية في كل الخطوات التي قام بها العثمانيون منذ بداية تكوينهم، وخاصة في جهادهم ضد المسيحيين وفي دفاعهم عن بلاد المسلمين من هذا المنطلق كان زحف القبائل التركية التي اعتنقت الاسلام غرباً.

قامت تلك القبائل التركية باحتلال المقاطعات الآسيوية للأمبراطورية البيزنطية غرباً، وسجلت انتصارات كبيرة على المسيحيين، من أهمها، معركة ملاذكرد، عند ذلك تمكنت القبائل التركية المسلمة من تثبيت أقدامها في بلاد آسيا الصغرى بعد أن دمرت تحصينات الحدود البيزنطية.

تطورت الأوضاع السياسية في المشرق الاسلامي بعد الغزو المغولي سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م، فهاجرت جماعات نحو الغرب، وتركزت هجرة تلك القبائل على الحدود البيزنطية في مناطق الأناضول الغربية حيث السهول الخصبة، والمراعي الغنية.

ازداد تجمع المسلمين الأتراك على مناطق الحدود الاسلامية، وحث زعماء تلك المناطق رجالهم على الغزو ضد الممالك المسيحية، على أن ذلك الجهاد اسلامي، وتجمع هؤلاء الرجال المحاربون حول زعماء الجهاد الذين نظموا هذه الجماعات وصارت الغارات الاسلامية على الأقاليم الغربية المسيحية

أكثر ضراوة وشدة، ونأسست بعد ذلك امارات اسلامية مستقلة في غرب الأناضول

ثم تشأ تلك الجماعات التركية المسلمة، أن تتجه بغزواتها نحو المشرق الاسلامي وذلك نظراً لوجود انممالك الاسلامية القديمة والقائمة بحماية المسلمين وأراضيهم، لذلك فإن الوضع الطبيعي لمد نفوذهم هو الغرب المسبحي لأن ذلك هو الجهاد الحق ونشر لواء الاسلام فوق أراضي لم يسبق الوصول إليها.

كان من ضمن تلك القبائل التركية والتي تزعمت الجهاد الاسلامي قبيلة قابي اسلاف العثمانيين وظهر أرطغرل بن سليمان شاه ومن بعده ابنه عثمان ، والذي برز كأمير في شمال غرب الأناضول ، يرأس قوة تزعمت الجهاد ضد بيزنطة في تلك المنطقة .

وفر الغازي عثمان لنفسهقاعدة ينطلقمنها نحو الغرب.وكانت تلك القاعدة مدينة بني شهر، القريبة من بروسة ونيفية أهم المدن في غرب الأناضول، ومن تلك القاعدة أرسل عثمان حملاته على المدن المجاورة واستولى على عدد من حصونها، واستمرت تلك الحملات حتى اقترب عثمان من بروسة ونيقية، عند ذلك شيد قلعتين بجوارهما لتمكنه من فرض الحصار.

لما بعث الأمبراطور البيزنطي جيشاً كبيراً، استطاع الغازي عثمان ايقافه وهزيمته في بافيون (Baphaeon) وذاعت شهرة عثمان في الآفاق وأخذت بعض الامارات الأخرى اسمه وصاروا معروفين بالعثمانيين وطد عثمان أمور إمارته الداخلية ونظم شؤونها، ثم عزم على فتح بروسة فأرسل ابنه أورخان الذي تمكن منها، وجعلها عاصمة جديدة لدولته الناشئة وكانت تلك خطوة هامة حققها العثمانيون إلى الأمام، إذ تحولت أملاكهم من إمارة حدود إلى دولة اسلامية.

سار أورخان على نهج أجداده القويم، في الجهاد في سبيل الله والتوسع

نحو الغرب حيث الاقاليم المسيحية، فأعلن الحرب على بلاد الروم إذ أرسل جيشاً فتح أزمير ثم تقدم أورخان بعد ذلك نحو بحر مرمرة واستطاع أن يهزم حملة بيزنطية ضخمة، ثم قام بعمليات عسكرية هامة منها الاستيلاء على أزنك (Znik) وعلى بعض الأراضي البيزنطية حتى صاروا على مقربة من أوروبا.

ومن أقدار الله العظمى أن الأتراك العثمانيين اعتنقوا الاسلام على المذهب السني، ويروي المؤرخون في ذلك قصة معروفة متكررة ولكنها تضيف أن المذهب السني الوحيد هو الذي صادف القبول لدى الأتراك ومن ثم لم يستهوهم المذهب الشيعي على الرغم من اختراق القبائل التركية مناطق الشيعة في زحفها من وسط آسيا إلى غربها، وذلك أمر على جانب من الأهمية في تاريخ الاسلام الحديث.

لم يتردد العثمانيون في العبور إلى القارة الأوروبية عندما سنحت لهم الفرصة، طالما أن ذلك يحقق أهدافهم في الامتداد نحو الغرب لانقاذ المسلمين في الأندلس والتي أخذت أملاكهم تتساقط في أيدي المسيحيين ويستمر الجهاد ضدهم لتبقى كلمة الاسلام هي العليا، ولأن دولة الاسلام لا بد أن تكون في حالة جهاد دائم.

تحرك العثمانيون داخل القارة الأوروبية كفاتحين وداعين للاسلام ففتحوا الساحل الأوروبي من بحر مرمرة وهاجموا تراس (Trace)، وموريا (Morea) ثم زحفوا على بلاد الروملِّي في جنوب شرق أوروبا وكان تأسيسهم قاعدة لهم في جزيرة غاليبولي Gollipoli) حدث له ما بعده ليزحفوا منها نحو قلب أوروبا، ثم نقل سليمان بن أورخان مسلمي الأناضول إلى أوروبا لا سيما البدو منهم، ليكونوا داعين للاسلام وسفراء له هناك، مما يوفر للعثمانيين الكثير من الجهد، وذلك بانضمام المسيحيين الذين يعتنقون الاسلام عن اقتناع.

إن الأجل لم يمهل أورخان ليبلغ أمنيته لكنه أوجد قاعدة للتوسع في أوروبا وجهز الدولة بوسائل للقيام بمزيد من الفتوح، وهو الذي أوجد يكي جرى

(الانكشارية) ورباهم تربية اسلامية أهلتهم لاكتساح شرق أوروبا، وخلفه ابنه السلطان مراد، الذي قيض له أن يقود الجيوش العثمانية صوب نهر الدانوب، ففي ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م سقطت أدرنة (Adrianople)، ثاني مدينة في الأمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، ثم قليوبوليس وبذلك تحولت مقدونيا وترافيا ـ أو الروميللي بالمصطلح الحديث ـ إلى أراض عثمانية.

اعترف الأمبراطور البيزنطي سنة ٧٦٣ هـ / ١٣٦٣ م بالممتلكات العثمانية من تلك المواقع الممتازة انتشر العثمانيون داخل الفراغ الذي تركته السلطة المنهارة في الجنوب الشرقي من أوروبا وبمجرد التوغل غرباً في وسط المجتمع الأوروبي صار العثمانيون مبعث خوف لأوروبا المسيحية ومن ثم أخذت المسألة الشرقية طابعاً جديداً، وساهم تقدم الأسلحة العثمانية والتي لم تجد مقاومة في خلق روح التقدم العثماني مقابل روح التشاؤم التي كانت من سمات سيكولوجية العصر لدى الأوروبيين.

لم يرق للصليبيين ذلك التقدم العثماني في أوروبا فجمعوا الجموع لحملة صليبية دعا إليها البابا أوربانوس وجرى اللقاء الأول بين العثمانيين ومسيحي الشمال على ضفاف نهر مارتزا بالقرب من أدرنة، بعد أن تقدم ملك المجر وبولندا وأمراء البوسنة والصرب وولاشيا للقضاء على الوجود العثماني في أوروبا، إلا أن العثمانيين أوقعوا بهذا الحلف البلقاني المسيحي هزيمة منكرة، ضم العثمانيون إثرها جنوب جبال البلقان وعرفت أوروبا أن الاسلام قوة ثابتة الدعائم في شرق أوروبا في مطلع العصر الحديث.

أخذ السلطان مراد في تنظيم الأقاليم والبلدان المفتوحة كماهو شأن الفاتح الحكيم الذي لا يكتفي بفتح البلاد وكان ينهج في ذلك منوال أجداده ويستريح ويرتب جيوشه ويكمل ما نقص منها، ولما عظم شأن الدولة خشيها مجاوروها، فأرسلت جمهورية راجوزة (Raguse) على شاطىء البحر الأدرياتيكي وفي سنة ٨٧٠ هـ / ١٤٦٥ م إلى السلطان مراد رسلاً أمضوا معه معاهدة ودية وتجارية

تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكة ذهب، وهذه أول معاهدة أمضيت بين العثمانيين والدول المسيحية [١].

واستمرت الفتوحات العثمانية في خط سيرها السابق، نحو قلب أوروبا وفتت مدينة موناستر[٢] وبرلبة (Prilep) واستيب (Stip) [٣] ثم وقعت مدينة صوفيا في قبضة العثمانيين بعد حصار دام ثلاث سنوات ٧٨٣ ـ ٧٨٤ هـ / ١٣٨١ ـ ١٣٨٣ م، وعقب ذلك فتح الصدر الأعظم خير الدين باشا مدينة سلانيك وواصل العثمانيون زحفهم إلى الساحل الألباني فوصلوه عام ٧٨٧ هـ / ١٣٨٥ م عبر تبريز دموناستير، وقبل الحكام المحليين في مقدونيا وألبانيا السيادة العثمانية، ثم هوجمت نيس (Nis) سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م، وأخيراً انهزم الحلف الصربي في أول معركة في سهل قوص أوه (Kossoro) في ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م، عندها بدأ العثمانيون تدعيم انتصاراتهم في البلقان بالفتح المنظم لليونان وبلغاريا، وكان العثمانيون عندما بدأوا برنامج غزوهم للبلقان قد أسسوا بالفعل دولة قوية في الأناضول امتدت من أنقرة إلى الدردنيل ومع تفكك أمبراطورية الصرب ومملكة بلغاريا لم يكن هناك دولة بلقانية تقارن بالدولة العثمانية في الحجم والقوة.

أثار التوسع العثماني في البلقان مخاوف البابوية إذ صارت المخاطر تهدد الدول المجرية الكاثوليكية خاصة بعد انهيار مقاومة الصرب وحلفائها سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م في موقعة كوسوفو (Kossovo) لهذا هرع الملك سكسموند إلى المغرب مستغيثاً بحكامه، وأحدثت استغاثاته أصداء في الأوساط

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٣٢ ـ ٣٣ظ .

(٢) موناستر : بلدة يوغسلافية تسمى اليوم بيتولا (Bitola)
وتقع بالقرب من الحدود الالبانية اليونانية .

(٣) برلبة : بلدة في يوغسلافية الاسلامية شمال بيتولا .

(٤) ستيب : تقع في وسط يوغسلافية .

البابوية والعثمانية، حيث أعلن البابا بونيفس التاسع الدعوة لحملة صليبية، لباها أمير برغندي فيليب الجسور، كما تتطوع عدد من أمراء فرنسا وفرسان القديس يوحنا في رودس والبنادقة وقدر عدد أفراد الحملة بمائة ألف مقاتل وكان التفاؤل يغمر قلوب الصليبيين حتى خيل إليهم بأنهم سوف ينهون الدولة العثمانية ويستولوا على بلاد فارس وسوريا ويخلصوا بيت المقدس من أيدي المسلمين.

اتخذت الحملة معسكرها تحت أسوار مدينة نيفوبولس، بعد استيلائها على بضعة مدن تابعة للعثمانيين في جهات الدانوب وتشجع القادة المسيحيون في بداية الأمر بالانتصارات التي أحرزوها ولم يهتموا لنداء التحذيرات من الخطر العثماني العسكري الذي بات قريب منهم، بل انهم ضحكوا من فرسان الاستطلاع الذين أخبروهم بأن السلطان بايزيد الأول صار على مسيرة ساعات من نيقوبولس والأغرب من ذلك أنه اتهم أحد الجنرالات الفرنسيين حاملي الأنباء بتلفيق الأخبار، وهدد ببتر أذان مروجيها.

في هذا الوقت هجم السلطان بايزيد على الجموع المسيحية وقاتلهم قتالاً عنيفاً في ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨ هـ / ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٩٦ م.

شدد بعد ذلك السلطان بايزيد حصاره على مدينة القسطنطينية ألا أنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها وذلك بسبب اقتراب الخطر المغولي من آسيا الصغرى إذ أن الأمور مرهونة بأوقاتها، فاكتفى بإبرام الصلح بشرط دفع عشرة آلاف ذهب سنوياً، وأن يسمح للمسلمين ببناء جامعاً لاقامة شعائر الدين الحنيف.

شاهد القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي بدء تكوين العثمانيين كأمة ودولة، فإذا كان عثمان وأورخان قد وضعا أساس الأمة والدولة العثمانية فلا شك أن مراد وبايزيد قد جعلا من هذه الدولة نواة لدولة مترامية الأطراف، إذ وجهوا كل جهدهم لنشر لواء الاسلام وفتح أوروبا من شرقها إلى غربها، ولانقاذ المسلمين في الأندلس وتمكنوا بالفعل من أخذ بلاد البلقان وبلاد المجر والكثير

من بلاد النمسا، وجنوب روسيا حول البحر الأسود، ولولا نقمة الله التي أحلت على المسلمين من جديد، متقمصة في شخصية المخرب تيمور لنك سليل جنكيز خان وهولاكو، على رأس جيوش من قبائل المغول، وحارب تيمور لنك السلطان بايزيد، وانتصر عليه عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠٢ م، ولولا ما عقب ذلك من فترة اضطراب وتحولات في إحياء المقاومة ضد العثمانَيين مما أعاقهم في التقدم وأخل ببرنامج فتوحاتهم ولتمكنت من الوصول إلى هدفها لانقاذ المسلمين في الأندلس قبل فوات الأوان وذلك قبل أن توحد أوروبا جهودها وقبل أن تستعد للمقاومة المستميتة.

قضى السلطان محمد جلبي الغازي مدة حكمه في إعادة وحدة البلاد التي انفرط عقدها بعد هجوم تيمور لنك على آسيا الصغرى، كما أدخل اصلاحات للجيش إذ أدرك السلطان محمد أنه لا بقاء لدولته إلا بالتفوق الحربي فقدسبق وأن حقق أجداده أمجاداً عسكرية يفخر بها الاسلام ومن ثم كان الجيش بوجه خاص أهم ما عنوا به وقد بقي السلاطين يملكون الجيش الثابت النظامي الوحيد الذي له اعتبار في أوروبا وبفضل الجيش استطاع العثمانيون أن يكونوا قوة رهيبة في أعين رعاياهم وجيرانهم، كما كانت منشآت السلاطين العسكرية في لمدفعية والهندسة العسكرية وشؤون الامدادات والتموين فوق مستوى عصرهم، كما لم يكن في وسع أي دولة من دول غرب أوروبا تقاوم فرق السباهية ويكي جري (الانكشارية)، واستطاع السلطان محمد جبلي أن يستعيد أجزاء كبيرة من الأناضول كما تمكن من تقويم جيشه وإعادة رهبته وقوته.

تهيأ الجو للسلطان مراد الثاني ٨٢٥ هـ - ٨٥٥ هـ ١٤٢١ - ١٤٥١ م، أن يستأنف عمليات الجهاد والفتح على الجهات الأوروبية، ففتح سلانيك، ثم اتجه لفتح ما بقي من بلاد الصرب وألبانيا والفلاخ قبل أن يعيد الكرة على القسطنطينية حتى لا يكون لها من هذه الولايات نصير، فوجه اهتمامه أولاً إلى بلاد ألبانيا فأطاعه سكان يانيه (Jarina) وسكان أغلب باقي البلاد، وفي ٨٣٧ هـ ١٤٣٣ م اعترف أمير الفلاخ بسيادة الباب العالي عليه تخلصاً من

الحرب، ثم فتح السلطان مراد مدينة سمندرية بالقرب من مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب.

هرع الأمبراطور البيزنطي جون الثامن ٨٢٩ - ٩٥٢ هـ / ١٤٢٥ - ١٤٤٨ م، للغرب طالباً المساعدات العسكرية عن طريق البابوية، وكان البابا آنذاك يوجينيوس الرابع الذي رأس الفرصة مناسبة لمساومة الأمبراطور على كره منه أن يوافق على ذلك في مؤتمر فلورنس سنة ٨٤٣ هـ / ١٤٣٩، واعتبرت الكنيسة الأرثوذكسية خطوة الأمبراطور تلك خيانة عظمى بالنسبة لمذاهبها وعلى كل فقد أعلن البابا دعوة لتشكيل حملة صليبية، وأرسل نائبه الكاردينال جوليان بفرقة عسكرية فرنسية للمجر للاسهام في المعركة ضد العثمانيين مع كل من الصرب في عهد جورج برنكوفيخ (George Brankovich) وملك المجر والقائد المجري والأسقف البولندي، وتمكنت هذه الحملة من الانتصار على مراد الثاني في بداية الأمر سنة ٨٤٧ هـ ١٤٤٣ م إلا أن السلطان مراد لم يلبث أن كر على الصليبيين واستطاع أن يهزمهم في موقعة فارنا سنة ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م، ولم تعد هناك عقبات أمام العثمانيين بعد موقعة فارنا في الجهات البلقانية [١].

كان السلطان محمد الثاني حصيفاً في تفكيره وتقديره عندما ارتقى عرش الدولة العثمانية عام ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م إذ أدرك بأن الوقت حان للقضاء نهائياً على الأمبراطورية البيزنطية، وأن دولته لا بد وأن ترث الدولة البيزنطية في ممتلكاتها، إذ أن عداء أوروبا لبيزنطة، قد اختلف ففي السابق كانت أوروبا الشرقية أرثوذكسية، والآن تدعم فيها الاسلام.

كانت الدولة العثمانية في هذا الوقت قوية بقدر كاف، تمكن السلطان الشاب محمد الثاني ومستشاريه شهاب الدين وزاجانوس (Zaganonos) من

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٤٨ .

تحقيق خططهم، وكان هدف السلطان محمد الرئيسي إحياء مجد سلفه السلطان بايزيد وذلك بأخضاع جميع الأراضي في أوروبا وفي جنوب الدانوب ـ وجميع الأراضي في آسيا شرق الفرات للحكم العثماني المباشر، ولكن بطريقة تناقض أسلوب جده السلطان بايزيد وذلك بفضل الاستيلاء أولاً على القسطنطينية ليضمن لنفسه السيطرة والاحترام والسلطة اللازمة لانشاء دولة قوية متسعة الأطراف بالاضافة إلى ذلك كان الاستيلاء على القسطنطينية يمنح الفرصة للعثمانيين الدخول إلى خزان ضخم جديد من الامدادات الغذائية إذ أنه خلال أوائل القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر مارست المستعمرات التجارية اليونانية والجنوية تجارة خصبة مع أوروبا في الغلال والرصاص والسمك والجياد وعبيد روسيا الجنوبية.

إن فتح القسطنطينية كان مقياساً حقيقياً لقوة العثمانيين وقوة الارادة والجهاد.

إن الدولة منذ قيامها تعتبر دولة برية بمعنى أن قوتها الحقيقية تكمن في البر والقتال في البر، ومعنى اتجاه الدولة لفتح القسطنطينية أنها وضعت نفسها أمام جهد بحري جبار، والدولة لم تصل بعد إلى القوة البحرية التي تؤهلها لمناجزة أقوى قوة بحرية في أوروبا وفي العالم حينئذ، لكن روح الجهاد التي أشرنا إليها عوضت العثمانيين عن كل ذلك، لذلك كانت خطة الدولة هي الاحاطة بالقسطنطينية من غربها براً ثم توجيهه الضربة القاضية لها من هذا الاتجاه.

ونجح العثمانيون في ذلك نجاحاً بهر أوروبا المسيحية والعالم.

تمكنت قوات السلطان محمد الثاني من اقتحام حصون القسطنطينية بعد حصار دام ٥٤ يوماً ٢٣ جمادي الأول ـ نهاية جماد الثاني سنة ٨٥٨ / ١٦ ابريل ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م، محطمة بذلك وهماً كبيراً سيطر على الأذهان طوال العصور الوسطى ألا وهو استحالة سقوطها.

وبذلك حرمت أوروبا من قاعدة كان وجودها يشكل قوة دفاعية فعالة إذ

كانت القسطنطينية تعتبر رمزاً للمقاومة المسيحية وأن سقوطها كان تحذيراً للدول الأوروبية بأن هناك مظهراً جديداً من الجهاد في العالم الاسلامي، كما أن الاستيلاء على هذا المركز التجاري الاداري العسكري العظيم سهل السيطرة والدفاع بالنسبة لفتوحات السلطان، بينما شكل التحكم في الممرات المائية بين بحر البلقان والبحر المتوسط قبضة قوية خانقة على التجارة الأوروبية مع البلدان الساحلية الواقعة في الشمال والشرق وفرت للسلطان دخلاً كبيراً ومتجدداً لا يستهان به (١)، ولكن أهم من ذلك بالنسبة لموضوعنا هو أن فتح القسطنطينية أعطى زعامة العالم الاسلامي للعثمانيين وأكسبهم الثقة في النفس بالنسبة للمشروعات الطموحة ومن أهمها انقاذ الأندلس.

حول العثمانيون كنيسة أيا صوفيا الشهيرة إلى مسجد ووجدت عاصمة الكنيسة الشرقية نفسها تحت رحمة العثمانيين المسلمين، وربما لم يكن سقوط المدينة يعني الكثير بالنسبة للكنيسة الغربية في روما لأن الكنيستين انفصلتا عن بعضهما رسمياً قبل سقوط القسطنطينية بأربعة قرون ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م، إلا أن نهوض العثمانيين على هذه الصورة بعد الهزيمة الماحقة التي ألحقها بهم تيمور لنك سنة ٨٠٥ هـ / ١٤٠٢ م هو الذي جعل الرعب يدب في الشمال والغرب وسرت خشية رهيبة فيما بعد من أن يتابع العثمانيون امتدادهم نحو أوروبة فيستولون على ايطاليا ثم الأندلس كما استولوا على اليونان خاصة بعد أن تدفق اللاجئون للدولة، مما أدى إلى سواد الخوف والقنوط في كل مكان من العالم المسيحي وكان استمرار الفتوحات العثمانية في أوروبا شيئاً وارداً ومضمون في ذلك الوقت وذلك بزوال القاعدة الاستراتيجية الوحيدة التي تمكن العالم المسيحي من استخدامها ضد الأتراك العثمانيين.

ومن هذا التاريخ يمكن القول بأن عصر تحول الدولة إلى دولة برية وبحرية وذلك ببدء عصر البحرية العثمانية الزاهر، ورثوا أعظم ترسانات بحرية

(١) Stanford Show : History of the Ottman Empire P . 57 .

وهي دور صناعة السفن في القسطنطينية بالاضـافة إلى أن التقـدم العثماني في البلقان قد وفر أهم المواد اللازمة لصناعة السفن، كما أن الدولة أخذت تسيطر على أقاليم هي أهم النماذج الجغرافية للبيئة البحريـة، مماجعـل جهود الـدولة لانقاذ الأندلس واسترداده أمراً وارداً.

اعترف العالم الاسلامي على اثر فتح القسطنطينية بالسلطان محمد الثاني قائداً للجهاد الاسلامي ضد المسيحية وتفوق على جميع الحكام المسلمين كما اعتبر نفسه حامي العالم الاسلامي وقد ورد ذلك في رسالة بعث بها إلى سلطان المماليك قائلاً له « . . إن مسؤوليتك أن تحفظ طرق الحج مفتوحة للمسلمين وواجبنـا هو مـدها بـالغزاة الفـاتحين. . . » [١]، ثم أخذ الفـاتح يؤكـد صلات القربى بين الأباطرة والأتراك القـدامى في أواسط آسيا مشجعـاً تدوين الألقـاب القديمة التي توضح أن أسرته كـانت تنحدر من سـلالة (Oguz Har) منـافساً بذلك طموحات غريمه الرئي أوزون حسن، لكل ذلك اعتبر محمد الفاتح نفسه وريثاً للأمبراطورية الرومانية الشرقية ولدولة عـالمية شـاسعة المسـاحات وأخـذ العلماء البيزنـطيين المحيطين بـه يشجعون لـديه الأفكـار البراقـة للسيطرة على العالم [٢].

صارت القسطنطينية بعد الفتح الاسلامي عاصمة الدولة العثمانية وتحول وجهها النصراني وطابعها البيزنطي إلى طابع اسلامي جميل، وتحولت الكنائس إلى مساجد وساد الأمن وانتشر العدل وهاجر المسلمون وعلماؤهم إليها وصارت المدينة ملاذ العالم ومأمن الخائف، ولجأ إليها بعض من بلاد الأندلس، الذين أوضحـوا للسلطان العثماني المـآسي الكبرى التي يعـانونهـا من قبـل الحكـام المسيحيين في شبه الجزيرة الايبيرية.

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص ١٠٣ .

(٢) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P . P . 60 - 61 .

بدأ الكيان العثماني يتبلور في ذهن محمد الفاتح بعد أن استقرت الأحوال في العاصمة الجديدة القسطنطينية وقرر بأنه لا بد وأن تتمركز دولته في كل من الأناضول والبلقان وهي نفس الأقاليم التي تمركزت فيها الأمبراطورية البيزنطية وبناء على تخطيط محمد الثاني للكيان العثماني نجد أنه حينما شرع في التنفيذ كان واضعاً نصب عينيه اتمام السيطرة على الأناضول ودعم النفوذ العثماني في البلقان لتكون منطلقاً له نحو وسط أوروبا ليتسنى له التقدم للأندلس لانقاذ المسلمين من نير التسلط المسيحي.

تفاقمت المخاوف المسيحية مع زيادة القوة العثمانية وكان من الطبيعي أن تعمل بابوية روما على حث أوروبا على قتال العثمانيين، إذ دعى البابا لحرب مقدسة ضدهم، ضمن محاولة لانتزاع بيت المقدس، ووجدت دعوة البابا استجابة من المجر وصربيا حيث سبق لهاتين الدولتين استئناف الحرب ضد العثمانيين ٨٥٨ هـ / ١٤٥٤ م، وبالرغم من أن هذه الحملة تمكنت من تحقيق انتصار على العثمانيين في معركة بلغراد ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م في فكهم الحصار العثماني عنها، إلا أن الحملة جاءت إلى نهايتها عند وفاة ملك صربيا وبذلك تمهد الطريق أمام العثمانيين من جل القضاء على المقاومة السلافية الجنوبية بشكل حاسم، حيث جعلت صربيا ولاية عثمانية سنة ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩ م وكذلك بوسنيا سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م، عند ذلك أبدى البابا بايوس (Pius) الثاني رغبته في قيادة الحملة شخصياً وأعلن الحملة رسمياً في ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م وراح دعاتها من الفرنسيسكان والدومينيكان يكرسون الجهود لتحريك الجماهير عاطفياً ولبت النداء مجموعات من الفرسان تقاطرت على الموانىء الايطالية، إلا أنها لم تجد وسائل النقل البحري، أما البابا فقد التحق فعلاً بالجموع في انكونا إلا أنه توفي بعد شهرين من وصوله إليها سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م فتفرقت الحشود [1].

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٠ .

شدد محمد الفاتح هجومه على ألبانيا وأثينا وسلانيك وصارت معظم شبه جزيرة البلقان تحت الحكم العثماني ولم يبق إلا جيوب مسيحية صغيرة على الساحل الغربي في يوغسلافيا شمال ألبانيا والتابعة للبندقية وواصل العثمانيون فتوحاتهم إلى (WALLACHIA) وهناك توفقوا لأنهم وجدوا مقاومة عنيفة ضدهم فاتجهوا ناحية الجنوب والغرب.

كان الجنوبيون يعتبرون البحر الأسود منطقة نفوذ لهم، كما كان البنادقة يعتبرون البحر المتوسط ملكاً لهم ولكل منهم اسطول كبير وإدراكاً من السلطان لتأمين ظهره في البحر الأسود، وانصرف محمد الفاتح لتعزيز القوى البحرية تعزيزاً عظيماً حتى إذا اعتمد عليها وجهها إلى البحر الأسود، فاستولت سفنه على ميناء (Caffa) مركز طليعة الجيش الجنوي الرئيسي علاوة على موانىء أخرى رئيسية على البحر الأسود واضطر تتار كريميا القاطنين من وراء الساحل حتى الشمال إلى أن يتأقلموا مع العثمانيين.

توجه السلطان الفاتح بعد ذلك إلى البحر المتوسط غير متهيب لجمهورية البندقية والتي كانت أعظم دولة بحرية وتجارية، فاستولى على جزيرة فجربونت التي كانت مركزاً استراتيجياً للبنادقة في الأرخبيل واتبعها بجزر اليونان، ثم هاجم جزيرة رودس والتي كان فرسانها قد أعاقوا العثمانيين للوصول إلى البحر المتوسط وشكلوا تحت أمرة البابا حرساً صليبياً، ثم غزا العثمانيون جنوب ايطاليا وحاصروا أوترانتو (Otranto) في شبه الجزيرة الايطالية عام ٨٨٥ - ٨٨٦ هـ / ١٤٨٠ - ١٤٨١ م، وكان ذلك بمثابة تهديد مباشر للكاثوليكية، ولولا وفاة الفاتح آنذاك لتم الاستيلاء على ايطاليا ولتغير وجه التاريخ.

تولى بايزيد الثاني - أكبر أبناء السلطان محمد الفاتح - العرش بعد وفاة والده، وهاجمت قواته بلاد المورة (Morea) وكانت تحت سيطرة البندقية وهزم أسطولها واضطرت أن تجنح إلى السلام مع العثمانيين، الذين منحوا البندقية امتيازات تجارية، مقابل أن تتخلى الدولة العثمانية على موانىء المورة ومن

ضمنها ميناء ليبانتو (Leparto)، وأثبتت هذه الحرب التي تحالف فيها مع البندقية ملك هنغاريا، أن الأسطول العثماني قد نمت قوته إلى حد القدرة على تحدي البندقية في البحار المفتوحة ومعبى ذلك تأهيل البحرية العمانية لمشروع الأندلس.

استولت القوات العثمانية على ولاية الهرسك، حيث استسلمت دون مقاومة تذكر وضمت إلى أملاك الدولة العثمانية، ثم نفذ السلطان بايزيد عملياته الحربية في لبلقان مثبتاً وممكناً النفوذ العثماني على المناطق التي لم يسبق فتحها، ثم قام بايزيد بشن غاراته على الهاسبرج ليؤمن حدوده، ثم شق طريقه بغزو مولدافيا (Moldaivia) ثم أرسل جيشه إلى غاليسيا (Galicia) إلا أن هذا الغزو توقف بسبب الطقس الشتوي ووعورة الطرق.

فزعت أوروبا كلها من التقدم السريع وتسامع أهلها بسقوط عواصم أوروبا الشرقية والوسطى الواحدة بعد الأخرى وسرت خشية رهيبة من أن يتابع العثمانيون امتدادهم نحو أوروبا فيستولوا على ايطاليا كما استولوا على اليونان ويهددوا الكاثوليكية في عقر دارها وساور الأوروبيون القلق على مستقبلهم وبدأ الملوك والأمراء يفكرون في بذل المعونة والوقوف في وجه التقدم العثماني الاسلامي، إذ استقامت المسيحية من ثبات نومها، فإذا بها تقف أمام الخطر الكبير الذي هدد كيانها في الشرق الأوروبي وأحست به الشعوب الأوروبية احساساً دينياً بسبب ما كانت تعلنه الكنيسة في ذلك الوقت من حرب صليبية عنيفة على المسلمين في اسبانيا وتحثهم على شن الحرب الأخيرة ضد غرناطة وحماية الجناح الغربي للعالم المسيحي ولا سيما بعد أن سيطر العثمانيون على شرق البحر المتوسط وظهور طلائع المجاهدين العثمانيين في حوضه الغربي، وذلك من أجل إنقاذ إخوانهم في الأندلس.

لم يحمل الأتباع الأوائل للنبي العقيدة الاسلامية للشام وآسيا الصغرى فقط، ولكن حملوها إلى السواحل الشمالية لأفريقية مكتسحة أمامها الحضارة

التي تـركتها رومـا هناك، ثم عبـرت مضيق جبل طـارق وتغلبت على اسبـانيـا وهددت فرنسـا هذا التيـار الاسلامي قـد فقد قـوته [1] وحيـويته عنـدما بـدأت الممالك المسيحية تتحد فيما بينها مكونة ما يعرف باسم الدولة الحديثة فاتحدت قشتالة وأراغوان في مملكة واحـدة ـ اسبانيـا ـ كما أوضحنـا من قبل، ووجهـوا اهتمامهم نحو انهاء الوجود الاسلامي فأخذت الممالك الاسـلامية تتسـاقط في أيديهم تباعاً، ما عدا غرناطة التي قاومت المسيحية زمناً ليس بالقصير.

لعل من أهم الأسباب التي أدت إلى زيادة التدهور في غرناطة هو النزاع بين أمراء الأسرة الحاكمة مما فسح المجال لتدخلات ملوك قشتالة ومناصرة فريق على آخر والعمل على اضعاف الفريقين.

وما كادت غرناطة تسقط بيد فرديناند وايزابيلا حتى بدأت موجة الاضطهاد العنيفة ضد السكان فقد اصدرت السلطات الاسبانيـة قرارهـا بأن يغـادر اليهود الذين لم يتنصروا اراضي قشتالة خلال اربعة شهور وعوقب المخالفون بالموت ولم ينج من ذلك حتى اليهود الذين اعلنوا تنصرهم ولقي المسلمون في نواحي قشتـالة واراغـوان نفس المصير في وقت سـابق ثم جـاء دور سكـان غـرنـاطـة الاظطهادي بعد ذلك حيث اكره السكان على تغيير معتقداتهم وانيطت مهمة من يتهم بالزيغ والمروق الى محاكم التفتيش الدينية التي ملأت بهم السجون حيث التعذيب الوحشي والتي تقذف بهم جموعا اثر جموع في محارق النيران .

اراد الملكان الكاثـوليكيان . انهـاء الوجـود الاسلامي في شبـه الجزيـرة الايبرية وذلك بدمج المورسكيين بالمسيحيين ولكن ذلك الشيء صعب تحقيقه فمثلا من الصعب على موريسكى وسيـدة مسيحية ان تعـايشا معـا تحت سقف واحـد حتى لو كـان متحدين بـرباط الـزواج ذلك ان المسيحي يعـرف جيـدا المعتقدات السية لقرينه ولن يتـردد تحت ضغط محاكم التفتيش ان يكشف عن جريمة الكفر .

(١) A . J . Grant : A History of Europe from 1494 - 1610 P . 209 .

وتـوجـد مـلابسـات اخـرى تجعـل من الصعب على المـوريسكيين والمسيحيين التعـايش معا ، ونعني بـذلك محيط السجن ، ذلـك ان الاختلاط نفسـه يعني انـه يمـر شيء دون ان يشـاهـد من طـرف الاخـرين في السجن الجماعـي وحيث يعتبر كل شيء سببـا للاثـارة وهذا مـا لوحظ بـاحد السجـون حيث تكونت وبصورة تلقائية مجموعتان متنافستان تبحثان دوماعن اثارة النزاع فقد كان الموريسكيون ، يسحبون القش من فـراشهم ويصنعوه على شكـل صليب ويرموه فيما بعد تحت اقـدامهم مظهـرين الازدراء والاحتقار ، امـا المسيحيون فانهم يجدون من ناحيتهم متعة بقلي واكل لحم الخنزير علانية ، ونتيجة لذلك فان الطرف الموريسكي ينشغل بالحديث فيما بينهم حتى لا يشاهد اكل الخنزير وانه كلما شوى هذا اللحم فانهم يسدون انوفهم حتى لا يستنشقوا رائحته وتصل هذه الاخبار الى علم محاكم التفتيش فتزيد في تعذيب الموريسكيين . [1]

ابين من خلال ذلك مدى تمسك المسلمين بدينهم وعقيدتهم على الرغم من محاولة السلطات الاسبانية صهر المسلمين في بوتقة المسيحية ، وكان لتلك الاحداث صداها في الدولة العثمانية ، اذ تغيرت استـراتيجيتها فبعـد ان كانت تهدف الى انقاذ المسلمين في الاندلس ، والذين كانوا يلاقون التعذيب من قبل السلطات المسيحية ، بالاضافة الى نشر لواء الاسلام في القارة الاوروبية اثناء عبورهم الاندلس تحولت تلك الاستراتيجية بعد سقوط غرنـاطة وصـارت مهمة الدولة استرداد الاندلس وعلى ضوء ذلك اخذ المسؤولون في الحكومة العثمانية يضعون الخطة اللازمة لذلك .

اتفق السلطان بايزيـد الثاني والاشـرف قيتباي لتـوحيد الجهـود من اجل استرداد الاندلس ووضعا خطة مشتركة وذلك بأن ترسل الدولة العثمانية اساطيلها

(١) لوي كارداياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ص ٢٠ ـ ٢١ .

لغزو صقلية الاسبانية ليهدد فيها فريديناند وايزابيلا ، وان تقوم الجيوش البـرية لمصرية بعبور البحر من جبل طارق الى اسبانيا .

وبعث السلطان بايزيد باسطوله إلى الشواطىء الأسبانية بقيادة كمال رايس الـذي انزل الـرعب في الاساطيـل المسيحية ، كمـا شجـع السلطان بـايـزيـد المجاهدين المتجهين لـلاندلس لمنـاصرة اخـوانهم على العدو المشتـرك بينما اكتفى السلطان المملوكي بـارسـال خـطابـات الى البـابـا في رومـا والملكـان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا ، يطلب منهم رفع الاذى عن المسلمين ، الا ن السيـاسة الاسبـانية سـارت في طريقهـا المرسـوم ولم تمنعها رسـائـل السلطان المملوكي ولعل في هذا رد على هؤلاء الذين يزعمـون ان الدولـة لم تسع الى التعاون مع الدولة المملوكية .

لما كانت البرتغال تملك شاطئا كبيرا يبلغ طوله حوالي ثلاثمائة ميل به كثير من المواني العميقة المحمية فقد توفرت لـدي البرتغـاليين الفرصـة لبناء مجـد بحري لهم وللمسيحية بصفة عامة . [١]

توجهت الجهود البرتغالية انذاك لمواصلة الحرب المقدسة بالاغارة على السواحل الافريقية فقد كان من اهـداف البرتغـاليين الاحاطـة بحرا بـالمغاربـة ومواصلة القتال ضد المسلمين والاتصال بالملك المسيحي في الحبشة (Pres-to Joan)لمعاونتهم في تحقيق اغراضهم السياسية والتجارية والدينية فقد كان من اعز امانيهم نشر المسيحية والتبشير لها .

وكـان الغرض الاخيـر جاعـلا المستكشفين البرتغاليين يتـركون اثـارا تدل عليهم وتدل عليه في نفس الـوقت فقد كـانوا يقيمـون صلبان او اعمـدة تحمل صلبان واحيانا كانوا يحفرون هذه الصلبان في قشور الاشجار وعلى جزوعها او

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيين عدن، ص ٥٣ .

يقيمون اعمدة من الأحجار ثم يحفرون الصلبان فيها ، كما كانت كتاباتهم على هذه الشواهد تنتهي بصليب في اعلاها .

ولعل نظرة فحص دقيقة في ذلك اللقب الذي حمله ملوك البرتغال انفسهم في ذلك العصر تظهر لنا الاهداف الرئيسية المختلفة التي وضعها هؤلاء نصب اعينهم ، اذ كان الملك يتلقب بلقب (سيد الملاحة والفتح والتجارة في جزيرة العرب) . (Lord of the Navigation conquest and commerce of Aribia)وفي الكلمات الاخيرة يكمن الهدف الديني .

كان استيلاء الامير هنري الملاح على ميناء سبتة ، حملة صليبية بالمعنى المحدود وامتدادا لما سبقها من حملات متشابهة ، وداعبت خياله مشاريع خطيرة ، اذ كان يأمل الاطباق على العالم الاسلامي عن طريق قيام تحالف مع الحبشة ، يهدف الى قيام الاحباش بهجوم من الجنوب في الوقت الذي تزحف فيه قواته من الشمال ، ولكن بقي اقتراحه في عداد الامنيات .

ان عزم الامير هنري الملاح في مواصلة كفاحه الديني قاده الى الامر باستطلاع الساحل الغربي للقارة الافريقية املافي الوصول من هناك الى المشرق الاسلامي لغزوه روحيا وماديا واستمرت السلطات البرتغالية في السير على منهج الملاح في ذلك المجال بعد وفاته كما اوضحنا .

وهكذا ما كادت شمس القرن العاشر الهجري ، الخامس عشر الميلادي تؤذن بالمغيب حتى كانت الافاق مفتحة والاذهان مستنيرة ،واشرف العالم على تنافس قاتل في ارتياد البحار وارتبطت مشروعات البرتغاليين الصليبية بالحبشة ارتباطاً وثيقاً .

ان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ادى الى نتائج خطيرة في العلاقات الشرق والغرب في اوائل القرن السادس عشر فبالاضافة الى الاهمية الاقتصادية فانه فتح فصلا جديدا في تاريخ الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، اذ تمكن

البـرتغاليـون من انزال خسـائر جسيمـة في الاسطول المملوكي ولعـل من اهم حـوادث الصراع بين البـرتغال والممـاليك هـو انتصار القـوات المملوكية على البحرية البرتغالية في اول الامر ، الا ان المماليك لم يلبثوا ان تلقوا هزيمة قاسية من البحرية البرتغالية في ديو ، وتمكن البرتغاليون على اثرها من توطيد نفوذهم على نقاط على الساحل الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربيةوبعض المراكزفي القـرن الافريقي ، ومن تلك النقـاط المسيحية اخـذ البرتغـاليون في الاتصـال بالحبشة ، كما قموا بعدة محاولات لتهديد الاماكن المقدسة الاسلامية في مكة والمدينة ووصل الخطر الصليبي لاول مـرة في التاريـخ على الحدود الجنـوبية للعالم الاسلامي .

استولى الصفويون على العراق ، وقام الشاه اسماعيل الصفوي باضطهاد اهل السنة واخذ يبحث عن التحالف مع البرتغاليين ، اذ عرض عليهم تقديم كل العون والتأييد في احتلال بعض المناطق في الخليج ، مقابل ان تمد البرتغـال الشاه بالاسلحـة المتطورة ليمنـع العثمانيين من التقـدم في المشرق ولم يكتف الصفويون بذلح بل تحالفوا مع البنـدقية للهجـوم سويـا على الاناضـول لانهاء الوجود العثماني هناك وليعم المذهب الشيعي تلك المنطقة .

امام تلك الاخطار التي احدقت بالعـالم الاسلامي من حـدوده الجنوبيـة وقفت الدولة العثمانية في مفترق الطرق ، هل تستمر الدولة العثمانية في خطتها الاساسية بالتقدم في القارة الاوروبية لنشرلواء الاسلام فيها ، ومن ثم استـرداد الاندلس وانهاء دولة اسبانية والبرتغال ؟ لكن سبق وان صادف الجيوش العثمانية عوائق كبيرة منها صعوبة الطقس ووعـورة الطرق ممـا شكل عـائقا نحـو التقدم العثماني ، لذلك لا بد من ايجاد طريق اخر ، اذا رغبت الدولـة الاستمرار في خطتها لتواجه الاخطار الجسيمة التي اخذت تحيط بالعالم الاسلامي بتهديده من حدوده الجنوبية ؟ لقد كان موقفا حرجا واختيارا صعبا واجهه السلطان العثماني في ذلك الوقت .

لقد اعتبر العثمانيون انفسهم جز من العالم الاسلامي وان واجبهم بالاضافة الى نشر الاسلام ، الدفاع عن الاقاليم الاسلامية ضد الاخطار والهجمات الخارجية ، واعتقدوا انهم اقدر من الممالك الاسلامية الاخرى مثل الصفويين والمماليك على الدفاع عن المنطقة وتوحيدها في صف واحد قوي ، واستخدام العثمانيون السيف وسيلة لتوحيد العالم الاسلامي بأقاليمه في دولة واحدة اي ان المسألة قد وصلت الى مرحلة معركة حول قيادة المنطقة ووحدتها .

تقدم الاتراك العثمانيون بقيادة السلطان سليم الاول زاحفين نحو الشرق فهزموا القوات الفارسية في موقعة تشالديران ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ، ودخلوا عاصمتهم تبريز ، ولكن السلطان لم يرغب في القضاء على قوة الصفويين نهائيا نظرا للارتباط الديني الذي يربطهم كما انه لا يريد التوسع الصفوي ان يسيطر على بقية الاقاليم العربية ، وخاصة الاماكن المقدسة الاسلامية في مكة والمدينة والقدس ، ومن ثم يعم المذهب الشيعي ارجاء العالم الاسلامي ويكون المذهب نفسه المسيطر على الحياة العامة للمسلمين .

دخل الاتراك العثمانيون بعد ذلك القاهرة عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ، وكان ذلك في حد ذاته يمثل تحولا جديدا في تطور الاحداث التاريخية في القرن السادس عشر الميلادي داخل العالم العربي وعلى الرغم من كافة الاسباب التي ذكرها المؤرخون في تفسيرهم لاسباب تحول العثمانيين من اوروبا الى المشرق العربي ، الا اننا نستطيع ان نؤكد ان وصول الاتراك الى مصر والشام امر كان لا بد منه في هذه الظروف ، ذلك لان الدولة العثمانية قد هددت اوروبا في الشرق ، وبوصول البرتغاليين للمحيط الهندي ، صار العالم الاسلامي كله مهددا من الناحية الجنوبية وكان على الدولة العثمانية ضرورة حماية هذا العالم ممن طرقوا ابوابه الجنوبية ، ولن يتطرق بنا الحديث لتفسير ما حدث بين العثمانيين والمماليك ، فمجمل القول ان العالم الاسلامي كان يحتاج في تلك

الفترة الى قوة تنبع بالحيوية والنشاط ، لتحميه من تلك الاخطار .

ومعنى هذا ان الدولة العثمانية تحولت نحو الشرق العربي لتحميه من الاستعمار الاوروبي وكان ضمها للشام ومصر والحجاز وبقية هذا المشرق هو بناء حزام امن حول الحرمين الشريفين وهنا نتساءل كيف جرؤ بعض المؤرخين على تفسير ذلك بأنه استعمار عثماني ، مع ان الدولة اتت للمشرق العربي لحمايته من الاستعمار الاوروبي .

ونضيف الى ذلك سؤال نتجه به الى هؤلاء المؤرخين وهو ما معنى الاستعمار ؟

والاجابة على ذلك السؤال هو الاستغلال واستعباد الشعوب لتحقيق هذا الاستغلال فهل كانت الدولة العثمانية في كل فتوحاتها تهدف الى الاستغلال ؟

ان الاجابة على ذلك هي من واقع النظم العثماني التي تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ، ان الدولة في كل تحركاتها كانت تهدف فقط الى نشر الاسلام ، او استرداد جزء من ممتلكاتها المفقودة او حماية اجزاء هددها الاستعمار الاوروبي .

كان المغرب العربي يقاسي في نفس الفترة التي امتدت فيها انتصارات العثمانيين في البلقان والمشرق العربي ، من هزات عنيفة اصابته في الاندلس وعلى سواحله الطويلة الممتدة جنوب الحوض الغربي للبحر المتوسط ، لقد كان سقوط غرناطة في ايدي المسيحيين نقطة تحول خطيرة في تاريخ هذا الاقليم الاسلامي ، اذ تطور الاضطهاد المسيحي للمسلمين في الاندلس وزادت قسوته فحرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والاحجار الكريمة وامروا ان يسجدوا في الشوارع عند مرور كبير الاحبار وسلطت عليهم اقصى انواع العقوبات اذا لوحظ عليهم بعض الولاء الى ماضيهم او التعلق بدينهم في ابسط مظاهره وعاداته ، استمرت تلك المحنة سنوت طويلة ، وتوالت هجرات

الانـدلسيين الى بلاد المغـرب العربي والمشـرق الاسلامي خـلال تلك الايـام السوداء ناقلة معها في اول الامر علمها وفنها وادبها واختصاصها وناقلة في اخر الأمر بؤسها وشقاءها .

تتبعت الحكومة الاسبانية الموريسكيين في مهجرهم الجديد في الشمال الافريقي وذلك خوفا من تلقيهم مساعدات حربية من اخوانهم في الدين سكان الشمال الافريقي ومن ثم يعملون على الانتقام من الاسبان الذين اخرجوهم من ديارهم ، لذلك قام الاسبان بالنزول على السواحل الافريقية الشمالية للانتقـام من مراسيها .

كما ان التعصب الديني والرغبة الجـامحة في محـاولة تنصيـر المسلمين والـرغبة في ابعـاد حدود الاسـلام كل ذلـك حذا بـالاسبانيين الى غـزو البـلاد الاسلامية في الشمال الافريقي فاصطبغت حروبهم بصبغة الصليبية وذلك نظرا للدور البارز الذي قام بأدائه رجال الكنيسة من اجلها فالكنيسة باسبانيا قد اهتمت بجميع ما لديها من الحماس بهذه المعـركة ضـد المسلمين بل ان الكنيسـة قد ارادت في الكثير من الاحيان اعتبار هذه المعركة معركة خاصة بها [١]

فشلت القرصنة المسيحية في اداء مهمتها في غرب البحر المتـوسط كما فشلت في الاستيلاء على مراكز الغارات الاسلامية في الشمال الافريقي وذلك بسبب نشاط المجاهدين المسلمين ونجاحهم في الدفاع عن اراضيهم كما اتضح ذلك في الفصول السابقة ، ولم يكن ذلك الفشل بسبب طبيعة الارض وقلة كفاءة الجيوش الاسبانية ذلك لانه بالامكان التغلب على الصعوبات الطبيعية الكبيرة ، اذا اخذت قشتالة وسيلة اخرى اكثر فعالية في محاربة شمال افريقيا فمن الناحية العملية اتجه الوضع الى اعتبار هذه الحرب امتدادا لحرب غرناطة ، وهذا يدل ان الاسبان اعتبروا الحرب الموجهة للشمال الافـريقي حملة تأديبيـة ، الغرض منهـا الاستيلاء على الغنـائم واقامـة المراكـز الحربيـة ، ولـم تكن لديهم خـطة

(١) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٨١.

مدروسة لمشاريع استعمارية ومع كل ذلك كان شمال افريقية طوال القرن السادس عشر الميلادي جوهرة ثمينة تهفو اليها اسبانيا عبر البحار ، واختفى ذلك الفشل في شمال افريقيا عند استبداله بنوع اخر من الحرب التقليدية بعد ان حقق للاسبان نجاح باهر في مشروع اكثر روعة الا وهو الانتشار في عالم جديد [١]

ان النجاح السريع الذي عرفته الدولة العثمانية في كل مَن اوروبا واسيا وافريقيا ومدى الانتصارات الحربية التي حققها السلاطين العثمانيون على الجيوش الاوروبية المتحالفة انذاك وسقوط عدد من العواصم الاوروبية قد دفع بالمجاهدين الجزائريين وعلى رأسهم خير الدين باربروسا الى التفكير بضرورة ضم الجزائر الى الدولة العثمانية وان تكون جزء من اراضيها المترامية الاطراف فكتبوا للسلطان العثماني يعرضون عليه رغبتهم تلكولم يتأخر كثيرا جواب السلطان فقد اعلم خير الدين واهل الجزائر بقبول رغبتهم وانه قرر ان يشمل الجزائر برعايته وتكون مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية واسترداد الاندلس ، ومنح خير الدين لقب بايلربك ، وبذلك قام نظام بيلربك في الجزائر ، وهذا يدل دلالة قاطعة على ادراك الدولة لاهمية الجزائر لاسترداد الاندلس لان هذا النظام كان يقوم عادة في اطراف الدولة التي يراد التقدم منها لفتح اجزاء تالية .

أخذ خير الدين في الاستعداد لمواجهة الخطر المسيحي وصار بذلك الحارس الامامي للدولة العثمانية في غرب البحر المتوسط وصارت تسنده جميع قوات هذه الدولة في صراعه مع الغرب ، فكان مجيء العثمانيين الى شمال افريقيا كانجدة انقذت البلاد من لغزو والاستعمار الاوروبي وعملت على توحيد البلاد سياسيا وقد رحبت معظم طبقات السكان بمجيء العثمانيين ما دا اصحاب النفوذ الاقتصادي والسياسي وبعض الولاة والقواد فقد ظهر لديهم رد فعل ضد

(١) J H Elliott : Imperial Spain P P 43 — 44

العثمانيين لخشيتهم من ان يفقدوا مصالحهم السياسية والاقتصادية ، وكان ميل العثمانيين مع رجال الدين والعامة قد اضر بمصالح بعض الامراء والولاة والقواد الكبار فكان هـذا الموقف سببا في ثورة بعض هؤلاء الاعيان غير ان سياسية العثمانيين لم تكن هي حكم البلاد المباشر بل الحكم بواسطة اهل البلاد انفسهم ، اذ امتازت جبهة الشمال الافريقي عن جبهة المحيط الهندي بقربها من المراكز الرئيسية للامدادات ، في مصر وتركيا اضافة الى اطلاع المسؤولين بصورة متتابعة على الاحداث والتطورات بعكس المحيط الهندي الذي لا تصل اخباره الا بعد فترة طويلة .

ان المظهر الجهادي للوجود العثماني في الجزائر ثم استمرار التهديد الاجنبي قد طبعا الحكم العثماني بالحذر الدائم من الخارج وكان لهذا اثره على الحياة العامة فرغم تصفية الوجود الاسباني من مدينة الجزائر وجيجل وبجاية وعنابة ومستغانم ودلس فانه ظل قائما في وهران والمرسى الكبير اذ عمل الاسبان على تدعيم وجودهم هناك بالتحصينات والعدد والعدة ، وكان الاسبان بعد ان فشلوا في تحالفهم مع اخر ملوك بني زيان واستيلاء العثمانيين على تلمسان بعد ذلك قد بدأوا في التحالف مع بعض الجزائريين المقيمين حول مدينة وهران كبني عامر ، والذين اجبرتهم الظروف الاقتصادية على التعامل مع الاسبان وكان هذا نوعا من محاولة لمد النفوذ الاسباني داخل البلاد مما اقلق السلطة العثمانية والسكان فظهر الجهاد البري الخاص إلى جانب الجهاد البحري .

كان الموريسكيون قد ازدادا خطرهم بعد اتصالهم بالعثمانيين في الجزائر وتلقيهم مساعدات عسكرية فاخذوا يغيرون معا على الموانىء الاسبانية كما قاموا بمساعدة العثمانيين على اختطاف ابناء المسيحيين للدخول في الانكشارية فيما بعد [١] كل ذلك جعل الاسبان يصرون على ملاحقة المسلمين اينما كانوا وذلك من خلال الحملات المتعددة وتشييد الحصون المعروفة باسم (Pegnon

(١) شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس، ص ٢٩٧ .

)او (Torre)على ارض افريقيا الشمالية لوضع حد للغارات الاسلامية ولمراقبة الحركة البحرية العثمانية وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التي ما فتىء المجاهدون القيام بها بنجاح لانقاذ المورسكيين من الاراضي الاسبانية كما كان هؤلاء يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ويمدونهم سرا بالمعلومات اللازمة للقيام بحملاتهم بنجاح [١] ، وخوفا من انتقال متاعب الموريسكيين الى الاراضي الجديدة في امريكا الوسطى والجنوبية ، وتحسبا في محاولة اعاقة اعتناق الهنود الحمر للدين المسيحي فقد منع شارل الخامس الموريسكيين من خول منطقة الهندو ولم يسمح لهم ولا لذريتهم ان يستقروا بالعالم الجديد ، دون ان يتحصلوا على اذن من الملك ومع ذلك فان الاسبانيين الذين حلوا بامريكا قد جلبو معهم عبيدهم وتغافلوا عن التصريح بانهم من العرب العبيد[٢]

اشتدت الحرب ضرواة بين الدولة العثمانية واوروبا بزعامة اسبانيا واشتدت من جراء ذلك الحرب البحرية فزادت رغبة العثمانيين في تحقيق هدفهم لاسترداد الاندلس ، ولتحقيق ذلك فقد بادر السلطان العثماني سليمان القانوني باسناد خطة قبودان باشا الى خير الدين باربروسا وبذلك كان اول وزير للبحرية العثمانية وفي هذا ايضا برهان على اهتمام الدولة باسترداد الاندلس ، وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية .

نظم خير الدين بربروسا ومن خلال منصبه الجديد الاساطيل العثمانية واخذ في ادخال العديد من اتحسينات على السفن الحربية وزاد في عددها وكانت البحرية العثمانية في هذه الحقبة في عصرها الذهبي بعد ذلك شن غارات منظمة على جزر البليار لانقاذ الموريسكيين وتقديم المساعدات العسكرية لهمثم عمل في تحرير عدد من الموانى الاسلامية في شمال افريقيا

(١) عبد الجيلي التميمي : رسالة من مسلمي غرناطة، المجلة التاريخية المغربية، العدد(٣)، ص ٣٩.

(٢) لوي كاردياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ص ١٤٧، ١٥١ .

مستعينا في الجزائر لذلك قام شارل الخامس بعدة محاولات للاستيلاء على بعض الحصون في تونس والجزائر مستغلا انحياز بعض السلاطين الحفصيين بجانبه الا انه لم يفلح في تحقيق هدفه امام اصرار المجاهدين المسلمين بقيادة خير الدين الذي اخذ في الاغارة على سواحل اوروبا الجنوبية مهددا الجزر الايطالية بعاصمتها روما ، ثم استولى على طولون ونيس في طريقه نحو الاندلس فاقلق هذا العمل المسيحية جمعاء وفي مقدمتهم اسبانيا وظل خير الدين مجاهدا للمسيحيين حتى وفاته .

اسند السلطان العثماني سليمان القانوني رتبة باي لرباي الى ابن خير الدين بربروسا حسن الذي ولد في الجزائر من ام جزائرية وتثقف على يد علماء الجزائر وكان حسن بن خير الدين محبوبا بين السكان [1] لذلك بادر السلطان باسناد ذلك المنصب الهام اليه وتقديرا لاعمال والده .

استطاع حسن بن خير الدين ان يسجل انتصارا كبيرا في بداية حكمه على الاسبان في مستغانم ، وبعد استقراره في الجزائر ، جهز حسن بن خير الدين جيشا كبيرا ليخلص وهران من يد الاسبان وليفتح بذلك الطريق الى الاندلس ، وفي طريقه نحو وهران استولى الملك السعدي محمد المهدي مدينة تلمسان ثم اتجه نحو مستغانم ، واحتلها ثم اتجه نحو الجزائر وهددها تهديدا مباشرا .

غير المجاهدون العثمانيون وجهة طريقهم فوجهوا نيرانهم نحو السعديين والتقى الجيشان العثماني والسعدي عند نهر الشلف ، واستطاع العثمانيون الحاق هزيمة ساحقة بالسعديين ، واسترجعوا مستغانم ثم تلمسان .

كانت سياسة حسن بن خير الدين قد سارت على نفس نهج والده ، والتي كانت ترمي الى وحدة البلاد وارساء اركان الدولة على اسس متينة وتحصين الثغور لصد العدو ثم العمل على استرجاع المدن الجزائرية بجاية ووهران من يد

(١) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، جـ ١، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

الاسبان لتسير بعد ذلك جماعات المجاهدين ويكونوا مددا لبقايا مسلمي الاندلس ليقهروا اسبانيا لاقامة دولة اسلامية جديدة .

اخذ حسن بن خير الدين يعمل نحو تحقيق تلك الاهداف فهيأ الاسطول الاسلامي لمهاجمة اسبانيا ، وبينما هو كذلك وصل السفير الفرنسي وعرض على حسن اعانة فرنسا له باسطولها ورجالها من اجل غزو اسبانيا لكن حسن بن خير الدين رفض هذا العرض ، موضحا انها قضية جهاد اسلامي لا يدخل فيها غير المسلمين .

قرر السلطان العثماني دعوة حسن بن خير الدين الى استانبول وعين مكانه صالح ريس وكان صالح ريس معروفا لدي المجاهدين العثمانيين فهو من الرجال الذين رافقوا عروج وخير الدين بربروسا في جهادهم ضد المسيحية وامتاز بحسن قيادته في البحر وبموافقة البطولية بالاضافة الى دقة نظره فيما يتعلق بنظام الادارة ، وقوبلت توليته منصب بيلربك بابتهاج عام .

هدفت سياسة صالح ريس الداخلية الى تحقيق الوحدة بصفة تامة بين كل اجزاء الجزائر ، وادخال بقية الاجزاء الصحرواية فيما يلي الزيبان ضمن هذه الوحدة ، اما سياسته الخاريجة فقد استهدفت الى ابعاد الاسبان نهائيا عن الشمال الافريقي ووضع حد لاعتداءات السلاطين السعديين الذين لم يتورعوا بالاستعانة بالقوى المسيحية في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية اي ازالة اهم العوائق التي تعوق الاسترداد ، ثم اعلان نفير الجهاد العام والسير برا وبحرا على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد الاندلس ، وهي التعليمات التي تلقاها من السلطان العثماني في بداية توليه منصب باي لرباي الجزائر .

بدأ صالح ريس، اولا بتوحيد الجبهة الداخلية ، فضم من جديد الى الوحدة الجزائرية امارة توقرت ، وامارة بني وارجلان (ورقلة) ، ثم اتجه الى غزو اسبانيا وفي اثناء ذلك ظهر ابو حسون الوطاسي الذي تعهد بالاعتراف بالدولة العثمانية ومساعدة العثمانيين في تجهيز الجيوش لمباشرة غزو اسبانيا مع

صالح ريس ، مقابل ارجاعه الى حكم مملكته .

جهز صالح ريس الجيوش العثمانية وسار في مقدمتها نحو فاس فدخلها ومكث بها اربعة شهور بعد ان رتب امورها ثم اتجه بعد ذلك نحو بجاية واستطاع ان يخلصها من الاسبان كما خلص مدينة التل بعدها وطهر اثر الاحتلال الاسباني من الساحل الشرقي الجزائري .

وجه صالح ريس ومن معه من المجاهدين اهتمامهم الى ناحية وهران وما حولها لانقاذها من يد الاسبان ثم الاستداد للوثبة الكبرى نحو الاندلس ، لكن الشريف السعدي قويت شوكته واستطاع ان يستعيد فاس ، ثم عمل مع الاسبان ضد الدولة العثمانية وذلك لاخراج العثمانيين من الجزائر وتقسيم الممتلكات العثمانية هناك .

علم السلطان سليمان القانوني بتلك المفاوضات بين السعديين واسبانيا وقرر مهاجمة وهران واحتلالها فارسل الى صالح ريس مددا بحريا مؤلفا من اربعين سفينة وعلى ظهرها الاف المجاهدين وذلك اعانة على هذا الزحف فسارت جيوش المجاهدين نحو وهران ، الا ان صالح ريس توفي في تلك الاثناء وحمل الراية من بعده القائد يحيى الذي واصل زحفه وابحاره نحو وهران ، الا انه لم تفتح وهران رغم شدة الحصار الذي فرضه العثمانيون .

اسرع السلطان السعدي اثناء عودة الجيوش العثمانية من وهران وارسل جموعه نحو تلمسان واحتلها منتهزا فرصة غياب الجيوش العثمانية واضطر السلطان العثماني الى اعادة حسن بن خير الدين الى الجزائر فارجع الى الادارة نظامها ثم عزم على استئناف الجهاد وانجاز مشروعين عظيمين ، تطهير الجزائر من الاسبان والاتجاه الى الاندلس .

فسار اولا بجيشه الى تلمسان لارجاع السعديين الى حدود بلادهم ونجح في ذلك ووصل الى مدينة فاس ثم اضطر الى العودة خوفا من ان يقطع الطريق

عليه بعد ان سمع بتحرك الاسبان في وهران ، ثم استطاع حسن ان يحقق انتصارا كبيرا على الاسبان في مستغانم واراد بعد ذلك ان يستغل فرصة ذلك الانتصار ، لتصفية وهران ، وجرت معارك كبيرة انتهت بعدم تحقيق العثمانيين لهدفهم وفي تلك الاثناء استطاع العثمانيون من تحرير جزيرة جربة ومن قبلها طرابلس الغرب .

وهكذا تعددت العوائق امام بيلربكية الجزائر العثمانية واخذت هذه العوائق تنمو بمضي الزمن والدولة تحاول جاهدة ان تتخطاها لتحقيق هذا المشروع العظيم ، استرداد الاندلس .

ومع ذلك قامت عدة محاولات محدودة من قبل عثمانيين هي اشبه بما نسميه اليوم حروب العصابات ، بمساعدة الموريسكيين تناقلتها بعض المصادر ومن ذلك انه في ربيع اول ٩٧٤ هـ / سبتمبر ١٥٦٦ م كان جابي محاكم التفتيش والأمور القضائي يجوبون اسقفية كاوس (Cadis) والمرية (Meria)لايقاف المتهمين ثم قضوا ليلتهم في احد بيوت مدينة طابرناس (Tabernas)وفي معيتهم احد الموريسكيان الموقوفين ، وفي الصباح استفاقوا على صوت طبل تركي وابواق وطلقات مدفعية ، واقتربت الاصوات من مسكنهم ، وكان يرشد العثمانيين احدمواطني القرية حيث صاح فيهم « ان اصحاب محاكم التفتيش موجودون هنا » ، ولم يكن للجابي ومرافقه الا الهرب من اعلى المنزل فغادر بعدها العثمانيين حاملين معهم أسلحتهم ، وانضم إليهم عدداً من الموريسكيين وكذلك عدد من الاسرى المسيحيين [1] ، ولعل ذلك يوضح مدى العلاقة بين الموريسكيين والعثمانيين الذين يعملوا دائما نحو انقاذ المسلمين مهما كلف ذلك من تضحية واستمرت الدولة على ذلك النهج حتى وفاة السلطان سليمان القانوني .

(١) لوى كاردياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، ص ٨٥.

كانت السنوات الاخيرة من حكم السلطان سليمان القانوني قد شهدت بداية المشاكل الاقتصادية فأثارت الخوف خلال ما تبقى من القرن السادس عشر على الرغم من مقاومة السلطان لمحاولات البرتغاليين اغلاق ابواب التجارة الدولية عبر المشرق العربي ، بينما كان نقص المعادن النفيسة يؤدي الى انخفاض في قيمة العملة المعدنية ، واكثر ما يثير الاعجاب هو ان النقص كان تأثيره على اوروبا اكثر بكثير من تأثيره على الدولة العثمانية وبالتالي فان النقص في اوروبا رفع اسعار الذهب والفضة في جميع انحاء القارة ارتفاعا هائلا ، وكان لهذا صداه في الدولة وعلى الاخص في ممتلكاتها الاوروبية (١)

ومن اسباب المهاكل الاقتصادية ايضا والتي وقعت فيها الدولة العثمانية هو ان الدولة كانت تضبط ميزانيتها اعتبارا من النوروز ٥٠ ي اول السنة المالية اذ يقوم الدفتر دار بتخليص موارد الخزينة ومخاريجها من الروزنامجة (اي الدفتر اليومي) ، ومن باقي حسابات الاقلام التابعة له ثم ترتيب الموارد والمصاريف لمدة سنة مالية وبما ان الميزانية (او اجمالي الايرادات والمصروفات للخزانة حسبما يسميها الديوان) ميزانية سنة الدخل اي السنة الشمسية فانها اطول من السنة القمرية التي تعتبر اساسا للمصاريف لذلك كانت الدولة العثمانية كل ثلاث وثلاثين سنة تجد نفسها امام ميزانية اقرت فيها المصاريف فقط وليس لها دخل اخر لمواجهة تمويلاتها (٢) بمعنى اخر انه يوجد عجز مالي يبلغ مدفوعات سنة كاملة (٣) ، لذلك كانت الدولة تتجه احيانا الى انقاص قيمة العملة ،

(١) Stanford Show : History of the Ottoman Empire P 107

(٢) تقوم الأرض بدورتها حول الشمس في سنة شمسية تعد ٣٦٠ يوماً وخمس ساعات و ٤٩ دقيقة، أما السنة القمرية فتتركب من ١٢ شهراً قمرياً، تكون بالتداول ما بين ٢٩ يوماً و ٣٠ يوماً تؤلف في مجموعها ٣٥٤ يوماً و ٨ ساعات و ٤٨ دقيقة، ويكون الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية ١١ يوماً ينتج منه خلال ٣٢ سنة : ٣٢ × ١١ = ٣٥٢ يوماً أي ما يعادل سنة قمرية كاملة.

(٣) ×ء =ٍ ٍ : سنو الأزدلاف أو أزمان الأمبراطورية العثمانية، المجلة التاريخية المغربية، العد (١٢)، ص ١٤٣ ـ ١٧٢.

وكثـرت المضاربـات وتدفقت العملة الفضيـة الرخيصـة من اوروبا الى الـدولة العثمانية لاعـادة بيعها نـظير مكسب بـاهظ وشلت الحركـة التجاريـة واستنزف الذهب من الدولة ونتج عن ذلك متاعب ، كمـا ادى الى ثورات الجنـد ، مما يضاف الى عوائق نجاح خطط الدولة المستمرة لاستداد الاندلس .

لم تكن هذه الامور قاصرة على الدولة العثمانية لان الطرف الاخـر وهو اسبانيا، على الرغم من تدفق الفضة عليها من العالم الجديد فقد كان الامبراطور شارل الخامس قـد فشل في التحـرر من اغلال النضـال ضد الاسـرة الحاكمـة الفرنسية كما فشل في النزاع الديني السياسي في المانيا علاوة على مشكلة ربط المستعمرات الامركية باسبانيا لذلك واجه خلفه فيليب الثـاني تلك المشاكـل، بالاضافة الى تمرد بلاد الاراضي المنخفضة اغنى الممتلكـات الاسبانيـة الامر الذي اجبره على سحب افضل الوحدات العسكرية من لبحر المتوسط سنة ٩٧٤ ـ ٩٧٥ هـ/١٥٦٦ ـ ١٥٦٧ م، لمـواجهة ذلـك التمـرد[١]، ثم انشغـل فيليب بالمشاكل الاقتصادية والتي تركها والده شارب الخامس نتيجة حروبه ضد الدولة العثمانية وضد البروتستانية فاضطر فيليب الثاني الى عقد معاهدة سلام مع فرنسا ثم حول جميع الديون المتـراكمة على الحكـومة الاسبـانية الى سنـدات ماليـة بفائدة[٢] .

تصدرت القضية الدينية قائمة اهتمامات فيليب الثاني فقد قاوم بشدة كل من لا يدين بالكاثوليكية وكان يهدف من وراء ذلك الى الـوحدة الـدينية حسب التعاليم الكاثوليكية، لمواجهة المسمين المتحدين في الهدف والدين وكان هذا هو المحرك الرئيسي لكل اعمال فيليب الثاني اما فيما يتعلق بمسلمي الاندلس فقد اتبع سياسة هدفها تنصيرهم او تهجيرهم داخل شبه الجزيرة الايبرية[٣] .

(١) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P 78

(٢) H G Korigsberber and Georg L Mosse : Europe in the Sixteenth century P 51

(٣) محمد عبده حتامله : التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد فيليب الثاني ، ص ٢١ .

شدد فيليب الثاني في تنفيذ الاوامر ضد الموريسكيين وعز الامر الصادر بهذا الشأن والمتعلق بتغيير الزي واللغة لاجل منع الطهارة التي هي من سنن الاسلام وذلك بأن اخذ يهدم الحمامات، كما اخذ المسيحيون في التعرض للنساء المسلمات فأثار ذلك المسلمين، واستطار شرهم، وعمت الثورة كل انحاء جبال البشرات سنة ٩٧٦ هـ/١٥٦٨ م، ولما كانت هذه الجبال من اصعب تضاريس الارض مرتقى وأوعرها مسلكا كان تدويخ سكانها من اصعب الامور منالا، وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت حولين كاملين اذ لعبت التنبؤات دورا هاما في تهيئة حرب البشرات، ذلك لأن الموريسكيين كانوا متأكدين من مساعدة السلطان العثماني[١].

كان السلطان العثماني قد بعث الى الاندلسيين في ٢٤ شوال ٩٧٧ هـ/ ٢٠ مارس ١٥٦٩ م برسالة يطلب منهم عدم التراخي مع الاسبانيين «.. انا نتوخى من خلال حميتكم الاسلامية المتأصلة في جليتكم عدم التراخي عن اظهار غيرتكم على الدين المتين، فلتظهروا انواع اقدامكن واصناف اهتمامكم في الحب والقتال ضد الكفاح الاذلاء.. ولا تتوانوا عن اعلامنا باستمرار عن احوال واوضاع تلك الديار»[٢]، كما وجه السلطان العثماني في نفس الوقت اوامره الى بيلربك الجزائر قلج علي وذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧ هـ/ ١٩ مارس ١٥٦٩ م يأمره بمساعدة الانلدسيين «... وعليك ان تعاون وتظاهر اهل الاسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وان الغفلة عن الكفار اصابهم الدمار غير جائزة فلتكن على بصيرة من الامر، ولتظهر انواع اقدامك واصناف اهتمامك في سبيل الامور المتعلقة بالدين المبين، ودولتي الابدية ولا تتوانى في اعلامنا باحوال وأوضاع تلك الديار»[٣].

بعث قلج علي اسطول الجزائر لمساندة المسلمين في الاندلس وحاول

(١) لوي كاردياك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون، ص ٦١.
(٢) دفتر المهمة رقم (٩) ص ٨٩ حكم رقم ٢٣١، أرشيف رئاسة الوزراء العثماني.
(٣) دفتر المهمة رقم (٩) ص ٧٧ حكم رقم ٢٠٤ أرشيف رئاسة الوزراء العثماني.

انزال الجند العثمانيين في الاماكن المتفق عليها، لكن الاسبانيين كانوا قد عرفوا ذلك من قبل فصدوه عن النزول، لم يأبه بذلك قلج علي وصمم على ارسال مدد جديد لمسلمي الاندلس، وتمكن من انزال اربعة آلاف جندي بأسلحتهم، بالاضافة الى ذخائر كبيرة، وبعض القادة العثمانيين، كما ارسل قلج علي مددا جديدا من الرجال والسلاح اعانة للثورة الاندلسية، وكان قلج علي يرغب الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هنالك، لكن اوامر السلطان العثماني اقتضت بقاءه في الجزائر استعدادا للحوادث المقبلة[1].

كان المسلمون في غرناطة يأملون كثيرا في استرداد بلادهم ويوضحون ذلك لمحاكم التفتيش » . لقد كانوا مسلمين وذكرت كتبهم وقصصهم ان هذه الارض (اسبانيا) سوف تفتح من جديد وان عرب المغرب سوف يفتحونها، ان ساعة النجاة قريبة وسوف تأتي من شمال افريقيا، وبجاية ووهران وسبتة سوف تفتح اولا ثم بعد ذلك سيتم من جديد غزو اسبانيا منتهجين نهج طارق، وأنه في مضيق جبل طارق سيظهر جسر وبواسطته يجتاز العرب ويتكنون من غزو اسبانيا حتى قاليسيا (galicia).

إن هذه التنبؤات تعبر عن اصل ديني وهي تؤكد ايضا الايمان بمصير سياسي محدد، وهذان العنصران سوف يدمجان ليصلا الى حد الاقتناع بقرب انتصار الاسلام على المسيحية « . . . ان الاتراك بمعية جيوشهم سوف يتحولون الى روما وسوف لا يتم الا انقاذ المسيحيين الذين يعتنقون دين محمد، اما الآخرون فسوف يؤسرون اويقتلون»، ومن جهة اخرى ذكرت تنبؤات اخرى كذلك انه ستقع فضائح وسيتم تحالف بين عقيدة العرب وعقيدة المسيحيين، والناس جميعا سوف يرجعون الى دين العرب»[2].

شجعت تلك التنبؤات المسلمين في البشرات ورفعت من معنوياتهم،

(١) أحمد توفيق مدني · حرب الثلاثمائة سنة، ص ٣٩٣.

(٢) لوي كادرياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ص ٦١ ، ٦٢، ٦٤

لذلك ارسلت الحكومة الاسبانية لتدويخ الثوار في البشرات الدون جون الاوستري اخ فيليب الثاني فباشر القتال في شتاء ٩٧٧ ـ ٩٧٨ هـ/ ١٥٦٩ ـ ١٥٧٠ م وأتى من الفظائع ما بخلت بتنديده كتب الوقائع، فذبح النساء والأطفال امام عينه، واحراق المساكن ودمر البلاد، وكانت شعاره (لا هوادة)، وانتهى الامر باذعان الموريسكيين[1]، ولكن العوائق الاخذة في النمو كما ذكرنا اعاقت الدولة عن انجاز مشروع استرداد الاندلس.

قامت الدولة العثمانية بغزو قبرص في عام ٩٧٨ ـ ٩٧٩ هـ/ ١٥٧٠ ـ ١٥٧١ م، وبعد ذلك آخر الانتصارات العظمى للعثمانيين، فالاستيلاء على هذه الجزيرة الحصينة جدا قد استلزم قطع خطوط المواصلات اقوى الاساطيل المسيحية في البحر المتوسط ونقل جيش ضخم الى الجزيرة والاحتفاظ به في اراضيها، هذا التصرف قد تحقق بالتعاون بين الانكشارية والبحرية، وكان من اعظم انجازات الاسلحة المشتركة العثمانية، وهذا الانتصار المحدود للدولة في شرق البحر المتوسط قوى من الامل لدى الموريسكيين بينما زاد من خوف الاسبان ومن اضطهادهم لهم في نفس الوقت.

ادرك البابا في روما الخطر الاسلامي العظيم الذي يتهدد البلاد الاوروبية، من جراء تدفق العثمانيين برا وبحرا واصرار الدولة على دخول اوروبا من جنوبها الغربي الى جانب تواجدهم في جنوبها الشرقي، فاخذ يسعى من جديد لجمع البلاد الاوروبية وتوحيد قواها تحت راية البابوية من اجل الوقوف في وجه الاسلام واستطاع من جمع اسطولي اسبانيا والبندقية وبقية الجمهوريات والانيا بالاضافة الى اسطول البابوية، وتم عقد هذا الحلف في كاتدرائية القديس بطرس.

استعدت المسيحية قاطبة، تحت راية البابوية للقيام بمعركتها الحاسمة فاسندت قيادة اساطيلها الى الاميرال دون جوان، فسار الى البحر

(١) شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس، ص ٢٩٨.

الادرياتيكي وأمام مدينة ليبانت اليونانية، احتدمت نيران المعركة وكانت نتيجتها في غير صالح المسلمين واستطاع قلج علي ان ينقذ عددا من سفن المسلمين وبادر السلطان العثماني على اثرها باسناد خطة قبودان باشا الى قلج علي مع بقائه على منصبه كبيلربك للجزائر مثله في ذلك خير الدين بربروسا وابنه حسن، وكان هذا يدل دلالة واضحة على مدى رغبة الدولة في استرداد الاندلس، لأن بيلربك الجزائر هم أعلم الناس باسبانيا واقدرهم على معرفة ظروف البحر المتوسط وتنفيذ خطة الدولة تجاه الاندلس.

اقبل قلج علي بهمة ونشاط على تجديد الاسطول الاسلامي وتعويض ما فقد منه حتى ارتاعت البندقية من هذا الاستعداد فطلبت الصلح من الدولة العثمانية وتنازلت لها عن جزيرة قبرص، ودفعت غرامة حربية كبيرة.

اذا كانت نكسة ليبانت (lepante) قد احزنت الموريسكيين فان فتح تونس وحلق الوادي من طرف العثمانيين عام ٩٨٢ هـ/١٥٧٤ م، قد سرهم وكانوا يعلقون على هذه الاحداث حتى في القرى النائية في باراقوان وقشتالة، كان الموريسكيون يتابعونها بأهمية بالغة، ففي تقرير لمحاكم ودواوين التفتيش، لوحظ انه في كاريناتا (carinena) وضواحيها ان الموريسكيون ابدوا فرحهم وصورهم عندما سئل احد الموريسكيين: لماذا انتم في غاية الفرح؟ رد الموريسكي ان ذلك بسبب نجاح استيلاء العثمانيين على احد قلاع ملك اسبانيا، ونتيجة لذلك الشعوب فان هناك اعدادا من الموريسكيين كانوا قد عذبوا بسبب الشك الذي شاع حول احتمال علاقاتهم بالعثمانيين، كما أن الموريسكيين المسجونين صرحا برغبتهم في النزوح إلى المغرب، حيث كان هناك شعور قوي بهجوم عثماني على اسبانيا.

ان هجمات المجاهدين على السواحل الاسبانية هو في الغالب من عمل الموريسكيين الذين لجأوا الى الجزائر وكانوا يصنعون في ارشال (sargel) بعض السفن الشراعية، ونظرا لكونهم اصلا من اسبانيا، فانهم كانوا يعرفون السواحل

ويستطيعون استعمال كثير من الحيل لانجاح حركتهم وكانوا في الغالب على اتصال باقربائهم او اصدقائهم الذين تركوهم باسبانيا وكانوا ينزلون ليلا بعد أن يخفوا سفنهم الشراعية ثم ينزلون مرتدين لباسا مسيحيا حيث لا يتعرف عليهم وهذا بسبب اتقانهم اللغة القشتالية وكانوا بذلك يفاجئون المسيحيين ويأخذونهم كأسرى[١].

لاحظ القابودان باشا قلج علي الاخطار التي تهدد الاراضي الاسلامية واضطراب تجارتها نتيجة لاستقرار الاوروبيين على سواحل امريكا والهند والخليج العربي فاقنع السلطان بوجوب فتح قنال بحري يصل بين ميناء السويس والبحر المتوسط وذلك لتأمين الحدود الجنوبية أولا واختصار طريق القوافل البحرية فتسترجع مصر وبلاد العرب اهميتها ولا تفقد موانيء البحر المتوسط مكانتها الاقتصادية واقتنع السلطان بذلك وابتدء العمل الذي لم يلبث ان توقف بعد فترة لموت قلج علي[٢]، ولا شك ان نفتاح الميدان الجنوبي واتساعه وما اقترن به من تحول للتجارة العالمية كان من اهم العوائق التي عاقت الدولة عن استرداد الاندلس.

ضعف الامل بعد ذلك لدى الدولة العثمانية في القضاء على الخطر البرتغالي في المحيط الهندي عن طريق اغلاق الباب المتمثل في الشاطيء الغربي لافريقيا وبذلك ختم الصراع بين المسلمين بقيادة الدولة العثمانية والبرتغاليين، بنجاح المسلمين في تأمين البحر الاحمر وحماية الاماكن المقدسة الاسلامية من الخطر الصليبي البرتغالي وذلك باقامة حزام امن حول الحرمين الشريفين[٣].

استقرت الدولة في عسير واليمن وعدن وتركت بعد ذلك جنوب شبه

(١) لوي كاردياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ص ٨٤، ٨٥

(٢) أحمد توفيق مدني : حرب الثلاثمائة سنة، ص ٤١٠.

(٣) عمر بابكور : حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين رسالة ماجستير لم تنشر بعد.

الجزيرة لوجود حاجز طبيعي تمثل في صحراء الربع الخالي ويستمر الحزام بعد ذلك حول الحجاز، حتى نصل الى الشرق فنجد نفوذ الدولة في الاحساء والعراق ومناطق الشام وتقفل الدائرة تماما، لتؤمن الحماية الكافية للحجاز، وأعلن السلطان أنه «حامي الحرمين الشريفين» وكا هذا بمثابة اعلان موجه لاوروبا عامة والبرتغاليون بصفة خاصة، ومن ثم انفرد الحجاز بنظام خاص دون سائر الولايات العثمانية كان في مقدمتها اعفاؤه من تقديم جزية سنوية للدولة العثمانية كما تمتع السكان بالاعفاء الضريبي من جميع الضرائب الشخصية والعقارية بل على العكس كان يتلقى الحجاز كل عام اعتمادات مالية ضخمة من مصر التي كانت عبارة عن حصيلة الاوقاف الموقوفة على الحرمين الشريفين وفقاء مكة المكرمة والمدينة المنورة، كماكان سكان المدينتين وسائر مدن الحجاز يتمتعون بالاعفاء من التجنيد والخدمة العسكرية، كذلك استبقى العثمانيون في ولاية الحجاز النظام المعروف باسم نظام الشرافة وكان معمولا به في هذا الاقليم من قبل، واستحدثوا بجانبه صنجقية يقيم فيها وال كانت رتبته في اغلب الأحيان صنجق وفي احيان اخرى باشا، وكان امير مكة المكرمة وشريفها هو المرجع الاكبر في الحجاز وصاحب الكلمة العليا في تصريف شؤون باديته ومن ظواهر تكريم الحجاز انه شاغل ذلك المنصب كان يتصل مباشرة بالصدر الأعظم وكان يأتي في (البروتوكول) العثماني بعد الصدر الاعظم[١].

بدأت اسبانيا تفكر في تغيير سياستها تجاه شمال افريقيا وتونس بصفة خاصة بعد أن ظهرت المشاكل الاقتصادية في البلاد، وتراكم الديون على فيليب الثاني حتى توقف عن سدادها ورأت الحكومة الاسبانية ان تهتم بأوروبا فنقت معظم القواد العسكريين الذين قادوا المعارك في البحر المتوسط الى الاراضي المنخفضة وتبدلت بذلك السياسة الاسبانية التي انصرفت عن التفكير في تجريد

(١) فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وأقليم الحجاز ص ٤٥ ـ ٤٨ .

الحملات لغزو شمال افريقيا واخذت تبحث مسألة عقد هدنة في اواخر القرن السادس عشر مع الدولة العثمانية وقابل ذلك انشغال الدولة العثمانية بحروبها مع الفرس تلك الحروب التي ملأت الجزء الأخير من هذا القرن.

ومعنى ذلك ان الصراع العثماني الاسباني، او الصراع الاسلامي الاوروبي حول الاندلس قد دخل في طور جديد يمكن ان يلحظه المؤرخ المدقق وكأننا بالدولتين العثمانية والاسبانية قد بدأت تعطي ظهرها لهذا الموضوع فالدولة العثمانية اخذت تتجه اكثر للمشرق، بينما اخذت اسبانيا تتجه اكثر للعالم الجديد، أو بمعنى اخر لم تعد الاندلس في موضع الصدارة في سياسة الدولتين.

كان تدفق الفضة بالقدر الكبير على اسبانيا من العالم الجديد كما اوضحنا عمل على ارباح النظام المالي الاوروبي وطرد الذهب من دائرة التداول ولما ظل الانتاج الزراعي والصناعي ثابتا، ولم يزداد مثل معدل العملات وارتفعت الأسعار وساد التنصر في اوروبا وشعرت اسبانيا اولا بالصدمة، حيث كان لديها احتكار واردات الفضة من العالم الجديد، ولكن تورط اسبانيا الدائم في السياسات الاوروبية وموقف الدولة العثمانية من حيث اصرارها على استرداد الاندلس، ومشكلة الديون تعني ان الفضة مع تضخم واردها كانت تتسرب من اسبانيا الى بقية انحاء اوروبا[1] وهذا ايضا مما جعل اسبانيا تولي ظهرها في الحقبة الاخيرة من القرن السادس عشر الميلادي للصراع مع الدولة العثمانية.

امر فيليب الثالث قائده دوق البا بدخول البرتغال في شعبان ٩٨٨ هـ/سبتمبر ١٥٨٠ م، وسحق المقاومة الضعيفة منها، ووافق ذلك بداية تدفق الفضة من امريكا الجنوبية بعد استخدام الزئبق في (zactecas) وجوان جاكو (guana Jaco) في المكسيك وبوتوس (potosi) في بيرو[1]، ومع هذا ادت

(١) Roger Locker : Habsburg E Bourbon Europe P 59

التطورات التاريخية في اوروبا الغربية الى دخول اسبانيا في مغامرة اخرى، فقد زعمت مدارس الكهنة الكاثوليكية ان انجلترا تدين بالمذهب الكاثوليكي وليس البروتستانتي، وان شيوع المذهب البروتستانتي كان بسبب حكومتها، وأن الاغلبية من الناس كاثوليك متعطشين للعودة الى احضان الكنيسة الكاثوليكية لذلك فانه عندما يظهر الجيش الاسباني في انجلترا فان الصرح العظيم الذي شيدته الملكة اليزابيث سوف ينهار تماما[١].

ازداد الصراع حدة بين اسبانيا وانجلترا، اذ ساهم الانجليز في دعم الثوار الهولنديين، كما اعتدى اسطولهم على بعض السفن الاسبانية بالاضافة الى اراضي اسبانية ثم ابحرت السفن الانجليزية الى فيجو (vigo) الاسبانية وسلبت ونهبت الكنائس ثم هربت وهاجمت ثلاث من اكبر مدن مستعمرات الاسبان وعادت الى قواعدها بدون حرب.

اظهر امراء الاسطول الاسباني رغبتهم في الانتقام لشرفهم الوطني والذي تعرض لوقاحة، كما عرض البابا في روما على الملك الاسباني فيليب الثالث الذي ادرك ان المؤامرات والمكائد التي تدور حوله لا تخدمه ويجب عليه ان يجهز قواته والا فان رجال الخاصة قد ينقلبوا عليه، لعدم استحقاقه تاج قشتالة وكان فيليب لا يحبذ فكرة غزو انجلترا لادراكه انه اذا احتلها فسوف لا يسمح له بالمحافظة عليها[٢]،وذلك لاصرار الكاثوليك الانجليز على ابقاء ماري ستيوارت ملكة، التي لا يثق في وعودها وغير راضي عن اخلاقها، لميولها نحو فرنسا، لذلك يجب العمل نحو رد شرق فشتالة، واخذ في جمع اسطول من اكبر واحسن الاساطيل التي طفت في البحر[٣]، وبينما كان فيليب يعمل في تلك

(١) H. G. Koenigsberger and George L. Mosse : Europe Irthe Sixteen cenrury P 27

(٢) James Anthony Froude : English Seaman in the Sixteenth century, P. P. 202 — 204

(٣) James Anthony Froude : English Seaman in the sixteenth century, P çü

التجهيزات كانت النيسة تعمل من جهتها لتعبئة الناس لهذه الحرب المقدسة ضد البروتستانت، اعداء المذهب الكاثوليكي وبالتالي اعداء البابوية والكنيسة القشتالية.

انطلقت السفن الحربية الإسبانية عام ٩٩٧ هـ/١٥٨٨ م باتجاه الشواطىء الانجليزية ولكن رداة الطقس وبراعة القباطنة الانجليز، أدت الى اخفاق عملية الغزو مما ساهم ذلك في التقليل من هيبة اسبانيا في تلك الحقبة من الصراع الدولي بالاضافة الى انها كانت عملية باهظة النفقات كلفت الخزينة الكثير من لاموال[١]، هذه التطورات الاخيرة قللت من الخطر الاسباني الى حد كبير على شمال افريقيا العثمانية مما اوحى للدولة العثمانية بتقليل تركيزها على مشروعاتها في الحزض الغربي للبحر المتوسط، تحت ضغط التطورات في الميدان الجنوبي، اي في البحار العربية، وفي الميدان الشرقي مع فارس.

كلف السلطان العثماني احد المدجنين ويدعى الكسندر كاستالانو (alex-ander Costellano) من (calando) للتأكد من بعض العلامات بقشتالة وبلنسيه، ومعرفة ما اذا كانت تلك العلامات ملائمة لما نصت عليه احدى التنبؤات التي شاعت في انحاء الدولة، والتي تتعلق بزمن اعادة فتح اسبانيا، وقد ذكر الكسندر كاستالانو، ان زمن فتح اسبانيا من طرف العثمانيين قد اقترب، ذلك ان العلاقات التي احتوتها احدى التنبؤات قد تمت وأنه في منقة سيارا دو قالينيرا (syerros de Gallinera) من مملكة بلنسيه، ظهر شاب في مقتبل العمر، يختلف كثيرا عن اقرانه وانه خلال مدة قصيرة سيكون يتيم الأب ثم يغزو الموريسكيون هذه المنطقة وينتصرون في الحرب[٢]، ليس غريبا ان يصدق السلطان تلك التنبؤات فقد كان الفلك والتنجيم لهما اهميتهما وكان منجم باشي

(١) عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ص ١٢٧.
(٢) لوي كاردياك : الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ص ٦٤.

من كبار الموظفين في قصر السلطان[1] مما يدل على المناخ السائد في كل انحاء الدولة عن مشروع استرداد الاندلس.

كان المنصور السعدي موادعا للسلاطين العثمانيين فارسل اليهم بالهدايا وكانوا يرسلون اليه بالمكاتيب والخلع السنية حتى ان السلطان مراد الثالث كتب اليه قائلا: «لك على العهد ان لا امد يدي اليك الا للمصافحة، وان خاطري لا ينوي لك الا الخير والمسامحة[2] وكان المنصور قد تراجع عن موقفه المعادي للدولة العثمانية بعد هزيمة الارمادا سنة ٩٩٧ هـ/١٥٨٨ م، وكان السلطان العثماني مراد الثالث قد رغب في انتهاز الموقف لعقد حلف مع السعديين في المغرب، يستهدف في الدرجة الاولى غزو اسبانيا واستعادة الاندلس».. ولما وصل لمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخاقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة برتغال او كاد وانه جعل اهلها في الاغلال والاصفاد وانه لكم جار وعدو مضرار، حركتنا الحمية الاسلامية لاظهار الالفة الازلية ان نتخذ عهدا ونؤكد ان المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة المنورة والحوضة المعظمة فاذا تم هذا الشأن نوجه اليكم ثلاثمائة غرابا سطانية وجيش عز ونصرة وكماة عثمانية تستفتح بها ان شاء الله بلاد الاندلس..»، ولعل السلطان كان صادقا في تحليله وعرضه فاسبانيا بعد هزيمتها المنكرة امام انجلترا في ٩٩٧ هـ/١٥٨٨ م هبطت الى الدرجة الثانية بالنسبة للقوات الكبرى المعروفة انذك، فصار من الممكن القيام بعمل ضدها سيما اذا كان من الحجم الذي تصوره السلطان مراد الثالث الذي كان يدرك ايضا مدى الصداقة القوية بين المغرب وانجلترا واتصال البلدين في موضوع اسبانيا بالذات، مما جعل موضوع استرداد الاندلس باقيا لدى العثمانيين حتى بعد انتهاء عصر سليمان الأول.

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني، ص ٤٤.

(٢) ابراهيم حركات: التأثير العثماني في المغرب، اشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب، جـ ٢، ص ١٤.

كان جواب المنصور « . . لعل في ذلك اجتماع كلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذي آن ان ينعقد بين الدولتين ويبـرم حكمه بين المملكتين عـونا على صلف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين . . » وجاء في رسالة اخـرى « . . فمآربكم بهذا الجانب الرفيع مقبولة واسباب التسيير ان شاء الله موصولـة واشـارتكم الى ما لجنـابنا العلوى من الجـلال، بالمثـابـة العثمـانيـة الـطاهـرة الخضال، نعم انها الرحم اسلامية ومؤاخاة دينية تزداد خلوصها . . »، وفي رسالة منـه للبيلربك العثمـاني في الجزائـر « . . واعلموا ان آنستم في جـانب الكفرة دمرهم الله عمارة تنشأ أو اسطولا يؤم ناحيتكم واحتجتم الينا فنحن بحمـد الله بأنفسنا واموالنا واجنادنا موجودون بنصرتكم على اتم اهبة واستعداد . . »

تردد السفراء بين الاستانة وفاس فتوجهت سفارات احمد بن ودة والشاطبي والشاظمي وابي الحسن علي بن محمد التمكروتي بين عامي ٩٧٩ هـ/١٥٨٨ م، ٩٩٩ هـ/ ١٥٩٠ م، واستقبـل احمـد المنصـور سفيـرا عثمـانيـة في ٩٩٨ هـ/ ١٥٨٩ م[١].

لم تتحقق رغبـة السلطان العثماني في التحـالف مع السعـديين لاسترداد الانـدلس وذلـك بسبب انشغـال الـدولـة بحـروبهـا المضنيـة ضـــد الايـرانيين والهابسبرج في وسط اوروبا، بالاضافة الى واجبها نحو حماية الاماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز، وتدعيم حزامه الامني.

كانت الدولة العثمانيـة قد ضمت جميـع الاقاليم الغـربية من ايـران بين القوقاز ونهاوند وذلك في الفترة فيما بين سنتي ٩٨٦ ـ ٩٩٩ هـ/١٥٧٨ ـ ١٥٩٠ م، كمـا نجح عبـد الله بـك خـان الحليف العثمـاني في وسط آسيـا من غـزو خراسان، كما حصل القائد العثماني في غرب ايران (عثمان باشا) على مساعدة حربية من القرم، وحاول تشييد اسطول في بحر قزوين، غير ان هجمات الروس

(١) محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص د! ـ ٩٧.

في شمال القوقاز على التعزيزات المرسلة من القرم وتجدد الصلات الدبلوماسية الروسة الايرانية اثار الانتباه لدى العثمانيين الذين عقدوا هدنة مع الايرانيين سنة ٩٩٩ هـ/١٥٩٠ م.

نشبت الحرب بين الهابسبرج والعثمانيين في عام ١٠٠٢ هـ/١٥٩٣ م، هذه الحرب والتي استغرقت وقتا طويلا، اظهرت كيف ان كثيرا من الظروف الدولية قد تحولت ضد العثمانيين ففي شرق اوروبا حصل البابا على حلفاء اقوياء للنمساويين في الافلاق والبعدان وترانسلفانيا كي يثوروا ضد العثمانيين ويحاربون الى جانب النمساويين فضلا على هجوم قبائل قوساك الدينبر على العثمانيين وذلك في جبهة متسعة في البر والبحر وفي هذه المعارك بذل العثمانيون جهودا ضخمة واحرز جيشهم في هنغاريا بقيادة السلطان نفسه على نصر عظيم في ميزوكرزت (mezokereszet) اكتوبر ١٠٠٥ هـ/١٥٩٦ م، ولكن دون حسم مما اضطر الى مواصلة الهجوم والزحف حتى حاصر بودا (buda) وتستمر تلك الحرب الاستنزافية على الجبهة الاوروبية زمنا ليس بالقصير وحالما تتوقف تلك الجبهة ينتقل العثمانيون الى الجبهة الفارسية وتركت العلاقات المغربية العثمانية كي تكون من هذا الوقت علاقات حدود بين دولتين اسلاميتين متجاورين هذا، وكان السلطان احمد المنصور السعدي قد بدأ في الخروج بالمغرب من اطار الامارة الناشئة المدافعة عن حدودها الى اطار الدولة الاسلامية الكبرى الثانية في علاقات المغرب الاسلامي.

ارسل الشاه الصفوي عام ١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م سفراءه الى اوروبا لعقد مباحثات عسكرية واقتصادية ذات صيغة معادية للعثمانيين ففي فيينا استقبل الامبراطور النمساوي السفارة الايرانية بحرارة واخبر اعضاءها برغبته في تأليف حلف مضاد للعثمانيين مع الروسي والجورجيين في الشرق وأنه في سبيل توحيد الملوك المسيحيين في اوروبا للقيام بحملة صليبية مقدسة، وفي ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م اتجه الشاه الى استئناف الهجوم الفارسي على العثمانيين بهذا

واجهت الدولة الحرب في وقت واحد على جبهتين غربية وشرقية بالاضافة الى الاضطرابات الداخلية التي اخذت تهز ارجاء الدولة العثمانية.

ومع ان الدولة العثمانية خالفت قواعد التاريخ المعروفة من يث اشتباكها في جهاد او حروب في اكثر من ميدان الا أن اشتعال الميادين الاربعة: الغربي والعرقي والجنوبي وبدء ثقل جديد على الدولة من الشمال كل ذلك مثل عائقا ضخما بالنسبة لاهداف الدولة في شبه الجزيرة الايبرية.

استمر المجاهدون ومعهم حلفاؤهم العثمانيون في القيام بالأعمال الحربية ضد اسبانيا لتشكل ضغطا مستمرا على اسبانيا في غرب البحر المتوسط اذ تعرضت البحرية الاسبانية الى هجوم مستمر، كما كان هناك عدد من الاسرى المسيحيين لدى سكان شمال افريقيا يحتاجون الى فدية وامام ذلك الضغط الاسلامي الصارم قامت البحرية الاسبانية بنشاط مضاد محققة بعض النجاح مما دعى الموريسكيين الى شن الحرب داخل المعسكر الاسباني في الفترة من ١٠١٠ - ١٠٢٥ هـ/١٦٠١ - ١٦١٦ م[1].

لم تكن هناك في البداية حملة ضخمة لطرد وابعاد الموريسكيين من اسبانيا، صحيح رأى المسيحيون في الاسلام عدوا عنيدا للعقيدة الكثوليكية ولاسبانيا بسبب حماسة العثمانيين ونشاطهم الذي لم يفتر، ولكن العداء نحو الموريسكيين كاناقل من ذلك، لذلك لا توجد دوافع ملحة لدى العامة لطردهم.

احتدت المناقشة بين رجال الدولة والكنيسة وانقسم رأيهم حول الاجابة على تساؤل فحواه: هل يمكن ان يندمج بعض الموريسكيين في العقيدة المسيحية والمجتمع؟ وقام عدد من رجال الدين بالدفاع عن الموريسكيين ولكن كانت توصياتهم غير ذي قيمة امام اغلبة الأصوات المتعصبة والذين طالبوا الملك الاسباني والحكومة الاسبانية بطردهم فورا من التراب الاسباني على

(١) John Lynch : Spain under the Habsburgs Val 2 P. é

اعتبارهم كفرة وبذلك يستفاد من ممتلكاتهم كما يجب استبعادهم عن العمل في السفن المسيحية والمناجم ويجب بيع هؤلاء الموريسكيين في خارج اسبانيا وعلى الصعيد الحكومي، وكان هناك ايضا انقسام في الرأي، بين مؤيد لعملية الطرد ومعارض لذلك وكان المعارضون اصحاب مصالح شخصية من الطبقة الارستقراطية والفين رأوا في الموريسكيين كقوة عاملة يمكن الاستفادة منهم أو من استئجار اراضيهم بقيمة منخفضة لكن كان الفلاحون الاسبان ينظرون الى خصومهم ومنافسيهم الموريسكيين بالحسد واعتبروهم تابعين للطبقة الارستقراطية ملاك الاراضي ولذلك طالبوا بطرد الموريسكيين، وكان الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الايبرية يعيش في خطر حقيقي وذلك من جراء النمو السكاني السريع للموريسكيين في فالينسيا (valancia) والاراغوان (aragon) وكان هذا يهدد ميزان القوة بين المجتمعين وربما في النهاية ترجح الكفة لصالح الاسلام وبناء على ذلك فان ابعاد وطرد الموريسكيين يعتبر عمل من اعمال حروب الاسترداد المسيحية.

ناقش المجلس الاسباني تلك الامور وبدأ يوصي بابعاد الموريسكيين وذلك على اعتبار ان أمن اسبانيا لا يتحقق الا بتلك الطريقة، وفي ٢٠ محرم ١٠١٨ هـ/ ١٤ ابريل سنة ١٦٠٩ م اوصى المجلس وبشدة الملك بضرورة الابعاد، وقبل الملك الاسباني فيليب الثالث تلك النصيحة وتقرر طرد وابعاد جميع المورسكيين من اسبانيا على أن يبدأ ذلك من فالينسيا أولا.

كانت مشكلة الموريسكيين تعتبر من اقوى المشاكل حدة بسبب كثرة عددهم وتمركزهم في الجبال المنيعة ولموقعهم بالقرب من الخط الساحلي والسهل الوصول اليه من شمال افريقيا، وكا من المنطق ان يطردوا من فالينسيا اولا، قبل ان ينظموا دفاعهم او يطلبوا مساعدة خارجية وبدأت الاستعدادات في منتهى واقصى السرية وتجمعت السفن بالمجاديف في البحر المتوسط كما احضر الأسطول المرابط في الاطلسي وحشدت الوحدات العسكرية وفي سبتمبر اخذ القوات البحرية مواقعها في ثلاث موانىء، ثم انسحبت ثلاث وحدات من

ايطاليا واخذت مواقع استراتيجية في شمال وجنوب فاليسنيا، وامر ماركيز كارازينا (carazena) اعلان قرار الطرد والابعاد الذي شمل جميع المورسكيين باستثناء الاطفال الذين تقل اعمارهم عن خمس سنوات وارتفع بعد ذلك الى اربعة عشر عاما، اذا وافق آباؤهم على بقائهم[1] واستمرت عملية الطرد في فالينسيا حتى ١٠١٩ هـ/١٦١٠ م، ثم جاء دور ارغوان بعد ذلك ثم تشمل جميع انحاء اسبانيا واستغرقت تلك العملية حتى ١٠٢٥ هـ/١٦١٦ م.

لم تكن الحالة في الدولة العثمانية تسمح بالتدخل في قرار الطرد ولكن استطاع الباب العالي ان يستغل صداقاته مع فرنسا وبريطانيا والبندقية فضلا عن الولايات العثمانية بافريقيا والمغرب الاقصى وطلب من هاته الحكومات مساعدة الموريسكيين على الهجرة وتسهيل مهمتهم والتدخل لدى الحكومة الاسبانية للتخفيف من القوانين الجائرة والمسلطة على المسلمين.

سعى السلطان احمد الاول على تدعيم علاقاته مع المغرب لاقصى الذي يعتبر البلد الاسلامي المتصل مباشرة باسبانيا والاندلسيين وفي شعبان ١٠٢٢ هـ/سبتمبر ١٦١٣ م وصل خليل باشا الى المغرب في مهمة الظاهر منها توطيد العلاقات مع السعديين وتبديل السفراء غير ان المتتبع والمتأمل في سياسة الباب العالي في هذا الوقت، لا ينفي ان تكون مهمة لها علاقة مباشرة بقضية الموريسكيين هاته القضية التي اهتم بها المسلمين في المشرق والمغرب ثم تأتي زيارة خليل باشا الى طرابلس الغرب لنفس المهمة والغرض.

كما قام السلطان العثماني بمساعي اخرى حثيثة لدى بريطانيا وفرنسا والبندقية لمساعدة الموريسكيين وانقاذهم وتسهيل تحولهم الى الاراضي العثمانية فكلف السلطان احمد الاول الحاج ابراهيم اغا احد خواص الخدمة العثمانية بالسفر الى لندن ومقابلة ملكها جاك الاول (jecqes I) وطلب مساعدته

---

(١) John Lynch : Spain under the Habsburgs Val 2 P. P 46 — é!

في احتضان الموريسكيين الذين غادروا اسبانيا وتسهيل نقلهم الى الاراضي العثمانية إلا أن بريطانيا التي عقدت معاهدة سلم مع اسبانيا لم تستجب لطلب السلطان العثماني.

أما فرنسا حيث كانت علاقات الدولة العثمانية ردي معها فقد ارسل احمد الأول الى الملكة ماري دي ميدسيس (marei de Medesis) الوصية على ابنها لويس الثالث عشر رسالة يطلب منها ان تساعد الموريسكيين الذين نزلوا بجنوب فرنسا وتوفير عدد من السفن ليتم نقلهم الى اراضي الدولة العثمانية، وقد استجابت الملكة لنداء السلطان وامرت باخراج المسلمين واركابهم سفنا فرنسية من سواحلها الى حيث يرغبون من البلاد الاسلامية.

كذلك ناشَد السلطان احمد الاول دوج البندقية تقديم كل اعانة لهؤلاء الموريسكيين كماطلب منه: «... فلا تسمحوا لاحد ان يتدخل في امورهم او يتعرض لهم ولارزاقهم واموالهم ودوابهم خلافا للعهد والامان (بيننا) وهذا اثناء مرورهم بالمنازل والمراحل والمعابر ليصلوها آمنين سالمين وقد سبق واتضح لنا حسن اهتمامكم وتيقنوا ان مساعدتكم لهؤلاء المساكين بدخولهم بلادنا التي هي دار الامان وسيلة لتحصيل رضانا الميمون وسبب لتحكيم بنيان المصالحة وتمديد المعاهدة فاهتموا واسعوا، بناء على هذا ان يمروا ويعبروا راضين عن حالهم مرفهي البال»[1]. تحريرا في شهر جمادى الاولى سنة ١٠٢٣ هـ/ الموافق ما بين ١٩، ٢٩ يونيو ١٦١٤.

نتبين من خلال ذلك مدى الاهتمام البالغ الذي اظهرته الدولة العثمانية لقضية الموريسكيين مع الحكومات الاوروبية حتى يبدو وكأن قضية الموريسكيين قد غطت على الهدف الاسمى الذي شغل الدولة في القرن السابق، وسبق لنا ان وضحنا اهتمام الدولة والسلاطين العثمانيين في محاولات

(١) عبد الجليل التميمي: رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريكسيين، المجلة التاريخية المغربية العدد ٧، ٨، ص ٩ - ١٤.

عديدة لاسترداد الاندلس وكادت تلك المحاولات ان تأتي بثمارها لولا الظروف التي تعرضت لها والعوائق التي اوضحناها.

اتضح جليا ان أمل اوروبا عامة واسبانيا خاصة في سقوط الدولة العثمانية مبالغ فيه، وأفاد تاريخ الدولة العثمانية بان العثمانيين امتازوا بنشاط خاص وعبقرية فذة مكنتهم اكثر من مرة وقف مراحل السقوط وظهرت من اوائل القرن الحادي عشر الهجري/ القرن السابع عشر الميلادي علامات استعادة الزحف العثماني وتجدده ففي سنوات لاحقة اتسعت الحدود العثمانية في اوروبا بشكل يزيد عن الماضي واستطاع العثمانيون حصار فيينا للمرة الثانية(١)، مما جعل المؤرخين يتساءلون عن سر تلك القوة الكامنة والتي لم تتوفر لدى الامبراطوريات الاخرى؟ فهي تتعرض للسقوط عدة مرات على مدار الاربعة قرون لكن تأتي قوة خفية تنقذها من ذلك السقوط ويتجدد نشاط الدولة، ولم يجد هؤلاء المؤرخين جوابا على ذلك التساؤل ولكننا نجيب على ذلك التساؤل بأنه الاسلام والروح الجهادية وطبيعة الدولة منذ نشأتها.

وكما طال عمر الدولة وطال عصرها الاول، عصر المجد والعظمة والفتح والجهاد فقد طال مسعى الدولة سعيا صادقا دؤوبا وراء تحقيق استرداد الاندلس، بيد ان اتساع الدولة وامتداد اطرافها وانشغالها في اكثر من ميدان، وظهور العوائق ونموها، وخاصة خروج الاوروبيين إلى المحيط الهندي والعالم الجديد وانتقال التوازن الدولي من البر الى البحر، وما اعقب ذلك من تطورات خطيرة في الميدان الشرقي، كل ذلك اعاق استرداد الاندلس على ايدي العثمانيين.

(١) Paul Coles : the Ottoman Impact on Europe Pr Pr 159 — 160r

الملاحق

ملحق رقم (١)

(المصادر والمراجع)

وثيقة عربية:

١ ـ رسالة اهل الجزيرة بعد استيلاء اهل الكفر على جميعها الى السلطان بايزيد، المكتبة الوطنية بالجزائر ـ رقم ١٦٢٠ .

٢ ـ زين الدين المليباري: تحفة المجاهدين.

عايش المؤلف الكثير من الاحداث التي ذكرها، ومع صغر المخطوطة اذ لا تزيد عن سبع وأربعين ورقة، الا أنها مفيدة جدا في التعرف على مجيء، البرتغاليين الى السواحل الهندية ونشاطاتهم واعمال القرصنة البحرية التي كانوا يقومون بها ويركز المؤلف على كفاح حكام كالي كوت، ضد الهيمنة البرتغالية كما تتضمن الرسالة الاخبار المتعلقة بالبرتغاليين منذ مجيئهم الى كالي كوت في مطلع العصر الحديث وحتى سنة ٩٨٦ هـ/١٥٧٨ م.

المخطوط محفوظ ضمن مجموعة في مكتبة جامعة برستن بمدينة يوجرسي الامريكية تحت رقم ٣٩٢٠، وتوجد نسخة مصورة على ميكروفلم، في المكتبة التابعة لمركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي في كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة ام القرى، بمكة المكرمة تحت رقم ٥٧٥ (تاريخ وتراجم).

٣ ـ عبد القادر ابن عمر بن محمد: سيرة خير الدين باشا.

يقع المخطوط في ٧٣ ورقة ومحفوظ بالمتحف البريطاني قسم الدراسات الشرقية تحت رقم ٣٢٧٠.

٤ ـ الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف افريقيا.

الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط، الطبعة الاولى ١٩٨٢ م.

الكتاب عبارة عن رحلة قام بها المؤلف، تحدث في القسم الرابع عن مملكة

تلمسان، والخامس عن مملكة بجاية وتونس.
٥ ـ شهاب الدين احمد المقري: ازدهار الرياض في اخبار عياض الرباط، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.
يقع الكتاب في خمسة اجزاء، تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي.
٦ ـ شهاب الدين احمد بن محمد المقري: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ـ دار صادر ـ بيروت، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.
الكتاب يقع في ثمانية اجزاء، تحقيق احسان عباس. ينقسم الكتاب الى قسمين، قسم خاص بالاندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين الخطيب وما يتعلق به من شؤون.
٧ ـ محمد بن أحمد بن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ـ مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠ م
٨ ـ قطب الدين محمد بن احمد النهروالي المكي: البرق اليماني في الفتح العثماني ـ دار اليمامة، الرياض، الطبعة الاولى ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.
يتحدث الكتاب عن تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري، مع التوسع في اخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر.
٩ ـ يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي: غاية الاماني في اخبار القطر اليماني. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.
تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، يقع الكتاب في جزأين، وهو عبارة عن حوليات لأخبار اليمن.
١٠ ـ مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية. الرباط، ١٩٣٤ م.

* * *

المراجع العربية:

١١ ـ ابراهيم شحاتة حسن: اطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠ ـ ١٩٤٧ م).
منشأة المعارف، الاسكندرية، الطبعة الاولى، ١٩٨٠ م،
الفصل الثاني: الامبراطورية العثمانية ومراحل الغزو والتوسع في تاريخها.
الفصل الخامس: ايالة الجزائر والعلاقات بينها وبين المغرب.
١٢ ـ ابو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الهجري الى

الرابع عشر الهجري (١٦ ـ ٢٠ م). الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجائر، الطبعة الاولى، ١٩٨١ م. جـزئين الجزء الأول، الفصـل الثاني، تحـدث عن العلاقات بين الجزائريين والعثمانيين. .

١٣ ـ أجيـه يونـان جرجس: البحـر الأحمر ومضـايقـه بين الحق الغـربي والصـراع العالمي. مكتبة غـريب، القاهـرة، تحدثت المؤلفـة عن اهمية البحـر الاحمر خـلال العصور التـاريخية، ثم التنـافس الدولي للسيـطرة على مداخـل البحـر الاحمر.

١٤ ـ احمد توفيق مدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبـانيا ١٤٩٢ ـ ١٧٩٢ م. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الـطبعة الثـانية، ١٩٨٤ م. ويـوضح الكتاب الغزو الصليبي الاستعماري الاسباني للجزائر، وما كان لـذلك الغـزو من اسبـاب ونتائـج وما اقتـرن به طيلة ثـلاثـة قـرون (١٤٩٢ ـ ١٧٩٢) م من ملابسات وتطورات.

١٥ ـ احمـد عبد الـرحيم مصطفى: في اصـول التاريـخ العثمـاني ، دار الشـروق، بيـروت ، الـطبعـة الأولى ، ١٤٠٢ هـ /١٩٨٢ م .
الفصـل الاول: اصـل الاتـراك العثمـانيين، الفصـل الـرابـع: نـظام الحكم العثماني، الفصل الخامس: مرحلة الانتقال بين الدولة بعد سليمان القانوني.

١٦ ـ اسمـاعيل سـرهنك: حقـائق الاخبار عن دول البحـار. المـطبعـة الاميـريـة، ببولاق، مصر، الطبعة الاولى، ١٣١٢ هـ.
المؤلف كان ناظر المدارس الحربية، يقع الكتاب في جـزء أول وجزء ثـان، الجزء الاول أربعة عشر بابا ـ ابتداء بـذكر المـلاحة في الأزمـة القديمـة حتى وصل لتاريخ الدولة العثمانية من تأسيسها حتى سقوطهـا. ثم كتب عن الادارة البحرية.

١٧ ـ بـدر الدين عبـاس الخصوصي: دراسـات في تاريـخ الخليج العـربي الحديث والمعاصر. مكتبة الرأي العام التجارية، الكويت، الطبعة الاولى، ١٩٧٨ م.
الجزء الأول: الفترة الزمنية الممتدة ما بين مطلع القرن السادس عشر وبـداية القرن التاسع عشر.

١٨ ـ بسـام العسيلي: الجـزائـر والحمـلات الصليبيـة (١٥٤٧ ـ ١٧٩١ م). دار النفائس، بيروت، لبنان، الطبعة الثانيـة، ١٩٨٣ م. الفصل الاول: الجـزائر المجاهدة، الموقف على الجبهة الاسلامية في المشرق معركة ليبانتي ١٥٧١، الجهاد على الجبهة الاوروبية.

١٩ ـ جلال يحيى: العالم العربي الحديث ـ دار المعارف بمصر، ١٩٧٤ م. الباب الأول: امتداد الحكم العثماني، تحول الطرق والتجارة، الغزو العثماني في الشرق الادنى، الدولة العثمانية والمغرب العربي.
٢٠ ـ جلال يحيى: المغرب الكبير، العصور الحديثة، وهجوم الاستعمار الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ط ١٩٦٦ م. الجزء الثالث: الفصل الثالث: الدولة السعدية ومشكلات المغرب الاقصى، الفصل الرابع٠ تركز الاوضاع واستمرار الجهاد البحري.
٢١ ـ جلال يحيى، جاد طه: معالم التاريخ الاوروبي الحديث ـ منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٧٣ م.
الكتاب عبارة عن دراسة لتطور الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في القارة الاوروبية وعلاقاتها مع العالم.
٢٢ ـ حسن سليمان محمود: ليبيا بين الماضي والحاضر ـ مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٢ م. الباب الثالث: ليبيا في العصور الحديثة (٩٥٨ هـ/ ١٣٨٠ م) (١٥٥١ ـ ١٩٦١ م).
٢٣ ـ حسين مؤنس: الشرق الاسلامي في العصر الحديث ـ لجنة الجامعيين لنشر العلم، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢ م. القسم الأول: مقدمات العصر الحديث، الاتراك يعيدون وحدة الاسلام. نهضة اوروبا وانتقال الصراع الى البحر، حركة الكشف الجغرافي.
٢٤ ـ السيد رجب حراز: ارتريا الحديثة (١٥٥٧ ـ ١٥٤١). معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٤ م. يتكون الكتاب من ستة فصول في الفصل الثاني تحدث عن ارتيريا تحت الحكم العثماني.
٢٥ ـ زاهر رياض: الاسلام في اثيوبيا في العصور الوسطى، دار المعرفة، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٦٤ م.
٢٦ ـ سليم طه التكريتي: المقاومة العربية ي الخليج العربي دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢ م. الفصل الثالث: عرب الخليج يقاومون الغزو البرتغالي.
٢٧ ـ شوقي عطاالله الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب). مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٧٧ م. الباب الأول: اتجاه المطامع الاجنبية الى المغرب العربي. الباب الثاني: المغرب الاقصى منذ بداية القرن السادس عشر.
٢٨ ـ الأمير شكيب ارسلان: خلاصة تاريخ الاندلس ـ دار مكتبة الحياة، بيروت

١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م. الفصل السادس: في سقوط غرناطة، الفصل السابع: حال مسلمي الاندلس فيما بعد ملكهم.

٢٩ ـ صلاح العقاد: المغرب العربي (الجزائر ـ تونس ـ المغرب الاقصى). مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة الطبعة الثالثة؛ ١٩٦٩ م. القسم الأول: المغرب في العصر الحديث احوال المغرب قبيل القرن السادس عشر.

٣٠ ـ عادل سعيد بشتاوي: الاندلسيون المواركة. طبع بمطابع انترناشيونال، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٨٣ م. الكتاب عبارة عن دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة.

٣١ ـ عبدالله كنون: النبوغ المغربي في الادب العربي ـ دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦١ م. يقع الكتاب في ثلاثة اجزاء، الجزء الأول: تحدث عن الحالة السياسية في المغرب، كما تحدث عن الحالة عند السعديين.

٣٢ ـ عبد الحميد البطريق: تاريخ اوروبا احديث من عصر النهضة الى مؤتمر فيينا. مطابع جامعة الرياض ـ الرياض. الفصل الثالث: التوسع الاوروبي وحركة الكشوف الجغرافية، ثم تحدث عن الصراع الديني في اوروبا.

٣٣ ـ عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة ـ دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ/١٩٨١ م. الفصل الثامن: مملكة غرناطة، حالة اسبانيا النصرانية، الصراع بين غرناطة وسلطات اسبانيا النصرانية، محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش.

٣٤ ـ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠ م. الجزء الثالث: الدولة الجزائرية التركية العثمانية.

٣٥ ـ عبد العزيز محمد الشناوي: اوروبا في مطلع العصور الحديثة مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٥ م. ـ يتناول هذا الكتاب ـ في جزأين لاول والثاني ـ تاريخ اوروبا منذ عصر النهضة حتى ابرام معاهدة وستناليا ١٦٤٨ م.

٣٦ ـ عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ـ مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠ م. يقع الكتاب في ثلاثة اجزاء، تحدث عن الدولة العثمانية، ونشأتها وحملات التشهير بهائم تحدث عن الخصائص العامة لها، وعن سياستها العليا.

٣٧ ـ عبد القادر احمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ـ المكتبة العصرية، صيدا لبنان، ط ١٩٦٩ م. الفصل الحادي عشر: تصارع القوى في العالم الاسلامي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.
٣٨ ـ عبد الكريم كريم: المغرب في عهد الدولة السعدية ـ شركة الطبع والنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٧ م. الفصل التاسع: التقارب السعدي البرتغالي ـ الاسباني.
٣٩ ـ علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية ـ المكتب الاسلامي، دمشق، الطبعة الاولى، ١٤٠٠ هـ//١٩٨٠ م. تحدث الكتاب عن نشأة الدولة العثمانية وفتوحاتها وعن السلطان محمد الفاتح كما تحدث عن الدولة في اوج قوتها، وعن عوامل الضعف والانحطاط وعن الدولة خلال تلك المرحلة.
٤٠ ـ علي حسون: العثمانيون والروس ـ المكتب الاسلامي، دمشق، الطبعة الاولى، ١٩٨٢ م. ثمانية ابواب اولاهما عن نشأة العثمانيون والروس حتى فتح القسطنطينية الباب الثالث على مصادر العداء العثماني الروسي.
٤١ ـ عمر عبد العزيز عمر: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠ م. القسم الأول: تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧ ـ ١٩٥٢).
٤٢ ـ فاروق عثمان اباظة: عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨ م. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦ م. المقدمة: الملامح العامة المميزة لمنطقة البحر الاحمر ولميناء عدن الهام الفصل الاول: الاوضاع القائمة في منطقة البحر الاحمر قبيل احتلال بريطانيا لعدن في سنة ١٨٣٩ م.
٤٣ ـ فائق بكر صواف: العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز في القرن ما بين ١٢٩٣ ـ ١٣٣٢ هـ/١٨٧٦ ـ ١٩١٦ م. مطبعة سجل العرب، القاهرة، ١٣٧٨ م. الفصل الثالث: امتيازات ولاية الحجاز.
٤٤ ـ قدري قلعجي: الخليج العربي ـ دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٥ م.
٤٥ ـ محمد انيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤ ـ ١٥١٤ م). مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة. تحدث عن بناء الدولة العثمانية في اوروبا، كما تحدث عن الفتوحات العثمانية في الشرق العربي.
٤٦ ـ محمد بيروم الخامس التونسي: صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار دار

صادر ـ بيروت. ٤ اجزاء، الجزء الأول: مراكش، الجزء الرابع: مملكة مراكش.
٤٧ ـ محمد بن تاويت: تاريخ سبتة، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، ١٩٨٢ م. تحدث عن تاريخ سبتة من الفتح الاسلامي لسبتة سنة ٨٩ هـ، الباب السابع: سبتة في عهد الاحتلال البغيض.
٤٨ ـ محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني ـ اسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها ـ شركة فرج الله للمطبوعات، بيروت، ١٩٥٤ م. الفصل الثالث: القوى الحربية «القوى البرية، القوى البحرية».
٤٩ ـ محمد حجي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، ١٩٧٦ م. يقع الكتاب في جزأين.
٥٠ ـ محمد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي مكتبة دار الشروق، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٧٩ م. الفصل الاول: التدخل الاجنبي في شمال افريقية، التدخل الاسباني، التدخل العثماني. الفصل الثاني: الجزائر العثمانية.
٥١ ـ محمد بن الشريف ابي عبدالله السيد محمد السليماني: اللسان المعرب عن تهافت الاجنبي حول المغرب. مطبعة الامنية، الرباط، الطبعة الاولى، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م.
٥٢ ـ محمد عبده حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الاندلس في عهد الملكيين الكاثوليكيين (١٤٧٤ ـ ١٥١٦ م). شركة المطابع النموذجية، عمان، الاردن، الطبعة الاولى، ١٩٨٠ م.
٥٣ ـ محمد عبده حتاملة: التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد فيليب الثاني (١٥٢٧ ـ ١٥٩٨ م). عمان، الاردن، الطبعة الاولى، ١٩٨٢ م.
٥٤ ـ محمد بن عبد السلام بن عبود: تاريخ المغرب دار الطباعة المغربية، تطوان، الطبعة الثانية، ١٩٥٧ م، جزأين: الجزء الثاني: عصر السعديين حتى انتهاء عصر الحماية.
٥٥ ـ محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ م). دار التراث، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٧٨ م. الفصل الاول: الدولة العثمانية قبل حركة الاصلاح.
٥٦ ـ محمد عبد اللطيف البحراوي: فتح العثمانيون عدن وانتقال التوازن الدولي من البر الى البحر. دار التراث، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٧٩ م. مقدمة

وسبعة فصول وتحليل ونتائج، الفصل الخامس: الاسباب التي حملت العثمانيين على فتح عدن.
٥٧ ـ محمد العمروسي المطوي ـ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ـ دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢ م. الفصل الرابع عشر: الصراع على المغرب بين الاسبان والعثمانيين.
٥٨ ـ محمد عبد المنعم السيد الراقد: الغزو العثماني لمصر ونتائجه على العالم العربي. مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م.
الفصل الثاني: أسباب الغزو ـ الاتجاه نحو اوروبا، الاتاه نحو المشرق.
الفصل الرابع: نتائج الغزو العثماني ـ سيطرة العثمانيين على شمال افريقيا.
٥٩ ـ محمد الغربي: بداية الحكم المغربي من السودان الغربي ـ الدار الوطنية للتوزيع والنشر غداد ١٩٨٢ م.
٦٠ ـ محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ م. تحقيق الدكتور احسان حقي، يتطرق الكتاب الى تاريخ الدولة العثمانية بالتسلسل الزمني لكل سلطان حتى ينتهي بآخر السلاطين.
٦١ ـ محمد قشتيلو: محنة الموريسكوس في اسبانيا مطبعة الشويخ، تطوان، ١٩٨٠ م. سقوط غرناطة آخر دولة اسلامية بشبه الجزيرة الايبرية، كارلوس الاول ـ فيليب الثاني ـ حرب البوشارات واسبابها.
٦٢ ـ محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ـ دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٦ م. بدأ المؤلف بالحديث عن توسع الدولة العثمانية ١٢٣٢ هـ/١٥١٢ م وانتهى بالحديث عن البلقان والحرب العالمية الثانية ١٩٣٨ ـ ١٩٤١ م.
٦٣ ـ محمد مرسي ابو الليل: الهند، تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ـ مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٥ م. يقع الكتاب في اربعة ابواب، الفصل الاول من الباب الثاني تحدث عن الهند في عصر الاستعمار.
٦٣ ـ محمد عبدالله عنان: نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين. مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م.
٦٤ ـ محمد مظفر الادهمي: دراسات في التاريخ الاوروبي الحديث عصر النهضة ـ الثورة الفرنسية ـ مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الاولى، ١٩٨٤ م.
٦٦ ـ محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ـ الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٤ م. يبدأ الكتاب بالدولة

الحفصية الموحدية بتونس، وينتهي بعصر الاحتلال الفرنسي.
٦٧ - مديحة احمد درويش: سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. دار الشروق للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الاولى. الفصل الاول: عمان قبل القرن الثامن عشر.
٦٨ - نبيل عبد الحي رضوان: الدولة العثمانية غربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس، (١٢٨٦ - ١٣٢٦ هـ/١٨٦٩ - ١٩٠٨ م). رسالة ماجستير - تهامة، جدة، الطبعة الاولى، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.
٦٩ - نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (اواخر العصور الوسطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣ م. الفصل الاول: نظرة سياسية عامة في اصول دول البحر المتوسط من سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م الى دخول العثمانيين بمصر ١٥١٧ م. الخاتمة: كشف طريق رأس الرجاء الصالح ونهاية دولة سلاطين المماليك.
٧٠ - نوال حمزة صيرفي: النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. بحث نالت به درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي - دارة الملك عبد العزيز، الرياض، الطبعة الاولى، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ م.

* * *

المراجع الأجنبية المترجمة:

٧٠ - اتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ م - تعريب وتقديم خليفة محمد التليسي. دار الثقافة، بيرون، الطبعة الاولى، ١٩٧٤ م. القسم الثاني: الفصل الاول: سيطرة الاسبان وفرسان مالطا على طرابلس. الفصل الثاني: الحكم العثماني.
٧٢ - ارجمنت كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ترجمة: د. عبد الجليل التميمي. منشورات الجامعة التونسية، تونس، ١٩٧٠ م. قدم هذا العمل في سنة ١٩٥٣ م الى كلية الاداب بجامعة استانبول كرسالة دكتوراه.
٧٣ - ارنولدت. ويلسون: الخليج العربي - مجمل تاريخي من أقدم الأزمنة في اوائل القرن العشرين. ترجمة د. عبد القادر يوسف. مكتبة الأمل، الكويت،

السالمية.

٧٤ ـ باذل دافدسن: افريقيا تحت اضواء جديدة. ترجمة جمال. م. احمد. دار الثقافة، بيروت، لبنان. الفصل السادس: تجار المحيط الهندي.

٧٥ ـ ب. ح. روجرز: تاريخ العلاقات الانجليزية ـ المغربية حتى عام ١٩٠٠ م ترجمة ودراسة وتعليق: د. يونان لبيب رزق. دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الاولى، ١٩٨١ م. يتكون الكتاب من تسعة فصول. الفصل الثاني: التجارة والسياسة على عهد اليزابيث.

٧٦ ـ جون رايت: تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ـ ترجمة عبد الحفيظ الميار، واحمد البازوري. دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، الطبعة الاولى، ١٩٧٢ م. تحدث عن الاتراك والقرة منليون.

٧٧ ـ سبنسر ترمنجهام: الاسلام في شرق افريقيا ـ ترجمة وتعليق: محمد عاطف النواوي. مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الاولى، ١٩٧٣ م. القسم الأول: ذكر الاستعمار البرتغالي لشرق افريقيا.

٧٨ ـ ستيفن هملسن لونكريك: اربة قرون من تاريخ العراق الحديث ترجمة: جعفر الخياط ـ بغداد، الطبعة الخامسة. يقع الكتاب في اثني عشر فصلا، بدأ من الدخول التركي للعراق، وحتى اواخر القرن التاسع عشر.

٧٩ ـ شارل اندري جوليان: تاريخ افريقيا الشالية (تونس ـ الجزائر ـ المغرب الاقصى) من الفتح الاسلامي الى سنة ١٨٣٠ م. تعريب: محمد مزالي، البشير بن سلامة. الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٨ م. جزأين، الجزء الثاني، الباب السادس، الحروب الصليبية الاسبانية والأخوة عروج وخير الدين وتأسيس الايالة الجزائرية.

٨٠ ـ عزيز سامح: الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية. ترجمة: عبد السلام ادهم عن اللغة التركية. دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٦٩ م. جزأين، الجزء الأول مختصر تاريخ طرابلس الغرب، حتى دخلت في حوزة الاتراك.

٨١ ـ عبد الرحمن تشانجي: المسألة التونسية والسياسة العثمانية (١٨٨١ ـ ١٩١٣ م). ترجمة د. عبد الجليل التميمي ـ دار الكتب الشرقية، تونس، الطبعة الاولى، ١٩٧٣ م.

٨٢ ـ لوثروب ستوادرد: حاضر العالم الاسلامي. ترجمة عجاج تويهض. مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٢ هـ. ٤ أجزاء، فيه فصول وتعليقات

وحواشي مستفيضة عن دقائق احوال الامم الاسلامية بقلم الأمير شكيب ارسلان.
٨٣ ـ د. لوي كارداياك: الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ـ المجابهة الجدلية (١٤٩٢ ـ ١٦٤٠ م) مع ملحق بدراسة عن الموريسكيون بامريكا. تعرب تقديم: د. عبد الجليل التميمي ـ المجلة التاريخية المغربية، تونس، الطبعة الاولى، ١٩٨٣ م. الفصل الثاني: الموريسكيون ودواوين محاكم التفتيش.
٨٤ ـ ك. م. بانيكار: آسيا والسيطرة الغربية. ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢ م. ستة اقسام، القسم الأول: عصر التوسع ١٤٩٨ ـ ١٧٥٠ م.

* * *

رسائل علمية:

٨٥ ـ عمر بابكور: حزام الأمن حول الحرمين الشريفين. رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير من جامعة ام القرى، لم تنشر.
٨٦ ـ غسان علي رمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر ـ رسالة ماجستير مقدمة لكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة عام ١٤٠٠ هـ/١٤٠١ هـ.
٨٧ ـ نصير احمد نور احمد: عصر اكبر سلطان الدولة المغلية الاسلامية في الهند ـ رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي الحديث، قدمت لكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة أم القرى ـ عام ١٩٨٤ م.
٨٨ ـ هشام محمد علي عجيمي: قلعة المويلح، دراسات معمارية حضارية ـ رسالة ماجستير من كلية الشريعة بجامعة ام القرى

* * *

الدوريات والمجلات العلمية:

٨٩ ـ اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب وحضارته ـ سلسلة الدراسات التاريخية؛ ١٩٧٩ م، تونس.

٩٠ ـ مجلة اوراق، مجلة ثقافية يصدرها المعهد الاسباني العربي للثقافة العدد الثالث، ١٩٨٠ م.
٩١ ـ المجلة التاريخية المغربية، تونس الاعداد الثاني والثالث، والسادس والسابع والثامن والثاني عشر.
٩٢ ـ مجلة الدارة، العدد الثاني السنة ١١.
٩٣ ـ مجلة كلية الاداب بفاس، العدد الثاني والثالث.

* * *

الوثائق التركية:

٩٤ ـ مهمة دفتري رقم ٩ صفحة ٧٧ رقم ٢٠٤ بتاريخ ٢٣ شوال ١٩٧٧. ارشيف رئاسة الوزراء.
٩٥ ـ مهمة دفتري رقم ٩ صفحة ٧٩ رقم ٢٣١ بتاريخ ٢٤ شوال ٩٧٧ هـ ارشيف رئاسة الوزراء.
٩٦ ـ مهمة دفتري رقم ١٤ صفحة ١٩٩ رقم ٢٨٣ بتاريخ ٣ صفر ٩٧٩ هـ ارشيف رئاسة الوزراء.
٩٧ ـ مهمة دفتري رقم ١٤ صفحة ٢٠٠ رقم ٢٨٤ بتاريخ ٣ صفر ٩٧٩ هـ ارشيف رئاسة الوزراء.

* * *

المخطوطات التركية:

٩٨ ـ احمد جواد موليي: الزهرة النيرة في بيان ما جرى حين اغارت على الجزائر اجناس الكفرة. يقع المخطوط في ٥٢ ورقة. ذكر خلالها هجمات الاسبان على الجزائر وعددها ثمان هجمات. مخطوط محفوظ بالمتحف البريطاني. قسم الدراسات الشرقية ويحمل رقم (. . . . . . .).
٩٩ ـ محمد أمين: فتوحات خير الدين باشا. يقع المخطوط في ٢٧٩ ورقة ومحفوظ بالمتحف البريطاني، قسم الدراسات الشرقية ويحمل رقم ٢٧٩٨

المصادر الأجنبية:

100 — Les Sources inedites de L'Histoire du Maroc
Archives et Bibliotheques D'Espagne
T. 1 Par. H. De Casterie — Paris et Madrid 1921.
T. 2 Par. Robert Ricord et Chantal de la Veronne — Paris. 1956
Archives et Bibliotheques de Portugal
T. 2 Second Partie. Par, Pierre de Cenival, David Lopes et Robert Ricord, Paris 1946.
T. 3 Par. Robert Ricord, Paris 1948

المجموعة الكبرى للوثائق المغربية. المطبوعة تحت عنوان: المصادر الاصلية لتاريخ المغرب

Les Sources Inedites de L'Histoire du Maroc وبيان هذه المجموعة كلها كالآتي:

١ ـ محفوظات ومكتبات البرتغال: Archives et Bibliotheques de Portugal

المجلد الأول ـ باريس ١٩٣٤ ـ من سنة ١٤٨٦ ـ ١٥١٦

المجلد الثاني ـ أ ـ باريس ١٩٣٩ من سنة ١٥١٦ ـ ١٥٢٦

المجلد الثاني ـ ب ـ باريس ١٩٤٩ من سنة ١٥٢٧ ـ ١٥٣٤

المجلد الثالث ـ باريس ١٩٤٨ من سنة ١٥٣٥ ـ ١٥٤١

المجلد الرابع ـ باريس ١٩٥١ من سنة ١٥٤٢ ـ ١٥٥٠

المجلد الخامس ـ باريس ١٩٥٣ من سنة ١٥٥٢ ـ ١٥٨٠

٢ ـ محفوظات ومكتبات اسبانيا: Archives et Bibliotheque de L'Espagne

المجلد الأول ـ باريس ـ مدريد ١٩٢١ من سنة ١٥٣١ ـ ١٥٥٢

المجلد الثاني ـ باريس ١٩٥٦ من سنة ١٥٥١ ـ ١٥٦٠

المجلد الثالث ـ باريس ١٩٦١ من سنة ١٥٦٠ ـ ١٥٧٨

٣ ـ **محفوظات ومكتبات فرنسا : Archives et Bibliotheque France**

المجلد الأول ـ باريس ١٩٠٥ من سنة ١٥٣٣ ـ ١٥٧٨

المجلد الثاني ـ باريس ١٩٠٩ من سنة ١٥٧٨ ـ ١٦١٤

المجلد الثالث ـ باريس ١٩١١ من سنة ١٦١٧ ـ ١٦٦٥

٤ ـ **محفوظات ومكتبات انجلترا : Archives et Bibliotheque Angletere**

المجلد الأول ـ باريس ـ لندن ١٩١٨ من سنة ١٥٤٠ ـ ١٥٨٩

المجلد الثاني ـ باريس ١٩٢٥ من سنة ١٥٩٠ ـ ١٦٢٥

المجد الثالث ـ باريس ١٩٣٦ من سنة ١٦٢٦ ـ ١٦٦٠

٥ ـ **محفوظات ومكتبات البلاد المنخفضة : Archives et Bibliotheque Pays Bas**

المجلد الأول ـ باريس ١٩٠٦ من سنة ١٥٧٨ ـ ١٦١١

المجلد الثاني ـ باريس لاهاي ١٩٠٧ من سنة ١٦١٢ ـ ١٦١٦

المجلد الثالث ـ باريس لاهاي ١٩١٢ من سنة ١٦١٧ ـ ١٦٢٣

المجلد الرابع ـ باريس لاهاي ١٩١٣ من سنة ١٦٢٤ ـ ١٦٤١

المجلد الخامس ـ باريس لاهاي ١٩٢٠ من سنة ١٦٤٢ ـ ١٦٥٤

المجلد السادس ـ باريس لاهاي ١٩٢٣ من سنة ١٦٥٥ ـ ١٦٦٠

❊ ❊ ❊

المراجع الأجنبية :

101 — A. J. Grant: A history of Europe from 1494 to 1610. Methuen and Coltd. London.

102 — Dan O'Sullivan: The Age of Discovery 1400 - 1550. Longman. Lonson and New York.

103 — George Clark: Early Modern Europe From about 1450 to about 1720. Oxford University Press. London. 1966.

104 — Halil Inalcik: The Ottoman Empire. The classical Age 1300 - 1600. Weidnfeld and Nicolson. London

105 — H. V. Livermone: A New History of Portugal. Combridge University Press. London. New York. Melbourne

106 — H. G. Kœniqsberger and George. L. Mosse. Europe in The Sixteenth Century. Longman. London. New York.

107 — James Anthony Froude: English Seaman in the sixteenth century Longman, Grean. and CO. Bombay and Calcutta. 1912.

108 — J. H. Elliott: Imperial Spain 1469 — 1716. Edward Arnold. London. 1981.

109 — J. M. Gomez Tabanera: A Concise History of Spain Madrid, 1966.

110 — Jhon Lynch: Spain ynder the Habsburgs. Basil Blackweel. Oxford.

111 — J. M. Thompson: Lectures on Foreign History. Basil Blacweel. Exford 1965.

112 — M. A. Cook: A History of the Ottoman Empire to 1730. Combridge Undversity Press. London. New York.

113 — Paul Coles: The Ottoman Empact on Europe. Thames and Hudson. London. 1968.

114 — Roger Lockyer: Habsburg and Bourbon Europe 1470 - 1720. Longman. London. New York. 1982.

115 — Stanford Show: History of the Ottman Empire and Modern Turkey. Cambridge Universit Press. London. New York. Melbourne.

116 — S. B. Miles: The Countries and Tribes of the Persian Gulf Frank Cass and Co. LTD London. 1966.

ملحق رقم (٢)

(وثائق مختارة)

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

Tasnifin cinsi	Hariciye (?) / ic
Numarası	17

مهمة دفتري رقم ٩ صفحة ٧٧ حكم رقم ٢٠٤ بتاريخ ٢٣ شوال ٩٧٧ هـ (١٩ مارس ١٥٥٩ م) ٢٣ برهماد ١٢٨٥

اعطى الى خليل جاوش الجزائر في ١٠ ذي القعدة ٩٧٧ هـ

حكم الى علي باشا امير امراء جزائر الغرب.

وصل الى بابنا المعلا خطابك الذي علمنا من خلاله بأن الامان يعم ولايتك وان الرعايا والبرايا في احسن حال وعلى ما يرام وانك قمت بتعمير الاماكن الواجب ترميمها وان طائفة لرطران قد حشدت حشودها وقامت بالاغارة ونهب الاجزاء المجاورة لها من اسبانيا وتمكنت من ضم تلك الأجزاء وان الهلع قد حل بالكفار اصابهم الدمار منذ بدأ اهل الاسلام في الاندلس برفع هاماتهم وتمكنهم من صد هجماتهم والانتصار عليهم بارسال العتاد والرجال وعلمنا بان الاغارة على ولايات الكفار اصابهم الدمار غير منقطعة.

وقد عرض بالتفصيل على سرير دولتنا كل ما ذكرته واحاط علمي الشريف وشمل كل ذلك ولقد كان بنيتي ارسال اطولي الهمايوني لتلك الاطراف ولاعانة ومظاهرة اهل الاسلام لكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالكي المحروسة نقضوا العهد وبدأوا بالتعدي على التجار واهل الاسلام والمسافرين بحرا قصادين طواف بيت الله الحرام وزيارة تربة حضرة سيد الانام عليه افضل الصلاة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية وبذلك فانهم مصرون على العصيان والطغيان لذا فبعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوسل والاستناد الى المعجزات الكثيرة البركات لفخر الموجودات صلوات الله عليه وسلامه وكذلك بالاستمدادات بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم (وسلامه) اجمعين، فقد استقرت نيتي الملوكية على فتح وتسخير الجزيرة المزبورة في الربيع الاخر القادم ونضرع الى عتبة الحق جل وعلا أن ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وان نبسط ايدينا عليها حتى تأهل بأهل الاسلام كما كانت عليه وكي تقام فيها شعائر الشرع الشريف وحتى يأمن الزوار والتجار ويسلمون في غدوهم ورواحهم وينصرفون للدعاء بدوام وثبات ومجد ورفعة الدولة.

وبما اوتيت من قوة أسواء كان ذلك بارسال الجند او بارسال العتاد أمرت: عليك بالتنفيذ بما جا في هذا الحكم حال وصوله وان تعاون وتظاهر اهل الاسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وان الغفلة عن الكفار اصابهم الدمار غير

جائزة فلتكن على بصيرة من الامر ولتظهر انواع اقدامك واصناف اهتمامك في سبيل الامور المتعلقة بالـدين المبين ودولتي الابدية الكروانية ولا تتوانى في اعلامنا باحوال واوضاع تلك الديار.

تعريب محمد داوود التميمي

[illegible]

مهمة دفتري رقم ١٤ حكم رقم ٢٣١ بتاريخ ٢٤ شوال ٩٧٧ هـ/ ٢٠ مارس ١٥٦٩ م

اعطى الى خليل جاوش في ١٠ ذي القعدة

حكم الى اهالي الاندلس

وصل الى آستانة سعادتنا عرض حالكم الذي جاء فيه ان الكفار اصابهم الدمار وجعل الضلالة لهم شعار قد سلبوكم اسلحتكم ومنعوكم من تحدث العربية وأنهم يتعرضون لنسائكم ويمارسون كل انواع الظلم والتعدي عليكم وتعلمون انه يوجد حاليا لديكم ٢٠ الف رجل مسلح كما ان هناك ١٠٠ الف رجل قادر على حمل السلاح وعلمنا باستلامكم مقدارا من السلاح من الجزائر وان ذلك قد ربط على قلوبكم وتمكنتم بذلك من تكبيد الكفار العديد من الخسائر فالحمد لله على نصر اهل الاسلام ويكتب لهم الفوز الدائم على الكفار جعل الضلالة لهم ضعار.

وقد عرض بالتفصيل كل ما جاء في عرض حالكم من تحريرات وتقريرات على سرير سعادتنا واحاط علمي الشريف الملوكي وشمل كل ما يتعلق باحوالكم واخباركم وان، انظاري منصرفة دائما نحوكم ولكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالكي المحروسة والتي كانت على العهد والامان منذ زمان اجدادي العظام انار الله براهينهم الا انهم نقضوا تلك العهود واخذوا بالتعدي على التجار واهل الاسلام والمسافرين بحرا لطواف بيت الله الحرام وزيارة تربة حضرة سيد الانام عليه افضل الصلاة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية وبذلك فانهم مصرون على العصيان والطغيان لذا فبعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوصل والاسناد الى المعجزات الكثيرة البركات لفخر الوجودات صلوات الله عليه وسلامه وكذلك بالاستمداد بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام عليهم رضوان الله تعالى اجمعين فقد استقرت نيتي الملوكية على فتح وتسخير الجزيرة المزبورة في الربيع الأخير القادم ونضرع الى عتبة حضرة الحق جل وعلا ان ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وان يبسط ايدينا عليها حتى تأهل بأهل الاسلام وكما كانت عليه وكي تقام فيها شعائر الشرع الشريف وحتى يأمن التجار في غدوهم ورواحهم وينصرفوا للدعاء وثبات ومجد ورفعة الدولة وبما أن الوضع على هذا الحال فان ارسال الاسطول الهمايوني المظفر لحمايتكم سيتأخر ريثما يتم ايصال المراكب للعساكر المنصورة للجزيرة المزبورة وسيقم ذلك اثر انهاء الاسطول لمهمته بعناية

مهمة دفتري رقم ١٤ صفحة ٢٠٠ حكم رقم ٢٨٤ بتاريخ ٣ صفر ٩٧٩ هـ/٢٧ يونيو ١٥٧١ م حكم الى امير امراء جزائر الغرب

ارسل اعيان مندجل بخطاب الى سدة سعادتنا معربين فيه عن (ـــــــ) والان ينبغي ان نظل عينا ساهرة واذانا صاغية تجاه ذلك الجانب حيث ان معانتهم ومظاهرتهم بما يمكن تقديمه وحسبما يقتضيه الوضع اصبح امرا مهما لذا امرت:

حال وصوله (الحكم) عليك بالاهتمام بهذا الموضوع وفيما اذا اتحد الاسبانيون واتفقوا مع البندقانيين وتعسر انفصالك عن اسطولي الهمايوني فعليك بالتشاور بالامر مع وزيري بروتو باشا ادام الله تعالى اجلاله لبذل قدراتك في الخدمات اللازمة في كلا الحالتين وحسبماتقتضيه الظروف اما اذا لم يكن ثمة خطر من اسطول الكفار اصابهم الدمار وتوقعتم محاولات استيلاء الكفار والحاقهم الضرر بتلك الديار (الجزائر) فعليك بعد التشاور مع المشار اليه بالتوجه الى هناك بما في حوزتك من السفن اللوند وفيما اذا اقتضى الامر يمكنك اصطحاب قبوداني دام اقباله ايضا.

وعليك ببذل انواع سعيك واقدامك في سبيل دفع ورفع ضرر وفساد اعداء المسلمين وعليك ايضا القيام بما تقتضيه المصلحة بتمام البصيرة والانتباه اخذا بمشورة المومى اليه والمأمول منك هو بذل قدراتك واظهار جلادتك وشهامتك المتأصلة في ذاتك سواء كنت تؤدي خدماتك في اسطول الهمايوني او في العمل على دفع الاذى عن المسلمين في تلك الديار ولا تتوانى عن اعلامنا بأوضاع الجزائر وبما اقدمت عليه وعليك بتتبع افكار وتحركات الكفار وابعث لنا بكل ما يردك من الاخبار الموثوقة.

الحق وقد ارسل امري الهمايوني المؤكد الى امير امراء الجزائر الـذي تتجه انـظاره وافئدته نحوكم لارسال النجدة والمعونة لكم اما بارسال العساكر المظفرة او بارسال العدة والعتاد وبمـوجب امري الشـريف فان اميـر امراء الجـزائر سيكـون خير معين وظهير لكم.

كما انني نتوخى من خلال حميتكم الاسلامية المتأصلة في حلبتكم عـدمالتـراخي عن اظهار غيرتكم على الدين المتين فلتظهـروا انواع اقـدامكم واصناف اهتمـامكم في الحرب والقتال والجدال وضد الكفار الاذلاء والمأمول الا يضن علماء وصلحاء وسائر اهل الاسلام في تلك الـديار بـالدعـاء ليل نهـار بتيسير الفتح والنصر للغـزوة المظفرة ولا تتوانوا عن اعلامنا باستمرار عن احوال واوضاع تلك الديار.

تعريب محمد داوود التميمي

الفهرس